

**الاضاع الاقصادية والاجتماعية  
في المغرب الاوسط  
خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين  
( 9 - 10 م )**



ديوان المطبوعات الجامعية



© صيوان المطبوعات الجامعية 92 - 11

رقم النشر: 3102 · 07 · 4

## الاهداء

أهدي هذا الكتاب الى أمي وأبي  
والى زوجتي العزيزة.



### مقدمة

لاحظت أثناء قيامي بالبحث السابق — العلاقات الخارجية للدولة  
الرسمية — اهتمام المؤرخين: أوائلهم ومحدثهم بالتاريخ السياسي لبلاد المغرب  
الأوسط، واهتمامهم كل الاهتمام التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلاد، وكأنهم  
غفلوا أو تغافلوا عن أهمية العوامل الاقتصادية والاجتماعية ودورها الفعال في  
التاريخ السياسي، الذي يؤثر بدوره سلباً أو إيجاباً على الحياتين الاقتصادية  
والاجتماعية.

ولئن بدأت تظهر حديثاً الى الوجود بعض الأبحاث والدراسات الجادة في هذا  
المجال، هنا وهناك، خاصة في المشرق الاسلامي، إلا أن المغرب الأوسط ظلّ  
يعاني من نقص وفقر في مثل هذه الدراسات، حتى أنك لا تجد ولو بمحا واحدًا  
مخصّصاً لها.

وأمام هذا النقص المائل والفراغ الشاسع في المكتبة الاسلامية العربية فقد  
أخذت على عاتقي مهمة الشروع في وضع اللبنة الأولى لبناء صرح الدراسات  
الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط، وهكذا فإن هذا البحث الذي أضعمه



بين يدي القاريء الكريم يعتبر الأول من نوعه، ورائدًا بين أقرانه، وباكورة هذا النوع من الدراسات.

وإذا كان لهذا البحث شرف الريادة، إلا أنني لا أدعي له الكمال، ففيه نقائص بارزة للعيان واضحة، تعود في مجملها الى ندرة المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع، وإلى قلة الخبرة في الدراسات الاقتصادية والاجتماعية. وهكذا يظهر التركيز والاهتمام بتاهرت أكثر من سواها، بل أن هناك مدنا ومناطق قد أهملت تمامًا لأن المصادر لم تسعفني في الليلة الظلماء، كما كنت أملأ الفراغ الناجم عن أزمة المصادر أحيانًا بالاستعانة بمعلومات تتعلق بالبحر ان نظرًا لأن بلاد المغرب الاسلامي تمثل وحدة واحدة.

وأنبه القاريء الكريم الى أن هذا البحث يعتبر دراسة وصفية لأوضاع اقتصادية واجتماعية، وهو في هذا يختلف عن الدراسات الفلسفية التحليلية.

إلا أن هذه النقائص لا تقلل من أهمية هذا البحث، ويكفيه شرفًا أنه فاز بصفة الريادة في باب الدراسات الاقتصادية والاجتماعية المنحصصة، وأنه قد نبه الباحثين الى ضرورة مساهمتهم في سد الفراغ الذي تعاني منه المكتبة العربية الاسلامية في هذا المجال.

والله ولي التوفيق

## تمهيد

### الاطار الجغرافي:

تشمل بلاد المغرب الأوسط منطقة جغرافية، اختلف المؤرخون والرحالة في ضبط حدودها، خاصة الشرقية منها، فقد كان نهر الملوية يمثل الحد الطبيعي الغربي الذي يفصلها عن بلاد المغرب الأقصى، في حين يشير ابن خلدون الى حدودها الشرقية، فيذكر تارة أنها تبدأ من بونة باتجاه الجنوب الى الاربس فالأوراس فقبسة، ويذكر تارة أخرى أن المغرب الأوسط مجاوره من جهة المشرق ببلاد صنهاجة من الجزائر ومنتجة والمدية وما يليها الى بجاية وهو يعني بهذا أن نهر الشلف هو الحد الشرقي لبلاد المغرب الأوسط مثلما ذهب اليه بعض المؤرخين. ويرى آخرون أن الحد الشرقي عبارة عن خط وهمي يبدأ من بجاية باتجاه الجنوب. وقد كان لهذا الاضطراب أثر واضح في سير هذا البحث. خاصة وأن الحدود في تلك العهود لم تكن أسلاكاً شائكة مثلما هي عليه اليوم، بل هي حدود وهمية يحدد معالمها نفوذ الدولة.

### الاطار السياسي:

فتحت بلاد المغرب الاسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة ذراعيها لاحتضان الاسلام والمسلمين لعوامل مختلفة. وما المقاومة التي واجهت المسلمين الا أحداث قام بها الروم أنفسهم، وفي بعض الأحيان كان هؤلاء يستغيثون بالبربر فيغيثونهم وفقاً لنظامهم القبلي القائم على نخبة المستغيث، أو قام بها روم أسلموا على أمواليهم، أعني أنهم اعتنقوا الاسلام وظلوا يخفون حقدهم عليه، أو قام بها أمراء بربر حلفاء للروم فقدوا امتيازاتهم بظهور المسلمين في بلادهم، أو بربر تلقنوا الاسلام على يد دعاة خوارج. وفي جميع هذه الحالات، كانت الأمور تتدهور، بوقوع البربر تحت سيطرة نظامهم القبلي واغراقهم فيه.

وعلى أية حال، فإن البربر الذين لم يسبق لهم أن كانوا في ظل نظام دولة خاصة بهم، قد اعتنقوا الاسلام وساروا جنباً الى جنب مع المسلمين الفاتحين، يأخذون عنهم النظم الحضارية الاسلامية، ثم شرعوا في الاشتراك معهم في تسيير

شؤون البلاد، فقتلوا المناصب العالية. وفي مرحلة متقدمة راحوا يؤسسون دولاً مغربية برؤوس مشرقية مثل الدولة الرسمية والادريسية، لأنهم لم يتحرروا كلية من سيطرة نظامهم القبلي فظلوا أسرى له، وأخيراً ظهرت إلى الوجود الدولة الزيرية التي تعتبر أو دولة مغربية بقيادة محلية.

وهكذا فإن البربر الذين كانوا بالأمس يرزحون تحت نير الاستعمار الروماني، ولم تنفع محاولاتهم المتكررة في جعل شمس الحرية تشرق على ربوعهم، قد بدأوا يستنشقون نسيم الحرية في ظل الاسلام، ثم أصبحوا شركاء للمسلمين الفاتحين في نشر الاسلام وراء حدود بلادهم في الأندلس وصقلية وإيطاليا وفرنسا وغيرها، وقد ظل البربر يحفظون للاسلام والمسلمين هذا الفضل أعني نقلهم من مستعمرين — بفتح الميم — إلى أسياد في بلادهم ثم إلى فاتحين لبلاد غيرهم — فامتزجوا بالعرب، وأصبحوا بدين الله اخواناً، فراحوا يقدمون أرواحهم فداء وتضحية في سبيل دينهم الجديد.

ومهما يكن من أمر، فإن بلاد المغرب الأوسط كانت مزركشة حتى نهاية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، فقد ذكر التنسي بخصوص ادريس الثاني أن «امتدت جنوده إلى شلف وضائق بني الأغلب ملوك افريقية»<sup>(1)</sup> وهذا يعني أن هذا النهر المذكور يمثل الحدود الغربية للدولة الأغلبية، إلا أن اليعقوبي الذي عاصر هذه الدولة يذكر في كتاب البلدان بخصوص مدينة أوربة أنها «آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب ولم يتجاوزها المسودة»<sup>(2)</sup> وكانت مدن ميلة وسطيف تدخل ضمن إطار دولة الأغلبة، ومن أمرائها على عهد أبي عبد الله الشيعي موسى بن عياش على ميلة وعلي بن عسلوكة على سطيف يتبعون القيروان

وأما بلاد كتامة، فقد بدت في الواقع وكأنها خارج نفوذ الدول، ويظهر هذا في حديث وفد حجاج كتامة إلى أبي عبد الله الشيعي، فحين سألهم هذا: كيف طاعتكم للسلطان — الأغلبي — وحكمه عليكم؟ قالوا: ما له علينا من طاعة ولا حكم أكثر من أنا نقول أنه سلطان، وحين سألهم: قلنا من يرجع

(1) انظر اسماعيل العربي: دولة الادلوسة. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م، ص 119.

(2) اليعقوبي: كتاب البلدان، نشر: م. ج. جوية. ط 2، مطبعة بريل. لندن 1892، ص 12.

أمركم ؟ قالوا: كل رجل منا في نفسه عزيز ولنا أكبر منا في كل قبيلة.

وفي تلمسان كانت إمارة بني يفرن برعامة أبي قره حتى سنة 170 هـ فانتقلت الإمارة إلى محمد بن خزر المغراوي إلى سنة 173 هـ حيث قضى عليها ادريس الأول، وفي سنة 199 هـ خرج ادريس الثاني لتثبيت حكم الإدارة عليها، ثم قسمت إلى إمارات على بني محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب.

ومن هذه الإمارات (1) إمارة: تلمسان، وإمارة سوق إبراهيم، والخضراء، وتنس، ومدينة العلويين، وغمالة، ومطلاس، ومدكرة — مليانة — ومتيجة، وهاز، وسوق حمزة، وغيرها، وأن وجود بني سليمان هؤلاء على رأس البربر لدليل قاطع على التلاحم العضوي بين العرب والبربر وذوبانهم معا في بوتقة الإسلام.

كما كانت هناك إمارات أخرى في بلاد المغرب الأوسط مثل إمارة بني مسرة بمدينة أوزكي في نواحي سعيدة، وإمارة بني مسالة من هوارة، وإمارة إبراهيم بن محمد بن محمد البربري المعتزلي في مدينة تلي تاهرت تدعى أيزرج، وإمارة بني برزال في ناحية قصر البخاري.

وكانت الدولة الرستمية (2) في تاهرت، وهي أول دولة إسلامية محلية تظهر في بلاد المغرب الأوسط، أسسها الإمام عبد الرحمن بن رستم سنة 160 هـ أو 162 هـ. ثم خلفه ابنه الإمام عبد الوهاب الذي جعل الحكم وراثيا، فتعاقب الرستميون على كرسي الحكم حتى قدم الفاطميون بقيادة أبي عبد الله الشيعي فوضعوا حدا لهذه الدولة سنة 296 هـ/909م.

- 
- (1) حول هذه الإمارات انظر: لقيال موسى: زناته والاشراف الحسنيون في جبال تلمسان والمغرب الأوسط. مجلة الأصالة. عدد 26، اسماعيل العربي: المرجع السابق. صفحة 137 — 146.
- (2) حول الدولة الرستمية انظر: ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز. الجزائر. بدون تاريخ. إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية مطبعة لافوميك. الجزائر. رشيد بورويبة وآخرون: الجزائر في التاريخ. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984م. ج3. ص 76 — 129.

وبسقوط دولة الرستميين، انفتح الباب على مصراعيه أمام الجيوش الفاطمية (1) لبسط سيطرتها ونفوذها على كامل تراب المغرب الأوسط، بل وراحوا يهتدون بلاد المغرب الأقصى. وبذلك أصبحت بلاد المغرب الأوسط جزءاً من الدولة الفاطمية، تخضع لقوانينها ونظمها، وتأتمر بأوامر الخليفة الفاطمي، وكان أولهم أبو عبد الله الشيعي، خلفه أبو عبيد الله المهدي سنة 298هـ/911م ثم أعقبه أبو القاسم محمد القائم بأمر الله سنة 322هـ/934م وجاء بعده اسماعيل المنصور سنة 334هـ/946م وخلفه المعز لدين الله سنة 341هـ/953م واستمر في الحكم إلى سنة 361هـ/972م حيث رحل إلى مصر.

وقبل أن يرحل الفاطميون إلى مصر، كان المعز لدين الله قد عقد على بلاد المغرب لبلكين بن زيري الصنهاجي وبذلك تأسست الدولة الزيرية (2) سنة 361هـ/972م، وعلى رأسها بلكين. وفي سنة 374هـ/984م خلفه ابنه المنصور، وظل على كرسي الحكم إلى أن وافته منيته سنة 386هـ/996م؛ فخلفه ابنه إدريس بن المنصور إلى سنة 406هـ/1016م، وبذلك يختصر القرن الرابع الهجري فتنتهي فترة هذا البحث.

(1) عن الدولة الفاطمية انظر: القاضي النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ط 1، 1970م. الداعي إدريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق: محمد الحلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1985م أبو عبد الله محمد الصنهاجي: أخبار ملوك بني عبيد وسرهم، تحقيق: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

(2) عن الدولة الزيرية انظر: ابن خلدون: كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1983م، ج 11، ص 317 — 334. ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، ط 3، 1983، ج 1، ص 228 وما يليها.

## الفصل الأول الزراعة

### نظام الأرض:

ميز العرب في حركة فتح بلاد المغرب بين الروم وبين البربر، فاعتبروا أنفسهم في حرب مع الروم وحلفائهم دون البربر، وتتضح هذه النظرة في أنه: «لما سمعت الروم والأفارقة بخروج عبد الله بن سعد ووصوله إلى إفريقية خرجوا إليه ومعهم جرجير في جمع كثير من الروم<sup>(1)</sup>». ولم يذكر خروج البربر معهم، كما يذكر ابن خلدون بخصوص عقبة بن نافع أنه «فرّ منه الروم والفرنجية فقاتلهم وفتح حصونهم مثل لميس وباغاية». ويضيف الرقيق القيرواني أنهم حين — في أذنة — بلغهم أمره لجأوا إلى حصنهم وهرب أغلبهم إلى الجبال والوعر... وكان بينهم حرب ما رأوا قط ممن حاربوه مثلها، ويضيف الدباغ أنه «ذهب عز الروم من الزاب وذلولوا فكره عقبة المقام عليهم وقد تحصنوا فرحل منها يريد المغرب حتى نزل تاهرت» وفي هذه المدينة «لما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأعانوهم ونصروهم، إلا أن هؤلاء لم يكن لهم «بقتالهم من طاقة فولوا هاربين فقتلهم قتلا ذريعاً، وفرّ جميع الروم عن المدينة وقتلوا حيث أدركوا<sup>(2)</sup>».

ويتضح مما تقدم أن حروب المسلمين كانت موجهة ضد الروم ومن معهم من الأفارقة، وأن كان ابن خلدون يفيد أن عقبة «لقبه ملوك البربر بالزاب وتاهرت»<sup>(3)</sup>، وبالنظر إلى حروب كسيلة والكاهنة، فإن الذين تصدوا للعرب

(1) الدباغ: معالم الإيمان في أهل القيروان، تحقيق إبراهيم شيوخ، مصر 1968، ج 1، ص 35.  
(2) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس 1968، ص 43 — 44 ابن خلدون: كتاب العبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1959، ج 4، ص 399، الدباغ: المصدر السابق، ج 1، ص 49 — 50، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي ط 2 سنة 1387هـ/1967م بيروت، ج 4، ص 105.

(3) ابن خلدون: المصدر السابق، ج 6، ص 217.

من البربر هم ملوك وأمراء في ظل سيادة الروم، ونعت رايتهم، وبالتالي فهم حلفاؤهم، الى جانب محافظتهم على مصالحهم الشخصية وحماية مراكزهم.

ويبدو أن هناك بعض السكان قد جنحوا الى الصلح، فصلحهم المسلمون، فيذكر ابن خلدون أن حسان بن النعمان «قد صالح من القى بيده من البربر على الخراج»، وحين خرج موسى بن نصير الى طنجة غازيا، هرب البربر أمامه خوفا فتبعهم وقتلهم قتلا فاحشا « فلما رأى البربر ما حل بهم استأمنوا وادوا الطاعة فقبل عنهم وولّي عليهم واليا»<sup>(1)</sup>

في نفس الوقت فإن ابن الأثير يذكر أنه « دخل كثير من البربر في الاسلام» وفي عهد ابن المهاجر «أسلم بقية البربر على يده»<sup>(2)</sup>.

وهكذا يمكن أن نميز مواقف البربر وبالتالي أراضيهم على النحو التالي:  
— حارب بعضهم المسلمين، فانتصر هؤلاء عليهم، فكان مصيرهم القتل والتشريد والخنوع، ويمكن أن نلحق بهم من أهل الحرب، تلك الجماعات التي أصابها الملح حين رأت معاقل الروم تنهاوى أمام جيوش العرب المسلمين، فحققت دماءها مستسلمة، وهؤلاء جميعا تعتبر أراضيهم فتحت عنوة.

— صالح بعضهم المسلمين: هؤلاء ممن وقف على الحياد، ذلك لأنه لا يمنهم أن حكم البلاد عرب أو روم، خاصة وأنهم عاجزون عن اخراج هؤلاء وأولئك، فصالحوا المسلمين، فتعتبر أرضهم فتحت صلحا.

1

(1) نفس المصدر: ص 219.

(2) الرقيق القيرواني: المصدر السابق. ص 69. وذكر محمد بن عميرة أن بعض القبائل خرجت اليه تطلب الصلح فصالحهم بشرط أن يتركوا معه رهائن من خيارهم، محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الاسلامي، رسالة جامعية، الجزائر 1977، 1978، اشراف لقيال موسى، ص 33.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق ج 3، ص 466، الرقيق القيرواني: المصدر السابق ص 97. وكانت الدوافع تتعلق بعضها بسياسة الروم المالية المجحفة، عنها انظر: محمد ضياء الدين الرئيس: الخراج والتنظيم المالية، ط 2، 1961، ص 163، ومنها يتعلق بسياسة الولاة، فإن حسان بن النعمان رفع البربر من مستجدين الى أصحاب رسالة إذ «أخرجهم مع العرب يفتشون افرقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر فمن ذلك صارت الخطط بافريقية للبربر فكان يقسم الأراضي والقيء بينهم» الدباغ. المصدر السابق، ج 1، ص 67.

— دخل بعضهم في الاسلام: رغبة فيه أو في الهروب من ظلم الروم أو من دفع الجزية أو حماية أموالهم وممتلكاتهم<sup>(1)</sup>.

وعلى أية حال، وكيفما كان أمر فتح بلاد المغرب، فإن العرب المسلمين قد أبقوا أراضي البربر على حالها في أيديهم، وأجروا عليها حكم الأرض المفتوحة صلحاً، مثلما كان الشأن بالنسبة الى أراضي القبط في مصر، فقد أبقاها المسلمون في أيديهم بالرغم من فتحهم مصر عنوة<sup>(2)</sup>، وهذا لأن العرب اعتبروا أنفسهم في حرب مع الروم وليس مع المصريين.

ويزداد الأمر وضوحاً فيما ذكره القاضي عياض: «قال أحمد بن نصر: انما منزلة افريقية كاليتة يأكل منها المضطر حاجته، يشير الى أن أرضها لم تخمس»<sup>(3)</sup>، كما أشار الرقيق القيرواني الى أن عمر بن عبيد الله المرادي أراد أن يخمس البربر وزعم انهم فيء للمسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله<sup>(4)</sup>، وأن عدم تخميسها يدل على أنها لم تجر عليها احكام أرض العنوة.

### أرض العنوة:

للإمام حق الخيار بين قسمتها أو ابقائها في أيدي أصحابها مقابل دفع الخراج ويذكر البلاذري أن أرض العنوة «أن قسمها الامام بين من غلب عليها فهي أرض عشر وأهلها رقيق، وان لم يقسمها الامام وردّها للمسلمين عامة

(1) أشار صاحب «كتاب الاستبصار» أن الروم في نفوس «أسلموا على أموالهم».

(2) سيده اسماعيل كاشف: مصر في عصر الولاة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص 35 — 36، البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، ط 1، المطبعة المصرية بالأزهر 1932، ص 214 — 215، ويذكر قول القاسم بن سلام أن «المغرب كله عنوة انظر نفس المصدر، ص 217. ويذكر السلاوي عن أبي القاسم القاهسي، اختلاف الناس في فتح المغرب فمنهم قال: عنوة، ومنهم قال: صلحاء، ومنهم قال: غلطة، السلاوي، الاستقصاء لاختيار دول المغرب الأقصى 1305 هـ ج 1، ص 80.

(3) القاضي عياض: تراجم، ص 411.

(4) الرقيق القيرواني: تاريخ افريقية والمغرب، ص 109. الابن الأثير: الكامل، ج 5 ص 191. ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 405.



كما فعل عمر بالسواد فعلى رقاب أهلها الجزية وعلى الأرض الخراج «وسئل علي بن أبي طالب عن الأرض تفتح عنوة فقال: «توقف ردًا للمسلمين لمن في ذلك اليوم ولمن يأتي من بعدهم أن رأى ذلك الامام وأن رأى قسمتها قسمها»<sup>(1)</sup>

ويبدو أن ولاية المغرب قد قسموا بعض أراضي العنوة مثلما يظهر في عبارة الدباغ السالفة الذكر والخاصة بما فعله حسان بن النعمان حيث كان «يقسم الفيء والأراضي بينهم» ومثلما يظهر في عبارة الرقيق القيرواني المتعلقة بعمر بن عبيد الله المرادي المذكورة اعلاه لكن الولاية ما كانوا يستطيعون قسمة أراضي العنوة لنفس الأسباب التي حالت دون اقدام عمر بن الخطاب على هذا الفعل، وبناء عليه، كان على أصحاب الأرض الجزية وعليها الخراج، لأن ملكية رقبته انتقلت للمسلمين، وإلى الأبد، فيذكر الامام مالك أنه ليس لأحد «أن يشتري منهم أصل الأرض لأنهم وأرضهم للمسلمين»، وبضيف القاضي عياض الى ما ذكره علي بن أبي طالب سالفًا أن «الأرض وما فيها لله ولرسوله والامام في ذلك بعد الرسول»<sup>(2)</sup>، وحتى إذا أسلم أهلها فإن الخراج يبقى ولا يسقط بالاسلام، وبضيف أن من أسلم منهم «وضعت عنه الجزية ولم يوضع عنه الخراج لأن الخراج عن الأرض، وإن باعوها فصارت للمسلمين بقي الخراج على حاله».

### — أراضي الصلح:

يتوقف حكم أراضي الصلح على ما جاء في كتاب الصلح، فقد يتم الاتفاق على دفع مبلغ مالي، ومواد عينية، أو على دفع خراج أو وظيفة يوظفونها عليهم ويؤدونها في كل عام على رؤوسهم وأرضهم. وقد يتم التنازل بموجب صلح عن ملكية رقبة الأرض، فيكون لهم حق الانتفاع بها مقابل الخراج، ولا يسقط

(1) القاضي النعمان: دعائم الاسلام. دار المعارف — القاهرة، 1983 هـ / 1963م ج 1، ص 386.

البلاذري: المصدر السابق. ص 247.

(2) القاضي عياض: نفس المكان، سخون: المدونة، ج 4. ص 273.

عنها بالاسلام، أو يقضي الصلح باحتفاظهم بملكية أراضيهم مقابل دفع الخراج، فيسقط بالاسلام»<sup>(1)</sup>.

أي أن الخراج كان يدفع على أرض فتحت صلحا أو عنوة، فذكر ابن خلدون أن حسان بن النعمان «صالح من ألقى بيده من البربر على الخراج وكتب الخراج على عجم افريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر والبرانس»<sup>(2)</sup>. وقد ظلت جباية الخراج مستمرة، فإن ابن الصغير يذكر أن الامام عبد الرحمن بن رستم كان «ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبه ذلك»<sup>(3)</sup>، وكما أن الفاطميين جعلوا له ديوانا خاصا، فإن أبا عبيد الله المهدي عين «على ديوان الخراج أبا القاسم بن القديم» وكذلك في العهد الزيري، فإن أبا الفتح المنصور الزيري أمر بولاية «محمد بن القاهر بن خلف الخراج مع سلامة بن عيسى فجلسا معا في ديوان خراج المنصورية»<sup>(4)</sup>.

### أراض أسلم عليها أهلها طوعاً:

فهذه الأراضي تبقى على حالها ملكاً لأصحابها، وعليها العشر أو نصفه، زكاة لا خراجاً، وقد جبي المسلمون هذه الصدقة فكان حنش بن عبد الله الصنعاني «أول من ولي عشور افريقية في الاسلام ومات بافريقية سنة 100هـ»<sup>(5)</sup> واستمر جمعها، فإن ابن الصغير يذكر بخصوص الامام عبد الرحمن بن رستم أن «أهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أواني الطعام فيقبضون اعشارهم في هلال كل... من أهل الشاة والبعر يقبضون ما يجب على أهل

(1) محمد محمد عبد الحواد: ملكية الأراضي في الاسلام. صالح بن أبي السرح بطريق افريقية على ألقى ألف ونصف ألف دينار. وجاء في كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لندمور بن عبدوش سنة 94هـ أنه على كل واحد منهم «ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أمداد خل وقسطي عسل وقسطي زيت وعلى العيد نصف ذلك» أنظر «الضي بن يحيى: بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس — مدريد 1984م ص 227.

(2) ابن خلدون: العبر ج 6، ص 219.

(3) ابن الصغير: تاريخ الأئمة الرسنمين في: Cahier Tunisie N°91-92 1975 p 237.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار المغرب. مطبعة الماهل — بيروت 1947 — 1950، ج 1 ص 245.

(5) الضي: المصدر السابق، ص 265 ثم انظر حول هذه الأراضي: عبد الكريم الخطيب: السياسة المالية في الاسلام — دار الفكر العربي — دون تاريخ، ص 56.

الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون». ويبدو أن ابن الصغير كان يميز بين الصدقات والمعشور، فإنه يذكر بخصوص الامام افلح لم أن الشراف لم تكن «تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أعشاره».

## أنواع الأراضي:

### 1 - الأراضي السلطانية:

كان الولاة قد استولوا على أراضي الروم وحلقائهم الذين قتلوا في المعارك أو فروا هاربين؛ وكان لهم نصيب من أراضي العنوة التي تم تقسيمها، يضاف إليها أراضي مات أصحابها ولم يتركوا وارثين<sup>(1)</sup>، ومن هذه الأراضي جميعا كانت في بلاد المغرب الأوسط.

وحين اقتطع الرستميون بعض البلاد عن نظر ولاية القيروان، ثم اقتطع العلويون مثلهم، فإن ملكية هذه الأراضي انتقلت إليهم. ثم انتقلت ملكية هؤلاء جميعاً إلى الفاطميين فالزيريين، بل يبدو أنها ازدادت اتساعاً في عهد الفاطميين بسبب سقوط عدد من القتل في الحروب التي خاضوها، فألحقت أراضيهم بالأراضي السلطانية.

### 2 - أراضي الخراج:

وهي الأراضي التي سبقت الإشارة إليها ويبدو أنها كانت تشكل المساحة الكبرى من الأراضي الزراعية، خاصة وأن الولاة عمدوا إلى عدم إسقاط الخراج بإسلام أهلها، ويقيد الأصطخري أن «خراج الأرضين فعلى ثلاثة أصناف: على المساحة والمقاسمة والقوانين التي هي مقاطعات معروفة لا تزيد ولا تنقص زرع

---

(1) مات أبو حفص القلاص سنة 313هـ ولم يخلف وارثاً فخلفه أبو عبيد الله المهدي. انظر: ابن عذاري: المصدر السابق ج 1، ص 190.

أو لم يزرع، وأما المساحة والمقاسمة فإن زرع أخذ خراجها وأن لم يزرع لم يؤخذ. (1)

### 3 — أراضي العشر:

وهي الأراضي التي أسلم أهلها طوعية، وأراضي العنوة التي قسمت على المحاربين، كما سلف — ثم الأراضي التي تم أحيائها فيما بعد.

### 4 — أراضي الاقطاع:

وهي أراض يقطعها الامام لاحد المسلمين ليقوم باستغلالها والانتفاع منها، وقد عرف الرستميون هذا النوع من الأراضي، فإن الامام عبد الوهاب افطع جماعة من نفوسة وهم الخارجون عليه في جبل نفوسة، فذكر الوسياني أنه «اقطع لهم أرضاً كثيرة» (2) فيكون الرستميون قد فعلوا الفعل نفسه في نواحي تاهرت وفي الأراضي الموات المحيطة بها. ومثلهم فعل الفاطميون، فهم قد اقطعوا الكتامين والصقالبة اقطاعات عديدة، فيذكر ابن خلدون أن عبيد الله المهدي «قسم الأموال والجواري في رجال كتامة وأقطعهم الأعمال» (3). وجاء في «سيرة جوذر» اشارة الى مشاجرات «بسبب قسمة السواقي التي اقطعهم اباها» ويذكر جوذر أنه كان له «ضيعة واحدة من اقطاع المهدي بالله «بل أن القائم بالله الفاطمي يذكر الكتامين أن الله «أورثكم أرضهم وديارهم» (4).

وعلى آية حال، فكان يشترط في هذا الاقطاع، أن يقوم المقطع بتعميرها واستغلالها، ولا يلحق ضرراً بمسلم من جرائه؛ والا تكون أرض خراج،

(1) الأصطخري: المسالك والممالك. تحقيق. محمد جابر عبد العال الحسني — القاهرة 1381هـ الموافق ل 1961م. ص 157. وعن الخراج في الاسلام انظر: مقدمة بن جعفر: كتاب الخراج وصناعة الكتابة. بريل 1889م — المكتبة المثنى — بغداد. يحيى بن آدم القرشي: كتاب الخراج. تحقيق أحمد محمد شاکر — لاهور. 1395هـ. دانييل دانيت: الجزية والخراج. ترجمة فوزي فهم جاد الله. بيروت 1960. أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم: كتاب الخراج — القاهرة 1302هـ.

(2) T.Lewicki: Un document inédite inédit sur l'émigration des Nafusa du Gabal.F.O. 1.1-2 1959 p.178.

(3) ابن خلدون: المعبر، ج 4 ص 76، ابن أبي الضياف: انصاف، ص 155.

(4) الجوزري: سيرة جوذر. ص 54، 99. دار الفكر العربي — مصر 1374هـ/1954م.

ومن ذلك ان القاضي النعمان يخاطب الخليفة المعز الفاطمي «لا تقطعن لأحد من أهلك ولا من حشمك ضيعة ولا تأذن لهم في اتخاذها إذا كان يضر فيها بمن يليه من الناس» (1).

وكان الاقطاع على أنواع (2): فمنه اقطاع تمليك وقد تكون ملكية دائمة مدى الحياة أو لفترة محدودة، ومنه اقطاع استغلال، ولم يشر المؤرخون الى اقطاع بدل الرواتب والعطاء.

## 5 - أراضي الملك:

تظهر الملكية الفردية في بلاد المغرب الأوسط، انتقلت الى صاحبها بالارث أو بالشراء أو بالاقطاع أو بإحياء موات وغير ذلك، وهو حر التصرف فيها حرية شاملة، فكان محمد بن جرني في تاهرت ممن يملكون الأراضي الشاسعة، وأشار ابن الصغير الى «تنافس الناس في البناء حتى اهتني الناس القصور والضياع خارج المدينة» وهذا رجل يقول لأبي عبيد الله المهدي في سجل ماسية: «هذا البستان كان لأبي وجدي يتوارثونه عن أجدادنا فلما كان هذا الوقت أغصبنا عليه اليسع بن مدرار».

كما تظهر الملكية القبلية، فتكون الأرض ملكا للقبيلة جمعاء، لكن المؤرخين لا يشيرون أن كانت الأرض مجزأة على أفراد القبيلة أو أن ملكيتها مشتركة يتعاونون على خدمتها، كل بحسب طاقته.

فذكر محمد بن يوسف الوراق أن موضع تاهرت كان «ملكاً لقوم مستضعفين من مراصة وصنهاجة» وكانت قبائل زناتة المنتشرة بين تاهرت وتلمسان «هم أصحاب هذه الفحوص» ويذكر البهقوني ان من «مدينة أوزكا

---

(1) القاضي النعمان: دعائم الاسلام، ج 1، ص 367. قال عمر بن الخطاب لبلال وقد اعطاه الرسول ﷺ أرض المقيق: «أن رسول الله ﷺ لم يقطعك لتمجيد عن الناس وإنما اقطعك لتعمل فخذ ما قدرت على عمارته ورد الباقي. الوجيه: الدليل، ج 3 ص 79.

(2) عن الانقطاع انظر: عبد العزيز الدوري: نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية. مجلة الجمع العلمي العراقي 1970.

لمن سار مغربا الى أرض لزناتة، ويفيد البكري أن من «شلف بني واطيل الى بني واريغن لمطقرة على نهر شلف» ويصف البعقوني أهل حصن ابن كرام بأنهم «جماعية» ويذكر ابن خلدون أن لواته ينزلون بسبط تكرارات — نواحي بجاية — «يعتمرونها فذنا لمزارعهم ومسارح لأنعامهم» أما البكري فيشير الى أنه بقرب من المسيلة هواره وبنو برزال «ولهم كانت أرض المسيلة» وكان في قسنطينة «تشارك في الحرث والادخار» كما كان بنو رمان يملكون معظم الأراضي المجاورة لمدينة بسكرة<sup>(1)</sup>.

## 6 — أراضي الوقف:

وهي أرض أوقفها أصحابها المسلمون لأغراض دينية، ولا تكشف المصادر التي بين أيدينا عنها شيئا يذكر، الا أن ابن عذاري يذكر «حواشيت الاحباس» وان محمدا بن عمران النفطي جمع أموال الاحباس في عهد أبي عبد الله الشيعي، وفعل مثله محمد بن عمر المرادي، كما يذكر القاضي عياض منولي الاحباس في سوسة<sup>(2)</sup>، وهذا يعني وجود أراضي وقف في بلاد المغرب الأوسط.

## 7 — الأرض الموات:

هي أرض قابلة للاستصلاح الزراعي، معطلة لعدة ما مثل عدم توفر المياه، أو الأبدى العاملة أو لأنها أجمت، ويعتبرها الامام مالك بأنها الأرض التي ليس لها مالك وليس فيها ماء أو عمارة.

وبينا بصف محمد بن يوسف الوارف موضع تاهرت بأنه «غبضة أشبة» فإن ابن الصغير يشير الى أن المسلمين «شرعوا في إحياء الموات»<sup>(3)</sup> مما يوحي

(1) أنظر الشماخي: كتاب السير، القاهرة 1301هـ، ص 205، ابن الصغير: تاريخ الأئمة الرستمين، ص 336، البكري: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، مطبعة الحكومة، الجزائر 1857م، ص 68، البعقوني: وصف إفريقيا الشمالية، الجزائر 1380هـ، 1960م ص 16 الادريسي: صفة المغرب، مطبعة بريل، ليدن، 1968، ص 88، 95. دائرة المعارف الإسلامية مادة «بسكرة» ج 1. ص 367.  
(2) ابن عذاري: البيان ج 1 ص 261. الدباغ: معالم ج 2، ص 292. القاضي عياض: ترتيب المبارك ج 3. ص 376.

(3) ابن الصغير: تاريخ الأئمة، ص 324، جاءت في صورة «الأموات»، وحول هذا الموضوع انظر: محمود المظفر: إحياء الأرض الموات، المطبعة العالمية بالقاهرة 1382هـ/1972م. الورجلاني: الدليل، ج 3 ص 70.

بأن الأحياء وقع في مختلف نواحي البلاد، وفي كل قرية أو مدينة، استحدثت، كما أن التطور العمراني والتزايد السكاني قضيا بالتوسع في أحياء الموات، كذلك انتقال بعض القبائل الطاعنة الى حالة الاستقرار يؤدي الى نفس العملية. فإن موضع أشير كان أرضاً خالية ليس فيها أحد مع كثرة عيونه وسعة فضائه، فحمى زيري بن مناد تلك الناحية «وزرع الناس فيها»<sup>(1)</sup>.

## 8 — الأرض المشاعة:

هي الأرض التي ليست ملكاً لأحد وبالتالي يمكن لأي إنسان يسبق إليها أن يتولى استغلالها والاستفادة منها، وهي تشمل جميع الفياقي والقفار، والمسارح والمختطب وغيرها، فقد روى الدرجيني أن رجلاً قدم الى ابن عبيد الله محمد بن بكر فقال: يا محمد أثبت الحاكم الخصومة في الأرض المشاعة التي لم يتعين لها رب؟ قال: لا قال: فإن هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد قالوا لي: ما بين فلانة الى فلانة مشاعة لبني ورتيزلن فجعلوا يعمرون هذه الأرض، كما أن حسين بن رشيق رفع شكوى الى المعز الفاطمي وذكر «أن هذه المسارح مشتركة لكافة أهل المنازل التي تجاورها»<sup>(2)</sup>.

وبما أن أرض بلاد المغرب الأوسط شاسعة، وبأن أرض العاقر قلما تزيد عن مسير نصف نهار من القرية أو المدينة، فإن هذا يعني أن أكثر البلاد هي أرض مشاعة، وهذا ما جعلها في معظمها جرداء.

## النظام الزراعي:

لئن وقع تطور وتقدم في حياة المدن بالمغرب الأوسط حتى عرفت أحداها بـ «عراق المغرب» وعرفت أخرى بـ «المدينة العظمى» — هما تاهرت وتلمسان على التوالي — فإن حياة القرية والمناطق الزراعية لم يصعب مثل هذا التطور، فظلت تستعمل نفس الأدوات والأساليب الزراعية المعروفة في ذلك الوقت بل والموروثة.

(1) باقرت الحموي: معجم البلدان، بيروت 1957، ج 1، ص 264.

(2) انظر: الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق ابراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة 1394هـ/1974م. ج 2، ص 381، الجوفوي: سورة الأستاذ جودر دار الفكر العربي، مطبعة الاعتدال، مصر 1374هـ/1954م. ص 96.

وقد كان الفلاحون يقيمون في أراضيهم، في حين كان البعض الآخر يقيم في القرية أو المدينة، ومنها يخرج للعمل في ضيعته، وقد يترك كبار الملاك أراضيهم ليقبضوا في المدينة، ومن هؤلاء محمد بن حماد بتاهرت، فذكر ابن الصغير أنه حين أخرج منها توجه الى بساتينه وقصوره خارج المدينة ومثله بكر بن الواحد ومحمد بن عرفة.

وكان بعضهم ينتقل حسب ظروف الزراعة ومواسمها ومن هؤلاء تلك القبائل التي كانت تقوم بأعمال فلاحية الى جانب طعنها، ففي هذه الحالة تضطر أن تترك بعض أفرادها لحماية مزروعاتها الى حين عودتها من طعنها، ومنها تلك القبائل المنتشرة بين تاهرت وتلمسان والتي وصفها الادريسي بأنها: «قوم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان الى مكان غيره لكنهم متحضرون»<sup>(1)</sup>. ويذكر ابن خلدون بخصوص قبيلة مرغبيصة انهم «أهل شاة وبقر وخيام يظعنون في نواحيها ويتحلون الفلح في معاشهم»<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن الفلاحين لم يصل بهم الأمر الى تشكيل نقابة تدافع عن حقوقهم وتجمع كلمتهم، ولكنهم ارتبطوا برباط معنوي يبرز الى الوجود بوضوح عندما يتعرض أحدهم لمشكلة ماء، فحين قبض والي قصر الافريقي في عهد المعز الفاطمي على رجل من أصحاب القبالات، خاف على نفسه «تحزب البربر وتناصرهم عليه وانه خائف على نفسه»<sup>(3)</sup>.

ويظهر أن بعض كبار التجار في المدن قد استثمروا أموالهم في المجالات الزراعية لأنها تشمل مورداً مضموناً، أو انهم غادروا العمل الفلاحي الى الميدان التجاري، فكان المطليبي تاجراً من القيروان، رافق عبيد الله المهدي الى سجلماسة تاجراً، فكتب المهدي الى أبي عبد الله الشيعي يوصيه بالمطليبي «ورفع العشر والخراج وجميع المون عن ضياعه»<sup>(4)</sup>.

(1) الادريسي: صفة المغرب، ص 88.

(2) ابن خلدون: المعراج 4 ص 49.

(3) الجوفري: سيرة الأستاذ جوفري ص 93 - 94.

(4) سيرة الحاجب جعفر وخروج المهدي. مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية سنة 1936 م، ج 4، ص 2،

ص 123.



وقد كان كبار الملاك يعتمدون على وكلاء لتسيير شؤون ضياعهم ومزارعهم، وقد نصّ ابن الصغير صراحة، فذكر بخصوص الامام يعقوب أنه «أتى وكيله بغلاته»، ومن خلال اقامة محمد بن حماد — السالف الذكر — في تاهرت، يفهم أنه كان يعتمد على وكلاء في أعمال الفلاحة<sup>(1)</sup>.

ويتلخص دور الوكلاء في تنظيم العمل اليومي والاشراف عليه وعبقة البذور والأدوات واستخدام عمال زراعيين اضافيين بالأجرة عند الضرورة، وهم يراقبون منشآت الري، ويوزعون الأكرّة بالبذور والمساعدات المالية، وكان الوكيل يتعهد بتقديم وجبات الطعام للأكرّة والأجراء<sup>(2)</sup>، الا أن المصادر لا توضح طبيعة عمل الأجير. ان كانت يومية أو موسمية، مثل الحصادين، أو انهم يقومون بجميع مراحل الأعمال الفلاحية من حرث وبذر وحصد ودرس وغير ذلك.

ولا نشير المصادر الى تنظيم الأكرّة والأجراء، وإذا كانوا وصلوا مرحلة متقدمة في المشرق الاسلامي، فذكر الجاحظ «مشايخ الأكرّة» فلا تذكر المصادر شيئا من هذا القبيل بخصوص بلاد المغرب.

وقد كان كبار الملاك يفضلون الاعتماد على العبيد، فذكر صاحب «نخفة الألباب» أن «سائر السودان ينفع بهم في الخدمة والعمل»، وبالفعل، فإن القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت، اتخذت العبيد، وأضاف ابن الصغير أن الامام أبا اليقظان خرج «يوما الى منزله الذي كان اختطه بتسلونت يتفقد في سايته وعبيده»، وان اقتران ذكر العبيد بالسايعة والمنزل — البستان — يعني انهم كانوا

---

(1) وفي الفيروان، فإن القاضي ابن طالب عاد يوما الى داره فوجد اجالا محملة بالقمح «على باب داره جاء بها وكيله من أحد منازل. الدباغ: معالم، ج 2، ص 164، وحين طلب منه شيخ زينا «كب له رقعة لوكيله»، نفس المصدر ص 166.

(2) أني أحمد بن عبد الله — توفي سنة 554هـ بالأندلس — «يوما ضيعة له فوجد وكيله بها في حصاده وزوجه في الدار قد أعدت لغذاء الخدمة ما يقوم بهم من خبز فطير وجفنة بشراب اللبن وبصل كثير» القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج 3، ص 438، كما أن رباحا بن يزيد في الفيروان «كان عبده اجراء حصادون فعمل لهم الغذاء وكسر لهم الخبز» الدباغ: معالم ج 1، ص 235. ويتكلم سجلياسي أن البسح بن مدرار غصبا بستاننا «و نحن نعمل فيه بأجره» انظر: سورة الحاجب جعفر ص 120.

يعملون في خدمة الأرض، ويعتمد عدد العبيد على مدى اتساع الملكية، فقد يعتمد مالك على عبد واحد<sup>(1)</sup>، وقد يعتمد على أكثر من عبد، فقد ذكر أطفيش بخصوص يبيب بن زلقين أنه مر يوماً على حي رعاته حتى نزل مقابل خيمة أحدهم فنادت إحدى النساء. أدخلني الضيف — يبيب — صاحب الحي لا يريد أن يبيت الضيف بلا عشاء وهم لا يعرفونه...، وفيهم من يعرف الشيخ يبيب — فإذا هم عبيده، فقال للتي أدخلته «أنت حرة وزوجك حر» وهذا يتفق وما ذكره الدباغ بخصوص أبي عبد الله محمد بن مسروق، فقد كان «يمر بالقرية من قرى أبيه فيخرج إليه أهلها ومن فيها فيقولون نحن عبيدك وكل ما لنا في هذه القرية هو لك»<sup>(2)</sup>. وقد كانت مثل هذه القرى منتشرة حول تاهرت من مدن المغرب الأوسط، وهي التي أطلق عليها ابن الصغير «المدائر».

ويظهر أن بلاد المغرب الأوسط قد عرفت الدهقان، فإن ابن حوقل يذكر بخصوص وهران أن «في حاضرتها دهقنة وحدقا» ويعرف الحموي الدهقان أنه «صاحب الضياع» أي أنه مثلما يعتبره لويس لومبار «ملاك كبير» ويكون هؤلاء الدهاقون قد حافظوا على اقطاعياتهم وأراضهم الشاسعة عن طريق الصلح مع المسلمين أو الدخول في الاسلام<sup>(3)</sup>، وإذا كان الدهاقون في المشرق الاسلامي قد تحولوا إلى مجرد جبلة للضرائب في قراهم، فإن نظراءهم في المغرب الأوسط قد حافظوا على وضعهم حتى لفنوا نظر ابن حوقل في وهران.

- 
- (1) الغناطي: تحفة الالباب، نشر فرائد. المجلة الأسبوعية، 1925، باريس، ص 43، ابن الصغير: تاريخ الأئمة الرسنيين ص 338، 356، وحين مرض العبد قام القاضي سحنون بالعمل نيابة عنه، فشوهه وعلى كتفه الحراث وبين يديه الزوج فقال لنا: ان الغلام حرم الباحة «ورأه يحيى بن عمر» يقول حرث ارضه انظر القاضي عياض: تراجم ص 97 الدباغ: معالم ج 2 ص 234.
- (2) أطفيش: تقييد الغامر، ص 77. وعن يبيب: الشماخي: كتاب السير، القاهرة 1301 هـ ص 205، ثم انظر بخصوص ذكره الدباغ: معالم الايمان، ج 1 ص 329.
- (3) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ص 79، الأدرسي: صفة المغرب، ص 84، الحموي: معجم البلدان، بيروت 1957، ج 4 ص 114 موريس لومبار: الاسلام في مجده الأول، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1979، الجزائر ص 183. وعن الدهقان انظر عبد العزيز الدوري: نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، م ج 20 ص 11، دائرة المعارف الاسلامية، مادة دهقان، ج 9 ص 340 بقلم Longworth Dames.

## طرق الزراعة:

كانت المناوبة في الزراعة معروفة في ذلك الوقت، فيزرع نصف الأراضي عامًا ويترك نصفها بورًا، حيث يزرع في العام القادم، ويترك النصف الأول بورًا، ولكن ربما كانت هذه الطريقة مقتصرة على أصحاب الملكيات الكبيرة. وكان الفلاحون يستعينون بأدوات عديدة من أجل إنجاز أعمالهم الفلاحية ومنها المحراث الخشبي البسيط والذي يحجره زوج من البقر في الغالب، واستعملوا الكرك — الرفش — والمسحاة والمجرفة أو الجاروف، وإذا كانت الأرض واسعة استعملت الجواريف الكبيرة تجرها البقر، واستعمل المنجل للحصاد والتورج للدرس والمذرة للتذرية<sup>(1)</sup>.

وكانوا يعملون على تسوية الأرض بنقل التربة من المكان المرتفع الى المكان المنخفض ويتم التأكد منه، بجران الماء وباستعمال آلة الأسطربلاب، وبعد الانتهاء من عملية التسوية، يتم تقسيمها الى قطع، وكانوا يعطون التسميد أهمية كبيرة، وتشير كتب الفلاحة التي كانت معروفة في تلك الفترة انهم صنفوا الأشجار وعرفوا خواص كل صنف، والمزروعات التي تلائمها. كما ميزوا التربة وأنواعها وخواص كل نوع وملاءمته لمزروعات معينة. وعرفوا طرق الزراعة المختلفة بالبذور أو بالفسائل أو الشتائل أو بالترقيد أو غيرها، وكانت زراعة منظمة، ففي زراعة الرمان مثلاً، يؤخذ وتد ويضرب في الأرض ثم يسحب ويزرع مكانه وتد الرمان، وبين كل وتد وآخر ستة أذرع، وعند الانتهاء من الزراعة يجري الماء إليها، ويمكن الاستفادة من أرضه ومن هذا الماء في زراعة بعض الخضضر<sup>(2)</sup>.

وكانوا يعرفون تقليم الأشجار وخاصة الكروم، فيرى ماغون القرطاجي — وكان كتابه دستورًا للمزارعين في بلاد المغرب — ان تقليم الكروم يقع في الربيع قبل اتيان الفروع حيث انها ما دامت مملوءة بالعصارة يسهل تقليمها ويتسنى اتقان ذلك، ولا تبدي معارضة عند مرور المنجل عليها أو المقص.

(1) ابن عذاري البيان ج 1 ص 101 Imamudin: Some Aspects of the Socio economic and cultural History of Muslim Spain. Leiden. Brill, 1965. P.74.

(2) من الكتب الفلاحية، انظر ابن بهال: كتاب الفلاحة، أبي الخير الاندلسي: كتاب في الفلاحة، ابن العوام أبو زكريا: كتاب الفلاحة الأندلسية، وترجمة له باللغة الفرنسية

J.J.Clément Mullet: le Livre de l'Agriculture d'Ibn el Awam Paris 1864.

ولم تكن عند الفلاحين وسيلة لمكافحة الجراد والأوبئة التي تصيب مزرعاتهم والتي كانت تؤدي إلى القحط والمجاعة العامة مثلما وقع سنة 260هـ/873م. وقد عرفت بلاد المغرب الأوسط موجات من الجراد، فيشير ابن عذاري إلى أن الجراد كثر في سنة 232هـ/846م كذلك فقد «عمّ الجراد بلاد المغرب كلها» في سنة 361هـ/971م و377هـ/987م ومن المرجح أن المغاربة قاموا بقتل الجراد قبل أن يتعلم الطيران مثلما كان يفعل أهل الأندلس، وإذا كانت كتب الفلاحة تشير إلى بعض الأدوية التي يمكن استعمالها فليس هناك إشارات في كتب المؤرخين إلى استعمالها. وربما لأنها لا تكون ذات جدوى أمام الموجات، ومن المرجح أيضاً أنهم لم يستعملوا علاجاً للأمراض التي تصيب حيواناتهم وإن ذكر ماغون القرطاجي علاجاً يفيد ضد مرض السعال، الذي يصيب الخيول، وهو يتألف من الصبر والناردين والفلفل الأبيض والعسل والزيت القديم وزيت الورد مطبوخة في ماء العسل»<sup>(1)</sup>.

ويبدو أن الفلاحين كانوا يحمون مزرعاتهم من خطر الحيوانات بإحاطة الضيعة بأعواد أثبتوها في حفر ووصلوا ما بينها بالحبال، لترد عنها الوحش، في حين كان يلجأ البعض الآخر إلى إحاطتها بخندق، ويظهر هذا في مسألة وجهت إلى يحيى بن عمر حول «الذي يحفر حفراً حول أرضه يحرز زرعه»<sup>(2)</sup> إلا أن هذه الوسائل لم تكن كافية فكانوا يعمدون إلى الناطور.

فكان الناطور يتولى حراسة المزرعات، غالباً من بداية الربيع إلى نهاية جمع المحصول مقابل أجره محددة أو نسبة معينة من المحصول، ويظهر أن أصحاب الأراضي، كانوا يفضلون دفع نسبة إلى الناطور الأمر الذي يدفع بهذا الأخير إلى بذل المزيد من الجهد والحذر في مهمته، ويفيد هـ. رادريس، أن نواطير الحقل أو الزيتون ليلاً ونهاراً كانوا يتقاضون مدين إلى ثلاثة أمداد عن كل ققيز

(1) أبو النصر عادل: تاريخ الزراعة القديمة، ط 1، 1960، ص 56.

(2) يحيى بن عمر: أحكام السوق، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية. مدريد 1965، ص 127، الدرجيني: طبقات، ج 1، ص 85.

يتم جنيه، ويتقاضى حراس السهول والحبوب والزيتون ليلاً ونهاراً ثمنين من الشعير، من كل زوج أو عن كل مئة شجرة زيتون<sup>(1)</sup>.

وكان الفلاحون يقومون بالزراعة الشتوية المعروفة. وكذلك بالزراعة الصيفية، فإن اليعقوبي يشير إلى أن الفلاحين يزرعون السمسم<sup>(2)</sup>، على وادي الشلف وهو محصول صيفي، وكذلك فمن المرجح أنهم عرفوا زراعة الحياض ماداموا يستفيدون من مياه الأودية في أعمال الري، ثم أن اعتمادهم هذا على مياه الأودية يوحي بأنهم كانوا يستفيدون من الأرض مرتين، فيزرعون أولاً معتمدين على مياه الأمطار، وبعد جني المحصول يقومون بزراعة ثانية خاصة زراعة الخضر.

وكان الفلاحون الذين لا يملكون أرضاً يفلحونها يلجأون إلى الملاك واصحاب الضيعات من أجل القيام بالمزراعة، وهي تعني أن يتولى المزارع الحرث والبذر وجني المحصول وجميع الأعمال المرافقة لعملية الانتاج مقابل حصة من المحصول يتم الاتفاق عليها، وتعتمد على نوع التربة والزراعة وطريقة الري، وعلى توفر الايدي العاملة، ونسبة مشاركته في لوازم الفلاحة، وقد تكون على المناصفة أو الثلث أو الربع أو الخمس وغير ذلك.

فإن الدرجيني يذكر أن الاباضية في تقيوس؛ كانوا يدفعون نصف غلتهم للسلطان أو الخراج على نصفهم، والأرجح انهم أكره في أرض سلطانية، فقد كان السلطان الزيري قد استولى على أرض بالمنستير وابقى أصحابها يقومون بزراعتها لحسابه مناصفة، ويورد هـ. ر. ادريس فتوى للقابسي مزراعة على النصف<sup>(3)</sup>، ومن هذا يمكن القول أن الاكرة في بلاد المغرب الأوسط قد اشتغلوا مزراعة مناصفة.

---

(1) H.R. Idris: la Berbérie Orientale sous les Zirides T.2, P.624 (1)

(2) اليعقوبي: وصف، ص 16.

(3) الدرجيني: طبقات. ج 2، ص 52. ثم انظر: H.R. Idris: La Berbérie Orientale T.2, P.605.

ويرى القاضي عياض أن «لا بأس بالمزراعة بالربع والنصف على ما اتفق عليه من عمل وإخراج بذر ودواب» وكان أبو محمد الأصبلي توفي سنة 392هـ بقرطبة يعمل بالمزراعة على الثلث والربع<sup>(1)</sup>، وهذا يفيد في أن أهل بلاد المغرب الأوسط قد ساروا على نفس النظام. ويظهر أن الأكار — المزارع — كان يأخذ الخمس إذا كان لا يقدم سوى جهده وعرقه في عملية الإنتاج، في حين يتكفل صاحب الأرض بالبذور والآلات والحيوان، وفي هذه الحالة يدعى الأكار «خماساً»، وفي حالة أخرى فإن المالك يقدم الأرض والبذور فقط، فأشار الدرجيني إلى صاحب أرض «دفع لجنان جنته في إبان الزراعة زريعة على أن يزرعها»<sup>(2)</sup>، وإذا كان على الأكار العمل والبقر فله ربع الإنتاج وقد أجاز ابن أبي زيد هذا الاتفاق. وقد يقدم صاحب الأرض أرضه فقط وعلى الأكار كل ما يلزم فلاحتها فتكون المزارعة مناصفة، كما قد يقدم أرضه بوراً مقابل مبلغ مالي يدفعه الأكار، وقد تم المزارعة دون اتفاق معتمدين على الثقة المتبادلة واطمئنان الأكار إلى أن المالك لم يخسه حقه، ويرفض الربيع بن حبيب هذا النوع من المزارعة في حين يرى بعض الفقهاء مثل جابر بن زيد أن الحالة الأفضل تتمثل في أن يقدم صاحب الأرض أجرة ثابتة للأكار بغض النظر على المحصول، بحيث تمكنه هذه الأجرة من الاتفاق على عائله، والآن ماذا سيكون مصير الأكار لو أن كارثة طبيعية أفسدت المحصول؟

### ازدهار الزراعة:

كانت بلاد المغرب الأوسط مزدهرة في المجال الزراعي، فانتشرت البساتين والمزارع، ويظهر هذا من خلال إشارات الرحالة المسلمين، ومن خلال الإشارة إلى رخص الأسعار حتى أن ابن أبي زرع يذكر أنه في سنة 380هـ «كان الزرع لا يوجد من يشتريه لكثرتة وكان الحراثون يتركونه... ولا يحصدونه»<sup>(3)</sup>. وقد لعبت عدة عوامل وتضافرت حتى وصلت إلى هذا المستوى.

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج 3، ص 646، القاضي التيمان: كتاب الاقتصاد، ص 89 — 90.

(2) الدرجيني: المصدر السابق، ج 2، ص 404، ثم انظر Muhammed Abduljabbar: Agriculture and Irrigation Labourers. Islamic Culture. N°1 Vol. XLVII. 1973 P.20.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 63.

فإن ابن عبدون يذكر أن «الفلاحة هي العمران ومنها العيش كله والصلاح جله وفي الخنطة تذهب النفوس والأموال وبها تملك المدائن والرجال وبطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام» ويضيف أن الحرث للسلطان «انفع ولأحوالهم ارفع وللناس أمتع وأشبع ولبلادهم أطيب وأرخص»، وفي نظره «أن الزراعة هي ركن مالية الدولة ومنها تدفع معظم الضرائب»<sup>(1)</sup>، وكذلك فإن اخوان الصفا يضعون الفلاحة في الصدارة فيقولون «أما التي بالقصد الأول فتلاثة: الحرثة والحياكة والبناء»<sup>(2)</sup>، ومن هنا كان اهتمام أولي الأمر بالزراعة.

كذلك فإن التطور العمراني وتزايد السكان في المدن وما يتبع هذا من اشتغال بالجمالات الاقتصادية الأخرى، قد أوجد مستهلكين جددًا، ولم يعد الفلاحون ينتجون للاستهلاك المحلي مثلما هو الشأن في المجتمعات القبلية، بل أصبحوا يتوسعون في الانتاج لسد حاجيات المدن، وإن انفتاح باب التصدير هذا إلى المدن قد أسهم في الازدهار<sup>(3)</sup>.

وقد ساعدت طبيعة بلاد المغرب الأوسط نفسها على هذا الازدهار فهي معروفة إلى الآن بخصوبة تربتها وتنوعها بحيث تناسب مختلف أنواع المزروعات، أضف إلى هذا وقوعها في المنطقة المعتدلة الدافئة وإن أمطارها هي أمطار حوض البحر الأبيض المتوسط.

ومن العوامل المساعدة أيضًا التطور الحاصل في المجال الفلاحي فقد كان على الفلاحين أن يحدثوا ابتكارات وتدابير ووسائل جديدة لمواجهة الطلب المتزايد على الانتاج الفلاحي، فعملوا دراسة للتربة واستعملوا أدوات جديدة لتسويتها، وعملوا على زيادة خصوبتها وحسنوا نظام الري، وكانوا على سبيل المثال — يزرعون كل شجرة مع صنفها ثم يراعون أن يكون الشجر الكبير مع الكبير

(1) أبو النصر عادل: تاريخ الزراعة القديمة، ص 239 — 195.

(2) رسائل أخوان الصفا، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1376هـ/1957م، ج 1، ص 284.

(3) مورييس لومبار: الإسلام في مجده الأول ص 240، الحبيب الجناحاني المغرب الإسلامي الدار التونسية للنشر، تونس 1398هـ/1978م، ص 36.

والصغير مع الصغير، وكذلك كانت صفوفًا منتظمة، وكانوا يقيمون الأشجار إلى غير ذلك (1).

وقد أسهمت سياسة الدولة في أحداث تطور وازدهار الزراعة، إلا أنه إلى جانب هذه العوامل، كانت هناك عوامل أخرى مثبطة وتعد من العراقيل التي تقف أمام تقدم الزراعة:

— الأزمات الطبيعية: وتتمثل في القحط والبرد والثلج والرياح والجراد والوباء والفيضانات وغيرها، فذكر اليعقوبي بخصوص تاهرت أنه «لم يجذب زرع ذلك البلد قط إلا أن يصيبه ريح أو برد» (2).

وهي كما يصفها اليعقوبي «شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج»، ويذكر الدباغ أن «الحرث في الأراضي التي تأتي إليها الوديان فيغير مأمون فإذا جاء زرعها في عام طيبًا تبقى أعوامًا لا يجيء فيها الزرع طيبًا في الأعم الأغلب فيفتقر الحارث فيها وقد خسر دنائير كثيرة بسبب الحارث فيها مرارًا» (3).

— عدم الاستقرار وتواتر الفتن: فحينما تدور رحى الحرب لا تجد الأرض من يزرعها فتبور، وربما يلجأ أحد الخصمين إلى إهلاك زرع خصمه انتقامًا، فحينما اشتد النزاع بين الإمام أبي حاتم وعنه يعقوب «فرغ من أيدي الناس الحارث والنسل»

---

(1) حول هذه المواضيع يمكن الرجوع إلى كتب الفلاحة السابقة الذكر، ثم انظر: Imammuddin: Some aspects...p.73, 81-82.

(2) اليعقوبي: وصف، ص 16.

(3) البكري: المغرب ص 67. الدباغ: ج 1 ص 232. وقال بعض الشعراء «من البحر السريع»  
ما آخضن البرد وروعنانه وأطرف الشمس بـ  
تبدو من الضيف إذا ما بدت كأنما تنشر من تحت  
فحسب في بحر بلا لجة تجري بنا السريع على السم  
تفرح بالشمس إذا ما بدت كفرجة الدمى بالسبت  
انظر البكري: المكان السابق ابن عذاري البيان، ج 1 ص 25. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار  
نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد. كلية الآداب. مطبعة جامعة الإسكندرية في 1958 ك، ص  
178، وكانت جبال الأوراس يقع عليها الثلج. وكانت تلمسان «باردة المشتى لكثرة الثلج»، وكان  
فحص عجيبة قرب مدينة القدير «شديدة البرد والثلج» وقد أهلكت الريح مائة وخمسون شجرة من  
ضيمة القاضي سحنون في ولاية إفريقية. انظر القاضي عياض: تراجم، ص 126، الدباغ:



وقد اشار ابن حوقل الى أن تاهرت تغيرت «عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت»<sup>(1)</sup>. وقد تقبل هذه الفكرة منه بخصوص سنة أو سنوات لكنها لا تقبل كحكم مطلق.

ويمكن للدولة نفسها أن تشكل عقبة أمام الانتاج الزراعي، إذا اشنت وبالغت في فرض الضرائب، دون أن تقوم بدورها في مساعدة الفلاحين كاصلاح الطرق والقنوات وحفظ الأمن وتقديم الغروض الى غير ذلك، فذكر ابن خلدون في «المقدمة»: «اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها انقضت أيديهم عن السعي في ذلك» «وأضاف ابن أبي الضياف: «أن غالب أهل الفلاحة لا رزق لهم منها ورأس مالهم فيها آلات علاجها كالدواب ونحوها، فإذا وقع الجذب وطولبوا بمغرمها اضطروا الى بيع الدواب والآلات فبقى المزارع لرعي السوائم ومبيت الوحوش»<sup>(2)</sup>.

وقد تجعل الدولة أرضًا خضرًا، جرداء فاحلة بتهجير أهلها لاعتبارات سياسية، مثلما وقع لمدينة هاز التي كانت في عهد اليعقوبي قاعدة امارة علوية، تغلب عليها الحسن بن سليمان، فتغيرت حالتها فوصفها ابن حوقل بأنها «قرية كانت قديمة عظيمة فخربت وهي في وقتنا هذا مغارة... وهو بلد يغلب عليه الرمل»<sup>(3)</sup>.

.../...

معالم ج 2، ص 99 ونزل برد عظيم الواحدة منه تزن رطلا وأكثر قتل الطير والوحش والبهائم وكثيراً من الناس وكسر الأشجار وأفسد الثمار سنة 339هـ، وفي سنة 342هـ، نزل برد كثير لم يعهد مثله كثرة قتل المواشي وأفسد الثمار وجاءت السيول عظيمة بجميع بلاد المغرب وفيها أيضاً كانت ريح شديدة هدمت المباني، انظر: السلاوي: الاستقصاء، ج 1 ص 176.

(1) ابن الصغير: تاريخ الأكمه، ص 361، ابن حوقل: صورة الأرض، ص 93.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 286، ابن أبي الضياف: انصاف، ص 132.

(3) اليعقوبي، وصف ص 12. ابن حوقل: المصدر السابق. ص 885 — 86.

## سياسة الدولة الزراعية:

يرى ابن خلدون «أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الزوائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الزوائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة أن كانت على سنن الدين فليست تفتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الزوائع ويضيف أنه: «إذا قلت الزوائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتماد ويتزايد الحصول الاغتياب بقلة المغموم» (1).

وبالفعل، فإن الرستميين لم يفرضوا ضرائب على الناس إلا ما أمر الله به وأوجبه، وربما كانت الأهداف السياسية تتحكم إلى حد بعيد بالسياسة المالية، فإذا لم يكن للدولة مطامح سياسة وتوسع، لم تعد بحاجة إلى تكديس الأموال الخاصة من الضرائب المتنوعة.

ويضيف ابن الصغير أن الرستميين اقتصرت جباياتهم على الصدقة والخراج والجزية، فكان أهل الصدقة — وهم المشرفون على جبايتها — يخرجون في أوالي الطعام فيقبضون أعشارهم — لا يظلمون ولا يظلمون كما يفيد أنهم كانوا يجيئونها حياء، وهي مسألة على غاية الأهمية بالنسبة للفلاحين، ويبدو أن الامام عبد الرحمن بن رستم قد ساهم في بعض المشاريع التي تخدم الزراعة، فذكر ابن الصغير أنه كان إذا فضل مال بعد دفع الرواتب «صرفه في مصالح المسلمين» فيكون قد ساعد الناس حتى يتمكنوا من الشروع «في العمارة والبناء وأحياء الموات وغرس البساتين وأجرء الأنهر واتخاذ الأرحية والمستغلات» (2).

ويكون الأئمة بعده قد ساروا على هده، لأن الشراة كانوا يراقبون تصرفات الامام، فذكر ابن الصغير بخصوص الامام اقلح أنه «لم يكن الشراة تطعن عليه في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في اعشاره» (3).

(1) ابن خلدون: نفس المصدر ص 279.

(2) ابن الصغير: تاريخ الأئمة، ص 327، 324، وجاء في الأصل «الرحاء». ذكر ابن عذارى أن عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب «أحدث بالفريقية وجوها من الظلم شنيعة منها أنه قطع العشر حيا وجعله ثمانية دنانير للفقير أصاب أو لم يصب من الظلم شنيعة منها أنه قطع العشر حيا وجعله ثمانية دنانير للفقير أصاب أو لم يصب» وأضاف بخصوص ابراهيم بن أحمد الأغلب أنه أراد أن يرضي العامة ويستميل قلوب الخاصة لهذا «أخذ العشر طعاما»، ابن عذارى: البيان ج 1 ص 131.

(3) ابن الصغير، المصدر السابق، ص 333.

وقد ساعدت فترة الهدوء التي عاشها السكان طيلة حكم الائمة الرستميين تقريباً على اتساع الميدان الزراعي.

وقد خدمت التجارة والصناعة الزراعة، لأن الفلاحين بدأوا لا ينتجون للاستهلاك المحلي فحسب، بل وللتصدير أيضاً، كما أن فتح أبواب تاهرت أمام الناس على اختلاف مذاهبهم وبلادهم وأجناسهم أثر قدماً في ازدهار الزراعة، وهكذا ظهرت تاهرت في عهد اليعقوبي (جريدة المقدار عظيمة الأثر<sup>(1)</sup>)، وهذا نفس ما يمكن أن يقال بخصوص الامارات العلوية.

ويختلف الأمر بالنسبة للفاطميين، فقد كانوا يرمون الى أهداف بعيدة وتنتظرهم مسؤوليات جسيمة<sup>(2)</sup>، فكانوا يدركون والحالة هذه أن الضرائب الشرعية لا يمكن أن تكفي لاعداد قوة جارية تحقق تلك الأهداف، أو تفي بمتطلبات الجيش خاصة وان السكان ينتجون ما يسد حاجة البلاد أو يزيد قليلاً بغرض التجارة، كما أن الشرع قد حدد أوجه انفاق الزكاة، وكانوا في نفس الوقت يدركون امكانية بلاد المغرب الاقتصادية لو أحسن استغلالها، بسبب خصوبة تربتها وقوتها البشرية، فانتهجوا سياسة في المجال الاقتصادي تختلف عن سابقيهم.

فهم قد أوجدوا ضرائب جديدة، واعطوا الضرائب الشرعية مثل الغنمة تفسيراً خاصاً بهم مستندين الى قواعد شرعية، واعتمدوا الحزم والصرامة أساساً في سياستهم المالية.

(1) اليعقوبي: وصف، ص 13، المقدسي: احسن التقاسيم، ص 228.  
(2) دخل الشاعر سعدون الورجيني على عبيد الله المهدي فأثنىه أبياتاً منها. ومن البحر الكامل:  
هذا أمير المؤمنين تضعضت لخدمته أركان كل أمر  
هذا الامام الفاطمي ومن به أمنت مفسارها من الخنور  
والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور  
حتى يفوز من الخلافة بالنسي ويفاز منه بعدله المنصور  
القاضي النعمان: انتاج الدعوة. ص 255، وانظر القصيدة كاملة في: محمد اليعلاوي: الأدب بافريقية  
في العهد الفاطمي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 1، 1986م، ص 36 - 37، ثم انظر قصيدة  
للخليفة القائم الفاطمي في نفس المرجع، ص 98 - 99 ومنها:

فقد أزمعت عجلي اليكم سرية تجوب بلاد الله ذات المرحل  
الى أرض مصر والعراق، وبهذهما فينداد هتي من جميع المنازل  
فإن بها جوراً شديداً وقتة وفيها أناس كالشوام الموائل  
يمادوننا ظلماً ويهونوننا فكنا وكم جرعوننا من مرارة ثاكل  
فسوى على اسم الله عجلي، وشمرى الى بابل حتى نخلي ببابل

الآن استعمال هذا الأسلوب لا ينم عن ظلم بقدر ما ينم عن رغبة المنصور في ضبط الأمور والجد في العمل، وحين تدعو الضرورة فإن الفاطميين يعتمدون أسلوباً مخالفاً، فإن المعز الفاطمي ينصح صافي — والي قصر الافريقي — «ان يستعمل مع السكان اللطف والمدارة، وصحة العزم»، واستعمله مع أهل كتامة، فبعث المعز خفيفاً الصقلي الى شيوخ كتامة: «يا إخواننا قد رأينا أن ننقذ رجالاً الى بلدان كتامة يقيمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعيهم ويحفظونها عليهم في بلادهم فإذا احتجنا اليها انقذنا خلفها فاستعنا بها على ما نحن في سبيلها»<sup>(1)</sup>.

ومن أجل ضبط الموارد المالية، فقد أقام الفاطميون دواوين متعددة متخصصة، فجعلوا ديواناً للخراج وديواناً للضياع وآخر للمظالم وآخر للمحاسبة وفوق هذا كله، كان الفاطميون يثبون عيونهم على ولايتهم وعملهم لتلا يظلموا الرعية، فإن القاضي النعمان يذكر للخليفة المعز الفاطمي: «لا تدع مع ذلك تفقد أعمالهم وبعثه العيون عليهم من أهل الأمانة والصدق فإن ذلك يزيدهم جدّاً في العمارة ورفقاً في الرعية وكفا عن الظلم وتخفلاً من الأعوان»<sup>(2)</sup>.

وقد توخى الفاطميون العدل، ويبدو أنهم كانوا لا يتساهلون في أمر فرضوه ولا يؤجلون فإن المعز الفاطمي كتب الى جوذر: «أمرنا أصحاب الدواوين الا يقبلوا من العمال الا اتصال مال كل سنة عند انقضائها فمن عجز عن الوفاء في أول سنة كان عنه في التي تليها أعجز وتلافي النظر في الأول أحق من النظر في أديار الأمور»<sup>(3)</sup>. وبلغ من حزم الفاطميين أنهم لم يتنازلوا عن مغرم من المغارم بأية حال من الأحوال، فلم يفتح «السلطان قط فيها باباً من التخفيف لولد من أولاده ولقائد من قواده» وبالفعل حين امتحن أبو جعفر أحمد بن زيادة بمغارم السلطان الحادثة على أهل الضياع انكشف واكب عليه الغرم والاقلال وتكاملت عليه مع ذلك المغارم فلجأ بنفسه الى محمد بن أحمد البغدادي

(1) الجوزري: نفس المصدر، ص 94، ابن أبي الضياف: الخاف، ص 161، كان أبو عبد الله الشيعي قد ترك الأموال في أيديهم تطبيقاً لمخاطرتهم، القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 127.

(2) القاضي النعمان: دعائم الإسلام، ج 1، ص 361، ولي أبو القاسم بن القديم ديوان الخراج في عهد عبيد الله المهدي وولي خليل بن أسحق ديوان المحاسبة، ابن عذاري: المصدر السابق، ج 1، ص 215، النعمان: افتتاح، ص 278.

(3) الجوزري: سيرة جوذر ص 96. في هذا حث الفلاحين على العمل ويصل الفاطميين مال مضمون.

متوسلا به الى عبيد الله المهدي، فلم ينفذ هذا التوسل في اعفائه من المغرم، لكنه افاده في حصوله على صلة من الخليفة أخذها فدفعها لصاحب ديوان المغارم.

ويبدو أن الفاطميين كانوا يتركون بعض أموال الخراج بأيدي الفلاحين شريطة أن يحضروها متى طولبوا بها لصرفها في سنين القحط والأزمات وتسمى هذه المبالغ «بقايا» أو «فضل» فيذكر ابن عذاري أنه في سنة 305 هـ أخذ أهل الضياع بأعمال افريقية بمغرم سمي التضييع وزعموا أنه من بقايا التقسيط، فمن المرجح أن هذا المغرم كان بقايا مرت عليها فترة طويلة، وإن الفلاحين لم يحتفظوا بها فارتأوها مغرمًا، بل يبدو أن الفاطميين أمام ظروف معينة يضطرون الى اسقاط الخراج، فذكر الدباغ ان المنصور الفاطمي «لم يزل على الحالة الحسنة من العدل والعمو والحلم واسقط الخراج عن الرعية حتى صلحت أحوالهم» (1).

وإذا كان نظام التقبيل قد عرف بأنه نظام مجحف بحق الفلاحين، فإنه كان على صورة أخرى في عهد الفاطميين، فإنهم قد طبقوا هذا النظام على بعض مناطق المغرب، فكان جعفر بن علي متقبل المسيلة في عهد المعز الفاطمي، ولم يقم جعفر هذا بظلم الناس وابتزاز أموالهم لجمع مبلغ الضمان، بل أنه حين أحسن بمعجزه عن جمع المال، ارسل كتابًا الى الخليفة الفاطمي «يصف دخل البلد، وانه ينصرف وتافه يسير بالاضافة الى ما أعطي فيه من الزيادة». ويضيف أن البلد لا يفي بما ذكر ولكنه يبذل مجهوده ويستفرغ وسعه وطاقته (2). وهو بهذه الرسالة يطلب تخفيض مبلغ التقبيل، فجاءه الرد «والله الذي لا اله الا هو لقد بذل لنا فيه جماعة من الأولياء، والعبيد سبعين ألف دينار في السنة وأقل وأكثر فرفضنا اقوالهم ولم نغير نعمتنا عنده ظنًا منا بأنه يفي بدون ذلك فلو علمنا

(1) الدباغ: معالم، ج 1 ص 26، ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 182.  
جاء في خطبة المنصور الفاطمي: «وقد ترك الأمر اعز الله ما يجب عليكم في هذه السنة الآتية وهي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، من العشر، والصدقات وجميع اللوازم وفضل ذلك بجميع الناس مسلمهم وذميتهم رفقًا بهم وعونًا لهم على عمارة ارضهم ورواديتهم قليلاً الشاهد الغائب وليرجع كل بدوي منكم الى باديته بلا غزوة عليه ولا كلفة ثم أنه لا يؤخذ منكم في اقبال السنين الا العشر والصدقات... قرأ الخطبة جعفر بن علي في يوم الجمعة 14 محرم 335 هـ بجامع القروان. انظر: محمد البعلاوي: الأدب بالقرية في العهد الفاطمي ص 154 - 155.

(2) الجوزي: سيرة جعفر، ص 141.

ان مقدار دخل البلد على ما ذكر جعفر — في كتابه — ثم سألتاه عنه وحاسبناه عليه، فلا جعل الله لنا رزقاً غيره<sup>(1)</sup>. فلو كان بإمكان المستقبل ابتزاز أموال الناس ما احتاج جعفر الى رفع الكتاب الى الخليفة وعليه فإن بذل المستقبل جهده وطاقته تعني قدرته على حث الفلاحين وتشجيعهم على العمل الفلاحي، وقدرته على استغلال الأرض، وعلى هاتين الركيزتين يعتمد توفير مال الضمان.

وقد كان حزم الفاطميين هذا وتشددهم في جباية الأموال مدعاة لالحاق النقيصة والظلم في نظامهم المالي ووصفهم بالظلم، ووصية المعز الى بلكين حين عزم على الرحيل الى مصر توحى بهذا الوصف، ومما جاء فيها «لا ترفع الجباية عن أهل البادية»<sup>(2)</sup>. وقد دحض ابن أبي الضياف هذا الاتهام وكشف سر سياسة الفاطميين وخاصة موقفهم من أهل البادية فذكر أن تلك الوصية كانت لأن «أهل البوادي لولا الجباية ما عمروا أرضاً ولا سعوا في تكسب لما في طباعهم من الدعة وأرزاقهم في ظل رماحهم ولبجتههم بذلك الى الأبنية من القرى والمدن وهو اثما أوصاه بعدم المساعدة في الجباية التي هي الأموال لا بالظلم والأخذ الويل»<sup>(3)</sup>.

وعليه بات من المرجح أن الفاطميين كانوا حريصين على فرض حياة الاستقرار على القبائل الطاعنة للاستفادة من طاقتها البشرية في اصلاح الأرض واستغلالها، وحريصين على حث الفلاحين على زيادة انتاجهم، وبالتالي زيادة دخل الدولة وربما في اطار هذا الباب تم احياء مدن وبناء أخرى جديدة في العهد الفاطمي.

(1) نفس المصدر، ص 130.

(2) ابن أبي دينار: المؤنس في اخبار افريقية وتونس. تحقيق وتعليق محمد لحام، تونس 1967 ص 75. ابن أبي الضياف: انحاف، ص 166. وعن وصف سياستهم المالية بالظلم انظر: مرمول: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية. مجلة الاصاله، نوفمبر 1977 وردت الوصية عند الدرجيني بصورة أخرى «قال له: اسكنني في أولاد الجحوس زنقة ومزاة، واعلم اني قد تركت لك بافريقية مائة الف منزل فمتى همت بمحاربة عدو فاجعل على كل منزل فارساً واحداً...»

انظر: الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب. ج 1. ص 138.

(3) ابن أبي الضياف: انحاف ص 166.

وقد وضع القاضي النعمان دستورًا جبايًا للفاطميين جاء فيه «تعاهد أهل الخراج وانظر كل ما يصلحهم فإن في صلاحهم صلاح من سواهم... فليكن نظرك في عمارة ارضهم وصلاح معاشهم أشد من نظرك في زجاء — جباية — خراجهم فإن الرجاء لا يكون الا بالعمارة» وأضاف «فإن شكوا اليك ثقل خراجهم أو علة دخلت عليهم من انقطاع شرب أو فساد أرض غلب عليها غرق أو عطش أو آفة مجحفة خففت عنهم... وأمر بالمعونة على اصلاح ما كان من أمورهم فيما لا يقوون عليه»<sup>(1)</sup>. ومن المرجح أن الفاطميين لم يكونوا في غفلة عما ذكره القاضي النعمان بقوله: «أن عمران البلاد انفع من عمران الخزائن لأن مادة عمران الخزائن انما تكون من عمران البلاد».

ويبدو أن الزيريين قد ساروا على هذه السياسة الفاطمية، «فإن بلكين الزيري قد قبل الالتزام بوصية المعز الفاطمي له، وهي التي كان رفضها جعفر بن علي، وقد استلم أبو الحسن ابن البوني سنة 379هـ أمور افريقية» فكان أهل الحاضرة معه في أمن وعافية وأهل البادية في عذاب وغرامة<sup>(2)</sup>. ولا تؤخذ هذه العبارة على ظاهرها لأن ما يتعلق منها بأهل البادية يخضع لوصية المعز الفاطمي وينبغي عليها.

كما أن المنصور الزيري ترك «البقايا للرعايا»<sup>(3)</sup>. سنة 382هـ وهو ما فعله من قبل المنصور الفاطمي، وقد كان لهذه السياسة نتائجها وثمارها فاشتهرت بلاد المغرب الأوسط ببساتينها وحقولها وزراعتها المختلفة ناهيك عن الأموال التي تكدمت في خزائن الدولة والتي ظهر منها محملا مع الفاطميين الى مصر، وهذه السياسة هي التي مكنت المنصور الزيري أن يرسل هدية الى مصر سنة 374هـ وقيمتها ألف ألف دينار.

(1) القاضي النعمان: دعائم الاسلام، ج 1 ص 362.

(2) ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 245.

(3) نفس المصدر، ج 1، ص 246، «أما السلاطين الجورة فهم الذين تغلبوا على الناس لا يرعون شرعا ولا يدعون اليه ولا يعملون به وعطلوا الزكاة والصدقات والمشور والمخراجات... كأولاد بلكين بن زيري انظر. الورجلاني: الدليل والبرهان. المطبعة البارونية 1306هـ القاهرة، ج 3 ص 46 — 47 ويعتبر هذا حكم الاباضية.

## الحاصلات الزراعية:

اشتهرت بلاد المغرب الأوسط بحاصلاتها الزراعية المتنوعة والوفيرة حتى أن ابن حوقل أشار إلى أن ما حادى أرض إفريقية إلى آخر أعمال «طنجة في بلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياح والمياه» وأشار ابن خردادبة في وصفه المناطق الممتدة بين تاهرت وتلمسان إلى أنها «عمران كلها»<sup>(1)</sup>.

وحقاً فقد كانت بلاد المغرب الأوسط وفيرة الانتاج الزراعي، فإن ابن الصغير يشير إلى «بساتين قد غرست» في تاهرت وذكر منزل محمد بن حماد الذي «جمع الأشجار والأنهر والمزارع» وأشار ابن حوقل — وهو الذي وصف أهلها بالفقر — إلى أشجار وبساتين تاهرت ثم أردف قائلاً: انهم يكثر عندهم «ضروب الغلات» وهذا يتفق وما ذكره العريزي من أن تاهرت «بها البساتين الكثيرة المؤنقة والفواكه الحسنة والسفرجل الذي ليس له نظير طعماً وشماً» وبناء على ما ذكر صاحب «كتاب الاستبصار» فإن هذه «البساتين كثيرة، فيها جميع الثمار» وقد عبر المقدسي عن إعجابه ببساتين تاهرت في عبارة أدبية فذكر أنها «التفت بها الأشجار وغابت في البساتين»<sup>(2)</sup>.

ويظهر أن تلمسان لم تقل شهرة زراعية عن تاهرت فوصفها ابن حوقل بأن «غلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة» كما أشار البكري إلى أشجارها وفواكهها وذكر الإدريسي بشأنها أنها «وما جاورها من المزارع كلها سقي وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمّة وخيراتها شاملة» ويصفها صاحب كتاب «الاستبصار» من جهته أنها «كثيرة الخصب وخصبة الأسعار كثيرة الخيرات والنعم» وإلى الجنوب منها قلعة ابن الجاهل وهي «كثيرة الثمار».

وكانت وهران كذلك، فوصفها ابن حوقل أنها على «واد عليه بساتين وأجنة كثيرة فيها من جميع الفواكه» وأشار البكري إلى أنها «ذات مياه سايحة

(1) ابن حوقل: صورة، ص 83، ابن خردادبة: المسالك، بغداد 1989، ص 88 ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ليدن 1302 هـ/1885 م ص 80.

(2) الاصطخري: المسالك والممالك، القاهرة، 1981 هـ/1961، ص 39، الفلقشندي: صبح الأعشى ج 5، ص 111، البكري: المغرب، ص 67، المقدسي: أحسن التقاسم، ص 228، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 86.



وأرجاء ماء وبساتين، ويكاد الرحالة يجمعون على أن وهران «كثيرة البساتين والثمار» (1).

ويشير الرحالة الى فواكه وبساتين افكان — فكان — فيذكر ابن حوقل أن لها فواكه، ويضيف المقدسي أنها «ذات بساتين» وقد أعجب الادريسي بفواكهها فذكر أن لها «فواكه كثيرة» ويفهم من البكري أن بعض بساتينها كانت منتشرة على نهرها فذكر أن بقبليها نهراً «عليه الإرجاء والبساتين من كلا ضفتيه».

وذكر ابن حوقل تنس، فأشار الى أن «بها فواكه حسنة» وصفها الادريسي أن «بها من الفواكه كل طريفة» وأضاف أن «بها فواكه وخصب ولها اقليم واعمال ومزارع» وكانت مدينة الخضراء التي يرى صاحب كتاب الاستبصار «انها سميت الخضراء، لكثرة بساتينها» «لها ناحية خصبة ولها فواكه» فكانت في عهد يعقوبي «يتصل بها مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع» (2).

وكانت مستغاث ذات بساتين، فقال فيها القلقشندي أنها «زكية الزرع والضرع» وكان حصن هتين اكثر الحصون «بساتين وضروب ثمر» وكانت قلعة هواره — غربي مستغاث — في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع، وكانت مدينة جراوة أبي العيش تحيط بها «بسايط عريضة للزرع والضرع» وكانت مدينة وجدة قد «أحدقت بها البساتين وهي كثيرة الأشجار والفواكه، طيبة الغذاء، جيدة الهواء، وعبر صاحب «كتاب الاستبصار» عن وفرة خيراتها بأنها «كثيرة البساتين والجنات والمزروعات».

وكانت ترنانا لها بساتين كثيرة، وذكر ابن حوقل بشأنها أن لها «فواكه واسعة عظيمة» وللمدينة حصن تاونت «له بساتين وشجر كثيرة يحمل من زبيب تينه الى ما يليه من النواحي» وكانت تاتانلوت ذات أجنة وفواكه وكانت عين

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 88 — 79، مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص 134، 176. الادريسي: صفة، ص 80 — 94.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 88 — 78، المقدسي: المصدر السابق، ص 229، يعقوبي: وصف، ص 13، البكري: المغرب، ص 61، 75، 79، الادريسي: المصدر السابق، ص 82 و 83، 84.

الصفصاف «بها فواكه كثيرة وزروع وتعم دائرة» فكانت المزارع منتشرة على ضفاف نهر سطفسيف خاصة في موضع يسمى المهماز(1).

وكانت تاجنة «لها فواكه» ويبدو أنها أخذت اسمها لتشبيها بالجنة في وفرة خيراتها وتنوعها، ويصف اليعقوبي مدينة يلال بأنها «لها مزارع وقرى وعمارات وزرع وأشجار» وكانت مدينة شلف ذات «نهر وشجر ومزارع» ومثلها كانت معسكر كما كانت مدينة العلويين «ذات أجنة» وعلى نهر لها عليه «فواكه عظيمة» وهو نهر سي بن دمر عليه بساتين كثيرة ويصفها الادريسي بأن بها «جنان وفواكه فاضلة وخيراتها شاملة» وكذلك كانت الغزة على نهر شلف «كثيرة البساتين ولها مزارع» وكانت دارست — مرحلتان شرق تاهرت — «زراعتها كثيرة ومواسيها عامة»(2). ولمدينة بني واريغن كروم وجنان — وكان للزونة أنهار ومزارع وبساتين، بل كانت بناء على وصف الادريسي لها: من «أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصبا» وكان جبل توجان ذا بساتين؛ وكذلك ابن عجير كثيرة الزروع، وقرية ابن ماما لها واد عذب عليه مزارع وغلات، ويصف ابن حوقل برشك بأن بها «فواكه حسنة غزيرة» ولهم من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد عن حاجتهم» ومثلها كانت شرشال(3).

ويصف اليعقوبي متيجة بأنه «بلد زرع وعمارة» وقد أشار المقدسي الى كثرة بساتينه وتقوم فيه مدينة قزرونة وهي على نهر عليه «البساتين ولها مزارع ومسارح» ويصف الادريسي قرية مرسى الدجاج بأن لها أرضا «ممتدة وزراعات متصلة واصابة اهلها في زرعهم واسعة وحنطتهم مباركة وسائر الفواكه واللحوم بها كثيرة» وكانت مليانة كريمة المزارع ولها نهر يسقى أكثر مزارعها وحدائقها

(1) ابن حوقل: صورة، ص 88، البكري: المصدر السابق، ص 142.80.69. الادريسي: المصدر السابق، ص 83،80، ابن عذاري: البيان، ج 1 ص 196، مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 178.177.

(2) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 14، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 89.86، المقدسي: المكان السابق، البكري: المغرب، ص 48.71، الادريسي: المصدر السابق، ص 87.83.

(3) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 101، 77، 86. الادريسي: وصف، ص 87 وهو ينفل حرقيا عن ابن حوقل.

وجنتها، ولها بساتين فيها جميع الفواكه ومزارع واسعة. وكان سوق كرام في عهد اليعقوبي «بلد زرع» وكذلك كان في عهد ابن حوقل، ومثله كان حصن مصادف بن جرتيل، فقد وصفه اليعقوبي بأنه «بلد زرع وحواش» وأضاف ابن حوقل انه «قرية كبيرة كثيرة الزرع» (1).

وكانت هازبلد عمارة وزرع وضرع، وإن وصفها ابن حوقل بعد ذلك بأنها خربت — كما سلف — وكانت ريفنة «ذات فواكه واجنة ومزارع، ولها أرض متسعة وحروث ممتدة، وفواكه وبساتين» وكذلك كانت المسيلة «عمارة في بسيط من الأرض ولها مزارع ممتدة أكثر مما يحتاج اليه» وكان ابن حوقل قد وصفها في عهده انها ذات «كروم واجنة كثيرة تزيد عن حاجتهم» ويؤكد البكري هذا الوصف، فيذكر «حولها بساتين كثيرة» وكانت أشير «كبيرة البساتين والزروع... وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة».

ويصف البكري قلعة ابي طويل بأن فواكهها كثيرة وأضاف انها كثيرة الى حد الرخص؛ كما أن الادريسي أشار الى أنها «بلاد زرع وخصب» وانها من أعم البلاد فواكه وخصبا (2).

وكانت مدينة الغدير — غديروروا — في فحص لعجيسة «كثيرة الزرع» وهي مدينة حسنة «ولأهلها مزارع وأرضون مباركة والحراث بها قائم الذات»، ويصف اليعقوبي ميلا بأنها «بلد عامر كثير الأشجار والثمار» وكان حصن تأكلات — قصور حسان — به فواكه ولحوم كثيرة، رخيصة وبساتين وجنت، كما كانت سطيف كثيرة المياه «والشجر المثمر بضروب من الفواكه».

وكذلك كانت بجاية لها بواد ومزارع وسائر الفواكه بها، وكانت تادلس بها من رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد مثله،

(1) اليعقوبي: صفة، ص 12، ابن حوقل: صورة الأرض، ص 89.86.77. البكري: المغرب ص 65، الادريسي: وصف، ص 89.84. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 171.132.  
(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 85، البكري: المصدر السابق، ص 59، الادريسي: المصدر السابق، ص 91.86.85. مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 172.

وكانت جبال الرحمن «كثيرة الثمار والأنهار وفيها مزارع كثيرة» وكذلك كانت مقرة «فيها مزارع» ونقاوس فيها «اجنة عظيمة وبها جميع الفواكه» وكانت طينة «كبيرة البساتين والزروع وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة» وكذلك كانت تبسة على نهر «كثير الفواكه والأشجار» ويشير ابن حوقل الى ما في بونة من «خصب ورخص وفواكه وبساتين» (1).

وقد وصف أبو الفداء مدينة طينة — ربما نقلا عن العيزي — انها «كثيرة المياه والبساتين والأهل والزروع» كما يصف بسكرة — نقلا عن أبي سعيد — ب«انها ذات نخيل وزروع كثيرة» (2).

ومما تجدر ملاحظته أن ما ذكر آنفا هو عبارة عن اشارات عابرة الى وفرة الخيرات في بلاد المغرب الأوسط، وهذه المدن التي ذكرناها هي صورة عن غيرها من القرى والمدن في البلاد، وقد كانت هذه البساتين والمزارع تحتوي على المحاصيل التالية ومن أهمها:

— القمح والشعير: تقوم زراعتها بشكل واسع لأنها المادة الغذائية الرئيسية، فمنهما كان خبزهم ومن جهة ثانية فإن هذين النباتين لا يحتاجان الى امطار غزيرة ولا يتطلبان أعمال الري وهذا ما ييسر أمر زراعتهم في كل مكان، كذلك فهما بالامكان تخزينهما.

وإذا كان الرحالة قد أهملوا ذكر زراعتهم في بلاد المغرب الأوسط، فذلك ضمن اهتمام الحياة الاقتصادية بصفة عامة، ولأن زراعتهم تعتبر أمرا مفروغا منه بدافع ضرورة العيش، وعلى أية حال، فقد أشار ابن حوقل الى بونة فذكر أن «القمح بها والشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له» ثم أشار الى رخص الأسعار في مرسى الدجاج الذي ذكر الادريسي بخصوص أهله أن «حتنظهم مباركة» وأضاف بخصوص يرشك أن لأهلها من «الحنطة والشعير ما يزيد عن حاجتهم» وان أهل وهران «غلاتهم من القمح والشعير» وكانت طينة «كثيرة البساتين والحنطة والشعير وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة»، وحين يذكر ابن حوقل

(1) اليقيني: المصدر السابق، ص 11، ابن حوقل: المصدر السابق، ص 77، 85، الادريسي: المصدر السابق، ص 92، 93. مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 167. أبو الفداء: تفويم البلدان، ص 141، باريس، دار الطباعة السلطانية، 1840م.

(2) أبو الفداء: المصدر السابق، ص 139.

مسيلة يشير الى أن من غلات اهلها الحنطة والشعير، واكتفى عند ذكر تاهرت ان اهلها يكثر عندهم «ضروب الغلات»، وكانت غرودان — مرحلة من تيجس — «بلد قمح وشعير» كما كانت دكمة — من أرض كتامة — غلاتها «من القمح والشعير وافرة»<sup>(1)</sup>.

وأفاد الادريسي في الكشف عن حقول القمح والشعير، فذكر أن بجاية «لها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران» وكان سكان جزائر بني مزغنة «زراعتهم الحنطة والشعير» وكان أهل قصر القلوس «غلاتهم من القمح والشعير» وقلعة بني حماد «حنطتها رخيصة» دليل على وفرتها، وكانت تنس «بها الحنطة ممكنة جدا وسائر الحبوب موجودة» ولأهل شرشال «من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد عن الحاجة»، وكانت قرية ابن ماما «اصابها في الحنطة كثيرة» وكذلك فحص زيدور الممتد بين تلمسان وارشكول، فقد كان صالحا «لحرث القمح وهو مبارك مشهور بالبركة»<sup>(2)</sup>.

وقد عبر الادريسي عن وفرة القمح والشعير في مناطق السهول المرتفعة حين ذكر قسنطينة، وان حنطتها تخزن في المطامير مائة عام، وأنه يوجد مطمورتان وثلاثة وأربع في كل دار، ومثله فعل القلقشندي بخصوص مستغافم، وأشار الدرجيني من جهته الى القمح في تاهرت حين ذكر سفر أبي مرداس الى تاهرت فكان «إذا قدم تاهرت فحصد الناس زرعهم ولقط اللقاطون السنابل التي تبقى بعد اللقطين ورعي المواشي تعقبهم أبو مرداس فيلقط ما يقوم بقوت عام»<sup>(3)</sup>.

ويبدو أن زراعة الحنطة كانت واسعة حقاً بسبب استعمالها المتعددة مثل تحضير الخبز، وبعض أنواع الطعام والحلويات، وقد ساعدت قابليتها للتخزين على أداء هذا الغرض، فإذا كان القمح يمحك في مطامير قسنطينة مائة سنة — كما سلف — فإنه يمحك ست سنوات في مطامير مستغافم، ذكر الادريسي أن الحنطة تخزن في قلعة بني حماد «فيبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يمتريها التغير»<sup>(4)</sup>. وربما لهذه الأهمية أشار ابن عبدون الى أن الحنطة

(1) تنس المصدر، ص 77، 78، 85، 86، 88.

(1) الادريسي: صفة، ص 83، 86، 87، 89، 90، ابن حوقل: صورة، ص 78، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار. ص 134.

(3) الفرجيني: طبقات، ج 2، ص 293. الادريسي: صفة المغرب؛ ص 95 — 95.

(4) الادريسي: الفصل السابق، ص 91.

«تذهب النفوس والأموال وبها تملك المدائن والرجال ويبطالها تفسد الأحوال وينحل كل نظام».

ويرى الدمشقي أن الخنطة تختلف عن بعضها البعض ، وإن الصالح للخنز منه «ما كان اسمر لونا وأصلب جسما أو ما كان عديبا أو في مواضع جبلية وما كان منه غير معسوب — مكسر — وقد كمل سمته واحكم جفافه وأقام في بيئته» ويرى ضرورة توفر بعض الشروط في الخنز، فيكون «ناشفاً وحيطانه وأرضه ناشفة من البلل والنداوة فإن كانت أرضه مبلطة فهو أفضل» ويبدو أن بعض المطامر كانت تتسع المطمورة منها إلى مائتي قفيز. ويرى — الدمشقي — ضرورة جعل البنائير ومصائد الفئران ووضع أدوية لقتلها مثل الحريق الأسود، والزرنيع والمرتك<sup>(1)</sup>.

وفي أحيان أخرى يلجأ الناس إلى تخزين الدقيق في خواري تكون في ناحية من نواحي المنزل<sup>(2)</sup>.

وقد كانت هذه الوسائل من مطامير وخواري وجوالق معروفة في بلاد المغرب الأوسط، فقد عثر جورج مارسى G.Marçais على عدد لا بأس به من المطامير في مدينة تاهرت<sup>(3)</sup> وذكر ابن الصغير الأهراء حين أشار إلى الامام عبد الرحمن بن رستم إذ أنه «أمر بإحصاء ما في الأهراء من الطعام».

ويبدو أن سكان بلاد المغرب الأوسط كانوا كثيرهم من سكان بلاد المغرب يعرفون أكل القمح فريكا، ويظهر هذا من عبارة للزرركشي، «أكل القمح فريكا»<sup>(4)</sup>.

وكانت عملية الحصول على القمح الصافي تمر بعدة مراحل، فيحصد الزرع ويلقى أعمازا على الأرض، ثم تجمع هذه الأعماز وتحمل على الحيوانات

(1) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة إلى عمارات التجارة. تحقيق البشري الشاذلي، مطبعة القد — الإسكندرية. 1397هـ/1977م. ص 49، الدباغ: معالم، ج 2 ص 344.

(2) تاريخ الدولتين. تونس، 1289هـ/1872م. ص 45. الدرجيني: طبقات ج 2. ص 414. ابن عذاري: البيان ج 1 ص 123.

(3) الحشني: قضاة قرطبة، ص 74.

(4) بورويعة رشيد: الفن الرستمي بتاهرت ومدرسة، مجلة الأصالة، ع 41، الجزائر 1977، ص 184. Bourouiba Rachid: «Tihert à l'époque rostémide». *Algerie-Actualité*, N° 495 de 1975.

G.Marçais et A.Dessus-Lamar: Tihert, Tagdemt. R.A.1946.

كالجمال الى البيادر أو الأندر، حيث تقوم الدواب كالبحر بدرسه، فذكر الزركشي أن القمح «إذا حصد جمعت الأغمار» وذكر الدرجيني بخصوص رجل يدعى ابا صالح انه «كان في أيام الحصاد يحمل الزرع الى الأندر على ناقة له»، وكان أبو عبد الله الشيعي عند دخوله أرض كتامة قد «مرّ في الطريق بأندر والبحر فيه تدرس الزرع».

— القول: ذكر الادريسي مسيلة وأشار الى أن «لاهلها بقولا» على أن هذه المزروعات كانت تعم أرجاء المغرب الأوسط، وذكر ابن بصال من القول التي كانت معروفة: اللفت والجزر والفجل والثوم والبصل والكرات والكرنب والقرنبيط والاسبناخ والسلق والخس وغيرها، ويذكر ابن فضل الله العمري هذه الخضار نفسها ثم يضيف اليها مثل الباذنجان والبقلة والملوخيا والخيار والقثاء واللوييا والهيلون والصعتر وغيرها، وقد أشار القاضي عياض الى وجود الخرشف في الأندلس مما يرجح وجوده في بلاد المغرب الأوسط أيضاً، وقد ذكر الادريسي البصل في بني واريغن وذكر القاضي عياض القرعة والبسباس وهذا الأخير هو الرازيانج عند أهل المغرب والأندلس، وذكر ابن خلدون من جهته الفول والكرنب والخس واللفت والقثاء والفقوس وغيرها عند اشارته الى حصار المرينيين لمدينة تلمسان، ويبدو أن الرحالة كانوا يكتفون عند ذكرها بذكر الجنان أو المزرعة أو البستان هروباً من تعدادها(1).

القطاني: لم يرد لها ذكر في كتب الرحالة بخصوص بلاد المغرب الأوسط، لكن هذا لا ينفي وجودها، فقد ذكر الحموي أن باجة «بها حمص وفول» ويشير ابن حوقل الى وقره القطاني في مدينة البصرة — بصرة المغرب — ويذكر ابن بصال من القطاني: الحمص والفول واللوييا والعدس والجلبان والسمن —

---

(1) الادريسي: صفة، ص 84، 86. ابن بصال: كتاب الفلاح. ص 1411 — 161. وكان يستخرج من فلول الفلت والجزر زينا للمصاييح، انظر: ناصر خمرزو: سفر نامه، ص 105، القاضي عياض: ترتيب ج 3، ص 501، ابن فضل الله العمري: وصف إفريقية والأندلس. نشر: حسن حسني عبد الرهاب. مطبعة النهضة — تونس، بدون تاريخ. ص 5.

الجلجلان — وغيرها. ويمكن ترجيح اهتمام السكان بزراعتها لأنها تجفف فتخزن لتستعمل في باقي فصول السنة<sup>(1)</sup>.

— اللوز: أشار القاضي النعمان الى «جنان لوز على طريق الأربس شقبنارية» كما أشار الرحالة الى وجوده في تونس، وهذا يعني وجوده أيضًا في بلاد المغرب الأوسط، وكان من النوع السهل الكسر وهو ما يعرف باللوز الفريك، وتأتي أهمية اللوز في انتاج بعض الحلويات خاصة<sup>(2)</sup>.

— الجوز: كان جبل تلمسان «شجرة الجوز» وكانت مستفانم «بها شجر الجوز على كثرة» وكذلك كانت سطيف «بها الجوز الكثيرة ومنها ما يحمل الى سائر البلاد» ويصف الادريسي جوزها بأنه «بالغ الطيب حسن وياع بها رخيصًا» واشتهرت نقاوس بالجوز حتى لفت نظر المقدسي بكثرتة وهو الذي اغفل ذكر المزروعات، ويشير البكري الى أشجار مدينة تبسة «ولا سيما الجوز فإن المثل يضرب بجلالته هناك وبكبره وبطيئه»، كما أشار بورويبة رشيد الى وجود الجوز في بجاية وجيجل ومن المرجح وجوده في مناطق أخرى من بلاد المغرب الأوسط<sup>(3)</sup>.

— البطيخ : وردت اشارات تفيد في الكشف عن وجوده في ولاية افرقية والمغرب الأقصى والأندلس، وعليه فقد كان موجودًا أيضًا في هذه البلاد — المغرب الأوسط — وكانت منه ستة أنواع، ويعرف هنا بالدلاع<sup>(4)</sup>.

---

(1) الحموي: معجم، ج 2، ص 25، ابن حوقل: صورة، ص 81، ابن بصال: المصدر السابق ص 109 — 114.

(2) القاضي النعمان: افتتاح، ص 204، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 121، الحموي: المصدر السابق ج 2، ص 433. وعن زراعة اللوز. انظر: ابن بصال: المصدر السابق. ص 71.

(3) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج 5، ص 111، 150، المقلمي: احسن التقاسم، ص 230 البكري: الغرب، ص 76، 145. الادريسي: صفة، ص 98.

(4) ذكر ابن الأبار ادريس الأول «مات مسموما في بطيخة» انظر الحلة السراء ج 1 ص 53. ابن فضل الله العمري: المصدر السابق. ص 5. كان أفضل الأنواع الستة هو الفلسطيني ثم السندي، انظر

Imamuddin: Some Aspect...P.85.



— الرمان: كان الرمان يوجد في سجلماسة وفي نكور حسبما أشار إلى هذا المقدسي والبكري، وهذا يعني وجوده في المغرب الأوسط، وبالفعل فإن مدينة تلمسان تشتهر برمانها(1).

— الاجاص: يفيد ابن البيطار أن الاجاص كان يسمى «عيون البقر» في بلاد المغرب والأندلس، وهذا على الأقل يدل على زراعته في بلاد المغرب الأوسط(2).

— الكمثرى: أشار البكري إلى زراعته في نكور، وذكره ابن أبي زرع ضمن فواكه فاس، ويبدو أن الناس كانوا يجففونه أو يجيدون تخزينه فإنه يشير إلى أنهم يأكلونه صيفاً وشتاء.

— البرقوق: ورد ذكره عند ابن أبي زرع وعند ابن بصال وهذا يدل على زراعته في بلاد المغرب عامة ويرى بعض المؤرخين أن هذه التسمية تعود إلى أصل يوناني «بركوكا» وفي اللاتينية «بريكوك» Praecox ومنها انتقلت إلى اللغة الأرامية «برقوقيا» وإلى اللغة العربية «برقوق».

— المشمش: ذكر القلقشندي أن مدينة مستغانم «مشمشها يقارب في الحسن مشمش دمشق» كما ذكر ابن البيطار أن البرقوق «يقال على المشمش ببلاد المغرب، والأندلس»(3).

---

(1) ابن خلدون أبو زكريا: كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. نشر وتحقيق الفريد بل — 1903. الجزائر، ص 10، المقدسي: احسن التقاسيم؛ ص 231.

H.R. Idris: La Berbérie Orientale T.2.P.630

وعن غرسه: ابن بصال: كتاب الفلاحة. ص 61. وعن طريفة تصديره: أبو النصر عادل: تاريخ الزراعة القديمة، ص 57.

(2) عن الخوخ: البكري: المغرب، ص 76.62. وعن الاجاص: ابن البيطار: الجامع ج 1 ص 144 ويذكر ابن فضل الله العمري الاجاص وعين البقر كلا على حدة كفاكهتين مختلفتين. وعن زراعتهما انظر: وصف افريقية والأندلس، ص 67، 69.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس. ص 23. ابن بصال: المصدر السابق، ص 68. سجيرد هونكة: خمس العرب تسطع على الغرب، ص 470. القلقشندي: صبح الأعشى ج 5، ص 150. ابن البيطار: المصدر السابق ج 1، ص 89. وعبر الشاعر ابن رشيق القيرواني عن اهجابه بالمشمش في قصيدة: انظر: بوروية رشيد؛ الدولة الحمادية، ص 172.

— السفرجل: اشتهرت بلاد المغرب الأوسط بالسفرجل، فأشاد به الرحالة وبجودته، فذكر ابن حوقل أن مدينة تنس بها من «السفرجل المعنى مالا أزال احكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته» ويوافقه الإدريسي في هذا الوصف، فيذكر أن سفرجلها «الطيب المعنى ما يفوت الوصف في صفته وكبره وحسنه» كما ذكر ابن حوقل أن المسيلة «لهم من السفرجل المعنى ما يحمل إلى القيروان واصله من تنس» وأضاف أن مدينة برشك فيها «سفرجل معنى كالقرع الصغار وهو طريف» ومثلها كانت شرشال، فذكر الإدريسي أنه كان فيها «سفرجل كبير الجرم ذو اعتاق كأعتق القرع الصغار وهو من الطرائف غريب في ذاته» ويبدو أن تاهرت فاقت سواها في سفرجلها، فذكر البكري أن «سفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما» وكانت مدينة الخضراء «بها السفرجل المعنى القراسي» ومثلها كان جبل زلدوي فيه «السفرجل الذي لا يوجد مثله في بلد». وإن ذكر هذه المواضع لا يعنى الحصر ويبدو أن الاهتمام بالسفرجل وغيره من الفواكه يعود إلى أكله طازجاً وإلى استعماله في صنع المعاجين والخبز (1).

التفاح: عرفت بلاد المغرب الأوسط زراعة التفاح، فاشتهرت جبجل بإنتاجه منه، وكان جبل زلدوي فيه مع جميع الفواكه من التفاح الجليل، وكان من أنواعه: الأطرابلسي وهو جليل حسن الطعم ويفيد ابن أبي زرع أنه تفاح أصفر، كما ذكر أنواعاً أخرى منها الطلحي والكلخي، ووصف الشاعر ابن رشيق التفاح في قصيدة يدل على أنه تفاح مشوب بالحمرة (من بحر الرجز).

تفاح شامية	من كف ظبي أكحل
ما خلقت مذ خلقت	نلك لغير القبل (2)
كأما حمرتها	حمرة خلد خجل

(1) ابن حوقل: صورة، ص 78. 85. 89، الإدريسي: صفة، ص 83. 84. 89. المغرب، ص 67، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 178. 166. ابن بصال: المصدر السابق ص 63. مؤلف مجهول: كتاب الطيخ في المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، ج 10. 9. 1961، ص 255.

(2) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 166، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 23، بوروية رشيد: الدولة الحمادية، ص 173 — 174. وعن زراعته انظر: ابن بصال: كتاب الفلاحة، ص 64.

— حب الملوك: يشير ابن البيطار الى ان المقاربة وأهل الأندلس يطلقون عليه «القراصيا» يوافقه في هذه التسمية ابن فضل الله العمري، الا أن أهل بلاد المشرق يطلقون عليه الجز — فإن ابن حوقل حين ذكر قسنطينة أشار الى أن «بها جميع الفواكه كاللوز والجزز والكروم»، وعلى آية حال فإن وجوده في قسنطينة يعني وجوده في جميع أنحاء المغرب الأوسط.

— التين: شجرة مباركة ذكر ابن حوقل وجودها في مرسى الدجاج فقال: أن به «التين خاصة العظيم الجسم ما يحمل منه الى البلاد النائية عنه» وكانت بحاجة كذلك، فذكر الادريسي أن «التين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد» وكذلك كان سوق ابراهيم «به شجر التين كثير جدًا ويعمل بها من التين شرائح على مثال الطوب وبذلك نسمي» وكانت مدينة تاجنة بها «تين عظيم» واشتهر حصن تاونت — على ساحل ترنانا — بالتين، فكان «يحمل من زيب تينه» ويصف هـ.ر. ادريس نوعًا من التين يدعى «خرمي» يصفه بأنه ذو قشرة رقيقة مملوءة بالعسل وبذوره قليلة. ويظهر أن اتساع زراعة التين تعود الى حلاوته وقابليته للتجفيف كما يظهر أن بعض الناس كانوا يتسرعون في قطفه فيلجأون الى انضاجه قبل أوانه بدهنه بالزيت» (2).

— الزيتون: شجرة مباركة نزل ذكرها في كتاب الله تعالى «ويعتبر من الأشجار الضرورية لتعدد فوائده، فإن الحب يصير ويستعمل طعامًا، ويدخل زينه في استعمالات عديدة، في تحضير الطعام، أو يؤكل بالخبز، ويستعمل للاضاءة وعلاجًا فقال عليه السلام اتدوموا بالزيت وادهنوا به فإنه شجرة مباركة».

وقد أشار ابن الصغير الى وجود الزيت في تاهرت فذكر أن الامام عبد الرحمن بن رستم اشترى زيتًا ووزعه على الفقراء، وقد ذكر المقدسي من غرى

(1) ابن البيطار: الجامع. ج 2، ص 5، ابن حوقل: صورة. ص 91، وعن زراعته انظر: ابن بصال: المصدر السابق، ص 68.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 77، 89، الادريسي: صفة، ص 89، 90، 83، البكري: المغرب، ص 80، يحيى بن عمر: أحكام السوق، ص 109. وما زالت هذه الطريقة منتجة عندنا حاليا في فلسطين.

تاهرت «الزيتونة» التي تكون حملت هذا الاسم من غيابها وسط أشجار الزيتون، وكذلك كان في نواحي تلمسان في جبل مديونة «وادي الزيتون» وكانت مقرة «زيتها اطيب الزيوت» ويذكر البكري أن بسكرة «كثيرة النخيل والزيتون» وكانت جبال كثامة قد اشتهرت بزراعته، ويبدو أن كل تجمع سكاني كان يبادر الى غرس الزيتون(1).

كان الزيتون يعامل بطريقة بدائية بعضها مازال متبعًا حتى الآن، فكانت الحبوب تهرس بواسطة عجلة يديرها حيوان، ثم يمر الزيتون المهروس الى المعصرة، وتقوم الطريقة الثانية على غلي الزيتون ثم عجنه، ويترك في أحواض فيطفو الزيت، ومردود هذه الطريقة اقل الا أن زيتا أجود.

وكان الزيت يحفظ في قلال أو زقاق من جلود الأغنام، ويورد هـ.ر. ادريس عن الشماخي ذكره «بطة زيت» يعتقد انها مصنوعة من الجلد؛ وأفاد الدرجيني أن الزيت كان يحفظ في الخواوي، فذكر رجلا يدعى أبا زكريا أراد أن يعطي امرأة زيتا فأخذ إناء ليملاً لها زيتاً ففض خاتم خاية من خواويه(2).

التمر: وقد اهتم سكان بلاد المغرب الأوسط بزراعته، فهو طعام يبقى أيام السنة، وتظهر قيمته حين تغدم الخضر والفواكه، كما أنه زاد المسافر، وتعتبر مدينة بسكرة من أشهر مواطن زراعته فوصفها المقدسي بأنها «بلدان النخيل» ويضيف صاحب «كتاب الاستبصار» أن «أكثر ثمارها الجنس المعروف بالكسبا، وهو المعروف ببلاد المشرق بمدينة الرسول ﷺ وغيرها بالسماي، وببسكرة

(1) المقدسي: احسن التقاسيم. ص 56، ابن القطان، نظم الجمان ص 231. البكري، المصدر السابق ص 144، 52 ابن الصغور، تاريخ الاثمة، ص 327، الدهاق، معالم ج 2 ص 171.  
(2) الدرجيني: طبقات، ج 1 ص 164. ابن أبي زرع: روض القرطاس. ص 14. وكان عمسي بن مسكين جالساً على دكان في المعصرة وخدام له يرد الزيتون والدابة تطحن «القاضي عياض: تراجم ص 251.

H.R.Idris. La Berbérie Oriental... 2 P.628-629

وقال تعالى في الزيتون «شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور، سورة النور. الآية 35.

أيضاً من التمر يعرف باللياري وهو أبيض أملس، وكان صاحب القيروان يأمر عماله بالمتع من بيعه وبعث ما هناك منه إليه لطيبه وحسنه<sup>(1)</sup>.

وقد عرفت تاهرت نفسها زراعة النخيل فذكر ابن الصغير ان منزل محمد بن حماد «قد جمع الأشجار والأنهر والمزارع والنخل» وكانت ورقلة — ورجلان — كذلك مدينة النخيل فقد ملأ أبو صالح جنون بيت الشيخ أبي نوح عند فراره من المعز الفاطمي إلى السقف غمراً، وكانت المسيلة «كثيرة النخيل والبساتين» ويبدو أن الجهات الغربية من البلاد اشتهرت بالتمر أيضاً «فإن زيري بن عطية حمل هدية إلى المنصور بن أبي عامر «الف حمل من التمر الجيد» كما اشتهرت مدينة طنبجة بزراعة النخيل<sup>(2)</sup>.

— العنب: كانت زراعة الكروم في بلاد المغرب الأوسط واسعة الانتشار، فكانت في ترفانة — ترنانا — «كروم جسيمة» وذكر ابن حوقل أن بني واريغن «لها كروم» ووصفها الإدريسي بأنها «كثيرة ومعظمها على غير شلف» كما انتشرت زراعتها في الخضراء وشرشال وبرشك وقلعة هواة، وأضاف البغدادي بخصوص تلمسان أن «الدائر بالبلد كله مغروس بالكروم وأنواع الأشجار» وانتشرت في جيجل فكانت «كثيرة العنب» وقد عبر البكري عن دهشته لكثرة العنب في الغدير وفي جبل زلديوي بالإشارة إلى رخصه فيها، وبأقي

---

(1) مؤلف مجهول: «كتاب الاستبصار» ص 173 المقدسي: احسن التقاسيم ص 230. الحموي: معجم ج 2، ص 182، وعن الآية انظر: سورة مريم 25 — 26. وصاحب القيروان وإن هو عبيد الله المهدي.

(2) ذكر الحموي نوعاً من التمر يدعى القسب وربما هو نفسه الكسبا المذكور، ويعرف ابن البيطار القسب: اسم لنوع من التمر يكون بالعراف جليلاً على هيئة التمر المسمى بالمغرب المقلقل لونه احمر إلى البياض ابن البيطار: الجبل ج 4. ص 21، الدرجيني: طبقات ج 1 ص 144. موريث لومبار: الاسلام في مجده الأول. ص 246. السلاوي: الاستقصاء ج 1. ص 193. مؤلف مجهول: المصدر السابق ص 172. وكان في سبيلماصة «سنة عشر صنفاً من التمر ما بين عجرة ودقل». الحموي: معجم ج 5 ص 41.

هذا الاقبال على زراعته الى أكله طازجا والى تخفيفه زبيبا والى صنع الخمر وصنع «عقيد العنب» وهذا يستعمل علاجاً لبعض الأمراض» (1).

— نبات الحديقة: ذكر ابن فضل الله العمري بعض الرياحين المنتشرة في افريقية ومنها «الآس والورد والياسمين والرنجس والنبيلوفر الأصفر والترنجمان والشنور والسوسن والبنفسج والزعفران والثمار» وكان في حديقة الخليفة الفاطمي في القاهرة شجرة البلسان «ويقال ان آباء هذا الخليفة أتوا يئذرتها من المغرب وزرعوها في الحديقة» وهي مثل شجرة الآس. وكانت شعراء جبل مليانة «كلها رياحين» وقد وصف ابن رشيق في أبيات له شقائق النعمان، كما وصف ابن حمديس الصقلي النبيلوفر (2). ومما زاد في اتساع زراعتها انها كانت تزرع أيضاً في أصص متحركة.

— الغابات: كانت الغابات عنصراً أساسياً في بناء كل قرية أو مدينة، لذا فقد كانت منتشرة في جميع الجهات، فكانت في سفح جبل أرشيلاس (وهو بجوفها ولهذا الجبل شعراء غامضة) وكان يقرب مدينة جراوة جبل ممالو وأسفله «شعاري أشبه لا تسلك» وكانت منطقة تاهرت عند بنائها «غبضة اشبه» ويذكر موريس لومبار ان بلاد القبائل حالياً كانت تصدر الخشب «دليل على سعة انتشار غاباتها».

وكانت الغابات نشتمل على مختلف أنواع الأشجار البرية مثل السرو والصنوبر والساج والبلوط والسنديان والأرز والعرعار — العرعر — والزان والطرفاء والطخش. اضافة الى بعض النباتات مثل الكلكخ.

---

(1) ابن حوقل: صورة، ص 86، الادريسي، صفة، ص 80، 84، العبدري، رحلة العبدري. الرباط، 1968، ص 10، الجوزي، سيرة جودر، ص 108، أشار ابن الصغير الى أن الناس في تاهرت «انخذوا المسكر أسواقاً الا ان الامام ايا حاتم كسر الخواني بكل دار.

(2) ابن فضل الله العمري: وصف، ص 5، ناصر عيسوي، سفرنامة، ص 99 مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار، ص 171، وعن أبيات ابن رشيق وابن حمديس انظر، بوروية رشيد، الدولة الحمادية ص 174. 180.

ويرجع الاهتمام بالغابات الى الطلب المتزايد على الأخشاب التي تدخل في صناعات عديدة والحطب وصنع الفحم وقوداً<sup>(1)</sup>.

— النباتات الطبية: كانت تنمو في بلاد المغرب الأوسط نباتات تستعمل للأغراض الطبية ومنها.

— شرمي: بدعي شوكة مغيلة، يفيد في ادرار البول وتفتيت الحصى وتسكين آلام الأسنان.

— طيان: وهو الياسمين البري ويسمى بالبربرية أيزرو.

— بهار: هو الأقحوان الأصفر ويعرف بالبربرية املال ويشفى من الأورام الصلبة.

— آمليلس: اسم بربري لشجر معروف ببلاد المغرب الاسلامي كافة يقوي الكبد والطحال.

— تافقيت: اسم بربري بافريقية وماوالاها لنوع من النبات الشوكي وينفع في علاج بعض الأمراض.

— تاكوت: اسم للبربيون بالبربرية بالمغرب الأوسط، وهم يطلقون هذا الاسم على حب الأثل وهو ينفع في علاج وجع عرق النساء وعضة الكلب والقولنج وغيرها.

— سطورونيون: وهو النبات المعروف عند البربر في المغرب الأقصى والأوسط بالتاغيفيت وباللوزن وتاغيفشت.

— صفيرا: يطلق اهل المغرب الأوسط هذا الاسم على الشجر المسمى بالبربرية آمليلس.

— محالاون مالى: يعرفه البربر بالوحيد، ويستعمل في قتل الحيوانات المفترسة كالسباع.

---

(1) البكري: المغرب، ص 68، 79، 142، ويذكر ابن الفقيه انه «يقال للشجر الشعراء».  
انظر: ابن عشاري: البيان ج 1، ص 196، موريس لومبار: الاسلام، ص 101، ذكر الدمشقي انه كان مكتوب على باب قرطاجنة «الحطب، الفحم، الحطب» كدليل على أهمية الحطب، انظر الدمشقي أبو الفضل: الاشارة الى محاسن التجارة، ص 52.

— الذرارح: وهو بالبربرية أزغلال وينفع في علاج عضه الكلب.  
ذافوبداس: وهو بالبربرية أدرار يبيع الفيء ويدر الطمث ويستعمل مسهلاً.

— سبع الكنان: يسمى في جميع بلاد المغرب الأوسط بالكشوت.  
— جوز مائل: وهي شجرة المرقد عند عامة المغرب والأندلس، ويستعمل غندرا وبسكر ويغشى<sup>(1)</sup>.

— عكنة: هي اللعبة بالبربرية وتنبت في الجبال خاصة.  
— عنب الثعلب: ويعرف في بلاد المغرب عامة بحب اللهور ويستعمل في علاج الصداع والتهاب المعدة.

— عروق الصباغين: وهي العروق الصفر وهي بقلة الخطاطيف أيضاً.  
— بوقشروم: اسم بربري ييجاية وما والاها.  
— سنطريطس: يعرف عند اهل المغرب الأوسط والأقصى بعشبة كل بلاء وهو يدمل الجروح.

— بان: ينفع في علاج البرش والشمس الكائن في الوجه. وفي الجرب والحكة.

— حب الزلم: حب مفرطح اكبر من الحمص قليلاً، ويصدر الى الأندلس. ويسمى فلفل السودان ويطلق عليه ايضاً حب العزيز.  
— الفريون: وهو التاكوت بالبربرية يستعمل كحلا للعين.  
— طباق: وهي بالبربرية الترهلان، وترهلا ايضاً، يضمده به الكسر وينفع في علاج الكبد.

— جوذر: شجرة صغيرة مشوكة، ثمره أغبر مدور ويؤكل ببلاد البربر عامة كثيراً.

— شيطرج: وهو العصاب بالبربرية ينبت كثيراً على القبور والحيطان العتيقة والمواضع التي لم تحترق.

(1) ابن البيطار: الجامع ج 1، ص 6، 134، 159، 176، ج 2 ص 46، 122، 123، 124، ج 3، ص 4، 13، 60، 85، 114، 121.



— شيج: نبات دقيق الثمرة، طعمه مرّ، يقتل الديدان وخاصة دود البطن.

— مرغنت: أو سرغند أو اسرغنت وهو اسم بربري للنبات المعروف ببخور البربر.

— عافر قرحا: يكثر في منطقة قسنطينة وهو بالبربرية تاغندست، ويسكن وجع الأسنان.

— حب الأثل: يوقع أهل المغرب الأوسط اسم تاكوت والفرييون على حب الأثل المعروف بالفارسية كازمازك، وهو ينفع لأمراض الكبد ووجع الأسنان ويستعمل في الدباغة.

— سفندوليون: وهو الكلخ وبالبربرية تافيرا وينفع لأوجاع الكبد والبرقان والصرع والبواسير.

— آاطر بلال: اسم بربري ومعناه رجل الطائر. وأول ما ظهرت منفعة هذا الدواء واشتهرت في المغرب الأوسط في قبيلة من البربر تعرف ببني أبي شعيب من بني وجهان من أعمال بجاية، وكان الناس يقصدونهم لمداواة هذا المرض، وكانوا يضمنون بها ويخفونها عن الناس ولا يعملون بها إلا خلفا عن سلف.

— جوز الریح: يجلب من صحاري بلاد البربر وهو جيد للمعدة.

— تاسممت: وهو الحماض بالبربرية ويفيد في علاج الأورام وقرحة المعدة والغثيان.

— مورقا: ينبت كثيرا ببلاد البربر وهم يسمونه اسمان.

— حوشف: يسمى الكنكر وقران، يدر البول ويفيد في علاج الربو والسعال.

— ارجنفة: معروف عند الصباغين بالارجيقن، يجلب اليهم من المغرب من احواز بجاية واطييه عندهم ما كان من سطيف..

— تامساروت: اسم بربري في بجاية للنبات المسمى بالمو ويسميه بعض البربر كمون الجبل.<sup>(1)</sup>

(1) ابن البيطار: الجامع، ج 1 ص 11، 4، 12، 20، 134، 159، 177، 178، ج 2، ص 169، 168، 135، 130، 129، 119، 115، 97، 96، 75، 74، 39، 17، 9، 8، ج 3 ص 116، 32، 18، 4.

القوليون: يزعم أهل قلعة بني حماد أنه ينفع شرب درهمين منه لعام كامل، فلا يصيب شاربها بشيء من ألم تلك العقارب، وهو ببلد القلعة كثير<sup>(1)</sup>.

ويضيف الإدريسي مجموعة من النباتات الطبية في جبل مسيون شمال بجاية منها شجر الحوض والسقولو فندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير، والراوند والقسطون والافستين وغير ذلك من الحشائش<sup>(2)</sup>.

الحاصل الدخيلة على بلاد المغرب الأوسط:

— القطن: نبات أصله من الهند، ثم انتقلت زراعته إلى بلاد المغرب، وقد لفتت مزارع القطن في طينة والمسيلة نظر ابن حوقل، ويذكر البكري بخصوص أهل المسيلة أنهم «يجود عندهم القطن» وأن مستغام يذر في أرضها القطن فيجود<sup>(3)</sup>.

— قصب السكر: نقل العرب زراعته لاستخراج السكر وتكويره من الهند، ثم انتقلت إلى بلاد المغرب والأندلس، وقد أشار الرحالة إلى وجوده في ولاية إفريقية وخاصة قابس وفي الأندلس، فتكون بلاد المغرب الأوسط قد أخذت زراعته أيضاً<sup>(4)</sup>.

— الحمضيات: انتقلت زراعتها من الهند إلى العراق بعد سنة 300هـ، ثم إلى أنحاء الدولة الإسلامية، وقد شوهد البرتقال سنة 970م في صقلية وجنوب المغرب، ووصل الأندلس نهاية القرن العاشر الميلادي، ويظهر من تأخر انتقاله، أن زراعته لم تكن واسعة الانتشار في تلك الفترة<sup>(5)</sup>.

(1) الإدريسي: صفة، ص 86.

(2) نفس المصدر، ص 90.

(3) البكري: المغرب، ص 59، 69، ابن حوقل: صورة، ص 35، الإدريسي: المصدر السابق، ص 86، 93، موريس لومبار: الإسلام، ص 270، الدمشقي: الإشارة، ص 44، وعن القطن انظر: ابن البيطار: الجامع، ج 4، ص 24.

(4) البكري: المصدر السابق، ص 17، موريس لومبار: المرجع السابق، ص 246، ول. ديورانت: قصة الحضارة، ج 13، ص 107. P.88. Imammddin: Some aspects...

H.R.Idris. La Berbérie Orientale...1.2 P.630.

(5) موريس لومبار: المرجع السابق، ص 247. عبد العزيز النوري: تاريخ العراق الاقتصادي. ص 69. ول. ديورانت. المرجع السابق، ج 13، ص 107.

— الرز: (الأرز): يشير موريس لومبار الى أن زراعته قد انتقلت من الهند الى بلاد العراق، ومن هناك انتقلت الى غيرها، ويؤكد أمام الدين أنه زرع في منتصف القرن العاشر الميلادي على ضفاف أنهار الأندلس، بما يرجع زراعته على ضفاف نهر الشلف (1) بكميات قليلة.

— الموز: يرى بعض المؤرخين أن لفظ بنان «أطلق على هذه الفاكهة لوجود شبه بينها وبين أصبع اليد، فهي تسمية عربية، ويرى البعض أنها لفظ غاني، وإذا صح هذا فإن التجار الى بلاد السودان قد أحضروا هذه الفاكهة من غانا، أما لفظ «موز» فهو هندي انتقل عن طريق العرب الذين جلبوها من الهند.

وقد قال الشاعر ابن رشيق قصيدة في الموز وبما أنه من سكان المحمدية وعاش في القرن الرابع الهجري، فرما عرفت مدينته هذه الفاكهة (2).

— الرمان: يرى ول ديورانت ان الرمان دخل الأندلس عن طريق المسلمين من آسية، وإذا كانت الأندلس لم تسبق لها معرفة به حتى مجيء المسلمين، فهل كانت بلاد المغرب كذلك ؟ ربما، إلا أن أبا النصر عادل يرى أن الرمان انتقل الى ولاية افريقية عن طريق الفنيقيين (3).

— الزعفران: يذكر ارشيبالد أن زراعة الزعفران انتقلت من المشرق الاسلامي الى بلاد المغرب، ويبدو أن هذا قبل القرن الرابع الهجري أو أوائله، فإن ابن حوقل يذكر بجانة ويشير الى أنها «كثيرة الزعفران» وكانت أبة موصوفة بكثرة الفواكه والزعفران، وكانت مسيبة «يوجد في أرضها الزعفران» وتأتي أهميته لاستعماله في الصباغة وعلاج بعض الأمراض وتحضير بعض الأطعمة (4).

(1) موريس لومبار: المرجع السابق، ص 242، ابن فضل الله العمري: وصف، ص 4.  
Imamuddin: Some aspects...P.83.

(2) سيجريد هونكه: همس العرب نستطع على الغرب، ص 470.  
(3) ول. ديورانت قصة الحضارة، ج 13، ص 294. أبو النصر عادل: تاريخ الزراعة القديمة، ص 57، وقد أشار المقدسي والبكري الى كثرة الرمان في مجملاتهما، انظر أحسن التقاسيم، ص 231.  
(4) أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية في البحر الأبيض المتوسط، القاهرة، بدون تاريخ، ص 254، ابن حوقل: صورة، ص 84، ابن البيطار، الجامع ج 2، ص 161 — 162. مؤلف مجهول: كتاب الطبخ، ص 80، ابن الأختوة: معالم القرية في أخبار الحسبة، ص 124. الدمشقي: الاشارة ص 39، الحموي: معجم، ج 1 ص 99، البكري: المغرب، ص 146.

## النباتات الصناعية:

ذكرنا اعلاه بعض هذه النباتات مثل القطن وقصب السكر وغيرها، ويمكن اضافة النباتات التالية لها:

— الكتان: كانت زراعة الكتان واسعة في بلاد المغرب الأوسط، فذكر ابن حوقل ان مدينة بونة «يزرع بها الكتان» وان أهل طبنة «يزرعون الكتان» وكانت قزرونة في متيجة «أكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل» كما ذكر الادريسي زراعة الكتان في مقرة، فكان «أهلها يزرعون الكتان وهو عندهم كثير». وقد كان الكتان يستعمل في صناعة الملابس وفي العلاج وخاصة القروح.<sup>(1)</sup>

— النيلة: يذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أن سكان مدينة الغدير «عندهم النيلة المشهورة»<sup>(2)</sup>، وهي تستعمل في تحضير الأصبغة.

— الحلفاء: كان أبو غنم يزد بن كيداد قد أمر لفك حصاره في الأوراس بخمسمائة ثور، وأن يشد بكل قرني ثور منها حزمة حلفاء «كما أورد الدرجيني اشارة الى وجود الحلفاء، ويظهر انهم كانوا يصنعون منها حبالا وحصرا، وان البعض كان متخصصا في تصنيع الحلفاء، فكان عروس المؤذن — في القيروان — من المتزهدين يطحن بيده ويعمل الحلفاء ويتعيش من ذلك»<sup>(3)</sup>. ويستعمل علاجيا لبعض الأمراض.

السمسم: ذكر اليعقوبي زراعته على وادي الشلف، وهذا دليل على زراعته في نواح أخرى من البلاد.

---

(1) ابن حوقل: صورة، ص 85، الفلفشندي: صبح الأعشى، ج 5، ص 106، نقلا عن العزيزي البكري، المصدر السابق، ص 65، الادريسي، صفة، ص 93، اللمشقي، المصدر السابق ص 44 ابن البيطار، الجلباع، ج 1 ص 90 — 91، ج 4 — ص 51.

(2) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 167.

(3) الدرجيني: طبقات، ج 1 ص 99. 143، ابن عذاري، البيان، ج 1، ص 183.

وكان يستخرج منه زيتاً، وقد ذكر ابن البيطار استعماله في علاج الأمراض<sup>(1)</sup>

— الحناء: ذكر الادريسي أن لبني واريغن سوان يزرعون عليها الحناء وكان الناس يستعملونه في تخبيب اللحية والأطراف وشعر الرأس.

— الشهدانج: أشار الادريسي الى زراعته على سواني بني واريغن ويرى بعض المؤرخين أنه من اصل صيني أو من أصل فارسي، وهو نبات مماثل للقمب، وكانت تستعمل خيوطه في تحضير خيط قوي ومتين، ويستعمل في صناعة أثواب رقيقة وورق جيد.<sup>(2)</sup>

السري:

يرى جولفن Golvin أن الف سنة تقريباً لا تكفي لتغيير مناخ منطقة ما، وعليه يمكن القول أن امطار ذلك العصر هي الى حد بعيد أمطار هذا الوقت والجدير بالملاحظة ان امطار السماء متذبذبة فقد تهطل غزيرة في أعوام، وتبخل السماء بمطرها في أخرى، فيكون القحط والجفاف، وقد كانت الحياة الاقتصادية تتأرجح وفق تأرجح الأمطار، فذكر ابن أبي زرع في سنة 381هـ «مطر الناس مطراً عظيماً عاماً وأكلت الأرض وحطت الأسعار وحيي الناس وانتعشت البهايم والنبات»<sup>(3)</sup>.

ومن السنوات التي هطلت الأمطار فيها غزيرة سنة 315هـ، فحين خرج أبو القاسم الفاطمي الى سوق ابراهيم «أقام في مناخ واحد شهراً كاملاً عليه المطر كل يوم بالغدو والآصال» وذكر ابن أبي زرع في سنة 342هـ «جاءت السيول عظيمة بجميع المغرب»<sup>(4)</sup>.

وإذا كان التذبذب يحدث من سنة الى أخرى، فقد يحدث في نفس السنة، فتهطل الأمطار غزيرة في أيام ثم تتوقف في أيام أخرى، قد تطول أو تقصر، وتؤثر

(1) البعقوبي، ص 16. ابن البيطار، الجامع ج 3، ص 30.

(2) عن الحناء والشهدانج. انظر الادريسي، صفة، ص 84.

Imamuddin: Some aspects...P.88.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 73.

(4) نفس المصدر ص 62.

على نحو النبات، فكان الفلاحون والحالة هذه لا يعتمدون كل الاعتماد على أمطار السماء، بل اعتمدوا أيضًا على مياه الأنهار والوديان والأعين والآبار.

### الأنهار:

من نهر شلف: وصفه اليعقوبي بأنه «عليه قرى وعمارة يفيض كما يفيض نيل مصر» وذكر ابن خلدون بشأنه أنه «يمر في وادي شلف بني واطيل النهر الأعظم منبعه من بلد راشد في بلاد الصحراء ويدخل إلى التل... ثم يمر مغربًا ويجتمع فيه سائر أودية المغرب الأوسط مثل مينا وغيره. إلى أن يصب في البحر الرومي ما بين كلميتوا ومستغانم» وتقوم عليه عدة مدن أهمها، شلف، ومدينة بني واريغن حيث لهم «كروم كثيرة ومعظمها على نهر شلف» ومدينة سوق ابراهيم<sup>(1)</sup>.

— نهر تافنة: وصفه صاحب «كتاب الاستبصار» بأنه «نهر كبير تدخل فيه السفن» ويعرفه البكري أنه النهر الذي يصل إلى مدينة ارشقول — وارشكول — وهناك ينصب في البحر<sup>(2)</sup> «وقد رأيت شخصيا هذا النهر في فصل الربيع فكانت مياهه ضحلة».

— واد الصومام: فقد ذكر الإدريسي بخصوص بجاية أنها «على بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهو نهر عظيم يجاز، عند فم البحر بالمراكب». ويضيف صاحب «كتاب الاستبصار» أنه «عليه كثير من جناتهم»<sup>(3)</sup>.

ويصف المقدسي تاهرت أنها «أحدق بها الأنهار» وبناء على ما ذكره ابن عذاري فإنها تقع بين ثلاثة أنهار، وأضاف البكري أنها «على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة في قبليها ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش وهو في شرقيها» وأقاد ابن الصغير أنه «من تسلونت مخرج عيون نهر مينة الجارى من قبلة تاهرت» ثم ذكر نهرًا يقال له «نهر أبي سعيد» وآخر يعرف «بالنهر الصغير»

(1) اليعقوبي، وصف، ص 16، ابن خلدون، المعبر، ج 6، ص 203، ابن حوقل: صورة ص 89، البكري: المغرب، ص 69، الإدريسي: صفة، ص 84.

(2) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 134، البكري، المصدر السابق ص 77.

(3) الإدريسي: المصدر السابق، ص 91، مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص 130.

وثالثا يقال له «نهر اسلان» ثم أشار الى أن الناس في تاهرت أجروا الأنهار» وربما كانت هذه الأنهار جميعا شأن نهر ناتش الذي ذكر البكري بخصوصه أن منه «شرب أهلها وبساتينها»(1).

ويذكر ابن حوقل أن مليانة لها أرحية على نهرها، وذكر الادريسي: «لها نهر يسقي أكثر مزارعها» ويضيف «لاقليمها حظ من سقي نهر شلف» الذي ذكر صاحب «كتاب الاستبصار» بشأنه «يشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور»(2).

ويشير ابن حوقل الى «أنهار تطرد» في ريفه وكانت مدينة ادنة «بلد كثير الأنهار والعيون» وكان مرسى الزيتونة «كثير الثمار والأنهار» ويشير البكري الى أن هاز على نهر شتوى. وكانت المسيلة على نهر فيه ماء كثير مستبطن على وجه الأرض وليس بالعميق «وهو نهر سهر» منبعه من عبون داخل مدينة أغدير وروا وهناك نهر جوزة البكري بين المسيلة وأشير، وكان أهل مدينة سوق حمزة «شربهم من نهر واعين» كما كان فحوص متيجة «تشقه الأنهار» ومدينة قزرونة نفسها «على نهر كبير»(2).

وكانت تلمسان «لها أنهار جارية» وذكر ابن حوقل أن «زرعها سقي» ويأتها نهر من جبلها المسمى بالصخرتين، ونهر سطفسيف الذي يصب في نهر تافنة. وكان يقربها قلعة «غزيرة المياه والأنهار» وربما هو وادي صفصاف الذي يمر على بعد 4 كلم غربي تلمسان وهو «يسقي هناك مزارع»(3).

---

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 228، البكري: المغرب، ص 66، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 178، ابن الصغير: تاريخ الأئمة، ص 348، 332، 336. ابن عذارى: البيان، ج 1، ص 196.

(2) ابن حوقل: صورة، ص 89، الادريسي: صفة، ص 85، البكري: المغرب، ص 61. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 171.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 89، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 228. البكري، المغرب، ص 144، 143، 86، 83، 65، 59.

(4) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86، 88، مؤلف كجهول، المصدر السابق، ص 176، 177، البكري، المغرب، ص 77، 76.

وكانت أسكن لها نهر يصب في البحر من شرقها يسقى منه بساينهم  
 وثمارهم وكانت وهران لها ماء سائح وانهار كثيرة وارحاء وعيون وأهل  
 تنس شربهم من نهر «ورما» هو نهر تاتين الذي ذكره البكري. وكانت الخضراء  
 مدينة على نهر يصفه البكري أنه «نهر خرار عليه الأرحاء وإذا حمل دخل المدينة»  
 ويصفه الإدريسي أنه «صغير عليه عمارات متصلة» وكان غربي فكان مجمع  
 الأودية، وادي سيرة ووادي سي ووادي هنت، وتحت قلعة هواره «نهر سيرات»  
 وهو النهر الذي يسقى به فحش سيرات.. ليس منه شيء الا يناله ماء هذا  
 النهر (1).

وكانت المعسكر لها أنهار ويلل ذات أنهار وكانت مدينة «العلويون»  
 على نهر يأتيها من القبلة ولها عليه فواكه عظيمة وكانت بايلوت على نهر «تسقى»  
 منه مزارع وكان قصر ابن سنان الازداجي حوله بساين كثيرة على نهر كدال  
 وكانت قرنانة لها «أنهار مطردة» وندرومة لها «نهر ماء يسيل وهو نهر كثير  
 الثمار» (2) الى غير ذلك من الأنهار.

ومن الجدير بالذكر، أن هذه الأنهار هي أقرب الى الأودية والسيول، فهي  
 معظمها تكاد تكون جافة صيفاً، فاعتبر ابن حوقل أن ارشكول «على واد يعرف  
 بتافنا» وكانت تاهرت السفلى «على واد عظيم ذات أعين» واعتبر ابن خلدون  
 مبنا واديا، بل كان شلف نفسه واديا (3). وكانت وهران مأوها خارجها جار  
 عليها في واد، «عليه بساين وجنات وبها فواكه» وكان لتلمسان واد يمر شرقها  
 وما جاورها من المزارع كلها سقي. وكانت افكان «على واديا أعمال عريضة  
 أو جنة ومزارع» وكانت ابن ماما لها «ماء في واد عذب كثير الماء يزرع عليه

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 89، المقدسي: المصدر السابق ص 229. البكري: المصدر السابق،  
 ص 79، 61، 75، 70. الحموي: مجمع ج 3، ص 447، الإدريسي: صفة ص 84، مؤلف  
 مجهول، المصدر السابق، ص 134، 171.

(2) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 86، 88، 89، المقدسي: المكان السابق، البكري: المصدر السابق.  
 ص 71، 80، الإدريسي: المصدر السابق، ص 80، 82، 83.

(3) ابن خلدون: المعبر، ج 6، ص 247. ابن حوقل: صورة الأرض، ص 79، المقدسي: أحسن التقاسيم  
 ص 229.



وعلى المطر(1) وعبارة ابن حوقل هذه توضح أن الزراعة في بلاد المغرب الأوسط نوعان: زراعة بعلية، وزراعة مروية.

وكانت العيون منتشرة في أنحاء البلاد، وهي يمكن أن تستعمل في الزراعة، كما أنها تزود الوديان بالمياه خاصة صيفاً، ومنها تلك التي ذكرها المقدسي، حيث أشار إلى أن تاهرت «تبعث حولها الأعين» وأضاف الإدريسي: لها «مياه متدفقة ومياه جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون بها» وكانت تلمسان «لها ماء مجلوب من عمل الأواثل من عيون تسمى بوريط بينها وبين المدينة ستة أميال» وبخصوص أشير كان «داخل المدينة عينان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك لهما قعر من بناء الأول» وهما عين سليمان وعين تالا نثرغ، وكانت عين مسعود شرقي المدينة، وقد لفت عيونها نظر ابن حوقل حيث ذكر: لها «عيون تطرد» وكانت جزائر بني مزغناي «لها عيون على البحر طيبة وشربهم منه» وفي قزرونة «عيون سليخة» وكانت تنس «شرب أهلها من عين» كما كانت مستغاثم «ذات عيون» وكانت في ريفنة «عيون مطردة» وكانت هاز «بها مياه عيون» وكانت مدينة قارية — قرب تنس — «ذات أعين كثيرة» وكانت قلعة مغيلة دلول «بها عين ماء تسمى كردي» وكانت مدينة الرماننة «تفجر تحتها عيون ثرة طيبة تسيل إلى مدينة المسيلة» كما كانت ميلة «في جبال عيون وكذلك يلل بها عيون ومياه كثيرة»(2) وغيرها.

وكانت الآبار من المصادر الهامة للرري، وهي أما آبار ارتوازية أو آبار تعتمد على مياه الأمطار تسبح إليها من الطرق ومن على سطوح المنازل، وقد جاء في «المدونة (بئر الدار) (وبئر الأرض»(3). ويبدو أن الأول للشرب والثاني للرري، كما جاء ذكر بئر الماشية وكان بعض هذه الآبار قرب المنازل وبعضها الآخر في البراري.

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 86، ثم انظر، ص 88، 89، المقدسي، المصدر السابق، ص 2229. الإدريسي: صفح 84.82. الحموي: معجم. ج 1. ص 363.

(3) الإدريسي: المصدر السابق، ص 83، 87، 93، يعتمد الإدريسي كثيراً على ابن حوقل دون أن يصرح بذلك. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 78، 88، 89. المقدسي، المصدر السابق، ص 228، الحقوقي: وصف، ص 15، 16، البكري: المغرب. ص 61.65.66.69.143.

(4) القاضي سحنون، المدونة ج 4، ص 290. وعن أهمية الآبار في الرري: Imamuddin: Some aspects...P.75-76

ويشير محمد البشير شبنيني إلى أن بعض الآبار بلغ عمقها في العهد الروماني 59م، وفطرها 3م، انظر: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، ص 109.

وتكاد لا تخلو دار من بئر، ومن هذه الآبار: ان سوق حمزة كانت «بها آبار عذبة» وكانت أرشكول «بها آبار عذبة لا تغور تقوم بأهلها وبمواشيهم» وكانت شرشال «بها مياه جارية وآبار معينة عذبة» وكانت برشك لها «آبار معين» وكذلك جزائر بني مزغنة وغيرها.

وكانت نواحي السكان في مسألة الآبار تسرب مياهها الى باطن الأرض فكانوا يلجأون الى حفرها في الصخور أو يطنونها بخشب العرعار وغيره (1).

وكان استغلال مياه هذه الموارد يتطلب تدخل الانسان، فإن مستوى انسياب الماء في النهر أو الوادي اقل من مستوى سطح الأرض، فلجأ الفلاحون الى وسائل مختلفة للتغلب على هذه المشكلة.

ذكر البكري وجود «آبار قناطر قائمة» في أنف القناطر بين شرشال وجزائر بني مزغنة، ونشر بوروية رشيد صورة لآثار قنطرة على واد في قلعة بني حماد، وهذا دليل على أن الناس كانوا يعرفون بناء القناطر في ذلك الوقت، وبالفعل فإن صاحب «كتاب الاستبصار» أشار الى استعمالها في أعمال الري، فذكر أن مدينة قصر الفيلوس كان «فيها ماء مجلوب على قناطر بأغرب ما يكون من البناء القديم». وقد اشار ابن الصغير الى قنطرتين في تاهرت هما قنطرة الدمتس، وقنطرة سليس. فكانت هذه القناطر تمكن من رفع مستوى جريان الماء.

ويظهر أن بعض القناطر كانت ملكيتها عامة، فكان أمر صيانتها ورعايتها من مسؤولية الدولة، فحين هدم سيل عظيم القنطرة في القيروان «أمر صاحب افريقية باصلاحها» ويظهر أن المحتسب كان المسؤول المباشر على عملية الاصلاح، وكانت بعض القناطر ملكيتها خاصة، فأشار الدرجيني الى «امراة كانت تنقل التراب على رأسها لاصلاح الجسور» (2).

(1) البكري: المصدر السابق، ص 72، 65، 77، 81. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 78، 84، الأدرسي، صفة، ص 87، 89.

(2) البكري: المغرب، ص 82، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 33، ابن الصغير: تاريخ الائمة، ص 346، ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 113، الدرجيني: طبقات، ج 1، ص 65، بوروية رشيد: الدولة الحمادية، ص 275.

— بناء السدود (1): نظرا لضعف حالة الماء في أنهار المغرب الأوسط خاصة بعد انقضاء فصل الشتاء كان بناء السدود ضرورياً، وقد أشار الدباغ الى سد في تونس، فذكر بخصوص ماجل هذه المدينة أن الماء الذي يجلب اليه من الوديان بالسد الذي يعمل حتى يصل الماء اليه، وهذا يرجع بناؤه في بلاد المغرب الأوسط أيضاً.

— المواجل (المواجن) والبرك (2): كان لمدينة ارشكول «مواجن كثيرة للمراكب واهلها والمحتاجين اليها في سقي سواثمهم» وكان نهر سطفيسيف «يصب في بركة عظيمة منقورة في حجر صلد من عمل الأولين، كما أشار بوروية رشيد الى اكتشاف عدد من المباني المائية وأهمها بناء يحتوي على ثلاثة أحواض رئيسية مستطيلة الشكل مبنية بالحجر والملاط وملبسة بطلاء سميك بتاهرت.

— حفر السواقي (3): كان المزارعون يخفرون السواقي والقنوات لنقل المياه الى مسافات أبعد، ويبدو أن الأنهر التي أشار اليها ابن الصغير في منزل — بستان — محمد بن حماد هي عبارة عن سواقي. وقد ذكر أحد شعراء تاهرت الساقية في قصيدة جاء فيها.

سقا الله تهرت المنا وسويقة بساحتها غيثا يطيب به المحل  
ويبدو أن ملكية هذه السواقي كانت عامة، فإن الجوزري يشير الى مشاجرات وقعت بين رجال أولياء الخليفة عبيد الله المهدي الكتامين «بسبب قسمة السواقي» وقد أشرنا الى أن تلمسان قد جلب اليها الأوائل ماء من عيون تسمى لوريط، ولا شك أن هذا كان بالسواقي.

---

(1) الدباغ: معالم، ج 2، ص 149، عرفت بلاد المغرب الأوسط العديد من السدود ابان العهد الروماني عنها انظر: محمد البشير شني: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب اثناء الاحتلال الروماني، ص 108، ويشير الى أن اطلال بعضها مازالت ماثلة للعيان وان بعضها الآخر مازال مستعملا بصفة جزئية الى الآن.

(2) ابن حوقل: صورة، ص 79، مؤلف مجهول: المصدر السابق ص 117. بوروية رشيد: الفن الرستمي، ص 184. البكري: المصدر السابق، ص 77. جاءت الكلمة الادريسي وابن عذاري «مواجل» انظر الادريسي: صفة، ص 132. ابن عذاري: البيان، ج 1 ص 132. وعند المقدسي «مواجين» وعند لقبال موسى «ماجل» دور كتابة ص 327.

(3) ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 198، الجوزري: سورة جوزري، ص 37. البكري: المصدر السابق، ص 76.

## وسائل الري:

— الدالية: يعرفها القاضي النعمان بأنها «السانية ذات الرحى، التي تدور عليها الدلاء الصغار والكيزان» وقد كان سوق كرام «له مزارع وسوان» وكانت بنو واريغن «لها كروم وسوان كثيرة» وكذلك مدينة الخضراء «لها فواكه وسوان» ويبدو أن ملكيتها كانت خاصة<sup>(1)</sup>.

— الناعورة: ذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أن نهر بجاية «صنعت عليه نواعير تسقى من أنهر» مما يرجع وجودها أيضاً على نهر شلف وتافنا. والناعورة عجلة أو دولاب مثبت على قضيب يرتكز على قائمتين ويدار بواسطة الحيوانات أو تيار النهر أحياناً، وتحمل الناعورة كيزاناً لرفع الماء، عددها للناعورة الكاملة ثمانون كوزاً، يسع كل منها خمسة عشر رطلاً، — الرطل يساوي 7,65 لترًا — ويمكن أن تروي الناعورة 350 — 400 جريباً من غلات الشتاء أو 80 جريباً من غلات الصيف<sup>(2)</sup>.

— الدولاب: عجلة اصغر من الناعورة، تعمل بحيوان واحد. ويمكن أن تروي سبعين جريباً من الغلات الشتوية أو ثلاثين جريباً من غلات الصيف. وقد ذكر البكري أن الماء في المهدية «يرفع من الصهرج إلى القصر بالدواليب وكذلك يستقي من الآبار ويصب في محبس يجري منه الماء في تلك القناة»<sup>(3)</sup>. — الشادوف: دلو لطيف مثل دلو الدالية يحتاج إلى أربعة عمال لتشغيله، ويمكن به سقي أربعة أجرة في اليوم<sup>(4)</sup>.

— الدلو: كان الماء يرفع من البئر بواسطة دلو من الجلد يربط بحبل، ثم يدلى في البئر فإذا امتلأ رفع، وقد يقوم بهذه العملية الإنسان أو الحيوان وفي

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج 3، ص 372، القاضي النعمان: دعائم الاسلام، ج 1، ص 265 ابن حوقل: صورة، ص 89. وتختلف الدالية بحسب طول زرنوقها وحجم دولابها فمنها طول زرنوقها 24 ذراعاً. ومنها ذراعاً وأخرى 7 — 9 أذرع، ويمكن أن تروي 80 — 130 جريباً من الشتوى أو 53 — 60 جريباً، انظر، عبد العزيز الدوري: تاريخ، ص 62 — 63.

(2) البكري: المغرب، ص 44، مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار، ص 130، عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 62.

وانظر ايضاً في وصف الناعورة للأمير نعيم بن المزدلين الله الفاطمي في: ديوانه. تحقيق: محمد حسن الأعظمي دار الثقافة، بيروت 1971، ص 245، 294، 424.

(3) البكري: المغرب، ص 30، عبد العزيز: تاريخ العراق الاقتصادي، ص 62.

(4) عبد العزيز الدوري: المرجع السابق، ص 63. أبو النصر عادل: تاريخ الزراعة القديمة ص 98.

هذه الحالة يستعان بالبكرة، وقد اطلق القاضي النعمان على هذه الطريقة «النواضح» وعرفها بأنها «الابل التي تسقى بالدلاء من الانهار» وقد ذكر البكري أن لأهل مدان «زرع يسير يسقونه بالنضح» وذكر الدرجيني رجلاً أورد ابله الى بئر فجعل الحاضرون يسقون «حتى انقطع الرشاء وسقط الدلو في البئر فهم أحد عبيده بالتزول الى البئر» (1).

— الجرة: كان الرجل يضع «على كتفيه عصا يتدلى من طرفها حبلان في كل منهما جرة لرى الحدائق والبساتين» وقد نشر بوروية رشيد صورة جرة عمر عليها في آثار قلعة بني حماد (2).

— الخطارة: ذكر الخشني وجودها في الاندلس، فأشار الى رجل كان «في جنان له يستقي الماء بخطارة ويسقي بقل الجنان» (3)، وكانت تدار بواسطة الانسان أو الحيوان أو بتيار الماء.

وحتى لا تقوم مشاجرات بين المزارعين في عملية الري، تكون الحكومة قد قننت عملية الري، فذكر ابن الخطيب طريقة كانت متبعة في سجلماسة وتلخص في توزيع مياه النهر في «خلجان بقدر موزون وصرف الى كل ناحية قدرها من مائه». ويصف الحموي طريقة كانت متبعة في توزر، فكان النهر ينقسم على ستة جداول تشعب منها سواق لا تخصي تجري في قنوات مبنية بالصخر على قسمة عدل لا تزيد ساقية عن أخرى، فكل منها سعة شبرين في ارتفاع فتر، وكان يعمد صاحب الدور الى قادوس في أسفله ثقبه بقدر وتر قوس النداف، فيملأه ماء ويعلقه ويسقي الحائط أو البستان من تلك الجداول. حتى يفيى ماء القادوس ثم يملاً ثانية وهكذا، وقد كان سقي اليوم كاملاً، مائة واثنين

(1) الدرجيني: طبقات ج 2، ص 309، القاضي، النعمان: المصدر السابق، ج 1، ص 266.  
البكري: المصدر السابق، ص 11، وقد كانت معروفة في بلاد المغرب الأوسط. انظر ابن حماد: اخبار ملوك بني عبيد، ص 33.

(2) أبو النصر عادل: المكان السابق، بوروية رشيد: الدولة الحمادية، ص 281.

(3) الخشني: قضاة قرطبة، ص 76.

وتسعين قاصداً (1). ويبدو أنه كان يشرف على هذه العملية عمال يعرفون بالقياسين (2).

### تربية الحيوان:

جاء في كتاب الله جل شأنه «والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون» (3). وبالفعل فقد كانت لها منافع عديدة، فكانت جلودها تستعمل في صناعة القرب، وتوضع تحت المطحنة وغير ذلك، ويستفاد من حليها ولبنها ويصنعون منه اللبن ويستخرجون الزبدة، وكان يستفاد من صوفها وشعرها وأوبارها في صناعة الملابس والحيايم والأغطية. واستعملت الحيوانات للحمل والنقل والركوب وفي الأعمال الزراعية. والحروب وكانت تعتبر مالا فمنها المهر ومنها الدية.

ويلخص أبو الفضل الدمشقي أسس نجاح تربية الحيوان في توفّر الأمن الشامل وقلة الأعداء وكثرة الناصر وتفقد المالك لها ومراعاة مصالحها في كل وقت ووجود الأعوان الخبيرين بسياستها وإدخال ما ترفق به من علوفاتها في صميم الشتاء وما يصلح رعايتها به من المؤن والكسوة (4). وقد كانت هذه العوامل متوفرة في بلاد المغرب الأوسط. فأطارها وزراعتها ومناخها تساعد على تربيتها، كما أن السلم الذي عاشته البلاد خاصة في القرن الثالث ساعد على ذلك.

وعلى أية حال، فقد ذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أن بلاد المغرب الأوسط «كثيرة الغنم والماشية طيبة المراعي»، وذكر ابن حوقل أن لأهلها «الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفراء والابل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص». ووصف تاهرت على وجه الخصوص أنها «أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية» وقد كان فيها ابن زلفين يملك ثلاثين ألفا من الابل وثلاثمائة ألف من الغنم وأثنى عشر ألفا من الخنير، وكان أهل

(1) ابن الخطيب: تاريخ المغرب العربي، ص 39. الحسوي: معجم، ج 2 ص 428.

(2) Muhammed abduljabbar: Agriculture... P.25.

(3) سورة النحل: الآية 5. ثم انظروا الآية 66 - 80. سورة طه: 54، 53، سورة يس: 71، 72، 73. سورة غافر: 80، 79. سورة النازعات: 32، 30. وقال ~~الله~~: «وما بعث الله نبيا الا ورعي الغنم، قالوا: وانت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت ارعاهما على قراريط لأهل مكة هرواه البخاري.

(4) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة، ص 58.

المسيلة «نكثر عنهم المواشي من الدواب والأنعام والبقر» وطبقة «وافرة بالماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم» وكان الأوراس فيه «المراعي الكثيرة»<sup>(1)</sup>. وكانت بونة من «تجارتها الغنم والصوف والماشية من الدواب وسائر الكراع... واكثر سوائمهم البقر ولهم اقليم واسع وبادية وحوزة بها فنتاج كثير وقل من نفوته الخيل السائمة للنتاج»، وكانت بجاية «وجميع ما ينضاف اليها نصلح فيها السوائم والدواب» وكانت جزائر بني مزغنة «أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم» وكانت قزرونة «لها مزارع ومسارح» وفحص عجيسة — قرب الغدير — «كثيرة الزرع والضرع» وكان اهل قصر الفلوس «المواشي عندهم كثيرة» وكان اهل هاز «أصحاب عمارة وزرع وضرع» وكان في جبال عبد الرحمن — قرب مرسى الزيتونة — «مراع مريضة» وكانت دارست — شرق تاهرت — «زراعتها كثيرة ومواشيها عامة» ولأهل شرشال «مواش وأغنام كثيرة... واكثر أموالهم الماشية» ومثلها مدينة برشك . و كانت مدينة بني واريغن «واسعة المسارح كثيرة الكلأ» وكانت ارشكول «واسعة في الماشية والأموال السائمة»<sup>(2)</sup>.

وكانت مستغانم «زكية الزرع والضرع» بل أنها مشنفة من «مشتى غنم» وكانت تلمسان «لحومها شحيمة سمينة» وكذلك جراوة أبي العيش «حواليها بسائط عريضة للزرع والضرع» وأهل واسلن «اكثر أموالهم الماشية ولهم منها الكثير والغزير»<sup>(3)</sup> الى غير ذلك، ويمكن القول بما تقدم أن اهم الحيوانات في المغرب الأوسط هي:

الحيل: يرى موريس لومبار ان الفرس البربري كان اصله من نوמידيا أو بصفة أدق ينتمي الى التلال المرتفعة الشمالية، وهو حيوان صغير نوعاً ما لكنه قوي البنية شديد المراس. ويصف القاضي النعمان خيول أبي عبد الله الشيعي

(1) ابن حوقل: صورة. ص 84.85.86.95. البكري: المغرب. ص 59. الادريسي: صفة. ص 87. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار. ص 179. الشماخي: كتاب السير. ص 205. الطيف بن يوسف: نفحة الفارس. ص 77.

(2) ابن حوقل: صورة. ص 77.78.79.87. البكري: المغرب. ص 61.65.83. اليعقوبي: وصف، ص 12. الادريسي: وصفه. ص 89.91.92.87. الفلفشندي: صبح الأعشى. ج 5. ص 150.

(3) ابن حوقل: صورة. ص 79. الادريسي: صفة. ص 80. البكري: المغرب، ص 87، 88 — 142.

— وهي تنتمي الى المغرب الأوسط — انها «لم ير الناس مثلها فيما رأوه جودة وعتقا وفراة وصلاحا ليس فيها ساقط ولا منها ضعيف» وكان المسلمون بقيادة عقبة بن نافع غنموا من أهل باغاية «خيلا لم يروا في مغازيهم أصلب ولا أسرع منها من نتاج خيل أوراس»<sup>(1)</sup>.

وكان منها أنواع أهمها: البربري والزناقي، وفي تلمسان كانت الخيل الراشدية لها فضل على سائر الخيل «ويبدو انهم (المغاربة) كانوا يطلقون على خيولهم أسماء يختارونها فكان تميم بن معد بن المعز الفاطمي فرس يدعى «السرو»<sup>(2)</sup>، كما يبدو أن خيول البربر قد أصابها التهجين فقد اختلطت بخيول عربية، فيكون قد ظهر نوع ثالث يحمل مزايا الجنسين.

— البغال: أشار ابن حوقل الى وجود البغال في بلاد المغرب الأوسط ويبدو أنها كانت تمتاز عن غيرها، مما حدا بابن الفقيه أن يشير الى «البغال البربرية» وأشار ابن الصغير أن أبا العباس — صهر الامام افلح — أتى الى القاضي على «بغلة له شهاب هملجة» وانتقل أبو عبد الله الشيعي من ميلة الى أيكجان على «بغلة بلقاء» وكانت البغال تفضل أحيانا الخيول في شدة قوتها وتحملها فكانت لهذا الغرض تشارك في الأعمال الحربية<sup>(3)</sup>.

— الأغنام: تقدمت الإشارة الى الأغنام في تاهرت، وكان لشرشال «اغنام كثيرة» وكذلك المسيلة وكانت تدلس «بها الغنم والبقر موجودة كثيرا وتباع جملتها بالأثمان البسيرة ويخرج من أرضها الى كثير من الآفاق». وكانت الأغنام منها ذنبه قصير وهو من أصل قسنطيني، ومنها لها البية مثل أغنام وجدة<sup>(4)</sup>.

(1) البكري: المصدر السابق، ص 45. القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص 218. موريس لومبار: الاسلام، ص 250. ويذكر ول. ديورات: أن الحصان كان اسمى من أن يستعمل في حمل الاثقال. ويذكر فول اعرابي في الحصان: «لا نسمه حصاني بل سمه ولدي فهو في عدوه أسرع من الريح ومن طرفه العين» ول. ديورات: قصة الحضارة ج 13، ص 109.

(2) ابن الآبار: الحلة، ج 1، ص 293. الحموي: معجم، ج 2، ص (3) القاضي النعمان: المصدر السابق، ص 75. ابن الصغير: تاريخ الائمة ص 335. ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص 252.

(4) الادريسي: صفة، ص 90. البكري: المغرب ص 87 — 88.



— البقر: أشار ابن الصغير الى أن الامام يعقوب بن أفلح كانت له بقرات، وأشار الادريسي الى «رخص السمن والزبد والبقر والغنم» في وهران والى كثرة الابقار في المسيلة والى وجودها في جزائر بني مزغنة(1)، وغيرها.

— الابل: يرى ابن خلدون أن «الابل من مكاسب اهل النجمة» لذا فهي تتوفر في الصحراء وفي المناطق القريبة منها بصفة خاصة، وقد عبّر ابن حوقل عن وفرة الابل في بلاد المغرب حين أشار الى أنهم — المغاربة — عندهم من الجمال الكثير في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تداينها في الكثرة ابل العرب. وأشار ابن الصغير الى وجود الابل في تاهرت.

ويبدو أن الابل قد انتقلت من المشرق الى بلاد المغرب في القرن الثاني الميلادي ثم تقدّمت طرق التلقيح وتحسين النوع، فظهر نوعان: يمتاز الأول بقدرته على حمل الاثقال وقوته، فهو لذلك بطيء السير، ويمتاز الثاني بالرشاقة والخفة فهو سريع العدو وتعرف هذه الابل «بالمهاري» فحين هزم ابا خزر الامام أبو القاسم الفاطمي توغل في الصحاري على المهاري «وكانت هدية زيوي بن عطية الى المنصور بن أبي عامر تشتمل على خمسين جملًا مهريًا(2).

النحل: اهتم سكان المغرب الأوسط بتربية النحل، فذكر ابن حوقل أن بربر جزائر بني مزغناي «لهم من العسل ما يجهز عنهم» وأضاف أن أهل تاهرت «يكثرون عندهم العسل» وكانت برشك «لها يادية يشتارون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النحل بالبلد» وكانت شرشال النحل عندهم كثير والعسل بها يمكن وكذلك كانت وهران وغيرها.

وقد كان العسل يدخل في صناعة الحلويات، وفي علاج بعض الأمراض، وكذلك كانوا يصنعون منه النبيذ، فذكر ابن حوقل ان التجار في مرسى الخرز

(1) ابن الصغير: تاريخ الأئمة، ص 361. ابن حوقل: صورف، ص 78. الادريسي: المصدر السابق. ص 89.

(2) السلاوي الاستقصاء، ج 1. ص 193، ابن حماد. اخبار ملوك بني عبيد. ص 12 ابن حوقل: المصدر السابق. ص 327. ابن خلدون: المعبر، ج 6. ص 175. وعن دخول الجمل انظر: محمد بن عميرة: نور زناة. ص 13 — 14

E. Demougéot: Le Chameau et l'Afrique du Nord Normaine. A.E.S.C. Mars-Avril. 1960 P.210.

يتبنون نبيذ العسل فيشربونه من يومه ويسكرهم الأسكار العظيم (1).

— الطيور: ربما حمل مرسى الدجاج هذا الاسم لشهرته بتربية هذا الطير، وإذا كان أبو القاسم الفاطمي حينما أقام شهرًا في سوق ابراهيم سنة 315هـ كان «يقتات كل يوم بيضة أو نحوها» فإن هذا يعني وجود هذا الطير هناك، ويبدو أن تربيته كانت في كل منزل، خاصة الأسر الفقيرة، فكان أبو عثمان سعيد الغساني — عاصر أبا عبيد الله الشيعي — «إذا باضت دجاجة في داره فرحوا لذلك لأنهم يشترون بها بقلًا وكان البيض مثلما هو الآن يؤكل مسلوفاً، فإن الدرجيني يذكر أن نفاثًا «قشر البيضة» ويدخل في اعداد بعض الأطعمة مثل «حجينة البيض» (2).

وكانوا يربون الحمام، فذكر أبو سعيد القلال «كان عندي زوج حمام فأخرجوا فراخًا، وورد ذكر الحمام في قصيدة للشاعر عبد الكريم النهشلي المتوفى سنة 405هـ في المسيلة بصف نهرًا في روضة من البحر المتقارب».

علتها الحمام بتفريدها كما سجع النوح في مآثم

وكان الحمام يستعمل طعامًا ويدرب على حمل الرسائل مسافات بعيدة، ويستعمل روثه سمادًا، وكان القاضي النعمان يرى أن صيد الحمام مكروه (3).

وكانت هناك طيور أخرى مثل الأوز وطيور الكراكي والبيزا ويشتهر مرسى الدجاج بطير السمانى وكان بالقرب من جيجل «فج الزرزور» وقد مارس الناس

---

(1) ابن حوقل: المصدر السابق ص 78.77. الادريسي: المصدر السابق ص 84.87.89. ابن البيطار: كتاب الجامع، ج 3، ص 121 — 122. وقال تعالى «يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس» أن في ذلك آية لقوم يفكرون سورة النحل. 68.67.

(2) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ في المغرب ص 200. الدباغ: معالم ج 2، ص 310. الدرجيني: طبقات ج 1. 79. ابن عذاري: البيان ج 1. ص 192. وعن النفاثية انظر: معمر على يحيى الاباضية بين الفرق الاسلامية. القاهرة 1947، ص 266.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج 3، ص 380. نفسه: تراجم ص 161. يوروية رشيد: الدولة الحمادية. ص 169. وعن استعمال روث الحمام سمادًا انظر. ابن بصال: كتاب الفلاحة ص 49. 51.

صيد هذه الطيور مستعملين كلاب الصيد والحرايب والسهام، إضافة الى صيد البط البري. (1).

— صيد البحر: كان صيد السمك ممتدًا على طول الساحل، وكان التجار يذهبون الى الصيادين فيشترون صيدهم ثم يبيعونه في المدن، وبلغ من مهارة الصيادين انهم كانوا يلبون رغبة التاجر في النوع الذي يريد.

وقد أشار ه. ر. ادريس — نقلاً عن القاسبي — الى وجود وكبر حجم السمك في جيجل، وذكر ابن حوقل ان مرسى الخرز فيه من صيود السمك ما لم أر ببلد مثله سمناء (2).

ومن أنواع الأسماك، العبانق والاكثوربي والأشبارس والمنكوس والبقونس ومنها أيضا الشلاح. وسمك البوري، وسمك التوفي بهاجر من المحيط الأطلسي الى البحر الأبيض المتوسط فبصاد في افريل.

وكان نهر المسيلة فيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة، ولم ير في بلاد الأرض المعمورة سمك على صفته واهل المسيلة يفتخرون به. ويكون مقدار هذا السمك من شبر الى ما دونه وربما أصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل الى قلعة بني حمادة (3).

وكانوا يصطادون المرجان في مرسى الخرز وتنس، فذكر ابن حوقل أن مرسى الخرز قرية لكنها نبيلة لمكان المرجان وحضور من يحضرها من التجار ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرًا في الجودة، وكانوا يصطادون جراد

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى. ج 4. ص 113. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 131 الادريسي: صفة. ص 68. القاضي النعمان: كتاب الاقتصار. ص 102.

(2) ابن حوقل: صورة. ص 77.

H.R.Idris: La Berbérie Orientale...T.2.P.632-633.

(3) الادريسي: المصدر السابق، ص 86. 95...p. Imamuddin: Some aspects

وقد ذكر ابن البيطار نقلاً عن أطباء المغرب الأوسط — أنه ينفع في علاج الجذام وتفتيت الحصى في الكلى والثانة(1).

— الكلاب: كانت الكلاب ضرورية للحراسة، فتحرس القطعان والمنازل والبساتين، وقد ذكر صاحب «كتاب الاستبصار» شيخاً وزوجته متجهين الى حماد — صاحب القلعة — «رافقهما كلبهما» وذكر القاضي النعمان «كلباً معلماً(2)».

### نظام الرعي:

كان يتولى صاحب الحيوانات مهمة الخروج بها الى المراعي، وقد يمكث هناك بعض النهار أو النهار كله، مصطحباً، عصاه وزاده، ثم يعود الى المنزل عند الغروب(3).

وفي أحيان أخرى كان صاحب الحيوانات يكلف اجيراً راعياً، وقد يمكث بها طول النهار ثم يعود في آخره أو يمكث فترة طويلة، وكان بإمكانه أن يصطحب معه حيواناته الخاصة، فقد أرسل رجل من لطة أبا عبد الله محمد بن بكر — من الطبقة التاسعة — «في غنم له بجبال بني مصعب سائمة فخرج، فكان الغنم تحت يده وله فيها غنم قد جمعها فيها».

في حين يذكر الدرجيني — نقلاً عن الوسياني — ان صاحب غنم قدم على راعيها «فسأله عن حال الغنم فقال: هي سالحة الحال، وان وهب الله لها العافية الى قابل فستكمل مائة(4)». وكان مالكها لم يرها منذ فترة طويلة.

ويبدو أن صاحب المواشي كان يمارس نفوذاً أوسع على الراعي، فيمكنه أن يكلفه بأعمال خارجة عن إطار الرعي، وعلى الراعي السمع والطاعة لتلا

(1) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 79. وعن طريقه صيده انظر: الادريسي: المصدر السابق، ص 85.

ابن البيطار: كتاب الجامع، ج 1، ص 161.

(2) البجلي: سيرة الحاجب جعفر، ص 116 — القاضي النعمان: كتاب الاختصار، ص 102. مؤلف مجهول: كتاب الاختصار، ص 169.

(3) القاضي عياض، نزاجم، ص 337.

(4) الدرجيني: طبقات، ج 2، ص 390. 401.

يعرض نفسه الى الطرد، فقد طلب رجل من راعي مواشيه أن يقطع خشبة من شجرة، وحين همّ الراعي بالرفض. قال له: «عليك أن تسمع ما امرتك به فتعمله، فقال له: نعم»<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن تكون المراعي خاصة، فيرسل مالك الأرض حيواناته لترعى في أرضه، وقد تكون عامة مشاعة، فجاء في سيرة جوذر: «ان هذه المسارح مشتركة لكافة اهل المنازل، التي تجاورها» وقد يخرج كل راع بمواشيه اليها على حدة، وهناك تجتمع الرعاة أو يخرجون معاً، الا أن الغالب على طريقة البربر هي التربية الجماعية، فتعهد القبيلة أو مجموعة من السكان الى راع مسؤول يساعده عدد من الرعاة وهم على معرفة ودراية عامة بالمراعي وهذا النظام يسمى «المشتى» وكان على أصحاب الأغنام أن يسموها للتمييز بينها ومعرفتها. ويمكن أن نتخيل الراعي وقد اجتمع حوله الرعاة فيغني لهم.<sup>(2)</sup>

وكان الراعي عادة رجلاً شاباً، وفي بعض الأحيان كان الصبيان يستغلون في رعي الأغنام. فأشار القاضي الى صبي يرعى غنماً، وأشار في موضع آخر الى أجرة غلام راع فذكر أن صاحب الغنم «أجرى له دينارين في كل سنة»<sup>(3)</sup>.  
**نظام المقاييس:**

استعمل المغاربة مقاييس مختلفة لقياس المسافات القصيرة والطويلة وقياس المساحات، ويبدو أنها كانت تتفق ونظائرها في المشرق الاسلامي، وكان منها:  
— القامة: أورد البكري اشارة تدل على أن المغاربة استعملوا القامة كوحدة قياس، فذكر بخصوص بئر أن «عمقها ثلاثون قامة»<sup>(4)</sup>. وأضاف بخصوص عمود أن ارتفاعه في الهواء أربع وعشرون قامة ويظهر أنهم كانوا يستعملونها لقياس المسافات العمودية ارتفاعاً أو عمقاً بما يشبه القامة، وهذه القامة المستعملة في القياس هي قامة رجل معتدل الطول، يرى هـ.ر. ادريس انها تساوي 1,65م — 1,70م.

(1) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج 3، ص 503. وفي الأصل، فقال له: بل.

(2) الجوذري: سيرة جوذر، ص 96. موريس لومبار: الاسلام، ص 122. 252.

(3) القاضي عياض: تراجم، ص 214.

(4) البكري: المغرب، ص 31، 146. نجاة ولدت السويسي: التجارة، ص 88.

**الخطوة:** واستعمل المغاربة الخطوة لقياس المسافات القصيرة نسبياً، وهي عادة خطوة رجل معتدل القامة، ويرى هـ. ر. ادريس أنها تساوي 1,45 م.<sup>(1)</sup>

**الباع:** هو قدر مد البدن على استقامتهما على الجانبين.

**الذراع:** وهذه الوحدة هي ذراع رجل معتدل، ويرى هـ. ر. ادريس أن الذراع يساوي 48 سم أو 24 أصبعاً حسبما ذكره المقدسي، وهو يختلف عن الذراع الرشاشي، الذي ورد ذكره عند الادريسي والمقري، ويرى هـ. ر. ادريس أنه يساوي 72 سم.<sup>(2)</sup>

**الشبر:** أفاد البكري بخصوص استعمال المغاربة الشبر في عمليات القياس، فذكر أن «باب الزويلة — المهدية — طوله ثلاثون شبراً» وأن ارشغول «سعة سورها ثمانية أشبار» أما الادريسي فذكره في اشارته الى سمك المسيلة فذكر أن «مقدار هذا السمك من شبر الى ما دونه» وقد حدده هـ. ر. ادريس بـ 24 سم أي نصف ذراع.<sup>(3)</sup>

**الفتر:** لم تكن هذه الوحدة مجهزة عند المغاربة، فقد أشار الحموي الى وجودها في ذكره سواقي نوزر، فذكر أن «كل ساقية سعة شبرين في فتر»<sup>(4)</sup> — كما سلف — وهو يمثل المسافة بين رأس الابهام والسبابة في أقصى انفراج لهما.

**القبضة:** حدد هـ. ر. ادريس طول القبضة بـ 8 سم.<sup>(5)</sup>

**الأصبع:** وهو يمثل «ست حبات شعير مصفوفة بطول بعضها البعض»<sup>(6)</sup>. وقد حدد هـ. ر. ادريس هذه المسافة بـ 2 سم.

(1) ولدت السويس نهاية. المكان السابق.

H. R. IDRIS: op. cit. T.2 p. 652.

(2) البكري: المغرب، ص، 147. ابن الفقيه: المسالك والممالك. ص، 79. المقدسي: أحسن التقاسيم. ص، 65. ويذكر الرئيس ضياء الدين اذرعاً أخرى لا يوجد ما يدل على استعمالها في بلاد المغرب مثل: ذراع الملك. الذراع السوداء. الذراع السلطاني. الذراع الميزانية. انظر: الرئيس: الحراج. ص، 287، 289، 293.

(3) البكري: المصدر السابق، ص، 86.

(4) الحموي: معجم البلدان، ج2، ص، 429. الادريسي: صفة، ص، 16.

H. R. Idris: Loc. cit.

Ibid: Loc. cit.

(5) ولدت السويس: المكان السابق.

(6) المقدسي: المصدر السابق، ص، 66.

وهذه وحدات قياس مرتبطة باطراف الجسم تستعمل لقياس المسافات القصيرة وهناك وحدات قياس أخرى تستعمل لقياس المسافات الطويلة منها:

البريد: ذكر القاضي النعمان هذه الوحدة مع تحديدها في عبارته أن «البريد اثنا عشر ميلا» ويرى الحموي أن هذا البريد هو المستعمل في البادية، إذ أن هناك بريد آخر يساوي عشرين ميلا<sup>(1)</sup>.

الفرسخ: تستعمل هذه الوحدة لقياس مسافات الطرق على وجه الخصوص، ويرى المقدسي أن «الفرسخ اثنا عشر ألف ذراع»<sup>(2)</sup>. وبما أن الذراع 48 سم فإن الفرسخ =  $12.000 \times 48 = 576.000$  سم = 5,760 كلم إلا أن الحموي لا يرى «خلافا في أن الفرسخ ثلاثة أميال».

الميل: استعمل الميل أيضا كوحدة قياس، وقد ذكر ابن الصغبر حين أشار إلى وادي هواره فذكر أن «بينه وبين المدينة نحو عشرة أميال أو أكثر»<sup>(3)</sup>. وذكره الرحالة في مواضع أخرى مختلفة فذكر الإدريسي — على سبيل المثال — أن مدينة تنس تبعد عن البحر مسافة ميلين، وأن بركة عنابة ثلاثة أميال في مثلها.

ويذكر المقدسي أن «الميل ثلث فرسخ»<sup>(4)</sup>. كما يذكر القاضي النعمان «الميل ثلاثة آلاف ذراع»<sup>(5)</sup>. أما الحموي فيذكر أن الميل «ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك»<sup>(6)</sup>. وبما أن ذراع الملك 57,77 سم حسبما ذكره الرئيس ضياء الدين فإن الميل = 1,733 كلم، في حين جعله هـ. ر. ادريس 1453 مترا، ويبدو أن الميل في بلاد المغرب هو ما ذكره القاضي النعمان، وعليه يساوي  $3000 \times 48$  سم = 144 000 سم = 1,440 كلم.

(1) القاضي النعمان: كتاب الدعائم ج 1، ص، 277. الحموي: المصدر السابق ج 1، ص، 34 — 35.  
(2) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص، 63. ابن خلدون: المقدمة، ص، 45، الحموي: معجم، ج 1، ص، 35. يذكر الإدريسي أن المسافة بين مصر وبغداد 570 فرسخا وهي 1710 أميال. انظر: صفة

ص، 163. وكان الفرسخ عند الرحالة اليهود يعادل 21 ألف قدم. انظر: رحلة بنيامين التيطلي. ترجمة عزرا حننا. بغداد، 1945، ص، 52 الحاشية.

(3) ابن الصغبر: سورة الأكمة، ص، 331.

(4) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص، 66.

(5) القاضي النعمان: دعائم ج 1، ص، 277.

(6) الحموي: معجم، ج 1، ص، 36.

المرحلة: يبدو أن استعمال هذه الوحدة كان أكثر شيوعاً، فإن نظرة الى كتب الرحالة توضح أنهم كانوا اذا ذكروا المسافة بين مدينة وأخرى استعملوا المرحلة الا ما ندر.

وقد كانت المرحلة معروفة في تاهرت، فإن ابن الصغير في اشارته الى حصن تبابغيت يذكر أنه «على مرحلتين من تاهرت»، وقد حدّدها — المرحلة — المقدسي، — فقال «لقد جعلنا المراحل ستة فراسخ وسبعة» منها الى أنها قد تزيد، وقد تنقص، وبما أن الفرسخ غير محدد بدقة بدوره، فإنه من الصعب تحديد المرحلة واذا اعتبرنا الفرسخ = 5544 متراً، فإن المرحلة في هذه الحالة تكون 33 كلم أو 38 كلم ويحدّدها جولفن Golvin فيجعلها 30 كلم، وربما كان سبب هذا الاختلاف أنها تعتبر مسيرة يوم مشياً على الأقدام<sup>(1)</sup>. وبطبيعة الحال فإن المسافة التي يقطعها الرجل تعتمد على طبيعة الطريق من سهولة ووعورة.

المجرى: يستعمل الادريسي<sup>(2)</sup> في كتابه وحدة تدعى «المجرى» وذلك في قياس المسافات البحرية، فيذكر بخصوص وهران والمرجة أن «سعة البحر بينهما مجريان» وهو يحدّد طول المجرى فيذكر أن من مدينة وهران «الى مدينة تنس مجريان وهي من الأميال 204 أميال» أي أن المجرى يساوي 102 ميلاً، واذا اعتبرنا الميل حسباً ذكره هـ. ر. ادريس 1453م فإن المجرى يساوي 148,206 كلم.

كما استعمل المغاربة وحدات لقياس المساحة وكان منها:

الزوج: أورد المالكي ذكر هذه الوحدة، فذكر بخصوص الأمير عبد الله ابن ابراهيم بن الأغلب أنه «جعل على كل زوج تحوُّب ثمانية دنانير» ويعرف هـ. ر. ادريس الزوج بأنه مساحة الأرض التي يحرقها حيوانان في فصل في الأراضي السهلية لكنه لم يحدّد هذه المساحة<sup>(3)</sup>.

(1) ابن الصغير: سورة الأئمة، ص، 347، المقدسي: المصدر السابق، ص، 106.  
وذكر الرئيس «القصر» ونساوي 16 فرسخاً، وذكر «القلوة» ونساوي 400 ذراعاً، ولكن لا ندرى اذا استعملت في بلاد المغرب، ثم عن المرحلة انظر: Golvin: Le Maghreb central.. p. 84.  
(2) الادريسي: نزهة المشتاق، ص، 84، 88.  
(3) المالكي: رياض النفوس، ج 1، ص، 238. ويعرف ابن فضل الله العمري «الزوج» أنه عرث أربع بقرات لأن الزوج بشعبتين والشعبة برأسين من البقر. انظر: ابن فضل الله العمري: وصف افرقة والأندلس، ص، 19.



القفيز: وهو يختلف عن القفيز — المكيال — إذ هو وحدة قياس مساحة، وكان مستعملاً في بلاد المغرب، فذكره ابن عذاري حين تعرض للأمير عبد الله السالف الذكر — فذكر أنه «قطع العشر حباً، وجعله ثمانية دنانير للقفيز أصاب أم لم يصب»<sup>(1)</sup>. وواضح أنه يقصد بعبارة هذه قفيز مساحة، ويظهر أن هذا يساوي عشر الجريب، وتوجد اختلافات بشأن تحديد الجريب، فذكر ضياء الدين الرئيس أنه يساوي 314,86م<sup>2</sup> أو 875,686م<sup>2</sup> أو 1200م<sup>2</sup><sup>(2)</sup>، ومنه فإن القفيز يساوي 31,5م<sup>2</sup> أو 87,56م<sup>2</sup> أو 2120. ويبدو أن المغاربة لم يستعملوا لفظة «الفدان» فإن أبا الفضل العمري يذكر أن الشعبة رأسان من البقر وهي المسماة في بلد دمشق بالفدان»<sup>(3)</sup>.

(1) ابن عذاري: البيان. حوادث سنة 197هـ.

(2) H.R.Idriss La Berbérie...T.2. P.281.288.

(3) ابن فضل الله العمري: وصف إفريقية والأندلس. ص 19.

## الفصل الثاني الصناعة

### تصنيف المهن والصنائع:

تنباين الصنائع وتختلف، فمنها ما يعطي صاحبها الشرف والرئاسة ومنها ما تبقى في طبقة العامة، أما النوع الأول، ف يرى أبو الفضل الدمشقي انها تتمثل في السيف والقلم فالأول يكسب الرئاسة للملوك والأمراء، والحجاب والقواد ووجوه المشائر ورؤساء القبائل، والثاني يكسبها للوزراء والكتاب والقضاة والخطباء ومن يجري مجراهم،<sup>(1)</sup> وكل صناعة غير هاتين الصناعتين فليس يذكر صاحبها بعز.

الا أن الصنائع يمكن أن تصنف ويفاضل بينها لاعتبارات أخرى متعددة، وقد يفضل بعضها البعض الآخر بسبب نوع المادة المستعملة مثل الصياغة وصناعة العطور، ومنها بسبب الأدوات التي تتم صناعتها مثل آلات الرصد، والاسطرلاب، وبسبب الحاجة الضرورية الداعية الى اتخاذها كالحياكة والحراثة والبناء أو بسبب ارتفاع عدد أكبر منها مثل الحمامين والكناسين، وأخرى بسبب طبيعة الصناعة نفسها<sup>(2)</sup>.

ومهما كان الأمر فإن الصنائع تختلف من مجتمع الى آخر، باختلاف درجة التطور، فإن صنائع المجتمع البدوي تختلف عنها في المجتمع الحضري، فهي تتركز في المجتمع الأول حول توفير الطعام، والملبس والخيام وبعض الأدوات التي تستعمل في توفير الأمن للناس، وبالجملة فهي تتركز حول ما هو ضروري وهي في العادة قليلة، أي أن المجال الصناعي في المجتمع البدوي ضيق، وهذا ما دعا

(1) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة الى معاشن التجارة، ويعرف «أخوان الصفاء» الصناع بأنهم «الذين يعملون بأيديهم وأدواتهم في مصنوعاتهم الصور والأصباغ والنقوش والأشكال وعرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم». رسائل اخوان الصفاء — دار بيروت للطباعة والنشر. دار صادر للطباعة والنشر. بيروت 1376هـ/1957. ج 1 ص 285.

(2) رسائل اخوان الصفاء. ج 1. ص 287.

ابن خلدون أن يذكر أن العمران البدوي «لا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات: من نجار أو حداد أو خياط أو حائك»<sup>(1)</sup>. ونحو ذلك ويضيف أن «الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل»<sup>(2)</sup>.

ويختلف الأمر بالنسبة للمجتمع الحضري، حيث يستبحر العمران، ويكثر السكان، ويزداد تطلّعهم إلى ما وراء الضروري، أعني إلى الكماليات، وكلما تقدم في حياة الرفاهية والترف اتسعت نظراته وتطلّعاته إليها، بل أن الأمر يتعداها إلى التفتن فيها، وكلما تقدم أيضًا اتسعت دائرة نشاطه الصناعي، وفي هذا الشأن يذكر ابن خلدون: «إذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات كان من جملتها التأنيق في الصنائع واستجاداتها فكملت بجميع منمعاتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخرار وصائغ وأمثال ذلك»<sup>(3)</sup>. وإذا زاد العمران اتساعًا ظهرت صناعات أخرى مثل: «الدهان والصفار والحمامي والطباخ والشماع والمهراس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع»<sup>(4)</sup>. وهو يربط بين اتساع العمران واتساع ميدان الصناعة فيذكر أنه: «إذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها، كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ، وكثر الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك... فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك»<sup>(5)</sup>.

وهكذا يمكن القول أن الصناعة في بلاد المغرب الأوسط، لم تكن على وتيرة واحدة ومستوى واحد، نظرًا لتعدد مستويات نواحيه، فهناك نواح يسودها المجتمع البدوي، وهنا تظهر الصناعات التي تتلاءم وطبيعة المجتمع، بل أن هؤلاء لا يقرون على تصنيع المواد الخام التي بحوزتهم كلية كالمنتجات الحيوانية، فيضطرون إلى تصديرها خامًا أو نصف مصنعة إلى أسواق المدن،

(1) ابن خلدون: المقدمة ص 401.

(2) نفس المصدر ص 400.

(3) نفس المصدر ص 401.

(4) نفس المكان.

(5) نفس المصدر ص 359.

ومن المرجح أن قبائل مزاعة وسدراتة التي أشار ابن الصغير الى أنها كانت ترد تاهرت، كانت تحصل على ما تحتاج اليه من أسواق المدينة مقابل ما تقدمه لتلك الأسواق.

وكانت هناك مراكز صناعية في القرى المنتشرة عبر أنحاء بلاد المغرب الأوسط، وهي أكثر تقدماً من صناعة المجتمع البدوي لأنها تدخل فيها الفلاحة ومتوجاتها إضافة الى الصناعة الحيوانية، إلا أن المراكز الصناعية الكبيرة هي في مدنها العديدة مثل مدينة تاهرت «قصة الأقليم» ومدينة تلمسان «المدينة العظمى»، حسيا وصفها اليعقوبي، وغيرهما، ثم مدينة مسيلة، وأشهر جزائر بني مزغنة وغيرها من مدن القرن الرابع الهجري.

ففي مثل هذه المدن قامت صناعات ذلك العصر من أسماها الى أوضاعها شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الإسلامية.

والجدير بالذكر في هذا الميدان، أن مجتمع المغرب الأوسط تطور في هذه الفترة، دل على ذلك ظهور مدن جديدة، وإحياء مدن أخرى وهذا يعني أن الصناعة في تلك النواحي قد شهدت بدورها تطورا واتساعا، وانتقلت من صناعة بدوية أو قروية الى صناعة المدينة.

### تقسيم العمل:

أن حاجات الانسان عديدة، ويرى أبو الفضل الدمشقي أن هذه الحاجات تحتاج الى أنواع متعددة من الصناعات حتى يتم الحصول عليها، وأن قصر عمر الانسان لا يمكنه من تعلم جميع الصناعات، ذلك لأنها مبنية على بعضها البعض، فالبناء يحتاج الى النجار وهذا يحتاج الى الحداد، وهذا يحتاج الى أصحاب المعادن، وهكذا إحتياج الناس الى الاجتناع معا واتخاذ المدن، وتخصص كل منهم في حرفة ما(1) ومبدأ التخصص هذا يؤدي الى اتقان الصنعة والتفنن فيها بل وزيادة الانتاج، وأن كان من زاوية أخرى يؤدي الى جهل الصانع بصناعات أخرى، والدور الإيجابي للتخصص دعا الصناع الى تضيق حدوده، حتى أن الصانع منهم لم يختص بتصنيع المادة فحسب بل كان يتخصص في صناعة اداة أو سلعة واحدة من مصنوعات تلك المادة، فنجد في كتب التراجم على سبيل المثال

(1) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة الى محاسن التجار، ص 20 - 21.

«القلانسي» (1) وهو مختص بصناعة القلانيس من بين الملابس العديدة التي يتخذها الإنسان.

### تنظيم العمل:

جرت العادة في مجال الصناعة أن يتخذ الصانع حانوتًا يديره بنفسه أو تساعد عائلته أو شركاء له، وقد يعمل الصانع أحيانًا في بيته، وكذلك قد يعمل بمفرده أو يعمل معه جماعة من المتدربين والصبيان وإذ أن هناك بعض الصنائع التي تحتاج إلى عدد من المشتغلين وفي أغلب الأحيان فإن الصانع في حانوت واحد يفضلون مبدأ الاشتراك على أن يكون أحدهم أجيرًا عند صانع آخر كذلك قد يعمل بعض الصانع لحسابهم الخاص فيبيعون انتاجهم، وهناك بعضهم لحساب الآخرين مقابل أجره يومية محددة أو حسب وحدة الانتاج كأن ينجز عددًا معينًا من الوحدات بغض النظر عن الزمن مقابل أجر معلوم، وقد يشتغل الصانع بأدواته ومواده الخام الخاصة، ولكن بعضهم الآخر يشتغل بأدوات ومواد مستأجرة (2).

فيذكر القاضي عياض قول أبي ميسرة 377هـ/984م في القيروان: «رمتي والدتي عند رجل من الرهانة ومعه صبيان فكان يدفع إليهم سلع الناس يبيعونها ولا يعطيه هو شيئًا فسئل بعض جيرانه عن سبب ذلك فقال: لأنك تستنصفي، وهؤلاء يبيعون ذلك منه من تحت يده» (3) وكان أبو عثمان السرتي — في القيروان — يستخدم المرمة بالأجرة كل يوم سبت ويقتات بما يأخذه في تلك الأيام، فجاءته يومًا امرأة وطلبت منه في شهادة على غريم لها، والطين إلى انصاف ساقه، فقال لها:

(1) القاضي: عياض: تراجم أغلبية ص 195. وانظر: Goitein: The main industries P.169.  
(2) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 99 — 100 يبدو أن أجرة غزل رطل من الكتان كانت درهما. انظر الدباغ معالم ج 2 ص 342. وانظر:

Imamuddin: Some aspects of the...P.103.

ويذكر ه. ر. ادريس عن عمال المناجم أنهم كانوا يتقاضون أجرة مقابل عمل عدد أو كمية من المعدن عن استخراج كمية معينة أو أن يصبحوا شركاء في المنجم انظر:

H.R. Idris: La Berbérie orientale...T.2.P.639.

(3) القاضي عياض: ترتيب المداوك، ج 3 ص 361.

«أنا أجير»<sup>(1)</sup> ومثله فعل سعيد بن عباد — ت 251هـ/865م بالقبروان، فقد جاءته امرأة تطلب شهادته فوجدته منهمكاً في عجن الطين فاقل لها «أنا مستأجر كما ترين وأنت مضطرة، فقال له صاحب البناء، اذهب معها وأنت في حل»<sup>(2)</sup>، ويكشف القاضي عياض عن نظام العمل الذي كان متبعاً في ذلك الوقت، فقد يتقيد العامل بالزمن أو بالوحدات — كما سلف — فيذكر قول الهلول بن راشد «كنت عند معلمي أنخبط فيمر علي سافر بن سليمان الواعظ بالجامع والقراء يقرأون عليه، فأقف اليه واستحلي ذلك ثم حاسبت نفسي، وقلت أنا مستأجر، فصرت آخذ من معلمي طريقة معلومة فإذا فرغت منها مضيت الى مجلسه»<sup>(3)</sup>.

وكان صاحب المحل يسمى «المعلم» وهو يتمتع بكامل الحقوق واليه تعود كافة الأرباح، ويكون الى جانبه «التابع أو الأجير» وثالث في المحل هو «الصبي» وهو يأخذ أجرة نظير تعلمه الحرفة، وفي العادة فإن بعض الصبيان هم أبناء المعلم نفسه، وبهذا فإن الحرفة تنتقل اليهم وتكون وراثية.

وعلى كل، فقد يدفع الصبي أجرة، ويبدو أن نزاعاً كان يقع بين الصبي والمعلم حول هذا الموضوع، بما دعا القاضي النعمان أن يقول لا بأس بأخذ الأجر على تعليم الصنائع التي تحمل»<sup>(4)</sup>.

ويظهر أنه كان الى جانب الحوانيت الصغيرة التي يملكها صانع واحد، مصانع كثيرة تشتمل على عدد كبير من الصنائع، وهي التي أشار اليها ابن حوقل في عبارته: «ولغير المياسير فنادق وخانات يسكنها أهل المهن وأرباب الصنائع بالدكاكين المعمورة والحجر المسكونة والحوانيت المشحونة بالصنائع كالفلاسيين في سوقهم»<sup>(5)</sup>.

(1) الديباغ: معالم الايمان ج 2 ص 119. هل كان العامل هذا يكتفي بعمل يوم السبت فقط فبعش أسبوعه بأجرة هذا اليوم، وهكذا في كل أسبوع؟

(2) القاضي عياض: المصدر السابق ج 3 ص 125. نفسه: تراجم أغلبية ص 198.

(3) نفسه: ترتيب المدارك ج 1 ص 336. تراجم أغلبية ص 35.

(4) القاضي النعمان: كتاب الاقتصاد ص 90. يشار الى الحرف بالأصناف وأصحاب المهن وأهل الصنائع وللحرفة عرف خاص بها مقبول لدى القاضي: انظر عبد العزيز الدوري: تاريخ ص 92.

(5) ابن حوقل، صورة الأرض ص 362.

كما يبدو أن الصانع بصفة عامة، كانوا ينضوون تحت نفوذ رجل منهم يدينون له بالأحترام، فيذكر ابن عبدون أنه كان على القاضي أن يجعل في كل صناعة رجلا من أهلها فقيها عالما خيرا يصلح بين الناس إذا وقع بينهم الخلاف في شيء من أمورهم<sup>(1)</sup> وهو ما يمكن أن يطلق عليه لقب «العرف» وهو في العادة ممن له خبرة واسعة في مجال هذه الصناعة.

كما يظهر أن الفارق بين الصانع والتاجر لم يكن واضح المعالم لأن الصانع الذي كان يقوم بصناعة السلع استجابة للطلب، كان في وسعه كذلك أن يبيع الفائض منها لديه ويتضح هذا فيما رواه الدرجيني بخصوص تاجر أهدى قميصا لشيخ اباضي في العهد الزيري، وحين رفض الشيخ استلام القميص، قال له التاجر: أدفع لي رأس مالي وأترك لك قيمة الخياطة فاني خيخته بيدي<sup>(2)</sup> وكان الصانع يحمل نفس اللقب الذي يحمله تاجر تلك السلعة، فان الأمير عبد الرحمن بن الحكم قال ذات مرة: «علي بالحصارين كلهم، تجارهم وعمال الأيالي»<sup>(3)</sup>.

ويظهر أن للصانع قدرة حس فائقة، يميزون بها بين صناعات بعضهم البعض، التي يصعب على عامة الناس التمييز بينها، وربما بعلامة فيها أو بدرجة اتقانها أو نوع المادة الخام المستعملة، فحين قدم الحصارون على الأمير السالف الذكر «قدم الى نفسه وجوههم فقال لهم: عمل الشيرات والقفاف متشابه أو يعرف بعضهم عمل بعض ؟ فقالوا: بل يعرف بعضنا أعمال بعض ونعرف أعمال أهل الكور من أعمالنا»<sup>(4)</sup>.

وقد كان أصحاب المهن يرتدون أزياء خاصة بصناعتهم، ولكل مهنة زي خاص بها وكانهم بها يعرفون، فيذكر القاضي عياض «زي جمال»<sup>(5)</sup> وقال القاضي سحنون لغلام أحب تلقى العلم: «أحب أن أرى عليك زي أهل العلم»

(1) ابن عبدون: رسالة في القضاء والحسبة ص 214 يذكر عبد العزيز الدوري: أنه كان لكل حرفه رئيسها من أعضائها تمنه الحكومة وهو شيخ الصنف، يليه الأساتذة وهم المتقدمون في الحرفة ثم الصانع ثم المبتدئون، أنظر الدوري: المكان السابق.

(2) الدرجيني، طبقات، ج 1 ص 161.

(3) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص 91.

(4) القاضي عياض: تراجم أغلبية ص 236.

فقال الغلام: «فما أتيت الموعد الآخر الا وقد حلق رأسي وكسيت ثياب العلماء»<sup>(1)</sup> وكان محمد بن رزين — ت 255هـ / 869م في سوسة قد «خرج في عيد بثياب مهنته»<sup>(2)</sup>.

### ازدهار الصناعة:

خضعت الصناعة في بلاد المغرب الأوسط الى عدة عوامل أثرت فيها وأدت الى ازدهارها ومنها:

— **النظرة الاسلامية:** فقد حض الله الناس على ممارسة الصناعة ومختلف المهن من خلال الحض على العمل، فقال تعالى: «وفل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»<sup>(3)</sup> وقال: «فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله»<sup>(4)</sup> وفي هذه الآية دليل على تعدد المهن.

وكان الرسول محمد ﷺ — يحض بدوره على العمل فقال: «من أمسى كلاً من عمل يده أمسى مغفوراً له يوم القيامة» وقال: «ان الله يحب العبد المؤمن المحترف» وقد حض الله تعالى ورسوله على اتقان العمل، فقال تعالى: «ولتسألن عما كنتم تعملون»<sup>(5)</sup>. وقال: «أنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً»<sup>(6)</sup> وقال ﷺ — ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

(1) نفس المصدر، ص 209.

(2) نفسه: ترتيب المبداء ج 3، ص 93.

(3) سورة التوبة: الآية 104.

(4) سورة المزمل: الآية 20.

(5) سورة النحل: الآية 93.

(6) سورة الكهف: الآية 30.

وكان في الرسل قدوة كان سيدنا داوود وسيدنا ادريس وسيدنا زكريا نجاها والنبي موسى أجراً، أنظر زيدان عبد الباقي العمل والعمال والهن في الاسلام، مطبعة السمادة القاهرة 1398هـ/1978م وكان الصحابة يحضون على العمل فإن عمر بن الخطاب يقول «اني لأرى الرجل فيمجنني فاقول: انه حرفه ؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني، وكانت عائشة — رضي الله عنها — تقول: المغزل في يد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله، وكان علي بن أبي طالب «يسقي بالدلاء على ثمرات» وكان سعد بن أبي وقاص صانع نبال، وسلمان الفارسي حلاقاً وبلال بن رباح خادماً.



## — اتساع العمران:

وقد اشرنا سابقا الى اتساع العمران في بلاد المغرب الأوسط بدليل ظهور مدن جديدة، فإذا كانت تلمسان «المدينة العظمى» — كما سلف — فإن تاهرت كانت تقارب دمشق وقرطبة حسبا وصفها المقدسي، وذكر ابن خلدون بشأنها أنها «تمدنت واتسعت خطتها»<sup>(1)</sup> هذا الى جانب المدن التي نشأت في القرن الرابع الهجري، وإن اتساع العمران هذا يعني ازدياد الطلب على السلع على اختلافها، وهذا ينعكس إيجابيا على ازدهار الصناعة خاصة إذا توفرت القوة الشرائية.

## — توفر المواد الخام:

نظرا لأن بلاد المغرب الأوسط اشتهرت بالانتاج النباتي والحيواني، فقد قامت صناعة واسعة في هذين المجالين اعتمدت عليهما، كما توفرت فيها بعض المعادن، التي سمحت بقيام صناعة معدنية فقد كان الحديد في مجانة وبونة وبجاية وكان في مجانة أيضا الفضة والرصاص والأثمد، وكان النحاس واللازورد بجبل كتامة، وكان الجص في متوسة — 12 ميلا عن بجاية — وكان الزئبق في جبل أرزيو، كما توفر الأثمد في حصن تاونت على ساحل ترنانا، وكان «يجلب الى بجاية من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران»<sup>(2)</sup>، هذا بالإضافة الى الملح، فذكر البكري أن بقرب بسكرة، جبل ملح يقطع فيه الملح كالصخر الجليل، ومنه كان عبيد الله المهدي وبنوه يستعملون في أطعمتهم. الى جانب ملاحات البحر، وكانت القوافل الى بلاد السودان كفيلة بتأمين مادة الذهب.

ومع وجود هذه المعادن الا أن الرحالة لا بشيرون الى كمية الانتاج، وهل كانت كافية لسد الحاجة المحلية ؟ ان ذكرهم لها يدل على أنها كانت ذات اعتبار<sup>(3)</sup>، وهي أن لم تكن تسمح بقيام صناعة تغزو الأسواق الخارجية الا أنها كانت كافية لقيام صناعة نسد الطلب المحلي.

(1) ابن خلدون: المعبر، ج 6. ص 247.

(2) الأدهيسي: صفة 90. بوروية الدولة الحمادية، ص 136.

(3) يصف لويس لومبارد البلاد بفقرها في المعادن بسبب فقر الأرض بها وضياع كمية كبيرة منها بسبب تأخر الوسائل المستعملة والطرق المتبعة في تنقيتها، لويس لومبارد: الاسلام في مجده الأول ص 260.

## — نشاط الحركة التجارية:

لقد سارت القوافل محملة بالسلع والبضائع في جميع الاتجاهات، كما سيأتي ذكره — وهذا ينعكس بدوره على الصناعة، إذ أن تصريف السلع يعني صناعة سلع جديدة، في حين أن كسادها يعني توقف الحركة الصناعية وأصابها بالشلل.

## — دور الدولة:

لا يشير المؤرخون إلى أن الرستميين فرضوا ضرائب فادحة أو غير شرعية على الصناع، كما أنهم نظموا الأسواق، وأفردوا لكل صنعة سوقاً، وأخرجوا بعض الصنائع ذات الأوساخ والروائح الكريهة من المدن وهذا التنظيم يسهل مهمة المحتسب في مراقبة الصناع، وهذا كله يؤدي إلى تشجيع الصناعة.

وأما الضرائب المتنوعة التي فرضها الفاطميون ثم الزيريون، والتي تبدو فادحة فلم تكن في الحقيقة أكثر من اجراء يراد به تنظيم الحركة الاقتصادية عامة ودفع الناس إلى الجهد والاجتهاد في العمل، فإن المعز الفاطمي قد ركز في وصيته لخليفته على المغرب — بلكين — على عدم رفع الجباية عن البادية وأوصاه خيراً بأهل الحاضرة (2).

ويبدو أنها نفس السياسة الاقتصادية التي اعتمدها الزيريون فيما بعد، يدل على هذا ازدهار الأوضاع في عهدهم من صناعة وتجارة وكثرة الأموال حتى كانوا يصنعون توابيت كبارهم من العود الهندي بمسمار الذهب (3).

وقد تضافرت هذه العوامل، فساعدت على قيام صناعة مزدهرة في بلاد المغرب الأوسط، لكنه ازدهار نسبي إذا ما قورنت بغيرها من المراكز الصناعية الشهيرة في المشرق الاسلامي، وإن كانت تنقصها الأرقام للدلالة على هذا الازدهار، وكانت هناك عوامل أخرى تقف حجرة عثرة في عجلة الصناعة.

(1) ابن أبي دinar: المؤنس، ص 75.

(2) مرمول محمد الصالح: المرجع السابق، ص 174 — 175.

العراقيل:

#### أ — المكانة الاجتماعية للصانع:

كان الصانع يعتبر من طبقة العامة، بل وينظر اليه بازدراء، حتى أن القاضي النعمان يقول: «لقد رأيت كثيرًا من أوباش الناس وعوامهم ومن هو أقرب شبهًا بالبهائم منه بالناس كالصناع» وهذا يدل على أن الصناعة لا يمارسها إلا من أوصدت أبواب الزرق الأخرى في وجهه وإذا شارك الأغنياء فيها فلا يتم هذا بأبدانهم بل باستثمار أموالهم، وفي هذا يذكر أخوان الصفا في رسائلهم: «أن الغرض في كون الناس أكثرهم فقراء، وخوف الأغنياء من الفقر، هو الحث لهم على الاجتهاد في اتخاذ الصنائع والثبوت فيها والتجارات»<sup>(1)</sup>. وبالفعل، فإن القاضي النعمان يصف الصناع بأنهم في «فقر مدقع وحاجة شديدة»<sup>(2)</sup> وذكر أبو الفضل الدمشقي: انه قيل قديمًا «الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى»، وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن إقامة مالا بدله منه ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة وأيضًا فإنه مع ذلك إذا ميز الناس دخل في أدون طبقاتهم»<sup>(3)</sup>.

وبالفعل فإن طبقة العامة وفيها شريحة الصناع — كانت تلهث وراء في حاتم الرستمي لتلتقط ما يلقي لها من الطعام واللباس. فقد حملته على الأكثاف ونادت به أمامًا لأنه كان يطعم ويكسو، ويذكر الخشنى أن عليا بن منصور الصفار وهو مخنص بالصناعات النحاسية، قد أضطره الفقر والاقلال ومحبة السوداء الى أن تشرق»<sup>(4)</sup>.

#### ب — التشابه الصناعي بين أنحاء بلاد المغرب الأوسط:

ان صناعة البلاد، بل صناعة المغرب الاسلامي عامة، كانت قائمة بشكل أساسي على الانتاج الفلاحي والحيواني — كما سلف — فهي تشمل معالجة

(1) رسائل اخوان الصفا: ج 1، ص 285.

(2) القاضي النعمان: كتاب الهمة، ص 44.

(3) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة، ص 63.

(4) الخشنى: قضية فرطية ص 283 ويذكر صفان أن الحرفيين كانوا محترقين ويعدون في أسفل السلم الاجتماعي حتى في العهد البيزنطي وتدل عليه كلمة Tenuis أي الأسفل والمفقر أنظر: صفان: دراسة في علم الاجتماع الاقتصادي ص 58.

الحبوب بالطحن والعجن وما ينبت عليها من صناعات، وتشمل الصناعات النسيجية الصوفية في الأعم، والصناعات الجلدية، إضافة الى مشتقات الألبان، وهي أمور متوفرة بل تفيض عن الحاجة في كل شبر من البلاد، وهنا يقل الطلب والحالة هذه، مما ينعكس على الصناعة بالركود.

### ج - المنافسة الخارجية:

فإن صناعة بلاد المغرب الأوسط تجد منافسة خارجية، فإذا أخذنا الصناعات النسيجية مثلاً، فأين نسيج البلاد هذه من نسيج مدن العراق كالموصل التي اشتهرت بصناعة الموصليين، وأين هي من وشي سابور والكوفة، الذي كان يحمله التجار المشاركة حتى الى القيروان وقرطبة، وما دام وصل هاتين الحاضرتين فمن المرجح أنه وصل مدن المغرب الأوسط نفسها، ويذكر ابن الفقيه مشاهير المراكز النسيجية: «الأكسية القزوينية والحلل الأندلسية والحرير الصيني والخز السوسي والكتان المصري والوشى الكوفي»<sup>(1)</sup> ويقول المصريون اعتداداً بصناعتهم: «أن الصوف والكتان لنا ليس لأحد من أهل البلدان مثلها»<sup>(2)</sup> ويتضح من هذا أن المراكز الصناعية في بلاد المغرب الأوسط قد وجدت مراكز صناعية أخرى تفوقها، وهذا ينعكس على الصناعة المحلية، ويجعل منها صناعة في خدمة الطلب المحلي في أغلب الأحيان.

ولم تحل هذا العراقيل دون قيام صناعة هامة في البلاد، لغت نظر الرحالة، فكانت تاهرت «بغداد المغرب» وكانت بجاية «بها من الصناعات كل غريبة ولطيفة» ووهرا ن بها «صنائع كثيرة» وجزائر بني مزغنة «صناعتها نافقة» وطبنة «بها صنائع»<sup>(3)</sup> وغيرها.

### التظيم المهني:

كان الصانع أو الحرفي يتعامل مع الزملاء والتجار والناس والمحتسب بل والدولة، وكان في تعامله هذا عرضة لوقوع بعض المشاكل التي تتعارض ومصالحه

(1) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص 50.

(2) نفس المصدر ص 69.

(3) الأندلسي صفة ص 84، 89، 90، 91.

الخاصة، وإذا كان الانسان يرتبط بقييلته لتوفير الأمن والحماية له، فقد كان الصناع يشعرون بوجود رابط من نوع خاص يؤلف بين قلوبهم، ويدفعهم نحو بعضهم البعض، وربما كان شعور بالأخوة المهنية، أو بوحدة المصالح، وربما شعور الصناع بحاجته الى جماعة ينتمي اليها تساعد حين لا تنفع قرابة النسب أو الدم في توفير الأمن، الأمر الذي تولد عنه الانتساب الى الصنعة، فإن الجاحظ يقول: «الصناعة نسب»<sup>(1)</sup> وفي نفس الوقت يعترى الانتساب الى العائلة الضعف أو الزوال.

وبما سهل الاحساس بهذا الشعور وجودهم جنباً الى جنب في سوق واحدة، وهذا لا يعني عدم وقوع نزاع وخلافات فيما بينهم بسبب التنافس مثلاً، لكن هذا لا يتعارض وشعور الصناع بالانتماء الى نفس الجماعة والطائفة.

ولا تشير المصادر الى وجود تنظيم حرفي نقابي في بلاد المغرب الأوسط في القرن الثالث أو الرابع الهجريين، إلا أن ابن الصغير يذكر جماعة الصناع والحرفيين كجماعة بارزة عند وفاة الامام أبي اليقظان فيقول «لما ملت أبو اليقظان قامت العوام واهل الحرف ومن لف لفهم فقدموا أبا حاتم» وفي هذه العبارة يتضح أن ابن الصغير قد فصل «أهل الحرف» حتى عن العامة، فهل هذا زيادة في ابراز استقلالهم وانتظامهم في إطار معين وخاص؟<sup>(2)</sup>

يبدو أن شعور الصناع بالانتماء الى جماعة زملاء الحرفة كان شعوراً عفوياً تلقائياً دون أن يكون هناك تنظيم رسمي، وان كان الصناع يدينون بالطباعة والاحترام لأحد الزملاء لسبب من الأسباب مثل قدمه في المهنة، أو ضخامة مصنعة أو كبر سنه فكان هذا الشخص يمثل وجهاً فريداً.

ويظهر هذا الشعور الأخوي في افريقية الأغلبية، فقد كان أصحاب الحرف كالجزارين أو البقالين يخلون السوق لواحد منهم يبيع فيه وحده، يوماً أو يومين ولا ينقص من السعر شيئاً وانما صنعوا ذلك للرفق به إذا فنى ما بيده

(1) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي. ص 90.

(2) عن نظام الحرف والطوائف انظر: صفوان حسن شحاتة: دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي. ص 56. عبد العزيز الدوري: نشوء الأصناف والحرف في الاسلام. مجلة كلية الاداب — بغداد 1959.

وأراد أن يتزوج<sup>(1)</sup> وربما كان هذا الشعور الذي يتضح في هذه العبارة هو الشعور الذي جمع أهل الحرف في عبارة ابن الصغير السالفة الذكر.

وحتى في قرطبة وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم لم يكن نظام الطوائف قد احتضر واتخذ صبغة نهائية، فإن ابن القوطية يذكر أن هذا الأمير حين دعا الحصارين وعمال الأيدي قدم الى نفسه وجوههم وكان الأحرى أن يدعوا رؤساء طوائفهم أو نقاباتهم.

ويذكر سحفان أن التنظيم الطائفي قد بدأ يظهر عند العرب في المشرق الاسلامي ابتداء من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي<sup>(2)</sup> في حين ان طالبي محمد يرى أن التنظيمات التي ظهرت في المشرق ولم تكن معروفة في افريقية في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي قد ظهرت في أواخر العهد الفاطمي أو الزيري<sup>(3)</sup> قد يدل هذا على أن التنظيم الحرفي لم يظهر في بلاد المغرب الأوسط إلا في فترة متأخرة من القرن الرابع الهجري.

وبغض النظر عن الصفة التي كانت تحملها رئاسة الطائفة، فكان لكل طائفة شيخاً يدعى «شيخ المهنة» أو الحرفة وهو يشرف على تنظيم حرفته وعلى شؤون المنتمين اليها من جميع النواحي الفنية والأخلاقية والدينية والاقتصادية، أي أنه يشرف على كل من يعملون في الحرفة أو يريدون الانتهاء اليها<sup>(4)</sup>.

والنظام الطائفي يقوم على الالتزام والاجبار. إذ لا يستطيع أحد أن يمنح مهنة إلا بإذن من الطائفة ورئيسها، وكانت الطائفة تعاقب العمال أو الصناع المنحرفين، كما كانت تتولى تنظيم الانتاج ووضع مقاييس لجودة مصنوعاتهم<sup>(5)</sup>.

### الصناعات والمهن الرئيسية:

— صناعة النسيج: تعتبر صناعة النسيج الصناعة الرئيسية في العصور الوسطى، بسبب حاجة الناس اليها على اختلاف طبقاتهم وفئاتهم، وربما كان لكل

(1) يحيى بن عمر: أحكام السوق، ص 117.

(2) عن الأصناف، انظر: عيد العزير الدوري: المكان السابق، الشبخلي صباح: الأصناف في مصر العباسي.

(3) Talbi Muhammed: des courtiers en vêtements en Ifriqya ou 1 Xe - Xe siècle. J.B.S.O. 2/1962 PP.160-164.

(4) سحفان: دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي ص 56.

(5) لويس محفورد: المدينة على مر العصور. ج 2 ص 492.

جهة اتاجها الخاص إلا أن الاحتكاك الواسع بين الشعوب في ظل الاسلام، قد مزج بين الأقماع والأزياء فأنتج زياً يمكن اعتباره الزي الاسلامي وتأثر النسيج المغربي بالفارسي وبالاندلسي الى غير ذلك، حتى أصبح نسيج مختلف مناطق البحر الأبيض المتوسط متشابهاً<sup>(1)</sup> فكان من نفس المادة الأولية، ومزيناً بصور أو بكتابات عربية، وذا ألوان متشابهة، ويحمل نفس الزركشة.

اشتهرت بلاد المغرب الأوسط في صناعة النسيج بسبب وفرة المادة الخام، خاصة الصوفية منها، وفي هذه الحالة تلعب المنافسة، دوراً هاماً في لاتقان والتفنن، ولم يشر المؤرخون الى صناعة النسيج في العهد الرستمي والامارات العلوية، ولكن من المحتمل أنهم اهتموا بها لعلاقة الصناعة بالتجارة، كما يبدو أن الفاطميين اهتموا بها ويمكن أن تكون سياسة المعز الفاطمي في هذا الميدان ابان حكمه في مصر هي امتداد لسياسته في المغرب، إذ ذكر البراوي أن المعز الفاطمي قد انشأ دار الكسوة لتفصيل الثياب والبز وتوزيعها على الناس في المناسبات، وكان يكتب على هذه الملابس شعائر دينية محبة للناس، ويمكن أن يندرج هذا في إطار الدعاية والاشهار لهذه الصناعة.

وقد نجم عن الهدوء والأمن الذي ساد البلاد رخاء اقتصادي، وهذا يتطلب ثياباً ونسيجاً مناسباً لحياة القصور، فذكر ابن الصغير قائلاً: ما رأيت شرقاً من القصرين الا عليها، ثوب أحمر وأصفر<sup>(2)</sup>، ومما زاد في أهمية هذا الأمر، أن الترفين هؤلاء لا يقتنون من هذه الملابس حاجتهم فحسب، بل يقتنونها مثلما يقتنون الأموال والجواهر، بل ويمكن أن تكون نوعاً من استثمار الأموال، فكأنهم بذلك قد حولوا أموالهم الى ملابس<sup>(3)</sup>، إذ أن هذه الملابس تستعمل في مناسبات عديدة مكان النقود، فتمنح هدايا وتخلع على الأشخاص على سبيل المكافآت.

وليس من السهل حصر استعمالات النسيج، فمنها الملابس على شتى أنواعها، والخيام على اختلافها، والأثاث المنزلي كالفراش والوسائد والستائر

(1) Imamzuddin Some aspects...P.108

(2) ابن الصغير: سيرة من 336.

(3) لومبارد: الاسلام من 268، البراوي: حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين.

والمصائب والقوط ومنها البتود وغيرها، وقد أشار الحموي الى صناعة البسط في تبسة فذكر أن بها يعمل «بسط جليلة محكمة النسج يقيم البساط منها مدة طويلة» (1) كما ذكر القلقشندي بخصوص جبل الونشريس أن فيه تعمل البسط القائقة (2).

وقد سبقت الإشارة الى أن الامام عبد الرحمن بن رستم اشترى «أكسية صوفاً وجياهاً وفراء»، ويذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أنه «تصنع بمدينة قلعة بني حماد أكسية ليس لها مثيل في الجودة والرقّة الا الوجدية يساوي كساء عيد من عمل القلعة ثلاثين ديناراً» (3) ويصف المقدسي أهل الرساتيق من البربر بأنهم بأكسية، ويصفهم في مكان آخر من كتابه بأنهم يبرانس، سود يصفها البكري: بأنها «حصينة لا ينفذها الماء، وصنعوا الأردية ومنها المعصفرة والقلائس المصبغة والقمصان والغلالات والسرراويل والمناديل وغيرها، وكان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغالون في أثمانها ويضيف صاحب «كتاب الاستبصار» أن تاهرت في سفح جبل يسمى قرقل الا أن ابن سيده يذكر أن القرقل ضرب من الثياب» (4) فهل أطلق هذا الاسم على الجبل لشهرته بهذه الثياب ؟ وكانت تصنع ملابس رائعة في قلعة بني حماد وبجاية مخصصة للطبقة العليا من المجتمع، وعمائم من الكتان الموشى بالذهب، كما كان يعمل من الصوف، «كل عجيب حسن بديع من الأزرق التي تفوق القصب ويبلغ ثمن الأزار ثلاثين ديناراً وأربعين» (5).

ويبدو أن للدولة مصانعها الخاصة للنسيج على الأقل لكي يتسنى لها انتاج الطراز الخاص بها، فقد اتخذ الفاطميون الرايات بيضاً وسموا المبيضة وكتب الشيعي في بنوده: «سيزم الجمع وبولون الدبر» «وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً» الى غير ذلك. كما أن المنصور الفاطمي أمر بأن يثبت

(1) الحموي: معجم البلدان ج 3 ص 363. عن أنواع الملابس، موريث لومبارد: المكان السابق.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى ج 3 ص 174.

(3) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 170.

(4) ابن سيده: المختص ج 1 ص 72.

(5) القزويني: آثار البلاد ص 42 وعن العمائم الموشاة بالذهب أنظر



اسم جوذر في الطراز من أعمال العبيد الرقامين بالذهب فيما يليه الأئمة (١)،  
تسريفا له، وربما اتخذ الفاطميون كذلك زياً خاصاً بالجند، فإن العباسيين وبني  
أمية في الأندلس كانوا يلبسون جنودهم زياً خاصاً فقد ذكروا في ترجمة الامام  
الزهرى أنه لبس لباس الجند أيام هشام بن عبد الملك (٢).

## الصوف:

نجم عن شهرة بلاد المغرب الأوسط بالانتاج الحيواني شهرة في الصناعة  
الصوفية ويشيد عبد الرحمن بن خلدون بشهرة تلمسان — على سبيل المثال —  
في هذا المجال، فيذكر بخصوص أهلها، أن غالب نكسبهم بالفلاحة وحوك  
الصوف يتقاون في عمل أثوابه الرقاق فتلقى الكساء والبرنوس عندهم من ثمان  
أواق والاحرام من خمس (٣)، وهذه الشهرة أشار إليها الحموي في معجمه فذكر  
بخصوص تلمسان أنها «تتخذ النساء بها من الصوف أنواعاً من الكنايش لا توجد  
في غيرها» (٤)، ويبدو أن سكان المغرب الأوسط كانوا فعلاً يتباهون بصناعتهم  
الصوفية، فإن زمري بن عطية قد وجه إلى المنصور بن أبي عامر هدية (احمالاً  
كثيرة «من ثياب الصوف الرقيقة» (٥)، ويذكر صاحب كتاب الاستبصار أن أهل  
وجدة «يصنعون من الصوف أكسية ليس لها نظير في الجودة مثل العيادي يساوي  
الكساء الجيد منها خمسين ديناراً وأزيد» (٦)، كما أشار ابن الصغير بلوره إلى  
وجود أكسية الصوف في ناهرت وهي لا شك من انتاج محلي.

أما البسط فقد كانت ضرورية تفرش بها المجالس، فيشير ابن بشكوال  
إلى مجلس «قد فرش ببسط الصوف مبطنات... ووسائل الصوف» (٧).

- (١) الجوزي: سيرة جوذر ص 52 وعن الشعارات المذكورة، ابن عذاري: البيان ج 1 ص 151.  
ويذكر ابن خلدون أن «من أبهة الملك والسلطان ومذهب الدول أن ترسم اسمائهم أو علامات  
تخص بهم في طراز أثوابهم انظر: ابن خلدون: المقدمة ص 266.
- (٢) محمد الحجوي: النظام في الإسلام ص 48.
- (٣) عبد الرحمن بن خلدون: بغية الرواد ص 22.
- (٤) الحموي: معجم ج 2 ص 409.
- (٥) السلاوي: الاستبصار ص 193.
- (٦) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 177.
- (٧) ابن بشكوال: الصلة 37، كان ثوب الصوف في سجناسة يبلغ أزيد من عشرين مثقالاً، البكري:  
المغرب ص 147 ويرى الدمشقي أن نعومة الصوف دليل على جودته أنظر الدمشقي: الإشارة ص  
47.

ويظهر أن العمل في الصوف كان مستقلاً عن غيره من الأعمال، في إطار التخصص في الصناعة، ولهذا تذكر كتب التراجم من نخل عن الانتساب لقبيلته، وانتسب لصنعة، سواء أكان ناسجاً أو بائعاً، فحمل لقب «الصوّاف» (1).

وقد عرفت تاهرت صناعة الخرز، وهو نسيج من صوف وحرير، ويبدو أن هذا النسيج كان قيماً، فإن الجاحظ يذكر «خير الصناعة الخرز» وكان ممن اشتهر في تاهرت بهذه الصناعة والد «أحمد بن فتح المعروف بابن الخراز التيهري» فينصح من لقبه أن والده كان مختصاً بصناعة الخرز أو المتاجرة به، وكانت تصنع من الخرز ملابس متنوعة مثل «قلنسوة خرز» أو «جبة خرز» وغير ذلك.

وهذا بالإضافة إلى شهرة البلد في صناعة خيامهم وهي صناعة متوارثة، وكانت الخيمة من الصوف تدعى «الخباء» والمصنوعة من الشعر تدعى «الفسطاط» والمصنوعة من الوبر تدعى «البجاد» والمصنوعة من القطن تدعى «السرادق»، وهناك خيام تدعى الطراف مصنوعة من جلد خاص (2).

**الكتان:** كان يستعمل نسيج الكتان في صنع الثياب والأحذية وغيرها، فإن جعفر بن علي، كان مما استقبل به عند فراره إلى الأندلس، «ثلاث قباء من كتان وأربعة وأربعون خباء من كتان» (3) وكان أبو بكر بن هذيل — قتل أبو عبد الله الشيعي — يشتري الكتان فتغزله امرأته وينسج منه أبداناً، ويبدو أن صناعة النسيج الكتاني قد ارتقت فكان منه لباس العامة والخاصة. إذا انطبق ما ذكره ابن حوقل بخصوص أهل الأندلس على غيرهم، فقال: «يستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكتان ثياب لا يقصر عن الدقيق ما كان منها صفيقاً، وربما كان هذا يستعمل الكتان الناعم الورقي».

(1) من هؤلاء في الأندلس أبو حفص أحمد بن وزان الصوّاف انظر: الدباغ: معالم الإيمان ج 2 ص 198 الخنسي: فضاء قرطبة ص 206.

(2) الدوري: تاريخ ص 106، وعن ابن الخراز، المذكور أعلاه انظر: الباروني سليمان: الأزهار، ج 2. ص 77. الحموي: ج 2. ص 208.

(3) ابن حبان: المقتبس. طبعة بيروت. ص 40.

## الحريز:

عرفت بلاد المغرب الأوسط، الأقمشة الحريزية وقد أشار أبو فضل الله العمري الى أن بتلمسان قماشاً يعرف بالتلمساني يعقده من الصوف الخالص والبعض الآخر من الصوف والحريز، ومما يرجع انتشار استعمال الملابس الحريزية الفتوى التي ذكرها القاضي النعمان فقال: «لا يصلح لرجل أن يلبس ثوباً من حريز محض... ولا بأس بلباس الحريز للنساء ولا يحل لباس الحريز ولا حلي الذهب للرجل»<sup>(1)</sup>، كذلك فإن الأثرياء وأصحاب القصور كانوا يتباهون بأقتنائهم الملابس الحريزية باعتبارها سلعة رفيعة وثمينة، كما أن الحريز يمتاز بالقوة والخفة والجمال والرونق، واللمعان، فقامت صناعة حريزية في بلاد المغرب الأوسط لتلبية طلبات المترفين.

وكانت تصنع الملابس المختلفة من الحريز الخالص — وأحياناً أخرى يخلط بالصوف، أو يوشى بالقصب أو بخيوط الذهب، ومما زاد في إقبال الناس عليها — المتوجات الحريزية — التفتن في صناعتها، بحيث كانت تلمع بالصمغ المجلوب من السودان، كما كانت تصبغ بألوان مختلفة كغيرها من الملابس، ويظهر أن بعض العاملين بالنسيج الحريزي كانوا يغشونه أحياناً فيصبغونه قبل تبييضه، أو يثقلونه بالنشا أو السمن أو الزيت<sup>(2)</sup>.

## القطن:

قام بعض صناع المغرب الأوسط بصناعة النسيج القطني بعد انجاز المراحل المختلفة من قطفه وتنقيته من بذوره ثم غزله وأخيراً نسجه.

ويبدو أن هناك من تخصصوا في الصناعة القطنية حتى غلبت نسبتهم الى مهتهم هذه على انتسابهم الى قبائلهم أو مدتهم، فمن المرجح أن مسيلة قد عرفت من حمل لقب «القطن» نظراً لشهرتها بزراعة القطن.

ويذكر عيد المنعم ما جد أن البز هو نسيج قطني، وبناء على هذا، فإن تاهرت تكون قد عرفت المتخصصين في مثل هذا النسيج، وكان منهم أبو الفضل

(1) القاضي النعمان: كتاب الاختصار ص 100. وعن الصناعة الحريزية عامة انظر: مورييس لومبارد:

المرجع السابق 271 — 276. P.173-177. Goitein: The main industries.

(2) ابن الأخوة: معالم القرية ص 141.

أحمد بن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله التميمي البزاز التاهرتي (1) وأن وجود هذه الشخصية في تاهرت واتخاذها تجارة البز مهنة لها، ليكشف بوضوح عن وجود صناعة قطنية في تاهرت، ومنه فإن المشتغلين في هذا المجال، قد أنتجوا مختلف أنواع الملابس القطنية من جباب وقلانس وأردية وقمصان وسراويل وغيرها.

ويبدو أن بعض هؤلاء كانوا يقومون ببعض الألعاب مثل خلط القطن القديم بالقطن الجديد، وعدم نلغه جيدًا من القشرة والحب المكسر، وكانوا يحفظون القطن في مواضع ندية فيزيد وزنه (2).

ويبدو أنه مادام سكان المغرب الأوسط قد عرفوا صناعة النسيج القطني، فإن الاهتمام يبقى قائما في أنهم عرفوا صناعة مختلف الأقمشة التي كانت معروفة في ذلك الوقت مثل الوشي، والخز والديباج والسفلاطون والسمور وبوقلمون وغيرها (4).

وقد نجم عن وفرة المادة الخام للنسيج، ومواد الصباغة تقدم كبير في صناعة المنسوجات، فتفتنوا في صنعها وفي تزويقها بالرسوم والخطوط والألوان المختلفة كغيرهم من صناعات البلاد الإسلامية، ومما ساعد في تقدمها استعمال

---

الدباغ: معالم الإيمان ج 2 ص 202. القاضي عياض: تراجم ص 260 عاش في القرن الثالث الهجري وعاصر القاضي سحنون في القيروان.

(2) الحموي: معجم ج 2 ص 257 وعن البز نسيج قطني انتظر عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص 112.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق ص 142.

(4) يعرف عبد المنعم ماجد الوشي: قماش من الحرير الملون الثقيل بالذهب والخز: نسيج ناعم من الحرير ومن وبر ذكر الأرناب. والديباج، قماش لامع أو ملون يختار تقليدا للحرير الصيني، والسفلاطون حرير موشى بالذهب والشرب: قماش شفاف تتخلله خيوط حريرية أو ذهبية، والسمور: قماش رفيع الوبر انتظر: عبد المنعم ماجد: المرجع السابق. ص 112، 113، كانت مدن الأندلس المرية ومالقة ومرسية تخصص بصناعة الوشي، فهل انتقلت هذه الصناعة مع الأندلسيين الى المغرب الأوسط ؟ انتظر المقرئ: نفح الطيب. ج 1 ص 201.

التقنيات المعروفة آنذاك. مثل النول المنخفض والنول المرتفع والدواسة خاصة في صناعة السجاد(1).

### الصباغة:

تقوم على صناعة النسيج صناعات أخرى مثل صناعة الأصمغة، فإن استعمال مواد الصباغة سمح بانتاج اقمشة مختلفة الألوان، واعطتها جاذبية قبي ذكر ثماني سجاجيد من جهاز عروس في ذلك العهد دلالة واضحة على افتتان الناس بالأقمشة الملونة، فكان منها اثنان بلون أبيض واثنان بلون أزرق نيلي واثنان بلون أخضر واثنان بلون أحمر، ويظهر تعدد الألوان في جهاز عروس أخرى تزوجت في القاهرة سنة 541هـ/1146م فكانت ألوان جهازها ست قطع بيضاء وثلاثا بلون أزرق غامق، وواحدة بلون أزرق محلي بخيوط ذهبية وأربعها بلون أحمر رماني وثلاثا بلون أزرق واثنان بلون لؤلؤي واثنان بلون بني رمادي واثنان بلون أخضر وواحدة بلون زعفراني وأربع لم يحدد لونها(2).

وأضاف غويتن Goitein فذكر قطعاً بألوان مختلفة أخرى مثل اللون البنفسجي، والريحاني، والأزرق السماوي، والزمردى والرملي، والبني المحمر، والفضي. والأبيض المائل للصفرة وغيرها(3) وعلى الأرجح فإن بلاد المغرب الأوسط قد عرفت هذه الألوان بسبب وحدة العالم الاسلامي، والاتصال المباشر بين المغرب الاسلامي والمشرق، واقامة المشاركة أنفسهم في هذه البلاد وقد أورد ابن الصغير في اشارة عابرة اللون الأحمر واللون الأصفر في قصور تاهرت.

وقد كانت الأصباغ نباتية في الغالب، مثل النيلة التي كانت تستعمل لكل أنواع الزرقة، وهذا النبات انتقل من الهند وما بين النهرين الى المناطق الحارة ذات الرطوبة ثم الى المغرب الاسلامي(4) وكان الصبغ بالزعفران — اللون

(1) لويس لومبارد: الاسلام، ص 273. وعن الصناعات النسيجية بصفة عامة انظر: واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع — بيروت — ط 14021هـ/1981م. ص 40 وما يليها.

(2) Goitein: The main industries...P.181-182,

(3) Loc.cit.

(4) لومبار: المكان السابق.

الأصفر — كثير الاستعمال وخاصة لصبغ الثياب وتحسين مذاق الطعام، كما استعملوا القوة وهو نبات أحمر يستعمله الصباغون للحصول على اللون الوردي الفاتح الى اللون الرمائي<sup>(1)</sup>، ويبدو أن أهمية هذا النبات قد ضعفت بسبب انتشار اليقم والقرمز — وهذا الأخير يستخرج من حشرة تعيش متطفلة على شجرة السنديان وتستعمل في الصباغ باللون الأحمر، وكان القرمز منافساً لليقم، واستعملوا قشر الرمان لتكوين صبغة صفراء جميلة ثابتة اللون<sup>(2)</sup>، واستعملوا الحناء في الصباغة عوض القوة فيخرج الحرير مشرقاً إذا صبغ بها، فإذا أصابته الشمس تغير لونه بسرعة، وذكر القاضي سحنون في مدونه أنواعاً من الأصبغة في عبارته «أرأيت ان اشتريت ثوباً فصبغته بعصفر أو بسواد أو بزعفران أو بورس أو بمشق أو بمخضرة أو بغير ذلك من الصبغ<sup>(3)</sup>» ويبدو أن استعمال صباغ الزعفران والبورس كان خاصاً بالنساء، فإن القاضي النعمان يجعل بل يرى أن صبغ الثياب بها للرجال حرام<sup>(4)</sup>.

ويرى بعض المؤرخين احتكار اليهود لصناعة الصباغة<sup>(5)</sup> وربما ترفع عنها المسلمون بوصفها «حرفة ممتنة» ولكن يبدو أيضاً أن بعض المسلمين كانوا يعتبرون صباغ اليهود نجساً، فالدرجيني يذكر أنه إذا مست امرأة صباغ اليهود فعليها غسل يديها وهذا ما يرجح أن بعض المسلمين احترقوا الصباغة.

وعلى كل فقد كان للصباغين سوق خاص بهم، حتى أن المقدسي يذكر أن أحد أبواب القيروان كان «باب الصباغين» كما يبدو أن العملية كانت تكلف غالباً،

(1) ابن البيطار: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ج 3 ص 169.

الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 107.

(2) الدوري: نفس المكان، وعن استعمال الحناء انظر: ابن الأعرابي: معالم القرية ص 141.

واليقم نبات ورق شجره كورق اللوز وساقه أحمر. والقوة عروق طولاً دقاق حر مصبغ ويدهوى بها. (3) القاضي سحنون: المدونة الكبرى ج 4 ص 337 ويعرف ابن حوقل الورس: نبات أحمر في معنى الزعفران انظر ابن حوقل: صورة ص 43 والمشق: هو الطين الأحمر ويستعمل في الصباغة.

(4) القاضي النعمان: كتاب الدعائم ج 1 ص 305. الأطروشي، كتاب الحسبة ص 31.

(5) ذكر القاضي عياض لقب «صباغ» انظر، تراجم أغلبية ص 106 وذكر صباغاً يحمل لقباً متسوياً الى الزعفران هو «أبو الحسن الزعفراني» انظر نفس المرجع 385. وعن الاختصاص بالأصبغة انظر

الدوري: تاريخ ص 107. وكذلك: Goitein: The main...P.182.

فقي عملية صبيع 66 رطلا من حرير غير مبيض، كان الثمن ثلاثمائة دينار وقيمة الثالف منها عشرون ديناراً، وثمان الفرمز اللازم لصباغتها خمسة وثمانون ديناراً وأجور الصباغين عشرون، ومن هذه الأرقام يتبين أن العملية تكلف 129 ديناراً من مجموع 474 ديناراً كما يلاحظ أن ثمن مادة الصباغ تشكل أربعة أضعاف أجرة الصباغين تقريباً<sup>(1)</sup>.

### الحياكة والخياطة:

يذكر ابن خلدون أن الأولى لغزل الصوف والكتان والقطن بالالتحام الشديد، فيتم منها قطع مقدرة فتمتھا الأكسية للاشتال والثياب من القطن والكتان للباس، والثانية «لتقدير المتوجات على اختلاف الأشكال والموائد، تفصل بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة»<sup>(2)</sup> وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري لحاجتهم الى الملابس التي كانوا يعتون بها حتى كان لكل مناسبة ملابس خاصة<sup>(3)</sup>.

وقد أشار ابن القوطية الى عبارة سلف ذكرها الى أحد الخياطين في تاهرت، ومن البيديي أن الحاكة والخياطين كانوا في كل قرية ومدينة، واعتادوا على تنظيم الأسواق، يمكن القول أن هؤلاء، كانت لهم أسواق خاصة بهم.

ويظهر أن نظرة الاحتقار الى هاتين الصنعتين كان مردها الى ضعف دخلهما. وفقر العاملين بهما، فإن شيخاً خاطب عمرو بن حفصون في تاهرت قائلاً: «بامنحوس نحارب الفقر بالابرة؟»

(1) Goitein The main. P.171.

(2) Ibid: op.cit. P.183.

(2) ابن خلدون: المقدمة ص 314 (الفصل السابع والعشرون).

(3) كان للقاضي سحنون في القروان: ساج كحلي وآخر أزرق ورداء، وقلنسوة ووشى، فإذا قعد للساج لبس الرداء وقلنسوة الأغلي وإذا شهد الجمعة لبس الساج وقلنسوة الخيرة وإذا حضر جنازة لبس الساج الأزرق وقلنسوة الزرقاء: انظر القاضي عياض: تراجم ص 96.

ويمكن أن نميز نوعين من الحياكة الخياطة، الأول: محلي تقوم به الزوجة أو الزوج في المنزل، ثم ينطلق بابتاعه الى السوق، فكان أبو بكر بن هذيل «عيشه من غزل امرأته، كان يشتري الكتان فتغزله وينسج منه ابداءً، فما كان فيها من فضل تقوتا به واشترى برأس المال كئاثلاً»، والنوع الثاني كان يتم في محلات خاصة، فقد أشار الدباغ الى وجود «سوق الغزل» في تلك الأيام، وكانت هناك دور الطراز التي كانت تنتج البسط والثياب والاعلام والفرش ويستخدم فيها الصاغة والحياكة، وهي مظهر من مظاهر السلطان.

ونظرًا لتعدد أنواع الملابس واختلاف أزيائها ومستواها، فمن المحتمل أن التخصص كان في الحياكة وفي الخياطة أيضًا، فكان منهم من يخطط للخاصة من حكام وأمراء وغيرهم، بينما كان آخرون يخططون للعامة، وربما كان هؤلاء هم الذين يمارسون بعض الألعاب والحيل على الناس، فإذا كان صناع القلائس يعملونها من قماش جديد حريري أو كتاني، فقد كان بعضهم يصنعها من قماش بال مع شيء من النشا والصمغ، ومنهم من ينسج وجه الشقة من الغزل الجيد ثم ينسج باقها من غيره، أو كان بعضهم يتهاون في أمر القياسات المطلوبة منه، وهذه الألعاب دعت ابن الأخوة وغيره أن يوصوا بأن يؤمر الخياط بمجودة التفصيل، وأن تكون الخياطة درزا لا شلاً، والابرة رفيعة والخيط على الحزم قصيراً، وعليه قياس الثوب قبل تقطيعه، ولا يماطل الناس بخياطة امتعتهم، وقد تقع منازعات بين الحائك أو الخياط وصاحب السلعة، كأن تتلف سلعته أو تضييع ونحو ذلك فتطلب الأمر وجود أحكام تضع حداً لهذا النزاع<sup>(2)</sup>.

ويرتبط بالصناعة النسيجية مهنة القصار، وكان المحترف بهذه الصناعة يدعى «القصار»، ويبدو أن بعض القصارين كانوا يتلفون الملابس بكثرة دقها، أو بزيادة كمية الكبريت عليها، أو باستعمال أدوية بمقدار يفوق الحد المطلوب، لهذا كانت تقع أيضاً بعض الخصومات، الأمر الذي كان يستدعي تدخل المحاسب.

(1) الدباغ: معالم الايمان ج 2 ص 266 القاضي عياض: المصدر السابق ص 394.

(2) ابن الأخوة: معالم الفرة ص 130 - 140.

سحنون: المدونة الكبرى ج 4 ص 387.



تحتاج الصناعة المعدنية الى مواد خام ومادة الخشب وقد سهل على بلاد المغرب الأوسط الحصول على هاتين المادتين، مما يجعل قيام صناعة معدنية أمراً واقعاً، فقد ذكر البعقوني أن بمدينة بجاية «معادن الفضة والكحل والحديد والمرتك والرصاص» وذكر ابن حوقل أن مدينة بونة «بها معادن حديد كثيرة ويحمل منه الى الأقطار الغزير الكثير» وهو ما أكدّه المقدسي حيث أشار الى أن «بها معدن حديد» وفعل مثله العزيزي فأشار الى أن «بظاهرها معدن الحديد» وكان يوجد الحديد أيضاً في بجاية فذكر الادريسي أن «بها معادن الحديد الطيب»، وذكر البكري من جهته أن بقرب مدينة أرزيو جبلاً كبيراً «وفي هذا الجبل معدن للحديد والرُّبْق» (1).

والحديد ضروري لكل دار بل لكل شخص وهذا نظراً لسعة استعماله فكانوا يصنعون منه الأسلحة، فذكر ابن عذاري أن أول ما بدأ أبو القاسم الشيعي «أن أمر عماله في سائر البلدان بعمل السلاح وجميع الآلات الحربية» (2)، وهي عديدة ومتنوعة، ومنها السيوف، ويبدو أنه لا يخلو بيت منها حتى أن بيت الامام عبد الرحمن بن رستم على بساطته وتواضعه لم يخل من السيوف، وكانوا يتفننون في صناعتها فذكر ابن عذاري أن أهل كتامة «تقلدوا السيوف المحلاة» عند أول نصر لأبي عبد الله الشيعي سنة 292هـ/904م، ومن الأسلحة، الرماح، فقال الشاعر بكر بن حماد في أبي العيش (من البحر الكامل) سائل زواغة عن طعان سيوفه ورماحه في العارض المتهلل (3).

(1) أنظر البعقوني: صفة ص 10 ابن حوقل صورة ص 17 المقدسي، أحسن التقاسيم ص 226 القلقشندي صبح الأعشى ج 5 ص 106. الحموي معجم ج 2 ص 310. الادريسي: نزهة ص 90 البكري: المغرب ص 70. وأن وجود هذه المعادن في ولاية إفريقية في بجاية يجعل الحصول عليها ممكناً.  
(2) ابن عذاري: البيان ج 1 ص 209.

(3) نفس المصدر ج 1 ص 200، وعن الأسلحة بصفة عامة أنظر الطرسوسي مرضي بن علي: تبصرة الألباب في كيفية النجاة في في الحروب: P.106-126 B.E.O.T.XII.1947-48. ويبدو أن إنتاج السيوف كان غير كاف فتم استيراد السيوف الأفريقية والبنية وغيرها أنظر: الجوزدي: سيرة جودر ص 47، وكان السيوف البربري طويلاً ومستقيماً وذات حدين مفبضة صغير مع طول الحد الفاصل بين المفبض والسيوف، كما صنعوا السيوف ذا الحد الواحد، أنظر أبو زكريا: سور. ص 74 — 75 الحاشية.

وحين أقدم أبو عبد الله الشيعي على فتح سجلماسة «جالت الخيل جولة، وعادت كرة بعد كرة عليهم طعنًا بالرماح وضربًا بالسيوف ورشقا بالسهام»، يذكر المقرئ من آلات الحرب، الثراس والرماح والسروج واللجم والدروع والمغافر ويمكن أن نضيف إليها الخراب والطيرزين<sup>(1)</sup> ويبدو أن مدينة الغدير اشتهرت بصناعة الدروع حتى غدا اسمها «غدير الدروع».

ويبدو أن الدولة كانت تشرف على صناعة الأسلحة، فحين مال الخمر بن محمد بن خزر الزناتي إلى المنصور الفاطمي، طلب هذا الأخير من مدام الفتى أن يحفظ من وصل إليه من زناة ولا يمنعهم من شراء السلاح «أي أن الزناتين كان محظورًا عليهم شراء السلاح قبل أن يعلن الخير الطاعة للفاطميين».

كما صنعوا من الحديد بعض الأدوات المنزلية، فكانت بعض الأبواب تصنع من الحديد، فإن الامام أفلح «اتخذ بابًا من الحديد» ومن الأدوات تلك، السكين والخنجر والمقص والأبرة، وكذلك الملاعق والكلايب وأمواس الخلاقة<sup>(2)</sup>، والمواقد، والحفوات للخيول، والمسامير وبعض الأدوات اللازمة للفلاحة كالحمارث والمساحي والقووس وغيرها وصنعوا السلاميل الحديدية، والأقفاص.

ويبدو أن هذه المهنة كان لها رجالها، فعرفت التخصص كثيرها فعندما حاصر أبو عبد الله الشيعي مدينة بلزمة كان فيهم رجل من أهل مجانة يصنع لهم المجانيق والعرادات وآلات الحروب<sup>(3)</sup> وكان المتخصص في هذه الصناعات يحمل لقب «الحداد» مثل إبراهيم بن أحمد بن فتح الحداد — ت 379 هـ — ومثل: أبو عثمان سعيد بن الحداد.

### الصناعة الذهبية:

كان الحصول على الذهب الخام أمرًا متيسرًا، فكانت القوافل المتجهة إلى بلاد السودان الغربي كفيلة بتوفيره، ويرى الجاحظ أن الذهب دامت دولته لأنه

(1) المقرئ: فتح: ج 1 ص 502 ابن الخطيب: أعمال الاعلام ج 3 ص 33 عطية: نظم الحكيم ص 146.

(2) Goitein: The main industries...P.186.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص 164 حين ألقى القبض على أبي يزيد محمد بن كيدان «جعل في نفس من حديد» ابن عثاري: البيان ج 1 ص 220.

لا يدحضه خبث لكبر ولا يفسده مر الدهور، وقيل انما صار الذهب ثمينًا لقلة تغيره وازدياد نضارته وحسنه إذا اعتق.

وقد كان للذهب استعمالات متعددة، فبالإضافة الى صناعته نفودًا دنائير، فقد كان تصنع منه الحلل للنساء من أقراط وأساور وعقود ودبابيس تزين الصدر وخواتم وخللاخيل. وصنعوا منه بعض الأواني مثل الأباريق والأقداح والأكواز<sup>(1)</sup>.

وكان يستعمل الذهب في تحلية بعض المصنوعات الأخرى، فحللوا السروج واللحم بالذهب، فإن أبا القاسم ابن أبي يزيد بن كيداد «كان راكبا على دابة مسرجة بسرج محلى بالذهب وزينة عجيبة، وحمل المنصور الفاطمي بلكين بن زيري «على الحيل العتاق بالسروج واللحم المحلاة بالذهب والفضة» «كان يدخل الذهب في تحلية بعض المصنوعات الأخرى مثل الوشي والحصر، وكان المنصور هذا يوصي جوذر بأن يصنع له سيوفًا حلية كل منها بخمسين دينارًا بل أن بعض هذه الأدوات كان يصنع من الذهب الخالص، فإن المنصور نفسه يعطى جوذر ألف دينار ويطلب منه أن «أعمل لنا من هذه الألف دينار سرجًا مذهبًا خفيفة سفريّة» وحين نزل القائد ابن حماد على المعز بن باديس فإن مما أجرى عليه، ثلاثين فرسًا بسروج الذهب»<sup>(2)</sup>.

وعلى أية حال، فإن استعمال الذهب في الصناعة كان محدودًا لأنه مقتصر على الأثرياء من المجتمع، في حين أن عامة الناس لا يقوون على اقتناء المذهبات.

### — الصناعة الفضية:

لا يشير الرحالة الى وجود الفضة في بلاد المغرب الأوسط، لكن هذه المادة الخام كانت موجودة في مجانة ويشير ابن الفقيه الى وجود الفضة في درعه،

(1) كانت هذه الأواني ضمن جهاز أم العلو عند زواجها بعبد الله بن حماد، وعن بعض الأدوات المذكورة أنظر: القاضي حياض: تراجم ص 85 وأنظر: Imammuddin: Some...P.112 وعن الذهب أنظر: الجاحظ: التبصر ص 14 أبو الفضل الدمشقي: الإشارة ص 24.

(2) ابن أبي دينار: المؤنس ص 33، وأنظر ابن حماد: أخبار ص 29 الدرجيني: طبقات ج 1 ص 122.

وفي تدمير من بلاد الأندلس<sup>(1)</sup> وبهذا كانت بلاد المغرب الأوسط تحصل على هذه المادة لاستعمالها في الصناعة القضيبة، وكانت الفضة نستعمل مثلما يستعمل الذهب، فاستعملت في سك النقود دراهم، وفي الحلبي وفي تحلية بعض الأدوات، مثل السروج واللجم، فإن أهل كتامة «ركبوا بسروج الفضة» عند أول انتصار للشيعة، كما سلف سنة 292هـ/904م، ويذكر صاحب «الدوحة المشتبكة»، من أوائل الفضة «السكاكين والسروج واللجم والمهاميز والمزاهر والأمشاط»<sup>(2)</sup> وقد بعث المعز إلى جوذر دواء في «بونية فضة».

ويرتبط بالصناعتين الذهبية والفضية عمل الصائغ، ومن المرجح أن الصياغة قد ازدهرت في بلاد المغرب الأوسط بسبب الثرف والرفاهية التي شهدتها، فكانت القصور ودور الأثرياء ونساؤهم بحاجة إلى الصياغة لتأمين الأواني والحلي على وجه الخصوص.

وقد ظهر التخصص في هذه الصناعة، وكان كل من اتخذها حرفة له حمل لقب «صائغ» وقد كشف حسن بن رشيق القيرواني عن وجود هذه الصناعة في بلاد المغرب الأوسط، فذكر أنه كان قد «علمه أبوه صنعته وهي الصياغة»<sup>(3)</sup> في مدينة الحمدية قبل رحيله إلى القيروان.

### — الصناعة النحاسية:

يوجد النحاس في بلاد المغرب الأوسط، فذكر البكري أن على «هذه المواضع كلها من جبال كتامة معادن النحاس» وقد استعملت هذه المادة في صناعة كثير من الأدوات، مثل الأدوات المتزلية فقد صنعوا المهارس وحسب قول ابن البيطار، فكانت تصنع من النحاس وذكر الدباغ أن هاشما أبا عمر

(1) ابن الفقيه: المسالك والممالك ص 80، 87.

(2) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ص 110 عن أموال بني الأغلب المذكورة انظر: ابن الخطيب: أعمال الاعلام ج 3 ص 44.

(3) حسن بن رشيق القيرواني: نموذج الزمان في شعراء القيروان. جمع وتحقيق: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش. الدار التونسية للنشر — تونس. المؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر.

1406هـ/1986. ص 439.

«كان عنده مهراس من نحاس من تركة أبيه»<sup>(1)</sup> وصنعوا الطناجر النحاسية. ويبدو أن النحاسين كانوا يخلطون النحاس بالرصاص، وقد نيه ابن الأختوة إلى أن الخلط يفقد الأناء متانته، فإذا صنع «هاون أو طاسة أو غير ذلك ثم وقع انكسر سريعاً» وصنعوا أواني خاصة بالخمير.

وكان المختسبون لا يشجعون مثل هذه الصناعة، فإن يحيى بن عمر يوصي بأنه إذا لم يكن في هذه الأواني، منفعة إلا الخمر، ولا تكسب لغيره، فغير أمرها وأكسرها وصيرها نحاساً عليهم<sup>(2)</sup>، وكان النحاسون يصنعون الجرار النحاسية التي يحمل السقاؤون فيها المياه، وصنعوا الأجراس التي تعلق في رقاب الدواب، وهي ضرورية خاصة في المدن حيث تسير الدواب في شوارع وأزقة مكتظة بالسكان.

ويظهر أن الاختصاص شمل الجزئيات، فلم يكن عجباً أن يقال فلان نحاس، ولكن كان هناك من يلقب بالجلجلجي، وهو المختص في صناعة الجلجل<sup>(3)</sup>، كما كان النحاس يستعمل في صنع بعض الشارات التي يحملها الموظفون، وفي أحيان أخرى كان النحاس يخلط بالقصدير لصنع الأواني البرونزية وكانت بعض المصنوعات النحاسية تطلّى بماء الذهب، فقد حدث سكن الصائغ قال: «كنت أعمل السلاسل من نحاس وأطلّيتها بماء الذهب الذي يجعل في اللحم»<sup>(4)</sup>.

ومن الأرجح أن النحاس كان هاماً، فقد استعمل في صناعة النقود فلوساً، كما كان يقدم هدايا، فذكر القاضي عياض أن العكي كان يهادي ملك الروم، فوجه إليه الطاغية في سلاح وحديد ونحاس<sup>(5)</sup>.

(1) الديباغ: معالم الإيمان ج 2 ص 344. وعن وجود النحاس في جبال كتامة انظر: البكري: المغرب ص 83.

(2) يحيى بن عمر أحكام السوقي ص 123. وعن خلط النحاس بالرصاص انظر ابن الأختوة: معالم الغربة ص 147.

(3) Goitein: The main industries...P.185.

(4) للملكي: رباض النفوس ص 117. وعن الصناعات المعدنية بصفة عامة انظر: واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، ص 105 وما يليها.

(5) القاضي عياض: تراجم ص 38.

ويجعل في إطار الصناعات المعدنية العمل الذي تؤديه دار الضرب حيث تضم عددًا من العمال، يختص كل منهم بمهمة ما في عملية اخراج النقود للـ حيز الوجود<sup>(1)</sup> وما ساعد على نشاط وازدهار عملية السك وتنقية الذهب من الشوائب توفر مادة الزئبق في بلاد المغرب الأوسط.

وقد تعددت دور الضرب في بلاد المغرب الأوسط، فكان للرستميين دارهم أو دورهم، وكان لكل إمارة علوية دار ضرب، بدليل وجود دينار مضروب في سوق إبراهيم في عهد أميرها أحمد بن عيسى<sup>(2)</sup>، هذا بالإضافة إلى دور الضرب التابعة للفاطميين بعد ذلك، والدور التي أقامها الثائرون على الفاطميين مثل أبي يزيد محمد بن كيداد وأبي الفهم، ثم دور الضرب الزيرية.

### — الصناعة الرصاصية:

كان من اليسر الحصول على الرصاص من مدينة بجاية، وكان المشتغل بهذه الصناعة يدعى «الرصاص» وكان يستخرج من الرصاص مادة أكسيد الرصاص اللازم لصناعة الزجاج، وفي الطب لتحضير مسحوق شعبي يستعمل للعين، وكان يستعمل الرصاص في صناعة العيارات، فإن ارطال الفاطميين كانت رصاصية حسبما ذكره المقدسي، وهو يضيف أن جامع القيروان كانت «مزاريه رصاص»<sup>(3)</sup>. مما يدل على استعماله في صناعة بعض الأدوات.

### الصيارفة:

يرتبط عمل هذه الفئة بالصناعة المعدنية، لأن الذهب والفضة هما مادة عملهم، وقد أدى تشابك الحركة التجارية وتطورها واتساع دائرتها إلى تطور وازدهار العمل المصرفي، حتى أصبح الصراف يمارس صلاحيات، هي أشبه بالصلاحيات التي تمارسها البنوك اليوم.

(1) عن كل ما يتعلق بدار الضرب أنظر أبو الحسن علي بن يوسف: الدوحة المشبكة، مواضع متفرقة.

(2) عمود اسماعيل: الخواارج في المغرب الاسلامي ص 294. الحاشية.

وانظر Lavoix: Catalogue de monnaies musulmanes... P.397.

(3) مزارب ميازيب، المقرد مزارب: ميزاب — مسيل الماء من على سطح الدار.

ونظرًا لأن العمل بالصرف كان بابًا واسعًا لأكل المال الحرام،<sup>(1)</sup> فقد اهتم فقهاء الاسلام والعلماء بهذا الموضوع، فوضعوا أصوله وأحكامه وتشريعاته وألفوا الكتب فيه، ظهر منها «كتاب الصرف» في القيروان وكان القاضي حريصًا على تفقه الصيارفة، فإن أبا العباس أسحق الصايغ — ت 305 هـ في القيروان — يذكر أن القاضي أبا طالب ألقى على مسامعه «كتاب القراض ثم أكثر كتاب الصرف» كما سلف وأن هذا القاضي وجه جماعة الصيارفة الى أبي جعفر أحمد بن أبي سليمان الصواف ليسمعوا «كتاب الصرف» وأمرهم أن لا يصرفوا حتى يسمعوا هذا الكتاب<sup>(2)</sup>.

ونظرًا لتلك الحساسية ومجال الاتزلاق في الربا، فقد حرص المسلمون ألا يشتغل منهم بالصرف إلا من كان محل ثقة، فقبل للامام مالك «أبكره أن يعمل الرجل بالصرف؟ قال: نعم إلا أن يكون يتقي الله في ذلك»<sup>(3)</sup>. ومن هذا ظهر صيارفة مسلمون في تاهرت، كإبي محمد الصيرفي في عهد الامام أبي بكر وهو مثال حي على وجود الصيارفة المسلمين في كافة أنحاء المغرب الأوسط.

ويبدو أن بعض الموالي كانوا صيارفة، إذ ظهروا في المهنة في القيروان مثل أبي الفضل يوسف بن مسرور مولي لحم — ت 325 هـ بالقيروان — كما عمل أهل الذمة صيارفة، وقد كشف الجاحظ هذا الأمر في إحدى رسائله فقال بخصوص النصاري، ان مما أعظمهم «في قلوب العوام وحبيهم الى الطغام أن منهم كتاب السلاطين وغراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة»<sup>(4)</sup> وذكر المقدسي بخصوص اليهود في بلاد الشام أن «أكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والداغين بهذا الاقليم يهود»<sup>(5)</sup>، ويبدو أن الحرية التي تمتعوا بها

(1) عن الصرف في الاسلام أنظر: سحنون: المدونة. القاضي النعمان: دعائم ج 2 ص 37.

وما يليها التميمي: كتاب النبل ج 8 ص 604 وما يليها.

(2) الديباغ: معالم الأيمان ج 2 ص 209 القاضي عياض المصنف السابق ص 375.

(3) أبو الحسن علي بن يوسف: الدوحة المشتبكة ص 91.

(4) حبيب الزيات: الصيارفة في الاسلام ص 492 نقلًا عن الجاحظ ثلاث رسائل.

(5) نفس المكان نقلًا عن المقدسي، وكتب علي بن أبي طالب الى رفاعه «أمره بطرد أهل الذمة من الصرف» القاضي النعمان دعائم ج 1 ص 36 وقبل للامام مالك «ان في أسواقنا صيارفة منهم أفنصرف منهم قال مالك: أبكره ذلك؟ انظر سحنون: المدونة الكبرى ج 4 ص 271.

في ديار الاسلام وازدهار التجارة وعدم ترددهم في أكل الربا قد ساعد على فسح المجال أمامهم لممارسة الصيرفة.

على أية حال، تطور عمل الصيرافة ولم يتوقف على تبديل العملة، بل أصبحوا محل ايداع للأموال، فيذكر ناصر خسرو أن «كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكاً ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف، فلا يستخدم المشتري شيئاً غير صك الصراف طالما يقيم بالمدينة(1)». وقد كتب أحمد بن سحنون لرجل رقعة الى صيرفي بعشرين ديناراً ويبدو أن الصيرفي كان يحقق أرباحاً من وراء هذا الايداع، في حين أن سحب الناس أموالهم، كان يعرض الصيرفي الى الفشل في مهنته وإلى الفقر، فقد روى المبرد «انه افتقر رجل من الصيرافة بالحاج الناس في أخذ أموالهم التي كانت لديه وتعذر أمواله التي كانت له عند الناس(2)».

ويغلب على الظن أن صيرافة المغرب الأوسط قد لاقوا نجاحاً في مهنتهم، بسبب موقع بلاد المغرب الأوسط، وكونها ملتقى الطرق التجارية في الاتجاهات الأربعة.

### الصناعة والمهن الغذائية:

تقوم هذه الصناعات على الانتاج النباتي والانتاج الحيواني، فكان القمح والشعير مادتين أساسيتين في غذاء السكان، ويقوم عليهما بعض الصناعات مثل الطحن والخبز، ومن هذا يمكن القول أن الأرحية والأفران كانت منتشرة في كل مكان.

### الأرحية:

يذكر ابن الصغير أن أهل تاهرت قد شرعوا منذ عهد الامام عبد الرحمن بن رستم في «اتخاذ الرحي» ويبدو أن الأرحية فيها كانت مجتمعة في موقع واحد،

(1) ناصر خسرو: سفرنامه ص 146، وانظر الجيعاني: المغرب الاسلامي ص 78.

(2) المبرد: الكامل: ج 1 ص 169. وعن بعض الأعياب الصيرافة أنظر: الأطروشي: الحسبة ص 24 ويظهر أنهم كانوا يجتمعون في مكان واحد، فكان في الفروان «باب الصرافين»: المقدمي: أحسن التفاسيم ص 225.



يؤدي إليها أحد أبواب المدينة حتى اطلق عليه «باب المطاحن»<sup>(1)</sup> ويذكر ابن حوقل أن مدينة تلمسان، «لها أنهار جارية وأرحية عليها».

وكانت وهران «ذات مياه سايحة وأرحاء ماء» وكانت الأرحاء على نهر نكور وفي مستغاثم، فذكر البكري أنها ذات، «طواحين ماء» وهكذا كانت تتناولت ذات «أرحية على واديا» وكانت الخضراء على نهر خرار عليه الأرحاء «وكانت أفكان، مدينة لها أرحية» وكانت مليانة «لها أرحية على نهرها» وفي متيجة ذكر المقدسي أن لسكانها «ماء جاريا عليه أرحية»، وكانت قزرونة على نهر كبير عليه الأرحية<sup>(2)</sup>.

وإذا كان الرحالة قد أشاروا إلى الأرحية إلا أنهم لم يذكروا شيئا عنها، مثل عددها على الأقل، فإن اليعقوبي يذكر بخصوص مدينة فاس أن لها ثلاثة آلاف رحى على نهرها، فمن المرجح والحالة هذه أن تكون مئات الأرحية قد نصبت على كل نهر من الأنهار السالفة الذكر.

وفيد المقدسي أن الأرحية توضع على أفواه الأنهار، فإذا خرج الماء أدارها، وهذا ممكن إذا كان جريان الماء يساعد على ذلك، والا فإن الناس يرفعون منسوب المياه ثم يدعونها تتساقط كالشلالات، فتعمل قوة التساقط على إدارة العجلة، بل أن هناك بعض الأرحية التي كانت تدار بواسطة الحيوان<sup>(3)</sup>.

والى جانب هذه الأرحية كانت أرحية أخرى متنقلة تدار باليد في المنازل، فإن إحدى التشيعات في بداية أمر أبي عبد الله الشيعي، كانت تساهم في اعداد الطعام للمتشييعين «حتى أن يديها كانتا تدميان من الطحن وعلاج الطعام لهم»<sup>(4)</sup>، ومثل هذه الأرحية كانت ضرورية لأغلب المنازل، حيث لا تتوفر

- 
- (1) القلشندي: صبح الأعشى ج 5 ص 111 نقلاً عن العزيزي، البكري: المغرب ص 66.  
(2) عن الأرحية هذه أنظر: البكري: المغرب ص 70، 90، 69، 75، 79، 66، 65، 60، ابن حوقل: صورة ص 88، 89، المقيدسي: أحسن التقاسيم: ص 228 الأدرسي: صفة ص 82، 84.  
(3) يوصي ابن الأخوة أن على أصحابها أن يرحوها ولا يستعملوها في طحن أكثر من ربع رية يومياً، ابن الأخوة: معالم القرية ص 89. المقدسي: أحسن التقاسيم ص 125.  
(4) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص 133. وفي القيروان كان عروس المؤذن — ت 307 هـ «يطحن يده» ابن عذاري: البيان ص 183 ج 1.

المطاحن العامة، وقد حاول الشاعر ابن حمديس أن يقدم وصفاً للرحى ومما قاله:  
( من البحر الطويل):

وأخذة في دورة فلكية ترى القطب منها ثابتاً وهي تضطرب  
إذا أطمعت حباً من البر اطمعت وقامت بأمر البر فهو كما يجب  
وتحسبها تلقى لنا رمل فضة إذا أدمن اللقاء فيها حصي<sup>(1)</sup> ذهب

ويبدو أن بعض المنازعات كانت تقع بين صاحب القمح وصاحب  
الرحى، حول الأجرة مثلاً والطحن عقب نقش حجر الرحى، أو مباشرة الطحن  
لأحد الناس قبل أن يتم طحن الأول نهائياً، ويظهر أن صاحب الطاحون كان  
يتكفل أحياناً بنقل القمح من منزل صاحبه إلى الطاحون، وهذا ما دعا ابن  
الأخوة أن يوصي بأن من يتسلم قمح الناس يجب أن يكون «ثقة عفيفاً أميناً»  
فإنه يدخل في بيوت الناس ويخاطب أولادهم وجواريتهم ويحملها بأمانة إلى  
طاحون معلومة<sup>(2)</sup>.

#### الخباز:

كان الحصول على الخبز يتم بطريقتين: أحداها في المنزل، والأخرى في  
الفرن، وكانت الأفران بنوعها منتشرة في كل مكان، وفي كثير من البيوت كان  
يفضل الخبز طازجاً لكل وجبة، وهذا يعني أن على صاحب البيت أن يحزن  
الدقيق أو القمح في منزله، وكانت المرأة هي التي تتولى مهمة العجن ثم تحضير  
الخبز، فإن أبا صالح جنون جلس ذات يوم مرة مع امرأته وهي تعجن عجينة،  
وأن الفتة التي يمكن إدراجها مع الصنّاع، هي التي تضم أولئك الرجال الذين  
اتخذوا من تحضير الخبز في أفرانهم للناس، سواء لأصحاب المنازل أو لبياع في  
الأسواق مهنة لهم.

وكان تحضير الخبز في الفرن أو شراؤه من السوق يغلب على أهل المدينة  
لهذا فإن الخبازين يوجلون فيها — وقلما يوجلون في البادية، فإن عمرو بن

(1) ابن حمديس، ديوان ابن حمديس ص 25.

(2) ابن الأخوة: المصدر السابق ص 90 وعن الحسبة على الطحانين أنظر لفيال موسى: الحسبة المذهبية -  
119. وانظر يحيى بن عمر: أحكام السوق ص 112.

حفصون حين خرج من عند الخياط في تاهرت وأخذ خبزتين من الخبز وألقاها في كفه<sup>(1)</sup> ويظهر أنه كان هناك من يتولى بيع الخبز ويفهم هذا من فتوى ليحيى بن عمر، تدور حول رجل اشترى خبزة — فأكل منها لقمة فوجد فيها حجارة، فله الحق أن يرجع الى البائع فيردها له وبحصل على الثمن الذي اشترىها به ثم يرجع البائع الى صاحب الفرن<sup>(2)</sup>.

وكان اعداد الخبز في المنزل بطريقة بدائية، فإن جبلة الصدي 299هـ/912م في القيروان — أخذ عجينة وذهب بها الى المستوفد وكان بقي فيه الرماد، فحفر فيه بعود وجعل القرصة فيه وغطاها بالرماد<sup>(3)</sup>، وأحياناً أخرى يخبزون على الرصف — وهي حصوات كبيرة ساخنة — وهي طريقة تحفظ الخبز نظيفاً.

الغرايبلي: هناك فئة من الصناع اختصوا بصناعة أداة من الأدوات اللازمة لاعداد الخبز وهي الغربال، وكان الصناع هذا يحمل لقب «الغرايبلي»<sup>(4)</sup>، ونظراً لعلاقة الغرايبلي بالحبوب، فالأرجح وجودهم في كل قرية من بلاد المغرب الأوسط، بل وفي المدن، وليس هناك وصف لهذه الغرايبلي، ومن المرجح أنهم صنعوها بخبوط جلدية.

الطبّاخ: أدى تطور المدينة العمراني والتجاري في بلاد المغرب الأوسط الى ظهور فئة الطبّاخين، وهي تؤدي خدمة جليلة للغرباء، وغيرهم، إذ هكذا

(1) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس ص 110.

(2) يحيى بن عمر: المصدر السابق، ص 111.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج 3، ص 249. وعن أسباب بعض المنازعات التي تقع بين الخباز والناس انظر ابن الأخوة: معالم، ص 91، وعن أساليب الفتن عندهم انظر السقفي: أداب الحسبة. ومن المرجح أن نزاعاً بين القروان وجيرانه كان يقع، وقد عالج القاضي قرطبة هذه المشكلة بأن يجعل صاحب الفرن أثبوا في أعلى الفرن فيخرج الدخان من أعلاه وهذا في القرن الرابع الهجري انظر الحشني: قضية قرطبة. ص 116 — 117. وقد جاءه هذه الفكرة بتأثير من المشرق الاسلامي عليه فهل عرفت في تاهرت ؟

(4) كان منهم في افرقية الأغلبية أبو الغصن الغرايبلي ونفيس الغرايبلي السوسي.

يكون في الفندق مأواهم وفي السوق طعامهم، وحتى الموظفين كانوا يأخذون طعامهم من عند الطباخ<sup>(1)</sup>.

**تجفيف الفواكه:** يظهر أن بعض العمال كانوا يقومون بتجفيف الفواكه فذكر البكري أن حصن تاونت — على ساحل ترنانا — «يحمل من زيب نينه» وكان يعمل في تاجنة «التين مثل شرائح على مثال الطوب» وهذا نفسه كان يعمل في المدن التي يتوفر فيها التين مثل مرمي الدجاج، ومادام الناس قد جففوا التين، فالأرجح أنهم جففوا بعض الفواكه الأخرى مثل المشمش، ومن قام بهذه العملية «النبافون»، وذلك لكي يواصلوا صنع التبيذ في غير موسم الفواكه.

والى جانب التجفيف، كانت الفواكه تستعمل في صنع المعاجين والربوب مثل معجون ورب السفرجل وغيره، فذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أن جبجل «منها تحمل الفواكه والعنب والرب الى مدينة بجاية».

### العطور:

عرفت بلاد المغرب الأوسط كغيرها من بلاد المغرب الاسلامي صناعة العطور، ويبدو أن هذه الصناعة قد عرفت التخصص، فحمل صاحبها لقب «الطار» بل يبدو أنه كان تخصص أضيق يعتمد على نوع واحد من الأزهار المستعملة مثل الريحان لذا كان هناك من حمل لقب ريحاني مثل أحمد بن «ريحاني»<sup>(3)</sup>.

### عصر الزيتون:

عرف الناس في ذلك الوقت استعمال المعاصر، وربما كانت بعضها حكرًا على أصحابها، الا أن معاصر أخرى كانت عامة، فقبل لصاحب زيت:

---

(1) وعن أساليب الفش عند الطباخين والحسية عليهم أنظر ابن الأخوة: معالم. ص 108 — 109. ابن عبد الرؤوف: ثلاث رسائل أندلسية. ص 97 — 97.

(2) القاضي عياض، ترتيب المدارك ج 3 ص 380 وعن التين المجفف البكري: المغرب 80 وذكر المقدسي الفواكه المفددة، أحسن التفاسيم ص 145.

(3) الجوزي: سورة جود ص 117 وعن الأعجب العطارين أنظر، ابن الأخوة، معالم القرية ص 121 — 125.

«المعصرة التي عصرت فيها أيعصر فيها أهل القرية ؟ قال: نعم» (١) ويدخل في عصر الزيتون الدواب والقفاف، فقد كان عيسى بن مسكين في القيروان جالساً على «دكان في المعصرة وخادم له يرد الزيتون والدابة تطحن» وبما أنها كانت تدبر حجراً يكسر الحب، ثم يوضع الزيتون في قفاف، ذكر القاضي عياض استعمالها وهي «قفاف المعاصر».

وكانت المعاصر كالمطاحن تدور بالماء أو بدواب الحمل، وأن نوع الزيت يدل على كيفية استخراجه منها: زيت الماء وهو أفضل الزيوت وزيت البد وهو متوسط والزيت المغلي وهو الأدنى. ومن المرجح أنها كانت تخزن في جرار وأزيار وخوابي.

وكانت هناك زيوت أخرى تستخرج من بذور بعض النباتات مثل زيت بذور الفجل وزيت السمسم وزيت الخروع وزيت بذور الكتان، وكانت لها فوائد في صنع الصابون وفي الطب، وقد ذكر القاضي عياض أحد المختصين بصناعة الصابون وهو أبو حفص عمر بن أبي الحسين الصابوني.

#### صناعة الخمر:

ذكر ابن حوقل بخصوص العاملين في مرسى الخرز في صيد المرجان انهم «يكثرون الأكل والشرب والخلاعة ولهم بها مكاسب وافرة ويتبذرون نبيذ العسل فيشربونه من يومه ويسكرهم الأسكار العظيم ويعمل من الصداق ما لا يعمله نبيذ الذرة وغيره من الأشربة» وقد عرفت تاهرت نفسها الخمر وشاربيه ففي خضم النزاع الذي وقع بين الامام أبي حاتم وعمه ظهر المسكر، فذكر ابن الصغير أن تاهرت «قد فسدت وفسد أهلها في تلك الحروب واتخذوا للمسكر أسواقاً» وكان النكارية يرون أنه «يجوز شرب الخمر على التقية» وحين قام بلكين بن زيوي باقتفاء أثر محمد بن الحخير «فجاءه في سرية تامة وهو يشرب مع رجاله» (٢).

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج ٣ ص ٣٨٦.

(٢) لقبال مومني: دور كتابه. ص ٣٦١. ابن حوقل: صورة الأرض. ص ٧٧. وبخصوص ما ذكر ابن الصغير انظر: سيرة الأئمة. ص ٣٦٣. وعن موقف النكارية انظر: يحيى معمر: الأباضية بين الفرق الإسلامية. ص ٢٦٣. وعن التبذ عند الاحناف انظر: عبد العزيز الجندوب (الصراع المذهبي ص ٧١ - ٧٣).

وكان الخمر يصنع حسياً ذكر ابن الأخوة من العنب والتمر والشعير والزبيب، ويضيف ابن حوقل إليها الليرة، ويضيف إليها ابن الآبار التين، وقال عريب بن سعيد أن الشراب كان يصنع في أفريل من الورود والبنفسج وفي ملي من التفاح والخشخاش وفي جويلية من التفاح والاجاص وفي أوت من الرمان والخشخاش<sup>(1)</sup>.

### صناعة الحصر:

ذكر ابن الصغير الحصر ضمن أثاث الامام عبد الرحمن بن رسم وكانت تصنع من الخلفاء أو القصب وأحياناً تصنع من سعف النخيل، والحصر نكفي المصلي أن يقف عليها ويسجد على الأقل، فإذا كانت دون ذلك عرفت عندها بـ «الحصرة».

وقد تفنن الصناع في صنع الحصر وتأنقوا، فغير المنصور عن اعجابه بأعمال العبيد الحصريين بقوله «أن أعمالهم رياض موفقة»<sup>(2)</sup> وكانوا يدخلون الخيوط الذهبية في صنعها، ويرسمون ويكتبون، فكتبوا في عهد المعز الفاطمي «مما عمل على يد جوذر مولى أمير المؤمنين» وقد عرفت بلاد المغرب الأوسط هذه الصناعة وما شجع وساعد على ازدهارها وجود الخلفاء والنخيل في البلاد، كما أنها ضرورية لكل منزل.

### الصناعة الطبية:

كانت بلاد المغرب الأوسط تشتهر ببعض النباتات التي نستعمل في علاج بعض الأمراض فذكر الإدريسي أنه في أكناف جبل مسبون بشمال بجاية جملا من النباتات المنتفع به في صناعة الطب مثل شجر الحوض والسفولوفندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والراوند والفسطون والأفستين وغير ذلك،

(1) انظر: Imammuddin: Some aspects... P. 105-106. كان أبو عبد الله الشيعي يأمر «بقتل من خرج ليلاً أو شرب مسكراً أو حمله أو وجد عنده». ابن عذاري: البيان ج 1 ص 151. إلا أن ابن بكر الجذلي يقول: أن هؤلاء الفواطم تسرطن أحدهم بقلعة من بيته لفيال موسى: دور كتابة ص 376.  
(2) الجوزدي سيرة جوذر ص 52 وانظر نفس المصدر ص 88 عن الحصر والحبرة انظر القاضي النعمان: كتاب الدعائم ج 1 ص 178.

وكان أهل قلعة بني حماد يتحرزون ويتحصنون من عقارب كثيرة قاتلة بأن يشربوا «نبات الفوليون الحراني» ويزعمون أنه ينفع شرب درهمين منه لعام كامل فلا يصيب شاربها شيء من ألم تلك العقارب» (1) وهناك بعض الأدوية التي تصنع من العقافير التي يشتريها الناس من العطارين.

وقد أورد ابن البيطار عبارة علي غاية الأهمية، فهو ينقل ما يتعلق بلحم جراد البحر مما «حكاه أطباء المغرب الأوسط خاصة» (2) وذكر ابن بشكوال من هؤلاء عبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو الوهراني.

وهناك بعض المهن المرتبطة بالنبات، فكان بعض الناس من اتخذ جمع الحطب وبيعه فعرف بـ«الحطاب» ومنهم من أختص بعمل الفحم فعرف بـ«الفحام» ومنهم من اشتغل بالتبن فعرف بـ«التبان» وغير ذلك.

### تصنيع المنتجات الحيوانية:

تعتبر تربية الحيوان ثروة هامة للبلاد، وقد قامت عليها بعض المهن، فكان من الناس من عمل حمالا مقابل أجرة، وهي مهنة وضيعة، فإن القاضي النعمان يجعل الحمالين شبه بهائم، كما يشير إلى فقرهم المدقع، ومن الناس من كان عمله الأشراف على الأسطبل أو ما يسميه أبو زكريا «دار الدواب» وكان منهم من يتولى عملية الترويض، فكان عند الفاطميين «علوش الرائص» فمن المحتمل وجود مثله في اسطبلات الأئمة الرستميين وغيرهم.

### الجزار:

يرى ابن الأخوة أنه يستجيب أن يكون مسلما بالغا عاقلا وأن يستعمل سكينه حادة، (1)، ومع أنه كان يصعب الفصل بين الجزار والقصاب إلا أنه

---

(1) الأدريسي: صفة. من 16، وعن صناعة الطب انظر. ابن خلدون: المقدمة. الفصل 29.  
(2) ابن البيطار الجامع ج 1 ص 161. ثم انظر ابن بشكوال: كتاب الصلة ص 298 قدم الطبيب المذكور الأندلسي تاجرا سنة 429هـ ويذكر القاضي النعمان بعض المواد التي تستعمل علاجا أنظر كتاب الاقتصاد ص 98 — 99. ويظهر أن أهل الذمة كانت لهم اليد الطولى فالف اسحق بن سليمان الأسرئيلي طبيب عبيد الله المهدي، كتاب الحميات وكتاب الأغذية والأدوية، وكتاب البول ومنهم من يرى بن العيزار طبيب المعز الفاطمي ومن مؤلفاته، كتاب المعزي في الطب، مقالة في السعال كتاب الأفر باذين أي الصيدلة أنظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ص 545.

وجد من حمل لقب «الجزار» كدليل على تخصصه مثل: أبو جعفر أحمد ابن ابراهيم بن الجزار، كما أن ابن الصغور أشار الى وجود القضاة في تاهرت فكان قوم من نفوسه يمشون في الأسواق، فإن رأوا فصائبا ينفخ في شاة عاقبه، وقد كان هؤلاء يلبسون ملابس خاصة بمهنتهم، فإن أبا عبد الله الشيعي سير رجلا الى المهدي في سجنه في سجلماسة، في «زي فصاب يبيع اللحم<sup>(1)</sup>» وعلى كل، فمن المرجح أن الجزارين والقضاة في بلاد المغرب الأوسط قد كثر عددهم بسبب شهرتها في تربية المواشي.

وهناك عدد من المهن المتعلقة باللحم فكان بعض الناس من عمل في شواء اللحم وبيعه، وعرف هؤلاء في كتب الحسبة «بالشوائين» وهم يستعملون للشواء الطاجين والسفود والتتور، كما أنهم يمشون اللحم والدجاج والخراف، ويبدو أن بعضهم قد اختص بشواء الرؤوس فعرفوا «بالرؤاسين» وهناك من اختص بعمل النقانق، فعرفوا «بالنقانيين»<sup>(2)</sup>.

وهناك من اتخذ اللبن ومشتقاتها مادة لمهنته، فكان هناك على سبيل المثال لقب «اللبن» وكان بعض اللبانيين يمشون حليهم.

### الدباغ:

يبدو أن هذه الصناعة كانت مزدهرة في بلاد المغرب الأوسط لوفرة الماشية، وكان يستعمل في الدباغة فشور الرمان والقرظ والشب والسماق<sup>(3)</sup>.

(1) ابن الأثير: الكامل. ج 8. ص 41. كانوا إذا ذبحوا للناس أخذوا اجرة لهم، جلد الذبيحة وبعض اللحم وجلاها وغير ذلك، ويبدو أن بعض الناس كان يأكل من ذبائح أهل الذمة، فأصدر الفاضل النعمان فتواه بأن لا تؤكل ذبائح المشركين ولا ذبائح أهل الخلاف إلا أن يسموا الله عليها ويحضر ذلك من يأكلها، انظر: كتاب الاقتصاد. ص 105.

(2) عن الشواء والنقانق. انظر: مؤلف مجهول: كتاب الطبخ. ص 28 وما يليها.

(3) انظر: عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي. ص 113. وذكر ابن حوقل عن قابس «بها جلود تدبغ بالقرظ، انظر صورة الأرض. ص 72. ويعرف القرظ بورق السلم انظر: الملاحظ: البصير. ص 34. وعن استعمال الشب: تاريخ التجارة. ص 43. وقد وجدت هذه المادة في قلعة بني حاد. انظر الدرجيني: طبقات ج 2 ص 471، وعن استعمال السماق. ابن البيطار: الجامع ج 3 ص 29.



وقد كانت هذه الصناعة حقيرة لما ينطلق بسببها من روائح كريهة وأوساخ وربما كانت خارج المدن.

وليس من السهل حصر المصنوعات الجلدية، فكان منها السروج وقد أجاد سكان بلاد المغرب الأوسط صناعتها فوقعت عين الناصر الأموي على فرس بسرج عدوي الصنعة لطيف دفني المجلس، دليل على جودتها وتصديرها الى الأندلس، وعرف المختص بصناعتها ب«السراج»<sup>(1)</sup>.

وصنعوا الأحذية، ويبدو أن الحذائين كانوا مجتمعين في مكان واحد، فذكر المقدسي «درب الحذائين» في القيروان.

ويرتبط بهذه الصناعة، صناعة أخرى هي الخرازة، وكان يحترفها يحمل لقب «الخراز» ويبدو أنها كانت حرفة محترمة، وكانوا يخضعون لمراقبة المحتسب.

وصنعوا من الجلد الطبول والدفوف، كما صنعوا الجعبة والخرج، والزق والقربة، وكان الجلد المدبوغ كبير الأهمية لصناعة الرق الصالح للكتابة، وقد أشار المقدسي الى أن المغاربة يستعملون الرق في كتاباتهم، ويرى Goitein أن الكتابة على الرق في بلاد المغرب الاسلامي استمرت الى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.<sup>(2)</sup> وصنعوا كذلك البسط للاستعمال المنزلي.

### الصناعة الخشبية:

كان من مصنوعاتهم الخشبية الموائد، ظهرت في بيت الامام عبد الرحمن بن رستم، والأسرة والكراسي، وقد وضع الخياط في تاهرت للشيخ «كرسيا» فقعده عليه وصنعوا الأبواب واقفالها والقباقيب، ويبدو أنها كانت تصنع للأثرياء من أخشاب مستوردة، فكانت في قصور بني زيري مصنوعة من أخشاب هندية

(1) انظر العرب : طبقات. 103. ابن حيان: الغني. ط بيروت. ص 170. الجاحظ. المصدر السابق. ص 30. 637.

(2) ويمكن أن نضيف الى الصناعة الجلدية الدرق للبطية عنها: الادريسي: صفة. ص 59. ابن الفقيه: المسالك. ص 81. وعن الديباجة والحرف الجلدية. انظر: واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب. ص 251. 231.

ضمت أجزاؤها الى بعضها البعض بمسامير ذهبية (1) وصنعوا المغارف والملاعق، والعمود الذي يقطع عليه اللحم واللوح الذي يمد عليه الكعك وكانت تصنع من الخشب الصلب كاليلوط والبطم والزيتون والبقس والعناب. فصنعوا المهاريس التي تصلح حيث لا تصلح للمهاريس النحاسية، كما صنعوا الصحن والكنؤوس الخشبية والأقفاس، فحين كان المنصور الفاطمي يحارب يزيد بن خالد بن كيداد عمل قفصاً «من الخشب» واستعملوا الخشب في صناعة الهوادج، فحين استغل ابن أبي عامر جعفر بن علي استقباله بيبغال «بعملة عدتها من العماريت والهوادج المتقنات» (2) واستعملوه في سقف منازلهم وفي صناعة مختلف الأسلحة، ويبدو أن المغرب الأوسط اشتهر بها فإن زيري بن عطية المغراوي أرسل هدية للأمويين عدداً كبيراً من السهام والأقواس المصنوعة من شجر الزان. (3) واستعملوا الخشب في صناعة المراكب والسفن ومنها مراكب تاهرت التي ذكرها يعقوبي.

وعلى أية حال، فقد عرفت الصناعة الخشبية عدداً من الصناعات فكان منهم «النشارة» وآخر «الخشب»، وثالث «النجار» وربما هم الذين عناهم الدرجيني بقوله ثلاثة نجارين: أحدهم يحن قطع الخشب من الشعراء والثاني يشقها وينشرها والثالث يركب الألواح ويسمرها فيما يصلح من الأدوات» (4)، والجدير بالذكر أنهم كانوا يستفيدون من النشارة في استعمالها لتجفيف صفحات الكتابة، فقد وجدت بين صفحات مخطوطات عربية أندلسية، وكانت القطع الخشبية تسمر بالمسامير أو تدخل نهايتها في بعضها البعض، وقد ازدهرت الصناعات الخشبية في بلاد المغرب الأوسط على الأقل لوفرة الخشب فيها، فإن الإدريسي يذكر بخصوص بجاية أن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود.

(1) ارشيبالد: الفرى البحرية. ص 331.

(2) ابن حيان: المغرب. ط بيروت ص 42. وعن الخشب الصلب. أنظر: مؤلف مجهول: كتب الطبخ. ص 84.

(3) Golvin: Le Maghreb Central...P.177.

وعن الأسلحة المختلفة أنظر: عطية: نظم الحكم ص 146 — 147 وعن المراكب التي يتألف منها الأسطول الفاطمي أنظر: صابر محمد دهاب: سياسة الدولة الإسلامية. ص 107 — 110. وهناك المراكب الخشبية يركب فيها من مائة الى بلاد الصين.

(4) الدرجيني: طبقات ج 2 ص 398 وحول التجارة أنظر: ابن خلدون: المقدمة الفصل السادس والعشرون.

## الصناعة الفخارية:

صنع سكان بلاد المغرب الأوسط كثيراً من الأدوات الفخارية التي يحتاجونها للاستعمال المنزلي. فصنعوا القلال، وعرف محترف صناعتها «بالقلال» وصنعوا الجرة والزير والأباريق والكميزان، والكؤوس والأقداح والأطباق وصنعوا الكوانين لمواجهة برد الشتاء، وذكر ابن الصغير «السراج» وصنعوا القنديل وربما هو المصباح الذي ذكره الشماخي، وصنعوا القدور، وكانت الحاجة تدعو الناس الى صنع الخواني لحفظ طعامهم، وقد أشار الخشنى الى وجودها.

وقد عثر جورج مارسى على عدد من المطامير وكسر من الفخار ومن المرجح أنه كان لتاهرت وغيرها أفران لشي الفخار بدليل وجود قطع فخارية متلاصقة وعوجاء مصنوعة من طين أبيض وخوخى ومطلية بطلاء أبيض مزينة بزخرفة على شكل خطوط متوازية مستقيمة أو منحنية في تاهرت وكان بين هذه القطع قطعة من قم جرة، وقطعة من قلال وصحون وغطاء برادة وقطع من مصابيح<sup>(2)</sup>.

ويمكن اعتبار الخزف المماري — القرميد والأجر — الذي عثر عليه في قلعة بني حماد نموذجاً لصناعة الخزف في بلاد المغرب الأوسط، فكانت مقاييس القرميد الكبير: 380 مم طولاً والقاعدة 178 مم و 110 مم والسبك 14 مم أما مقاييس القرميد الصغير فكانت 350 مم والقاعدة 165 مم 108 مم والسبك 15 مم.

---

(1) الدرجنى، طبقات ج 2 ص 398 وحول النجارة أنظر: ابن خلدون: المقدمة الفصل السادس والعشرون.

(2) بوروية رشيد: الفن الرسمى، ص 184 — 187 وأنظر:

G. Marçais: Tihert... R.A. 1946. P. 24-57.

(3) نفسه: الدولة الحمادية ص 67 وعن أشكال الأجر انظر نفس المرجع ص 277 — 279. ولزبد من الاطلاع على الفخار الحمادي أنظر: بوروية نفس المرجع ص 276 — 308. وكذلك:

G. Marçais: Les poteries et faïences de bougie- constantine. 1918.

Ibid: Les poteries et faïences de la kalâa des beni-hammed 1918.

## البناء:

تعتبر مهنة البناء من أهم المهن الى جانب الحراثة والحياكة وكانت تتم بتضافر وجهود عدة مهنيين: الحجار والبناء، وصانع القرميد والطوب، والمهندس<sup>(1)</sup> وقد تزايدت هذه المهنة بسبب اتساع الحركة العمرانية وتطورها.

## الصيد:

يمكن التمييز بين نوعين من الصيد وهما: صيد البر وصيد البحر. — صيد البر: مارس بعض سكان المغرب الأوسط الصيد، وربما مارسها البعض من باب التسلية في حين مارسها البعض الآخر كوسيلة للعيش، ومن المرجح أن الأثرياء استعملوا البزاق، وربما استعملوا كلاب الصيد، ويبدو أنهم استعملوا المعراض — وهو سهم مذبب الطرفين — وأدوات أخرى.

صيد البحر: يذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أن الصياد يخرج النقازة ويرسلها وقد ربط خيطاً في خرص وثيق في شفتها، فتسير في البحر ويتبعها بزورقه وشبكته فتدور عليها الذكور، فيطرح عليهم شبكته ويخرج ما قدر<sup>(2)</sup> له، ويضيف موريس لومبارد أن الطريقة المستعملة في صيد السمك هي: الخطاف أو المنزربة. ويشير الادريسي الى أن في جيجل «الحوت الكثير العدد التناهي الطيب والقدر»<sup>(3)</sup>.

وقد عرفوا تصنيف السمك، ويفيد الحموي أن السمك كان يملح فيبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم، واستعملوا العسل في تصديره فكان يحمل حوته درنه الى عبيد الله المهدي «في العسل فيحفظه ويصل طرياً»<sup>(4)</sup>. وربما ينقلونه

---

(1) انظر أخوان الصفا: رسائل اخوان الصفاء. ج 1 ص 284 ذكر المندبي الهندسين بقوله: «أهل المعرفة بالهندسة وكان رجال فيلة كومية» أصحاب أسواق ييمون فيها اللبن والطين». «وعن البناء أنظر لومبارد: الاسلام ص 177.

(2) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 125.

(3) الادريسي: صفة — ص 98.

وعن حوت بونة أنظر البكري: المغرب ص 55 وعن حوت نيس ابن حوقل: صورة 77.

(4) البكري: المصدر السابق ص 57. الحموي: معجم ج 2 ص 26، وانظر مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 125. الحموي: معجم ج 2 ص 434. ويضيف الحموي جنساً آخر من السمك كان معروفاً في تونس هو النفونس أنظر الحموي: المكان السابق. وعن الأعيب صيادي السمك وغشهم أنظر: ابن الأخوة: معالم ص 11. وعن نقله مع ماء البحر في خوالي أنظر حسن حسني: ورقلة ج 3 ص 368.

الى المدن الداخلية في خوالي فخارية مملوءة بماء البحر، فقد نقل جوهر الصقلي السمك من المحيط الأطلسي بهذه الطريقة الى المعز الفاطمي.

وأصطادوا العنبر، وهو يستعمل في صناعة الروائح العطرية، حيث يخلط بمواد أخرى، ويذكر ابن البيطار من استعمالاته أنه مفو للقلب والدماغ نافع من الفالج والقوة وأمراض البلغم الغليظ وهو سيد الطيب، وأجوده الأشهب ثم الأزرق ثم الأصفر وهو يفيد في معالجة أوجاع المعدة ورياح المعى والصداغ. (1)

وأصطادوا المرجان أو البسذ، ويذكر ابن حوفل وجوده في مرمى الخرز يعمل فيه «في أكثر الأوقات في اثاره المرجان الخمسون قاربا وما زاد على ذلك مما في القارب العشرون رجلا الى مازاد ونقص» (2) ويذكر المقدسي أن الصيادين يخرجون الى جمعه في قوارب ومعهم صلبان من خشب قد لفوا عليها شيئا من الكتان المحلول وربطوا في كل صليب حبلين يأخذهما رجلان فيرميان بالصليب ويدير النواني القارب فيعلق بالفرن ثم يجذبونه فمنهم من يخرج عشرة آلاف الى عشرة دراهم ثم يجلى ويباع جزافاً رخيصاً ولا إشراق له قبل جلوه ولا لون (3)، ويفيد ابن البيطار أن المرجان يستعمل في صناعة الكحل، ويزيد الأدوية التي توقف الدم قوة على وقفه، هذا بالإضافة الى استعماله في صناعة الحلوى والتمائم.

---

(1) ابن البيطار: الجامع ج 1 ص 134، وهو يعرف العنبر أنه ورث دابة بحرية وفيل هو شيء يثبت في قعر البحر ضاكلة بعض دواب البحر فإذا امتلأت منه قلذته رجيماً وهو في خلقته كالعظام من الخشب يطفو على الماء ومنه ما لونه مائل الى السواد أنظر نفس المكان. وأنظر عن العنبر: الفرناطي: تحفة الألباب ص 95، موريس لومبار: الاسلام ص 282.

(2) ابن حوفل: صورة 76 — 77. المقدسي: أحسن التقاسيم ص 239. البكري: المغرب ص 55 وعن المرجان: الدمشقي: الاشارة ص 35. ابن البيطار: الجامع ج 1 ص 93 — 94 لومبارد. الاسلام ص 281.

(3) المقدسي: المكان السابق.

## النخاسة:

احترف بعض رجال المغرب الأوسط العمل في النخاسة، ويبدو أن بعضهم كان يقوم بمهمة الجلاب، فقد وجد سوق النخاسين تباع فيه الأبقار والأغنام ونحوها، هذا بالإضافة إلى النخاسين المختصين ببيع العبيد والجواري.

وكان هؤلاء النخاسون يعلمون العبيد والجواري مختلف الفنون والصنائع فيرتفع الثمن، فجاء «في المدونة» أن العبد يبتاعه الرجل وهو أعجمي أو الجارية فيبلغ العبد إلى الصناعة فيعمل النبيان أو يكون صائغًا أو صباغًا أو نجارًا فيرتفع ثمنه<sup>(1)</sup>.

ويورد آدم منز رسالة لابن عبدون في الرقيق، ومما جاء فيها: «فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة وممسوح العجز بثقل الروادف وبطين بمجدول الحشا وانجر الفم بطيب النكهة وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء، وحمروا الحدود المصفرة وسمنوا الوجوه المقعقة وكبروا الففاح الهزيلة وأعدموا الحدود شعر اللحى وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد وجعلوا الشعور السطة ويبضوا الوجه السمرة ودملجوا السيقان المعركة وريطلوا الشعور الممرطة وأذهبوا آثار الوشم والجذري والشمس والحكة<sup>(2)</sup>» ويضيف آدم مبنز أن ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مئة درهم فضي.

وقد أقبل الناس على شراء الرقيق لاستعماله في ميادين شتى، خدم في البيوت، وهم يعملون في المجالات الأدبية، وفي الفلاحة والتجارة والصناعة وهم حرس وجنود وغير ذلك. وساعد الازدهار والرخاء الذي شهدته البلاد على اتساع حركة النخاسة، فيذكر ابن الصغير أن وفد البصرة حين زار تاهرت للمرة الثانية وجد «العبيد والخدام قد كثرت» واشترى الشراة للقاضي محكم المواربي «خادمًا صفراء»، فكان تدفق العبيد من بلاد السودان وأوروبا عبر الأندلس عاملاً مساعدًا لازدهار النخاسة، وازداد الاعتماد على العبيد في العهد الفاطمي، ويعود هذا إلى ثقة الفاطميين بهم أكثر من غيرهم، وذلك

... (1) سحنون: المدونة ج 4 ص 311 وأنظر الخنسي: تاريخ قضاة قرطبة ص 51. لومبارد: المرجع السابق ص 289 الحاشية.

لعدة اعتبارات فهم غرباء عن المغرب وليست لهم عصبية قوية حتى يخشوا عصبيتهم فنفسياتهم كعبيد تجعلهم دائماً يطيعون أوامرهم ولو تسلموا أرق المناصب، ومن جهة أخرى فهم خصيان في الغالب ليس لهم أبناء حتى يحرصوا على جمع الثروة<sup>(1)</sup> ولا يخشى اعتداؤهم على نساء أسيادهم.

### الحمامسي:

كانت الحمامات منتشرة في مدن المغرب الأوسط، ففي مدينة تاهرت «حمامات كثيرة يسمى منها اثنا عشرة حماماً»<sup>(2)</sup> وفي أفكان حمام وفي ميله حمامات. وكذلك في تنس حمامات وفي المسيلة وغيرها.

وكان يعمل في الحمام رجل يدعى المتقبل أو الحمامسي، وآخر هو الدلاك، وثالث هو الزبال مهتته الاشراف على نظافة الحمام، ويعمل فيه «الوقاد»، وهو المشرف على توفير الحطب وحفظ النار مشتعلة، وآخر يدعى «السقاء» وكان التزين والتطيب يستدعي وجود حلاق أو مزين، ويقابله في حمام النساء الماشطة التي كانت تقوم بتصفيف الشعر وصبغه بالخناء، الى جانب العناية بالحواجب وترقيقها، ووضع الكحل في العين وتصفيل الوجه،<sup>(3)</sup>. وكان في الحمام الحارس أو الناطور يتولى حفظ وحراسة ملابس وأمتعة المستحمين ويدلوا أن عدد هؤلاء كان كبيراً في الحمام الواحد، فقد بلغوا في حمام واحد في القاهرة سبعين عاملاً.<sup>(4)</sup>

هذا الى جانب عدد من الأعمال والمهن الأخرى التي يصعب حصرها، فكان منهم القصاصون الذين يجتمع الناس حولهم للاستماع الى حكاياتهم وقصصهم، والتكازرون وهم محترقو التكازة وهي ادعاء معرفة الغيب بالنظر

(1) مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية 112.

(2) انظر ابن حوقل: صورة ص 86. البكري ص 68 قلا عن ابن الوراق، ابن عذاري. البان ج 1 ص 25.

(3) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية ص 108 عن الحسية على الحمام، انظر الأطروشي: الحسية ص 27. لقبال موسى: التيسير ص 111 عن وجود الحارس أنظر: تنفري يردي النجوم الزاهر ج 1 ص 44.

(4) المقرئزي: المخطط المقرئزي ج 2 ص 131.

في العظام أو الدقيق أو الرمل أو الكف، والقوالون، ويبدو أنهم يتصدرون جماعة دارت بينهم كؤوس الخمر، والزفافون والرقاصون والطبالون<sup>(1)</sup>.

وكان بعض الناس يعملون في الزيت والقطران<sup>(2)</sup>، إذ كانت بحاجة يجلب إليها من أقليمها الزيت البالغ الجودة والقطران، وصنعوا الحبال، ذكرها ابن الصغير، ويبدو أنها كانت تصنع من الليف، واختص بعض الناس بالورافة والكتابة.

وعمل بعض الناس في التنجيم فكان الامام أفلح نفسه منجمًا، فذكر أبو زكريا أنه «بلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغًا عظيمًا». وكان المعز الفاطمي مغرمًا بالنجوم والنظر فيما يقتضيه الطالع<sup>(3)</sup>.

هذه بعض الصنائع والمهن التي مارسها سكان بلاد المغرب الأوسط، وقد كانت صناعة مزدهرة كما أشرنا سابقًا، لكنها صناعة تعتمد على الأدوات اليدوية بصفة عامة، وهذه الصفة وأن كانت طابع ذلك العصر، إلا أنها لا تعطي إنتاجًا بغمر الأسواق. وعلى أية حال، فقد كانت صناعة هذه البلاد تتأشى ومستوى صناعة تلك الفترة في غيرها، من البلاد الإسلامية.

---

(1) عن هؤلاء: الأطروشي: المصدر السابق ص 15. لقبال موسى: التيسير ص 92.  
(2) عن الزيت والقطران أنظر الأديسي: صفة ص 90. وكان يستعمل في طلي المراكب حتى سماها ابن هاني الأندلسي الفاريات السود وعن فضل الورق: لومبارد: الإسلام 284. وعن صناعة الورق. Imammuddin: Some aspect...P.107-108.

وكان الكتاب يقيمون عادة في الجامع أنظر ناصر خسرو سفرنامه ص 102.

(3) تغري بردي: النجوم الزاهر ج 4 ص 71.  
وقال الشاعر أبو تمام مكذبًا التنجيم وداعيًا إلى عدم الاعتداد عليه:  
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب





## الفصل الثالث التجارة الداخلية

### التجارة:

يرى ابن خلدون أن الإنسان مدني بطبعه، فهو دائماً بحاجة إلى الآخرين من أجل اقتناء ضرورياته على الأقل، فإذا كان فلاحاً، فهو بحاجة إلى النجار والحديد وغيرها<sup>(1)</sup> وهكذا فرضت الحاجة في كل فرد أن يقايض الفائض مما يملك بسلعة أخرى، وهو بحاجة إليها، فكان البيع والشراء.

ولم يتوقف أمر تبادل السلع على تلبية الحاجة، بل أن العملية أصبحت حرفة يمتنها البعض بقصد الحصول على الربح، وهكذا فإن ابن خلدون يعرف التجارة بأنها محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء وذلك القدر النامي يسمى ربحاً.

على أنه لا يفهم مما تقدم أن غاية التجارة هو الربح في حد ذاته واكتنازه، سواء كان هذا الربح سلعة أم نقوداً، بل أنها تمكن التاجر من اقتناء ما يعوزه من الخيرات، وهكذا فإن مسك إنسان نقوده عن الدورة النقدية واحتزنها فقد أساء إلى المجتمع.

### نمو التجارة:

تتطور التجارة الداخلية بناء على عدة عوامل لا بد من توفرها ومنها:

1 - عامل جغرافي: فإن اختلاف التضاريس الطبيعية والأحوال المناخية في البلاد اقتضى وجود اختلاف في الإنتاج الزراعي والصناعي بين منطقة وأخرى ويميز

(1) ابن خلدون: المقدمة: الكتاب الأول، الباب الأول، فصل في العمران البشري ص 41.

هذا الاختلاف بوضوح بين الشمال والجنوب، بل ومن ناحية الى أخرى، إذ اشتهرت كل ناحية بسلعة أكثر من غيرها، فهذه بالتمر وتلك بالفواكه، وأخرى بالحبوب، وغيرها بالمرجان والسمك، فأن هذا التباين عاملا في سيلان البضائع من الأماكن ذات الوفرة والانتاج الفائض، الى الأماكن التي تعاني نقصا وحاجة إليها.

كما أن الظروف الطبيعية تتدخل في الحد من النشاط التجاري أو دفعه الى الأمام، كأن تشتمل البلاد على حواجز طبيعية، لا يتمكن التجار من اجتيازها كالجبال الوعرة والأنهار العريضة. بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط فإن جبال كتامة وجبال الونشريس لم تكن سدا منيعا أمام التجار في البلاد، كما أن نهر شلف — أكبر نهر — لم يشكل عائقا، لكن أحوال المناخ في فصل الشتاء كانت تحد من حرية الحركة، مما انعكس على التجارة فقد أقام المنصور الفاطمي شهرا في منطقة سوق ابراهيم، ولم يستطع أن يرحلها، بسبب الأمطار والأحوال.

2 — دور السلطة الحاكمة: مارس بعض الأئمة الرستميين التجارة، فكان الامام عبد الوهاب تاجرا، ويبدو أن ابنه افلح كان قائما له بهذا الأمر، كما أن أبا اليقظان كان قد أخرج ابنه — أبا حاتم — مع وجوه زناتة ليجوروا قوافل آتية من المشرق<sup>(1)</sup>، مما يدل على أن الرستميين ظلوا يمارسونها ربما الى انقضاء دولتهم.

كما مارس بعض الأمراء العلويين في بلاد المغرب الأوسط التجارة يدل على هذا ظهور أسواق خاصة بهم، تحمل أسماءهم مثل سوق حمزة وسوق ابراهيم، سواء كان ذلك بممارسة شخصية أو بالاستعانة بوكلاء.

كما أن الفاطميين انفسهم قد مارسوا بدورهم، فإن المنصور الفاطمي يصرح بممارسته «التجارة في الحلال الطيب»<sup>(2)</sup>. بنفسه، وربما واصل بعضهم

(1) ابن الصغفر: مير الأئمة. ص 357. وردت في الأصيل «ليجوروا» والأصح «ليجوروا».

(2) الجوزي: سورة الأستاذ جوزر. ص 62.

(3) أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي: الإشارة الى مجلس التجارة. تحقيق: البشري التوريجي. الإسكندرية 1397/1977م. ص 61.

العمل التجاري باللجوء الى الوكلاء، وقد قيل: «إذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا» (1).

ولم يكن عمل المحكام التجاري يمر دون أن يوحى للرعية بأهمية التجارة، فكانوا قدوة للناس، ومن هنا يمكن القول، أنه كان هناك اقبال عليها مما يؤدي الى ازدهارها. كما أن للمحكام دوراً في نمو التجارة يتجلى في محافظتهم على آداب التجارة ورعايتها، وكان الأمر هذا يتم باسناده الى محتسبين، فقد أشار ابن الصغير الى وجود صاحب الشرطة في عهد الامام عبد الوهاب، واليه كانت تسند مهمة رعاية الأسواق وحفظها. — كما سيأتي — قبل ظهور لقب (المحتسب) وكانت نفوسة تلي «انكار المنكر في الأسواق» (2). وكانت وظيفة المحتسب محل عناية الدولة الاسلامية في كل مكان، رستمية كانت أم فاطمية أم زيرية.

ويبدو أن اهتمام الرستميين بالتجارة قد فاق اهتمام سواهم وذلك باقتصارهم على الضرائب الشرعية التي حددها الاسلام، ولم يوح ابن الصغير الى أنهم فرضوا المكوس على التجارة، كما لم تشر المصادر الى أنهم جبوا ضريبة غير شرعية تثقل كاهل الناس، فهذه تؤدي الى ارتفاع الأسعار وضعف القوة الشرائية وكساد الأسواق، في حين أن التخفيف منها يضاعف الانتاج ويرفع مستوى الرخاء فتتسبب الحركة التجارية. ومثل الرستميين في ذلك مثل الأمراء العلويين، الا أن الفاطميين كانوا على عكسهم، فقد فرضوا المكوس وضرائب اضافية — كما سيأتي.

وهنا يذكر ابن خلدون بهذا الخصوص، «إن الاعتداء على أموال الناس يذهب بأمالهم في تحصيلها واكتسابها، وفي هذه الحالة تنقبض ايديهم عن السعي» (3)، وإن إلغاء المكوس عامل بعيد الأثر في تشجيع التجارة الداخلية على الخصوص لأنها — المكوس — تؤدي الى كساد السوق.

(1) أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي: الاشارة الى محاسن التجارة، تحقيق: البشري الشوربجي.

الأسكندرية 1397هـ/1977م. ص 61.

(2) ابن الصغير: سيرة الأئمة. ص 337.

(3) ابن خلدون: المقدمة. ص 286.

3 — عوامل اجتماعية: هناك عوامل تتعلق بالمجتمع نفسه كان لها أثر على الحياة التجارية، فكان هناك تباين اجتماعي يحدده طريقة المعيشة، فهناك سكان المدن وسكان الريف، تختلف منتوجاتهم وحاجاتهم، فنخلق حركة سلعية من هؤلاء الى أولئك، فكان أهل الريف بحاجة الى السلع التي لا يقوون على انتاجها والتي يجدونها في المدينة، ونفس الأمر صحيح بالنسبة الى سكان المدينة فهم بحاجة الى سلع أهل الريف خاصة من المواد الغذائية. وبناء على هذه العلاقة فقد شكلت المدينة مركزاً، فكانت قطباً يجتمع عليه أهل القبائل المحيطة بها لقضاء حاجاتهم، فكانت القبائل تحيط بتاهرت من جميع جهاتها، وكانت تلمسان «متوسطة قبائل المغرب». وربما كان لهذا السبب أن القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت اكتسبت الأموال، واتخذت العبيد والخيول (1).

وفي مجتمع يتميز بالتباين ترداد التجارة حيوية لا تظهر في مجتمع متجانس الفئات، تشكل طبقة واحدة كالمجتمع الريفي، ذلك لأن لأفراد مثل هذا المجتمع إنتاجاً وحاجات متشابهة في أغلب الأحيان، ويبدو وكأن المجتمع الريفي قد اختص بالإنتاج الغذائي في حين اقتص المجتمع المدينة بالانتاج الحرفي.

وإذا كان عامل التخصص هذا يشكل عقبة أمام التجارة بين أبناء الريف أنفسهم، إلا أنه كان عاملاً مشجعاً للتجارة بين الريف والمدينة — كما سلف — وللتجارة بين أفراد مجتمع المدينة أنفسهم، ذلك أن مجتمع المدينة ينقسم الى فئات حرفية متباينة اختصت كل فئة بحرفة معينة، فكان أبناء كل حرفة بحاجة الى ما يبد غيرهم، وهي حاجة متعددة الجوانب.

4 — تنظيم الأسواق: ان تنظيم هذه الأسواق بحيث اختصت بمكان معين وبسلعة معينة — كما سيأتي — يعتبر في ذاته عامل ازدهار للتجارة الداخلية، فهو أمر ييسر للمرء الى عدم الوقوع ضحية التلاعب بالأسعار ذلك أن اجتماع التجار في نفس المكان يسهل على المحتسب أمر مراقبتهم، ويسهل للمرء الانتقال من تاجر الى آخر.

(1) ابن المغيرة: المكان السابق.

5 - الخبرة التجارية: بالإضافة الى التجارة التي يمارسها سكان البلاد الاصليين، فإن تجارة المغرب الأوسط ازدادت نشاطاً وحيوية بمساهمة جماعات أجنبية، عرف عنها الاشتهار بالعمل التجاري والخبرة فيه.

فكانت تقطن تاهرت جماعات أندلسية وهم الذين وصفهم المقدسي بأنهم «يكثرون التجارات والغرب»<sup>(1)</sup>، وكانت تقطن جماعات عراقية بصريون وكوفيون وبغداديون، وقد ذكر ابن الفقيه قول الناس في هؤلاء كناية عن اشتهارهم بالتجارة ان ابعدهم «نجعة في الكسب، بصري وحميري ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حميريّاً»<sup>(2)</sup>.

6 - عنصر الأمن: وهو عنصر هام في غو التجارة، إذ يضمن للتاجر أمنه على ماله وحرية الحركة، وقد كان القرن الثالث الهجري قرن أمن بفضل سياسة امرائه من رستميين وعلويين، إذا استثنينا بعض الفتن التي عاشتها تاهرت<sup>(3)</sup> وحروب كتامة الى جانب الفاطميين ضد الأغالبة وغيرهم.

7 - وهناك عوامل مساعدة في غو التجارة كوجود النقود دناتير ودرامهم واجزائها، ومكايل متنوعة ومقاييس مختلفة ووحدات واجزائها، وهذه تسهل عملية التبادل التجاري - كما سيأتي.

### عراقيل أمام التجارة الداخلية:

هناك عوامل عامة وأخرى خاصة تقف حجرة عثرة أمام سير التجارة الداخلية ومنها:

1 - ازدياد التوفير واعتبار الاقتصاد بخلاً، فكان الناس يسخرون بالتجار لانهم يجمعون ثرواتهم «من الحبات والقراريط والدوانيق وأرباع الدراهم وأنصافها»<sup>(4)</sup>.

(1) المقدسي: احسن القاسم. ص .

(2) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان. ص 51.

(3) ولي حروب أبي حاتم مع عمه يعقوب سابت أحوال البلاد «فقد فطمت السبل وفرغ من أيدي الناس الحرث والنسل وحين عقدوا معاهدة الصلح كان من يتودها ان تأمن الساحلت. ابن الصغور: سورة. ص 361.

(4) البوري عبد العزيز: تاريخ العراق الاقتصادي. ص 120. نقلاً عن الجاحظ.

وربما لهذا السبب كان التجار في درجة أوطأ من الأشراف في السلم الاجتماعي .

2 — تجارة السلطة الحاكمة: إذ أنها يمكن أن تكون عاملاً معرقلاً للتجارة أكثر منه منشطاً، وذلك أن الحاكم بحكم نفوذه وقدرته يمكنه مزاحمة غيره من التجار، ويمكنه فرض تقديم بيع سلعته على سلع غيره، بل أنه يحتكر السوق إلى أن تنفق سلعته. وإن لم يوجد ما يؤيد أن حكام المغرب الأوسط قد مارسوا مثل هذه الأمور إلا أن وجود أسواق تحمل أسماء أصحابها مثل سوق ابن وردة في تاهرت يجعل ذلك أمراً محتملاً.

وكذلك يمكن لحاكم بما أوتي من عظيم رؤوس الأموال<sup>(1)</sup>، أن يزاحم غيره من التجار إلى درجة قد تؤدي ببعضهم إلى الإفلاس وكساد تجارة البعض الآخر، وقد نبه ابن خلدون في مقدمته إلى خطورة تدخل السلطان في موضع التجارة على نحوها، فأفرد بذلك فصلاً عنوانه «في أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة بالجباية»<sup>(2)</sup>، كما يذكر أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي — عاش في القرن 6هـ — نقلاً عن بعض الحكماء قولهم: «إذا شارك السلطان الرعية في متاجرهم هلكوا» وأضاف أن معاملات ذوي الجاه العريض في تضمينهم أملاك الرعية وسلفهم على الغلات منع العامة من البيع والشراء لما يحتاجون إلى بيعه وشراؤه<sup>(3)</sup>.

3 — المكوس والضرائب: وقد يعمل الحاكم على إعاقة نمو التجارة بطريق آخر يتمثل في فرض الضرائب المتنوعة والباهظة، ولئن لم تتوفر صورة تامة عن ضرائب الرستميين، والتي من المرجح أنها لم تخرج عن حد الضرائب الشرعية، إلا إذا كانت هناك علاقة بين قيام أهل الحرف — وهم تجار كذلك — على

---

(1) كان الامام عبد الوهاب من كبار أصحاب رؤوس المال ويظهر في قوله: «لولا أنا ومحمد بن جري وابن زلفين لحرب بيت المسلمين». أنا بالذهب ومحمد بن جري بالحرث وابن زلفين بالأنعام والشماع: السير. ص 205.

(2) ابن خلدون: مقدمة، الفصل الأربعون.

(3) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة إلى محاسن التجارة. ص 61.

الرستميين وبين الضرائب المفروضة، وبينه ابن خلدون الى «العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حيثئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي»<sup>(1)</sup>. ومن جهة ثانية فبما أن المكوس والضرائب تضاف الى الأسعار مما يؤدي الى ارتفاعها، فيقل الطلب على السلع.

4 — الربا: يعتبر تحريم الربا من العراقيل القليلة الالهية التي تواجبه التجارة.<sup>(2)</sup> إذ أن عنصري الانتاج في الاسلام هما: العمل ورأس المال ولا يعتبر هذا العنصر الأخير وحده من عناصر الانتاج، والربا ما هو الا دخل لا يقابل عملاً، وهو اتجار بعنصر الزمن واستغلال لحاجة الفقير، ومن هنا كان تحريمه، ومع هذا التحريم، تثقل حركة رؤوس الأموال، وبالتالي يترك بصمات على العمل التجاري، وان كان تأثيرها بسيطاً ذلك أن الناس في المجتمعات الفقيرة غالباً ما يلجأون الى الربا لسد حاجاتهم المعاشية الضرورية، وبذلك فحين يحل موعد تسديد الربا يجد المدين نفسه عاجزاً، فيعرض لمضاعفة الربا فتزداد حالته المالية سوءاً على سوء.

ومع أن هذا هو أمر الربا الا أن الناس كان في نفوسهم ميل لتعاطيه، بدليل مجتهم في افريقية عن مخرج من تحريمه، وقد حاول ابن الأشج ذلك، كذلك حاول محمد بن ورستد استغلال هذا الموضوع في انجاح دعوته بين قبائل بني ماغوس وبني لماس الروافض — في المغرب الأقصى — فراح يضرب لهم على الأوتار التي تلامي هوى في نفوسهم، فحلل لهم الربا «وزعم أن الربابيع من البيوع»<sup>(3)</sup> — وأن تطرفه الى موضوع الربا يدل على أنه كان ذا أهمية للناس.

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، فصل 43، ص 286.

(2) محمد شوقي الفنجري: الاسلام ومشكلة الفقر. مجلة العربي، الكويت. ع 69، ص 34 — 41 وعن الربا. انظر: الشنقي: كتاب النبل. ج 8. ص 37. مسنون: المنوثة. ج 4. ص 284.

(3) البكري: المغرب، ص 61. كان أهل الذمة يتعاملون بالربا لأنه حرام عليهم ين أنفسهم لكنه ليس حراماً إذا كان مع غيرهم.



5 - اختلاف النقود والمكايل والأوزان: فهناك اختلاف في بعض مكايل وأوزان تاهرت عن تنس وبما أنه اختلاف محدود فإن تأثيره على التجارة يكون محدوداً أيضاً، وربما كان الاختلاف موجوداً في النقود بين دائرة الدولة الرستمية وبين الامارات العلوية وبين المناطق الخاضعة للنقود الأغلبية، أو أنها خارج نفوذهم، بل أن النقود في البلد الواحد تكفي لأن تثير مشاكل في وجه التجارة بما يصيبها من تآكل وتلف، وبطريقة التعامل بها عدداً أو وزناً.

6 - مشاكل الطرق التجارية: وهي مشاكل مشبّعة للعمل للتجاري كتمرض التجار للكوارث في فصل الشتاء من أحوال وسيول، وكذلك اختطاف الطريق، إذ مهما قيل عن انتشار الأمن فإن القضاء على قطاع الطرق مسألة صعبة، سواء أكانوا مجموعة افراد، أو قبيلة، وربما لهذا السبب كان أبو حاتم قد «أخرجهم أبوه في جيش مع وجوه زناتة ليجوروا قوافل قد أقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى قد خافوا من قبائل زناتة»<sup>(1)</sup>.

كما انتشر قطاع الطرق في فترة الحروب التي شهدتها تاهرت بين الامام يعقوب بن أفلح وابن اخيه أبي حاتم، فأضاف ابن الصغير أنه «قد قطعت السبل...» الى أن دخل أبو حاتم تاهرت ثانية حيث «شرد السراق وقطاع الطرق، وأمنت السبل»<sup>(2)</sup>.

كما أن الجماعة التي أرسلها أبو عبد الله الشيعي الى المهدي في سجلماسة قد اعترض طريقها قطاع طرق، فذكر القاضي النعمان أن افراد الجماعة خرجوا حتى إذا كانوا بالقرب من تاهرت اشتر أمرهم وعرفوا ولم يمكنهم النفوذ فأنصرفوا» ولم تكن مواجعتهم هذا الموقف لاسباب سياسية أو مذهبية لأن الذين «قطع عليهم الطريق جماعة من زناتة» وهم الذين خرج أبو حاتم بجيشه لحماية القوافل منهم — كما سلف —. وكان الأمن غاية الناس عامة، فإن أبا عبد الله

(1) ابن الصغير: سورة الائمة. ص 357.

(2) نفس المصدر: ص 361. 363.

الشيخي راح يستغل هذه الرغبة فيعدهم بأن يعمل على أن «يسلك السفير والسيارة بلا خفير ولا سفير من لدن أرض مصر الى أقصى حجر بالمغرب» (1).

### الربح:

أشرنا سابقا الى أن الربح هو الفرق بين سعر الشراء برخص وسعر البيع بالغلاء، وأضاف ابن خلدون «أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم» وحدد طرقا بلجأ اليها التجار لزيادة ربحه، فذكر أنه «أما أن يختزن السلعة ويتحين بها في حوالة الأسواق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه وأما بأن ينقلها الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده التي اشتراها فيها فيعظم ربحه» (2). كما أن الربح القليل إذا تواصل أصبح كثيرا بالاضافة الى عدم كثر المال بل جعله في حركة مستمرة فيأتي بحركته هذه بالربح. وقد كشف الجاحظ سر ثراء بعض الناس فذكر «قبل لبعض المباسير: بم كثر مالك ؟ قال: ما بعث بنسيئة قط ولا رددت ربحا وإن قل، وما وصل إلي درهم الا صرفته في غيرها» (3).

فيظهر أن الخلاف كان قائما حول نسبة الربح الى رأس المال، فيذكر القاضي النعمان أن تجار المشرق كانوا يأخذون ربحا بنسبة 10/1 أو 5/1 من رأس المال، الا أن أبا جعفر بن محمد كره «أن يكون الربح محمولا على رأس المال، فرأى أن يكون محمولا على المتاع» (4)، فيبيع التاجر الثوب مثلا بربح درهم أو درهين، كما أن نجاة ولدت السويسي باشا تذكر أن القاضي سحنون كان «يفدر للسعر مجموع ثمن التكاليف والربح بما يشبه» (5)، لكن ابن خلدون يذكر أن «الربح بالنسبة الى أصل المال يسير» ومنه فإذا كثر رأس المال عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير، ويبدو أن ما ذكره العقباتي كان أقرب الى الواقع، فذكر أن على صاحب السوق أن يجمع وجوه أهل السوق، وأن يحضر

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص 235.

(2) ابن خلدون: مقدمة، ص 394.

(3) الجاحظ: التصريح بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، بيروت 1966، ص 12.

(4) القاضي النعمان: كتاب الدعائم ج 2 ص 47.

(5) باشا ولدت السويسي نجاة: التجارة في المغرب الاسلامي - تونس - 1976. ص 25.

غيرهم استظهارًا على صدقهم فبسألهم عن تكاليف الشراء وثمان البيع، فإن رأى شططا نالهم الى ما فيه خيرهم وخير العامة حتى يرضوا به ثم يعاهدتهم.

وهناك عوامل لها تأثير على الربح وهي المؤثرات التي تؤدي الى ارتفاع الأسعار كالمكوس والمغارم وتكاليف النقل، لانه إذا كان الغلاء قل الطلب وقل معه الربح، كما أن هناك علاقة بين العمران والربح، فيذكر ابن خلدون أنه امتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعًا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستبطلت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة، الا أن هذه المضاعفة يجب أن تقف عند حد معتدل والا رخصت اليد العاملة، فيقلل الصانع من الانفاق على السلع، فتكسد ويحدث التضخم فترخص الأسعار وتقل الأرباح، هذا بالاضافة الى عوامل أخرى تؤثر في الربح. وتعلق بالتاجر نفسه كأماته وخبرته.

### الأسواق:

تقوم الأسواق حيث توجد تجمعات سكانية، فيخصص السكان مكانًا يجتمعون فيه للتبادل التجاري وللتزود بما يحتاجون، ولهذا كان لكل قبيلة أو قبائل متجاورة سوق محلية تجتمع فيه وقد توجد حول كل ماء يقيم حوله الضاربون وفي المحطات التي تقع على الطرق الرئيسية الرابطة بين المدن بالاضافة الى الأسواق التي تقوم حولها المدن أو تقوم هي في المدن فيما بعد.

وان اشتهار بعض النواحي بسلعة معينة أو بعبارة أخرى، وجود فائض في الانتاج، يستدعي اقامة سوق لتصرف تلك السلعة، فيقصدها الناس من قريب أو من بعيد ممن له اهتمام وحاجة الى تلك السلعة.

وكان قيام هذه الأسواق وتطورها يستوجب توفر الأمن، فإن تجار الأندلس لم يتمكنوا من النزول الى تنس الا بعد ما عاهدتهم القبائل الضاربة هناك على حسن الجوار والرعاية والحماية، ومن أجل الغاية نفسها كانت القبيلة تقيم سوقها بين أرباض، حتى تكون في خفية عن عيون الغزاة، وقد تقوم السوق في حصن، فذكر الحموي أن بربر منطقة تنس كانوا يجتمعون الى البحرين

السالف ذكرهم «ويرغبونهم في الانتقال الى قلعة تنس ويسألونهم أن يتخذوها سوقاً ويجعلوها سكنى ووعدهم بالعون وحسن المجاورة فأجابوهم الى ذلك» (1)، بسبب حصانته ومناعته ومن هذا حصن ايزمامة — قرب هاز — ذكر البكرى بخصوصه أنه «حصن له سوق» وحصن تامغيت — على مرحلتين شرق تاهرت — وهو حصن له ربيض وسوق» (2).

وكانت الأسواق تقوم أحياناً في نطاق دائرة أمر يكون قادراً على توفير الأمن والحماية، هي غالباً مقابل امتيازات له، وغالباً ما يحمل السوق اسم ذلك الأمير، ومن هذا: سوق حمزة وسوق ابراهيم وسوق يوسف، وسوق ماكس — على وادي شلف — وغيرها، وقد جرت العادة في مثل هذه الأسواق أن يكون لتجارة الأمير حق الأولوية، كما تقرر له أرباح على شكل اتاوات وعشر مقابل ما يوفره من الحماية والأمن.

وبسبب هذه الامتيازات، كانت القبيلة التي تقع السوق في حوزتها، تبذل كل ما في وسعها لتحقيق الأمن وحفظه، وتأمين سلامة التجار، وفي نفس الوقت، كان على القبائل الأخرى القرية والتي تتعامل مع سوق هذه القبيلة أو تلك أن تحافظ على علاقة السلم وحسن الجوار لتأمين استمرار تجارتها، لأن غير هذا أي تمكيد الجو يعني حرمانها من مزاوله نشاطها التجاري في تلك السوق، وربما تحت هذا الغطاء انقادت قبائل صنهاجية وزناتية معاً لأمرأ أجنب عنها علويين ورستميين.

وبما أن هذه الأسواق تمثل المركز الاقتصادي للمدينة أو للمنطقة، فقد كان يتردد عليها مختلف الناس ممن له غاية تجارية أو ليس له، للكسب والشراء حتي كان غشيان السوق والأنجار فيه مترادفان، ومن هؤلاء الصنائع والعمال والأحرار والعبيد والدلالون والحمالون وغيرهم.

---

(1) الحموي: معجم البلدان. ج 2. ص 48. كان البرج أو الحصن المنيع الذي يحس من هجمات العدو ويستب فيه الأمن ويصلح مقراً للتجارة للبيع والشراء في هدوء، ولحل المنازعات، كان قلعة عسكرية وسوقاً تجارية وحكمة قضائية والتفت المدينة حول السوق وهذا في أوربية.

(2) البكري: المغرب ص 143.

على أن وظيفة السوق لا تقتصر على العمل التجاري فحسب، بل لها وظائف أخرى اجتماعية وثقافية وتربوية وغيرها، فيذكر الإدريسي أن سوق ريفعة «يبيع بها ويشترى ويقضى منها حوائج أخرى»، وهذه العبارة الأخيرة «يقضى منها حوائج أخرى» يمكن أن نجد لها تفسيراً من خلال أمثلة وردت بخصوص أسواق أخرى في افريقية وغيرها تنطبق على عامة أسواق بلاد المغرب، بسبب التشابه الكامل بين مجتمع هذه البلاد وغيرها من بلاد المغرب الأوسط.

ومن هذا، فإن الخشني يذكر أن سليمان بن عمران طلب من غلامه أن يذهب إلى صاحب سوق الجمال وأن يطلب منه أن يبعث له بأربعة جمال «حتى اطوف عليها رجالاً شهدوا عندي زوراً»<sup>(1)</sup>، ويقع الطواف هذا في الأسواق فإن الزركشي يذكر بخصوص جماعة أن «سبقت رؤوسهم إلى تونس فطيف بها على أطراف الرماح في الأسواق في يوم الخميس» ثم أضاف... «ثم رفع رأسه إلى تونس وطيف به على عصا في الأسواق والسفهاء يضحكون والنساء يولولن»<sup>(2)</sup>، ومن هذا نلاحظ أن السوق كانت ميداناً للتشهير.

كما أن المراكشي ينقل قول ابن عمار — ت 479 هـ — 1086 م —: «أصبحت في السوق ينادى على رأسي بأنواع من المال»<sup>(3)</sup> ومن هذا البيت يستدل أن السوق كانت ملجأً للفارين، وميداناً للبحث عنهم، بغض النظر عن سبب الفرار، وهناك وظيفة أخرى نلاحظها فيما ذكره ابن حيان فقد أشار إلى مناداة وقعت بعد صلاة الجمعة على رأس ابن عمر المختال الحاجب سنة 360 هـ/970 م والمناادي يهتف عليه. «أيها الناس رحمكم الله هذا أحمد بن عمر... اللص الفاسق المستهلك لأموال المسلمين... فأعرفوه واجتنبوه وتحفظوا منه» وأضاف أن المناادي جال «عليه يومين تباعا في السوق... الكبرى على أصحاب الصناعات وطبقات التجار»<sup>(4)</sup> محذراً ومنبهاً، وهذه لا شك كانت سنة متبعة في جميع أسواق الديار الإسلامية.

(1) الخشني. قضاة قرطبة وعلماء الريفية. مدريد 1914 م/238.

(2) الزركشي: تاريخ التولعين الموحدة والمقصية. تونس 1966. ص 48، 49.

(3) نفس المصدر، ص 123.

(4) ابن حيان: المقنيس من أنباء أهل الأندلس. ط بيروت. ص 19، 20.

ويظهر أن للسوق كذلك وظيفة ثقافية، فقد جرت مناظرة بين أبي عمران الفاسي وقهاء القيروان حول مسألة الكفار: هل يعرفون الله تعالى أولاً وعظمت حتى كثر الجدل بها في الأسواق<sup>(1)</sup>، فهذا يعني أن الناس كانوا يتجادلون ويتناظرون كذلك في الأسواق، وفي هذا غاية ثقافية.

أما الدرجيني فيشير إلى وظيفة أخرى للسوق فذكر صبيًا يتيمًا جاء أبا معروف بدران بن جواد كالمستغيث فقال له: يا عمي رأيت سيف أبي في يدي دلال في السوق ليبعه وإنما ناوله إياه بعل اختي وحقي في السيف ياق، فاستحضر أبو معروف الدلال فقال له: اشهر نصيب الابنة دون نصيب أخيها<sup>(2)</sup>، ومن هذا يتبين أن للسوق وظيفة تتمثل في أنه ميدان لبيع كل سلعة كيفما كانت وسيلة الحصول عليها، فهناك تباع أيضًا اللقط والمسروقات وغيرها، كما وفي السوق أيضًا يمكن البحث عن مثل تلك اللقط والمسروقات والمثور عليها.

وبالجملة فإن السوق تؤدي وظائف متعددة خاصة الكبيرة منها ففيها نفع المتافرة والغدر، وظفر بالثأر، وتأديب سفيه وإغاثة ضعيف، ووعظ وارشاد، وننافس الشعراء وربما ترويح بنات، ودعوة إلى مذهب والمثور على مفلود إلى غير ذلك<sup>(3)</sup>.

ويمكن أن ننصور الباعة في الأسواق وهم يندفعون بأصواتهم العالية يصفون جودة سلعهم ويغرون المارة ويظهر هذا فيما ذكره القاضي عياض بخصوص أحمد بن مصرف الأزدي فكان هذا الأخير «إذا سمع الباعة يصيحون على سلعهم، ويصفونها بغاية الجودة يقول لمن معه: لا تقبلوا منهم فإن أكثر ما يقولون كذب»<sup>(4)</sup>.

(1) فتوح عبد الله: التبرع المغربي. تطوان. المطبعة المهدية. بدون تاريخ. ص 392.

(2) الدرجيني: طبقات. ج 2. ص 326.

(3) سعيد الأنصاري: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام. دار الفكر - بيروت. 1334 هـ الموافق ل 1974 م. ص 293.

(4) القاضي عياض: نزهة المدارك. ج 3، ص 432.

ويستطيع المتجول في السوق أن يلاحظ فنون التجارة وما يرتبط بها بالمساومة، فقد كانت هذه من عادات الأسواق، فكان واصل اللخمي — ت 252 هـ في القيروان — يتجر في حانوت بما يوزن ويكال، فجاءته امرأة «فساومته في شيء»<sup>(1)</sup> ويلاحظ المتجول الدلالين والسامرة والأعيهم وتجمع الناس حولهم.

ويدو أن بعض الحوانيت كانت تظل مفتوحة الأبواب طول النهار، فذكر الخشنى أن السوفي «قد أخرج في كفه من بيته خبزًا يتغداه في حانوته في داخل النهار»<sup>(2)</sup> وربما أقام مثله بعض التجار الذين يعرضون سلعهم في ساحات الأسواق.

وقد كانت للأسواق آداب عامة يلتزم بها أهل السوق والا تدخل المحتسب في الأمر، من ذلك: «أن من بدر إلى موضع من السوق فهو له يومه إلى العشي» أو كما نقل القاضي النعمان عن علي بن أبي طالب. «سوق المسلمين كمسجدهم الرجل احق بمكانه حتى يقوم منه أو تنيب الشمس»<sup>(3)</sup>.

ومن الآداب كذلك النهي عن سوم الرجل على سوم أخيه إذا ركن البائع إلى البيع وإن لم يعقده، والا فلا بأس بالمساومة والمزايدة على السلع، كما لا يجوز «تلقي الركبان» ويقصد بهذه العبارة هو قدوم قافلة والتقاء بعض التجار بها خارج المدينة فيخبرون بكساد متاعهم ليشتروه منهم رخيصًا.

وعلى أهل السوق أن يحافظوا على نظافة أسواقهم، فلا يسمح لهم «بطرح الكناساة على جواز الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى من التزلق والسقوط وكذا إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة... وكذا ترك مياه المطر والأوحال في الطرق من غير كسح» وفي

(1) نفسه: تراجم. ص 166.

(2) الخشنى: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية. ص 152.

(3) القاضي النعمان: كتاب دعائم الإسلام. ج 2 ص 16.

الطرقات الضيقة «فلا يجوز لأحد من السوق الجلوس فيها ولا اخراج مصطبة دكانه»<sup>(1)</sup> وغير ذلك من الآداب المبثوثة في كتب الحسبة.

وكانت الأسواق موجودة في كل مدينة وقرية عظم قدرها أو صغر، وقد أشار المقدسي الى أسواق تاهرت فقال: بأن تاهرت بلد «رشيح الأسواق» وقال العزيزي فيها: «وهي ذات أسواق عامرة» وهو نفس الوصف الذي ذكره البكري نقلاً عن محمد بن يوسف الوراق، فذكر: «بتاهرت أسواق عامرة» ويبدو أن ابن عذاري تأثر به أو بغيره من سابقه فذكر أنه كان لتيهرت الحديثة «أسواق كثيرة عامرة» أما ابن حوقل فقد عبّر عن أسواق تاهرت بقوله أن «التجار والتجارة بالحدثة أكثر» كما وصفها الإدريسي — وربما متأثراً بمن سبقه — بأنه كان لها «تجارات وبضائع وأسواق عامرة»<sup>(2)</sup>.

وهكذا كانت المدينة في بلاد المغرب الأوسط تشتمل على عدة أسواق، فمدينة تلمسان، لفتت أسواقها نظر محمد بن يوسف الوراق فنقل عنه البكري أنها «قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق» ويصف الإدريسي مدينة وهران فيذكر أن «بها سوقاً مقدرة وتجاراً نافقة» ومثلها كانت مدينة تنس فذكر البكري أنها كان بها «أسواق كثيرة» ونفس الأمر بالنسبة لجزائر بني مزغنة إذ كان فيها أسواق كثيرة<sup>(3)</sup>.

الا أن هناك بعض المدن كان يوجد بها سوق واحدة، فمدينة تاجنة «فيها سوق» وبنو واريغن «بها حوانيت» ومدينة الخضراء «فيها سوق» وسوقها يجتمع

(1) ابن الأثير: معالم القرية في أحكام الحسبة، كمبرج، 1938م. ص 67، 79، 78.

(2) ابن الصغير: سورة الائمة، ص 350، المقدسي، احسن التقاسيم، ص 228، الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، ص 111، البكري، المغرب، ص 68، ابن عذاري، البيان ج 1، ص 25، ابن حوقل، صورة، ص 86. الإدريسي، نزهة، ص 87، وصف العقول تاهرت «عراق المغرب» ووصف الحجاري الأندلس «عراق المغرب» كما وصفها أبو علي الحسن بن الربيع أنها «مقصد كل طرفة ومورد كل تحفة...» أن بادت التجارة غالبها تجلب وأن كسدت بضاعة ففيها تنفق «المغري». نفح الطيب ج 3. ص 155. 156. فهل ينطبق هذا الوصف على تاهرت ؟.

(3) ابن حوقل: المصدر السابق. ص 78. البكري: المغرب. ص 61، 76. مؤلف مجهول: كتب الاستبصار. ص 133.



اليها اهل تلك الناحية» ومدينة «سوق ابراهيم» التي وصفها اليعقوبي بأنها «المدينة المشهورة، ومدينة أفكان — فكّان — كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة فمعدّها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، ومدينة الغزة «فيها سوق» ونفس الأمر بالنسبة لمدينة بني واطيل اذ «فيها سوق عامرة» ومدينة أسلن «فيها جامع وسوق» ومدينة ترنانا «لها سوق عامرة»<sup>(1)</sup>.

كذلك مدينة المسيلة، فذكر البكري «للمدينة أسواق وحمامات»، أما سوق حمزة فإن اسمها يعني عن كل بيان. ومدينة اشير ذكر ابن حوقل أن «لها... أسواقا» وكذلك مدينة مليانة فكان لها «سوق جامعة» وذكر البكري في اطار تاهرت «سوق ابن حيلة» وعلى الطريق بين اشير وسوق كرام تقع «قرية تسمى «سوق هواره» وسوق كرام هذه تقع على نهر شلف، وكذلك دار ملول وهي «دار عامرة وأسواقها قائمة»<sup>(2)</sup>. وكذلك حصن تامغيلت وسوق ماكسن السالف ذكرهما. وأما مدينة الغدير ففيها «جامع وأسواق عامرة» وكزناية — مرحلة عن مليانة على نهر شلف — «له سوق يوم الجمعة يقصدها بشر كثير» ومدينة جراوة لعزروا وهي سوق عبيدون بن سنان الازداجي «ومدينة ريفة» «لها سوق صالح»<sup>(3)</sup>.

ومن الملاحظ أن الرحالة كانوا يشيرون الى وجود سوق واحد أو عدة أسواق، وهم بهذا يعبرون عن اتساع البلد وأهميته، لكن المدن لا تنال أهميتها بعدد سكانها، فقد تنال قرية اصغر من غيرها أهمية أكبر بسبب موقعها، كما أن ما ذكره الرحالة لا يعني الحصر، فلا بد من وجود أسواق لم يرد لها ذكر في مؤلفاتهم.

(1) ابن حوقل: صورة الأرض. ص 89. البكري: المصدر السابق، ص 69، 79، 80 الأدرسي، نزهة، ص 80، 83.

(2) البكري: المصدر السابق، ص 59، 69، 60. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 89. وربما كانت دار ملول هي سوق عند الأدرسي.

(3) ابن حوقل: المصدر السابق، ص 89، ذكر الأدرسي «لها سوق صالحة» وربما يدل عبارته هذه على تأثره بابن حوقل.

ويلاحظ من جهة ثانية أن بعض هذه الأسواق كان يعرف باسم اليوم الذي تدب فيه الحركة والنشاط ويؤمه الناس، ومن هنا ذكر الادريسي على الطريق الرابط بين بجاية وقلعة بني حماد «سوق الأحد»<sup>(1)</sup> ويشير المقدسي والفاضي عياض وجود «سوق الأحد» في القيروان، فمن المرجح أن له نظيراً في تاهرت وغيرها من كبريات المدن، كما يشير الادريسي الى وجود «سوق الاثنين»<sup>(2)</sup> على طريق بجاية القلعة — السالفة الذكر — ويضيف أن هذا السوق كان محروساً فيه رجال يحرسونه مع سائر اهله، وكان أيضاً «سوق السبت».

ويبدو أن مثل هذه الأسواق كانت تعقد في يوم معلوم من الأسبوع، ويهجرها تجارها وزوارها في أيام الأسبوع الأخرى، ففيد الحموي بخصوص أكر سيف — أكر سيف — أنها كان «لها سوق في كل يوم خميس يجتمع له من حولها من القرى»<sup>(3)</sup> ونفس الأمر يذكره الادريسي بخصوص قصر أبي موسى — في المغرب الأقصى — ففي شماله «سوق يقصد إليها في يوم كل خميس يجتمع إليه جميع قبائل بني مكناس» وربما كان هذا نفس الحال بالنسبة الى سوق الخميس اللذين ذكرهما الادريسي، على طريق بجاية — القلعة في بلاد المغرب الأوسط، ونظراً لوجود سوق الخميس «في القيروان — حسب المقدسي — والمقارنة بها فمن المرجح كذلك أن يكون موجوداً — سوق الخميس في تاهرت وغيرها.

وان العبارة التي وردت عند الادريسي بخصوص كرناية — السالفة الذكر — تفيد أنه كان «له سوق يوم الجمعة بقصدها بشر كثير» وربما لم يقتصر الأمر عليها وان أغفل المؤرخون والرحالة ذكرها، وليس من المحتمل أن يكون عدد أسواق يوم الجمعة قد تناقص في العهد الفاطمي، بناء على اشارة وردت عند المقدسي بخصوص مصر الفاطمية تفيد أنه كانت «تخلو اسواقهم أيام الجمعة»<sup>(4)</sup> فكأن هذه العبارة تعبر عن نظام فاطمي، من المستبعد أن يؤثر في عادة اجتماعية عند سكان بلاد المغرب وهي اقامة سوق يوم الجمعة.

(1) الادريسي: نزهة ص 92.

(2) نفس المصدر: ص 93.

(3) الحموي: معجم ج 1 ص 316.

(4) المقدسي: احسن التقاسيم ص 205.

ويبدو أن هذه الأسواق تتعلق بتجار معينين، يخصصون يوماً معلوماً لكل منطقة معلومة، فإذا أقاموا سوقهم في هذه المنطقة اليوم، أقاموه غداً في منطقة أخرى وهكذا على مدار الأسبوع. وإن لم يشر الرحالة الى هذه الفكرة، فذكر الادريسي سوق بني زندوي — زندوي — على طريق فسطاطية — بجاية — وهي سوق لها يوم في الجمعة وأهل تلك الناحية يقصدونها في ذلك اليوم «وحين نعرض الادريسي نفسه الى مدينة غزة» ذكر «فيها سوق مشهورة لها يوم معلوم» ونفس الأمر بالنسبة الى مازونة إذ لسوقها يوم معلوم، يجتمع اليها اصناف من البربر، وكذلك أشير «لها سوق يوم معروف يجلب اليها كل لطيفة ويبيع به كل طريفة»<sup>(1)</sup>. وربما كانت هذه الأسواق تتوزع على جميع أيام الأسبوع، فكان هناك سوق السبت وسوق الثلاثاء وسوق الاربعاء الى جانب أسواق الأيام التي سبق ذكرها، وهذه الميزة تسمح للتجار بأن يواصلوا عملهم التجاري وتسمح للناس بحرية الحصول على ما يحتاجون في أي يوم، فعلى وادي درعه — في المغرب الأقصى — «سوق في كل يوم من أيام الجمعة في مواضع مختلفة منه معلومة وربما كان في اليوم الواحد سوقان»<sup>(2)</sup>. وكذلك كان في غافق — في افريقية — «أسواق على أيام الجمعة» فإذا كان هذا في افريقية والمغرب الأقصى، فما يمتنع وجوده في المغرب الأوسط ؟ وإذا كانت هذه أسواق اسبوعية اقصد يوماً في الأسبوع — فكانت هناك أسواق أخرى دائمة، تقوم في كل يوم، فذكر الادريسي أن حصن تآكلات — على طريق بجاية — القلعة «به سوق دائمة»<sup>(3)</sup>.

ويشير البكري الى وجود سوق «يجتمع فيه البربر وقتاً ما في السنة يتسوقون» — وهو موضع مدينة سجلماسة — ، ومن المستبعد أن نحدد كلمة «وقتاً» يوماً أو بأسبوع، والأرجح أنها تدل على مدة أطول. وبما جعلنا نميل الى هذا الترجيح ربطه الكلمة «وقتاً» بالسنة، ثم ذكره كلمة يتسوقون، فإن ذكرها

(1) الادريسي: نزهة. ص 85.

(2) البكري: المغرب. ص 152.

(3) الادريسي: المصدر السابق. ص 92. حين فشل سعدون الصواف — في القروان — في شراء دابة من موقف الدواب غداً الى الموقف اليوم الثاني «أبهر العرب: طبقات علماء افريقية ونونس. تونس 1968م ص 73.

يعني أنهم كانوا يردون السوق لشراء ما يلزمهم لعامهم في موسمهم ذلك، كأن يشتروا حبوبهم ونحوها، كما أن الانتاج الموسمي يتطلب سوقاً مرتبطة به، كذلك ما ذكره ابن عذاري بخصوص موضع أسبلا، حيث أشار الى أنه كانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة في رمضان وفي العواشر وفي عاشوراء<sup>(1)</sup>، وقد فسرت «ولدت السويسي نجاة كلمة «العواشر» بأنها يوم عيد الأضحى، والأرجح أنها العشرة أيام التي تلي يوم العيد، وخلاصة القول أنه يصح أن نطلق على مثل هذه الأسواق «أسواق المناسبات والمواسم» أو هي «المعارض» في وقتنا الحاضر.

وكانت هذه الأسواق بصفة عامة تحمل أسماء بحسب ما تنسب اليه، فتحمل اسم صاحبها أو مؤسسها والقائم بأمرها مثل سوق حمزة وسوق ابراهيم وسوق عبيدون بن سنان الازداجي وسوق ابن حيلة وسوق ابن مبلول وسوق كرام، وسوق يوسف وسوق ابن خلف — على طريق باغاية — المسيلة — وسوق ابن وردة.

وربما تنسب الأسواق الى القبيلة أو القوم مثل سوق هواره — على طريق أشير سوق كرام — وسوق بني زندوي وفي عبارة ابن الصغير. «مسجد القرويين ورحبتهم تدل على نسبة الرحبة — السوق الى أهله من القرويين، ونفس الشأن بالنسبة للجماعات الأخرى كالكوفيين والبصريين، وربما كانت هناك أسواق أخرى تنسب الى قبائلها لم ترد عند الرحالة.

وقد أشرنا سابقا الى أنها قد تنسب الى اليوم الذي تقوم فيه — أو قد تنسب الى الجماعة الدينية التي تتعامل معها فتخصص بها فظهرت أسواق تحمل اسم «سوق المسلمين»<sup>(2)</sup>، وسوق اليهود»<sup>(3)</sup>.

وقد تنسب — الأسواق — الى فئة اجتماعية معينة، فكان هناك «أسواق العسكر» كما قد تنسب الى المكان الذي تقوم فيه، فيقال «سوق دار الامارة»

(1) ابن عذاري: البيان، ج 1. ص 232.

(2) القاضي النعمان: دعائم الاسلام. ج 2. ص 16.

(3) القاضي عياض: تراجم اغلبية. ص 359.

وقد تنسب الى السلعة التي تباع فيها وتعرف بها فيقال «سوق الجمال» و«سوق الصوافين» و«سوق الغزل» الى آخره.

وليس هناك دلائل ثابتة تتعلق بابتداء تنظيم الأسواق في بلاد المغرب الأوسط، فإذا كان ابن الرقيق القيرواني قد ذكر أن يزيد بن حاتم قدم افربقية حيث «رتب القيروان في أسواقها، وأقام كل صناعة في مكانها»<sup>(1)</sup>، فهذا يعني أن بلاد المغرب الاسلامي لم تكن عرفت تنظيم الأسواق حتى ذلك الوقت، وبالتالي، فإن المسألة بالنسبة للمغرب الأوسط احد أمرين: اما أن نكون انتقلت عدوى هذا التنظيم الى باقي نواحي البلاد وهذا يحتاج الى سنوات لكي يظهر تأثيره في أسواق ناهرت، ومنه فربما كان ابتداء التنظيم مع حلول القرن الثالث الهجري، وأما أن يكون الرمنسيون والأمراء العلويون قد احدثوا في مناطق تقودهم ما احدثه يزيد، باعتبار أن جميعهم مشاركة تأثروا بنفس الحضارة، ومنه فحين حل القرن الثالث الهجري، كانت الأسواق منظمة.

وبدخل في سياق هذا التنظيم موضوع التخصص. فكان كل سوق يختص بسلعة معينة — كما سلف — وهي مسألة على غاية الأهمية بالنسبة للناس والتجار وللمحتسب كما سبق. كما يدخل في اطار التنظيم موضوع اخراج بعض الأسواق من داخل المدينة الى خارجها، كذلك الأسواق التي تنطلق منها أصوات مزعجة كأسواق الحدادين، أو تنطلق منها روائح كريهة كأسواق الدباغين. أو أوساخ وقاذورات مثل أسواق الحيوانات والتبن والحلفاء وما شابه ذلك.

وكان من بين الأسواق المتعددة في المدينة «سوق الرقيق» ولا يوجد وصف لمثل هذه السوق في بلاد المغرب الا أن آدم متر يشير الى وصف لها في مكان آخر فيذكر أنها «سوق مربعة فيها طرق منشعية وفيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق، وكان يبيع الرقيق الجيد في السوق العام بمثابة عقوبة نخط من قدره والأولى أن يباع في منزل خاص أو بواسطة تاجر كبير، وكان تجار الرقيق موضع تشنيع»<sup>(2)</sup>.

(1) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب. تونس 1968، ص 149. السلاوي: الاستقصاء.

(2) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. القاهرة 1940. ج 1. ص 284.

سوق أخرى هي سوق النحاسين، فذكر القاضي عياض أن ابن أبي طالب — قاض القيروان — أتى برجل «إلى سوق النحاسين فأشترى له زوج بقر وقطعة غنم» (1)، كما ذكر نفسه «نحاسي البغال» مما يفيد أن النحاس متخصص بتجارة الحيوانات، ربما كان يعرف هذا السوق أيضًا باسم «موقف اللواب» الذي أورد ابن الصغير ذكره في تاهرت.

وذكر ابن الصغير كلمة «الرهانة» فقال: «أن لي في الرهانة دكانًا أبيع فيه واشترى» (2)، إلا أن هناك عبارات وردت عند غيره تساعد على كشف اختصاص هذه السوق فيذكر المقدسي: «وأما الأشياء التي يختلف فيها أهل الأقاليم مثل... البزازين الكرايسيين الرهانة» (3)؛ وهو يقصد أن هذه الأسماء مترادفة أي أن الرهانة هم البزازون، وقد أزال الزركشي كل شك حول أن الرهانة سوق فذكر: «... يجبي سوق الرهانة كان قدره... إذ كان كل من اشترى شيئاً من أنواع الأمتعة واللباس» (4)، ومما يؤيد هذا القول ما ذكره القاضي عياض «حكى أن رجلاً من الرهانة بينما هو جالس في دكانه هرعته إليه امرأة فقالت له: «بيع هذا الثاع وهو جبة وشي وطيلسان ونعل طائفي وقلنسوة» (5).

وعلى الجملة، فقد كانت الأسواق متعددة ومتنوعة مثل: أسواق الزيادين والدقافين والصيارفة والصيدلة والحدادين والصيافة والطرازين والسماكين والأبزازين والقصايين والبقالين والفاكهانيين، والريحانيين والجزاريين والخياريين والعطارين والأساكفة والدباغين والنجارين والحشابين والقطانين

(1) القاضي عياض: تراجم. ص 216. وانظر. ص 13.

(2) ابن الصغير: سيرة الأئمة. ص 354.

(3) المقدسي احسن التقاسيم. ص 30.

(4) الزركشي: تاريخ الدولتين. ص 116.

(5) القاضي عياض: ترتيب المذرك. ج 3. ص 202. ذكرها طالبي محمد في تراجم أغلبية «ان المرأة قالت له: بم هذا المتاع؟» تراجم. ص 218. وحاول Gill أن يبرهن أن الرهانة تجار يهود. انظر:

Moshe Gill: The Radhanite-merchants...J.E.S.H.O. Vol.XVII.PP.299-723.

والحلاجين والحذائين وسوق الغزل وسوق الدجاج وسوق القناديل<sup>(1)</sup>، وسوق القشاشين<sup>(2)</sup>، وسوق العزافين وغيرها.

### التجار:

يعرف اخوان الصفاء هؤلاء التجار في أنهم الذين يتبايعون بالأخذ والعطاء وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطونه<sup>(3)</sup>، وكانت متاجرهم تتم في بداية الأمر بالمقايضة أي مبادلة سلعة بسلعة، ثم استخدمت سلعة ثالثة تستعمل كوحدة للتعامل التجاري كالجمل عند العرب والبربر إلا أنها طريقة لا تسمح بإجراء تبادل تجاري بسيط فاستعملت النقود كوحدة تقييم، وقد حلت هذه الطريقة صعوبات عديدة أمام التبادل التجاري خاصة بفضل الأجزاء الصغيرة التي استعملت، وهذه الأساليب كانت متبعة في أرياف بلاد المغرب الأوسط ومدنه.

ويمكن أن نصنف التجار الى صنفين: تجار مستقرون وهم الذين يملكون حوانيت ثابتة يبيعون فيها سلعهم، أو يأخذون أماكنهم في السوق فيلزمونها الى المساء ليعودوا في غدهم، في نفس الوقت هناك تجار متجولون ويعتبرون الأبناء الحقيقيين للتجار، فهم يتحدثون مخاطر الطرق ويمضون عبر القرى والمدامر حاملين بضائعهم فوق رحالهم أو على ظهورهم، ثم ينشرونها في نهاية المطاف على حصائر ونحوها، ثم يلجأون الى المناادة ونشر الدعاية لها، وغالبا ما ينتهي الأمر بالمقايضة<sup>(2)</sup>. وإذا اغتنى هؤلاء التجار استعملوا الخيول وتطورت تجارتهم، فكان يطلق عليهم في الغالب «ذوو الأرجل المغيرة».

(1) كان يباع في هذا السوق «الأدوات المصنوعة من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقايض السكاكين».

انظر: ناصر خسرو: رحلة ناصر خسرو. ترجمة يحيى الخشاب — بيروت سنة 1970م. ص 103.

(2) تباع فيه الأشياء القديمة أو ما يدعى اليوم الخردة انظر. الزركشي: تاريخ الدوليين ص 177.

(3) اخوان الصفا: رسائل اخوان الصفا. بيروت 1376هـ/1957م. ج 1. ص 285.

(3) يبدو أن بعض التجار المتجولون بين المدينة والريف كانوا يهودا، فإن أبا الحسن علي بن يوسف يذكر

أن اليهود كانوا يعملون في المهاره وهي نقل البضائع والسلع بين الريف والمدينة. انظر: أبو الحسن

علي بن يوسف: الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة. تحقيق حسين مؤنس — مدريد سنة 1960م.

وكان هؤلاء التجار — المتجولون — يتعرضون الى مضاربات من كبار التجار، وهنا يتراجمون فيلجأون الى بيع البضائع ذوات القيم الضئيلة التي لا تلفت نظر كبار التجار، فهم غالبا من الأشخاص الذين لا يملكون أرضا يفتنون بخيراتها بل هم من ذوي الوجوه البائسة الذين اتخذوا التجارة مورداً للحصول على لقمة عيشهم وحماية انفسهم من الفقر.

أما كبار التجار فهؤلاء سوقهم الدولة وكبار الموظفين والأغنياء، وسلعهم كل ما ندر وغلا، ولهذا فهم يحققون ارباحاً طائلة، وتجارتهم غالبا خارجية، لا أنها — تجارتهم — تعتمد على الأجواء السياسية، وعلى الجاه الذي يتمتع به التاجر مما يفسح أمامه مجالاً واسعاً، لكنها إذا اكفهرت واطلمت نزلت به الى الخضيض، كأن يتعرض الى مصادرة أمواله من طرف السلطة الحاكمة أو نكبة بسبب حرب ونحو ذلك، وقد مارس الفاطميون المصادرة.

ويختلف التجار عن بعضهم البعض في أخلاقهم، فإذا كان من صفات بعضهم «المماحكة والغش والخلاية وتعاهد الايمان الكاذبة على الاثمان ردّاً وقبولاً فأجدر بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة ولذلك تجد أهل الرئاسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة»<sup>(1)</sup>، الا أن هناك من يتعالى على هذه الأخلاق لشرف نفسه وعظمة جاهه، فهؤلاء عادة ينالون احترام الناس كرجال الدين الذين مارسوا التجارة، فهؤلاء نظراً لروحهم الدينية وتقواهم تجعلهم محل ثقة الناس واقبالهم عليهم لاطمئنانهم اليهم، فذكر الدرجيني أن أبا معروف بن جواد — من رجال الطبقة السادسة — كان تاجراً جالساً في دكان وكان إذا وزن لآحد من الناس زاده من نفسه خروبة وإذا أراد أن يأخذ لنفسه من أحد نقص خروبه فلما حضرته الوفاة أوصى بعشرين ديناراً احتياطاً من تباعة الميزان»<sup>(2)</sup>.

.../...

وبعث عمر بن زيري «مع رجل من بني باجرين حمل ثمر الى أهل البوادي لبيعه فهم وفيها تمرات حوليات. فلما قدم بما أصاب بنك الثمار من الصوف وغيرها...» وهذا تأكيد على استعمال المقايضة. انظر: أبو الربيع الوسياني: سيرة مشايخ المغرب. تحقيق وتعليق: اسماعيل العربي. ديوان المطبوعات الجامعية — الجزائر. 1985م. ص 32.

(1) ابن خلدون: المقدمة. ص 396.

(2) الدرجيني: طبقات ج 2. ص 328. وجاء في النص «دكان ذابة ايما وزن».



ذلك أن من شروط التجارة الاسلامية أن يكون التاجر تقياً وصدوقاً، فقد قال <sup>عليه السلام</sup> «ان التاجر يبعثون يوم القيامة فجاراً الا من اتقى الله وبر وصدق» (1) وقال. «يا معشر التجار اياكم والكذب» (2).

يرى ابن خلدون أن صفات التاجر الناجح أن يكون «جريئاً على الخصومة بصيراً بالحسبان شديد للمماحكة مقدماً على الحكم... لا بد له من جاه يدرك به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من معاملته (3)، ويضيف ابن الاخوة أن على التاجر تعلم النقد لئلا يعطي للناس زائفاً وهو لا يدري فيكون آمناً.

### أصناف التجار:

— التاجر الخزان: يشتري السلعة في موسمها، إذ هي في هذا الوقت تكون وفيرة، ويكثر العرض، ثم يحتفظ بها منتظراً تغير الأسعار بندرة السلعة ووفرة الطالين، فيستفيد من هذا التغير، ولكي يكون ناجحاً في عمله هذا عليه أن يكون عالماً بأحوال البضائع وأماكن توفرها وأسعارها وكل ما يتعلق بها، فيبادر الى بيعها إذا تنبأ بانخفاض سعرها.

— التاجر الركاض: وهو التاجر الذي يتقل من بلد الى بلد ومن مدينة الى مدينة بحثاً عن سلع للمتاجرة بها، كأن يسافر تاجر من جزائر بني مزغنة الى بسكرة لشراء التمر، على التاجر هذا أن يكون بصيراً يقظاً، فقد تتعذر عليه العودة الى مكانه لأسباب طبيعية خارجة عن ارادته، فعليه أن يحتاط لنفسه فلا يشتري سلعةً بكامل مبلغه مثلاً، وعليه أن يكون عالماً بأسعار السلع في مدينته والمدينة التي سافر اليها.

— التاجر المجهز: يتخذ هذا التاجر وكيلاً له في مدينة أخرى — أو بلد آخر — يجهز اليه السلع، ثم يتولى الوكيل، — أو القابض — بيعها وشراء

(1) زبدان عبد الباقي: العمل والعمال والمهن في الاسلام. مطبعة السعادة. القاهرة سنة 1398 هـ 1978 م.

ص 67. رواء الترمذي.

(2) نفس المرجع: رواء الطبراني.

(3) ابن خلدون: المقدمة. ص 395.

سلع أخرى يقوم بتصديرها إلى التاجر المجهز، ومن خلال عملها يلاحظ أنه لا بد أن يكون الوكيل أمينًا ومحل ثقة المجهز وذا خبرة بالفن التجاري<sup>(1)</sup>.

والتاجر الكبير يعمد إلى توفير المواد الأولية وإقامة صناعة ثم توزيع الانتاج، بالسلع البسيطة كالحبوب وغيرها، فإنه بحاجة إلى عدد من العمال يساعده بالبيع والنقل وما إلى ذلك. إذ من الصعب أن تقبل شخصًا مثل ابن وردة — السالف الذكر — يحمل على عاتقه مسؤولية سوق بأكمله، والأقرب إلى الواقع أنه امتنعان بعمال لتسيير عمله التجاري على ما يرام.

وروي المالكي أن أسد بن الفرات أنكر على أحد تلاميذه وجوده في حلقة الدرس فقال له: «أنكرت تعطيلك لحائوتك الذي منه معاشك وتقوي به على طلب العلم، فصاحب الحائوت إنما هو بالحرفاء فإذا جاءك حريفك اليوم ولم يجدهك وغدا فلم يجدهك وبعد غد مثل ذلك استبدل بك غيرك فضررت بنفسك وبمن نوله...»<sup>(2)</sup>، ومن هذا يتبين أن التجار كانوا يستعينون بمن يقوم مقامهم في حوائجهم وكان هؤلاء عرضة للعزل والطرده إذا أظهروا تقاعسًا في عملهم، ويبدو أن أجرتهم كانت تكفي معيشة أسرهم.

ولا نقدم المصادر معلومات وافية تساعد على رسم صورة واضحة لما كان كبار التجار، إلا أنه بالإمكان أن نتصور وجود صراع بين كبار التجار وبين الاقطاعيين، وهو صراع على الامتيازات، لكنهم يقفون جنبًا إلى جنب في مواجهة من هم دونهم، وكان هؤلاء التجار يتمتعون بهيبة حتى أن صاحب الشرطة كان يخشى دخول سوق ابن وردة هيبة الأرجح أنها — الهيبة — نابعة

---

(1) عن هذه الأصناف الثلاثة أنظر: أبو الفضل الدمشقي: الإشارة إلى عاسن التجارة. ص 70 73، 75. عبد العزيز الموري: تاريخ العراق الاقتصادي. ص 124.

(2) المالكي: رياض النفوس. ج 1 ص 185. عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بأفريقية صفحة 232 — 233. قال أبو ميسرة. ت. 337 هـ في القيروان — «رمتني والذي عند رجل من الرهانة ومعه صبيان فكان يدفع إليهم سلع الناس يبيعونها ولا يعطيه هو شيئًا فسأل بعض جيرانه عن سبب ذلك فقال: لأنك تستقصي وهؤلاء يبيعون ذلك منه ومن تحت يده. أنظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك. ج 3. ص 361.

من العلاقات الخاصة التي تربط كبار التجار برجال الدولة وأولي الأمر، وربما أنها نابعة كذلك من الأموال الطائلة التي يمتلكونها والتي يستطيعون بها تنفيذ ما يريدونه، وربما كذلك نابعة من الجماعات المرتبطة بهم مصلحيًا، كأولئك الذين يعتمدون في معيشتهم عليهم، فهؤلاء يتقادون لهم بحفاظة على مصدر رزقهم، ويظهرون بوضوح بين يدي محمد بن عرفة ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره وهم «أئم من الأئم» كناية عن وفرة عددهم، إذا اعتبرنا محمدًا بن عرفة من كبار التجار بناء على الرحلة التي قام بها إلى ملك السودان (1).

وإذا كان كبار التجار هؤلاء يرتبطون بالسلطة على اعتباران «السلطان سوق» فإنها في نفس الوقت علاقة مشوبة بالحذر، فإن السلطة ترى فيهم خطرًا عليها بجاههم وأموالهم وترى فيهم منافسين إذا كان السلطان يشارك في العمل التجاري، وربما كانت هذه الظاهرة وراء مقتل محمد بن عرفة على يد الامام أبي بكر، إذ بعدما أشار ابن الصغير إلى جأه ونفوذه أضاف أنه «شرقت بذلك الرسمية وغارت به وشرق بذلك من طاف بأبي بكر» (2)، كما أن التجار يرون في السلطة خطرًا عليهم، بما أوتيت من قوة وامكانيات مالية، فقد تصادر مال احدهم وقد تضارب آخر حتى تؤدي إلى افلاسه؛ وقد تخضع السوق لتجارها قبل تجارة الآخرين.

وربما لهذه العلاقة بالاضافة إلى المصلحة التجارية كان كبار التجار يجرون وراء الامتيازات التي قد تحفظ لهم تجارتهم وأموالهم وهيبتهم، ويبدو أنهم كانوا يستغلون الظروف والمناسبات لتحقيقها كالحروب الداخلية إذ ربما كانت هذه المسألة وراء أقدام أبي محمد الصيرفي وابن الواسطي وغيرهما من وجوه تجار تاهرت إلى العرب والجنود في حربهم مع العجم ونفوسه والرستمين فيعرضون عليهم مساعدتهم المالية، فقالوا لهم: «لو بنيت حصنًا تأمنون فيه ليلكم وتحصنون فيه ان دهمكم شيء من عدوكم وهذه اموالنا في أيديكم» (3).

(1) ابن الصغير: تاريخ الائمة الرستميين. ص 340 — 341.

(2) نفس المصدر: ص 347.

(3) ابن الصغير: تاريخ الائمة الرستميين. ص 347.

على أنه لا يفهم مما تقدم أن كبار التجار هم في صراع دائم ودموي مع السلطة، بل أنهم على علاقة بها كملاقتهم بالاقطاعيين، فهولاء جميعاً، السلطة وكبار التجار والاقطاعيون يشكلون حلقة أمام صغار التجار وصغار الملاك وعامة الناس أصحاب العيون المحرومة والحاسدة.

ولم يظهر التجار منظمين في جمعيات في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري،/القرن التاسع والعاشر للميلاد(1)، ولم يكن لهم أمير أو سيد عليهم يكون له صلاحيات تحديد سعر مختلف عليه مثلاً، لكن كان هناك وجوه تجار السوق، وهذا الأمر لا يعني وجود منظمة أو نقابة خاصة بالتجار.

وكان تجار كل سوق يحكم تعرضهم لنفس الظروف والمشاكل ويحكم تواجدهم اليومي معاً، واستعانة ببعضهم البعض ينشأ بينهم شعور خاص يربط بينهم، فاصبح التاجر منهم يحس أنه جزء من مجموعة يرتبط مصيره بمصيرها، كما أن الألفة نمت هذا الشعور، فتولد بينهم تضامن تلقائي، وفي فتوى ليحيى بن عمر صاحب كتاب «أحكام السوق»، كان التجار إذا احسوا بعجز أحدهم وانحداره نحو الافلاس أو عجزه عن مشروع شخصي كالزواج، لجأوا الى غلق حوانيتهم والخروج من السوق، وتركه له وحده يوماً لكي تكون فائدته اعظم، وهذا على سبيل المساعدة(2)، ومن باب هذه العلاقة الخاصة والتضامن كانوا يتخذون نفس الموقف لمواجهة كل طارئ.

### السلع:

وهي اما من انتاج محلي واما مستوردة، وهذه الأخيرة غالباً ما تكون سلعاً كالمالية تناسب أذواق الطبقة الثرية وتتماشى وحياة ترفهم ومنها البسط والجواهر والعميد وغيرها من الأدوات التي توصلت اليها حضارة ذلك العصر.

(1) TALBI, Mohammed: les courriers...P.187

ذكرت نخبة ولدت السوسي نقلا عن لويس ماسينيون قوله: ان تجمع الصناع في المدن الاسلامية ضمن مجموعات مهنية تقاينة يرجع تاريخه الى القرن التاسع الميلادي.

(2) يحيى بن عمر: أحكام السوق. ص 117.

أما المنتجات المحلية فكانت تشكل عصب التجارة الداخلية، وهي تشمل سلعا حيوانية وأخرى نباتية وثالثة صناعية، فيذكر ابن الصغير ان في عهد الامام عبد الرحمن بن رسم «بيعت الشاة والبقر»<sup>(1)</sup>، وكانت تاهرت نفسها احدى معادن الدواب والماشية حسبا وصفها ابن حوقل، ويضيف الادريسي بخصوص تدلس ان «الغنم والبقر موجودة كثيرا وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة ويخرج من أرضها الى كثير من الآفاق»<sup>(2)</sup>، وتأتي أهمية المتاجرة بالحيوانات الى الحاجة اليها يوميا للاستفادة من قوتها وصبرها في أعمال الحرث والحمل والركوب، والاستفادة من لحومها وأصوافها وجلودها وحليبها بل حتى الاستفادة من روثها سمادا. فإن الادريسي يذكر ان الناس يجتمعون في سوق مازونة «بضروب الفواكه والألبان والسمن»<sup>(3)</sup>.

وفي هذه العبارة يتضح أيضا ان الفواكه من السلع التي يتاجرون بها، فيذكر صاحب «كتاب الاستبصار» انه تحمل من جيجل «الفواكه والعنب والرطب الى مدينة بجاية»<sup>(4)</sup>، وأضاف البكري بشأن حصن تاونت — على ساحل ترنانا — «يحمل من زبيب تبته الى ما يليه من النواحي»<sup>(5)</sup>، وهو نفس الأمر بالنسبة لمرسى الدجاج، فذكر ابن حوقل ان «بها من الأشجار والتمر والتين ما يحمل منه الى البلاد النائية» ويضيف — ابن حوقل — بشأن تاجنة فيها «نين عظيم يجهز عنها»<sup>(6)</sup>.

وإذا لفت سلعة التين المجفف اقبالا ونشاطا في الحركة التجارية؛ فذلك لكونها تمتاز بقابليتها للتخزين لفترات طويلة، ويمكن أن يشاطرها هذه الأهمية الزبيب — العنب المجفف — وغيره من الفواكه القابلة للتجفيف، بل والفواكه والخضضر الطازجة، التي يجب على مالكيها أن يبيعها، والا تعرضت للتلف،

(1) نفس المصدر ص 327.

(2) الادريسي: نزعة. ص 90.

(3) الادريسي: نزعة. ص 100 — 101.

(4) مؤلف مجهول: «كتاب الاستبصار» ص 128.

(5) البكري: المغرب. ص 80.

(6) ابن حوقل: صورة. ص 77، 89، وهذه العبارات السابقة تقدم دليلا على وجود تجارة داخلية من منطقة الى أخرى، أو من منطقة الانتاج الواقعة الى المناطق المحرومة من تلك السلعة.

كذلك كانوا يتاجرون بالحبوب الجافة من قمح وشعير ونحوهما، ولا تغفل الزيت والزيتون وأهمية الزيت كبيرة من حيث استعماله للأكل ووقودًا لمصايحهم يستضيئون بها.

وكانوا يتاجرون بالسلع المصنوعة المتنوعة، مثل لوازم البناء والأدوات المنزلية والأثاث المنزلي، واللوازم الشخصية كالملابس والأحذية ونحوهما، والأدوات اللازمة للصناعات والمهن، وأدوات الفلاحة والأسلحة بأنواعها وغير ذلك. فكانت قبيلة كومية «أصحاب أسواق» يبيعون فيها «اللبن والطوب»<sup>(1)</sup>، وكان الناس يقبلون على شراء الأسلحة، فإن المنصور الفاطمي يسمح للخير بن محمد بن خزر حين دخل في طاعته «من شراء السلاح» هذا بالإضافة إلى الصناعات النسيجية كالصوفية التي اشتهرت بها مدينة تلمسان والخز الذي كان من تجاره أحمد بن قحح المعروف بأن الخزاز التهرني، والبز وكان أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن البزاز التاهرتي من مشاهير المتاجرين به.

### الاحتكار:

يعرف الثميني — اباضي — المحتكر انه «مشتري لطعام البلد لا يجد اهله أحدًا غيره ويبيع لهم ويقول لا أبيعكم الا ما أريد وأما ما اشتراه وحبسه وقد وجدوا غيره فليس بمحتك» ويضيف نقلاً عما جاء في الأثر: «ان المحتكر هو الذي يلتقي الجلوبة من الطعام فيأخذ ذلك كله ثم يحتكر فيه ويحبسه ولا يبيعه ويربص فيه الغلاء»<sup>(2)</sup>، ويلخص الشوربجي تعريف الاحتكار بأنه «حبس الشيء انتظاراً لغلائه».

وقد وردت أحاديث كثيرة للرسول ﷺ تنهى عن الاحتكار ومنها: ان رسول الله ﷺ قال: «لا يحتكر الا خاطيء» وقوله: «من احتكر حكرة يريد أن يغفل بها على المسلمين فهو خاطيء» وقد برئت منه ذمة الله

(1) ابن حوقل: صورة. ص 77، 89، وهذه العبارات السابقة تقوم دليلاً على وجود تجارة داخلية من منطقة إلى أخرى، أو من منطقة الانتاج الوافر إلى المناطق المحرومة من تلك السلعة.

(2) عبد الله علي غلام: الدولة الموحدية — دار المعارف — مصر. ص 223.

(3) الثميني: كتاب الجبل. ج 8. ص 181.

وقوله: «من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد برىء من الله تعالى وبرىء الله منه» وقال: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» وقال: «بئس العبد المحتكر أن سمع برخص ساءه وإن سمع بغلاء فرح» وقال «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والافلاس» وقوله: «المحتكر في سرقنا كالملاحد في كتاب الله» (1).

وروي عن عمر بن الخطاب قوله: «لا حكرة في سوقنا» وكان يبيع السلع المحتكرة جبراً عن محتكرها، بثمن مثل، وروي عنه أنه منع بيع اللحوم أو أكلها يومين متتالين من كل أسبوع وذلك حين قلت اللحوم، ولم تعد تكفي جميع الناس في المدينة، وأن رأى من خرج عن هذا المنع أمران يضرب بالدرّة (2).

ويرى يحيى بن عمر أن يؤمر المحتكرون باخراج طعامهم واطهاره للناس ثم يبيعوا ما عندهم مما فضل عن قوت عيالتهم ولا يسعر عليهم، حتى وأن بالغوا في أسعارهم، ولكنه يضيف أنه إذا «احتكر الطعام وكان ذلك مضراً بالناس في السوق، أرى أن يباع عليهم ويكون لهم رأس مالهم والريح يتصدق به أدبا لهم وينهى عن ذلك» (3).

ويبدو أن هناك جدلاً حول المواد التي يمنع احتكارها، فبينما يذكر القاضي عياض أن أبا عياش — ت 295 هـ في القيروان — سئل عن التجارة في القمح وحكرته فأباح ذلك «في وقت كثرته ورخصه، ومنعه في وقت غلاته إلا ما لا بد منه» وقال هذا بخلاف الزيت يريد اباحتها في كل وقت «في حين أن القاضي سحنون روي عن الامام مالك قوله: «الحكرة في كل شيء في السوق من الطعام والزيت والكتان وجميع الأشياء والصوف وكل ما أضر به — بالسوق — وقال: والعصفر والسمن والعسل وكل شيء يمنع من محتكره كما يمنع من الحب، فإن كان ذلك لا يضر بالسوق فلا بأس بذلك» (4)، وقد سبق قول رسول الله ﷺ «من احتكر على المسلمين طعامه...» ويفهم منه أن الاحتكار يشمل كل ما يطعم، ومنهم من يرى أنه خاص بالبر والشعير، والأرجح أنه يشمل الضروري من الطعام.

(1) نفس المكان، النووي: التسميع في الاسلام. ص 62. الفنجري: الاسلام ومشكلة الفقر. ص 38.

(2) النووي: المرجع السابق. ص 45 — 46، 64 — 65.

(3) يحيى بن عمر: احتكار السوق. ص 135.

(4) سحنون: المبذونة. ج 4. ص 291. القاضي عياض: ترتيب المدارك. ج 3 ص 268.

ويقوم مبدأ منع الاحتكار على الضرر وفق القاعدة الشرعية ولا ضرر ولا ضراره ولهذا اتفقت المذاهب الإسلامية في منع الاحتكار، وقد أوضح الثميني موقف الإباضية من الاحتكار القائم على منعه، ولهذا فإن الرستميين وقد كانت دولتهم دينية، تكون قد التزمت بهذا الموقف فمتنعوا الاحتكار، ولا محيد للأمرء العلويين عن منع الاحتكار وهم الذين ينسبون أنفسهم إلى الرسول ﷺ ولكن كانت المصادر لا تشير إلى موقفهم إلا أن الأرجح أنهم التزموا بمنعه سواء أكان مذهبهم علويًا أو مالكيًا، كذلك فإن الفاطميين والشيعة قد وقفوا منه نفس الموقف، فذكر القاضي النعمان أنهم «نهوا عن الحكرة إذا عز الطعام»<sup>(1)</sup> ونقل ما كتبه علي بن أبي طالب إلى رفاعة: «إنه عن الحكرة فمن ركب النهي فأوجعه ثم عاقبه باظهار ما احتكره»<sup>(2)</sup>، وأشار — النعمان — إلى أن حب الاحتكار موجود لدى كثير من التجار والصناع، وأن في كثير منهم شحًا قبيحًا وحرصًا شديدًا واحتكارًا للترهب للغلاء والتضييق على الناس والتحكم عليهم وفي ذلك مضرة عظيمة على الناس وعيب عن الولاية فامنعهم من ذلك»<sup>(3)</sup>. وتأتي أهمية قوله هذا في أنه كان معاشيًا ومعاصرًا لهم وفي أنه يمثل الموقف من الاحتكار، وكانت قوانين الفاطميين تسري على بلاد المغرب الأوسط.

وكان الفاطميون يمنعون الاحتكار بتدخلهم المباشر أو بواسطة المحتسب؛ وكثيرًا ما لجأت الحكومة الفاطمية إلى طريقة ختم مخازن الغلال، فإذا حضر أربابها خبزهم في أن تبقى غلاتهم تحت الختم إلى أن تظهر الغلة الجديدة فتفسد، أو أن تفرج عنها بشرط أن تباع بالسعر المحدد وإلى اخراج ما في الأهرأ لتفريقها على الطحانيين وارخاص سعرها ومنع احتكارها»<sup>(4)</sup>، وإن احتكار الفاطميين في المغرب تمر بسكرة اللياري لا يقوم دليلًا على تأييدهم الاحتكار لأن هناك أصنافًا أخرى من التمر في بسكرة وفي غيرها، وأن عدم وجود احتكار في أسواق البلاد يفيد في رخص الأسعار وبالتالي في عيشة أطيب للسكان.

(1) القاضي النعمان: كتاب الاقتصاد. ص 84. الثميني: المصدر السابق، ج 8. ص 175.

(2) نفسه: كتاب الدعائم، ج 2. ص 34.

(3) نفس المصدر: ج 1. ص 316.

(4) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر عصر الفاطميين. ط 2. دار الفكر العربي بدون تاريخ.



التسعير هو أن يأمر السلطان أو نوابه أو كل من ولي أمراً من أمور المسلمين أهل السوق ألا يبيعوا امتنعهم إلا بسعر كذا، فيمنع من الزيادة عليه أو النقصان إلا لمصلحة (1)، وقد ذكر القاضي النعمان موقف الشيعة من التسعير فنقل قول جعفر بن محمد فيه قوله: «ما سعر أمير المؤمنين علي — من أبي طالب — على أحد ولكن من نقص على بيع الناس قيل له: «بيع ما يبيع الناس والا فارغ من السوق الا أن يكون طعامه أطيب» (2)، وذكر الأطروشي هذا الموقف فقال: واجمع علماء أهل البيت ان ليس للأمة أن يسعروا (3)، كما أورد يحيى بن عمر قول الامام مالك في التسعير: «سئل عن صاحب السوق يسعر فيقول: اما بعم بكذا واما خرجتم من السوق فقال مالك لا خير في هذا»

ويرجع موقف العلماء هذا في التسعير، مما وقع في عهد رسول الله ﷺ فقد غلا السعر، فجاء الناس اليه «فقالوا يا رسول الله لو سعت فقال: ان الله هو الغابض الباسط الرازق المسعر واني لأرجو أن ألقى الله عز وجل ولا يظلمني احد بمظلمة ظلمتها اياه — ظلمته اياها — في دم ولا مال» وروى أبو هريرة عن أحمد وأبي داود فقال: «جاء رجل فقال يا رسول الله: سعر، فقال: بل ادعوا الله ثم جاء آخر: يا رسول الله سعر، فقال: بل الله يخفض ويرفع» (4).

ولا يعني رفض رسول الله التسعير أن الحبل متروك للتجار على الغارب يبيعون بالسعر الذي أرادوه، بل أن الاسلام — حسبما يفهم من حديث رسول الله — يطلق الحرية للسوق في ظل القوانين الطبيعية، فإذا كثر الانتاج أو قل نتيجة ظروف طبيعية هي من مشيئة الله ولا تدخل للبشر فيها، فلا يجوز التسعير، لأن مشيئة الله قدرت وفرة الانتاج، أي كثر العرض فترخص الأسعار أو قدرت قلة الانتاج أي قلة العرض فترفع الأسعار، وبمثل هذه الحالة لا يحق للانسان أن يتدخل في مشيئة الله، لكن الامر يختلف إذا تحكمت في العرض عوامل

(1) الشوريحي: التسعير في الاسلام. ص 23.

(2) القاضي النعمان: كتاب الدعائم. ج 2. ص 34، نفسه: كتاب الاختصار. ص 84.

(3) الأطروشي: كتاب الحسبة. ص 14.

(4) الشوريحي: المرجع السابق. ص 18.

من صنع الناس، كقيام بعض التجار بالاحتكار أو بالتلاعب بالأسعار، وفي مثل هذا الحال يكون التسعير مباحاً<sup>(1)</sup>.

وعلى أية حال، فإن المؤرخين لا يشيرون الى قيام الرستميين وغيرهم ممن حكم بلاد المغرب الأوسط بالتسعير، والأرجح أنهم وقفوا من هذه القضية موقف الشرع منها — كما سبق — ولم يكن الخسب في الأسواق ليتقاضى عن هذا الأمر، مادام علماء المذاهب الاسلامية قد تناولوا هذا الموضوع، وقد طرفة يحيى بن عمر في كتابه «أحكام السوق». ولم يسعر الفاطميون حين ارتفعت الأسعار في حروب الخليفة المنصور ضد أبي يزيد محمد بن كيداد، فارتفع سعر عليق الدابة وجرة الماء — كما سيأتي. وبما أن هؤلاء جميعاً كانوا يحاربون الاحتكار، فكانت الأسعار الشائعة مبنية على نسبة عرض السلع.

ويبدو أن بعض المواد كانت متوفرة دائماً — الا في سنوات القحط — فكان سعرها معلوماً ولا مجال للتلاعب فيه، فقد ذكر يحيى بن عمر أن القاضي سحنون سئل عن الرجل الغريب يدخل السوق وهو جاهل بالسعر... فقال: — «سحنون» —: «بيع الزيت والقمح معروف ليس فيه خطر»<sup>(2)</sup>.

### الأسعار:

يعتبر السعر المظهر العملي للمماس للقيمة في النظام الاقتصادي القائم على السوق أو التبادل النقدي، وهناك عدة اعتبارات تدخل في قياس هذه القيمة، فقد تقاس وفقاً لفائدة الشيء وأهميته، أو وفقاً للعمل المبذول من أجل انتاجه، أو وفقاً لحالة السوق واعني قانون العرض والطلب، كما أن الزمن اللازم لانتاج تلك السلعة يلعب دوراً في قياس القيمة، ولا تقلل من أهمية الرأي والانطباع الذي يحمله الناس عن تلك السلعة والنظرة اليها كنظرتهم الى الخمر ونحوه.

---

(1) زيدان عبد الباقي: العمل والعمال. ص 52. ولمزيد من التفاصيل حول موضوع التسعير انظر. أحمد سعيد الهيلدي: كتاب التيسير في أحكام التسعير. تقديم وعقبتين موسى لقبال. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر 1971م وانظر. البشير الشوربجي: التسعير في الاسلام.

(2) يحيى بن عمر: أحكام السوق. ص 137.

ويفيد الدمشقي أبو الفضل في معرفة القيمة المتوسطة، فيبدو أن السبيل إلى ذلك هو «أن تسأل الفقهاء الخبيرين عن سعر ذلك في بلدهم على ما جرت به العادة في أكثر الأوقات المستمرة والزيادة المتعارفة فيه والنقص المتعارف والزيادة النادرة والنقص النادر وتقيس بعض ذلك ببعض»<sup>(1)</sup>، ثم ينبه إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الأحوال التي هم عليها من خوف وأمن، ومن وفرة وكثرة، أو اختلال ونقص، وتستخرج بقريحتك لذلك الشيء قيمة متوسطة.

والأسعار بصفة عامة تخضع لعدة عوامل تؤثر عليها، ومنها سياسة الدولة الاقتصادية كاحتكار السلعة وتخزينها، ونظام الضمان والتقييل، لأن هذا يمنع بيع الغلال في البيادر وخزنها ويحد من وفرتها، وإذا كان المؤرخون لا يذكرون شيئاً من هذا في العهد الرسني أو عهد الأمراء العلويين إلا أن ابن الأثير ذكر أن المهدي — الفاطمي أمر عامل الحمدية — المسيلة — «أن يكثر من الطعام ويخزنه ويحتفظ به ففعل ذلك»<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن بعض الناس كانوا يلجأون إلى قطف ثمارهم قبل أوانها ليكسبوا غلاء السعر، ويظهر هذا في أفرقية في فتوى وجهت إلى يحيى بن عمر بخصوص بيع الفواكه قبل أن تطيب فقال: «إن كان كثيراً من بلدكم فلا بأس به وإن كان قليلاً فلينبهوا عن قطعه، حرصاً لأنه يضر بالعامّة، وذلك أنه يطلب في حينه فلا يكاد يوجد فيخلو»<sup>(3)</sup>.

ويضيف ابن خلدون عاملاً آخر في قوله «إن المصير الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته» وهكذا يحتمل أن تكون الأسعار في تاهرت وتلمسان وتنس والجزائر وسطيف وقسنطينة وغيرها من كبريات المدن أغل من نواحي البلاد الأخرى لاكتظاظها بالسكان. ولا يغفل ابن خلدون دور المكوس في موضوع الغلاء فيذكر «ثم تزيد — الأسعار — المكوس غلاء» وقد أشرنا

(1) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة. ص 29.

(2) ابن الأثير: الكامل. ج 8. ص 179. قال علي بن عيسى للخليفة المقتدر: إن سبب غلاء الأسعار إنما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها فأمر المقتدر بفتح مخازن الخنطة والشعير التي لحامد ولام المقتدر وغيرها وبيع فيها فرتعتت الأسعار. انظر نفس المصدر ج 8. ص 117.

(3) يحيى بن عمر: أحكام السوق. ص 110. وجاء في النص «... فلا يوجد فيخلو».

سابقاً الى أن الرستميين لم يفرضوا المكوس عكس الفاطميين والزيريين، كما أنه — ابن خلدون — ينه الى أن التجار كلهم يحسبون داخلاً على سلمهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه حتى في مؤونة انفسهم، فيكون المكس لذلك داخلاً في قيم المبيعات وأثمانها<sup>(1)</sup>. وهذا العامل له تأثير مباشر على السلع التي تنقل من منطقة الى أخرى.

كانت الحروب والأزمات والنكبات التي تحل بالبلاد تؤدي الى غلاء الأسعار مثلما حدث بسبب حروب المنصور الفاطمي مع أبي يزيد محمد بن كيداد، كما أن الأسعار تكون قد ارتفعت نتيجة حروب الامام أبي حاتم وعمه يعقوب بن أفلح حيث «قطعت السبل وفرغ من أيدي الناس الحرث والنسل»<sup>(2)</sup>.

وفي سنة 317هـ كان بالقيروان وأعمالها وباء عظيم وغلاء سعر، وفي سنة 395هـ كانت بافريقية شدة عظيمة انكشف فيها الستور وهلك فيها الفقير وذهب مال الغني وغلت الأسعار وعمدت الأقوات.

لكن هذه الأسعار يمكن أن تكون رخيصة إذا تدخلت عوامل أخرى في الموضوع، طبيعية وبشرية، أما الطبيعية فتتمثل في هطول الأمطار الكافية، ففي سنة 318هـ «نزلت الأمطار بالقيروان وصلحت الأحوال ورخصت الأسعار»<sup>(3)</sup>، وأما البشرية فكانت تضع الدولة حداً للاحتكار والتخزين، فحين عمل جوهر الصقلي على ترخيص الأسعار في مصر عمد الى العمل على وجود الأقوات ومنع احتكار الحبوب، ومنه يستنبط أن قانون العرض والطلب يتحكم في الأسعار، فإذا زاد العرض على الطلب كان الرخص وإذا عزت السلعة ونادر وجودها أو خشي الناس اختفائها وكان الطلب عليها كثيراً كان الغلاء<sup>(4)</sup>.

وبصفة اجمالية، فهناك مؤثرات في الأسعار هبوطاً أو ارتفاعاً مثل وقوع أزمات اقتصادية أو عدمه، وقلة الانتاج أو وفرة، واقبال الناس أو ضعفه،

(1) ابن خلدون: مقدمة. ص 372.

(2) ابن الصغر: سيرة الأئمة. ص 361.

(3) ابن عذاري: البيان. ج 1. ص 95. حوادث سنة 318هـ.

(4) سقان محمد شحاته: دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي. ص 144.

كما أن كمية النقود المتداولة بين أيدي الناس ونسبتها الى الانتاج لها تأثير على الأسعار، فالتضخم المالي أي زيادة النقود المتداولة في حجمها عن حجم السلع الموجودة فعلا يجعل المستهلكين يجرون وراء السلع غير الكافية لهم، مع استعدادهم لدفع أسعار أزيد فيكون الغلاء، وهذه النقود تتوفر في المدينة لكنها عزيزة ونادرة في الأرياف. فهم على استعداد لتقديم كمية اكبر من السلع مقابل مبلغ زهيد من المال لووفرة السلع عندهم وقلة النقود التي هم في حاجة إليها للحصول على سلع المدينة الضرورية لهم وهكذا لنا أن نتصور رخص الأسعار في الريف بالقياس لما كان في المدينة وعلى كلا الحالتين، فمن الصعب الحكم على السعر بالرخص أو بالغلاء قبل معرفة دخل الأفراد من الاجراء وأصحاب الحرف ورجال النخبة والعاملين في دواوين الدولة. (1)

والمصادر التي بين أيدينا لا تشفي غليل الدارس لموضوع الأسعار. فهي تذكر بعض الأسعار في سنوات الأزمات وهذه لا يعتمد عليها لمعرفة الأسعار في الظروف العادية، التي غفل المؤرخون والرحالة عن ذكرها. فكانوا إذا شدت انظارهم الى رخص الأسعار في بلد ما، قدموا عبارة موجزة عن الموضوع دون أن يكلفوا أنفسهم عناء وضع قائمة بأسعار أهم المواد على الأقل.

فذكر ابن حوقل أن بونة «فيها خصب ورخص موصوف» وهو في عبارته هذه يربط بين الخصب والرخص في الأسعار وهو كثيرا ما يكتفي بالاشارة الى خصب البلد كناية عن وفرة الانتاج؛ وما يتولد عنه من رخص الأسعار، كما ذكر ابن حوقل — أن مرسى الدجاج — بها من رخص الأسعار أيضا في الفواكه والمأكول والمطاعم والقمح والشعير والألبان والمواشي ما ينفق غيرهم ممن يجاورهم، أما البكري فذكر من جهته أن سطيف «كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار» وأضاف بخصوص مدينة الغدير انها «رخيصة الطعام واللحم وجميع الثمار» كما أن الادريسي وصف تلمسان «انها حسنة لرخص اسعارها ونفاق

(1) الحبيب الخنجاتي: المغرب الاسلامي. الدار التونسية للنشر. 1398 هـ 1978 م. ص 71.

أشغالها ومرايح تجارها، كما وصف تدلس ان «بها من رخص الفواكه والأسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد غيرها مثله»<sup>(1)</sup>.

ويتضح تذبذب الأسعار بين الرخص والغلاء حسب الظروف والأحوال في أن الجمل كان يباع بحوالي تسعة دنانير، وعندما انتصر الشيعة أبو عبد الله على عساكر سطيف ومزانة «بيعت الجمال يومئذ عشرين ديناراً وبيع الجمل بخمس بصلات»، وهذا لوفرتها بسبب الغنائم التي حصلوا عليها، في حين يذكر الدرجيني أن الجمال يبعث في عهد المعز الفاطمي «بمئب عشرين ديناراً لكل جمل»<sup>(2)</sup>. وذكر الجنحاني سعراً آخر للجمل فجعله عشرة دنانير.

ويفيد البكري عن سعر العنب في مدينة الغدير فيذكر أن «قنطار عنب فيها بدرهم»<sup>(3)</sup> ونظراً لأن زكاة القنطار صاع من الخنطة أو صاع من شعير أو صاع من تمر أو صاع من زبيب، فهذا يدل على أن قيم هذه الأصواع متساوية ومنه فإن ثمن قنطار الخنطة أو قنطار الشعير أو قنطار التمر يبلغ درهماً واحداً.

أما ابن حماد فيفيد بخصوص ثمن جرة الماء، ففي مجرى حديثه عن حزب المنصور الفاطمي ضد أبي يزيد مخلد بن كيداد أشار إلى أنه قد «بلغت الجرة من الماء ثلاثة دراهم»، ويجعل ابن الأثير ثمن قربة الماء بنفس الليلة والمناسبة ديناراً، ويجعل عليق كل دابة ديناراً<sup>(4)</sup>، لكن هذه الأسعار خاصة بظروف معينة وبأزمة معينة، فإن ابن الأثير نفسه يبينه إلى أن هذه الأسعار كانت حين

(1) ابن حوقل: صورة. ص 77. البكري: المغرب. ص 60. 76. الإدريسي: نزهة. صفحات. 80. 90.89.

(2) بورويبة رشيد: الدولة الحمادية. ص 147. القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص 116. الدرجيني: طبقات ج 1. ص 151.

(3) البكري: المصدر السابق. ص 60.

(4) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد. ص 28. ابن الأثير: الكامل ج 8. ص 439.

«اشتد الأمر على أهل العسكر» لكنهما — ابن حماد وابن الأثير — لم يشيرا إلى سعر القربة أو الجرة في الأحوال العادية لتبيين درجة الغلاء.

ولم يقدم المؤرخون والرحالة إضافات في هذا الموضوع تختص ببلاد المغرب الأوسط، لكن هناك بعض الأسعار تتعلق ببلاد إفريقية، ونظرًا إلى أن بلاد المغرب الأوسط كانت خاضعة لنفوذ بلاد إفريقية في العهد الفاطمي والعهد الزييري فمن المرجح أنها كانت نفس الأسعار في هذه البلاد ربما مع شيء من الاختلاف.

فقد ذكر المقدسي أن سعر اللحم في القيروان «خمسة أمناء بدرهم» وأن سعر التين خمسة أمناء بعشرة دراهم<sup>(1)</sup>، وبلغ سعر القمح في 317هـ/929م/930م، وهي سنة شهدت أزمة اقتصادية «وغلأء سعر فبلغ قفيز قمح بالكيل القرطبي مثقال ذهب»<sup>(2)</sup>، وهذا علما بأن مبلغ دينارين تكفي لنفقة شهرية تتناسب مع المستوى الأدنى للمعيشة. وذكر القاضي عياض أن رجلاً من البادية أهدى إلى القاضي ابن طالب خبز سلت «فدفع إليه خمسة مناقيل قليل له: إنما تساوي درهماً» ولا أظن سعره في بلاد المغرب الأوسط يختلف كثيراً.

وكان ثمن ثورين صالحين للحرث مساوياً لواحد وأربعين ديناراً<sup>(3)</sup>. 395هـ/1004م وهي سنة غلاء، وذكر لويكي أن فرساً عتيقاً يملكه الشيخ أبو نوح الصغير — من رجال القرن الرابع الهجري — قيمته مائة وخمسون ديناراً<sup>(4)</sup>، ويذكر هـ.ر. ادريس أن فنطار الصابون بيع في بداية الموسم بعشرة دنانير ونصف، وبيع في منتصفه بأحد عشر ديناراً إلى أحد عشر ديناراً ونصف،

(1) المقدسي: احسن التماسيم. ص 225.

(2) ابن عذاري: البيان. ج 1 ص 174.

(3) الدباغ: معالم الإيمان. ج 3. ص 140. 191. وذكر الحشني أن رجلاً باع بطلاً بسة عشر ديناراً. انظر الحشني: فضاء قرطبة وعلماء إفريقية. ص 238.

H.R.Idris: La Berbérie orientale...T.2.P.657.

(4) T.Lewicki: «Quelques extraits inédits...» F.O.1960/61.P.19.

بينما كان يتراوح سعره في آخر الموسم بين ثلاثة عشر ديناراً وأربعة عشر ديناراً<sup>(1)</sup>، أما البكرى فيذكر «أربعين ربعا قرطبية — زينا — بمشقال واحد» في مدينة سفاقس التي اشتهرت بزراعة الزيتون. ويضيف هـ.ر. ادريس ان امرأة ياعت بيتا بمبلغ مالي قدره مائتي ديناراً بمعدل أربعة دنائير شهرتاً، وإذا كان ابن حوقل يذكر أن سعر الملح في بلاد السودان الصادر اليها من بلاد الاسلام يتراوح بين مائتين الى ثلاثمائة ديناراً للحمل الواحد<sup>(2)</sup>، فهو لا يذكر سعره في بلاد المغرب الأوسط كملح بسكرة، وكان ثمن مقص الخياط يساوي نصف درهم، وابرته تساوي خروبة، وليس هناك ما يدل على سعر العبيد في بلاد المغرب الأوسط، ويبدو أن سعرهم كان متأرجحاً حسب نسبة العرض الى الطلب، وحسب نوعيته، فقد بيع غلام في افريقية بعشرة دنائير<sup>(3)</sup>، واشترى ابن طالب جارية نظيفة مؤدبة «بنحو ثمانين ديناراً»<sup>(4)</sup>، كما اشترى جارية قدمها لأبي القاسم المعروف بالمساجدي بأربعين ديناراً.

ويبدو أن صداق امرأة من طبقة متوسطة كان مائتي ديناراً وهذا المبلغ يكفي لبناء منزل، فقد بنى ابن الحداد منزلاً بمئة دينار، أما ثمن الحجر في القيروان فكان عشرين ديناراً، وهكذا فإن غلاماً يرعى الغنم يحتاج الى عشر سنوات ليتمكن من بناء حجرة، فإن أبي طالب القاضي يطلب من مولى غلام بعد أن اعتقه «ان نخري له على رعايته لغنمك اجرة فاجرى له ديناراً في كل سنة»<sup>(5)</sup>.

### السمسار:

السمسار<sup>(6)</sup> هو ذلك الشخص الذي يلعب دور الوسيط بين البائعين والمشتريين، وفي غالب الأحيان يقتصر عمله على عمل الدلال فيقوم باشهار

(1) عن الأسفار في العهد الزيري. انظر: هـ.ر. ادريس. المرجع السابق. 659.657.

(2) ابن حوقل: صورة. ص 98.

(3) الدباغ: معالم الايمان. ج 2. ص 165.

(4) القاضي عياض: تراجم. ص 219. وعن ثمن العبيد انظر: آدم: الحضارة الاسلامية ج 1 ص 279. 281. الاصطخري: المسالك ص 45.

(5) القاضي عياض: نفس المرجع. ص 21.

(6) اللفظ فارسي (سمسار) انتقل الى الأرامية (سفسرا) ومنها الى العربية سمسار انظر: سجيرد هونكة: فمس العرب تسطع على الغرب. ص 484.



البضائع للبيع معلناً ائمانها ومشرفاً على عمليات الزايدة فيها فوظيفته اذن تتمثل في ربط الصلة بين الباعة تجار السوق والمشتريين الذين قصدوا السوق لقضاء حاجاتهم، وهو — السمسار — يحاول أن يتدخل في كل معاملة تجري في السوق<sup>(1)</sup>، ويذكر طالبي محمد بأن السمسار يعرض خدماته لجميع الناس، أصحاب بضاعة وتجار ومختلف الزبائن، باعة ومشتريين الذين يذهبون اليه وهو لا يملك مكتباً ولا سجلاً ولا يعقد عقوداً ربما الا في الصفقات التجارية الكبيرة — مكتوبة، وليس عنده موظفون، فقي معظم الأحوال، ما هو الا مجرد دلال بسيط يعرض السلعة بالمازيدة، ولهذا يمكن تصويره بأنه دلال شعبي يشق طريقه في السوق بصعوبة وذراعه محملتان بالبضائع<sup>(2)</sup>.

وقد أفاد ابن حوقل في الكشف عن وجوده — السمسار — في بلاد المغرب الأوسط فذكر بخصوص مرسى الخرز أنه كان «للتجار بها أموال كثيرة من أقطار النواحي عند سماسة وقوف لبيع المرجان وشرائه» لكنه لا يقدم أية اضافات أخرى حوله وحول نظام عمله.

وذكر البكري بخصوص مدينة مليلة — في المغرب الأقصى — ان سكانها يفترعون على من يدخل عندهم من التجار، فمن اصابته قرعة الرجل منهم «كان تجره على يده ولم يصنع شيئاً الا تحت نظره واشرافه فيحميه ممن يريد ظلمه ويأخذ اجرة على ذلك ويأخذ منه الهدية<sup>(3)</sup> لتزوله عنده» وهو البكري — بهذا يشير الى السمسرة دون ذكرها، فإن عبارته «كان تجره على يده» تدل على قيام الرجل منهم بوظيفة السمسار، كما أن الحموي يشير الى التجار القاصدين بلاد السودان — وكان بينهم تجار من بلاد المغرب الأوسط — فيأخذون معهم «سماسة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر<sup>(4)</sup>».

(1) باشا (ولدت السويسي) نجاة: التجارة في الغرب الاسلامي. ص 53.

(2) لمزيد من التفاصيل حول السمسار انظر: J.E.S.H.O. «Les Courtiers...» Talbi Mohammed: 1962/2.

(3) يبدو أن الناس هناك تعارفوا على تسميتها هدية مع أنها اجرة، كما نشر الى أن السمسار لا يحمي من الظلم.

(4) ابن حوقل: صورة 76. البكري: المغرب. ص 88. الحموي: معجم. ج 2. ص 361.

ويدعو أن لفظة (سمسار) لم تكن شائعة الاستعمال في أوساط الناس، حتى وإن ذكرها ابن حوقل وغيره، فكان الرجل يقوم بما يقوم به السمسار دون أن يعرف بهذا الاسم ويتضح هذا فيما رواه الخشنى فذكر رجلاً قال: «أتيت ببغلي إلى هذا الرجل» وسألته أن يبيعه لي فباعه بسنة عشر مثقالاً، فلما انتقدته أتاني بها وقال: إن البغل لم يكن يساوي إلا عشرة مثاقيل<sup>(1)</sup>، ووضح في هذا أنه يقصد السمسار بقوله «الرجل» وهو ما يظهر كذلك فيما رواه الدباغ، فذكر أنا أبا بكر بن هذيل — في الفيروان — «دفع يوماً بدنًا إلى رجل من تلك الأبدان التي كانت تصنع زوجته فقال له: عسى أن تبيع لنا هذا البدن وتأتينا بالثمن قال: فمضيت به وعرضته فلوى ثمنًا ليس بالكثير، فإذا بالرجل صنهاجي قال لي: تبيع لي هذا البدن؟ قلت نعم، قال: كم ثمنه؟ قلت له: كذا وكذا وزدت عليه في ثمنه فقال لي: قبلت»<sup>(2)</sup>.

ولم يغفل القاضي النعمان أن يتعرض إلى موضوع السمسرة فأشار إلى أن الرسول ﷺ نهي أن يبيع الحاضر للبادي<sup>(3)</sup> خاصة إذا حاول الحاضر — الحضري — فرض بيعه أو رأيه على البادي — البدوي — لكن الأمر يختلف ومباح إذا قام الحاضر بمعرفة مبلغ الثمن ثم يخبر البادي به ليقوم هو بنفسه في بيع متاعه أو بتكليف وكيل له، فإن انتهى عنه هو أن يبيع الحاضر للبادي وكان ابن عباس رضي الله عنه قد سئل عن معنى «لا يبيع الحاضر لبادي» فقال: «لا يكون له سمسار»<sup>(4)</sup>، ويدعو أن أهل البادية كانوا يقبلون على التعامل مع السماسرة لاقتناعهم بجهلهم بأمور السوق ومعرفتهم بخبرة السماسرة، ففي كل زمان أصبح دخول البدوي المدينة مرادفًا للحيرة والجهل والدهشة وخطأ التصرف<sup>(5)</sup>.

(1) الخشنى: فضاة فرطية وعلماء إفريقية. ص 238.

(2) الدباغ: معالم الإيمان. ج 2. ص 266.

(3) القاضي النعمان: كتاب دعائم الإسلام. ج 2. ص 28.

(4) زيدان عبد الباقي: العمل والعمال والمهن في الإسلام. ص 55.

(5) يقال في إفريقية لمن اتصف بهذه الصفات «بدوي في الربيع» والربع هو السوق انظر باشا ولدت السوسي. نخبة: التجارة في المغرب. ص 55. ويقال إلى الآن في المشرق «بدوي داخل مدينة».

وليس هناك ما يدل على أن السماسرة كانوا يتقاضون رواتب محددة، بل أن دخلهم كان ممّا يتقاضونه أجره على عملهم من صاحب السلعة، الذي يكلف السماسر بيع سلعته، ومن المشتري، سواء أكان تاجراً أو مستهلكاً، هذا بالإضافة الى المبالغ الخفية التي يأخذونها من بيع السلعة بثمن أعلى من الثمن المتفق عليه مع صاحب السلعة أو المعلن عنه، مثلما فعل بائع البغل السابق الذكر، فقد باعه بستة عشر ديناراً لكنه لم يظهر إلا عشرة دنانير، فكان ربحه ستة دنانير وهو مبلغ لا يستهان به بالنسبة الى العشرة دنانير، كما أن الرجل الذي باع البدن — السالف الذكر — يعترف أنه زاد في ثمنه.

ويمكن أن نضيف الى ما ذكر من طرق ربح السماسر، قيامه بشراء السلع التي يراها رخيصة وهو العالم بأحوال السوق لنفسه ثم يقوم ببيعها محققاً بذلك ربحاً جديداً، ومن هذا وذاك يجتمع دخل السماسر، ونظراً لعدم وجود ضوابط لهذه الأعمال، فهي تؤدي الى ارتفاع أسعار السلع فتشغل كاهل الناس، لذا كان النهي عن اللجوء الى السماسر، وبناء على أن هم السماسرة الربح حتى ولو لجأوا الى الكذب، فإن أبا الفضل الدمشقي يبنه الناس أنه «يجب أن لا يصدق لأحد من السماسرة قول ولا يقبل لهم نصح فإنها صناعة مبنية على الكذب»<sup>(1)</sup>.

ويبدو أن السمسرة كانت مثار مشاجرات بين السماسرة والزبائن، فإذا نجح السماسر في بيع السلعة فإن مجال الخلاف يضيق، إلا ما يمكن أن يقع حول أجره السماسر، لكن هذه الأجرة ستكون مثار مشاجرة إذا فشل السماسر في البيع، فإذا أراد صاحب السلعة استرجاع سلعته من السماسر قبل بيعها ليقدمها لسماسر آخر فهل للسماسر في كلتا الحالتين أجره ؟ ثم ما هو موقف صاحب السلعة إذا عاد اليه السماسر ليخبره أن سلعته قد ضاعت أو سرقت، أو إذا أحدث السماسر فيها غشاً فأيهما يتحمل تبعه الأمر ؟ يذكر طالبي محمد نقلاً عن الأيباني — أن الشرع يقف الى جانب السماسر إذا كان محترفاً وليس مجرد سمسار هاو، فلم يكن يتحمل أية مسؤولية عن الضياع أو السرقة أو الغش أو التلف ما لم يكن عن إهمال<sup>(2)</sup>.

(1) أبو الفضل الدمشقي: الاشارة. ص 64.

Talbi Mohammed: «Les courtiers...P.187».

وكان السمسار يحاول أن يفرض نفسه على دائرة التجارة كوسيط ضروري لكل عملية بيع، ويبدو أن القضاة والمحامين قد اعطوه حق بيع البضاعة بالسعر الذي يعتقد أنه أعلى ما يمكن الوصول اليه، دون ضرورة حصوله على موافقة مسبقة من صاحب السلعة<sup>(1)</sup>.

ويبدو أن عملية الفصل والتمييز بين الدلال والسمسار عملية صعبة، فإن بيكر Becker يعرف الدلال أنه «اللفظ الشائع الذي يطلق في اللغة العربية على السمسار»<sup>(2)</sup> كما أن أبا الفضل الدمشقي يتحدث عن السمسار ثم يذكر «الدلال» وكأنهما كلمتان مترادفتان<sup>(3)</sup>. وبالفعل يرجح أنهما كذلك، إلا أن لفظة «سمسار» اجنبية الأصل — كما مر — أما «دلال» فهي عربية، فقد جاء في تاج العروس في مادة سمسار أنه «الذي يسميه الناس الدلال فإنه يدل المشتري على السلع ويدل البائع على الأثمان».

ولا تقدم المصادر معلومات حول الدلال ووظيفته — الدلالة — ولا حول ألامه ولا اجرته، ونحو ذلك، فإن السيف — السالف الذكر الذي كان يد الدلال لم يجد من يسومه بقليل ولا كثير «فهل كان الدلال ينال أجرة في مثل هذه الحالة؟ وما مبلغها؟ يشير المقرئ إلى أن الدلال كان يتقاضى نسبة 2% أجرة له، على أن يدفع نصف ما يربح ضريبة تعرف بنصف السمسرة»<sup>(4)</sup>.

وإذا كان السمسار موجوداً في الشارع وأمام البيت وفي السوق وفي كل مكان، ويلجأ اليه من أراد بيع سلعة أو شراءها، فيذهبون للقائه حتى في منزله يستبدون اليه تلك المهمة، فإن طريقة عمل الدلال كانت بالمناداة على السلعة واجراء المزادات، وقد وقف على مرتفع وحوله الراغبون في الشراء ومتى رست

[1] Op.Cit: P.183.

وحول نضابها السمسرة والسمسرة انظر: أحمد بن يحيى الوئرشبي: المعيار للعرب والجامع المغرب عن حاوى علماء افرقية والأندلس والمغرب. دار الغرب الاسلامي. بيروت. 1401هـ/1981م. الاجزاء. 10.8.6. مواضع متفرقة.

(2) دائرة المعارف الاسلامية، مادة (دلال) بقلم بيكر Becker . 9 . ص 257.

(3) أبو الفضل الدمشقي: الاشارة، ص 64.

(4) المقرئ: خطط مصر. ج 1 ص 89.

الزائدة على أحد وقع عليه البيع، فإن ابن طالب قال للدلال بخصوص ملبسه: «ناد عليها وزد لي فيها فإذا وقف عليك فادفع عني حقها سلفاً وردّها إليّ ففعل ذلك» (1).

ويمكن أن يكون هناك فارق بين السمسار والدلال يتمثل في أن الدلال يختص ببيع السلع القديمة حتى كان يعرف المزايا الذي يتجر بالسلع القديمة بالدلال» (2)، فسيف الصبي وملابس ابن طالب وهي مستعملة أعطيت للدلال، في حين أن السمسار يمكن أن يتولى مهمة بيع جميع السلع حديثها وقديمها.

وكانت الأعيب الدلال هي الأعيب السمسار، فكلاهما يزين السلعة في نظر المشتري وهما يعلمان أنها أقل قيمة مما يذكران، فذكر أبو الفضل الدمشقي أن الدلال تارة يصف البضاعة وجودتها وتارة يذكر قلتها وندرتها وتارة يذكر أن نوع هذه البضاعة سيرتفع ثمنها وتارة يذكر أنها بضاعة مرغوبة وربما واطاً قوماً يأتون إليه بمحضرة الزبون يطلبونها ويدفعون إليه العربون ويقيدونه (وذلك حيلة على الراغبين في الشراء) (3).

### المشرف على السوق:

لم يرد ذكر المحتسب بهذا الاسم في تاهرت الرسمية أو غيرها من مدن المغرب الأوسط ربما لأن الحسبة لم تكن منظمة فيها» (4)، ولم تكن وظيفة مستقلة بحيث يختص بها موظف معين يحمل لقب «المحتسب» ويرجع الفضل لابن الصغير الذي كشف عن أن مهمة المحتسب كان يتولاها صاحب الشرطة في تاهرت في عهد الامام افلح، فأشار إلى أن صاحب شرطة الامام افلح كان «إذا تخال للمدينة لافتقاده لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة ولا يتخلله هيبه» كما سلف — وهذه العبارة تدل على أن مسألة افتقار السوق كانت متروكة بصاحب الشرطة ومن صلاحياته، وهي تنفي تخصص موظف بأمور السوق

(1) الدهاغ: معالم الايمان. ج 2 ص 167.

(2) بيكر: الدلال. فقرة المعارف الاسلامية. ج 9. ص 258.

(3) أبو الفضل الدمشقي: الاشارة. ص 64.

(4) لقبال موسى: الحسبة المذمومة في بلاد المغرب العربي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر.

1971. ص 33.

وحتى ذلك الوقت على الأقل، بل ينبغي وجود المحتسب تحت أي لقب في تاهرت ما دام صاحب الشرطة فائلاً بالأمر.

ثم يضيف ابن الصغير أن نفوسة — في تاهرت كانت «تلي عقد تقديم القاضي ويوت الأموال وانكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق»<sup>(1)</sup>، وهو أن ذكر كلمة الاحتساب إلا أنه لم يذكر كلمة «المحتسب» للدلالة على من كانت نفوسة تقدمه للقيام بمهمة المحتسب. وإذا كانت كلمة «انكار» معطوفة على كلمة «عقد» فهذا يعني أن نفوسة نفسها كانت تلي مهمة الإشراف على الحسبة، أما إذا كانت معطوفة على كلمة «تقديم» فهذا يعني وجود مقدم، على وظيفة الحسبة بشكل عام، ويبدو أن العطف الأول أقرب إلى الواقع، إذ أن ابن الصغير يذكر في موضع آخر أن الامام أبا اليقظان «أمر قومًا من نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»<sup>(2)</sup>.

وهذه العبارة الأخيرة وإن كانت تساعد على ترجيح عدم استعمال كلمة «الحسبة» إلا أنها قد تعني بداية استقلال هذه الوظيفة عن نظر صاحب الشرطة<sup>(3)</sup> — أعني الإشراف على السوق — وابتداء اسنادها إلى قوم نفوسيين، وسواء كان عملهم بشكل جماعي أو تحت إمرة أحدهم، فإن ابن الصغير لم يقرن العبارة بمصطلح محدد مثل «محتسب» أو «صاحب السوق» أو «المشرف على السوق» بل هو لم يذكر أيًا منها بتاتًا مع أنه ذكر المهمة أو الوظيفة.

ويبدو أن سوق تاهرت بما لحقها من تطور واتساع قد بدأت تتطلب استقلال مسألة الإشراف عليها، فبعد ما كانت الأسواق تخضع لإشراف صاحب الشرطة — كما سلف — فقد بدأت تخضع لإشراف قوم من نفوسة، مع احتفاظ صاحب الشرطة بحق الإشراف على حفظ الأمن والنظام والآداب العامة، فذكر ابن الصغير أن صاحبي الشرطة — زكار وإبراهيم بن مسكين — حينما اتخذ الناس المسكر أسواقًا والقلمان أخذًا قطعًا ذلك في أسرع من طرفة العين.

(1) ابن الصغير: سورة الأئمة، ص 337.

(2) نفس المكان.

(3) حول الشرطة ونظامها انظر: محمد الشريف الرحوني: نظام الشرطة في الإسلام إلى أواخر القرن الرابع الهجري. الدار العربية للكتاب. 1983م.

...وشردت السراق وقطاع الطريق وامنت السبل<sup>(1)</sup>، ويبدو أن القاضي كان «يشارك صاحب الشرطة مهمة الحسبة، ويظهر هذا في حادثة وقعت لامرأة في عهد الامام أبي اليقظان، ذلك أن زكريا ابن الأمير وخدمه خطفوا ابنتها، فذهبت للقاضي محمد بن عبد الله شاكية، فقام بنفسه والى جانبه مولاة يحنان عن الفتاة، وحين ظهر عجزهما في العثور عليها وعجزه في تطبيق الأحكام، قدم استقالته للامام<sup>(2)</sup>، ويظهر مما سبق ان مهام «المشرف» كان يتقاسمها صاحب الشرطة والقاضي فيختص الأول بالأمر التي قد تستدعى أحياناً اللجوء الى القوة والعنف، ويختص الثاني فيما عدا ذلك، وربما باستثناء الاشراف على السوق الذي يظهر انه عرف استقلالاً في عهد الامام أبي اليقظان، على أن الاستقلال لا يعني الفصل التام لأن القائم بأمور السوق راجع في مهمته الى صاحب الشرطة والقاضي بالضرورة.

وقد يساعد على ترجيح رجوع لقب «الحسبة» و«المحتسب» الى عصر متأخر أن يحيى بن عمر<sup>(3)</sup>، وضع كتاباً في افرقية اطلق عليه «أحكام السوق» وكان بإمكانه أن يطلق عليه اسماً له علاقة بلفظ «الحسبة» كما أن الدرجيني ذكر بخصوص أبي المنيب محمد بن يانس — من الطبقة الخامسة — «كان دأبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان يتفقد المزارع والجنات والطرقات محتسباً ثواب الله فمتى وجد أحداً هم بإفساد شيء من ذلك بإدخال ضرر على أحد من المسلمين صرفه عن ذلك وحال بينه وبينه<sup>(4)</sup>». فإن المصدر الذي تأثر به الدرجيني ذكر قيام أبي المنيب بوظيفة الحسبة دون أن يحمل لقب «المحتسب». وعلى كل يمكن أن نتخيل المشرف على السوق وقد أحاط به أعوان وهم يحملون لوازيمهم التي تساعد في أداء مهمتهم<sup>(5)</sup>، يطوفون في الأسواق

(1) نفس المصدر: ص 363.

(2) ابن الصغير: سورة الاكمة. ص 351.

(3) عاش في افرقية في الفترة 213هـ — 289هـ/928م — 902م.

(4) الدرجيني: طبقات. ج 2. ص 297.

(5) لزيد من التفاصيل حول المحتسب والحسبة انظر: لفيال موسى: الحسبة المنعوية في بلاد المغرب العربي.

يحيى بن عمر: أحكام السوق. صحيفة معهد الدراسات الاسلامية 1956م مدريد. نشر محمود علي مكي. الناصر الاطروشي: كتاب الحسبة نشر في: R.S.O.N°27-28.1952-1953.PP.11-32.

يخبرون مكاييل هذا وصنع ذاك، ويحتيرون سلعة آخر وذلك محاربة للغش والتدليس والتلاعب والاحتكار. كما يمكن تخيلهم وقد وقفوا يفضون نزاعاً نشب بين تاجر أو صانع وشخص ما. بسبب غش في سلعة أو غش في النقود كأن تكون مبهرجة أو متأكلة أو بسبب نقص في الوزن أو بتلاعب السعر أو نحو ذلك، وقد ينشب بين تاجر وآخر أو صانع وآخر حول مكان في السوق فيتدخل المشرف لقطع ذلك الخلاف.

بل أن المشرف يمكن أن نتخيله وقد وقف أمام بناء متداع قد يعرض المارة للهلاك، فيأمر صاحبه، باصلاحه أو هدمه، أو وقف أمام تجار فيأمرهم بالنظافة أمام حوانيتهم، أو يقف أمام عوائق في طريق المارة كأن يبنى تلجر مصطبة أمام حانوته تعرقل السير فيقف أمراً التاجر بإزالتها الى غير ذلك من أمور السوق.

وقد اهتم الرستميون بأسوافهم من خلال مراقبتها — كما سلف — كما اهتم الفاطميون وغيرهم بها، فإن أبا عبد الله الشيعي نفسه كان محتسباً، وقد ذكر في كتاب وجهه الى البلدان، وما جاء فيه: «إني لم أزل بحمد الله ونعمته مذقمت لله بواجب حقه ذائباً عن دينه طالباً ثار أوليائه أمر بالمعروف وأدعو اليه وانهى عن المنكر واحذر منه»<sup>(1)</sup>، وهذا القاضي النعمان يذكر أنه ينبغي للقاضي «أن يصفد أسواق المسلمين ومكاييلهم وموازيتهم يولي ذلك من يثق به»<sup>(2)</sup>، وهو ما كانت تفعله كل دولة اسلامية.

### نظام النقود:

لجأ الناس الى تخصيص بعض السلع لتلعب دور الوسيط، لتسهيل التبادل بين الأفراد، فاستعمل المغاربة المواشي بأنواعها، فذكر الادريسي سكان جزائر بني مزغنة أن «أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم»<sup>(3)</sup> وهذا يتعلق بالبادية حيث تقل النقود المعدنية في أيديهم ولا ندري، فلعله كان بينهم من يتعامل بما

(1) القاضي النعمان: اقتراح الدعوة. ص 220.

(2) نفسه: كتاب الاختصار. ص 168.

(3) استعمل اليونان والرومان الماشية، واستعمل الصينيون الخنزير والناهي والأرز، واستعمل العرب الجمال.



يشبه تعامل سكان مدينة البصرة في المغرب الأقصى فهؤلاء كانوا يتباهون في بدء امرها في جميع تجاراتهم بالكتمان<sup>(1)</sup>.

وكان الشخص يقبل السلعة التي تلعب دور النقود ليس لذاتها بل باعتبارها سلعة يمكن استبدالها في المستقبل بالسلعة التي يريد الحصول عليها، لكن هذا الأسلوب لم يساعد على تسهيل التعامل بين الناس خاصة بعدما اتسعت الحياة الاقتصادية وتعقدت وظهر التخصص، ذلك أن هذه السلع إما أن تكون قابلة للتلف أو صعبة التجزئة، فكان لابد من البحث عن سلعة أخرى تنال اعتراف الناس وقبولها وسيلة للتعامل، ويشترط بها أن تتصف بتجانس وحداتها وقابليتها للتجزئة، وغير قابلة للتلف وسهلة الحمل وهي صفات تجتمع في المعادن.

فاتجه الناس الى اعدادها باوزان معلومة مقدرة تحت مسؤولية اصحابها الذين نقشوا عليها أسماءهم أو ميزوها بعلامات خاصة. وتولت الدولة الاشراف على هذه العلامات، فختمت القطعة بخاتم الدولة ليأمن الناس الغش والتزييف<sup>(2)</sup>.

وقد وقع اختيار اجماع الناس على تفضيل الذهب والفضة على سواهما من المعادن لسرعة استجابتهما في السبك والطرق، والجمع والتجزئة، والتشكيل وفق الرغبة، مع حسن الرونق وعدم اطلاق الروائح والطعوم الكريهة، وقبولها العلامات التي تصونها. وثبات السمات التي تحفظها من الغش، فطبعوها وثنوا بهما الأشياء كلها<sup>(3)</sup>.

ثم أقيمت دور الضرب لصك النقود، ولم يذكر المؤرخون مباشرة قيام الرستميين بإنشاء دار السكة وإن كان المرجح انهم فعلوا ذلك، فإن السكة من شارات الملك، ويظهر هذا فيما ذكره كولان G.Colin فقد أشار الى العثور

(1) الأديسي: نزهة المشتاق. ص 89.

(2) فهي عبد الرحمن: النقود العربية. ص 14. وعن النقود العربية انظر: هشام البساط: «النقد العربي».

المصارف العربية. ج 3 ع 30. حزيران. 1983. ص 23 - 46.

(3) أبو الفضل الدمشقي: الإشارة الى عمار التجارة. ص 22. وعن النقود بصفة عامة في المغرب الاسلامي انظر: صالح بن قربة: المسكوكات المغربية، من الفتح الاسلامي الى سقوط دولة بني حماد. رسالة جامعية، الجزائر 1982 - 1983.

على فلوس برنزية مضروبة في تهرت ووليل، فذكر قطعة نقود على أحد وجهيها «ضرب هذا الفلوس بتهرت» وعلى الوجه الآخر: «مما أمر به راشد بن قادم» دون أن يورد تعريفاً لراشد هذا ثم ذكر قطعة نقدية على أحد وجهيها: «ضرب هذا الفلوس بوليل» وعلى الوجه الآخر: «مما أمر به راشد بن قادم» (1)، وهو يحتمل أن يكون راشد بن قادم هنا من عمال العباسيين.

وباستقلال تاهرت عن جسم الخلافة العباسية لم يشر المؤرخون إلى مصير دار الضرب تلك، هل تواصل العمل بها، وقد تضاربت الأقوال حول هذه الدار، فإن كان دوفيس R.Devisse ينفي وجود معلومات تفيد طرق الذهب في تاهرت (2)، فإن أبا اليقظان — أباضي معاصر — يذكر في قصيدة له بخصوص الرستميين.

وكم ضربوا ذهباً سكة رأينا لها قطعة كأثر (3)  
ويشير الحبيب الجنحاني إلى العثور على نقود رستمية دون أن يذكر تفاصيل بشأنها.

إن ابن الخطيب يشير إلى «دنانير من المضروبة باسماء بني ادريس» وإن أي نائر أو قائم على السلطة كان يضرب النقود فهذا أبو يزيد مخلد بن كيداد ضرب نقوداً باسمه، عمر على زير فيه ثمانمائة قطعة ذهبية منها بنواحي القيروان، وهذا أبو الفرج الثائر بكتامة على الحكم الفاطمي «ضرب السكة» وإذا كان في مدينة قالمة — وهي أقل شهرة من تاهرت — دار للضرب بها رجل يدعى ابراهيم بن البروج، فمن الأخرى أن يكون في تاهرت دار للضرب ومن المحتمل كذلك أن تكون دور للضرب في الإمارات العلوية.

وبخضوع بلاد المغرب الأوسط للحكم الفاطمي، تكون النقود الفاطمية قد حلت محل النقود المحلية، وقد لا يكون بالضرورة أن تكون النقود الفاطمية

G.S.Colin: Monnaies de la période Idrisite trouvées a volubilis. Hespéris.1936. (1) T.XXII.P.119.

[2] D.R.S.R. et J.Deviss:Tegdaoust, 1 Recherches sur Roudaghost. T.1 Paris. 1970.P.139

(3) أبو اليقظان: ديوان أبي اليقظان. ص 2. ضرب عبد الرحمن بن رستم نقوداً نحاسية في القيروان سنة 142هـ. انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ج 1، ص 425.

هذه من تلك التي ضربت في افريقية، فرما قامت دور فرعية للسكة بضرب النقود في أنحاء بلاد المغرب الأوسط، ويظهر هذا في طلب الخير بن محمد بن خزر المغراوي من المنصور الفاطمي ان يرسل له الخطبة والسكة ليضرب النقود باسمه في الأغواط<sup>(1)</sup>، وما كان ليطلب هذا لولا أنه أمر مألوف، وهذا يجعل من المرجح انتشار دور ضرب للسكة الفاطمية في أنحاء بلاد المغرب الأوسط.

ويكون الفاطميون قد أبقوا على الدور التي كانت قائمة قبل حكمهم مع تغيير السكة، ويظهر هذا في سلوكهم حين دخلوا مصر، فقد أمر المعز بتحويل السكة وردها الى العيار الذي عليه السكة الميمونة المعزية — وحين صالح ميسور الفتى اهل مدينة فاس سنة 323 هـ «كتبوا اسمه في سكتهم» فمن المحتمل أن هذا نفسه ما وقع لدور الضرب الأخرى، وظلت دور الضرب هذه نواصل عملها حتى بعد رحيل الفاطميين الى مصر، بالتحديد الى أن قطع المعز بن باديس علاقاته بالفاطميين وامر بتبديل السكة سنة 441 هـ/1146 م — 1147 م<sup>(2)</sup>.

على كل، تمثلت النقود التي كانت تصدر عن دار الضرب، وكانت يتداولها الناس في الدينار والدرهم واجزائهما، ولم بشر المؤرخون الى وجود اضاعفهما، والدينار كلمة ترمز الى قطعة ذهبية بشكل ووزن معين، وعليها عبارات خاصة واسم الحاكم، وقد تداول الناس الدينار في تاهرت، دلّ على هذا ابن الصغير حين أشار الى أن يعقوب بن افلح الامام «ما جس بنده دينارا ولا درهما» وأضاف الدرجيني ان الامام عبد الوهاب قد «بعث ألف دينار الى اخوانه بالبصرة»، وأضاف الشماخي ان الامام أرسل اثني عشر ألف دينار الى امام المذهب الربيع بن حبيب<sup>(3)</sup> كما أكد ارشبالد نداوله فذكر أنه منذ حوالي 800 م «كان الدينار الذهبي لا يستخدم الا في شمال افريقية

(1) ابن حنّاد: اخبار ملوك بني عبيد. ص 30.

(2) ابن عناري: البيان. ج 1. ص 278. وأضاف انه ضرب منها دنانير كثيرة وامر ايضا بسبك ما كان عنده من الدنانير التي عليها اسماء بني عبيد، فسبكت. وكانت امورا عظيمة ثم بث في الناس قطع سكتهم وزوال اسماءهم من جميع الدنانير والدراهم بسائر عمله. انظر: نفس المكان ابن خلدون: العبر. ج 6. ص 325. بوروية رشيد: الدولة الحمادية. ص 44 — 45.

(3) انظر ابن الصغير: تاريخ الائمة، 356، 361. الدوجيني: طبقات، ج 1 ص 56 الشماخي: السور. ص 161.

وسوريا... (1). إلا أن المؤرخين لم يقدموا أية معلومات عن الدينار الرسمي، فلم يذكروا شيئاً عن شكله أو وزنه أو الكتابات التي عليه أو درجة صفائه أو أجزائه.

أما الدينار الفاطمية المكتشفة، فقد اتاحت للمؤرخين أن يقدموا تفاصيل وافية حول الدينار الفاطمي وتفيد النقود المكتشفة أن وزن الدينار كان يتأرجح بين 4,05 غم، و 4,20 غم، وأن كان ينخفض وزنه إلى 3.72 غم في بعض الأحيان (2).

وكان للدينار أجزاء هي: نصف وربع أو ربعي، وثمان أو ثنائي وأما السدس أو السداسي فلم يرد له ذكر إلا في نص واحد فجاء «دنانير ثمانية أو سداسية» (3) ونظراً لاختلاف وتغير وزن الدينار فقد كانت تختلف أوزان أجزائه. وكان الدرهم متداولاً إلى جانب الدينار، ففي عبارة ابن الصغير السابقة، دليل على تداوله في تاهرت، فأشار المقدسي إلى تداوله في إفريقية، وذكره ابن حماد في مطاردة المنصور الفاطمي لأبي يزيد مخلد بن كيداد، وأشار البكري من جهته إلى دراهم تنس ونكور وارشكول، ولا ندري أن كانت اشارته هذه تتعلق بالدرهم في عهده أم أنها منقولة عن سابقه.

ويختلف الدرهم عن الدينار في مادته، فهو مصنوع من الفضة ولذا فهو أقل قيمة من الدينار لأن الفضة أرخص من الذهب، فكان الصرف في أيام الرسول ﷺ الأولى كل عشرة دراهم تعادل سبعة مثاقيل أي أن الدرهم

---

(1) ارشيدالد: القوى البحرية والتجارية في البحر الأبيض المتوسط. مطبعة مصر - القاهرة بدون تاريخ. ص 261.

(2) J. Farrugia de candia: Monnaies fatimites du musée du bardo. R.T. 1963. 3 et 4eme trim.

(3) H.R. Idris: la Berbérie... T.2.P.646.

وعن السكة انظر: انظر: ابن خلدون: المقدمة. ص 226، 261. أبو الحسن علي بن يوسف: الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة. تحقيق حسين مؤنس. مطبعة معهد الدراسات الإسلامية. مدريد 1375هـ/1960م وما يتعلق بالدينار بصفة عامة انظر: النقشبندی ناصر السيد محمود: الدينار الإسلامي في المتحف العراقي. ج 1. الدينار الأموي والعباسي. مطبعة الرابطة. بغداد سنة 1372هـ/1953م.

يعادل 10/7 الدينار ومنه فإن وزن الدرهم الشرعي يساوي  $4,25 \times 10/7$  = 2,975 غراماً<sup>(1)</sup>.

وكما لا تعرف شيئاً عن الدينار الرستمي فلا نعرف شيئاً عن الدرهم الرستمي، وبالتالي ولا عن اجزائه، وإن كان من الأرجح أنه يعادل الدرهم الشرعي لضرورة نصاب الزكاة، ويبدو أن الدراهم تختلف في أوزانها عن بعضها البعض من دولة إلى أخرى، فإن درهم ارشكول يزن ثمانى خرايب أي  $0,186 \times 8 = 1,488$  غراماً أما الدرهم الفاطمي. فذكر هـ. رادريس أن وزنه 2,975 غراماً وهو بهذا يعادل الدرهم الشرعي، وربما كان ذلك، إلا أن المقدسي يذكر أن الدرهم الفاطمي زال — ناقص — عن البغدادي وربما كان هذا أقرب إلى الواقع من خلال القطع النقدية الفاطمية الفضية التي تم العثور عليها، والمضروبة في المهدية والمنصورة والتي تتراوح أوزانها بين 1.37 — 45 1. غراماً، ويبدو أنها أقرب إلى نصف درهم من أي جزء ومن هذا فإن وزن الدرهم يتأرجح بين 2.74 — 2.90 غراماً، فربما كان هذا الوزن هو الذي شاهده المقدسي مادام ينقص عن الدرهم الشرعي ب 0.075 غراماً وهو وزن الحبة تقريباً.

ويذكر المقدسي أن الدرهم الفاطمي «له نصف يسمونه القيراط»<sup>(2)</sup>، وله ربع وثمان، وهناك جزء آخر للدرهم ذكره المقدسي باسم «خروبة» فذكر أن للدرهم الفاطمي «نصف ثمن يسمونه الخروبة» في حين ذكرها الدباغ والقاضي عياض باسم «خروبة» وهي تساوي  $2.976 \times 16/1 = 0.186$  غرام تقريباً، وكان الدائق معروفاً في بلاد المغرب الاسلامي<sup>(3)</sup>، وهو يساوي 6/1

(1) الدينار هو الخفّال. وكان وزن دينار الخليفة عبد الملك 4,25 غراماً ونسبة الدرهم إلى الدينار 10/7، انظر: الرئيس: الحراج والنظم المالية. ص 366. البلاذري: فوح البلدان ص 467 وكان نصاب الزكاة من الذهب 20 ديناراً، أو من الفضة مائتي درهماً، أي أن الدرهم يساوي 10/1 من الدينار. إلا أن القيمة تتغير، قد يرتفع سعر الذهب في حين ينخفض سعر الفضة وهذا يتوقف على العرض والطلب ويقع الاختلاف من دولة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر.

(2) المقدسي: احسن التباسيم. ص 240.

(3) القاضي عياض: تراجم. ص 128.

الدرهم أي وزنه  $0.495 = 6/2,975$  غرامًا، وبما أن الدائق قيراطان، فالقيراط يساوي  $0.495 / 2 = 0.2475$  غرامًا. وهذه اوزان شرعية اما الأوزان التي كان معمولًا بها فهي تختلف قليلا عنها.

وهناك مضاعفات الدرهم منها: النواة، وهي تساوي خمسة دراهم أي  $2.975 \times 5$  غرامًا  $= 14,875$  غرامًا، والأوقية وهي تزن أربعين درهماً أي  $2.975 \times 40 = 119$  غرامًا. ثم الرطل وهو تسعون مثقالاً أو  $128 \frac{7}{4}$  درهماً، ثم القنطار، وكان معروفًا في بلاد المغرب، فقد صالح ابن أبي السرح اهل افريقية على أن يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب<sup>(1)</sup>، وذكر الواقدي انهم صالحوه على الف الف وخمسمائة الف وعشرين ألف دينار لئلي أن القنطار يساوي 8400 دينارًا.

والى جانب هذه النقود الذهبية والفضية كانت هناك نقود نحاسية هي الفلوس، وقد كانت معروفة في بلاد المغرب حتى نسب اليها مكان قريب من تنس يدعى قصر الفلوس<sup>(2)</sup>، ويزن الفلوس نصف حبة، فإذا اعتبرنا وزن الحبة على ما ذكره الرئيس ضياء الدين، كان الفلوس يساوي  $0.059 = \frac{0.059}{2}$  غراما أما إذا اعتبرناه حسبما ذكره هـ. ادريس فإن الفلوس  $0.035 = 2,070$  غرامًا.

وتظهر أهمية هذه العملة النحاسية — في أنها تساعد على اجراء العمليات التجارية البسيطة خاصة أيام الرخاء الاقتصادي وتوفر السلع حيث تنخفض الأسعار فتزداد الحاجة الى النقود البسيطة، وتقل الحاجة الى النقود الثمينة، وقد أورد المراكشي نصًا يوضح أهميتها، فأشار الى قول يحيى بن العزيز في أحد مجالس المؤمن بن علي: أما انا فقد لحقني من هذا كلفة شديدة «وعبيدي في كل يوم يشكون إلى ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر جوائجهم تتمذر لقلّة الصرف»<sup>(3)</sup>، ثم أضاف — المراكشي — أن الصروف تجري في أيدي الناس «فتتسع بياعاتهم».

(1) البلاغري: فوح البلدان. ص 227. ابن خلدون: المعبر. ج 4. 398.

(2) المقدسي: المصدر السابق. ص 229.

(3) المراكشي: المعجب. ص 207.

ويختلف القول حول كيفية التعامل بهذه القطع، فبينما يذكر المقدسي أن للدبنار الفاطمي ربما صغيرا «يؤخذان بالعدد» يذكر الخشنى صلة أمر بها عبيد الله المهدي لأبي جعفر أحمد بن زياد «فوزنت له» فقبضها وخرج ليدها مفرما «فوزنها في الدبوان»<sup>(1)</sup>، وذكر ه. ر. ادريس أن التعامل عدا كان يتم في المعاملات البسيطة.

وربما وجد الرستميون والعلويون ثم الفاطميون صعوبة في نشر نقودهم وحمل الناس على التعامل بها، خاصة وأن المجتمع في ذلك الوقت محافظ تقليدي ليست له ثقة، بل ينفر من التجديد في مجال النقد<sup>(2)</sup>، ومن المحتمل أنهم سلكوا مسلك المعز الفاطمي في مصر حين أراد حمل الناس على التعامل بالنقود الفاطمية، فقد أمر بالاكثار من ضرب نقوده واغراق الأسواق بها مع رفع قيمتها بالنسبة الى النقود الأخرى التي حدد لها سعرا رسميا منخفضا، كذلك أصدر أوامره الى عمال الخراج والحسبة بالأل يتسلموا الخراج بالأدنانير المعزية، وإذا فعل الفاطميون هذا في بلاد المغرب، فقد جنوا فائدتين: أنهم نشروا نقودهم، وأنهم اشتروا النقود السابقة من أيدي الناس بسعر أقل من قيمتها لأن هؤلاء الناس وجدوا أنفسهم قد خسروا كثيرا من انخفاض قيمة نقودهم، فأخذوا يبيعون كل ما عندهم<sup>(3)</sup>.

### نظام الأوزان:

تعتبر وحدات الأوزان ضرورية لتسهيل التعامل بين الناس في الحالات التي لا يصلح فيها الكيل أو العد، فاتخذ الناس وحدات خاصة للأوزان منها.

1 - الرطل: يختلف وزنه من منطقة الى أخرى، وإن اتفقت على التسمية، فنجد في ثنايا كتب المؤرخين والرحالة عبارة رطل القيروان، ورطل تونس ورطل تنس ورطل تاهرت وغيرها، بل إن الأبطال تختلف بحسب المادة التي توزن بها، فيقال رطل فلاني، ورطل لحم وغيرها.

(1) الخشنى: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية. ص 233. القاضي عياض. تراجع. ص 325.

(2) لومبار موريس: الإسلام في مجده الأول. تعريب وتعليق إسماعيل العربي. نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1979. ص 169.

(3) فهمي: النقود العربية. ص 62.

ويذكر المقدسي ان الارطال كانت بغدادية في الاقليم كله — المغرب — الا الذي يوزن به الفلفل<sup>(1)</sup>، وهو يقصد فيما بعد العهد الفاطمي، وهذا يعني أن رطل تاهرت كان رطلاً بغدادياً، ويذكر الثميني — وهو اباضي — ان وزن الرطل مائة وثمانية وعشرون درهماً بالدرهم الذي وزن الاوقية منه أربعون درهماً فيجيء في الرطل البغدادي ثلاثة أواق، وخمس أوقية<sup>(2)</sup>، وبما أن وزن الدرهم = 2,975 غراماً فإن الرطل البغدادي =  $2,975 \times 128 = 380,8$  غم.

وعلى كل فإن التعامل به لم يستمر، فذكر المقدسي ان الرطل الذي يوزن به الفلفل يشف على البغدادي بعشرة دراهم والآن هو المستعمل في أعمال الفاطمي بالمغرب كله<sup>(3)</sup>، وهذا يعني أن الفاطميين حملوا الناس على التعامل بالرطل الفلفلي وبالتالي كان هذا هو الرطل المستعمل في بلاد المغرب الأوسط.

وقد حلول ابن حوقل ان يحدد وزن هذا الرطل قذكر أنه خمس عشرة أوقية بالبغدادي<sup>(4)</sup>، فإذا كان الرطل البغدادي = 12 أوقية حسبما ذكره الرئيس ضياء الدين فإن الرطل الفلفلي =  $\frac{15 \times 382,5}{12} = 478,125$  غراماً وهذا يختلف وما ذكره المقدسي في اشارته سابقاً، أي يساوي الرطل البغدادي + عشرة دراهم. = 380,8 غراماً.

أو  $382,5 + (2,975 \times 10) = 410,55$  غراماً أو 412,25 غراماً، وهو يختلف عما ذكره هانز W.hinz فيذكر ان الرطل في افريقية أيام الفاطميين يساوي 406,25 غراماً<sup>(5)</sup>.

(1) المقدسي: احسن التقاسيم. ص 240.

(2) الثميني: كتاب النبل. ج 3. ص 20. وعن اللوازم انظر: نجاة ولدت السويدي باشا: التجارة. ص 88 — 89.

(3) المقدسي: المكان السابق.

(4) ابن حوقل: صورة. ص 263.

(5) أبو الحسن علي بن يوسف: الدوحة المشيكة. ص 83. الحاشية.



كذلك كانوا يستعملون رطلاً خاصاً في وزن اللحم عرف برطل اللحم، فذكر البكري بخصوص اهل تاهرت ان «رطل اللحم عندهم خمسة أرتال»<sup>(1)</sup>، وهو يقصد بها ارتالاً قرطبية. وبما أن رطل اللحم في الأندلس تسعة أرتال ونصف بالفلفلي<sup>(2)</sup>، فإن رطل اللحم التاهرتي =  $478 \times 9,5 \times 5 = 23$  كيلوغرام تقريباً، وهو أمر مبالغ فيه وربما هذه المبالغة هي التي لفتت نظر البكري فذكره في كتابه.

وفي تنس يذكر البكري ان رطل اللحم بها سبع وستون أوقية<sup>(3)</sup>، وإذا كانت الأوقية 40 غراماً تقريباً كان رطل اللحم هذا  $2,680 = 40 \times 67$  كيلوغراماً تقريباً وإذا اعتبرنا الأوقية 31,875 غم كان رطل اللحم هذا  $31,875 \times 67$  غراماً يساوي 2,135 كيلوغرام تقريباً، واما فيما يتعلق برطل تنس لغير اللحم فذكر البكري ان «رطل ساير الأشياء اثنتان وعشرون أوقية»<sup>(4)</sup>، وكان رطل اهل باغاية يقدر بعشرين رطلاً فلفلية أي  $478 \times 20 = 9,560$  كيلوغراماً.

ولم يذكر البكري ارتال مدن المغرب الأوسط الأخرى المستعملة في مختلف المواد ويبدو انها كانت السائدة في ذلك العهد وهي البغدادي ثم الفلفلي، ولم يجد حاجة لذكره لأنه ليس في الأمر ما يلفت الانتظار، وعلى كل فقد كان للرطل أجزاء استعملها المغاربة في أوزانهم فكان «نصف رطل» وزن في العهد

الرسمي  $380,8 = 190,4$  غراماً تقريباً، وفي العهد الفاطمي 205 — 206 غراماً تقريباً.<sup>2</sup> كما كان هناك «ربع رطل»<sup>(5)</sup>، ويشير الى أنها — الارطال —

- 
- (1) البكري: المغرب. ص 69. وعن الرطل المصنوع من الزجاج انظر: G. Marçais et Lévi Provençal: Notes sur un poids de verre du VIII<sup>e</sup> S. A.I.E.O. 1937. PP. 7-18.  
 (2) ابن حوقل: صورة. ص 263. اعتبرها جولفن Golvin خمسة ارتال عادية أي بغدادية واعتبر البغدادي 403 غرام ومنه فإن رطل اللحم في تاهرت =  $403 \times 5 = 2015$  غم.  
 انظر: Golvin: Le Maghreb central... P. 84. وإذا اعتبرنا الرطل الفلفلي  $412 \times 5$  غم تقريباً كان رطل اللحم في تاهرت =  $412 \times 9,5 \times 5 = 19,470$  كيلوغرام تقريباً.  
 (3) البكري: المصدر السابق. ص 62. الحموي: معجم ج 2 ص 415 مادة تنس.  
 (4) البكري: نفس المكان.  
 (5) الجوزدي: سيرة الأستاذ جودر. ص 108. القاضي عياض: تراجم. ص 98.

كانت تصنع في العهد الفاطمي وربما قبله وبعده، من الرصاص، وكان يطبع على الرطل اسم أمير المؤمنين وهذا لوضع حد لعمليات التلاعب بالأوزان والغش.

**الأوقية:** استعمل المغاربة الأوقية في أوزانهم<sup>(1)</sup> ويبدو أنها كانت تختلف من مكان الى آخر، والأوقية الشرعية = 119 غراماً، وهي حسب ابن حوقل  $\frac{478}{15} = 31,86$  غراماً تقريباً، وحسب المقدسي فإن الأوقية  $\frac{380,8}{12} = 31,725$

غراماً وهي - الأوقية - 37.776 غراماً<sup>(2)</sup>، وذكر الثميني أوقية تعادل الأوقية الشرعية. **المنقال:** كما استعملوا «وزن منقال»<sup>(3)</sup>، ويذكر الرئيس ضياء الدين أن «الدينار هو المنقال» أما هـ.ر. ادريس فهو يعتبر الدينار متقالاً تقريباً وقد جعل الثميني المنقال «وزن ثلاثة قراريط من فضة، والقراريط ثلاثون حبة من شعير أوسط» أي  $0,059 \times 30 \times 3 = 5,30$  غراماً وهو في هذا يختلف عن الدينار.

**الدرهم:** وتعاملوا في أوزانهم بالدرهم، فذكر البكري درهم تنس ودرهم ارشقول، وربما خصصهما بالذكر لمخالفتهما دراهم باقي أنحاء البلاد، فدرهم ارشقول يساوي ثمانى خروبات. أي  $0,236 \times 8 = 1,888$  غراماً وذكر جولفن Golvin أن درهم ارشقول 8 خروبات وأن وزن الدرهم 2,97 غراماً، ولما كان رطل ارشقول يعادل رطل تنس فربما تساوي درهماً هـ.ر. وبالتالي كان درهم تنس = 1,888 غراماً، أما باقي أنحاء البلاد فإن هـ.ر. ادريس يعتبره 3,148 غراماً، وهو يختلف عن الدرهم الشرعي 2,975 غراماً.

وما داموا تعاملوا بالدرهم فقد تعاملوا بأجزائه، فذكر البكري «ربع درهم» وإن اهل تنس تعاملون بوحدة تعرف «صقل أو صقلية» وإذا صح أن درهم تنس يساوي درهم ارشقول أي 1,888 غراماً فإن الصقلية تساوي  $1,888 \div 12 = 0,157$  غم وتعامل اهل تنس بالحبة، فذكر البكري

(1) الجوزدي: نفس المكان.

(2) H.R.Idris. La Berbérie orientale...T.2.P.649.

Golvin: Le Maghreb Central..P.84.

(3) الجوزدي: المكان السابق.

بخصوصهم أن «الجاري عندهم... وحيثان مضروبة كلها»<sup>(1)</sup> فيكون وزن هذه الوحدة التي تعادل حبتين =  $2 \times 0,059 = 0,118$  غراماً، لكنهم يتعاملون بها عدداً.

الخروية: ذكرها البكري حين تعرض لمدينة ارشقول واعتبرها وزن أربع حبات أي أن وزنها =  $0,059 \times 4 = 0,236$  غراماً.

القيراط: ذكر البكري بخصوص تنس أن «الجاري عندهم قيراط وربع درهم... مضروبة كلها»<sup>(2)</sup>، وأشار أبو الحسن علي بن يوسف أن وزنه «ثلاث حبات من وسط حب الشعير بالدينار الذي هو دينار الزكاة» أي  $0,059 \times 3 = 0,177$  غراماً، أما الثميني فيرى أن «القيراط ثلاثون حبة من شعير أوسط» أي  $0,059 \times 30 = 1,77$  غراماً.

وبخصوص قيراط تنس ذكر البكري أنه «ثلث درهم عدل بوزن قرطبة»<sup>(3)</sup> وهو لم يتطرق إلى قراريط باقي نواحي البلاد.

المسن: لم يرد ذكر نص مباشرة في كتب المؤرخين أو الرحالة التي بين أيدينا، يكشف عن استعمال المقاربة لهذه الوحدة إلا أن الاصطخري ذكر أن «من» بغداد مستعمل بجميع فارس «وعامة ما دخلته من أمصار المسلمين»، ويؤكد ابن حوقل هذا فيذكر أن المن الأصغر بفارس كمن العراق مستعمل بفارس «وعامة البلدان وأمصار المسلمين» ومثلها ذكر المقدسي<sup>(4)</sup>، ويحدد الاصطخري وابن حوقل وزن المن بأنه يساوي مائتين وستين درهماً أي =  $260 \times 2,975 = 773,5$  غراماً في حين يذكر المقدسي أن رطل العراق يساوي نصف المن أي أن المن =  $2 \times 382,5 = 765$  غراماً.

(1) البكري: المغرب. ص 62.

(2) نفس المكان، وعن النفوذ: باشا (ولدت السومسي) غداة التجارة. ص 97.

(3) نفس المصدر: ص 62.

(4) الاصطخري: المسالك. ص 156، ابن حوقل: صورة. ص 263، المقدسي: أحسن التقاسيم. ص 99.

القنطار: ظهر القنطار في تاهرت كغيرها من المدن، وكان منه «قنطار الزيت» و«قنطار الفلفل» ويبدو أنهما يختلفان عن القنطار بصفة عامة، الذي يختلف المؤرخون في تقديره، فإن أهل إفريقية صالحوا ابن أبي سرح على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار بيزنطي وهي ثلاثمائة قنطار ومنه فالقنطار =  $\frac{3}{1}$  8333 دينار بيزنطي، وهو يساوي الدينار الشرعي 4,25 غراماً<sup>(1)</sup>، ومنه فالقنطار = 35,417 كيلوغراماً وحسبما ذكره الواقدي بخصوص صلح أهل إفريقية فإن القنطار 35,7 كيلوغراماً أو بناء على ما ذكره الديباغ فالقنطار = 21,25 كيلوغراماً. إلا أن ابن خلدون يعطي وزناً مخالفاً للقنطار حين يتعرض إلى تركة الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي وبناء على ما ذكره فإن القنطار = 42,5 كيلوغراماً.

أما قنطار الزيت في تاهرت فيذكر البكري أنه قنطاران غير ثلث، وهو يعني بوزن قرطبة، والقنطار القرطبي يساوي مائة رطل وثمانية وعشرين رطلاً، فإذا اعتبرنا الرطل 382,5 فإن القنطار القرطبي = 49 كيلوغراماً ومنه فإن قنطار الزيت في تاهرت حوالي 82 كيلوغرام<sup>(2)</sup>.

ويضيف البكري أن قنطار الفلفل وغيره من المواد المستوردة في تاهرت فإنه قنطار عدل<sup>(3)</sup>، وهو أيضاً بوزن قرطبة؛ وإذا اعتبرنا قنطار عدل هو قنطار قرطبي، فهذا يعني أن قنطار الفلفل في تاهرت = 49 كيلوغراماً<sup>(4)</sup>.

وكانت الأوزان مصنوعة من الرصاص، وكل منها مطبوعة باسم الحاكم، وكانت نحدد من حين إلى آخر فيعاد طبعها، وكان يعاقب كل من يحاول التلاعب والغش في الأوزان، ويبدو أن الفاطميين كانوا يتخون بعض أوزانهم من الزجاج. وإنهم كانوا يطبعون هذه الأوزان التي تدعى صنجا مفردة صنجة.

(1) ضياء الدين الريس: الحراج. ص 364. أن القنطار العادي = مائة رطل انظر:

Golvin: Le Maghreb Central...P.84.

(2) يعتبره جولفن 47 كيلوغراماً. انظر Golvin. Le Maghreb...P.84.

(3) البكري: المغرب. ص 69.

(4) اعتبره جولفن 150، 20 كيلوغراماً. انظر: Golvin. Loc. cit.

— شأن الأوزان الرصاصية فذكر المقدسي أن «صنجهم من زجاج مطبوع» (1).  
وقد ساعدت هذه الأوزان على تسهيل عملية التبادل التجاري وإن كان  
جولفن GoLvin يرى أنها لا تؤدي مثل هذا التسهيل في مجال التجارة الخارجية  
بسبب اختلافها، لكن التجار الذين يمارسون تجارة خارجية هم في الغالب تجار  
الجملة، فحاجتهم إلى الأوزان الصغيرة تكاد تكون معدومة. كذلك فإنهم لن  
يعدموا الوسيلة التي يتعاملون بها وإيجاد الحلول لهذا الاختلاف، ثم من جهة  
أخرى فإنه اختلاف مقصور على مدينة تنس.

### نظام المكايل:

كان لسكان بلاد المغرب الأوسط مكايل يستعملونها في حياتهم اليومية  
وفي معاملاتهم التجارية، وقد ذكر المؤرخون والرحالة بعضها، ويبدو أنها كانت  
تختلف من مكان إلى آخر وكان منها:

1 — المد: ذكر البكري بخصوص مكايل أهل تاهرت أن مدهم الذي  
يكتالون به خمسة أقدرة ونصف قرطبية (2)، ويبدو أن المد يختلف في تاهرت  
عنه في بعض النواحي، ولذا نجد: مد تاهرت، مد القيروان، مد سجلماسة، مد  
مليلة ومد وجدة وغيرها.

وذكر البكري أن القفيز القروي مائتا مد وأربعة أمداد في مد النبي وذلك  
بكيل قرطبة خمسة أقدرة غير ستة أمداد ومنه فإن القفيز القرطبي  
 $6+204 = 42$  مدا نبويًا وعليه فإن مد تاهرت  $5,5 \times 42 = 232$  مدًا

5

نبويًا وبما أن المد النبوي  $3/1 = 1$  رطلًا فإن مد تاهرت  $3/1 \times 42 = 126$

(1) المقدسي: احسن التقاسيم. ص 240.  
(2) البكري المكان السابق. وعن الأوزان والمكايل انظر:

H.R.Idris: La Berbérie.. T.2.P647

Ibide: Mesure de capacités de l'époque Ziride. C.T.1945.PP.119-126.

R.Brunchvig: Mesures Tunisiennes. A.I.E.O.1937 P.86.

Ibid: Mesures de capacités. R.A.1935 P.87.

نجاة ولدت السويسي باشا. التجارة. ص 89.

(3) ذكر جولفن Glovin أن مد تاهرت  $185,625$  لثرا بناء على أن قفيز قرطبة 57 و 33 لثرا.  
انظر: Golvin: Maghreb Central...P.84.

= 309 3/1 رطلاً أو بما أن مد النبي = 1,733 غراماً فإن مد تاهرت = 1,733×242 = 419,386 كيلوغراماً<sup>(1)</sup>.

2 — المدي: يذكر الحموي أن السنة افقرة قرطبية تساوي نصف مدى أي أن المدي يساوي  $2 \times 42 \times 6 = 504$  مداً نبوياً، وهو بهذا يختلف عن المدي الذي ذكره محمد ضياء الدين الريس وأشار إلى أنه يعادل 45 رطلاً. إذ بما أن المد النبوي =  $1 \frac{3}{1}$  رطل فإن المدي =  $504 \times \frac{3}{1} = 1512$  رطلاً.

القفيز: لم يشر المؤرخون إلى قفيز خاص ببلاد المغرب الأوسط، ويبدو أن قفيزها هو القفيز المعروف في سائر بلاد المغرب، وربما حملت عبارة البكري: «والقفيز بالقيروان وأعمالها...» هذا المعنى، وتفيد هذه العبارة أيضاً في التأكيد على أن القفيز كان مستعملاً، ويبدو أنه كان يستعمل لكليل السوائل كالزيت وكذلك الحبوب، ويظهر هذا في قول القاضي ابن غام لحادمه: «ادفع لأني الوزن خمسة افقرة قمحاً وخمسين قفيزاً زيتاً»<sup>(2)</sup>.

ويفيد المقدسي أن قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمناً، والثلثم ستة أمداد بمد النبي<sup>(3)</sup>، أي أنه يساوي  $6 \times 32 = 192$  مداً نبوياً. لكن القلقشندي يذكر أن القفيز ست عشرة وية، كل وية اثنا عشر مداً قروياً أي أنه يساوي  $12 \times 16 = 192$  مداً قروبياً. ثم ينبه إلى تقارب المدين النبوي والقروي وهذا ما سبقه إليه البكري، فقد أشار هذا إلى أن القفيز بالقيروان وأعمالها ثمانى ويات والوية أربعة أثمان والشمته ستة أمداد بمد أوفى من مد النبي<sup>(4)</sup> أي أنه يساوي  $8 \times 4 \times 6 = 192$  مداً أوفى، وقد نبه أن «مقدار تلك الزيادة في القفيز كله اثنا عشر مداً ومنه فإن قفيز القيروان =  $192 + 12 = 204$  مداً نبوياً، ويظهر أنه يختلف عن قفيز الزيت، وحسب البكري فإن «قفيز الزيت عندهم — القيروان — ثلاثة ارطال فلفلية أي حوالي

(1) ذكر جولفن Golvin أن مد تاهرت = 185,625 لترًا بناء على أن قفيز قرطبة 57 و 33 لترًا.

(2) الديباغ: معالم الأيمان. ج 2. ص 166. انظر: Golvin: Le Maghreb Central... P.84.

(3) المقدسي: احسن التقاسيم. ص 240.

(4) البكري: المغرب. ص 26 — 27.

1,23 كيلوغرام، من الطبيعي أن يختلف وزن وحدة الكيل من مادة الى أخرى بسبب اختلاف الأوزان النوعية للمواد.

وعلى كل، فقد كان للقفيز أجزاء تعامل الناس بها وكان منها:  
أ - نصف القفيز: ذكره القاضي عياض في اشارته الى أن البهلول بن راشد «أمر أن يشتري له ربع نصف القفيز» (1) طعاماً.

ب - ربع القفيز: وقد أشار الحبيب الجنيحاني الى استعماله (2)، بل يمكن أن يستدل على وجوده من عبارة للقاضي عياض «ربع النصف» إذ انها توحي بوجود «نصف النصف» والتي كانوا يقصدون بها (2) ربع القفيز، ويبدو انهم كانوا يتجنبون استعمالها لعدم الخلط بينها وبين وحدة أخرى (تدعى الربع). وعلى كل فإن ربع القفيز يساوي  $204 \div 4 = 51$  مدا نبويًا، أي  $1,733 \times 51 = 88,383$  كيلوغراماً.

ج - ربع النصف: ويظهر استعمالها في العبارة السابقة وكانوا يطلقونها للدلالة على  $8/1$  (ثمان) القفيز، لكنهم كانوا يتحاشون استعمالها لوجود وحدة أخرى تدعى (الثلث) وربع النصف يساوي  $25,5$  مدا نبويًا أو  $1,733 \times 25,5 = 44,1811$  كيلوغرام.

4 - الربع: ذكر المقدسي أن «الربع ثمانية عشر رطلاً» (3)، وإذا اعتبرناها أرتالاً بغدادية كان الربع  $18 \times 380,8 = 6,854$  كيلوغرام، ومن هذا يتضح اختلافه عن ربع القفيز.

5 - الثمن: دل الدرجيني على استعماله، فذكره في مجرى حديثه عن أبي الخطاب وسيم قائلاً: ان ابنه اعطى «كل رجل من أهل الرقة ثمين قمحاً» (4) كما ذكره المقدسي فأشار الى أن «الثلث ستة أمداد بعد النبي» «وان قفيز القيروان اثنان وثلاثون ثمنًا» كما سلف - أي أن «المن

(1) القاضي عياض: تراجم. ص 30.

(2) الحبيب الجنيحاني: المغرب. ص 69.

(3) المقدسي: احسن التقاسيم. ص 240.

(4) الدرجيني: طبقات ج 1. ص 116.

$= 1,1733 \times 10,398$  كيلوغراماً كما ذكره البكري على صورة «الثمينة»  
ومساوياً «سته امداد بمد أوفى من مد النبي» وربما كان يقصد بمد القيروان أي  
أنه  $= 11$  كيلوغراماً تقريباً حسب البكري. ومن هذا يتضح اختلاف الثمن  
أو الثمنة عن ربع الفغيز.

6 — الصاع: ذكر الدرجيني الصاع كأداة للكيل، جاء ذلك في مجرى  
حديثه عن مهدي النفوسي — من الطبقة الخامسة — فقال: ان هذا كال  
«بصاعهم لم يطفف ولم يبخس»<sup>(2)</sup>. كما ذكره الثميني مشيراً الى أن «الصاع  
أربعة أمداد» أو «خمسة أرتال وثلاث رطل» عراقي. ويرجح أن يكون صاع بلاد  
المغرب الأوسط مساوياً صاع الرسول وذلك لضرورة الزكاة، لهذا كان ما ذكره  
الثميني مطابقاً لما جاء عند الماوردي والبي عبيدة صاحب كتاب «الأموال».

7 — القلبة: وهي ثمن الصاع، وعبرة عن أربعة أرباع وكل ربع يساوي  
نحو أربعة كيلوغراماً بحسب الوزن الحديث.<sup>(3)</sup>

8 — الوية: ذكرها الدباغ في عبارته «أخرج له ويتين قمحاً» وهو  
بهذه العبارة قد دل على أنها وحدة لكيل الخبواب كما ذكرها البكري، مشيراً  
الى أنها «أربعة أثمان»<sup>(4)</sup>، أي أن الوية  $= 4 \times 6 = 24$  مداً فروبياً، أو  $24/192$   
 $\times 204 = 25,5$  مداً نبوياً، ويبدو أن الوية كانت مستعملة في جميع أنحاء  
المغرب باستثناء باغاية التي خص البكري وبينها بالذكر، فأشار الى أن «كيل  
الطعام بباغاية بالوية وهي أربعة وستون مداً بمد النبي» وتساوي بكيل أهل قرطبة  
قفيزاً ونصفاً.

(1) البكري: المغرب، ص 27.

(2) الدرجيني: المصدر السابق، ج 2، ص 314. الثميني: كتاب النيل ج 3، ص 19 — 20.

(3) لقيل موسى: الحسية للذهبية، ص 77. وعن المكائيل والموازن في المغرب الاسلامي نفس المرجع.  
ص 73 — 78.

(4) ذكرت نجاة ولدت السومسي باشا: ان الوية 12 مداً بمد النبي. انظر التجارة في المغرب الاسلامي  
ص 89. ويبدو انها تأثرت بما ذكره ابن فضل الله العمري: وكل وية اثنا عشر مداً فروبياً يقارب  
المد النبوي، انظر ابن فضل الله العمري: وصف أفريقيا والأندلس، ص 4.



ويظهر أن المقدسي يذكر الوية تحت اسم «الدوار» في بلاد المغرب. وذلك في عبارته أن «مكايل الفاطمي الدوار وهي التي تشف على وية مصر بشيء يسير» ثم يحاول أن يصفها فيذكر أنه «قد الجم رأسها بعارضة من حديد وأقيم عمود من قاعها الى العارضة فوقه حديد يدور على رأس الوية، فإذا اترعها ادار الحديد فمسحت فم الوية وصح الكيل»<sup>(1)</sup>.

10 - الوسق: (2) أشار المؤرخون الى مكيال آخر يدعى «الوسق» فورد عند الدرجيني «ان عندنا ارضا كريمة قدر الكساء يحمل البحر وسقه حباً كما ذكره الثميني مشيراً الى أنه «ستون صاعاً» وأضاف قائلاً «في الوسق أربعمائة رطل» ويعتبر أبو الحسن على بن يوسف - صاحب كتاب الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة - ان الوسق هو حمل حمل، أما ضياء الدين الرئيس فذكر ان الوسق ستون صاعاً و = يساوي ثلاثمائة وعشرين رطلاً ويساوي خمسة أقفزة ويساوي مائة وثلاثين كيلو غراماً.

11 - الصفحة: مكيال آخر ذكره البكري وغيره يدعى «الصفحة» وقد خص البكري صفحة تنس نكور و«صفحة نكور»، فذكر بخصوص أهل تنس أن «كيلهم يسمى الصفحة» وأضاف بخصوص أهل نكور أن كيل نكور يسمى الصفحة<sup>(1)</sup>، ويبدو أن هذا التخصيص لاختلافهما عن غيرهما، فإن صفحة تنس تساوي 144 مداً نبوياً. بينما كانت صفحة نكور 25 مداً نبوياً، وكان للصفحة اجزاء ذكر البكري احدها وهو «السدس الذي يساوي نصف صفحة أي 12,5 مداً نبوياً.

12 - القادوس: وهو من المكايل التي كانت مستعملة فذكر البكري وجود هذه الوحدة في تنس، وأشار الى أن القادوس ثلاثة أمداد بمد النبي ﷺ.

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم. ص 240.

(2) الدرجيني طبقات. ج 2. ص 313 الثميني: كتاب النيل. ج 3. ص 19، أبو الحسن على بن يوسف. الدوحة. ص 86. ضياء الدين الرئيس. الخراج. ص 344. 346. 347.

وانظر: H.R.Idris: La Berbérie. T.2. P.650

(3) البكري: المغرب. ص 62. 91. لقبال موسى: الحسبة. ص 75. ويبدو أن الصفحة غير ثابتة فكانت في العهد المنصبي = 12 مداً حصياً، 58 مداً حصياً = 12 مداً نبوياً.

13 - الكر: واستعمل المغاربة كذلك مكيالاً يدعى «الكر» فذكره أبو المهلب هيثم بن سليمان القيس صاحب كتاب «أدب القاضي والقضاء» فجاء في إحدى الفتاوي: «لو أن رجلاً اشهد على نفسه لرجل بكر خنطة...» (1) وبلاحظ من العبارة انه مكيال لكيل الحبوب، ويقدم الرئيس ضياء الدين توضيحاً فيذكر أن الكر ستون قفيزاً أو اثنا عشر وسقاً أو سبعمئة وعشرون صاعاً وثلاثة آلاف وثمانمئة وأربعون رطلاً.

14 - القسط: كان القسط معروفاً في بلاد المغرب، ذكره القاضي عياض في عبارة «... وبيده قسط زيت» وفي عبارة أخرى. «مددت يدي للقسط فانقلب وذهب ما فيه من ماء». ويفهم من هاتين العبارتين أن القسط مكيال للسوائل وأضاف الرئيس ضياء الدين من جهته ان القسط نصف صاع (2).

15 - المطر أو المطيرة: كشف البكري عن استعماله في بلاد المغرب ويعطى له تعريفاً، فيذكر أنه «كيل يسع خمسة أقدرة من الزيب» (3)، وقد سبقت الإشارة الى أن قفيز الزيت ثلاثة أرتال فلفلية، وعليه فإن المطر يساوي 16 رطلاً فلفلياً.

16 - القلة: يبدو أن القلة من مضاعفات المطر، فإن هـ.ر.ادريس يذكر ان القلة ثلاثة امطاره، أي أنها  $3 \times 5 = 15$  قفيزاً زيتاً أو  $3 \times 15 = 45$  رطلاً فلفلياً.

17 - الحفنة والقبضة - ذكرهما هـ.ر.ادريس دون أن يذكر شيئاً بخصوصهما (4)، ويبدو أن الحفنة هي ملء كف ي رجل معتدل وضعتا جنباً الى جنب، أما القبضة فهي ملء كف واحدة مضومة.

(1) أبو المهلب هيثم بن سليمان القيس: أدب القاضي والقضاء. ص 122. الرئيس: الخراج. ص 245.  
(2) القاضي عياض: تراجم. ص 16. 159. الرئيس: الخراج. ص 330.  
(3) البكري: المغرب. ص 27.

(4) H.R.Idris: La Berbérie...T.2. P.651

(5) Loc. Cit.

وقد ذكر البكري مكابيل محلية ولا ندري فيما إذا كانت معروفة في بلاد المغرب الأوسط ؟ وكان منها «الفنقة» أو الفنية «القرطبية» وهي حسب المقدسي تعادل نصف ققيز، وحسب البكري تعادل عشرين مداً نبويًا<sup>(1)</sup>، ومن المرجح أنها كانت معروفة في بلاد المغرب الأوسط بحكم وفرة الاندلسيين فيه. ومنها «الزلاقة» وهو مكبال سجلماسي يعادل ثمانية امداد نبوية وهناك مكبال سجلماسي آخر، هو «القنقل» الذي يعادل ثمان زلاقات أي  $8 \times 8 = 64$  مداً نبويًا وفي أرشقول مكبال آخر يسمونه «عمورة» وهو يعادل ستين مداً نبويًا<sup>(2)</sup>. ولا ندري أن كان سكان المغرب الأوسط عرفوا «المكوك» و«الأردب» و«الجريب» أم لا ؟، إذ إن أعمال المؤرخين موضوع المكابيل لا ينفي وجودها، وإن كان يجعل الصورة غير تامة الوضوح.

نظام المحسبة أو ولاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:  
وهي وظيفة دينية لأن قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقوله تعالى: «ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»<sup>(3)</sup>، وقوله: «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك هم الصالحون»<sup>(4)</sup>، ولقول الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وقد أشرنا سابقاً إلى قيام صاحب الشرطة بهذه الوظيفة في عهد الامام اقلج، وقيام القاضي بما يدخل في اطارها في عهد الامام أبي اليقظان، كما أشرنا إلى تعيين هذا الامام جماعة من نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذه الوظيفة تابعة للقضاء، فإن ابن خلدون يذكر أنها «خادمة لمنصب القضاء» ويضيف أنها «كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل

(1) البكري: المصدر السابق. ص 112. المقدسي: الاحسن التقاسيم. ص 240.

(2) البكري: نفس المصدر. ص 78. 151. وكلمة «الزلاقة» كلمة شعبية في جهات في المغرب الأوسط تعني رأس الماشية.

(3) سورة اهل عمران. الآية 104.

(4) نفس السورة. الآية 115.

العبيدين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلية في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره. (1).

وكان يشترط فيمن يوليه القاضي أمر هذه الوظيفة أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة عفيفاً عن أموال الناس متصفاً بالأخلاق الفاضلة، وورعاً نقياً، وقبل كل شيء أن يكون مسلماً حراً باللقاً عاقلاً قادراً، وكان الوالي والقاضي وصاحب الشرطة بشدون أزره في أداء مهمته.

وهذه الوظيفة واسعة شاملة لكافة نواحي الحياة لأنها تدور حول كل ما يقع فيه منكر أو كل ما يمكن أن يكون فيه أمر بمعروف، فهي تشمل التجار واسواقهم وأهل الحرف، والمحافظة على الآداب العامة في الطرقات والساحات ونهيم بوضع الحق في نصابه، وقد تناولت كتب الحسبة (2) هذه الوظيفة بالتفصيل نظراً لأهميتها في بناء مجتمع إسلامي سليم.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة. الفصل المجادي والثلاثون. في المخطط الدينية الخلافة: الحسبة والسكة. ص 225.

(2) لمزيد من التفاصيل حول وظيفة الحسبة انظر: أبو العباس أحمد بن سعيد: التيسير في أحكام التسعير. نشر لقبال موسى: انظر ابن عبيدون: رسالة في القضاء والحسبة. المجلة الاسبوعية. جوان 1934 نشر وترجمة ليفي بروفنسال الشيزوري عبد الرحمن بن نصر: نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق ونشر: الباز العربي. القاهرة 1946م نقولاً زيادة الحسبة والمختص في الاسلام بيروت 1963 ك. بيدرو شمالي: الحسبة بإفريقية والأندلس الدفاتر التونسية C.T عدد 69 — 70. 1970م ص 87.



## الفصل الرابع التجارة الخارجية

تعدى نشاط تجار المغرب الأوسط الأقطار المحلي الى العالم الخارجي، فسارت قوافلهم في جميع الاتجاهات، نحمل سلعاً مختلفة في ذهابها وإيابها، وقد كانت هذه الحركة نشطة مزدهرة، ويعود هذا الى عدة عوامل أسهمت مجتمعة في نشاط الحركة التجارية الخارجية.

العوامل التي ساعدت على ازدهار التجارة الخارجية:

1 — النظرية الإسلامية: إذ أن الإسلام يشجع التجارة ويحث عليها، شريطة عدم ادخال الحرام فيها، فقال الرسول ﷺ «الجالب مرزوق والمحترق ملعون» وقال «ما من جالب يجلب طعاماً الى بلد من بلدان المسلمين فيبيعه بسعر يومه الا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد». وأضاف «ان الجالب الى سوقنا كالجهاد في سبيل الله» ويقول «سافروا تغنموا»<sup>(1)</sup>.

2 — مساهمة الدولة: فقد مارس الرستميون والأمراء العلويون والفاطميون التجارة، فكأنهم يوحون للناس بأن يقننوا بهم فإن الامام أفلح بن الامام عبد الوهاب أعد قافلة للتوجه الى بلاد السودان، كما أن مدن العلويين كانت تقتن غالباً باسم «سوق...» وان المنصور الفاطمي يقول «ملت الى التجارة في الحلال الطيب» وكانت أم الأمراء — زوجة المعز الفاطمي — قد وجهت صبية لتباع في مصر.<sup>(2)</sup>

وهذا القاضي النعمان يوصي برعاية التجار «أنظر الى التجار وأهل الصناعات، فاستوص بهم خيراً فإنهم مادة للناس...» كما سلف — وساهم الرستميين وغيرهم في تشجيع التجارة من خلال نشر العدل واقامة المحسنين، وربما حاول أبو اليقظان أن يطبق بعض النظم المتقدمة والمتطورة التي شاهدها في عاصمة العباسيين، وان سيطرة الروح الدينية، وانتساب العلويين للرسول يوحى بأن هؤلاء جميعاً لم يسنوا قوانين تعرقل التجارة، ألم يمنع الامام عبد الوهاب ابنه أفلح من السفر الى بلاد السودان لخطأ في مسألة فقهية.

(1) القاضي النعمان: كتاب دعائم ج 1. ص 342. الشوربجي: التسمير ص 62.

(2) المقرئ: المخطط القرظية ج 2. ص 159.

ونفس هذه السياسة قام بها الفاطميون فعينوا المحتسبين<sup>(1)</sup> وعملوا على نشر الأمن ونظموا التجارة وجعلوا لها قوانين محددة، فذكر ابن حوقل أن لسلطان المغرب أمعاء بمرسى الخرز على ما يخرج منه من المرجان. وكان لسلطان تنس «مراصد على المتاجر الداخلة إليها والخارجة والصادرة والواردة»<sup>(2)</sup>.

### 3 - الموقع الاستراتيجي لبلاد المغرب الأوسط:

إذ تشكل هذه البلاد حلقة وصل بين اجزاء المغرب الاسلامي وبما وراها من البلاد فهي تربط ولاية افريقية وما وراها بالمغرب الأقصى وما وراعه، وتربط بلاد السودان بالأطراف الأخرى، مما جعل هذه البلاد جسراً ومعبراً، وزاد في أهميتها. وقد سمح لها هذا الموقع أن تدخل ضمن دائرة التجارة الدولية حيث كان التجار يتجهون من عاصمة الخلافة الى أوروبا شرقاً وإلى شمال افريقية فالأندلس فأوروبا في دائرة مغلقة<sup>(3)</sup>.

4 - سهولة المواصلات: فإن الطرق التجارية التي تربط البلاد بما يجاورها كانت تخترق منطقة السهول المرتفعة أو السهول الساحلية، من الشرق الى الغرب، ولا يوجد خلالها أي عائق طبيعي، فإن نهر الشلف وهو أكبر أنهار المغرب الأوسط ليس أكثر من مجرد سيل في فصل الصيف، كما أنه لا توجد جبال شاهقة تقف سداً يستحيل أو يصعب اختراقه أمام الطريق باتجاه شرق غرب، فإن جبال كتامة والونشريس قد سهل تجنبها بحيث أصبحت على الهامش، ونفس الأمر يقال فيما يتعلق بطرق شمال جنوب.

5 - انتشار الأمن والهدوء: وهما أمران ضروريان للانتعاش الاقتصادي بوجه عام، وقد توقفت الحروب التي شهدتها بلاد المغرب الاسلامي في حوالي

---

(1) كان محمد بن أبي سعيد الميلي صاحب السوق في القيروان ت 299هـ/912م، ولا ندري من كانوا أصحاب اسواق المغرب الأوسط.

(2) ابن حوقل: صورة، ص 78. الحبيب الجنتاني: السياسة المالية للدولة الفاطمية. مجلة الاصاله. نوفمبر 1979 ص 58. وما يدل على اهتمام الفاطميين بالتجارة ان دخل احد أبواب القصورية في يوم واحد بلغ 26000 درهم. انظر، البكري: المغرب. ص 25.

(3) لمزيد من التفاصيل. موريس لومبارد: الاسلام في مجده الأول. ص 325 وما يليها.

منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً، وقد كان جوهر العلاقة التي ربطت الدولة الرستمية ببحرانا قائماً على المصلحة وحسن الجوار<sup>(1)</sup>. ويبدو أن الذي امل على جميع الأطراف هذه السياسة اقتناعهم بعدم جدوى هذه الحروب في وقت بدأت البلاد الاسلامية تشهد ازدهاراً اقتصادياً شاملاً وانتعاشاً للطرق التجارية الدولية، فكان مفروضاً على دول المغرب الاسلامي أن تسهم في هذا المجال بحكم وقوعها بين كتل اقتصادية ثلاث: المشرق الاسلامي وغرب أوروبا وبلاد السودان.

وهكذا استمرت سياسة السلم طيلة القرن الثالث الهجري بل وطيلة القرن الرابع الهجري، فإن الحروب التي خاضها الفاطميون ليست أكثر من نزاع على السيادة وتضارب المصالح، ولم تكن تلك الحروب لتترك هزة عنيفة في الحياة الاقتصادية، لأن الفاطميين أنفسهم كانوا أحرص من غيرهم على انتعاش الاقتصاد، وهم في أمس الحاجة الى ذهب السودان وعبيده، ليتمكنوا من تحقيق اهدافهم السياسية البعيدة وربحان لهذا الغرض عمل الفاطميون على نشر الطمأنينة، فيذكر القاضي النعمان بخصوص عهد أبي عبيد الله الشيعي «ان التجار يسافرون بالأموال الصامتة والنعم الظاهرة يمر بها الواحد والاثنان في الجبال والشعاري بالفلوات والبراري فيبيت حيث أمسى ويسير حيث أحب وأشتى كأنما هو في سوقه يبيت آمناً ويصبح سالمًا»<sup>(2)</sup>. ويضيف قول أبي عبيد الله الشيعي أنه سيعمل على أن «يسلك السفر والسيارة بلا تخفير ولا سفر من لدن أرض مصر الى أقصى حجر بالمغرب»<sup>(3)</sup>.

وبالفعل فإن تلك الحروب لم تعرقل حركة المرور، فإن ابن حوقل نفسه جاب بلاد المغرب شرقاً وغرباً تاجرًا، وكتب التراجم حافلة بذكر الراحلين

(1) انظر: جوديث عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. مواضيع متفرقة. العدد ابراهيم احمد. بلاد الجزائر تكونها الاسلامي العربي. دوز علي: تاريخ المغرب الكبير - القاهرة 1964.

Talbi Mohammed: L'émirat Aghlabide PP.353 et suite

(2) القاضي النعمان: اقتراح الدعوة ص 125.

(3) نفس المصدر. ص 235.



شرقاً وغرباً،<sup>(1)</sup> وحتى في خضم الصراع الفاطمي الأموي<sup>(2)</sup> فإن الخليفة الناصر الأموي حين أقدم على بناء مدينة الزهراء، ((جلب إليها الرخام من قرطاجنة وإفريقية))<sup>(3)</sup>.

وانقطعت القرصنة في البحر الأبيض المتوسط بسبب السيطرة الإسلامية عليه، حتى غدا بحيرة إسلامية. ويرى حسن محمود أن السيادة الإسلامية هذه لم تتأثر بالصراع الأموي الفاطمي، وكأنهما شبه متفاهمين على رد عدوان الفرنجة والنيل منهم، ومما ساعدهم على هذه السيطرة اهتمام الطرفين بأساطيلهم الحربية.

وقد كان لهذه الوضعية انعكاس إيجابي على التجارة الخارجية بل وعلى مختلف النشاط الاقتصادي فاطمأن التجار على تجارتهم، لا يخافون ظلماً أو عدواناً.

6 — المستوى الحضاري والاقتصادي: إن ابن الصغير يشهد على تطور تاهرت ابتداءً من عصر مؤسسها فيشير إلى «قصور قد بنيت وإلى بساتين قد غرست وإلى أرحاء قد نصبت وإلى خيول قد ركبت وإلى حفدة قد اتخذت السور والعبيد والخدام قد كثرت»<sup>(4)</sup>. ويصف فئة الشراة في تاهرت بأنهم «مرفهون أبناء نعم»<sup>(5)</sup> ويذكر تزايد تطور تاهرت في عهد الإمام أفلح حتى «عمرت معه الدنيا وكثرت الأموال والمستغلات وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات وتنافس الناس في البناء حتى ابنتى الناس القصور والضياع خارج المدينة»<sup>(6)</sup>.

(1) انظر على سبيل المثال. المقرئ: فتح الطيب ج 2 ص 105، 140. ج 3. ص 13، 122، 285.  
(2) حول الصراع الفاطمي الأموي: انظر: ذهاب صابر: سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي. العبادي أحمد المختار: سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية 1957. فيلال عبد العزيز: علاقة الدولة الأموية بدول المغرب الإسلامي. حساني مختار: الصراع بين الفاطميين والأمويين على السيادة في المغرب الإسلامي — رسالة جامعية — الجزائر — 1978 م — 1979.

(3) ابن الصغير: سورة ص 125.

(4) نفس المصدر ص 334.

(5) نفس المصدر ص 336.

ويظهر أن هذا الوضع قد عم مدن المغرب الأوسط، فأشار اليعقوبي الى قصور مدينة تلمسان، كما يشير الرحالة الى رخاء هذه المدن، الأمر الذي يعني وجود الأثرياء بشكل ملفت للنظر، ومن هذا فإن اليعقوبي يرى أن «المدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب» ويشير ابن حوقل الى قصور أفكان ورخاء غيرها من المدن، ويصف الأسطخري بعض المدن مثل تنس وغيرها بالرخاء.

ان هذا الرخاء الشامل يعتبر عاملاً مساعداً في ازدهار التجارة الداخلية والخارجية على السواء، ذلك لأن هؤلاء المترفين واصحاب القصور يتطلعون الى كل نادر وجديد في تزيين قصورهم من تحف واثاث فيكثر الطلب على الكمالى، وهو غالباً مستورد من الخارج ربما لهذا قيل «إن عظمة المدينة تجتذب منتوجات العالم أجمع» ويرى ابن خلدون «ان الدولة هي السوق الأعظم أم الأسواق كلها وأصل مادتها في الدخل والخرج فإن كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الأسواق أن يلحقها مثل ذلك»<sup>(1)</sup> وهو ما ذهب اليه القاضي النعمان فذكر أن «السلطان سوق فما علم الناس أنه يتفق فيها أتوا به اليها».

## 7 — سعة نفوذ الدولة:

قامت دولة الرستميين في تاهرت ثم اتسع اطارها حتى شمل جناحها الشرقي جبل نفوسة، وقد ظلوا على اتصال بأباضية المشرق، فتبادلت تاهرت والبصرة الوفود<sup>(2)</sup> وهذا ما اعطى الدولة الرسمية مجالاً أوسع للتبادل التجاري.

كما أن الامارات العلوية ربطت المغرب الأوسط بالأقصى بحكم القرابة بينها وبين الدولة الأدرسية، ولم يغفل الرستميون عن سجالماسة، فريطوها بهم برباط النسب<sup>(3)</sup>، وكانوا على اتصال بملوك السودان، فقد خرج محمد بن عرفة

(1) ابن خلدون: المقدمة ص 286، ويذكر ابن الأبار أن «الملك سوق ما تق فيها جلب اليها انظر: ابن الأبار الجلة السواء ج 1 . ص 201.

(2) عن وصول وفد البصرة تاهرت: ابن الصغر: سيرة. ص 322. أبو زكريا: كتاب سيرة الأئمة ص 65.54. الدرجيني: طبقات. ج 1. ص 49. الشماخي: سيرة. ص 147. 161.

(3) ذكر ابن خلدون أن الشيخ «أصهر لمد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بانه مندرار في ابنته أروى. ابن خلدون: المعبر. ج 6. ص 168. ابن الخطيب: أعمال الاعلام. ج 3. ص 143. الباروني: أزهار رياضية. ج 2. ص 93.

من تاهرت الى السودان سفيراً، وفي هذا الموقف ما يرفع من شأن الدولة الرسمية، ويوطد علاقاتها، وهو نفس الموقف الذي اتخذته من أموي الأندلس<sup>(1)</sup> وهو دليل على سعة نفوذهم، الأمر الذي ينعكس على التجارة الخارجية.

وحتى حين قامت الدولة الفاطمية فقد نالت شهرة كبيرة يحكم مقارعتها الروم في ديارهم، وسيطرتها على البحر، ثم سيطرتها على معظم الشمال الافريقي، وكأنتا باتت تمثل الكفة المغربية في مواجهة الكفة الشرقية وهذا ما جعل منها دولة ذات شهرة، تؤثر أيضاً على سير التجارة، إلا أن ما خفف هذا التأثير على بلاد المغرب الأوسط، اتحاد الفاطميين عاصمة لهم في ولاية افريقية. ثم تخلصت هذه الشهرة بقيام دولة محمية في البلاد.

وعلى كل فإن اتساع نفوذ المغرب الأوسط مسألة نسبية، فهو لا يبلغ مكانة الدولة الرسمية ولا هو منعزل عن العالم الخارجي في منطقة نائية، وعلى أية حال، فإن هذه الشهرة وهذا النفوذ قد دفع التجار اليها من جميع الأنحاء، حتى قال ابن الصغير بخصوص سكان تاهرت أنهم «أنتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار فقال ليس أحد ينزل بينهم من الغرباء الا استوطن معهم واتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة امانه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله»<sup>(1)</sup>. ووصفها المقدسي بأنها «جل بها الاقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب»<sup>(2)</sup>.

وهذا الى جانب عوامل أخرى تتمثل في تقدم النظم النقدية وتطورها، وتطور الفلاحة والصناعة بالاضافة الى عوامل تتعلق بالأطراف الأخرى للتجارة الخارجية.

- 
- (1) انظر: جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية، ص 124-149. ثم انظر البلاذري: فتوح البلدان، ص 156. ابن خلدون: العبر، ج 4، ص 429. ابن الأثير: الكامل، ج 5، ص 263. ابن الخطيب: احوال الاعلام. والقسم الخاص بالأندلس، ص 22. ابن عذاري: البيان، ج 1، ص 108.
- (2) ابن الصغير: سيرة، ص 324. الشنكلي: السور، ص 158. وجاء في النص «اتنى بين أظهرهم» وانظر ابن تايوت: دولة الرستمين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مكرود، 1957.
- (3) المقدسي: احسن التقاسيم، ص 228.

8 — التطور الفلاحي والصناعي: تبين فيما سبق أن بلاد المغرب الأوسط كانت بلاداً فلاحية، اشتهرت بمختلف المزروعات والانتاج الحيواني، وقد كانت هذه المواد تشكل سلعة للتصدير، إلى جانب صناعاتهم المختلفة، وهذه درت عليهم أرباحاً، فظهرت طبقة ثرية إلا أنه ثراء محدود، لولا استعمال سلع أخرى في تجارتهم مع بلاد السودان على وجه الخصوص مثل مادة الملح من مناجم تاغازا وبسكرة، وهي المادة التي تناظر الذهب.

### عراقيل أمام التجارة الخارجية:

1 — النظرة إلى التجارة: وقد كانت من العراقيل التي واجهت التجارة الداخلية والخارجية على السواء، فقد كان ينظر إلى التجارة نظرة ازدراء لأنهم يجمعون أموالهم بوسائل لا تستسيغها الناس<sup>(1)</sup>.

2 — قطاع الطرق: ومهما كانت الجهود التي تبذلها الدولة القائمة لتوفير الأمن، والضرب على أيدي قطاع الطرق، إلا أن هذا الأمر ضعف التحقيق، لطول المسافات وطبيعة المجتمع القبلي، فلا يخلو الأمر من وجود بعض أفراد القبيلة يمشقون الغزو والنهب والسلب وربما بسبب ما يعانونه من حرمان. فقد سبقت الإشارة إلى خروج أبي حاتم الرستمي على رأس جيش لحماية قوافل قادمة من المشرق، كانت عرضة لغزو تقوم به قبائل زناتة بل أن الشاعر بكر بن حماد نفسه لم ينج من شر قطاع الطرق، فقد اعترضوه في طريق عودته من القيروان إلى تاهرت فقتلوا ابنه وأصابوه بجروح<sup>(2)</sup>، والأرجح أن هؤلاء القطاع تعرضوا لفاقة كان بكر بن حماد في رفقتها.

(1) عرض القاضي سحنون على صاحبه سعيد بن عباد صرة مال وخلف قائلاً: «ما هي مال سلطان ولا من تاجر ولا من وصية» واستأذن أحد التجار الامام سحنوناً أن يبنى فطرة يجوز عليها الناس إلى دار سحنون فأبى سحنون لأن كسبه كان من بلاد السودان وهذا يبر عن موقف رجال الدين من التجارة مع تلك البلاد، انظر القاضي عياض: تراجم، ص 126.

(2) عن بكر بن حماد، ابن الأبار: الحلة ج 1 ص 74، الدباغ: معالم الإيمان ج 2 ص 282، البكري: المغرب ص 67 الحموي: معجم ج 1 ص 813 الباروني: الأزهج ج 2 ص 7. البراهي الجواهر ص 173. محمود علي مكي: التاهرتي بكر بن حماد، مجلة العربي ع 53. محمد بن رمضان شلوش: الدرر الوفاد المطبعة العلوية، مسنغام 1394هـ — 1974م جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية 112 — 114، 200 — 202.

وقد تعرضت زناتة الى وفد كان أبو عبد الله الشيعي قد ارسله بأموال الى عبيد الله المهدي في سجنه في سجلماسة — كما سبق، والأرجح انهم ساروا على شكل قافلة تجارية حتى لا ينكشف امرهم، ويبدو أن جهود الفاطميين لم تفلح في القضاء على هذه الظاهرة، فإن زيري بن مناد بعدهم «كان همه وحرصه ووكدته قطع آثار بوادي البربر المفسدين في الأرض والقاطعين للسبل قتلهم بعمل جعفر» (1).

وكان هؤلاء القطاع يعترضون العامة والخاصة، فحين سلك جوذر يده عن معاقبة المفسدين كثر هؤلاء «وقطعت السبل حتى أنه خرجت رفقة من المهديّة بعث فيها الأستاذ جوذر احمالاً فيها آنية وغير ذلك الى أمير المؤمنين فخرج عليها أردباء الناحية فانتهبوا ما كان لهم» (2).

ويبدو أن هؤلاء كان تأثيرهم على التجارة الخارجية كبيراً، فهم بالإضافة الى الأضرار التي يلحقونها بالمرّة، فقد كانوا عامل فزع وخوف للناس يقعدهم عن الحركة (3).

3 — تجارة السلطان: ان هذه المسألة ذات وجهين، فإذا كانت عاملاً مشجعاً فهي في نفس الوقت يمكن أن تكون عائقاً أمام ازدهار التجارة الخارجية، فإن ابن خلدون بعدما أشار الى تكافؤ الناس في اليسار ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي الى غاية موجودهم أو تقرب «وإذا راقهم السلطان في ذلك وماله اعظم بكثير منهم فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد؛ ثم أن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك اذا تعرض له غصباً أو بأيسر ثمن، أو لايجد من يناقشه في شرائه فيخس ثمنه على بائعه» (4).

(1) ابن حيان: المقتبس — طبعة بيروت ص 37.

(2) الجوزري: سيرة جوذر ص 69.

(3) قال محمد بن تامود القاسي — عصر القاضي ابن طالب — «أردت النهوض الى تفرّوة وخيف من الغرر لي الطريق» القاضي عياض: تراجم ص 319.

(4) ابن خلدون: المقدمة. الفصل الأربعون ص 281.

وقد أشار المؤرخون الى مشاركة الحكام في المغرب الأوسط في التجارة الخارجية، فقد كان الامام عبد الوهاب ناجراً حتى كان فخوراً بكثرة أمواله من الذهب، وكان اقلح ابنه بعده تاجراً، وكان خروج ابي حاتم لحماية قافلة قادمة من المشرق دليل على مشاركة الرسميين في التجارة، وقد أدل الأمراء العلويون بدلوهم في هذا المجال، وكذلك الفاطميون.

إلا أن المهم في الأمر، ان المؤرخين لا يشيرون الى استغلال هؤلاء الحكام نفوذهم وسلطتهم في الأمور التجارية، للأفراد بالأسواق واحتكارها، أو التعرض لغيرهم من التجار بالأذى والمنافسة، كما أن المؤرخين لم ينفوا مثل هذه الأمور، ولعل إشارة ابن الصغير التي تدور حول عدم قدرة صاحب الشرطة دخول سوق ابن وردة في تاهرت<sup>(1)</sup>، لترجح القول ان الأمر كان لا يخلو من استعمال النفوذ والسلطة في الميدان التجاري.

4 — قلة رؤوس الأموال: ان القيام بالتجارة الخارجية لا يقوى عليه الاكبار الاثرياء بسبب كثرة الأموال اللازمة لاعداد القافلة الى تلك البلاد النائية فيذكر ابن خلدون انه « لهذا تجدد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان ارفه الناس وأكثرهم أموالاً<sup>(2)</sup>». فيزدادون غنى على غنى، الا أن عددهم قليل نسبياً، فأهل الصناعة في أمان من الفقر وحسب، واثرياء الفلاحة امواهم منتوجات زراعية وحيوانية، وكأولئك الذين كانوا يمتلكون آلاف القطعان مثل ابن زلفين وغيره، وهكذا فإن اصحاب الأموال النقدية الطائلة ينحسرون في طبقة الخاصة، وهم قلة.

ويبدو أن هؤلاء لا يستطيعوا أن يغطوا الطرق التجارية ويسيطروا على التجارة، وبذلك فسحوا المجال لمشاركة الآخرين في التجارة الخارجية التي تقع في دائرتهم. فأشار ابن الصغير الى حلول اهل العراق من بصريين وكوفيين

(1) ابن الصغير: سيرة الائمة. نشر مونتسكي من 27.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق من 93.

وبغداديين تاهرت، بل أن هؤلاء تعدوها الى سجلماسة(1)، وربما هم الذين عناهم ابن حوقل حين أشار الى تحول الطريق التجاري الجنوبي المؤدي الى بلاد السودان الى سجلماسة(2). وهكذا عجز تجار المغرب الاسلامي عامة عن سد حاجة الشرق الاسلامي الى سلع بلاد السودان، والتفسير لهذه الظاهرة، هو قلة عددهم بسبب قلة رؤوس الأموال، ومما زاد الأمور صعوبة بالنسبة الى توفير رؤوس الأموال، موقف الشرع من بعض الأمور ذات العلاقة بالتجارة مثل تحريم الربا.

5 — المنافسة الأجنبية: ان ظروف بلاد المغرب الاسلامي الاقتصادية تكاد تكون متشابهة، تعتمد على انتاج فلاحى وصناعى متشابه، وهذا لا يساعد على قيام تبادل تجارى بشكل واسع، كما أن الصناعات المحلية المغربية كانت تجد منافسة من طرف الصناعة المشرقية والتي هي في الغالب أرق وأفخر بحكم النفوذ الحضارى، لهذا فإن الدور الأوسع الذي قام به تجار المغرب الأوسط هو دور الوساطة أي نقل سلع البلدان الأخرى مثل سلع بلاد السودان أو المشرق الاسلامي الى بلاد أخرى، بل وحتى في هذا المجال، كان تجار المغرب الأوسط يواجهون منافسة من طرف تجار الأندلس والمغرب الأقصى وولاية افريقية بل وتجار المشرق.

طرق المواصلات: تخرق بلاد المغرب الأوسط شبكة من الطرق تعتبر شرايين تربط بين انحاء المختلفة، كما تربطها بالعالم الخارجى، فهناك طرق تربطها بالقيروان فالمشرق الاسلامي من ورائها، وطرق تربطها بالمغرب الأقصى فالأندلس، وطرق أخرى تربطها ببلاد السودان، وهكذا كانت بلاد المغرب الأوسط على صلة وتفاعل مع جيرانها في جميع الاتجاهات، ولا تغفل الطرق البحرية التي كانت تربطها ببلاد الروم.

(1) ابن الصغير: سورة الاكمة: الشماخي: السير ص 158. ابن حوقل: صورة ص 65.

(2) عن الطريق بين مصر وبلاد السودان الغربى عبر كانم وبورنو انظر:

B.C.Martin: Kanem, Bornu, and the Fezzan, J.A.H. 1969, t.XI, P.20.

## الطريق بين القيروان وتاهرت:

ذكر ابن الفقيه هذا الطريق بإيجاز شديد مكتفياً بالإشارة إلى أنه يستغرق مسيرة ثلاثين يوماً على الأبل، ولم يكن الاصطخري أكثر منه تفصيلاً، فاكتمى بالإشارة إلى أن بين القيروان وتاهرت ست وثلاثون مرحلة، في حين يذكرها البكري تسع عشرة مرحلة (1).

ويعرج أهمهما ذكر تفاصيل حول هذا الطريق إلى ميلهما إلى الإيجاز، وليس الخط من شأن القرى والمدن الواقعة عليه، فإن اليعقوبي — وهو سابق لهما — ذكر هذا الطريق فأشار إلى أن الخارج من القيروان إلى تاهرت يمر على سبية (2)؛ ومنها إلى مجانة (3). ومنها إلى مسكيانة (4)، ومنها إلى باغاية (5)، حيث يتفرع الطريق إلى فرعين: أحدهما باتجاه تيجس (6) فقسطنطينة فيللة ومن هذه ينطلق طريق آخر إلى جيجل (7) وآخر إلى سطيف، وثانيهما باتجاه دوفانه (8)، ومنها إلى بلزمة (9) حيث ينطلق طريق باتجاه سطيف وآخر في اتجاه نقاوس، ومن هذه إلى عاصمة الزاب مدينة طينة، التي تبعد عشر مراحل عن القيروان، ثم يواصل المسافر طريقه إلى مقرة ومنها إلى أربة، ثم إلى حياض بني برزال أو مسيلة فيما بعد، ومن هناك إلى هاز، وهي على مسير ثلاثة أيام من أربة، ثم إلى حصن مصادف بن جرتيل وهو على مرحلة من هاز. ثم إلى سوق كرام على نهر شلف، ومنه إلى مدينة تاهرت مباشرة، أو يتجه المسافر من سوق كرام إلى متيجة، ومن هناك إلى مذكوره ثم إلى الخضراء ثم إلى سوق إبراهيم ومنه إلى تاهرت على أن اليعقوبي لا يشير إلى طريق سطيف — تاهرت عبر سوق حمزة، في حين ورد ذكره عند غيره من الرحالة. لكنه — اليعقوبي — «ذكر الطريق من القيروان إلى قصبة عبر قمودة حيث تقوم سبيلة ومن قصصه إلى مدائن قسطنطينة ثم تقيوس

(1) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص 79. الاصطخري: المسالك ص 46. البكري: المغرب ص 78.

(2) انظر عنها: ابن حوقل: صورة الأرض ص 84.

(3) ابن حوقل: المكان السابق. اليعقوبي: صفة ص 10.

(4) ابن حوقل: نفس المكان.

(5) نفس المكان. ذكرها الإدريسي بأخي انظر: ص 96. اليعقوبي: صفة ص 11.

(6) نفس المصدر ص 77. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 128. الإدريسي: المصدر السابق ص 97 — 98.

(8) نفس المصدر ص 85.

(9) عنها الإدريسي: المصدر السابق ص 99. اليعقوبي: المكان السابق.



وتوزر ونفطه والحامة — ومن هذه المدائن مدائن نفزاوة وهنا يتوقف عن ذكر الطريق وكأنه يعني بداهة ان المسافر يخرج منها الى بسكرة قطبته، ومنها يواصل المسير، وكان ابن حوقل والمقدسي — وهما من رحالة القرن الرابع الهجري — أكثر تفصيلاً من اليعقوبي ومن عاصره، كابن خردادبه وابن الفقيه وابن رسته.

ويمكن للمسافر من القيروان الى المسيلة أن يخرج الى الأربس ومنها الى تيجس حيث يلتقي بالقادمين عبر الطريق السالف الذكر، ومنها يتفرع الطريق الى نوعين يمر أولهما الى مسيلة، ويمر ثانيهما الى قسنطينة ومنها الى ميلة ثم الى سطيف، ويضد الإدريسي ان المسافة بين قسنطينة وميلة ثمانية عشر ميلاً وبين قسنطينة وسطيف أربع مراحل. ثم يتفرع الطريق في سطيف الى سوق حمزة ثم الى أشير أو مباشرة من سطيف الى مسيلة عبر أغدير ووا حسبا يذكر البكري. ويضد ابن حوقل ان المسافة بين مسيلة وأشير ثلاث مراحل، في حين يعتبرها المقدسي ثلاثة أيام.

ويبدو أن المسافر كان ينطلق مباشرة من مسيلة في اتجاه تاهرت، فيذكر ابن حوقل الطريق من مسيلة الى هاز ومنها الى حصن لابن جرتيل مرحلة ومنه الى تاهرت مرحلتان، أو خمس مراحل بناء على الإدريسي. أما الطريق من مسيلة الى تاهرت عبر أشير، فيسير المسافر الى أشير ومنها الى ابن مجر مرحلة ثم الى ابن ماما مرحلة ومنها الى تاهرت، وتستغرق الرحلة بينهما خمسة أيام.

وإذا كان المقدسي لم يذكر الطريق الرابط مدن شمال نهر الشلف بغيرها، فقد ذكرها اليعقوبي وابن حوقل، فذكر الأول حصن ابن كرام ومنه الى متيجة ثم الى مدكره ومنها الى مدينة الخضراء ثم الى سوق ابراهيم ثم الى تاهرت، بينما ذكر الثاني ان الطريق من أشير الى رطل مازونة مرحلة ومنها الى ريفنا مرحلة ثم الى ابن كرام مرحلة ثم الى مليانة مرحلة ومنها الى الخضراء مرحلة ومنها الى بني واريغن مرحلة ثم الى تنس مرحلة ومنها الى تاجنة مرحلة ومنها الى الغزة مرحلة عبر سوق ابراهيم، ومن الغزة الى بلل عبر شلف بني واطيل مرحلة، ومنها الى عين الصفصاف مرحلة ومنها الى معسكر عبر جبال توجان مرحلة ومنها الى افكان مرحلة.

وإذا كان ابن حوقل قد اغفل ذكر الطريق الرابط بين تاهرت وتنس، فإن اليعقوبي قد ذكره مشيراً إلى أنه مسير أربعة أيام، إلا أن البكري وهو الذي يعتمد كثيراً على ابن الوراق اعتبره خمس مراحل، فمن تاهرت إلى الغزة ثلاث مراحل ومنها إلى تاجنة مرحلة، ومن هذه إلى تنس مرحلة، وتأتي أهمية هذا الطريق — تاهرت — تنس — أنه يربط تاهرت بالقيروان بطريق بحري، فكان المسافر يخرج من القيروان إلى تونس ومنها تسير المراكب إلى مدينة تنس وبينهما مسير عشرة أيام، تعرج في طريقها إلى عدة موانئ، ذكر منها اليعقوبي جيجل وقلعة خطاب وسكيكدة وماير — هكذا في الأصل — ودناجة، وأضاف المقدسي إليها مرسى طبرقة ومرسى الدجاج ثم جزائر بني مزغناي. ومنها إلى مرسى تامدغوست ثم إلى شرشال ثم إلى برشك ومنها إلى تنس<sup>(1)</sup>.

ويواصل اليعقوبي ذكر طريق باتجاه المغرب الأقصى فيشير إلى أن الخارج من تاهرت يسير إلى قلعة ابن مسالة (قلعة هواره). منها إلى بلل وبينها مسير نصف يوم، ومنها إلى ايزرج ثم إلى تلمسان، واعتبر ابن الفقيه المسافة بين تاهرت إلى أفكان ثلاث مراحل، ومنها إلى تلمسان ثلاث مراحل، أي أن المسافة بين تاهرت وتلمسان ست مراحل<sup>(2)</sup>.

ثم يواصل اليعقوبي ذكر الطريق إلى فاس، فأشار إلى أن المسافر يخرج من تلمسان إلى العلويين ومنها إلى ثمالة ثم إلى فالوسن ومنها إلى ناكور ثم إلى فاس، ويذكر الاصطخري من جهته أن المسافة بين تاهرت وناكور عشرون مرحلة وبين تاهرت وفاس خمسون مرحلة، وهو في هذا يتفق والمقدسي<sup>(3)</sup>.

ومما تجدر ملاحظته أن المراكز التجارية الشهيرة على الطرق الدولية كانت ترتبط بطرق أخرى فرعية بما جاورها من القرى والمدن، فمدينة مسيلة ارتبطت

(1) اليعقوبي: وصف ص 11. المقدسي: احسن التقاسيم ص 226. ابن حوقل: صورة ص 76 — 79.

(2) اليعقوبي: نفس المصدر ص 12 إلى 13. ابن الفقيه: المختصر ص 80. ابن حوقل: المصدر السابق ص 88 — المقدسي: المصدر السابق ص 247.

(3) اليعقوبي: المصدر السابق ص 14. الاصطخري: المسالك ص 46. المقدسي: المصدر السابق ص 246.

و عن الطريق بين تلمسان وفاس انظر: ابن حوقل: المصدر السابق ص 87 — 88. البكري: المغرب ص 87. 88. وهما يذكran الطريق دون الإشارة إلى ناكور و يرى ابن حوقل أن المسافة بين تلمسان وفاس ثمان مراحل.

بطينة عبر أدنه وبأشهر عبر تامزكيدا وبهاز وبقلعة أبي الطويل، بل وكان هذا الطريق يربطها بمدينة بجاية وارتبطت أيضًا بمدينة الغديروروا وبمدينة المقر، وبمدينة سوق حمزة إضافة إلى ما بينها من قرى، وكانت مدينة سوق حمزة مركزًا يرتبط بمدينة سطيف وبمرسى بني جناد وبمرسى الدجاج عبر بلياس وبمدينة قزرونة وبمدينة هاز وأشهر عبر شعبة وبمسيلة عبر أزقور.

ومن الملاحظ أيضًا أن هذه المدن الداخلية كانت ترتبط بسواحل البحر، ولهذا الظاهرة دلالة بالغة الأهمية في ميدان التجارة الخارجية البحرية، فيذكر اليعقوبي أن لمدينة ميلة «مرسى يقال له جيجل ومرسى يقال له قلعة خطاب ومرسى يقال له اسكيدا (سكيكدة) ومرسى يقال له ماير ومرسى يقال له مرسى دنهاجه» (1). ويضيف بخصوص تاهرت أن «الحصن الذي على ساحل البحر الأعظم ترسي به مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ» بالإضافة إلى ميناء تنس. وبناء على ما ذكره البكري فإن مدينة تلمسان ترتبط بميناء وهران وميناء أرشكول وتافرجينيت وترنانا (2). إلى غير ذلك.

ويلاحظ أيضًا أن هذه الطريق الدولية تمر عبر مناطق آهلة بالسكان «عمران كلها» فلا يسير المسافر أكثر من مرحلة أو مرحلتين حتى يصل قرية أو مدينة فهل تحكمت هذه التجمعات السكنية في مسار الطريق؟ أم العكس أي هل أن مسار الطريق اجتذب إليه السكان فأقاموا قراهم ومدنهم؟ قد يتداخل الأمران فتصعب الإجابة.

وعلى أية حال، فإن هذا الطريق البري كان آهلاً بالمسافرين، إذ كان يفضلته عامة الناس من العلماء والتجار والراجلين بعائلاتهم، فهو في مأمن من غارات القراصنة، وعامر بالقبائل والسكان، الأمر الذي ييسر لهم عملية التزود بالموونة وإجراء المبادلات التجارية، إلا أن هذا الطريق يكلف التجار ضرائب

(1) اليعقوبي: صفة من 11.

(2) البكري: المغرب ص 143.

كثيرة يدفعونها للنسولة أو القبيلة التي يعبرون حياضها، وكذلك يعرضهم لخطر قطاع الطرق، هذا بالإضافة إلى أنه طريق بطيء<sup>(1)</sup>.

ويظهر أن هناك طريقاً آخر يربط تاهرت بالقيروان عبر مدينة ورقلة، فكان المسافر يخرج من تاهرت إلى ورقلة ومنها إلى بسكرة ثم إلى القيروان، وكان هذا الطريق، مستعملاً حتى وأن أهمل الرحالة، إذ هو الطريق الذي سلكه الامام يعقوب الرسنجي عند مغادرته تاهرت فاراً أمام أبي عبد الله الشيعي، وكان هذا الطريق حافلاً بالمتاعب والمصاعب إلا أنه الطريق السريع لقلة التوقف فيه وقلة العراقيل كما أنه بعيد عن أمارات المغرب ودوله التي تفرض على القوافل ضرائب مختلفة، كما أن عليه قبائل حريصة على كسب ثقة القوافل لأنها همزة وصل بينها وبين العالم الخارجي، هذا بالإضافة إلى الجفاف الذي يسود المنطقة شتاء، الأمر الذي يتيح القيام برحلات تجارية على مدار السنة.

وعلى أية حال، كان هذا الطريق الذي يربط بلاد المغرب الأوسط بمدينة فاس يمتد إلى بلاد الأندلس فكان المسافر يخرج من فاس إلى سبتة مسير ستة أيام أو إلى طنجة ومن هناك تعبر المراكب إلى الأندلس مضيق جبل طارق البالغ عرضه اثني عشر ميلاً<sup>(2)</sup>.

وربما إذا لم يكن هناك ما يدعو المسافرين أن يعرجوا إلى فاس، فإنهم يواصلون سيرهم إلى ناكور ومنها إلى سبتة ومنها إلى طنجة، وكان اليعقوبي قد ذكر الطريق من تاهرت إلى تلمسان إلى ناكور، وهو ما فعله الاصطخري حيث أشار إلى أن الطريق بينهما (تاهرت وناكور) تبلغ عشرين مرحلة، وهذا لا يتفق وما ذكره المقدسي فيما بعد، حيث أشار إلى أن المسافة ثلاثون مرحلة<sup>(3)</sup>.

ومن جهة ثانية، فإن ابن الفقيه يذكر أن «طنجة خلف تاهرت بأربع وعشرين ليلة»<sup>(4)</sup> وهو بهذه العبارة يوحي بوجود طريق مباشر بينهما، ويفهم من عبارة اليعقوبي أن هذا الطريق يتقاطع مع طريق ناكور — فاس في ملحاص لخانة.

(1) المقدسي: احسن التقاسيم من 247. وعن الطريق الذي سلكه التجار الرادانية انظر:

MGill: The Rādhānīte merchants and the land of rādhān J.E.S.H.O.Vol. XVII 3oe1974 PP.299-328.

(2) ابن الفقيه: مختصر. ص 81.

(3) اليعقوبي صفة. ص 13.

أما الطريق البحري؛ فوسيلة تلك المراكب التي تسرح وتفرح ذهاباً وإياباً بين موانئ بلاد المغرب الأوسط وموانئ بلاد الأندلس، فيذكر اليعقوبي أن من أراد جزيرة الأندلس ركب البحر من تونس مسير عشرة أيام «مسحلاً غير موغل حتى يجاذي جزيرة الأندلس في موضع يقال له تنس... أو سار إلى تاهرت يوافي جزيرة الأندلس فيقطع البحر في يوم وليلة حتى يسير إلى بلد تدمير» (1) ثم يشير ابن الفقيه أن الطريق من تدمير إلى قرطبة مسير عشرة أيام.

وقد احتفظت تنس بأهميتها في القرن الرابع الهجري، فيذكر ابن حوقل أنها «أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمناجرهم وينهضون إلى ما سواها» (2)، كذلك فإن المقدسي يذكر ميناء جزيرة بني مزغنة فهي «على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس» ويذكر ميناء وهران فهي «يقبلون منها إلى الأندلس في يوم وليلة» هذا إلى جانب بعض الموانئ والمراسي مما سبق ذكره (3).

وكانت بلاد المغرب الأوسط ترتبط مباشرة بسجلماسة، فذكر اليعقوبي أن من «خرج من تاهرت سالكاً الطريق بين القبلة والغرب إلى مدينة يقال لها أوزكا ثلاث مراحل.. ومن مدينة أوزكا لمن سلك مغرباً إلى أرض لزنانة ثم يسير إلى مدينة سجلماسة بعد أن يسير سبع مراحل أو نحوها» (4)، ويصف هذا الطريق بأنه «في قرى ليست بأهلة وفي بعضها مفازة» وهو قريب من الوصف الذي يقدمه الاصطخري حيث قال أنها «متقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال».

ويبدو أنه كان هناك طريق آخر إلى سجلماسة، فإن البكري يذكر أنه «على مدينة وجدة طريق المارة والصادرة إلى بلاد المشرق إلى سجلماسة وغيرها

(1) اليعقوبي: صفة، ص 13.

(2) ابن حوقل: صورة، ص 78.

(3) عن هذه المراسي ونحوها انظر: البكري: المغرب، ص 81 - 82.

(4) اليعقوبي: البلدان، ص 359. وعما ذكره الاصطخري، انظر: المسالك والممالك، ص 34.

من بلاد المغرب»(1)، وبذلك فالطريق إليها تكون من تاهرت الى تلمسان ثم الى وجدة ومنها الى سجلماسة.

ويظهر أن هذا الطريق يختلف عن الطريق الذي ذكره الإدريسي والرابط بين تلمسان وسجلماسة، إذ بلغ أربع عشرة مرحلة، ومع هذا فإن الإدريسي يذكر طريقاً آخر بين المدينتين يمر عبر فاس فيقول ان «من أراد الطريق الى تلمسان من مدينة سجلماسة بالقوافل تسير من تلمسان الى فاس ومن فاس الى سجلماسة»(2).

وهكذا فقد كان طريق يربط القيروان بسجلماسة مختزلاً بلاد المغرب الأوسط، ويرى الأصبخري أنه يبلغ ثمانين مرحلة في البرية ومائة وعشرين مرحلة في العمارة، وأن كان المقدسي يرى أن المسافة بينهما ثلاثون مرحلة في البرية وخمسين مرحلة في العمارة(3). وعلى أية حال، يبدو أن طريق تاهرت - سجلماسة كان قليل الاستعمال بحكم طبيعة المنطقة الصحراوية وقلة السكان فيها مما دعا الإدريسي ان يشير الى أن «هذا الطريق قليل سالكوه الا ندرة في الدهر» وهؤلاء هم قوافل التجار.

ولم يكن هذا الطريق يصل سجلماسة لذاتها، بل أنها بوابة بلاد السودان، فذكر اليعقوبي ان الطريق تنطلق من سجلماسة لمن سلك متوجهاً الى القبلة يريد أرض السودان»(4) واستمرت هذه المكانة في القرن الرابع الهجري فيذكر ابن حوقل أن القوافل من سجلماسة كانت «غير منقطعة منها الى بلد السودان»(5).

(1) البكري: المغرب. ص 88.

(2) الإدريسي: صفة ص 81 وذكر الإدريسي طريقاً آخر يربط تلمسان وسجلماسة. ومن تلمسان الى قرية تاور ثم الى جبل تامدث الى غابات الى صدرات ثم الى جبل تيوي ثم الى فعات يمر الى شعب الصفا الى تندلي الى قرية تفسان الى قربت ثم الى سجلماسة وهذا الطريق أربع عشرة مرحلة انظر: نفس المصدر ص 82.

(3) المقدسي. احسن التقاسم ص 246. ثم انظر ما ذكره الأصبخري. المسالك والممالك ص 46. ويشير لوبيكي الى أن الأصبخري يذكر في مخطوط آخر المسافة بين تاهرت وسجلماسة خمسين وعشرين مرحلة انظر: T.Lewicki: «L'Etat Nord Africaine...» P.527.

(4) اليعقوبي: المصدر السابق ص 360. يذكر الحموي ان التجار تسافر من سجلماسة الى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة الحموي: معجم 2 ص 361.

(5) ابن حوقل: صورة ص 96. الفرناطي: خفة الألباب ص 42.

وعلى كل فإن اليعقوبي يذكر أن المسافر يخرج من سجلماسة فيسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين مرحلة ثم يلقاه قوم يقال لهم أتية من صنهاجة ثم يصل الى بلد يقال له غسطة، الا أنه لا يشير الى امتداد هذا الطريق الى غانة وربما لأنه لا يريد أن يفهم نفسه في ذكر بلاد السودان. الا أن ابن حوقل قد أزال هذا الابهام فأشار الى امتداده اليها.

ويدلو أنه كان هناك أكثر من طريق يربط سجلماسة ببلاد السودان، فذكر المسعودي طريقاً ينطلق من سجلماسة الى بلاد السودان الغربي عبر تاغازا (1) TAGAZA، وربما كانت أهمية هذا الطريق تكمن في توفر مناجم الملح في تاغازا، وذكر البكري بدوره طريقاً آخر ينطلق من سجلماسة الى وانزمين حيث «تجتمع جميع طرف السودان» ثم يحترق أرض صنهاجة الى أودغست (2)، ويضيف البكري أن المسافة بين سجلماسة وتامدلت إحدى عشرة مرحلة ومن هذه الى أودغست أربعون مرحلة (3).

وعلى أية حال، فقد كانت المنطقة التي تعبرها القوافل «مفازة صحراء» مثلما يصفها اليعقوبي ويتفق معه الاصطخري حيث ذكر أن «بين المغرب وبلد السودان مفاوز منقطعة» وأضاف ابن حوقل من جهته «انها مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه ومتعذرة المراعي» (4).

(1) Gautier: L'or du Soudan dans l'histoire A.H.E.S.1935.P.114.

(1) البكري: المغرب ص 156، 158 - 159، 163.  
(3) يذكر اليعقوبي أن المسافة بين سجلماسة وانية خمسون مرحلة ويذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أن المسافة بين سجلماسة وأدغست نحو خمسين مرحلة ويجعلها أبو الفداء نقلاً عن العريزي نيف واربعين مرحلة وحددها القلقشندي نقلاً عن العريزي ستا واربعين مرحلة وجعلها ابن حوقل مسير شهرين. أما الطريق بين أودغست وغانة فجعلها ابن حوقل «بضعة عشر يوماً» واعتبرها البكري خمسة عشر مرحلة، وجعلها مولي مسيرة أربعة أيام، وربما تعود هذه الاختلافات الى تشعب المسالك أو الجدل في السير أو البطء فيه. فيذكر الحموي أن الطريق بين سجلماسة وغانة ثلاثة أشهر ذهاباً ومسيره شهر ونصف اياباً.

(4) انظر عن هذه الصحراء. الاصطخري: المسالك ص 37. ابن حوقل. صورة ص 100، القلقشندي صبح الأعشى 5 ص 172. أبو الفداء: مختصر. ص 125. القزويني: آثار البلاد. ص 057.

وهناك طريق ثان يربط بلاد المغرب الأوسط ببلاد السودان، فإن المسافرين يصلون بسكرة ومنها يتجهون الى ورقلة «ورجلان» ثم الى تادمكة مروراً بمنطقة أدرار — افقاس (1)، ومن ثم الى جالو — كوكو، جوجو — يستفاد مما ذكره الادريسي ان المسافة بين بسكرة وورقلة ثمان مراحل، كما يستفاد مما ذكره البكري ان المسافة بين ورجلان وتادمكة مسير خمسين يوماً. ثم يضيف ان المسافة بين تادمكة وكوكو تسع مراحل، أي أن المسافة بين بسكرة وجالو تبلغ سبعة وستين مرحلة إذا اعتبرنا المرحلة مسير يوم.

ويبدو أن هذا الطريق كان أقل أهمية من سابقه، فابن حوقل يشير الى أن القوافل كانت تفضل دخول بلاد السودان عبر سجلماسة، فذكر أنها كانت «تجتاز المغرب الى سجلماسة» كي تعبر بعد ذلك الى بلاد السودان ويؤكد الزبيدي هذا في اشارته الى خروج اعرابي يدعى أبو هلال الى بلاد السودان قادماً من اليمن، فاتجه الى تاهرت ومنها إلى تلك البلاد (2)، كذلك فإن القوافل التي كانت تخرج من مصر الى غانة عبر مرندة قد حولت طريقها الى سجلماسة لتعبر الى غانة.

**نظام سير القوافل:** كان انطلاق القافلة محدد الزمان والمكان، فكان على كل من أراد أن يرافق القافلة أن يذهب الى مكان معين خارج المدينة يجتمع فيه التجار.

فإذا حان الموعد المحدد واتخذ الناس كافة استعداداتهم انطلقت القافلة، ويوجد لها مقدم ينحكم في انطلاقها ومسيرها وفي حلها وترحالها، وقد جرت العادة أن يضرب المقدم الطبل معلناً بداية الانطلاق، ويتضح هذا فيما ذكره القاضي عياض في مجرى حديثه عن خروج عبيد الله المهدي من قصطيلية الى سجلماسة، فقد طلب هذا الأخير من عبد له، أن يذهب الى مقدم الرفقة ليقول له

(1) عن ادرار وافوقاس انظر: Mauny: Tableau géographique de l'Ouest Africain. Dakar. 1961. PP. 116-120

T. Lewicki: traits d'histoire de commerce. P. 14.

(2) ابن حوقل: صورة. ص. 65. الزبيدي. طبقات النحويين واللفويين ص 251 — 252. القزويني: اثار البلاد. ص 169.



«ان رأيت أن ترحل بنا الساعة فافعل، وكان اليه — المهدي — محسناً يصله ويعطيه» فقال للعبد. «والله ان هذا الشيء يشتد على الناس ولكني ما أرى مراجعة أبي محمد فيما سأله وضرب الطبل ورحل الناس» (1).

ولم يكن هؤلاء المسافرون في قافلة واحدة يقصدون مكاناً واحداً بالضرورة، فقد يرافقها بعضهم لمرحلة أو أكثر ثم يفصل عنها وفي نفس الوقت ينضم اليها مسافرون آخرون من هناك، وهذا الحرص على مرافقة القافلة ناتج عن شعور المسافرين بالانس والأمن معاً من قطاع الطرق.

وكانت القافلة تستعين بالدليل ومن له خبرة في ذلك الطريق، وربما لم يكن من المحتم أن يحمل المسافر كل مؤونته، فكان بإمكانه أن يشتري ما يلزمه من المراكز التجارية التي يعبرها، فقد أوشكت جماعة قادمة من الحجاز باتجاه بلاد المغرب على الافلاس، فباعت بعض حوائجها واشترت بئسها بعض السلع الخفيفة كالابر والمسلات والعمطور، ثم كانت تبيع من هذه في كل مكان تصله بما تفتت به (2).

لكن الأمر يختلف بالنسبة للقوافل العابرة الى بلاد السودان والتي عليها أن تتجاوز بحراً من الرمال، فكانت هذه القوافل تسير وفق توفر الماء وسهولة المنطقة، وربما لهذا ذكر الاصطخري انها «لا تسلك الا من مواضع معروفة» ويبدو أن هذه المواضع هي أماكن تتوفر فيها المياه، فذكر العزيزي أن هذا الطريق «على مياه معروفة»، فكانوا يحملون منها حاجاتهم، فإذا اتوا على نهاية ما معهم انحروا جملاً وترمقوا بما في بطنه، وذكر أبو حامد الغرناطي انهم كانوا يحملون معهم الزاد لسنة شهور وهو في العادة من المواد الغذائية المخففة التي تتحمل تلك المدة الطويلة، كما حملوا معهم الخيام يستظلون بها من وهج الشمس، وحملوا الأسلحة للدفاع عن النفس إذا اقتضت الضرورة.

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص 153.

(2) المرجني: طبقات ج 2 ص 514.

وكانت قبائل الصحراء تفرض ضرائب على القوافل المارة مقابل تقديم الإمداء لها وهدايتها، ويذكر ابن حوقل من أوصاف هذه القوافل «المعرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه والدلالة على مياهه بصفة المذاكرة ولهم الحس الذي لا يدانيه في الدلالة»<sup>(1)</sup>. وأضاف أنبدو الصحراء كانت «لهم لوازم على المجتازين عليهم بالتجارة من كل جمل وحمل ومن الراجعين بالتبر من بلد السودان وبذلك قوام بعض شؤونهم» بل أن ترمينجهام Trimmingham يرجع قوة صنهاجة إلى الضرائب والأموال التي جبتها من القوافل المارة في حياضها من وإلى بلاد السودان<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن القوافل كانت تسير في الشمال في فصول الربيع والصيف والخريف وأما في الجنوب (الصحراء) فيذكر الإدريسي أن «هذه الصحراء يسلكها المسافرون في زمان الخريف» ويرى ابن حوقل أنها «لا تسلك إلا في الشتاء». وكان المسافرون فيها يوقرون جمالهم في السحر الأخير ويمشون إلى أن يشتد الحر، فيحطون احمالهم ويقيدون جمالهم ثم يخيمون على أنفسهم ظلالاً تصيهم حر المحير وسموم القائلة إلى أول وقت العصر، حيث يرحلون ويواصلون مسيرهم إلى أن يخل الظلام فيحطون رحالهم حيثما وصلوا ويبتون ليلتهم<sup>(3)</sup>.

أما في البحر، فقد جرت العادة أن تسير السفن في قوافل بحرية، فإذا ما لحق العطب مركبا وجد القوت من المراكب المرافقة، وكانت السفن تخضع للفحص من قبل الخبراء، قبل اقلاعها، وأفاد المقدسي أنه كانت «تفتش المراكب عند اقلاعها في مصر الفاطمية، فرمما كان هذا النظام استمراراً لنظام الفاطميين في المغرب».

ولم تكن سفن ذلك العصر صغيرة كلها، فإن السفن الخيطية التي كانت عليها أن تنطلق من ماسه إلى الصين لا بد أن تكون كبيرة جداً، وكأنها اخلفت اسمها من شكلها، وقد وصفت مثل هذه السفن بأن ارتفاعها عن سطح الماء يبلغ حدّاً يضطر الناس إلى استعمال سلاالم، فارتفاعها نحو العشرة أمتار،

(1) ابن حوقل: صورة ص 98

(2) Trimmingham: A history of islam in west Africa. P.52.

(3) الإدريسي: صفة ص 31.

وكانت تحمل بضع مئات من الرجال، ويخزن فيها من الحبوب مؤونة سنة(1). فلا عجب من كبرها فإن ظروف الملاحة في البحار والمحيطات الزاخرة بالحيتان والأمواج العتيدة تقتضي أن تكون السفن كبيرة تستطيع المقاومة وحمل مؤونة كافية لمثل هذه السفرات الطويلة، وتستطيع حمل بضائع كثيرة تدر أرباحاً تتناسب وتلك الأخطار والمشقات، وكان على هذه السفن ملاحون ونواخذة(2) وجذافون ومصلحون، ويضيف المقدسي أنه «لا بد في كل مركب من مقاتلة ونفاطين» ومن الجدير بالذكر أن البوصلة لم تكن معروفة في ذلك القرن الرابع الهجري، فكان الملاحون يوجهون سفنهم مستعينين بالشمس والقمر والنجوم كما استعملوا بعض أنواع الطيور(3).

### وسائل المواصلات:

1 — وسائل برية: يعتبر الحيوان الوسيلة الأساسية في هذا الميدان وخاصة الجمل والحصان، وكان الجمل كثير الاستعمال لخصائصه المتعددة، فأشار الحموي الى أن التجار كانوا «يحملون الجمال الوافرة القوية» وذكر الادريسي من جهته أنه كان للتاجر «المئة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة».

وللحصان أهمية في عبور المسافات الطويلة شأن الجمل، وإن يمتاز «عنه بالسرعة إلا أنه لا يستطيع تحمل نشاق الصحراء»، ومنع هذا فقد استعمل على طريق بلاد السودان، فكان للشيخ أبي نوح الصغير — عاش في القرن الرابع الهجري — «فرس عتيق وعليه حج وسافر الى تادمكة قيمته مئة وخمسون ديناراً»(4).

(1) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 145. لومبار: الاسلام ص 95. وقد أشار ناصر خسرو الى سفن حمولة الواحدة منها مائتا غردار «حمل حمار» انظر. ناصر خسرو: سفر نامه ص 80.

(2) النواخذة: هم ملاك السفن أو وكلائهم أو المتولون شؤونها.

(3) الدوري: نفس المرجع ص 146. ثم انظر. المقدسي: احسن التقاسيم ص 12، وانظر: العماني: عمان ص 138، 140.

(4) نقلاً عن الوسياتي انظر:

واستعملت الحيوانات المختلفة في جرّ العربات التي كانت معروفة في ذلك الوقت، فذكر ابن عذاري أن موسى بن نصير «أجاز الأموال من الذهب والفضة والجواهر في المراكب إلى طنجة ثم حملها على العربات» كما ذكر لقبال موسى أن المعز الفاطمي طوف ابن واسول في المهديّة «على عجلة خاصة صنعت لهذا الغرض» (1) وقد وصف ابن بطوطة هذه العربات بأنّ للواحدة منها أربع بكرات ويجرها فرسان وأكثر وربما البقر أو الجمال، والذي يخدم العربّة يركب أحد الأفراس التي تجرها، وعليها سرج، وفي يده سوط للضرب، وعود كبير للتوجيه وعلى العربّة شبه قبة من قيطان الخشب مربوط بعضها إلى بعض، وتكسى بالبد أو الجوخ، ولها طيطان مشبكة، ويرى من يداخلها الناس ولا يرونه — وربما يقصد المودج — وأما العربّة التي تحمل الأثقال والأطعمة فهي شبه البيت ولها قفل (2).

2 — الوسائل البحرية: وهي السفن المختلفة مما سبق ذكره على اختلاف أحجامها.

### المصادر والواردات:

1 — المصادر: نظرًا لشهرة بلاد المغرب الأوسط في الانتاج النباتي والحيواني وما يبيني عليه من الانتاج الصناعي، فإن صادرات المغرب الأوسط كانت بالدرجة الأولى تعتمد على هذا الانتاج، فقد كانت جبوب تنس «تخرج منها إلى كل الآفاق في المراكب» (3)، وقد نقل سفرجلها إلى مسيلة عند بنائها فاشتهرت هذه به، حتى كان يحمل إلى القيروان واصله من تنس «وأضاف ابن حوقل أن لأهل جزائر بني مزغنة من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يجهز ويحلب إلى القيروان وغيرها» (4).

(1) لقبال موسى: دور كتابه ص 370. وعما ذكره ابن عذاري انظر: البيان ج 1 ص 43.

(2) ابن بطوطة: تحفة الأنظار. ص 323 — 324.

(3) الأدرسي: صفة ص 83. وعن سفرجلها انظر: ابن حوقل: صورة ص 85. وذكر صاحب «كتاب الاستبصار» أنه من تنس «يحمل الطعام إلى الأندلس» انظر مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار صفحة 127.

(4) ابن حوقل: نفس المصدر ص 78، الأدرسي: المصدر السابق ص 89. وعن ابن سوق إبراهيم ومربي الدجاج انظر: الأدرسي: المصدر السابق ص 83، 90.

كما أن شرائح تين سوق ابراهيم كانت «تحمّل منها الى كثير من الأقطار» ومثلها في هذا مرسى الدجاج فكانت شرائح التين تحمّل «الى سائر الاقطار واقاصي المدائن والأمصار» وكذلك مدينة تاجنة فقد ذكر ابن حوقل ان تينها «يجهز عنها» وكان الجوز في سطيف «يحمّل الى سائر البلاد» كما كان بعض النباتات الطبية في أشير وسوق حمزة «تحمّل الى الآفاق»، وكان يحمّل من مرسى الزيتونة عمود الخرط الى افريقية وما والاها، وكان من أشهر صادرات المغرب الأوسط المرجان، حيث يذكر ابن حوقل ان هذه السلعة لم تكن توجد «في مكان غير هذه القرية المدعوة بمرسى الخرز ومدينة تنس وبمدينة سبتة»<sup>(1)</sup>. ونظرا لعدم وجود حدود واضحة المعالم بين المغرب الأوسط وولاية افريقية، فقد كان هناك تبادل تجاري في مختلف السلع، ربما لوفرتة في مكان مجاور دون آخر ولتفرق في السعر، ومن المرجح كذلك ان تجار المغرب الأوسط قد ساهموا في توفير العبيد لأمرأ القهروان الاغالبية. وازدادت هذه المساهمة حين دخل المغرب الأوسط في اطار الدولة الفاطمية، واصبح جزءا منها ثم من الزيرية بعد ذلك.

ويذكر الحميري في كتابه «الروض المعطار» ان الميرة كانت تجلب الى مدينة بجانة من العلوة، ويذكر ابن حوقل من جهته ان مدينة وهران «فرضة الأندلس اليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال» وهو ما أكدّه موريس لومبار فذكر ان هذا القمح الذي تنتجه افريقية الشمالية، يصدر بواسطة السفن الى الأندلس وصقلية وبواسطة القوافل في اتجاه سجلماسة وبلاد السودان.

وربما كانت هناك علاقة بين ما ذكره ابن غالب نقلا عن ابن النظام بخصوص اعداد الغنم الهائلة التي كانت تدخل قرطبة كل يوم والتي تبلغ مائة ألف رأس، وبين ما ذكره بخصوص مرسى الجزيرة الخضراء حيث وصفه بأنه من «أبسر المراسي للحيوان واقربها من العلوة» ويوضح صاحب «كتاب الاستبصار» هذه العلاقة فيذكر انها كانت من تاهرت «تجلب الأغنام الى بلاد

(1) ابن حوقل: صورة من 89، 76. القلفشندي. صبح الأعشى. ج 5 من 111. البكري: المغرب من 64.

المغرب وبلاد الأندلس لرخصها وطيب لحومها»<sup>(1)</sup>، ويكشف ابن خلدون عن بعض الصادرات من خلال ذكره هدية زيري بن عطية إلى المنصور بن أبي عامر فكانت ممتلئة من عتاق الخيل وخمسين جملاً من المهاري السبق والفرقة من جلود اللط وإجمال من قسي الزان والقطوط الغالية والزرافة وأصناف الوحوش الصحراوية كاللحيط وغيره والفرقة حمل من التمر وإجمال من ثياب الصوف الرقيقة»<sup>(2)</sup>. وذلك سنة 381هـ/991م ويبدو أن الأمويين كانوا بحاجة إلى الجمال والخيول فقد «وصلت إلى الزهراء الجمال التي بعث بها بنو خنزر من العدوة وكانت مائة وثلاثين جملاً» وقد جلب المنصور بن أبي عامر مرة ألف حصان، بالإضافة إلى البغال»<sup>(3)</sup>.

ومن المرجح أن بلاد المغرب الأوسط قد صدرت بعض انتاجها الفلاحي إلى سجلماصة خاصة وأن اليعقوبي يحصر زرعها في الدخن والذرة» وانها قاعدة الاستعداد والتجهيز للانطلاق إلى بلاد السودان، فأشار ابن حوقل إلى أنها كانت تدفع ضرائب على «ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي إفريقية...» وإن كان لم يذكر السلع.

وإذا كان ابن الصغير قد أشار إلى سير القوافل إلى السودان، فإنه لم يشر بتأني إلى السلع، إلا أن الإدريسي يذكر أن التجار يدخلون بلاد السودان «بأعداد الجمال الحاملة لقناطر من النحاس الأحمر والمملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأقاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع»<sup>(4)</sup> وأضاف الحموي أن التجار يسافرون من سجلماصة إلى غابة «وجهازهم الملح وعقد خشب

- 
- (1) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 178، ابن غالب: فرحة الأنفس ص 296، وعما ذكره الحموي انظر: عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين ص 274.  
(2) ابن خلدون: المعبر، ج 4 ص 66. ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 64. وعن هدية ثانية انظر نفس المكان.

(3) Imammuddin: Some aspects...P.93

وعن بعض المندائين الأخرى انظر: ابن خيكان: المفتش، طبعة بيروت ص 150. ابن عذاري: البيان ج 1 ص 173. ابن أبي زرع: المصنوع السابق ص 68.  
(4) الإدريسي: صفة 66.

الصنوبر... وخرز الزجاج الأزرق وأسورة نحاس أحمر وحلق وخواتم نحاس. وقد أكد أبو الربيع الوسياني تصدير الثياب، فذكر أن أبا صالح الياجرائي «من القرن الثالث الهجري» جهز جملا ليركبه الى نادمكة فقال له رجل آخر: «احمل لي على جملك حمل ثياب»<sup>(1)</sup>، وذكر بوسنا نسكي أنه قد عثر في منطقة Igbo-Ukwu على بعد خمسة وعشرين ميلا شرق أونيتشا جنوب النيجر.. بين 1379هـ — 1959م — 1384هـ — 1964م على أكثر من ثلاثين سوارًا من نحاس وبرونز وخزف، تبين بالكربون انها تعود الى القرن التاسع الميلادي، كما تم العثور في تقداوست على أواني فخارية مستوردة من المغرب الإسلامي ومن بينها أباريق كروية للواحد منها مصفاة في وسط واسفل العنق وهي مقعرة ومثقبة لمنع دخول الحشرات والغبار وتنظيم صب الماء، ومنها مصابيح زيتية<sup>(2)</sup>.

ويظهر أن المصنوعات النحاسية كانت من بين الصادرات الى بلاد السودان وكانت على شكل قضبان بطول سبعين سنتيمترًا وزنة القضيب رطلا تقريبًا، أو على شكل سلاسل، فقد حدث سكن الصائغ قال: «كنت أعمل السلاسل من نحاس واطلها بماء الذهب الذي يجعل في اللجم وأبعث بها تباع ببلد السودان»<sup>(3)</sup>.

ويشير الادريسي الى أنه ربما جلبت الخنطة الى أهل زغاوة من بلاد ورقلان وغيرها، وبما أن بلاد المغرب الأوسط تشتهر بهذه الحبوب، فرمما كانت تلك الخنطة يحملها تجار هذه البلاد، وأضاف الأدرسي أنه «ليس في بلاد السودان شيء من فواكه رطبة الا ما يجلب اليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلا دالزاب، ويجلبه اليهم اهل ورقلان»<sup>(4)</sup> وهكذا فإن تمر يسكرة قد وصل

(1) أبو الربيع الوسياني: سر مشائخ القرب ص 30. وانظر:

وعما ذكره الحموي انظر: معجم ج 2 ص 361. حسن أحمد محمود: الاسلام والثقافة ص 72 و 211. وبما أن البصرة اشتهرت بالأثواب المبيجات فرمما نقلها البصريون في تاهرت الى السودان خاصة وأن هؤلاء مولعون بها. البيروني: الجواهر. ص 241.

(2) Denise: Les fouilles de Tegdaoust P.485-487/ Poissonanski: Ghana and the

(3) المالكي: رياض النفوس ص 117 ثم انظر: مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 212 الأدرسي: صفة ص 3، 74.

(4) الأدرسي: نفس المصدر ص 4، 35.

الى بلاد السودان، وإلى جانب هذا كان العنبر سلعة هامة تصدر إلى بلاد السودان لاستعماله في عدة أمور كالطبيب والسحر والتعوذ من الجن وتخليط الموقد<sup>(1)</sup>. ويؤكد صاحب «كتاب الاستبصار» على تصدير بعض السلع المذكورة، كما يضيف إليها سلعاً أخرى، فيذكر أن أكثر ما يتجهز إلى مدينة كوغة بالملح والودع والنحاس المسبوك والتاكووت وهو أنفق شيء عندهم للدبغ وأضاف بمخصوص مدينة سلى أن تباع أهلها «أما هو بالذرة والملح وحلق النحاس وازر لطاف من القطن»<sup>(2)</sup>.

وبالفعل فقد كان الملح مادة هامة للتصدير، وكان قيمًا في بلاد السودان، فذكر ابن حوقل أن حاجة ملوك غانة وكوغة «إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الاسلام» وإذا كان الملح يستخرج في بلاد المغرب الأوسط من مياه البحر، أو من نواحي بسكرة، فليس هناك ما يمنع تجار المغرب الأوسط أن ينقلوا أيضًا ملح الصحراء إلى بلاد السودان الذي أشار إليه صاحب «كتاب الاستبصار» فذكر أن من عجائب الصحراء وجود معدن الملح بها تحفر عنه الأرض تحت قامتين أو أكثر» ويتجهز به إلى بلاد السودان «غانة وغيرها»، ويبدو أنه يقصد مناجم تاغازا التي أشار إليها القزويني، فذكر أن عمل أهل تاغازا يتمثل في «جمع الملح طول السنة يأتيهم القفل في كل سنة مرة يبيعون الملح ويأخذون من ثمنه قدر نفقاتهم والباقي يؤدونه إلى ساداتهم من مسوفة»<sup>(3)</sup>.

وكان التجار يادلون الملح بوزن أو وزن من الذهب أو أكثر على حسب كثرة التجار وقتهم<sup>(4)</sup>، ويذكر دوفيس نقلاً عن موني Mauny أن حمل الجمل مائة وخمسة وعشرون كيلوغراماً إلى مائة وخمسين كيلوغرام يعود بكمية من الذهب 760 إلى 1140 غراماً، ويذكر ابن حوقل أن ثمن حمل الملح في دولحل

(1) أبراهيم نخار: اليونانيون وتاريخ المغرب الوسيط. الأصل ع 14 - 15 من 52.

(2) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 217، 220.

(3) القزويني: آثار البلاد. ص 26 مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 214، ابن حوقل: صورة ص 98.

(4) انظر: Bovill: Caravans of the old Sahara London. 1935. P. 42.

وانظر: الفرناطي: تحفة الألباب ص 42.



بلد السودان وأقاصيه ما بين 200 الى 300 دينار<sup>(1)</sup> وأشار لويكي Lewicki الى أهمية الملح فذكر أنه كان يشكل أساس ثروة الملك، فكان يحتفظ به في المخازن، فقد كان بمثابة النقود، فذكر البكري ان «تجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم»، وتزداد أهمية الملح بالنسبة لتجار المغرب الاسلامي عامة في أنه السلعة الوحيدة التي يمكنها أن تسدد ثمن الذهب المجلوب من بلاد السودان، إذ أن دوفيس يرى أنه لا الصناعات المحلية ولا المنتجات الزراعية كانت كافية أو ملائمة لتسديد ثمن الذهب.

ولا يشير الرحالة الى صادرات المغرب الأوسط الى المشرق الاسلامي على وجه التحديد، وان كانت لا تختلف عن السلع التي ذكروا انها وصلت المشرق من بلاد المغرب الاسلامي، وسواء أكانت هذه السلع من انتاج محلي أو مستوردة، فإن تجار المغرب الأوسط قد حملوها الى المشرق مع غيرهم من التجار، فذكر ابن خرداذبة أن «الذي يجيء من البحر الغربي الصقالبة والروم والأفريقيون واللميرديون والجواري الروميات والأندلسيات وجلود الخنز والوبر ومن الطيب الميعة ومن الصيدلية المصطكي» ويذكر ابن حوقل أن الذي يقع من بلاد المغرب: الأكسية الصوف الرفيعة والذنية الى جباب الصوف، وما يعمل منها والحريز والحديد والعنبر والانطاع والزئبق والرصاص والمولدات الحسان الرفقة والغلمان. ويضيف المقدسي: «الزيت والفسق والزعفران واللوز والبرقوق والمزاود والانطاع والقرب» ويذكر الأصبخري بدوره: «اللبود المغربية والبغال للسرّج والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن والحريز والسمور...». والخدم السود من السودان» ويضيف ابن الفقيه الدرق اللمطية والسمور الى ما ذكره ابن خرداذبة، كما يذكر الجاحظ من بين صادرات المغرب: التمور البربرية والبزاة السود واللبود المغربية الحمر والقرظ<sup>(2)</sup>.

(1) ابن حوقل: صورة ص 98، عن أهمية الملح: البكري: المغرب ص 183. ثم انظر:

Lewicki l'état Nord Africain de Tahert, P.535.

(2) انظر: الجاحظ: التبحر بالتجارة ص 29، 30، 34. ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص 92، ابن الفقيه: مختصر ص 84، الأصبخري. المسالك والممالك ص 45. المقدسي: احسن التقاسيم ص 239.

ويبدو أنهم — التجار — صدروا أيضًا الخيول، فإن زيادة الله الثالث حين أرسل هدية إلى الخليفة العباسي المستكفي، كان ضمنها الخيول، وهذا دليل على طلب المشرق لهذا الحيوان، وبما أن بلاد المغرب الأوسط تشتهر بترتيبه فيكون ضمن صادراتها إلى المشرق.

كما صدرت بلاد المغرب الأوسط بعض مستوجاتها إلى بلاد الروم إلى جانب بعض السلع المستوردة فذكر ج. ايفر G. Yver أن تجار الروم كانوا يشترون من بجاية الصوف والزيت والجلود والشمع<sup>(1)</sup>، كما كانت من صادرات المغرب الأوسط والمرجان والصوف والعبيد السود المجلوبون من بلاد السودان وريش النعام والذهب، وكذلك الأثمار كالتين والتمر، وكان اهتمام الروم بحبوب المغرب الإسلامي يعود إلى عهدهم في البلاد، وبالفعل فقد استوردوا القمح والشعير<sup>(2)</sup>.

الواردات — كانت القوافل التي تغادر المغرب الأوسط تعود محملة بالسلع المختلفة ومن جميع الاتجاهات:

أ — ولاية إفريقية: من المرجح أن يكون الموز الذي اشتهرت به مدينة قابس إحدى السلع التي استوردتها بلاد المغرب الأوسط، وكذلك الفستق الذي اشتهرت به مدينة قفصة، خاصة وأن الرحالة لا يشيرون إلى زراعة هاتين الفاكهتين في بلاد المغرب الأوسط، هذا إلى جانب بعض مصنوعات ولاية إفريقية مثل الآلات الحديدية كالسيوف وسروج الخيل والأدوات الزراعية، وأدوات أخرى مختلفة، خاصة وأن تلك البلاد تشتهر بإنتاج الحديد بمجانة. ومن المستبعد أن يكون حديد بونة يسد الطلب المحلي في بلاد المغرب الأوسط، ومن المواد المستوردة أيضًا المنسوجات الحريرية كالثياب السوسية الشهيرة والكساء الدرجيني، إلى جانب حجر المطاحن، فيذكر ابن حوقل أن من هذه المدينة والحجارة المجلوبة للمطاحن بجميع المغرب<sup>(3)</sup>.

ب — الأندلس: ربما كانت القوافل أو المراكب الثقيلة بين موانئ الأندلس تعود محملة بالمواد التي اشتهرت بإنتاجها، فقد اشتهرت البيرة على سبيل

(1) دائرة المعارف الإسلامية — مادة (بجاية) ج 3 ص 351 بقلم ج. ايفر G. Yver.

(2) موريس لومبارد: الإسلام ص 242.

(3) ابن حوقل: صورة ص 84.

المثال بالحديد والكتان والرصاص والنحاس، وكان فيها شجر الجوز وقصب السكر، واشتهرت طليطلة بالصيغ السماوي والزعفران «الذي يتجهز به إلى الآفاق» واشتهرت المرية بالحرير الذي «كان يشحن إلى جميع الآفاق»، واشتهرت شدونة ببحر البر والبحر، واشتهرت قرية بمغام — قرب طليطلة — بإنتاج الطين المأكول الذي كان «يتجهز به منها إلى أرض مصر وجميع بلاد الشام والعراق وبلاد الترك، وهو نهاية في لذة الأكل وفي تنظيف غسل الشعر» وقد صدر إلى درعة، وهذا كله يجعل من المرجح أنه صدر إلى بلاد المغرب الأوسط (1).

ومن المرجح أيضاً أن بلاد المغرب الأوسط استوردت من الأندلس الحديد المغناطيسي واللا زوردة والياقوت الأحمر وكذلك الزئبق، الذي كان يوجد في فحص البلوط، «ومنه ينتشر في كل أفق» ويوجد في تدمير الكبريت والتوتيا ومنه «يحمل إلى الآفاق» ويوجد القرمز في أشبيلية ولبلّة وشنونة وبلنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق، وكذلك الزيت الذي كان يتجهز به إلى اقاصي المشرق والمغرب برّاً وبحراً. ويذكر ابن الشباط من معادن الأندلس والحديد والرصاص والزنجفور والشب والتوتيا والزاج، واشتهرت بلاد الأندلس بالقسطل والغراسيا والجوز، وفيها السفن بنواحي مالقة واليزاة، وقد ذكر المقدسي من جهته أنه يصنع في مرسية من الأسيرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والمقاص المذهبة، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها (2).

ومن صادرات الأندلس إلى بلاد المغرب الإسلامي عامة، والتي أشار إليها إمام الدين: الورق والسجاد والسلاح وكل أنواع الأدوات المصنوعة من الحديد والنحاس كالمقصات وغيرها (3).

(1) بما اشتهرت به بلاد الأندلس وكان يصدر منها أو يرجع أنه كان يصدر انظر: ابن غالب: فرحة الأنفس. قطعة منه نشر: لطفي عبد البديع. مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الأول. ج 2. 1375 هـ - 1955 م. مواضع متفرقة. ابن الشباط: وصف الأندلس. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية. مدريد 1967 م.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم ص 232 - 233، ثم انظر: ابن غالب: المصدر السابق ص 283. ابن الشباط: المصدر السابق ص 102. السفن: تتخذ منه مقابض السيوف. انظر: الاصطخري: المسالك والممالك. ص 42.

(3) Imamudin: Some aspects...P.127.

وإذا كانت هذه بعض المواد التي استوردتها بلاد المغرب الأوسط من الأندلس، والتي كانت من إنتاج محلي، فقد استوردت سلعة أخرى لعبت الأندلس فيها دور الوسيط، وهي سلع تأتي من بلاد أوروبية ومنها الخدم الصقالية والروم والافرنجيون والجواري الروميات، وجلود الخنزير والوبر والفراء والسمور والسيوف وغيرها.

### ج - المغرب الأقصى:

أ - فاس: لا تشير المصادر التي اطلعنا عليها الى السلع التي استوردتها بلاد المغرب الأوسط من فاس مباشرة إلا أنه من المرجح أنها استوردت بعض المواد التي اشتهرت بها بلاد المغرب الأقصى، حتى ولو كانت الحاجة اليها قليلة، وربما بسبب اختلاف الأسعار بين البلدين، ومن هذا بات من المرجح، أن تكون تاهرت وغيرها قد استوردت الخنزير السوسي، ويشير ابن حوقل الى قصب السكر في بلاد السوس الأقصى، وبلاد المغرب الأوسط تفتقر الى هذه المادة الا قليلاً، فإن زراعتها كانت محدودة في هذه البلاد، وقد ذكر صاحب «كتاب الاستبصار» انه من ماسة «يحبب السكر الى جميع بلاد المغرب والأندلس وأفريقية»<sup>(1)</sup> وأشار ابن حوقل الى شهرة مدينة البصرة في إنتاج القطن، فذكر أن «لها غلات كثيرة من القطن المحمول الى أفريقية وغيرها» كما أفاد الإدريسي في ذكر النحاس في مدينة داي - قرب جبل درن - وانه يحمل الى سائر البلاد، وان ذكر هذه المواد لا يعني الحصر، فإن الجناح الغربي من المغرب الأوسط، كان بين مد وجزر في اتجاه الشرق حيناً واتجاه فاس حيناً آخر وبحكم مجاورته بلاد المغرب الأقصى وتبعيته أحياناً فقد كانت تتم مبادلات تجارية.

ب - سجلماسة: يبدو أن وضعها الفلاحي قد تغير عما كان عليه في عهد اليعقوبي فإذا كان هذا قد ذكر ان زرعهم الدخن والذرة - كما سلف - فإن المقدسي يصفها بأنها «كثيرة القمح والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات»<sup>(2)</sup>. ويذكر ابن حوقل ان لها نهراً «يزيد في الصيف كزيادة

(1) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار. ص 211.

(2) المقدسي: المصدر السابق ص 231، الفلفشندي: صلب الأعشى ج 5 ص 164.

النيل فيزرع بمائة حسب زرع مصر في الفلاحة<sup>(1)</sup>. وبناء على ما ذكره الحموي فقد زرعوا على هذا النهر البساتين والنخيل حتى كان الثمر عندهم ستة عشر نوعاً، ثم يذكر الادريسي من مزرعاتهم غلات القطن والكمون والكرويا والخنة ويتجهز منها الى سائر بلاد المغرب وغيرها، فمن المرجح أن بلاد المغرب الأوسط قد استوردت بعض هذه السلع. مقابل ما صدرته اليها من سلع، خاصة وان سجلماسة مركز للتزويد باتجاه بلاد السودان.

د — بلاد السودان: كانت القواف المتجهة الى بلاد السودان تعود محملة بسلع مختلفة ومنها:

— الذهب: فقد ذكر اليعقوبي أن في بلاد ملك غانة معادن الذهب وتحت يده عدة ملوك في بلادهم الذهب<sup>(2)</sup>، وأشار الادريسي أن «بلاد ونقارة هذه هي بلاد الذهب»<sup>(3)</sup> وذكر البكري من جهته أن افضل الذهب في بلاد غانة ما كان بمدينة غياروا، ويضيف أن مدينة كوغا أكثر بلاد السودان ذهباً، كما يوجد في جالام وبوري وبامبوك<sup>(4)</sup>، ويعتبر لويكي ان الذهب شكل السلعة الرئيسية في تجارة تاهرت مع بلاد التبر الواقعة بين نهر السنغال وفالم *Falme* وبافنج *Bafing*. كما أن موني *Mauny* يذكر أن السودان الغربي، ظل الممول الرئيسي للعالم الغربي بمادة الذهب منذ القرن الثامن الميلادي حتى اكتشاف امريكا<sup>(5)</sup>.

وعلى أية حال، فإن ذهب السودان قد عرف طريقه الى تاهرت وغيرها من مناطق المغرب الأوسط، فإن الامام عبد الوهاب يقول في اشارته وافخاره

(1) ابن حوقل: صورة ص 90، القلقشندي: المصدر السابق ج 5 ص 164، في حين يذكر اليعقوبي ان «زرعهم على الأمطار لقلّة المياه عندهم فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع»، اليعقوبي: البلدان ص 359، ويبدو أن امطارها قليلة بحكم موقعها الجغرافي.

(2) اليعقوبي: المصدر السابق ص 220، المسعودي: اخبار الزمان ص 66.

(3) الادريسي: صفة ص 8. *Bovill Caravans of the old Sahara*. P.59.

(4) *Donise: Les fouilles de Regdaoust*. J.A.H. T.XI. 1971. P.472

*Mauny: The question of Ghana*. P.209.

(5) ثم انظر: تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر. نشر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم — معهد البحوث والدراسات العربية. بغداد: 1404هـ/1984م.

بلور ذهبه في قيام الدولة الرستمية «لولا انا ومحمد بن جرتي وابن زلفين لحرب بيت مال المسلمين انا بالذهب ومحمد بن جرتي بالحرث وابن زلفين بالأنعام»<sup>(1)</sup>.

وتظهر وفرة الذهب في بلاد المغرب الأوسط في صك نقودهم دنانير، وتتجلى وفرة الذهب بشكل أوضح في الأموال التي حملها الفاطميون معهم عند رحلتهم الى مصر والتي اسهم تجار المغرب الأوسط في جلبها الى جانب تجار ولاية افريقية، فذكر أبو الفداء أن المعز اصطحب معه أهله سنة 361 هـ / 971 م «وخزائنه وفيها أموال عظيمة حتى سبك الدنانير وعملها مثل الطواحين وشالها على الجمال»<sup>(2)</sup>، وأستمر تدفق ذهب بلاد السودان بعد رحيل الفاطميين، وبما أن هذه المنطقة شهدت في هذين القرنين ازدهارا عمرانيا واقتصاديا، وبما أن هذه الوضعية جاءت بعد عهد من الحروب والفوضى، فإنه من المرجح أن صناعة الحلبي الذهبية كانت واسعة وتطلبت كميات وافرة من الذهب.

على أن هذا الذهب مستعمل محليا، في صك النقود أو صناعة الحلبي، كان يمثل جزءا من الذهب المستورد من بلاد السودان الغربي، وأما الجزء الآخر وهو يشكل النسبة العظمى فقد كان يأخذ طريقه الى مراكز تجارة المرور التي تطلق سلعا تأتيها من البلدان الواقعة خارج العالم الاسلامي مثل اسبانيا ومراكز التجارة في آسيا الوسطى، كما تتجه الى المراكز السياسية الهامة والى بلاد الملوك والأمراء، وهذا ما دعا موريس لومبار ان يرى «ان هذا الذهب لا يبقى في المغرب وإنما يمر به فقط»<sup>(3)</sup>.

(1) الشماخي: السير، ص 205.

(2) أبي الفداء، مختصر، ج 141. ابن الأثير الكامل، ج 3 ص 620.

(3) موريس لومبار: الاسلام، ص 174. وعن التجارة مع بلاد السودان أنظر: جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 342-387. ثم أنظر:

E.F.Gautier: L'or du Soudan dans l'histoire A.H.E.S.1935 PP.113-123

M.Malowist: Quelques observations sur le commerce de l'or dans le soudan Occidentale au M.Age.A.S.C.Nor-Des.1970

T.Lewicki: quelques extraits inédits aus aux voyages...F.O.1960/1961 PP.1-27 ibid: L'état Nord Africaines de Tahert...

C.E.A.N.N°8 1962 «513-535 Ibid: the ibādites in Arabia...J.W.H.XII/1.1971.

Ibid:traits d'histoire du commerce...Ethnographie.Polska.Vol.VIII.1964

ومع هذه الملاحظة، فإن بلاد السودان لم تكن الممول الوحيد، فقد كانت عدة مصادر لاستخراج الذهب في العالم الاسلامي، تعتبر منافسة لذهب السودان، وهي تؤثر على مدى اهميته فبالاضافة الى الذهب المكتشف في الكنائس وكنوز القبور. فقد كان المسلمون يسيطرون على مناجم الذهب في غرب شبه الجزيرة العربية والقوقاز وأرمينية وجبال الأورال، ومناجم التبت ومناجم افريقية الشرقية والنوبة ومناجم وادي العلاقي<sup>(1)</sup>، وقد ذكر ابن حوقل ان بلاد ما وراء النهر «بها معادن الذهب» وان بلاد د نغلة — غرب النيل — «فيها معادن الذهب الجيد والتبر الخالص»<sup>(2)</sup> وذكر ابن الفقيه ان كerman «بها أكثر معادن الذهب» وأضاف أنه «فيما بين خراسان وارض الهند... أرض الذهب»<sup>(3)</sup>، وذكر الاصطخري انه من اسوان الى معدن الذهب خمسة عشر يوما «والمعدن ليس في أرض مصر ولكنه في أرض البجة»<sup>(4)</sup>، وهذا الى غير ذلك من مراكز الانتاج.

وان كان هذا يقلل من أهمية دور تجار المغرب الأوسط في جلب الذهب من بلاد السودان الغربي، فقد غيروا طريقهم الى بلاد المغرب في القرن الرابع الهجري ليتمكنوا من الوصول الى مناجم السودان بعد ما حالت ظروف طريقهم الأول دون وصولهم اليها، مثلما أشار اليه ابن حوقل، وهذا يدل على أن اقبال المشاركة على ذهب السودان مازال قائماً، رغم تعدد المناجم المذكورة اعلاه، كما كانت تجارة ذهب السودان هامة بالنسبة لتجار المغرب الأوسط في أنه سلعة ثمينة يمكنها أن تغني بتسديد اثمان البضائع المستوردة من بلاد المشرق الاسلامي والأندلس وما وراء البحر وغير ذلك.

العبيد: يبدو أن هؤلاء كانوا في الأغلب من العبيد السود، وقد افاد الاصطخري وابن حوقل وغيرهما الى أن «الذي يقع من المغرب الخدم السود

(1) موريس لومبار: المرجع السابق، ص 162 — 164.

(2) ابن حوقل: صورة، ص 62، 385.

(3) ابن الفقيه: مختصر، ص 206، 325.

(4) الاصطخري: المسالك ص 54.

من بلاد السودان»، وبما أن قوافل المغرب الأوسط قد وصلت تلك البلاد، فقد عادت محملة بالعبيد السود، ورغم ما كان يلاقيه التجار من عناء في جلبهم، إلا أنهم لم يتوقفوا عن ذلك، ومن ذلك أن أبا محمد عبد الله بن محمد السدراقي قال: سافر خالي إلى القبلة فجعل تجارته صامتا واشترى جملا لركوبه ومعه رجل حضري، فجاء الحضري إلى خالي وقال له: ماذا اجعل تجارتي؟ فقال: لا أدري، فجعل الحضري تجارته رقيقا، ففقلوا إلى أهلهم، فكان أبو محمد لا تعب عليه ولا نصب، إذا ارتحل الناس ركب جملة وإذا نزل ضرب خيمته ويستريح، وكان الحضري يتعب وينصب في الخدم والرقيق هزلت هذه وجاعت هذه ومرضت هذه وهربت هذه<sup>(1)</sup>. وما كان هذا الحضري ليحصل كل هذا لولا ما تدره عليه هذه التجارة من أرباح.

إلا أن المصادر لا تشير إلى ثمن العبد في بلاد السودان، ويبدو أنه كان رخيصا بسبب وفرة العبيد في بلادهم في تلك الفترة، وقد أفاد لوبز R.Lopez في أن قيمة العبد لم تصل قيمة حصان<sup>(2)</sup>، ولم يكن التجار يدفعون قيمته نقدا، بل مقايضة بما حملوا إلى بلاد السودان من سلع.

ولم يكن هدف التجار اغراق أسواق النخاسة بالعبيد من أجل الاستعمال المحلي، بل كانوا يصدرونهم إلى مختلف الجهات، فمن المرجح أنهم — تجار المغرب الأوسط — قد أسهموا في توفير تلك الأعداد من العبيد الهائلة التي ظهرت عند الفاطميين، وعند الزيريين من بعدهم، كما أنه من المرجح أنهم صدروا العبيد إلى بلاد الأندلس، حتى أنه يمكن القول أن رحلة محمد بن عرفة إلى ملك السودان كسفير من طرف الامام أفلح بن عبد الوهاب، لها علاقة بموضوع توفير العبيد ليتم إرسالهم إلى قرطبة، نظرا لحاجة الأمويين إليهم ولصفات عبيد السودان خاصة عبيد جوجو، فقد ذكر أبو حامد الغرناطي أن «سائر السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل الآقوقو — جوجو — فلا خير فيهم إلا في الحرب»<sup>(2)</sup>.

[1] R.Lopez: Medieval trade in the Méditerrananean wald.P:43

J.D.Fege: slavery in west African history

J.A.H.1969 vol.X.N°3.

(2) أبو حامد الغرناطي: تحفة الأكياب. ص 43. وعن التجارة مع السودان. انظر:

H.R.Idris: La Berbérie orientale...T.2.P.674-676, 684-685

وعن تجارة الرقيق انظر:



ومن جهة أخرى، يظهر فيما ذكره الاصطخري وابن حوقل أن هؤلاء العبيد كانوا يصدرون الى المشرق.

وعلى أية حال، فإن التجارة برقيق السودان لقيت منافسة من منابع أخرى، فقد كان الحصول على العبيد يتم من مناطق متعددة سبق ذكرها، ومع تعدد الموارد هذه إلا أن الطلب على عبيد السودان الغربي ظل قائماً بدليل القوافل التي كانت تنجّه شرقاً الى البلاد الاسلامية محملة بهم، وإذا كانت مدينة أسوان مركزاً لخصي العبيد السود ومدينة فردان مركزاً لخصي الصقالبة<sup>(1)</sup>، فليس هناك ما يدل على مركز خصيهم في بلاد المغرب الاسلامي، وان كان من المرجح أن تكون سجلماسة وورقلة مركزين لخصي العبيد قبل تسويقهم.

وتأتي أهمية بلاد السودان الغربي كمورد للعبيد الى جانب الموارد الأخرى في انقطاع سبل الحصول على الأسرى بسبب توقف الفتوحات الاسلامية. ثم في أن المنطقة التي كانت مسرحاً لهذه الفتوحات أصبحت اسلامية تضم مسلمين لا يحل استرقاقهم، وتضم اهل ذمة تحميهم الشريعة الاسلامية<sup>(2)</sup>. وهنا دعت الحاجة الدول الاسلامية أن تتطلع باعينها الى موارد خارج البلاد الاسلامية.

— الدرق اللمطية: ذكر الادريسي أنه بمدينة نول تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء ابدع ولا اصلب منها ظهراً ولا احسن منها صنعاً، وبها يقاتل اهل المغرب لخصائنها وخفة عملها، وهي مستمدة من حيوان اللمطي المتوفر في بلاد لمطه، ويذكر ابن حوقل انه «من سجلماسة الى لمطة معدن الدرق اللمطية عشرون يوماً»<sup>(3)</sup>، ويوجد في بلاد لتونة ايضاً ومنها أودغست. ويشير ابن الفقيه الى وجوده في أنبية ايضاً.

(1) انظر: لويس لومبارت: نفس المرجع. ص 294—298. بروفيسال: حضارة العرب. ص 77. وعن الصقالبة: السعدي: مروج الذهب. ج 2. ص 3. وعن التجارة الى بلاد الصقالبة انظر: ابن الفقيه مختصر. ص 270—271.

(2) نفس المرجع ص 290.

(3) ابن حوقل: صورة ص 91. الادريسي: صفة ص 39. ابن الفقيه: مختصر ص 81.

ويدو أن التجار كانوا يجتّون في جلبها نظرًا لأهميتها في الحروب، فغفروا الأسواق المحلية بها، ثم صدروها إلى البلاد الأخرى، فقد كانت تشكل إحدى الصادرات إلى بلاد المشرق الإسلامي، وكانت تصدر إلى الأندلس، بل إنها كانت تقدم هدايا كدليل على أهميتها، فقد اشتملت هدية زيري بن عطية إلى المنصور بن أبي عامر على ألف درقة من جلود اللمط<sup>(1)</sup> وقد أشار القزويني إلى أن «قيمة كل واحد منها ثلاثون دينارًا».

— سلع أخرى: وقد كان التجار يجلبون الجلود من بلاد السودان، خاصة جلود الثور، والثور نفسها. إذ كانت إحدى السلع التي نرد المشرق الإسلامي من المغرب. وهي هامة في صناعة السروج، وقد نالت إعجاب الجاحظ، فعبر عن ذلك بقوله أن خير الثور البربري الموشع، وهو يصفها بأنها صغيرة، «مقدار الجلد منها ما يغشى سرجًا مفردًا ومتينًا ثمن الجلد منها خمسون دينارًا»<sup>(2)</sup>.

ومنها جلد حيوان البطي الذي يعمل منه المجن، وذكر القزويني أن ثمن المجن الواحد ثلاثون دينارًا، ومن خاصيته أن الحديد لا يؤثر فيه<sup>(3)</sup>. ويحمل من بلاد السودان الغربي أيضًا الذبل من ظهور السلاحف حيث تصنع منه الأمشاط. وكذلك العاج ويدو أن تجارة هذه السلعة كانت مربحة حتى أن أحمد بن علي بن حميد التميمي — توفي سنة 261هـ/ 874م في القيروان — تنازل عن ألف دينار من تركة أبيه «فستل عن ذلك فقال: كان من تجارة العاج فكرهته»<sup>(4)</sup>.

وكان من السلع المحمولة أيضًا ريش النعام وكذلك الصمغ، وقد أشار البكري إلى وجوده في منطقة أودغست وإلى وصوله إلى الأندلس، مما يرجح وصوله إلى بلاد المغرب الأوسط، ويذكر الدرجيني أنه لما أصيب أبو معروف — من رجال الطبقة السادسة — ببصره وجه كتابا إلى الشيخ عبد الحميد

(1) ابن خلدون: المعرج 4 ص 66. وقد غنم باديس في حربه مع حماد عشرة آلاف درقة: ابن خلدون: الكامل ج 9 ص 255.  
(2) الجاحظ: التبصير بالتجارة ص 30.  
(3) القزويني: آثار البلاد ص 26.  
(4) القاضي عياض: تراجم ص 322.

الفزافي وكان عالماً كبيراً من أهل الدعوة الاباضية وقاطناً — وكان قاطناً ببلد السودان يستمد منه دواء العين<sup>(1)</sup>، وربما كان هذا الدواء كحلاً هو «البشمة» الذي ذكره ابن البيطار، فأشار الى أنه يستعمل في علاج العين ضماداً وذروراً، لاخراج القذى، والنفخة من الغشاوة، ومن الرمد وغير ذلك كما أشار الى أنه يؤتى به «من بلاد السودان من كوار وغيرها من بلدانهم». كما ذكر ابن البيطار — من الأدوية المجلوبة (جوز الشرك) «يؤتى به من بلاد السودان... إذا شرب منه مثقالاً بماء أحدث الطمث وأسقط الاجنة ونفع من وجع المثانة وإن صنع منه دهن نفع من أوجاع الركبتين والظهر، وزعم بعض اطباء المغرب انه متى شرب ماء طبيخه فتحت الحصاة» ومن هذه الأدوية أيضاً ذكر ابن البيطار «فلفل السودان» يسمى بالبربرية حرفي وهو حب يشبه الجلبان ولوعيته وهو أسود اللون حريف الطعم مثل الفلفل يجلب من بلاد السودان وينفع من وجع الأسنان<sup>(2)</sup>.

ويظهر أن بعض حيوانات بلاد السودان كانت من بين السلع المجلوبة مثل الثور والبقيلة والأسود والزرافات، وربما كانت بعض الحيوانات التي تضمنتها هدية زيري بن عطية الى قرطبة هي مجلوبة من بلاد السودان، وكان منها «دابة من دواب المسك ومهاة وحشية تشبه الفرس وحيوانات غريبة»<sup>(3)</sup>. وربما من هذه الأخيرة حيوان الكركدن أو وحيد القرن. ومن المرجح أن هذه الحيوانات كانت تجلب وهي صغيرة ثم تم تربيتها في بلاد المغرب.

هـ — بلاد المشرق: لم تتوقف حركة القوافل التجارية البرية والبحرية بين المغرب الاسلامي وبلاد المشرق الاسلامي، بحكم الترابط العضوي بينهما، وتكشف كتب الرحلة عن نشاط هذه الحركة وعمران الطريق بالقوافل، وقد كشف ابن الصغير بدوره عن وصول قوافل الى تاهرت قادمة من المشرق فذكر ان ابا حاتم «كان أخرجه أبوه في جيش مع وجوه زناتة ليجوروا قوافل

(1) الدرجيني: طبقات ج 2 من 327. T.Lewicki: Arabic external...P.67.

(2) عن هذه الأدوية انظر: ابن البيطار: الجامع ج 1. ص 95، 177؛ ج 3 ص 167.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص 64 حوادث سنة 382 هـ/92م. ابن خلدون: المعبر ج 4 ص 66. وكانت هذه الحيوانات ضمن هدايا ملوك السودان الى أمراء المغرب. انظر عنها: ابن عثاري: البيان ج 1 ص 264، 273.

قد اقبلت من المشرق وفيها أموال لا تحصى، وهذه القوافل قد تكون مثلاً لقوافل أخرى وصلت مدن المغرب الأوسط الأخرى. وحين وصل أبو عبيد الله المهدي قسطنطينية «كان في الرقعة التي هو بها رجال من بلدان المغرب والزب وسجلماصة»<sup>(1)</sup>. ولم تتوقف تلك القوافل، فإن ناصر خسرو يذكر بخصوص طرابلس الشام ان للسلطان بها سفناً «تسافر الى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة»<sup>(2)</sup>.

ويظهر أن بعض القوافل كانت تصل بلاد الهند والصين، فإن البيهقي يشير الى مراكب خيطة تنطلق من ماسة على المحيط الاطلسي «يركب بها الى الصين» فمن المرجح والحالة هذه ان بعض تجار تاهرت قد رافقوا هذه المراكب المذكورة الى المشرق وكان هؤلاء التجار إذا ما وصلوا مواليء مصر سافروا براً الى مواليء البحر الأحمر، ومنها الى عدن ثم الى الخليج في بلاد الهند والصين، وأما أن يسلوكوا طريقاً من مصر الى الرملة، ومنها الى دمشق، ثم الى الكوفة ثم الى بغداد، ومنها الى البصرة ثم الى الأهواز ثم الى فارس ثم الى كرمان ثم الى السند ثم الى الهند ثم الى الصين<sup>(3)</sup>، وان ذكر ابن خرداذبة لهذا الطريق انطلاقاً من الأندلس الى الصين لدليل على سير قوافل التجار بين المغرب الاسلامي والمشرق الأقصى.

وإذا كان محمد بن معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية — من أهل قرطبة — قد رحل الى المشرق سنة 295 هـ «ودخل أرض الهند تاجراً»<sup>(4)</sup>، فليس هناك ما يمنع بعض تجار المغرب الأوسط أن يسير نفس دربه.

وقد أكد صاحب «كتاب الاستبصار» هذا الاتصال، فذكر ان سفن المسلمين ترسو في ميناء بجاية قادمة من «الاسكندرية بطرף بلاد مصر وبلاد

(1) القاضي النعمان: اختاج الدعوة ص 152.

(2) ناصر خسرو: سفر نامه ص 48.

(3) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص 153.

(4) ابن الفرضي: تلويح العلماء والرواة للعلم بالأندلس ج 2 ص 70.

اليمن والهند والصين وغيرها(1).

وعلى أية حال، فليس من السهل حصر السلع التي كانت تستوردها بلاد المغرب الأوسط، فمن المرجح أن التجار استوردوا السيوف اليمنية، فقد ظهرت عند المنصور الفاطمي، وما داموا وصلوا اليمن فربما أحضروا معهم «الحلل اليمنية والثياب السعدية والعدينية والورس» وقد ظهرت القراميد اليمنية في جامع القيروان جلبها إليه أبو ابراهيم أحمد بن الأغلب، كما أحضروا صن وبر «وهو صمغ يؤتى به من اليمن» وبما أن عدن كانت تشتهر باللؤلؤ، فمن المرجح أن التجار استوردوه فإن رجلا جوهريا من تجار المشرق قصد المنصور بن أبي عامر من مدينة عدن بجوهر كثير واحجار نفيسة(2).

وبما استورده التجار من بغداد خشب الساج والرخام، ويبدو أنه كان من نوع رفيع فإن ابا ابراهيم أحمد بن الأغلب أتى به لجامع القيروان على الرغم من وجود الرخام في افريقية. وكان لأحمد بن علي التميمي — المتوفى سنة 261هـ/874م في القيروان — «مائدتان زجاجا أتى إليه بهما من بغداد لم يصلا إليه الا بمئة وتسعين ديناراً».

وقد ظهرت في خزائن الفاطميين ملابس مختلفة من صنع مشرق منها مبطنة مروية وجبة مروية، وتكة أرمني، وثياب تستريه — نسبة الى تستر — التي ذكر الاصطخري أن «ها يتخذ الدياج الذي يحمل الى الدنيا» ويرتفع من بلاد فارس. ثياب كتان «تحمل هذه الثياب الى الافاق من بلدان الاسلام كلها»(3)، وجلب التجار الوشي، فإن وشيمة بن موسى بن الفرات الفارسي خرج الى الأندلس تاجراً. وكان يتجر في الوشي، وربما كان من وشي الكوفة التي لفتت نظر ابن الفقيه بوشما. وأشار ابن القوطية الى وجود الثياب والغفارات العراقية في قرطبة. ومن المرجح أن حرير الموصل قد وصل هذه البلاد، ويبدو

(1) مؤلف مجهول. كتاب الاستبصار. ص 130، وعن أوائل التجار العرب في بلاد الصين انظر: T.Lewicki: Les premiers commerçants Arabes in china F.O.vol III 1961/1962

وعن نظام التعامل انظر: التاجر سليمان: اخبار الصين والهند تحقيق وترجمة: Jean Sauvaget ثم انظر: الصماني: عمان في العصور ص 149 نقلا عن المروزي.

(2) ابن عذاري: البيان. ج 2 ص 291.

(3) الاصطخري: المسالك ص 153. وعن ديباج نستر انظر. نفس المصدر ص 92.

أن المغاربة كانوا يستوردون مختلف التحف والطرائف التي ظهرت في المشرق لتزيين قصورهم تشبهاً بقصور الشرق، فيذكر موريس لومبار ان المجتمع القرطبي أخذ يستعمل الأواني المصنوعة من الزجاج الشفاف المسمى «العراقي» والأثاث المغطى بالجلد الناعم والمنقوش والمطرز بالذهب طبقاً لطريقة وصلت الى قرطبة عن طريق القصور العباسية<sup>(1)</sup>. وان ما قيل بخصوص عبد الرحمن بن الحكم الأموي، يمكن أن ينطبق على أثرياء المغرب الأوسط فقد ذكر ابن عذاري أنه قد وصل الى عبد الرحمن بن الحكم «نفيس الوطاء وغرائب الأشياء وسبق ذلك اليه من بغداد وغيرها»<sup>(2)</sup>.

هذا بالإضافة الى سلع أخرى تم استيرادها مثل ماء الورد الذي ينقل من بلاد فارس «الى سائر الأرض حتى المغرب وبلد الروم والأندلس»<sup>(3)</sup> وكذلك الطيب، ويظهر هذا في قول الشماخ لادريس الأول: «اني جئت من المشرق بقارورة الطيب ثم اني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب فرأيت ان الامام أولى مني بها فخذها تطيب بها»<sup>(4)</sup>، وكذلك الكتب، فإن الامام عبد الوهاب نفسه «بعث الف دينار الى اخوانه من أهل المشرق أن يشتروا له بها الكتب... فنسخوا له أربعين حملاً من الكتب فبعثوا بها اليه»<sup>(5)</sup>. وقد أفاد ابن البيطار في ذكر بعض السلع التي تستورد من الهند والصين فكان منها: بليج وبلاذر والماليزان وبوزيدان وبنك، وهذا الأخير يدخن به لطيب رائحته، وجوز الطيب والكافور والكرم وهو دواء مجفف للقروح ونافع للجرب<sup>(6)</sup>، ويحمل العود أيضاً من تلك البلاد وخشب الصندل. وربما كانت القباقيب المستخدمة في قصور بني زيري قد صنعت من هذه الأخشاب النفيسة المستوردة من الهند. وحين توفيت

(1) لويس لومبارد: الاسلام من 126، وعن «وشيمة» المذكور انظر: الحميدي: جلوة المعين من 369.

(2) ابن عذاري: البيان ج 2 ص 91.

(3) ابن حوقل: صورة. من 260. الاصطخري: المصدر السابق. ص 152.

(4) ابن أبي زرع: روض القرطاس من 9. ابن الخطيب: تاريخ المغرب العربي من 124.

(5) أبو زكريا: السر من 55. الدرر جني: طبقات ج 1 ص 56.

(6) عن هذه المواد انظر: ابن البيطار: الجامع ج 1 من 110، 113، 120، 122، ج 3 ص 78.

زوجة نصير الدولة سنة 412هـ/1012م «جعلت في تايوت من عود هندي قد رصع بالجواهر» وحمل التجار القرنفل والدارصيني «القرقة» ويبدو أن القنفل كان يجلب بكميات كبيرة الى تاهرت، وكان المراكبئون على نقشهم في مراكبهم استعمالوا التوابل في قنورهم، وعلى الجملة، فإن ابن الفقيه يشير الى أن التجار كانوا يحملون «متاع الصين كله»، ويبدو أن هذه التجارة كانت تدر أرباحاً طائلة تناسب وبعد الشقة، فإن عمداً بن معاوية السلف الذكر قال: «خرجت منصرفاً من أرض الهند وأنا أقرر أن معي قيمة ثلاثين ألف دينار»<sup>(1)</sup>.

— بلاد الروم: قامت علاقات تجارية بين المغرب الأوسط وبلاد الروم لفقت نظر ابن حوقل، ذكر ذلك في سياق حديثه عن الموارد المالية، فكتب أن «ما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والأندلس فيعشر على سواحل البحر»، وأضاف في مكان آخر بخصوص مدينة تنس أن للسلطان فيها «مراسد على المناجر الداخلة اليها والمخرجة والصادرة والورادة»<sup>(2)</sup> وبالربط بين هاتين العبارتين يتضح أن التجارة كانت قائمة بين الجهتين، وإذا كان ما ذكره صاحب «كتاب الاستبصار» لا يعني بالضرورة التجارة في عهده، إذ هو يعتمد كثيراً على البكري الذي اعتمد بدوره على ابن الوراق، فإن سفن الروم كانت ترسو في ميناء بجاية<sup>(3)</sup>، وإن مشاهدة سفينتين تابعتين للبلندقية في المهدية وثالثة في طرابلس الغرب سنة 361هـ/971م لتأكيد أن سفن بلاد الروم قد وصلت مواليء المغرب الأوسط.

ومن خلال هذا الاتصال يمكن فهم أهداف السفارات والهدايا المتبادلة بين الفاطميين والروم، فذكر بن أبي الضياف بخصوص المعز الفاطمي «أن رسولا من ملك الروم كان يتردد اليه وهو بافرقية سفيراً عن سلطانه» ويذكر الجوزري أن ملك الروم قام بإرسال هدية الى المنصور الفاطمي، فقام هذا من جهته بإرسال هدية قيمة قال فيها: أنها «لبهاة الاعداء والدلالة على شرف انفسنا»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن الفريسي: تاريخ العلماء ج 2 ص 70، وعن السلع التي تجلب من الصين انظر: الجاحظ: البصير بالتجارة ص 33، 34.

(2) ابن حوقل: صورة، ص 78، 94.

(3) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص 130.

(4) جوزري: سيرة الأستاذ الجوزري ص 61، وعن سفن الروم انظر: ابن أبي الضياف: انخاف. ص 163.

ومن المرجح أن الدافع وراء تمتين العلاقة وتنميتها بالسفراء والهدايا هو خدمة العلاقة التجارية بين الطرفين، ومن المرجح كذلك أن العقود والاتفاقات المبرمة بين المغرب وبلاد الروم في القرون التالية ما هي الا استمرار للعلاقات التجارية التي كانت قائمة قبل ذلك<sup>(1)</sup>، وكذلك من المستبعد أن تكون فناءق النصراني في بجاية هي بداية عهد الروم التجاري في بلاد المغرب الأوسط.

ويبدو أن تجار الروم قد حملوا على عاتقهم مسؤولية الاتصال بين ساحلي البحر الأبيض المتوسط الشمالي والجنوبي بشكل أبرز من دور تجار المغرب الاسلامي، ويرد أرشيالد هذا الى انشغال تجار المسلمين بتجارة الشرق وتجارة الصحراء.<sup>(2)</sup>

وعلى أية حال، فإن العبيد الصقالية قد شكلوا احدى السلع التي استوردتها بلاد المغرب الأوسط، سواء عن طريق الأندلس أو عن طريق بلاد الروم مباشرة، فإن المدن الايطالية كانت تتلقى الرقيق الصقلي الآتي من اعالي الدانوب عن طريق ممرات جبال الالب أو من جبال الالب الشرقية وأيستري والمانيا وبعد ذلك يقوم التجار بنقلهم الى البلاد الاسلامية.<sup>(3)</sup>

ومن الواردات أيضاً الفراء، وقد ظهرت في تاهرت في وقت مبكر، منذ عهد مؤسسها الامام عبد الرحمن بن رستم. فقد اشترى بما بقي من مال الصدقة «أكسية صوفاً وجبابا صوفاً وفراء وزيتاً» ومنها كذلك الأسلحة وخاصة السيوف، فإن الجوذري يشير الى وجود السيوف الافرنجية في حوزة الخليفة المنصور الفاطمي، وذكر موريس لومبارد من جهته، ان الغرب الاسلامي يتلقى هذه السيوف عن طريق وادي الرون والبنديقية، كما استورد تجار المغرب الأوسط الخشب، خاصة المستعمل في بناء السفن، بل انهم استوردوا السفن.

La Berbérie Orientale. T.I.P.679-680.

Traité de paix et de commerce concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes au M.Age. Paris. 19168.

(2) أرشيالد: القوى البحرية ص 274.

(3) موريس لومبارد: الاسلام ص 294.



نفسها، فيشير الجوزدي الى مركبين اشترىا للمعز الفاطمي من الروم(1)، واستوردوا الدياج، فقد أشار ابن عذاري الى وجود الدياج الرومي في خزائن المنصور بن أبي عامر.

ولا يراد بذكر هذه السلع الحصر، بحيث أن كفة الميزان التجاري كانت تميل الى جهة بلاد الروم، فكان على تجار بلاد المغرب الأوسط أن يعدلوا الأمر بدفع الذهب الى الروم الذين كانوا بحاجة اليه.

### النظم النقدية في التجارة الدولية:

خدمت النقود الحركة التجارية، وسهلت عملية التبادل التجاري، ولم يكن اختلافها بين الدول الاسلامية، عائقا إذ ان نقود دولة ما، كانت مقبولة في الدول الأخرى، فإن الأمير محمد بن عبد الرحمن «أمير قرطبة» بعث الى الامام افلح بن عبد الوهاب مائة ألف درهم(2)، وكان الناصر الأموي يدفع عن كل سارية مجلوبة من ولاية افريقية ثمانية سجلماسية عند بنائه الزهراء، وان زيادة الله الأعلى دفع بكيس فيه ألف دينار الى الخليفة المأمون «وكانت الدنانير مضروبة باسم ادريس»(3) بناء على ما ذكره ابن الآبار.

ومن المرجح أنه كان يراعى في مسألة قبول النقود الأجنبية اختلاف السكة أو الوزن، فربما أن التجار كانوا يفضلون وزنا لا عدا، وربما كانت أيضا، تنقص قيمتها بقدر تكاليف اعادة سكها، وان كان هذا احتمالا ضعيفا بسبب وجود الصيرافة مثلاً، وعلى أية حال، فإن استعمال النقود كقطع معدنية في التجارة الخارجية تظل مسألة صعبة، فكان على التاجر أن يحمل نقوده معه في حله وترحاله، وفي هذا ما يعرضه للخطر، كأن يتعرض لغزو يقوم به قطاع الطرق، أو ضياع أمواله ونحو ذلك، الا أن هذا الأمر قد خفت حدته بوجود الصيرافة.

(1) جوزدي: سيرة من 127، لومبار: الاسلام من 346، ولدت النوبسي نجة: التجارة صفحة 66.

(2) البلاذري: فتوح من 236. محمود اسماعيل: الخوارج من 156.

(3) كان عبد الله الشيعي يرسل الأموال الى عبيد الله المهدي وهو في المشرق ثم وهو في سجلماسة.

— الصيارفة: أشار ابن الصغير الى وجود الصيارفة في تاهرت، ومنهم أبو محمد الصيرفي في القرن الثالث الهجري، وهي اشارة كافية للدلالة على وجودهم في أنحاء المغرب الأوسط، خاصة المراكز التجارية.

ويعتبر البيروني أن الصرف هو «مزاولة الصرف بين العين والورق في التفاضل بين النقود المختلفة» (1).

وكان الصيرفي يقوم بما تقوم به البنوك حالياً، فهو يستبدل نقوداً بنقود، وهو يدين من اراد الاستدانة، كما أنه مستودع للأمانات، فكان بعض الناس يودعون أموالهم عنده، ثم يمكنهم أن يسحبوا المبالغ التي تلتزمهم منها متى رغبوا (2). لهذا كان الصيرفي من الأثرياء، ويؤدي خدمة جليلة لحركة التجارة.

— البنوك: يشير أرشيبالد الى أن أساليب أعمال البنوك قد تقدمت كثيراً، وبضيف أن الحوالات المسحوبة على رجال المصارف من أهل المشرق والقابلة للصرف في بلاد المغرب، قد قامت مقام النقود في السودان في القرن الرابع الهجري — العاشر الميلادي وكان السعر السائد لعمولة صرف الشيكات والحوالات عشرة في المئة (3)، ولكي تتصور مدى دولية هذا التعامل المالي، علينا أن ننظر إلى البلاد التي كان يجوبها التجار المسلمون من مشارق الأرض الى مغاربها.

ويذكر هـ. أدريس أن الرجل كان يرسل بضاعة الى تاجر فيقوم هذا بتحويل ثمنها الى مرسلها بواسطة البنك (4)، أي أن الرجل صاحب البضاعة هو المحول اليه والتاجر البائع هو المحول والبنك هو الوسيلة. ويزيد ناصر خسرو عمل البنك وضوحاً، فيذكر أن العمل كان بأن يعطي التاجر ماله للصراف، ويأخذ منه صكاً، ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف أي أنه

(1) البيروني: الجواهر من 242.

(2) انظر: القاضي عياض: تراجم من 182. الدباغ: معالم ج 2 من 129.

(3) أرشيبالد: القوى البحرية من 263.

(4) H.R. Idria: La Berbérie orientale. T.2. P.655.

يرسل البائع الى الصراف ليقبض ثمن سلعته، وبهذا كان التاجر لا يستخدم شيئاً غير صك الصراف طالما يقيم بالمدينة(1).

ثم يذكر ناصر خسرو حادثة وقعت له في أسوان، وكان له صديق فيها، فلما كان متوجها الى عيذاب كتب صديقه له كتابا الى وكيله في عيذاب يقول له فيه «أعط ناصرًا ما يريد وهو يعطيك صكًا للحساب، فلما بقيت بها ثلاثة أشهر وانفقت ما معي اضطررت أن أعطي هذه الورقة للوكيل فأكرمني وقال: ان له والله لدي أشياء كثيرة واني معطيك ما تريد وأعطيني صكًا به»(2)...

ومن المرجح أن هذا الأسلوب من التعامل كان معروفًا في بلاد الغرب الأوسط، ويكون أبو محمد الصيرفي السالف الذكر قد مارس الأعمال البنكية في تاهرت، ولم يكن وحيدًا فيها، مادامت تاهرت تمتع بتجار العراق من بصريين وكوفيين وغيرهم، وهم الذين حذفوا هذا الأسلوب من التعامل.

ويذكر ابن حوقل أنه رأى «باودغست صكًا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار»(3). ويذكر في مكان آخر من كتابه أنه رأى «صكًا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأودغست وشهد عليه العدول» ويفهم من هذين النصين أن تاجرًا سجلماسيًا هو محمد بن أبي سعدون كان يقيم في أودغست، وقد قدم صكًا لتاجر يكون قادمًا من سجلماسة الى أودغست وبهذه الوسيلة يستلم التاجر الثاني حقه في سجلماسة، يدفع الصك الى وكيل التاجر الأول في سجلماسة، وبهذا يرتاح من خوف الطريق على ماله.

ويبدو أن الصك كان في العادة يحمل البسملة في اعلاه ثم النص المتعلق بالحق «هذا اشترى...» ويذكر فيه إسماء الطرفين، وهما حامله، ومقدمه. بالإضافة الى أسماء شهود عدل. وقد يحمل تاريخ كتابته.

(1) ناصر خسرو: سفرنامه ص 146.

(2) نفس المصدر ص 119.

(3) ابن حوقل: صورة ص 96، 65، صم انظر:

N.Levtzion «Ibn-Hawqal, the cheque...» J.A.H.1968. Vol.IX N°2. P.223-230.

— السفنجة: (1) وهي تلعب دورًا هامًا في تنشيط التجارة بالوظائف التي تؤديها، فهي يمكن أن تكون أداة لنقل النقود أو أداة وفاء دين أو أداة ائتمان، فإذا أراد رجل أن يسافر دون أن يحمل معه النقود مدة سفره، فإنه يلجأ إلى رجل ثان يسلمه هذه النقود، ويأخذ بها سحبًا على عميل لهذا الرجل الثاني موجود في البلد التي يقصدها الأول، فإذا ما وصل هذا إلى العميل، فإنه يقبض قيمة السحب منه، ويمكن أن تتبع هذه الطريقة بين مدن البلد الواحد (2).

وهذه السفنجة تسهل للمشتري شراء ما يلزمه من السلع دون أن يكون مضطرًا لدفع قيمتها نقدًا عند الشراء، كما تساعد البائع على تصريف سلعته بالسهولة التي يقدمها للمشتري في كيفية الدفع، ومن مميزات هذه الوسيلة أن السند الذي يحزره المشتري للبائع قابل للتداول في أي مكان أثناء عبوره الطريق. فإذا احتاج حامل السند إلى بيعه في بلد ما، أمكنه ذلك باللجوء إلى المصرف (3).

ولا شك أن الرجل الذي يقدم السند كان يحقق أرباحًا بهذه العملية، ويبدو أن بعض علماء الدين كانوا يعتبرونها حرامًا، الأمر الذي دعى القاضي النعمان أن يضطر فحوى في هذه المسألة يرخص فيها السفنجة، ويذكر عن علي بن أبي طالب أنه أعطى مالا من مدينة وأخذها في أرض أخرى، وأضاف أن جعفر بن محمد «يرخص في السفنجة وهي المال يفرضه لرجل بأرض ويقبضه بأرض أخرى» ثم يؤكد على هذا المعنى فيذكر أنه «ولا بأس في أخذ المال سفنجة على أن يعطيه بأرض أخرى ويتجر به ويضمنه» (4).

### الشركات:

يفيد القاضي عياض أن الشركة كانت معروفة في ذلك الوقت في القيروان، ومنه فهي معروفة في غيرها من مدن المغرب الإسلامي، فهو يقول:

- (1) عن السفنجة انظر: الانطاكي: السفنجة. جامعة دمشق. 1385هـ/1965م. ويرى بعض القائلين أن السفنجة موجودة في عهد جهوري أبي، ويرجع البعض الفضل إلى الصين في إيجاد السفنجة في القرن 6 للميلادي. انظر: نفس المرجع ص 10 — 11.
- (2) نفس المرجع. ص 20. عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 132.
- (3) نفس المرجع: ص 19 — 21.
- (4) القاضي النعمان: كتاب الاقتصاد، ص 88. نفسه: كتاب الدعائم ج 2. ص 60.

بخصوص عبد الجبار بن خالد السبتي —، ت 281 هـ/894م أنه «كان بينه وبين حمديس القطان صاحبه عظمة وشركة في القطن يعملان في سوق الأحذية»، ويبدو أن بعض العلماء، كانوا يشكّون في جوازها شرعاً، مما دعا القاضي النعمان أن يزيل هذا الشك، فذكر أن «لا بأس بالشركة» (1)، وهذه العبارة تؤكد وجود نظام الشركة في ذلك العهد.

ولا عجب في ظهورها، فقد يموت تاجر ثم يستمر ورثته في تجارته، أو قد يتفق بعض الأصدقاء أو الأقارب على الاشتراك في عمل تجاري، فيدفع كل منهم نصيباً من رأس المال أو يشارك البعض بالعمل، والشركات على ثلاثة أنواع.

1 — شركة المفاوضة: يتساوى الشريكان في رأس المال، إذ يفترض التكافؤ بينهما، كما يتساويان في الربح والخسارة ولكل منهما حق التصرف برأس المال حسب ما يراه مناسباً وتلحق نتيجة تصرفه الطرفين، ذلك لأن التفويض أو المفاوضة تتضمن الوكالة والكفالة.

2 — شركة العنان: يطلق العنان فيها لكل منهما، فيساهم بما شاء من رأسمال، وبذلك يمكن أن تتخذ أشكالاً مختلفة حسب مساهمة كل منهما أو مسؤوليته أو نوع التجارة، وهي تعقد بينهما على أساس الوكالة، كما يمكن أن يتباين الربح رغم المساواة في رأس المال، ويمكن أن تكون الشركة لختلف البضائع أو لصنف معين.

3 — شركة الوجوه: وهي يمكن أن تحمل اسم شركة (المفاليس) لأنهما يشترعان في العمل التجاري دون رأس مال، بل انهما يشتريان ويبيعان بالنسيئة، واعتماداً على حسن سمعتهما، ويبدو أن بعض العلماء انكر هذا النوع، في حين أجازوه البعض الآخر لأن الناس تعاملوا بها «من لدن رسول الله ﷺ» إلى يومنا هذا من غير نكير (2).

(1) نفسه: كتاب الاقتصاد ص 92. قال تعالى «شركاء في الثلث» سورة النساء آية 12. وعن الشركة في الإسلام: انظر السيد سابق: فقه السنة دار الكتاب العربي ط. 6 1404 هـ/1984م ج 3 ص 354 — 369.

(2) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص 128. وعن الشركة انظر: الشهابي: الخارج في الحيل. ص 57 — 58. القاضي سحنون: المدونة الكبرى ج 5 ص 12. ج 40، ص 84.

وعلى كل، فإذا كانت الشركة تقوم بين اثنين فأكثر، فقد كان يشارك تاجر واحد في عدة شركات، وعلى أية حال، فإن هذا النظام قد وفر رأس مال وجهداً، وهذا ما يزيد التجارة ازدهاراً.

### القراض:

يقوم القراض على أن يقدم شخص ثري مبلغاً من المال لرجل يستخدمه في التجارة مقابل نسبة معلومة من الربح كأن تكون النصف أو الثلث أو غير ذلك، وقد يكون القراض في البضائع، فيقدم تاجر بضاعة لرجل يبيعها ثم يستعمل ثمنها في التجارة قراضاً، فيذكر هـ.ر.ادريس أن المازري عثر على رسالة لابن أبي زيد يقول فيها: عندما يأتي شخص لرؤيتك خذ البضاعة التي يملكها وأدفع له ديناراً أجرته، ثم أعطيه ثمن بيع البضاعة على سبيل القراض<sup>(1)</sup>. وهذا في العهد الزيري.

ويبدو أن هناك بعض المخالفات كان تقع، كأن يقوم المقرض بعمليات تجارية لحسابه الخاص مستعملاً مال القراض، أو قد يدخل في شركة دون أن يصرح له صاحب رأس المال بذلك —.

ولم يكن للقراض أسلوب واحد، فقد يقوم به صاحب مركب، فيأخذ مالا من تاجر ليشتري له بضاعة من البلد التي يسافر إليها، ويأخذ في نفس الوقت اجرة مركبه، وعلى كل، فإنقراض يوفر المال لممارسة العمل التجاري لمن لا يملك رأس مال، وله ركنان:

الأول: رأس المال، وشرطه أن يكون معلوماً مسلماً، والثاني: الربح ويكون معلوم النسبة، ويختلف القراض على السلف، فيكون الأول اجراً أو منفعة مادية، بينما يكون الثاني بقصد الأجر والثواب، ويظهر الاختلاف في عبارة ذكرها الدرجيني جاء فيها: «سأل من رجل خمسين ديناراً قراضاً وخمسين سلفاً»<sup>(2)</sup>.

(1) H.R.Idris: La Berbérie Orientale.. T.2.P.661.

وعن القراض في الاسلام انظر: السيد سابق: فقه السنة ج 3 ص 202 — 210. سخون: المدونة من ج 5. ج 12 ص 86 — 131.

(2) الدرجيني: طبقات. ج 2 ص 359 ثم ص 245. ثم انظر:

H.R.Idris: Commerce Maritime et Kirad en Berbérie Oriental. J.B.S.H.O.3/1961 PP.225-239.

وأشار الدرجيني الى وجود القراض حقاً فذكر «أن رجلاً من مزاته قارض رجلاً بمال فكان يتجربه، في القرن الرابع الهجري.

ويظهر أنه كان يقع في باب القراض بعض المخالفات والمنازعات، مما أوجب على بعض العلماء أن يؤلفوا الكتب في هذا الموضوع، فذكر القاضي عياض أن القاضي بن طالب في القيروان «لقى كتاب القراض ثم أكثر كتاب الصرف»<sup>(1)</sup>، على مسامع أبي العباس اسحاق الصائغ.

### الكراء

قد يملك التاجر رأس المال الكافي لكنه لا يملك وسائل السفر، وفي هذه الحالة يمكنه أن يئيد حلاً باكتراء المراكب أو الحيوان، فذكر ابن عذاري أن ابن قريه أراد جواز البحر من صقلية الى الأندلس «فاكثرى مراكب وشحن فيها متاعاً كثيرة سنة 303 هـ — 915 م»، ويرى هـ. ر. ادريس أن السفن كانت تؤجر للتجار الذين كانوا يرافقونها أولاً وقد يكون جزء من حمولتها لأصحابها.<sup>(2)</sup> فمن المرجح والحالة هذه أن مراكب تاهرت في مرسى فروخ كانت وسائل نقل عامة لمن أراد الاكتراء.

وبطبيعة الأمر، كانت تقع بعض المنازعات بين الطرفين، فقد يعطب المركب، وقد يموت الحيوان في الطريق، مما يتطلب تدخل الفقهاء، فكان ابن القاسم يقول «الكراء على البلوغ» وابن نافع يقول «يعطي من الكراء بمقدار ما سار» ولا يختلف الأمر بالنسبة للعهد الفاطمي عن غيره، فقد أجازة القاضي النعمان فذكر أنه «لا بأس باجارة الدواب والسفن على حمل معلوم أو مدة معلومة بعين أو بعروض موصوفة»<sup>(3)</sup> مما يعتبر حلال.

### الوكالة

تربخ الوكالة التاجر من عناء ومشقة السفر ذهاباً وإياباً وبشكل مستمر، إذ يمكنه أن يرسل بضاعته الى وكيله مع بقائه في بيته، فما عليه سوى أن يعد

(1) القاضي عياض: تراجم ص 375.

(2) H. R. IDris: La Berbérie Orientale, T.2, P.632-633.

وعما ذكره ابن عذاري انظر: البيان ج 1 ص 174، وعن نص عقد اجار السفن انظر: ابن أبي الفضل: كتاب الوزارات ص 164.

(3) القاضي النعمان: كتاب الإقتصار ص 91. ثم انظر: البهاغ: معالم الإيمان ص 337.

القافلة، وهذا النظام يخدم من ترفع نفسه عن ممارسة العمل التجاري كالفقضاء مثلاً، فإن القاضي النعمان يرى أن على القاضي أن يرفع عن «مخالطة السوق ومباشرة البيع والشراء بنفسه ويولي ذلك من يثق بدينه وأمانته»<sup>(1)</sup>.

وقد ذكر المفريزي أن أم الأمراء «قد وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر فحرضها وكيلها في مصر للبيع»<sup>(2)</sup> — كما سلف — ، كما أن عمدا الرقادي ركب بحر القيروان الى مصر في مركب لمؤمن البوطي موكلأ له على ماله ففرق سنة 316هـ/918م، وما دام هذا النظام معمولاً به في افريقية، فهذا يعني أنه كان معروفاً في المغرب الأوسط، فإن الأموال التي أرسلها الامام عبد الوهاب في شراء الكتب من المشرق، هي على الأرجح كانت مرسلة الى وكيله هناك، خاصة وان الامام كان من المشتغلين بتجارة الذهب.

وعلى أية حال، فإن الوكالة وغيرها، من أساليب التعامل المذكورة تعمل مجتمعة على ازدهار التجارة بصفة عامة.

### مؤسسات في خدمة التجارة:

#### القنصاوق:

جرت عادة التجار الأجانب، إذا وصلوا مدينة أن ينزلوا فنادقها، فيودعون بضائعهم في مستودعاتها، فتسجل في دفاتر خاصة وتضرب عليها المكوس الديوانية، وتنظم الدولة عرضها للبيع بالمرزاد العلني وهذه الطريقة يمكن تقديرها ما يفرض عليها من مكوس.

وقد عرفت الفنادق التخصص فذكر ابن حوقل: «يقصد كل فندق بما يعلم أنه يغلب على أهله من أنواع التجارة»<sup>(3)</sup>، فكان «فندق البياض — الفحم — (وفندق الكتان» الى آخره.

(1) نفس المصدر ص 167 وعن الوكالة في الاسلام انظر: السيد سابق: فقه السنة، ج 3، ص 228.  
(2) وعن ذكر الوكيل انظر: أبو العرب: طبقات ص 163. الحنشي: قضاة قرطبة ص 284. الدباغ: المصدر السابق، ص 166. لومبارد: الاسلام، 222.  
(3) ابن حوقل: صورة 362، الزركشي: تاريخ الدولتين ص 117، رشيد بورويبة: الدولة الحشادية ص 46.



ويبدو أن الإقامة في الفنادق كانت تكلف غالباً حتى أن ابن حوقل يذكر: «يسكن هذه الفنادق أهل اليسار ممن في ذلك الطريق من التجارة»، وربما ذلك للخدمات التي يلقاها التاجر، فهو إذا نزل فندقاً وسلم ماله لصاحب الفندق، وضمنه وهو يشتري له ما أحب وبخاصه، فإن أراد التسري اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق<sup>(1)</sup>، ويحافظ صاحب الفندق على سلامة التاجر، فهو يعتبره ضيفه، فحين نزل أبو عبد الله الشيعي فندق فرجون في مدينة ميلة طلب صاحب المدينة موسى بن عياش من فرجون أن يسلمه إياه، فأى فرجون، ورد القاضي النعمان موقفه هذا بقوله ولأنه قد صار ضيفه إذ نزل في فندقه وخاف أن يكون من موسى إليه ما يكرهه فيكون ذلك نقصاً عليه<sup>(2)</sup>، وفندق فرجون يدل على أن ملكية الفنادق خاصة، مثلما هي أيضاً ملك الدولة.

وهناك مؤسسات أخرى مثل الخانات، بل يمكن اعتبار الحمامات والمطاعم من المؤسسات التي كانت تخدم التجارة الداخلية والخارجية.

والنتيجة أن بلاد المغرب الأوسط قد شهدت تجارة خارجية مزدهرة دلت عليها القوافل العديدة التي سارت إلى مختلف الجهات، وذلك لتوفر عدة عوامل مساعدة على هذا الازدهار، وقد كان الرخاء الذي شهدته البلاد من أبرز هذه العوامل، إذ ازداد الطلب على المنتجات والسلع من البلاد المجاورة والبعيدة.

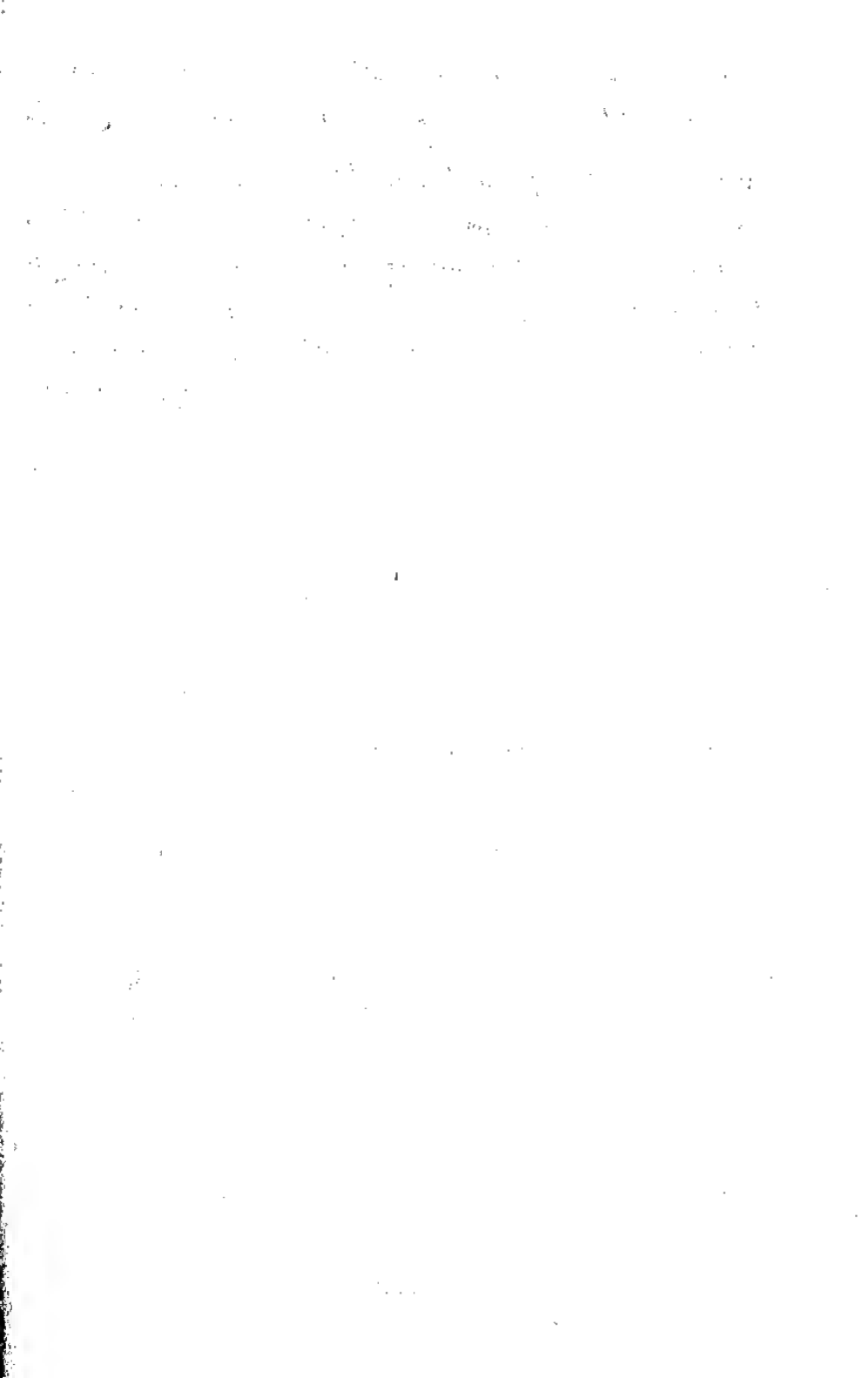
ويبدو أن هذا الازدهار قد وصل درجة معينة في القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي، مرتبطة بسياسة الدولة القائمة في ذلك العهد، إلا أن درجة هذا الازدهار قد ارتفعت في القرن الذي يليه، خاصة باتجاه السودان، نظراً لحاجة الفاطميين إلى الذهب والعميد، وقد اعتبر بعض المؤرخين الصراع الذي شهدته البلاد، هو صراع على السيطرة على المراكز والطرق التجارية خاصة ذات الصلة

(1) ابن بطوطة: تحفة النظار. ص 632.

(2) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص 75.

بالتجارة مع بلاد السودان. وان كان في هذا القول شيء من المبالغة، الا أنه دليل على أهمية وحساسية الموضوع، أعني التجارة باتجاه بلاد السودان.

وقد لعبت بلاد المغرب الأوسط دورًا هامًا في هذا الميدان. فاستفادت من تجارتها الذاتية أولاً ومن اعتبارها جسراً وممرًا وملتقى للقوافل التجارية من جميع الجهات، ثم استفادت أيضاً من تجارة العبور، أعني أنها كانت تستورد سلعة من بلاد معينة لتصديرها الى بلاد أخرى، فلم يكن الذهب المحلوب من بلاد السودان يستقر كله في بلاد المغرب الأوسط ومثله العبيد، بل كان يعاد تصدير بعضه الى الخارج.



## الفصل الخامس

### المجتمع حسب أنماط المعيشة

لا يقتصر أمر مجتمع المغرب الأوسط على تعدد الاجناس أو تعدد الأدبان والمذاهب، بل تعداه الى اختلاف في أنماط المعيشة، فيقسم ابن الصغير المجتمع الى أهل الحواجر والوادي (١) ونفس هذا التقسيم يظهر في وصية المعز لدين الله الفاطمي الى بلكين بن زيري، فقد أوصاه بعدم رفع الجاية عن «أهل البادية» وان يستوصي «بالحضر» خيراً ونشاول كلا منهما على حده:

#### 1 — أهل البادية:

أشرنا سابقاً الى أن بعض سكان المغرب الأوسط عبارة عن قبائل منتشرة في أرجائه، ويعرف ابن خلدون البدو بانهم «المتجولون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام وانهم مقتصرون على الضروري من الأتوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ويقصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كالي، ويتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة» (٢) وبذلك فهم طواغيت ومستقرون:

#### أ — قبائل طاعنة:

كان جميع الواصلية «في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها» وقد ظهرت القبائل المنتشرة ما بين تاهرت وتلمسان طاعنة في عهد الأدرمسي، فهو يذكر

(١) وجدت عند العرب كلمات في معنى البداوة والحضر مثل: الوبر والمدر، والخدر والحجر، والبادية والحضر.

فالوبر هو صوف الأهل ونحوها من الحيوان الذي يصنع منه البدوي خيامه وملابسه وتعني التامة وكذلك الحدر فهي الأرض المنحدرة التي لا يبنى عليها لتعني البادية، أما المدر فهو قطع الطرق التي لا يمشي عليها وهو ما يبنى منه ليمني الحضر، وكذلك الحجر يعني المدينة. انظر عبد المتعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية من ٩ — ١٠.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ١٢١.

(٣) الأدرمسي: أضفة ص ٨٨.

بشأنها أن «كل هذه القبائل بطون زناتة... وهم قوم رحالة طواعن يتجمعون من مكان الى مكان غيره»<sup>(1)</sup> ويفيد ابن خلدون بشأن قبيلة لواته القرية من تاهرت انهم «كانوا طواعن هناك على وادي مينا»<sup>(2)</sup> ويضيف بشأن مديونة بنواحي تلمسان انهم يتقبلون بطواعنهم في ضواحيه — جبل بني راشد — وجهاته، ويذكر من جهة أخرى أن بطون كتامة بين قسنطينة وبجاية «غارمة فيمتطون الخيل ويسكنون الخيام ويظعنون على الابل والبقر»<sup>(3)</sup> وإن هذه القبائل ومن على غمطها، ونظرًا لأنها طاعة لم تبلغ بعد درجة من الرقي والتقدم الحضاري «ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم فهم ظعن في الأغلب لارتداد المسارح».

على أن هؤلاء الطواعن يختلفون عن بعضهم البعض في درجة ظعنهم، ويمكن أن نميز الأشكال التالية من الظعن:

1 — الابلالة: وهم من «كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظعنًا وابتعد في القفر بجلاء» إذ بالإضافة الى عدم اكتفاء الابل بمزروعات وأشجار التلول فهي بحاجة الى دفء مما يفرض عليهم الفرار بها في الشتاء الى الصحراء والابتعد في النجعة، فكانوا لذلك أشد الناس توحشًا ومن هؤلاء «ظعنون البربر وزناتة بالمغرب وهم يعتمدون على «سكنى الخيام واتخاذ الابل وركوب الخيل»<sup>(4)</sup>.

2 — الشاوية والبقارة: وهم من «كان معاشهم في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتداد المسارح والمياه لحيواناتهم، ولكن هذه الحيوانات لا تفرض التوغل في القفر، فهي تجد كفايتها في مزروعات الشمال، بل انها تفقد مسارحها الطيبة كلما توغلت في الصحراء ولهذا فإن هؤلاء أقل ظعنًا من الابلالة، أي انهم انصاف الرحالة»<sup>(5)</sup>.

(1) ابن خلدون: العبر، ج 6 ص 236.

(2) نفس المصدر والجزء، ص 256.

(3) نفس المكان، ثم ص 303.

(4) ابن خلدون: المقدمة، الفصل الثاني من الباب الثاني ويطلق عليهم محمد بن عمرو «الرحالة الكبار».

— انظر: دون زناتة ص 10، 32 32 Golvin: Le Maghreb central.

(5) ابن خلدون: نفس المكان. محمد بن عمرو: المرجع السابق ص 11 Op.cit: P.32.

3 — الرحالة الصغار: يتميزون بأنهم يجمعون بين القيام بالزراعة والرعي أي الترحال في آن واحد، فهم يملكون مزارع في الجبال ومراعى في السهول، وهي تستقر في فصل الشتاء وتقوم بأعمال الفلاحة، ومع حلول الجفاف تقوم بالرحيل، وتترك بعض أفرادها في مواطنها لحماية مزارعها وأملاكها، إلى حين عودتها، وهؤلاء أقرب البدو إلى الحضرة وهم الذين أسسوا المدن<sup>(1)</sup>.

### ب — قبائل مستقرة:

بلغت هذه القبائل درجة حضارية أعلى من القبائل الطاعنة، فعرفت الاستقرار واتخذت من الاختصاص في الغالب مساكن لها، فذكر ابن خلدون أن أهل المغرب يتخذون مساكنهم إضافة إلى ما سبق، من «الخصص والشجرة» ويذكر ابن حماد الاختصاص فيشير إلى أن المنصور «الفاطمي أحرق أخصاصاً كثيرة لأصحاب أبي يزيد ويذكر أبو راس الناصري أن في الجزائر «أخصاصا يسكنها بنو مزغنة»، بل أن ابن حوقل يذكر بشأنها أن «لها بادية كبيرة فيها من البربر كثرة وأكثر أمواهم المواشي من البقر والغنم سائمه في الجبال»، بمعنى أنهم بدو مستقرون، ويذكر الدرجيني من جهته الاختصاص في نواحي تاهرت، ويدعو أن للواصلية بعضها إذ حين تقدم أيوب بن العباس لمناظرتهم في عهد الإمام عبد الوهاب «فأنزلوه في خص ورجبوا به» ويظهر أن سكان الغدير كانوا من هؤلاء فإن أهلها بدو ولهم مزارع وأرضون مباركة والحراث بها قائم الذات<sup>(2)</sup> أي أنهم بدو مستقرون وربما كانت مطفره — قبلة تلمسان — منهم، فقد اختلف منها مصر كبير مستبحر بالعمران البدوي وكان من هؤلاء البدو المستقرون في نواحي وهران وغيرها، فقد ذكر البكري أن رجلاً من قرية قرب وهران «أراد عمل بيت فاقطع الف كلخة<sup>(3)</sup>» على أن هؤلاء المستقرين كانوا يسكنون في تجمعات سكنية يطلق على الواحدة منها اسم «القرية» وكانت متشرة في أرجاء بلاد

(1) محمد بن عميرة: المكان السابق.

(2) ابن خلدون: العبرج 6 ص 236.

(3) الأديسي: نزهة المشتاق. ص 93. ابن حوقل: صورة ص 78. ابن حماد: أخبار ملوك. ص 31.

(4) البكري: المغرب. ص 71.

المغرب الأوسط، ذكر الرحالة وغيرهم بعضها، ونحن نشير الى عدد منها على سبيل الأمثلة، فهناك قرية بني واريغن، والعلوين، والمعسكر وتانالوت وعين الصفاصف وريغة والعلوين الشرقيين بشرق تلمسان — وعيون سي ورطل مازونه وغيرها.

وكانت القرى تنتشر حول مدينة كبرى، فقد كانت حول مدينة جراوه «عدة قرى لقبائل من البربر» وكان لتلمسان «قرى وعمائر متصلة كثيرة» ومثلها كان جبل تاورنايه «فيه القرى الكثيرة والعمائر المتصلة» —

ويبدو أن بعض قبائل لواتة وهوارة نواحي تاهرت كانت مستقرة، فذكر البكري أنها «في قرارات» وهذا لأن معاشهم في الزراعة ومن «كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر»<sup>(1)</sup> ويعتبر هؤلاء حلقة وصل بين الطواغيت وأهل الحواجر.

#### أهل الحواجر:

كان تعبير ابن الصغير واضحاً، فهو يجعل أساس التقسيم يقوم على نمط السكن وما ينتج هذا من ميزات وأمور خاصة بكل نمط، وهو يقصد بعبارة هذه «أهل الحواجر» هؤلاء الناس الذين يسكنون في بيوت من الحجر أي في مدن، وهو تعبير عما وصل اليه هؤلاء على سلم الحضارة، وهناك من يحلوه اطلاق كلمة «الحواضر» وهي مرادفة للكلمة السابقة وهؤلاء الناس يختلفون الى حد ما عن البدو فلكل منهم خصائص تميزه.

#### خصائص المجتمع القبلي:

تأتي القبيلة على رأس التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدوية، وهي جماعة من الناس ينتمون الى جد واحد مشترك انحدروا منه، ويسكنون عادة في منطقة واحدة يتجولون فيها، وتجمعهم هذا مفروض عليهم لمواجهة تحديات الطبيعة من

(1) ابن خلدون: المقدمة. الفصل الثاني من الباب الثاني.

عدم توفر الأمن وقلة توفر سبل المعيشة في أغلب الأحيان لذا لم يكن بمقدور الفرد أن يبقى طليقاً دون انتاء قبلي.

فكان على الفرد هذا أن يهب قبيلته كل ولائه وجهده وطاقته، مقابل أن تضمن له حمايته ومساعدته، فتجعله يشعر بالأمن والطمأنينة والراحة النفسية، كلما احتاج الى ذلك.

لكنه إذا لم يلتزم بقبيلته، وقصر في واجبه نحوها، كانت تخلعه عن عضويتها فيتحول الى صعلوك لا يجد من يحميه، فيضطر الى امتنان قطع الطرق والغزو والسلب، أو يبحث عن قبيلة أخرى ينضم إليها بالولاء.

وقد كان افراد القبيلة يرتبطون معا برابطة الدم، لذا فهي رابطة دائمة ومتينة ولها أهمية كبرى، فهي تعمل على ابقاء القبيلة نقية وتحفظ كيائها، وهي تفرض على ابن القبيلة أن يتعصب لقبيلته، لأن هذه العصبيية هي مصدر قوة القبيلة، وتمثل هذه العصبيية في الاجماع في الرأي وعدم الانقسام وعدم التنافر حفاظاً على سلامة قبيلتهم، التي هي مصدر الشعور بالمسؤولية المشتركة المتبادلة.

وكان لكل قبيلة شيخها يتولى رئاستها وإدارة شؤونها، ويشترط به أن يكون من ذوي العصبيات الكبيرة، تشد ازره، وتعينه على تنفيذ مطالبه، وأن يكون من ذوي الجاه، ورئاسة القبيلة غالباً وراثية، فقد قام يدو بن يعلى «بأمر بني بفرن بعد قتل أبيه» (1).

ويساعد شيخ القبيلة مجلس قبلي، يستطيع كل فرد من أفراد القبيلة حضوره والتحدث فيه وابداء رأيه، لذلك فإن الغلبة فيه لنفوي الأكنس المطلقة وأولي الحجة والمنطق، ويجتمع هؤلاء في بيت شيخ القبيلة أو في ديوانها — إذ أن لكل قبيلة ديوان أو دار الضيافة — يقع اجتماع افرادها فيه فيتجادبون أطراف الحديث، ويروون الأخبار التي هم قبيلتهم مثل اكتشاف مناطق جديدة للرعي ويبحثون الخلافات الناشبة بين بعضهم، ويستعرضون علاقاتهم بالقبائل الأخرى،

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس. ص 65.



ويروون القصص والروايات التي تروقهم، والتي تتعلق بالغزو والحرب غالبًا، كما ينزل هذا الديوان الضيوف الوافدون على القبيلة.

وأفراد القبيلة يحترمون شيخهم ويطيعونه، وقد لاحظ ابن حوقل هذا الموضوع، فذكر بخصوص سكان بلاد المغرب أن لهم رؤساء «يطيعونهم» فلا يعصونهم ويأمرونهم فلا يخالفونهم<sup>(١)</sup>، ومرد التزام الفرد بالحكم الصادر عن مجلس القبيلة راجع لاعتناقه بعدله، والا لكان بإمكانه وبكل سهولة أن يعتزل مجتمع قبيلته دون أن يناله أدنى عقاب بدني، ويرجع هذا إلى صفات البدوي نفسه، ممثلة في حبه حريته، وفي بساطته وصراحته وصدقه وعدم انصياعه للاهانة والمذلة.

وتنضم القبيلة عدة جماعات داخلية ابتداء من الأسرة والرهط والعائلة، ثم العشيرة ثم الفخذ ثم البطن، وتجتمع عدة بطون فتشكل عمارة «ومن مجموع عدة عمائر تتألف القبيلة، وتشكل مجموعة قبائل شعبيًا:

### 1 - الأسرة:

تعتبر الأسرة أصل التنظيم الاجتماعي في المجتمعات البدوية، وهي قاعدة القبيلة وتشمل عميد الأسرة وأبناءه، وأحفاده وزوجاتهم والأعمام وهم مسؤولون عن إعالة أفرادهم العجزة، وتعتبر ملكية الأرض مشاعًا لجميع أفرادها، ويعيش هؤلاء تحت سقف واحد، يتعاونون في عملهم ويشتركون في تحمل المسؤولية، وهي أوسع من الرهط الذي يشمل الأب والأبناء فقط.

### 2 - العشيرة:

تتكون من اتحاد عدد من الأسر تشترك في نسب، أو ترجع إلى جد واحد مشترك، ولكل من أعضائها حقوق وعليه واجبات، وهم يسكنون متجاورين حتى تسهل عليهم أمور الدفاع ويسهل تنظيم مختلف نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي، وفق تقاليدهم وأعرافهم، والرئاسة في العشيرة، كالرئاسة في غيرها، تعتبر رئاسة دينية ودينية ووراثية في معظم الأحوال.

(١) ابن حوقل: صورة. ص 97.

### 3 - الفخذ:

يتكون من اتحاد مجموعة من العشائر ذات المصالح المشتركة والتي تسكن في مساكن متجاورة، والتي يشترط أن تجمعها وحدة نسب لا تتجاوز الحد الخامس. ويرتبط أبناء الفخذ بدفع الدية والمطالبة بها وبالثأر والنجدة ويشاركون بعضهم الأفراح والأفراح، وللфخذ رئيس يتولى تسيير أموره كتوفير الحماية والأمن وقد كان بنو مرغنة مثلاً فخذاً من صنهاجة.

### 4 - البطن:

أكبر من الفخذ مع أن لهما نفس الوظائف ويشارك في مختلف مصادر الثروة كالآبار والعيون والمراعي ونحوها، ولكل بطن رئيس أو شيخ يتولى الرئاسة بالوراثة، ويشترط فيه أن يسير على نهج والده، ويمثله أصدق تمثيل في خصاله الحميدة.

### 5 - القبيلة:

تتألف من اجتماع عدة بطون، وهذا التقسيم ينطبق على البربر، فهم ينتسبون إلى برنس وما ذغيب الملقب بما ذغيب الأبر ولهذا انقسم البربر إلى برانس وبنر، وهذا يناظر انقسام العرب إلى عدنانيين وقحطانيين وهذه شعوب، ويذكر ابن خلدون أن شعوب البرانس يجمعها سبعة أجدام — هي ازداجه ومصموده وأوربه وعجيسه وكتامه وصنهاجه وأوريغه، ويجمع شعوب البتر أربعة أجدام هي أداسة وضريسة وبنولوا الأكبر وبنوزحيك<sup>(1)</sup>.

وإذا أخذنا ضريسة فإن منها زناتة التي تنقسم بدورها إلى قبائل مثل جراوة وبنو يفرن ومغراوة وبنو دمر وغيرها وتنقسم كل منها إلى بطون، فمن بطون بني يفرن بنو واركون ومرنجيسة ومن بطون بني دمر مثلاً بنو ورغمة وبنو غرزول وبنو ورنيد وبنو ورتاتين وبنو تافورت. وإذا أخذنا أوريفة من البرانس مثلاً، فمنها هواة ومن هذه مليلة وبنو كهلان.

(1) لمزيد من التفاصيل انظر ابن خلدون: العبر ج 6 ص 175 وما يليها. ويحمل محمد بن عمير نفوسة على بني زحيك انظر: دور زناتة ص 5 وعن قبائل البربر في المغرب الأوسط انظر مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج 2 ص 171 — 186.

## الطبقة في المجتمع البدوي:

يعتبر أفراد القبيلة متساوين في الاستفادة من الموارد الاقتصادية المشاعة كالمراعي والأبار والعيون، إلا أنه لما كانت القبائل تقوم بعمليات غزو وسلب من حين لآخر، فقد كانت هذه العمليات فرصة مناسبة لبعض أفراد القبيلة، تتيح لهم أن يبرزوا شجاعتهم وقوتهم وجراتهم، وقد كانت هذه الفئة تحظى بامتيازات خاصة مكافأة على بلائها، وكان هؤلاء ينالون عددًا أكبر من الماشية، وهكذا تتحقق لهم ملكية أكبر تنمو باضطراب مع مرور الزمن وهم يتوارثونها خلفًا عن سلف. حتى بلغ لأحدهم عشرات الآلاف من البقر والغنم والحمير، وبهذه الطريقة يمكن تفسير امتلاك ابن زلغين تلك الأعداد الهائلة من الحيوانات (1).

وهذه الملكية الكبيرة للقطعان، وإن لم تكن على حساب الآخرين إلا أنها كانت تعني استئثار أصحابها بالموارد المشاعة واستخدام بعض أبناء القبيلة في مراقبتها ورعيها وخدمتها، وقد يلجأ إلى الاستعانة بالعبيد، وهكذا يمكن أن نميز في القبيلة الواحدة فئات عدة:

فهنالك عامة القبيلة وأفرادها متساوون في أوضاعهم، وهنالك فئة أصبحت ثرية بمواشيها العديدة، وهنالك الموالى الذين لا يحملون دم القبيلة، وهنالك فئة العبيد وهم من الأسرى أو ابتاعهم أسيادهم.

ولا يختلف الأمر بالنسبة للمستقرين في القرى والأرياف عما سبق، فهنالك فئة تتميز عن غيرها باقطاعاتها (2)، والتي ورثتها في الغالب عن آبائها، ثم انضافت إليها أراضٍ من أبواب مختلفة، كأحياء الموات، وكان هؤلاء كأصحاب المواشي يستخدمون بعض أفراد القبيلة أو العبيد. على أية حال، لا نستطيع أن نقول أنه كان في المجتمع البدوي طبقات بمفهومها الحديث، ولكن كانت هنالك فئات متميزة بعض الشيء، وكانت ملامح وبندايات لظهور طبقات اجتماعية فيما بعد.

(1) مثل ابن زلغين السالف الذكر. عنه انظر لشماخي: السير ص 205.

(2) مثل ابن جرنى في عهد الامام عبد الوهاب عنه انظر: نفس المكان.

## عصائص المجتمع الحضري:

يعتبر الاستقرار سمة المجتمع الحضري الأساسية أي أن القبائل التي استوطنت المدينة قد تجاوزت بدائنها بما يتبعها من ظعن وترحال وقد تبع هذا الاستقرار أن أصبح لها مواردها ومصادر عيشها إضافة الى ما كانت تعتمد عليه من تربية مواشها ومن غزو ونهب، وكانت التجارة هي الأسلوب الملائم الذي اعتمدت عليه وما يرتبط بها من صنائع وحرف.

والسمة الأخرى التي تميز هذا المجتمع تتمثل في الاختلاف السكاني فإن المدينة تعايشت فيها قبائل عديدة وفقات تنتمي الى أجناس وأديان مختلفة، دون أن يربط بينها رباط الدم وبدأ يسيطر عليها شعور بالانتماء الى الأرض والمدينة، ونقع على عاتق أفرادها جميعا مسؤولية الدفاع عنها ضد غزو خارجي، وقد سيطرت المصلحة المشتركة على الروابط الأخرى ويختلف مدى هذه السيطرة من مدينة الى أخرى، يعتمد هذا على مدى استعداد القبائل نفسها للتحرر من رابطة الدم، وعلى سياسة السلطة الحاكمة في العمل على اذابة هذه الروابط، وهكذا نقرأ في المصادر: ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي (1) المنسوب الى تنس، وبكر بن حماد التاهرتي وغيرهما، على أن هذا لا يعني أن سكان مدن الغرب الأوسط قد فقدوا انتماءهم القبلي، فإن مدينة مثل تاهرت كان سكانها شرائح غير متجانسة التركيب، الا أن العنصرية القبلية التي أذكى الرستميون أوارها قد كانت وراء الفتن والأحداث التي شهدتها المدينة، حتى أن تاريخ هذه المدينة هو من صنع تلك العنصرية (2).

ولا نفعل سمة أخرى للمجتمع الحضري، انعكست على الانفتاح السكاني فوقع تبادل حضاري وثقافي بين الحواضر والمراكز التجارية في المنطقة من جهة وبين الثقافات والحضارات الخارجية من جهة ثانية فتأثرت بلاد المغرب الأوسط بالثقافة والحضارة التي هبت عليها من المشرق ومن افريقية ومن الأندلس.

(1) الحموي: معجم ج 2 ص 416. ذكر أنه دخل الأندلس وسكن الزهراء وكان مفتي في جامعتها 307هـ 919م.

(1) عن تلك الحوادث: ابن الصغور: تاريخ الامة. مواضع منفرة. احسان عباس: المجتمع التاهرتي. الاصله. جهادي الأولى 1395هـ/ماي 1975.

وعلى كل فقد نما الوعي في المجتمعات القبلية فيعدها كان تعصبها القبلي يحول دون ائتلافها في اتحاد يشملها، أصبحت مهياةً لئثل هذا الاتحاد، فكان أن اجتمع شيوخ القبائل في منطقة تاهرت، واختاروا عبد الرحمن بن رستم أميراً عليهم<sup>(1)</sup> وكان أن اجتمعت قبيلتان أو أكثر من مدينة واحدة فكانت مدغرة وبنو دمر ومديونة وبنو واريغن تسكن معاً في مدينة الخضراء<sup>(2)</sup> على سبيل المثال.

وذا كنا أشرنا الى وجود تفاوت في المجتمع البدوي فإن هذا التفاوت يزداد وضوحاً ومدى في مجتمع المدينة.

### تقسيم المجتمع الحضري:

يميز ابن الصغير فئتين في المجتمع هما: العامة والخاصة:

1 — طبقة العامة: يذكر ابن الصغير «العوام» و«اهل الحرف» وكأنهما فئتان متمايزتان حسب عبارته التالية: «...والعوام واهل الحرف ومن لف لفهم<sup>(3)</sup>» ويذكر كلمة العوام ثانية حين تعرض لأمر وفد البصرة القادم بمبلغ مالي على الامام عبد الرحمن، فحين انصرف الناس من الصلاة في المسجد الجامع «انصرف عوام الناس وتخلف وجوههم<sup>(4)</sup>» ويذكر في مكان آخر حين يتعرض لمقتل محمد بن عرفة انه «ابتدر اليه العامة والخاصة» ويلاحظ استعماله هنا العامة عوض «العوام» ووضعها مقابل الخاصة.

وسواء استعمل هذه أو تلك، فهما كلمتان مترادفتان يقصد بهما الطبقة نفسها، وهي «طبقة العامة» وما استعماله «اهل الحرف» الا وإشادة ووأشادة بوفرة عددهم، وعلى العموم، فهي تشمل الزراع والفلاحين، وأهل الصنائع والمهن وصغار التجار، ومن عبر عنهم ابن الأثير بـ «طعام البربر» من العاطلين عن العمل ومن ذوي العاهات وغيرهم من المساكين والفقراء والخدام والعبيد،

(1) ابن الصغير المصدر السابق ص 321.

(2) البكري: المغرب. ص 75.

(3) ابن الصغير: المصدر السابق ص 345، 356 — 357.

(4) ابن الصغير: تاريخ الائمة ص 326، 345.

وباختصار فهذه الطبقة تشمل كل من لم يرتبط بالسلطة الحاكمة أو كل من ليس له موارد مالية مستقرة.

الا أن القاضي النعمان يقسم افراد المجتمع الى خمس طبقات ومنهم الجنود، ومنهم أعوان الولي من القضاة والعمال والكتاب ونحوهم ومنهم أهل الخراج من أهل الأرض وغيرهم، ومنهم التجار وذوو الصناعات ومنهم الطبقة السفلى وهم أهل الحاجة والمسكنة<sup>(1)</sup>.

ويمكن أن نميز الفئات والشرائح التالية في طبقة العامة:

#### أ - الفلاحون:

وتندرج تحت هذه الجماعة الشرائح التالية:

##### 1 - أصحاب الماشية:

وهو الذي يعتمدون في معيشتهم على ما تدره عليهم حيواناتهم، فهم بالتالي تحت رحمة السماء، وهم أما أن تكون لهم أراض يستعملونها مراعي خاصة، أو يرعون بمواشيتهم في المراعي المشاعة، وهؤلاء على صلة وثيقة بالمزارعين.

##### 2 - المزارعون:

أعني أولئك الفلاحين الذين يعملون في الميدان الزراعي لحساب غيرهم، مقابل جزء من الانتاج أو أجره زهيدة، وهؤلاء غالباً ما يعملون في اقطاعات كبار الملاك الساكنين في المدينة، ولا يحسد هؤلاء على مستوى معيشتهم، فإن نصيب المزارع منهم من انتاج الأرض التي يتولى خدمتها لا يفي بنفقاته السنوية في أغلب الأحيان.

##### 3 - أصحاب الملكيات الصغيرة:

وهؤلاء سكان الأرياف والمدناشر التي ذكرها ابن الصغير والمتشرة حول المدينة، ويبدو أنها بدأت باستصلاح قطعة أرض موات، وقد أشار ابن الصغير الى مثل هذا العمل منذ عهد عبد الرحمن بن رستم ولم يستصلح الرجل أكثر مما يستطيع خدمته<sup>(2)</sup>، وحتى هذه الملكيات كانت تلحقها التجزئة المتوالية على الورثة وهكذا فإنها قد لا تدر أكثر من نفقات العائلة السنوية.

(1) القاضي النعمان: كتاب دعائم الاسلام ج 1 ص 357.

وازداد حالهم تدهورًا بما كانوا يحملونه على كواهلهم من مغارم وضرائب، بل أن الفاطميين على وجه التحديد قد ركزوا وشددوا الخناق على أهل البادية في موضوع جباية الأموال، ويتجلى هذا في وصية المعز لدين الله الفاطمي المشهورة لخليفته على المغرب.

## ب - أهل الحرف

ها هو ابن الصغير يميزهم عن غيرهم من الفئات العديدة التي ذكرها وكأنهم أصبحوا على عهد الامام أبي حاتم فئة اجتماعية لها سماتها الخاصة، وهم ليسوا أرفع مستوى من سابقهم، فالحرف ليست في حد ذاتها أكثر من امان من الفقر.

وبالفعل، فإن هذه الفئة كانت ضمن الفئات الدنيا، فإن أبا الفضل الدمشقي يذكر بخصوص الصانع أنه إذا صنف الناس «دخل في أدنى طبقاتهم»، بل أن القاضي النعمان نفسه يزدري الصانع حتى أنه يصفهم بأشباه البهائم فيذكر أنه رأى «كثيرًا من الناس وعوامهم ومن هو اقرب شيا بالبهائم منه بالناس كالصناع والمضاربين والحمالين يؤدون ما ائتمنوا عليه مع فقر مدقع وحاجة شديدة».

## ج - صغار التجار:

وهم أصحاب الحوانيت المختلفة في المدينة، وحاجة الناس الى هؤلاء قليلة، تقل أكثر كلما ابتعدوا عن المدينة، فهم يعتمدون على ما يحققونه من ربح في تجارتهم البسيطة وكان على هؤلاء أن يتعاملوا مع عامة الناس على اختلاف طباعهم واختلافهم وهنا يضطرون الى المماحكة والغش والقسم الى غيره من الوسائل المنحرفة لبيع سلعهم، وربما لهذا السبب كان لا يحترف هذا النوع من التجارة الا عامة الناس بينما يترفع عنها ذوو الجاه، وهنا يكمن الدافع الذي جعل القاضي النعمان يضعهم مع أهل الحرف الذين يبيعون بأنفسهم سلعهم.

(1) حول هذا الموضوع: محمود المظفر: انحاء الأرض الموات. المطبعة المالية. القاهرة 1392هـ/1972م.

ذكر ابن الصغير وصف العالم أبي عبيدة الأعرج له بأنه «فتى» و«صبي» و«صبى» و«صبيان» هذه الكلمة مرادفا لفظ «صبي» إلا أن لفظ الفتيان عند ابن الصغير يدل على أنهم فئة اجتماعية، فقد ذكر أن أبا حاتم كان «فتى شاباً وأنه كان يجلس إلى نفسه فيطعم ويكسي» وتفيد هذه العبارة أن هؤلاء الفتيان كانوا من جلسائه، ولا يدل لذلك أنهم كانوا لا يقلون عنه سناً. وذكر ابن الصغير أنه «اجتمعت العوام والفتيان دون القبائل فنادوا بالاطاعة لأحد إلا لأبي حاتم»<sup>(1)</sup>، وإن هذا الدور الذي قاموا به إلى جانب العوام لا يدل على أنهم مجموعة من الصبيان<sup>(2)</sup>، بل العكس أي أنهم فئة اجتماعية.

وكانت هذه الفئة تقبل الطعام والكساء من أبي حاتم، وهذا يدل بالنسبة لها على أنها تعيش في مستوى فقير، مما جعلها تقبل ولا ترفض ذلك الطعام والكساء، وكذلك فإن ربطها بالعوام أحياناً يؤكد على طبيعتها وضعهم.

إن الفتى يمكن أن يكون شاباً مثلما يمكن أن يكون رجلاً فلا علاقة للسن باللفظ، إنما تطلق هذه الكلمة (الفتى) على مجموعة من الصفات يشترط توفرها في الإنسان حتى يكون جديرًا بها وقد اختلف مدلولها باختلاف الزمان، فكان لها معنى في الإسلام يدل على الرق عوض كلمة عبد أو أمه فجاء في الحديث «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل فتاي وفتاتي»<sup>(3)</sup>، ويعبر الشاعر ابن الرندي عن غيظه لادعاء جماعة من الناس بالفتوة «وهم أهل جهالة وبطالة يجتمع اليهم المرد وأهل اللواط، فمنهم من يتصايب ومنهم من يمشي على بطنه، فخرجوا بها عن حقيقة معناها»<sup>(4)</sup>.

ولكن هذه الكلمة «الفتى» حافظت على مدلولها في بلاد المغرب الأوسط فذكر أبو زكريا في حديثه عن مناظرة الإباضية للواصلية أنه خرج مهدي

(1) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 357. وردت في النص كلمة «يكسي» الأصح «يكسو».  
(2) قال أبو يوسف قاضي هرون الرشيد لروح بن حاتم: إن بمدينة القيروان فتى يقال له عبد الله بن غام وهؤلاء روح القضاء وكان عمره 42 سنة. انظر تراجم أغلبية. ص 11 وذكر المقرئ بشأن عبد الرحمن الداخل أنه «الفتى كل الفتى». نفح الطيب. ج 1. ص 331.  
(3) أحمد أمين: الصلابة والفتوة. دار المعارف سلسلة اقرأ 111 القاهرة ص 49.  
(4) نفس المرجع ص 71 - 72.



النفوسي «وخرج الفتى المتناظر من المعتزلة ووجوه المعتزلة معه» (1)، ويذكر القاضي النعمان في كتابه «افتتاح الدعوة» ان لاوة بين صوحان كان «فتى من لحيصه... وكانت له شدة ونجدة» (2)، ولا أدل على صفة الفتى من قول الشاعر التاهرتي بكر بن حماد في أحمد بن سفيان بن سواده والى الزاب لبني الأغلب (من البحر الطويل).

وقائلة: زار الملوك فلم يفد  
فتى يسخط المال الذي هو ربه  
فيليته زار ابن سفيان أحمدًا  
ويرضى العوالي والحسام المهندا وابن حماد  
في هذا يعطى المدلول الذي كان شائعًا في  
عصره، فهو يصف مملوحه بالكرم وبذله  
المال بسخاء أضافة الى الشجاعة ويدلو أن  
صفة البذل هذه ملازمة لمن اجتمع له  
مال، منهم إذ وجد فتيان معدومون ويقول  
الشاعر ابن حمديس الصقلي (3) (من البحر  
الرمل):

واغترب وارج المنى كم من فتى  
معدم نال المنى بعد اغتراب وبضييف في  
وصف الفتيان. (من البحر المتقارب).

كرام النحاتز احرارها  
على ظلم الليل أنوارها  
وفتيان صدق كزهر النجوم  
يديرون راحا تفيض الكؤوس

فهم صادقون صرحاء، وهم كرماء،  
لكنهم يعشقون الكأس فيقول ابن  
حمديس (4) الشاعر من (بحر الرمل).

حبذا فتيان صدق اعرسوا  
عربد الصحو عليهم بالأمسى  
بعذارى من سلافات الخمور  
فاتقاه السكر عنهم بالسرور

ويميل الفتيان في حياتهم الى المداعبة  
والمزاح، فيضيف:

يدفع الجلد إليها في المزاح  
انما ينعم في الدنيا فتى

(1) أبو زكريا: السير. ص 63.

(2) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص 107.

(3) ابن حمديس الصقلي: ديوان ابن حمديس. ص 65، 181.

(4) ابن حمديس: ديوان ابن حمديس. ص 197.83.

وهكذا فإن كلمة «نفي» تطلق على افراد كل قبيلة جمعوا مع الشباب صفة بينة من الصفات الحسنة، قد تكون الكرم والنجدة، وقد تكون العقل والفصاحة، ولا يمكن أن يكون لها غير هذا المعنى في ذلك العصر، والا لما نطق بها العالم الكبير أبو عبيدة الأعرج، ولما قبل ابن الصغير من جهته سماعها، وإذا جرى بعضهم وراء الخمر والنساء ومالوا الى المزاح والخفة، فربما لم يكن حباً في ذلك بقدر ما كان هروباً من واقع اليم يعيشونه.

#### هـ - العيسارون:

يطلق على هؤلاء عادة (اللصوص والغوغاء، الاوباش أهل الزعارة الاندال)،<sup>(1)</sup> ويسمى ابن بطوطة «الفتاك» وقد أشار ابن الصغير الى وجود اللصوص في مدينة تاهرت، وكان أول ظهور لهم في أيام حكم الامام أبي اليعقظان، عهد سيطرة البذخ والترف، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الى الانحلال الخلقي والسياسي والى وضوح الطبقات في المجتمع ويؤدي الى ظهور جماعة اللصوص» وقد ربط ابن الصغير بين اللصوصية وبين شرب المسكر مما يعطي مفهوم «اللصوص» معنى خاصاً ليدل على هذه الجماعة من العيارين والشطار والزناطرة والأحداث.

وأورد ابن الصغير قصة أقدام زكريا ابن الامام أبي اليعقظان — على خطف بنت من بين يدي أمها<sup>(2)</sup>، وحين طلبت الأم من ابنتها أن يقتفي أثره ويلحق بأخته أجاب: «أخاف أن أردت ذلك أن يقتلوني، وان لم يقتلوني خفت أن يدسوا علي عاملاً من عمالهم أو لصاً من لصوصهم فيقتلني»<sup>(3)</sup>. وواضح من هذه العبارة أن هذه الفئة لا تقدم على السرقة لتسد رمقها لأنها معدمة، بل انها فئة مرتزقة امتنعت اللصوصية واتخذت من نفسها سوطاً بيد زكريا، يسلطه على من يشاء مقابل تحقيقها بعض المصالح، وتظهر هذه الفئة ثانية عند ابن الصغير في عهد الامام أبي حاتم فأورد أنه «شردت السراق وقطاع الطرق».

(1) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي. ص 93.

(2) ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص 351.

(3) نفس المكان.

ويجب أن لا تتعجل في رسم صورة قائمة لها في أذهاننا لأنها ففة من العامة  
 تمردت على واقعها المر، فبدأت تتبع أسلوباً حاداً في كسب قوتها اليومي،  
 فاجتمعت في هات لتكون اقدر، والمهم في الأمر، انهم لم يكونوا يعتبرون  
 لصوصيتهم جريمة، بل كانوا يحللونها باعتبارها مهتهم وقد حملوا على عاتقهم  
 تطبيق الشرع في أموال الأغنياء الذين لم يطبقوه من تلقاء أنفسهم، فيذكر رئيس  
 إحدى الجماعات ان هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها  
 وتجرّدوا فركت عليهم وصارت أموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء اليها  
 فإذا أخذوا أموالهم — وان كره التجار أخذها، — «كان ذلك لهم مباحاً لان  
 عين المال مستهلكة بالزكاة وهم يستحقون أخذ الزكاة شاء أرباب الأموال أو  
 كرهوا» (1).

ويقدم الطبري في حوادث سنة 201هـ/816م. صورة عن أعمال هؤلاء  
 في بغداد فيذكر أنهم: «آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق وقطعوا الطريق  
 وأخلوا النساء والعلماء من الطرق، فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون  
 ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يمنهم وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم  
 فلا يقدر أن يمتنع عليهم» (2)، ونفس العمل قاموا به في القرى فكانوا يجبون في  
 الطرق، ويقطعونها علانية.

على أن روح التمرد التي اتصفوا بها كانت عامة، فشملت اخلاقهم  
 ونفسياتهم، فقد وصف المقرئ العيارين والشطار في الأندلس بأن لهم، «من  
 النوادر والتكليات والتركيبات وأنواع المضحكات ما غلاّ الدواوين كثرته،  
 وتضحك الكلي» (3)، وهو وصف عام ينطبق على غيرهم من العيارين والشطار  
 كمثّل أولئك الذين كان يناديهم زيادة الله الثالث الأعلى 290هـ/903م —  
 296هـ/909م، فذكر ابن عذاري أنه «التزم التنزه على البحر وغيره واتباع  
 اللذات ومنادمة العيارين والشطار والزمامرة والضراطين» (4).

(1) عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي. ص 80 نقلاً عن التنوخي.  
 (2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك. حوادث سنة 201هـ.  
 (3) تغري بردي: النجوم الزاهرة. حوادث سنة 364هـ/ ج 4. ص 108.  
 (4) المقرئ: نفع الطبيب. ج 3. ص 156.

## و - العزابة:

ان أصل العزابة من العزبة والعزلة، والغربة والتصوف والتهجد على رؤوس الجبال<sup>(1)</sup>، وتطلق على جماعة من أهل الدين والورع، يجتمعون في مجلس ديني يتولى مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل الوسائل الممكنة كما يقع على كواهلهم القيام بالوظائف الدينية، كالآذان، وإمامة المصلين، وتجهيز الأموات، وشؤون الأوقاف الخيرية، ومحكمة مقترف الكبائر، والبراءة منه حتى يتوب<sup>(2)</sup>، ويزداد دورها أهمية في فترة الكتان فتكون بمثابة السلطة الدينية والدينية.

وهناك من يحدد نشأة هذا النظام في مطلع القرن الخامس الهجري أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي<sup>(3)</sup>، ووضع قوانينه، إلا أن الظروف التي مر بها الاباضية حتمت ايجاد نظام خاص يحفظ وجودهم في فترة الكتان، فمن المرجح انهم وجدوا لأنفسهم مثل هذا النظام أثر هزائمهم على يد محمد بن الأشعث ويزيد بن حاتم، لكنهم عدلوا عنه بقيام الدولة الرسمية ودخول الاباضية دور الظهور.

الا أن هزائم الاباضية ثانية في موقعة مانو 283هـ/896م أولا وانهارت الدولة الرسمية ثانيا سنة 296هـ/909م فرض على الاباضية العودة الى طور الكتان وبالتالي العودة الى ذلك النظام، وقد بدأ التفكير فيه بقيادة أبي القاسم البغطوري وأبي محمد عبد الله بن الخير<sup>(4)</sup> في جبل نفوسة أولا ثم في تاهرت ثانيا والا كيف مارسوا شعائرهم وطبقوا مبادئ مذهبهم تحت سيادة المذهب الشيعي ؟

- 
- (1) ابن عذاري: البيان ج 1. ص 143، أبو الفداء: مختصر ج 1. ص 80. ابن الأثير: الكامل. ج 8. ص 20-21. القاضي النعمان: افتاح. ص 183-184. لقبال موسى: دور كتامة. ومن مزاحاتهم نعه وانهم اتوا بمائة حيوان ونفخوا، ثم وضعوها مغطاة في مجلسه وحين جلس انفجرت واحدا صوئا عاليا. انظر: حسن حسني: وراثة ج 1. ضمن طرائف الملح.
- (2) عنها انظر: أبو اسحق اطفيش: دائرة المعارف الاسلامية 3. ص 513. مادة العزابة لقبال موسى: الحسبة المذهبية. ص 87-88. محمد عوض خليفات: التنظيم الاجتماعي والتربوي ص 31.46.
- (3) عنه انظر: أبو زكريا: كتاب سير الائمة. ص 173. الدرر جني: طبقات ج 2. ص 377. الشماهي: السير. ص 484.
- (4) عنها انظر: أبو زكريا: المصدر السابق. ص 105. الدرر جني: المصدر السابق ج 6 ص 89.

وقد عرف الاباضية نظام العشائر أو مجلس العشيرة<sup>(1)</sup> أو نحوه وهذا النظام سابق لتأسيس الدولة الرسمية، لاهتمامه بكفالة الأيتام التي ترجع عند الاباضية الى العشيرة ولاهتمامه بدفع دية القتل، أي أن لهذا النظام ارتباطاً بنظام العزابة، فربما أن نظام العشيرة كان البذرة الأولى التي نمت فاوجدت نظاماً خاصاً في أواخر القرن الثالث الهجري ظهر بصورته المتبلورة على يد أبي بكر محمد بن بكر النقوسي.

### المرابطون:

هذه فئة اجتماعية لها تفكيرها وفلسفتها القائمة على التشدد في أمور الدين واحتقار الحياة الدنيا والعزوف عنها فلجأوا الى أماكن خاصة يمارسون فيها عبادتهم تسمى «الربط» مقردها رباط، ولئن كانت لهذه الربط صبغة دفاعية، وحماية البلاد من الأعداء، فكانت بمثابة محارس أو قصور، واعتبر المرابطون فيها مجاهدين في سبيل الله فإن هذه النظرة قد تغيرت بسيطرة الأساطيل الاسلامية على البحر الأبيض المتوسط وجعلها منه بحيرة اسلامية.

وهكذا أصبحت الرباطات — الربط — دوراً للعبادة يلجأ اليها أهل الزهد والتقشف وأهل التقوى والورع فارين من الحياة الدنيا منقطعين للعبادة، وقد يفد بعض الناس في أوقات معينة من السنة كشهر رمضان وأوائل رجب وشعبان والى هؤلاء المرابطين، يرجع الفضل في تعميق نشر الدين الاسلامي في نواحيهم، وبث الزهد بين الناس، بأن كانوا قدوة لغيرهم ولم يقتصر الأمر على الرجال فقط بل كان هناك مرابطات لمن ربط خاصة، وكن من «المنقطعات الصالحات»، والأرامل العابدات<sup>(2)</sup> كان هؤلاء المرابطون يتناولون البسيط من الأكل فلا يريد عن الشعر والحيز، حتى أن استعمال التوابل في طعامهم اعتبر تنعماً في الأكل، وخروجاً على قوانينهم. فقد زار عبد الرحيم الربيعي المتوفى 246هـ/860م في القيروان المنستير فوجد المرابطين هناك يستعملون التوابل فقال منكرأ فعلهم: وما هكذا أعرف المنستير حالة أنا أعرفها عند أهلها شيء من دقيق شعير وزيت،

(1) فرحات الجعبري: نظام العزابة. ص 114. ولزهد من التفاصيل: عرض محمد خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية. ص 47 — 48 محمد علي دبور: نهضة الجزائر دمشق 1965.

ج 1. ص 233 — 236.

(2) الحموي: معجم. ج 1. ص 350. حسن محمود: قيام دولة المرابطين. ص 128 — 141.

فإذا جاء وقت الافطار لتوا الدقيق وأكلوا لبه بل أن منهم من كان يهيم على وجهه في البرية يأكل نبات الأرض ويقتات صيد البحر، وعلى حد تعبير البكري «يتخلون على الدنيا ويسكنون مع الوحوش».

ولشدة زهد هؤلاء المرابطين وانقطاعهم للعبادة فقد جعل لهم الناس هالة من التقدير والتعظيم حتى بلغوا بهم درجة الأولياء فنسبوا اليهم الخوارق والمعجزات<sup>(1)</sup>.

ومهما كان أمر هذه الرباط، فقد وجدت في بلاد المغرب الأوسط فكانت المحارس والحصن ممتدة من سبتة الى الأسكندرية في عهد الرستميين والأغالبة. وهي ذات صبغة دينية عسكرية، ثم يذكر البكري<sup>(2)</sup> عددا من رباط المنطقة، فيشير الى وجود «رباطات يجتمع اليها في كل عام خلق كثير» في مدينة شرشال، ويذكر أن لمسى مغيلة بني هاشم «رباطا على ضفة البحر مسكونا» ويشير الى أن في الجبل القريب من أرزيو «قلاعاً ثلاثاً مسورة رباطاً يقصد اليه» وأن لمسى وادي ماسين — قرب ندرومة — رباطاً حسناً مقصوداً يترك به ويشير ابن القبطان<sup>(3)</sup> الى رباط خارج مدينة بجاية يقال له رباط ملالة. كان موجوداً على عهد المهدي بن تومرت وكان لتلمسان رباط مات به أحد تلامذة ابن تومرت، فربما كانا موجودين في القرنين الثالث والرابع للهجرة.

## ي — العبيد:

### أ — السودان:

انتقل هؤلاء العبيد من بلاد السودان الى الديار الاسلامية، فذكر الأصبخري أن «الذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان»<sup>(4)</sup>، وأضاف أن «الخدم السود الذين يباعون في بلاد الاسلام منهم وليس هم بنوية ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة»<sup>(5)</sup>.

(1) بروي الزركشي ان رجال المستنصر الموحيدي ت 670هـ/طاردوا فرسة فدخلت الى مرابط فسنمها منهم، فعدوا وأنبؤوا السلطان، فأخ عليهم باحضاره والا ظيفتلوه، فرجموا الى المرابط فهدوه فقال لهم: «وأنا قد أمرت للسلطان بالرماح، ثم طلبوه فلم يجدوه، وسقط السلطان من حينه مشتبهاً عليه. انظر: الزركشي: تاريخ البوفاين ص 40.

(2) البكري: المغرب. ص 82 — 81، 70، 80.

(3) ابن القبطان: انظر الجمان. تحقيق: محمود على مكي. تطوان. المطبعة المهديية. ص 22.

(4) الأصبخري: المسالك والممالك. تحقيق: محمد جابر عب دالعال الحسني. دار القلم. القاهرة 1385/1961.

ص 45.

(5) نفس المصدر: ص 40.

وقد ظهر هؤلاء العبيد في بلاد المغرب الأوسط، ففي تاهرت يشير ابن الصغير والدرجيني الى وجودهم بشكل واضح؛ فحين قدم الوفد الأول من على الامام عبد الرحمن بن رستم وجده «في أعلى بيته يعمل بيده في السقف والعبيد يناوله الطين»<sup>(1)</sup> وحين قدم الوفد الثاني على الامام نفسه، وجد «العبيد والخدام قد كثرت»<sup>(2)</sup>.

وكان الامام عبد الوهاب يمتلك عدداً منهم، فيذكر أبو زكريا ان هذا الامام قد وعد من يشره من عبيده بقنوم وقد جبل نفوسة بالحرية<sup>(3)</sup>. وكان يزداد عددهم بازدياد رخاء تاهرت وازدهارها، حتى أن القبائل المنتشرة حول تاهرت، قد «اكتسبت الأموال وأخذت العبيد»<sup>(4)</sup> في عهد الامام اقلح.

وكان للامام أبي اليقظان عدد من العبيد في منزله بتسلونت، فذكر ابن الصغير أنه خرج يوماً الى منزله «يتفقد في سائمته وعبيده»<sup>(5)</sup>. وأضاف أنه كان للرستميين حصن ثمالي في طرف لواتة به مواشيم وعبيدهم.

بل وكان للعرب والجند عبيد، وهم وأن لم يشير اليهم ابن الصغير صراحة، إلا أن هذا يتضح في ذكره قول العجم: «قد أمكننا في العرب والجند ومواليهم واتباعهم...»<sup>(6)</sup>. وباختصار فإنه يمكن القول أن اثرياء تاهرت كانوا يملكون عبيداً لحاجتهم اليهم.

ولم يقتصر وجودهم على تاهرت، بل كان منهم الكثير في مختلف مدن البلاد مثل ورقلة «ورجلان»، فذكر أنه حين عاد أبو نوح سعيد بن زنفيل إليها بعد موت أبي صالح جنون وجد الناس يطلقون عبيدهم — أواخر القرن الثالث الهجري.

(1) الدرجيني: طبقات. ج 1. ص 42.

(2) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 325.

(3) أبو زكريا: السير. ص 59. الدرجيني. المصدر السابق. ج 1. ص 59.

(4) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 337.

(5) نفس المصدر: ص 356. وجاء في الأصل «يتفقد في سائمته وعبيده».

(6) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 345.

ورغم أن المصادر لا تشير إلى عددهم ولو بشكل تقريبي إلا أنه من المتوقع أن يكونوا جماعة وافرة العدد، ويعود هذا إلى الغراء الذي حصل في بلاد المغرب الأوسط بسبب انتشار الأمن والأزدهار الذي عم البلاد في القرن الثالث الهجري في مختلف المجالات، وبسبب الحاجة إليهم في الحروب التي شهدتها القرن الرابع الهجري بالإضافة إلى صفات تتوفر فيهم وتميزهم عن غيرهم، كالقوة الجسدية والصبر على الشدائد مما جعلهم مفضلين على غيرهم للأعمال التي تتطلب تلك القوة البدنية.

وبالفعل، فهم قد عملوا في الأعمال الفلاحية، والمنزلية، هذا بالإضافة إلى أعمال المدينة الأخرى من حرف متنوعة ونحو ذلك. ويبدو أن وجودهم في بلاد المغرب الأوسط جنودًا كان قليلًا، نظرًا لسيطرة روح الأمن والاستقرار على البلاد خاصة في العهد الرستمي.

لكن مشاركتهم في الحروب تظهر في القرن الرابع الهجري إلى حد ما، خاصة ضمن الجيش الفاطمي ثم الجيش الزيري، فقد اتخذ المهدي العبيد من السودان والروم<sup>(1)</sup>. بل أن منهم قد احتل منصبًا هامًا في الجيش الفاطمي. فذكر أن أبا القاسم صاحب إفريقية قد أخرج صندلا الفتى الأسود إلى أرض المغرب مددًا لمنصور الفتى<sup>(2)</sup>. سنة 323هـ، ولا أرى أن اعتماد الفاطميين على كرامة ثم صنهاجة يقلل من اعتمادهم على العبيد السودان، لأنهم حاولوا إيجاد توازن في الجيش تخوفًا من المستقبل.

وعلى أية حال، فقد تبين أن العبيد السود قد شكلوا شريحة من شرائح مجتمع المغرب الأوسط.

## ب - الصقالبة:

ورد في كتاب صورة الأرض أن الصقالبة قبيل من ولد يافث نصف بلدهم يسي من الحراسانيون والنصف الشمالي يسي من الاندلسيون<sup>(3)</sup> ويشير المقدسي إلى أن بلدهم خلف خوارزم، وأن الرقيق من الصقالبة من بلاد البلغار كما أشار محقق رسالة ابن فضلان<sup>(4)</sup> إلى أن بلدهم يقع في شمال أوروبا

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة.. ص 257.



على أطراف نهر الفولغا وعاصمتهم على مقربة من قازان اليوم في خط يوازي مدينة موسكو، ويذكر الرقيق القيرواني أن أمة الافرنج «يجاربون أمة الصقالبة المتصلين بأرضهم مخالفتهم إياهم في الديانة فيسيبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس، فلهم هناك كثرة» (1). وقد أشار المقدسي إلى خصيمهم فذكر أن الصقالبة يحملون إلى مدينة خلف بجانة أهلها يهود فيخسونهم» (2). ثم يبيعونهم بأرض الأندلس. ومن هناك إلى سائر البلدان فذكرهم الاصطخري ضمن السلع التي ترد إلى المشرق من المغرب، وأكد هذا ابن حوقل فذكر من بين ما يجهر من المغرب إلى المشرق «الخليم الجلوبين من أرض الصقالبة على الأندلس» (3).

وكانت بلاد الأندلس طريقاً للحصول على هؤلاء الصقالبة، أما الطريق الثاني فيمكن في أسرى الحروب، التي طالما خاضها الاغالبية ثم الفاطميون ضد الروم وكان طريقاً هاماً باعتبار أن الغلبة كانت للمسلمين.

وظهروا في العهد الفاطمي واستمروا في العهد الزييري، ويبدو أن وجودهم كان منتشرًا في كل مدينة وقرية من بلاد المغرب، فإن أبا عبد الله الشيعي اشترى الصقلبي بشرى المعروف بالايكجاني في ايكجان موضع نزوله بيلد كنامه» (4).

وقد كان وجودهم في نيكور واضحًا، حتى أن ذلك الوجود يشكل خطراً على أميرها سعيد بن صالح سنة 260 هـ فقد خالف عليه صقالبة أبيه فخلعوه وولوا أخاه عبيد الله» (5) إلى أن تمكن من الظفر بهم.

هذا الوجود الهائل للصقالبة في بلاد المغرب عامة يستدل به على وجودهم في بلاد المغرب الأوسط، وإن لم يشر المؤرخون إلى وجودهم في الامارات

(1) المقري: نفع الطب. ج 1. ص 140.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم. ص 142.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض. ص 95. وعن الصقالبة انظر: الحموي: معجم البلدان. ج 5. ص 372. مادة صقلب.

(4) الجمالي محمد بن محمد: سورة الحاجب جعفر. تحقيق ونشر ايمانوف. مجلة كلية الآداب القاهرة. مجلد 4. ج 1 مارس 1936. ص 129.

(5) البكري: المغرب. ص 93. ابن عذري: البيان. ج 1. ص 177.

العلوية، ربما لأنهم لا يتعرضون لها الا بإشارات قليلة، ولم يظهر من الحوادث في المنطقة ما يبرز وجودهم، فروح السلم والهدوء التي كانت سائدة إبان القرن الثالث الهجري، قد جعل دور الصقالبة مقتصرًا على الميادين الاجتماعية في أغلب الأحيان، وهي ما لم يتعرض لها المؤرخون، وإن بيع الصقالبة في قرية مثل إيكجان — كما سبق — لدليل على وجودهم في مختلف مدن المغرب الأوسط.

وفيما يتعلق بوجودهم في تاهرت الرسمية، فيرجع الفضل إلى ابن الصغير في الكشف عن هذا الوجود، فرمى كان غلام الامام عبد الرحمن — السابق الذكر — صقلياً إذ ليس لدينا دليل على أنه من العبيد السود، وقد دلّ ابن الصغير على بيع الصقالبة في تاهرت، حين أشار إلى تولي محكم الهواري القضاء في عهد الامام افلح، حيث أنزلوه دار القضاء ثم «اشترى له خدماً صغراً»<sup>(1)</sup>، ويبدو أن هؤلاء الصقالبة ما كان يخلو منهم قصر، فإن عبيد إبان وحويه هم من الصقالبة مادام ابن الصغير يشبههم بالبدور<sup>(2)</sup>، وأضاف أن جارية دخلت على القاضي محمد بن عبد الله في عهد الامام أبي اليعتظان، «وهي تصطبح صقلياً»<sup>(3)</sup>.

ولم يرد بعد ذلك ذكر للصقالبة عند ابن الصغير، ومن يدري فلعل بعض العبيد الذين ذكرهم سواء أولئك الذين اتخذتهم القبائل المحيطة بتاهرت أو عبيد أصحاب القصور وكبار الشخصيات مثل محمد بن عرفة، وغيره، وعبيد الأئمة الرسميين أنفسهم، أو موالى العرب والجند واتباعهم من هؤلاء الصقالبة، ولم لا مادام الصقالبة يناسبون خدمة المنازل، فهم قد تم خصصهم، وما داموا مثار إعجاب أمراء المغرب في أسلوبهم القتالي<sup>(4)</sup>.

وقد استندت للعبيد مختلف الأعمال، كما سبق، فقد عمل الخصيان منهم والجواري خدماً في المنازل ومنهم من اتخذ للتمتع خاصة الصقلييات منهم

(1) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص 335.

(2) نفس المصدر: ص 336.

(3) نفس المصدر: ص 351.

(4) ابن خلدون: المقدمة. ص 274.

وعملوا على العموم في مختلف الصناعات والمهن فكان منهم البناء والنجار والحديد والحارس وغيرهم، وعملوا في الميدان الزراعي فذكر ابن الصغير ان الامام أبا اليقظان كان يخرج الى منزله بتسلون<sup>(1)</sup> «يتفقد في سائمه وعبيده» — كما سلف — وأشار الى حصن الرستميين الذي به مواشيهم وعبيدهم. ويبدو انهم مارسوا اعمالا لحسابهم الخاص، كانت تمكنهم من شراء حرياتهم.

وخدم العبيد في القصور، وكان منهم الفنانون في الرقص والغناء والتمثيل، ذكوراً واناثاً، تلبية لحاجة الترف والبذخ، وربما انشئت لهم مدارس خاصة لتعليمهم وتدريبهم على هذه الفنون قام بها النخاسون، فكان هذا مما يرفع أسعار العبيد، فمن كان ثمنها ثلاثمائة دينار، كانت تباع بعد تعليمها بثلاثة آلاف دينار أو يشتريها النخاسي بمائتي دينار، فيعلمها ويبيعها بعشرة آلاف دينار<sup>(2)</sup>.

وعملوا جنوداً وقواداً في الجيش خاصة الجيش الفاطمي ثم الزيري، فهم اضافة الى ما يمتازون به من غلظة وصبر على الشدائد فهم لا يشكلون خطراً على الأسرة الحاكمة — كما سبق — فكان من مصلحتهم أن يكرسوا حياتهم لخدمة السلطان الذي كان بدوره يجزيهم على هذا الولاء، وكان هؤلاء أرقى العبيد، ويضيف ابن خلدون، سبباً آخر لاستخدامهم في الجيش، وهو اتباعهم أسلوب الثبات في الحرب عكس المغاربة الذين يتبعون أسلوب الكر والفر كالعرب<sup>(3)</sup>. ومنهم القائد المشهور منصور الفتي، والعمال على الجهات مثل صابر ونسيم.

ويصف ابن بطلان — عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري — البربريات بأنهن مطبوعات على الطاعة، نشيطات للخدمة ويصلحن للتوليد لأنهن أحذب شيء على الولد، ويصف الزنجيات بأن «الغالب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الحرب، وليس في خلقهن الغم، والرقص والايقاع، فطرة لهن وطبع فيهن... وفيهن جلد على الكد، فالزنجي إذا اشبع، فصب العذاب عليه صبا فإنه لا يتألم، وليس فيهن متعة لصنائهن وخشونة اجسامهن، كما يصف الروميات

(1) لومبار: الاسلام في مجده الأول. ص 289.

صاحب المعز لدين الله من العبيد حين توجه الى مصر ستون الفا. انظر: عطية: نظم الحكم بمصر. ص 143. تقلا عن النويري.

بأتمن بيض شقر، سياط الشعور، زرق العيون، عبيد طاعة، وموافقة وخدمة مناصحة ووفاء وامانة يصلحن للخرن، لضبطهن وقلة سماحتهن ولا يخلو ان يكن يألفن صنائع دقيقة<sup>(1)</sup>.

ومع أهمية العبيد في المجتمع بما يؤدونه من خدمات، إلا أن القاضي النعمان لا يشير إليهم في تصنيفه الطبقي، السابق الذكر، إلا إذا كان يعتبرهم من اهل الحاجة والمسكنة فهم من الطبقة السفلى.

## 2 — طبقة الخاصة:

يمثل الامام الرسمي أو الأمير العلوي ثم الوالي الفاطمي فالأمير الزيري قمة الهرم، يليه اعوانه من الوزراء ورجال الدولة وقادة الجند المرتبطين بالسلطة مثل كبار التجار والاقطاعيين وتظهر في هذه الطبقة الشرائع التالية.

1 — لغة الرؤساء: ذكرهم ابن الصغير، فإن الامام عبد الوهاب جمع وجوه رجاله ورؤساء مقالته فاستشارهم<sup>(2)</sup>، ويضيف ان ابا يعقوب المزاني نزل بجميع مزاته حول البلد «وكان رأس القوم وملكهم» وكان أشار الى أنه حين نزلت الاباضية تاهرت «اجتمع رؤساؤهم» ويبدو أنه من الصعب تحديد مفهوم هذه الكلمة لأنه يذكر كلمة «مشايخ» في مواضع أخرى وكأنهما فئتان مختلفتان.

2 — فئة المشايخ: يذكر ابن الصغير أن «مشايخ البلد من غير الاباضية قد استولوا عليه — أي حاتم — وكان من الممكن أن نعتبر المشايخ هم رؤساء الجماعات غير الاباضية، لولا أنه يذكر في موضع آخر أن ابا حاتم حين دخل تاهرت «جمع مشايخ البلد أباضيتها وغير اباضيتها واستشارهم»<sup>(3)</sup>، ومن الواضح أن هاتين الفئتين هما محل استشارة الامام. والملاحظ انه يربط كلمة «مشايخ» بالبلد، ويبدو أن كلمة «رؤساء» — السابق ذكرها — يقصد بها شيوخ القبائل، فهو يذكر في موضع آخر أن رأس القبيلة يدبر امورها، بينما عبارة «مشايخ البلد»

(1) ابن خلدون: المقدمة. ص 274. الفصل السابع والثلاثون.

(2) ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص 330.

(3) نفس المصدر. ص 362.

هم رؤساء أو شيوخ لجماعات مقيمة في المدينة كأن تكون مهنية أو قبلية، فقدت صلتها بقبيلتها الأم، أو قل ضعفت عصبيتها لها، فانخذت لها شيخًا منها فعلقوا بن علوان هو أحد مشايخ البلد، في نفس الوقت له رئاسة وحبّة عند العوام<sup>(1)</sup>.

3 — ففة الوجوه: ذكر ابن الصغير هذه الفئة مستقلة عن غيرها ولا شك أن مدلولها كان واضحًا في ذهنه، فهي ليست ففة الرؤساء ولا ففة المشايخ لكنه لم يوضح هذا المدلول فذكر «وجوه الأباضية» و«وجوه العجم» و«وجوه العرب» و«وجوه التجار» و«وجوه الناس» و«وجوه أهل البلد» و«وجوه أهل المدينة» ويضيف أنه حين أتى وفد البصرة بالمساعدة للإمام عبد الرحمن ناهى مناديه في المسجد الجامع «أن يتخلف وجوه الناس ويتصرف سائرهم... ففعلوا، فلما انصرف عوام الناس وتخلف وجوههم...»<sup>(2)</sup>، فهو يضع الوجوه مقابل العامة.

ويبدو أن «الوجوه» هم أعضاء مجلس الجماعة أو هم «أهل الحل والعقد» وهم من نطلق عليهم اليوم «وجهاء» نال الواحد منهم وجاهته بفرض احترامه على الجماعة التي ينتمي إليها كأن يكون تاجر يدين له سائر التجار بالتقدير والاحترام لما عرف عنه من خصال حميدة وأخلاق كريمة، إنها وجاهة لا تقوم على عصبية قبلية.

4 — المتقدمون: كشف ابن الصغير عن وجود ففة أطلق عليها كلمة «مقاديم»، وقد كان للعجم مقدم يقال له ابن وردة، وأفاد أنه كان للأوس — من هوية — مقدم لكنه لم يذكر مدلول هذه الكلمة أو معلومات توضحها، إلا أنه، أشار إلى أن للشراة مقدا، هو الامام الرستمي نفسه. وأضاف أنه كان لهواة رؤساء ميزهم عن غيرهم بوصفهم «مقدمين» وذكر أن وفود نفوسة الجبل أتوه إلى تاهرت «ليقدم عليهم أميرًا من أنفسهم» فكان مقدمهم يدعى أفلح بن العباس، وبالفعل فقد أصبح هذا عامل الامام الرستمي أبي اليقظان

(1) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص 357.

(2) نفس المصدر. ص 326.

على جبل نفوسة<sup>(1)</sup>؛ ومن هذا يمكن القول أن أولئك الرؤساء المقدمين، ومقدم الأوس هم عمال الامام على قبائلهم، أو على الأقل هم ممثلوا الامام لدى قبائلهم، والمسؤولون مباشرة امامه في الأمور الخاصة بقبائلهم، وهذا يستلزم أن يتم اختيارهم وتعيينهم من طرف الامام، وبهذا فليس كل رئيس مفدماً.

وإذا صح هذا القول، فهذا يعني أن هؤلاء يتمتعون بمكانة هامة، وحظوة عند الامام، فهم رؤساء في قبائلهم من جهة، وهم على صلة به، بل وحمل ثقته من جهة أخرى. لكن ابن الصغير لا يضيف معلومات شافية حول هؤلاء، ما هي شروط تعيينهم؟ مآذاهم؟ وماذا عن صلاحياتهم؟ وماذا عن أحوالهم الاقتصادية.

ومن جهة ثانية، فإن لفظ «المقدمين» يأخذ مدلولاً آخر عند القاضي النعمان، فهو يذكر هذا اللفظ ليدل به على قادة اجنحة الجيش في المعركة كقائد الميمنة وقائد الميسرة، وهم بهذا قادة أقل مرتبة من القائد العام للجيش<sup>(2)</sup>، لكن هذا المدلول كان واضحاً عند ابن الصغير باستعماله لفظ «قواد» وعلى كل يشير ابن الصغير الى فئة اجتماعية أخرى هي فئة الحجاب.

5 - الحجاب: لما كان أبو حاتم قد وصل الى كرسي الامامة بتأييد العامة ونحوهم، فقد أراد أن يبقى باباً مفتوحاً أمامهم، أو هكذا أرادوه، لكن الرسميين أرادوا «أن يجعلوا له حجاباً وهيباً»<sup>(3)</sup>، ويدل اسمه على أن مهمته تتمثل في حجب الامام عن رعاياه، والعمل كأذن على الباب.

ولا شك أن الحجاب كان يتمتع بمكانة مرموقة، ومسؤولية على درجة كبيرة الأهمية، فهو وسيط بين الامام والرعية، وهي مسؤولية حساسة، ونظراً

(1) نفس المصدر. ص 47. نشرة المجلة التونسية. ويبدو أن ولايته كانت حوالي سنة 283 هـ 896. حيث كانت موقعة مانو، خرج المبارزة رجل من المسودة هو كان إذ ذاك هو واليم العام عليهم، انظر. أبو زكريا: السير. ص 103-104.  
(2) القاضي النعمان: كتاب دعائم ج 1. ص 372.  
(3) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص 357.

لقربه من الامام، فقد يستطيع التأثير عليه أو على الأقل أن يحظى منه بمواقف معينة تخدم مصلحته، ولا ندرى فيما إذا استندت الى الحاجب مهام أخرى في القصر أم لا(1)، كما لا ندرى مؤهلات الحاجب التي خولتهم أن يلوا هذه المسؤولية، ولا أسماءهم أو رواتبهم أو ما شابه ذلك.

6 — البطانة: اتخذ الرستميون «بطانة» وذكر ابن الصغير ان الامام عبد الوهاب دخل عليه «وجوه رجاله وقواده واهل بطانته»(2)، وكانت الأجناد بطانة السلطان أفلق وأولاده، وحشمه، ولم يقتصر أمر البطانة على الامام، بل يبدو أن كبار الشخصيات كانت لها بطانات، فهو — ابن الصغير — يضيف أنه حين لم يظهر محمد بن عرفة أثر، «اتصل الخبر ببحرانه واخوانه وأهل بطانته».

7 — الحاشية: هذه فئة مميزة وجدت في تاهرت، ويبدو، انها تطلق على تلك الجماعات التي تظل مصاحبة للامام. فتمطي الهيبة لشخصه في حله وترحاله، وهي تدود عن شخصه مباشرة، وعلى كل فهي ذات علاقة بالسلطان. وعمل ثقته، وكان محمد بن عرفة حاشية(3)، وهي تختلف عن الحشم.

8 — الحشم: هؤلاء فئة خاصة، تختلف عن غيرها من الفئات، ظهرت في تاهرت منذ عهد الامام عبد الرحمن، فذكر ابن الصغير ان الامام المذكور كان يقطع من مال الجزية والخراج «لنفسه وحشمه»... (4).

وإذا كان ابن الصغير لم يورد هذه الفئة تعريفاً، الا أنه أشار الى أنهم جزء من اجناد السلطان، فذكر ان الاجناد في عهد الامام أفلق كانت «بطانة

(1) كان يتطور المنصب احيانا فيشمل مهام أخرى. فإن الحاجب المنصور بن أبي عامر في الأندلس كانت له سلطة سياسية، كما أن الحاجب أحمد بن محمد بن حمزة حاجب ابراهيم بن الأغلب، تمكن من الحصول على تعيين ابن عمه وأبنا على القيروان، وعن الحماية انظر: هو بكثر: النظم الإسلامية. ص 53 — 58. ابن خلدون: المقدمة. الفصل الرابع والثلاثون. في مراتب الملك والسلطان وإلقابها. ص 240.

(2) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 329.

(3) نفس المصدر. ص 344.

(4) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 327.

السلطان وأولاده وحشمه»<sup>(١)</sup>، فهل يمكن أن نطلق عليهم ما يعرف اليوم القوات الخاصة؟

وعلى أية حال، وبغض النظر عن أصولهم ومهمتهم، فإنهم ممن ارتبط بالسلطان مما يعود عليهم بالامتيازات الهامة، وهم يختلفون عن الحرس ولا شك.

9 — الحرس: يذكر ابن الصغير الحرس كقوة مستقلة، بإشارته إلى قول أبي عبيد للامام أبي البقطان بخصوص شاب خرج في طلب معاش: «فأخذه المحروق صاحب حرسك وحبسه»<sup>(٢)</sup>، وكعاداته فهو لا يزودنا بمعلومات إضافية عن هؤلاء الحرس، ولكن من المحتمل أنهم حراس الامام واسرته وحراس المدينة، فهم الذين يتولون حراسة أبوابها ليلاً، أو هم أصحاب العسس الليلي، إذ ربما كان خروج الشاب — في وقت محظور، مما دعا صاحب الحرس إلى حبسه، وبالتالي فهم يختلفون عن الشرطة.

10 — الشرطة: ظهر منصب «صاحب الشرطة» منذ عهد الامام عبد الرحمن، وكان يحسن اختيارهم، فذكر ابن الصغير أن «أصحاب شرطته... قائمون بما يجب»<sup>(٣)</sup>، ويبدو أن أمورهم ظلت سائرة على ما يرام.

لكن الفوضى التي وقعت في عهد الامام عبد الوهاب، تركت بصماتها على منصب الشرطة، فكان أن شكى جماعة من المدينة لأخوانهم من قبل سدراته ومزاته الظاعنة أن «صاحب شرطتنا فاسق» وعلى ما يبدو فإن صاحب الشرطة قد ضعف شأنه في عهد الامام افلح، إذ في الوقت الذي يشترط به عدم الخوف، نجده لا يمرؤ على الدخول إلى أحد أسواق تاهرت خوفاً وهيبة لصاحبه، فذكر ابن الصغير: «كان صاحب شرطة افلح إذا تخلل للمدينة لافتقادها لم يجسر أن يدخل سوق ابن وردة، ولا يتخلله هيبة»<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الصغير: المكان السابق.

(٢) نفس المصدر. ص 353.

(٣) ابن الصغير. ص 327.

(٤) نفس المصدر: ص 336.



ويبدو انه كان من الصعب إيجاد الشخصية التي تنال ثقة الجميع، إذ حين استشار الامام أبو حاتم مشايخ البلد من اباضية وغيرهم فيمن يولوه الشرطة، قال قوم: «زكار»، وقال قوم ابراهيم بن مسكين فولاهما<sup>(1)</sup>، وهكذا اشترك رجلان في منصب واحد، ويظهر أن هذا الخلاف كان انعكاساً لصراع بين الاباضية وغيرهم.

ولم يذكر ابن الصغير اسماء أصحاب الشرطة ولا انتاءاتهم القبلية، ويبدو انهم كانوا ينتمون في الغالب لقبيلة نفوسة، إذ كانت تلي «انكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق» وكانت هذه المهمات من مهام الشرطة إذ أن ابن الصغير يذكر بخصوص صاحبي الشرطة زكار و ابراهيم — السابق ذكرهما — انهما قطعاً ما ساد البلاد من فساد، وحملوا على الناس بالضرب والسجن والفيد، وكسرت الخواني وشردت الغلمان واخذائهم. والسراق وقطاع الطرق<sup>(2)</sup>، هذا بالإضافة الى ما ذكر بشأن صاحب شرطة افلح الذي كان يخشى دخول سوق ابن وردة مما يدل على أن مهمة الاشراف على السوق كانت تناط بصاحب الشرطة.

لم يكن هذا دائماً يلتزم الحق على ما يظهر، خاصة في فترات الانحلال والقوضى كفترة الامام أبي بكر، الأمر الذي دفع بأخيه أبي اليقظان أن يعطي لنفسه صلاحية أعلى من صاحب الشرطة، فيجلس في أعلى مسجد في المدينة، يستمع الى شكاوي الناس على صاحب الشرطة وغيره. فنظر «في ذلك نظراً شافياً واجرى الحق على من رضي وسخط عظم قدره أو صغره»<sup>(3)</sup> وهو بهذا كان يمارس وظيفة صاحب المظالم دون أن يحمل هذا اللقب<sup>(4)</sup>.

(1) نفس المصدر. ص 363.

(2) نفس المكان.

(3) نفس المصدر. ص 341.

(4) خطة المظالم هي اجمالاً نظام مكمل للقضاء ويتولى صاحبها احقاق الحق في الحالات التي لا يستطيع القاضي أن يفعل هذا لسبب ما. ومن هذه الخطة انظر: الماوردي: الأحكام السلطانية. ص 128. وما بعدها. هوبكنز: النظم الاسلامية. ص 231. 241.

ونظرًا لأن الشرطة قوة أمنية، فقد كان لصاحبها أعوان يساعدونه في أداء وظيفته، فإن أبا اليقظان قال لبشير حين طلب منه احضار عبد العزيز بن الأوز إليه: «خذ معك أعوانًا اكفاء وجيء بعبد العزيز شر مجيء»<sup>(1)</sup>، وهؤلاء الأعوان هم رجال الشرطة اليوم، ويمكن أن يضاف اليهم المشرفون على السجون وخدمتها.

ولا يقدم ابن الصغير معلومات بخصوص راتب صاحب الشرطة واعوانه، سوى انه في عهد الامام عبد الرحمن كان يقطع له هذا ما يكفيه في سنته. أي أنه كان يتقاضى راتبًا سنويًا دفعة واحدة، وربما رجع هذا الى أن جمع الجزية والخراج التي يقطع منها كان يتم مرة واحدة في السنة، وانهما المصدر الوحيد لبيت المال في ذلك الوقت، الا أنه بتعدد الموارد فيما بعد، يجعل من المرجح ان صاحب الشرطة أصبح يتقاضى راتبًا شهريًا، ولم تتوفر معلومات اضافية عن هذا المنصب في تاهرت، وان كان من المرجح أنه لا يختلف عنه في غيرها من العواصم الاسلامية<sup>(2)</sup>.

**11 - القضاة:** لم تستدع الظروف إيجاد منصب القاضي في الأيام الأولى للدولة الرسمية، لأن الامام عبد الرحمن نفسه تحمل عبء هذه المسؤولية، وبما أهله لها توليه القضاء في سرت في عهد الامام أبي الخطاب، لذلك لما ولي أمور المسلمين «جلس في مسجده للارملة والضعيف ولا يخاف في الله لومة لائم»<sup>(3)</sup>.

لكن تطور المدينة وتشعب المهام، فرض عليه أن يتخذ أعوانا له، ومنهم القضاة وقد دل ابن الصغير على وجودهم حين أشار الى أن الامام عبد الرحمن كان يقطع من مال الجزية والخراج للقضاة ما يكفيهم في سنتهم، وهو بهذا يشير الى موضوع رواتبهم.

(1) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 355.

(2) حول صاحب الشرطة انظر: هوبكنز: المرجع السابق. ص 241-245. ابن خلدون المقدمة. الفصل الرابع والثلاثون. عيد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية. ص 57-59.

(3) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص 322.

وكان تعيين القاضي يتم بالاختيار والتشاور، وهذه المسألة مقتصرة على جماعة الشراة فهم الذين يختارون ويرشحون القاضي ليحظى بموافقة الامام فيتم تنصيبه، ويتضح هذا في عهد الامام افلح، فذكر ابن الصغير أنه حين توفي قاض من قضاة الامام عبد الوهاب «اجتمعت الشراة وسألوه أن يولي القضاء كفواً لذلك، فقال لهم: اجمعوا جمعكم وقدموا خيركم، ثم أعلموني به اجيره لكم وأعضده على ما يكون في الصلاح لكم، فقبلوا امرهم فلم يرتضوا أحدًا منهم واجمع رأيهم على محكم الهواري<sup>(1)</sup>، وكان هذا الأسلوب نفسه ساري المفعول على عهد الامام عبد الرحمن فذكر ابن الصغير أن «قضاته مختارة».

وتواصلت هذه الطريقة في التعيين الى عهد الامام أبي اليقظان، فقد شاور جماعة من الناس في أمر تعيين القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشيخ، فأشاروا به<sup>(2)</sup>، ونفس الأمر بالنسبة للامام أبي حاتم، فهو حين دخل مدينة تاهرت «جمع مشايخ البلد اباضيتها وغير اباضيتها فاستشارهم فيمن يولي قضاء المسلمين» وحين أشاروا عليه بأبي عبد الله — السالف الذكر — قال لهم. «أشترم واحسنتم وولاه القضاء»<sup>(3)</sup>.

ولم يتعرض ابن الصغير لمسألة إنهاء مهمة القاضي، لكنه على أية حال أفاد أن باستطاعته أن يعتزل القضاء أن أحس بعجزه عن تنفيذ أحكامه مثلما فعل قاضي الامام أبي اليقظان أبو عبد الله — السالف الذكر — حين وجد نفسه عاجزاً عن تنفيذ الحكم على زكريا بن الامام لاختطافه بثأ، والا فقد كان يستطيع أن يستمر في منصبه الى أن يظهر عليه اخلال بالشرع فكان لا يجوز عزل القاضي «الا بجرحة تظهر عليه»<sup>(4)</sup>.

وكان موقف قضاة تاهرت يتصف بالشجاعة، خاصة وانهم كانوا يعتمدون على الامام في معيشتهم، أعني أنهم يأخذون رواتب من الامام الرستمي،

(1) نفس المصدر. ص 333—334.

(2) نفس المصدر. ص 349.

(3) نفس المصدر. ص 362. وعن القضاء. هوبكتز: المرجع السابق. ص 195—223.

(4) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص 330.

وكان الأمر أسهل لو أن القاضي كان يعتمد في معيشته على ماله الخاص، لأن هذا يحرره من قبضة الامام مثلما كان الأمر بالنسبة للقاضي سحنون في إفريقية، وعلى كل؛ فإن الأمر غير واضح، ان كان هذا الموقف خاصاً بالقاضي أبي عبد الله السالف الذكر، أم أنه موقف عام ينطبق على جميع القضاة، ومن المرجح أنه كان موقفاً عاماً، لأن الائمة الرستمين لم يكونوا يعارضون تطبيق الشرع في أمر لا يهدد الامامة، فلم يتدخلوا في عمل القاضي، ويتأكد هذا من موقف الامام اقلح من محكم الهواري فقال بشأنه: «الصواب ما فعل والحق أولى أن يؤثر ولو فعل غير هذا لكان مدهائماً» (1).

وكانت شارات القضاء في تاهرت هي الخاتم والقمطر (2) فإن القاضي ابا عبد الله — السالف الذكر — رمى خاتمه وقمطره للامام أبي اليفطان تعبيراً عن اعتزاله القضاء.

وكان يشترط في القاضي الورع والعلم، وإذا كان محكم الهواري — المذكور — اباضياً فهل كان هذا احد الشروط ؟ لم يذكر ابن الصغير مذهب القاضي أبي عبد الله ولا خلفيته القاضي شعباً بن مدمان، ولكن من المرجح أن القاضي يشترط فيه أن يكون اباضياً لكي يحظى بعواقبة الشراة وتقديم نفوسه له.

وفي هذه الحالة، ما علاقة الأديان والمذاهب الأخرى بالقاضي الاباضي ؟ أن هناك أمور اختلاف بين المذهب الاباضي وغيره، فلربما كان لكل مذهب قضائه، فقد وجد في تاهرت فقهاء كوفيون كأبي مسعود وأبي دنون ولم يكونوا يعارضون الالتجاء الى قاض اباضي إذا تعلق الأمر بينهما، وكذلك كان لأهل الأديان الأخرى قضائهم، ومحاكمهم الخاصة، إذا انحصرت القضية بينهم لكنهم كانوا يلجأون في بعض القضايا التي يكون مسلم طرفاً فيها للمحاكم الاسلامية. مثل جريمة القتل (3).

(1) نفس المصدر. ص 336.

(2) نفس المصدر. ص 351.

(3) آدم منز: الحضارة الاسلامية ج 1. ص 75-77.

ويبدو أن تاهرت لم تشهد منصب قاضي القضاة بهذا الاسم، لكن القاضي نفسه الذي يعينه الامام بعد المشاورة يقوم بمهام قاضي القضاة أيضًا، إذ في حين يذكر ابن الصغير تعيين الامام القاضي يضيف أن أبا اليقظان كان يجلس في أعلى مسجد في المدينة — كما سلف — يستمع الى شكاوي الناس من العمال والقضاة وأصحاب الشرطة<sup>(1)</sup>، مما يفيد وجود عدد من القضاة في المدينة، وفي نفس الوقت، فهل كان بينهم قاضي القضاة ؟ أم أن الامام نفسه كان يقوم بمهام قاضي القضاة أو قاضي الجماعة ؟ ويظهر أن قاضي الحاضرة كان يعتبر قاضي الجماعة، وهو الذي يعين القضاة في النواحي بصفة عامة، مثلما فعل القاضي سحنون حيث ولّى عبد الله بن سهل القبرياني قضاء قسطنطينية، وولى شجرة بن عيسى قضاء مدينة تونس وهو لا يحمل لقب قاضي الجماعة أو قاضي القضاة<sup>(2)</sup>، ومع ذلك فإن القاضي كان يمارس عمله بنفسه، فإن القاضي أبا عبد الله — السالف الذكر — قام بنفسه يبحث عن الفتاة التي اختطفها زكريا كما سلف. مع أنه من الأحرى أن يقوم بهذه المهمة المحاسب أو صاحب الشرطة، وأن تدخل القاضي في مثل هذه القضية يدل على أن مهمته لم يقتصر على عقود الزواج والميراث وما شابه ذلك، لكنه كان يستعين بأعوان، فكان منهم على رأس الاحباس والمواريث والمساجد وكتاب الوثائق وغيرهم.

وحين خضعت البلاد للفاطمين، فإن هؤلاء قد ابقوا القضاة على حالهم في بداية الأمر، ثم خيروهم بين اعتزال القضاء أو العمل وفق الفقه الشيعي، ويبدو أن منهم من قبل الخيار الثاني فإن عمداً بن عمر بن يحيى المروزي كان قاضياً للأغالبة وظل قاضياً للفاطمين في القيروان وقد أعطاه أبو عبد الله الشيعي سلطة مطلقة فجعل اليه «تولية القضاة والحكام بسائر البلدان»<sup>(3)</sup>، وكان يكتب في كتبه وسجلاته: «من محمد بن عمر قاضي القضاة» وعلى هذا يمكن القول أن المروزي قام بتعيين قضاة على مختلف نواحي بلاد المغرب الأوسط.

(1) ابن الصغور: تاريخ الائمة. ص 341.

(2) لمزيد من التفاصيل حول القاضي: هوبكنز: النظم الاسلاميه. ص 195—2223.

مرمول: السياسة الداخلية. ص 260—264.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص 215.

الا أن الفاطميين ومن بعدهم الزيريين لم يتشددوا في مسألة شيعة القاضي، بل يبدو أنهم كانوا يراعون موضوع مداراة رعاياهم من اتباع المذاهب المخالفة، ويراعون ظروف المناطق التي لم تأخذ بالمذهب الشيعي فلقد كان يلي قضاء القيروان قاضٍ مالكي هو محمد بن أبي المنصور بعد ما أرغمه على ذلك الخليفة المنصور الفاطمي وقد توفي سنة 337هـ/498م. وهو مازال يلي قضاء القيروان<sup>(1)</sup>، وكان قاضيا سنة 386هـ/996م. محمد بن عبد الله بن هاشم الذي كان مالكيًا<sup>(2)</sup>، وعليه يمكن القول أن القضاة كانوا شيعة في المناطق التي أخذت بهذا المذهب، لكنهم ربما لم يكونوا كذلك دائمًا في المناطق الأخرى، ويظهر أن تعيين القاضي في النواحي يمكن أن يقوم به قاضي القضاة، فقد قام أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي الذي استكتبه عبيد الله المهدي سنة 298هـ/910م، بتعيين بن منصور الصغار قضاة ميلة.

## 12 - أصحاب الدواوين الأخرى:

لا يشير ابن الصغير إلى وجود دواوين بهذا الاسم في تاهرت وإن كان يشير إلى بعض المسؤوليات التي تناط بالدواوين، فأشار إلى وجود الكاتب للإمام الرسمي، دونما إشارة إلى «ديوان الرسائل» وذكر أن أبا اليقظان اجتمع بوفد نفوسة بشأن تعيين وإل على جبل نفوسة بدار الضيافة، وهناك أمر الكاتب أن «يكتب السجل»<sup>(3)</sup>، ولا يعني في هذا المقام لفظ ديوان بقدر ما يعني وجود «صاحبه» وهكذا من الجائز أن يكون في تاهرت موظفون بمثابة أصحاب دواوين الانشاء والرسائل والبريد والمظالم والأزمة والكشف والضيايع والاستصفاء والعطاء وغيرها على الأقل في العهد الفاطمي. ما دامت تاهرت «مفردة العمل والاسم في الدواوين»<sup>(4)</sup>. وما دامت مركزا لولاية الغرب. فكان الوالي فيها ممثلا للخليفة الفاطمي.

(1) هو بكنز: المرجع السابق. 210.

(2) ابن عذاري: البيان ج 1. ص 248.

(3) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص 354.

(4) ابن حوقل المكان السابق. الاصطخري: المسالك والممالك. ص 93.

### 13 - فئة الشراة:

كان هؤلاء الشراة رقباء على الامام في احكامه وصدقاته واعشاره، فإذا رأوا منه اعوجاجاً طعنوا فيه<sup>(1)</sup>، ويبدو أنهم كانوا إذا ارتابوا في الامام امتحنوه، فكان أن امتحنوا الامام افلح بأن سألوه أن يولي القضاء كفوءاً لذلك، فطلب منهم أن يعينوا قاضياً فيوافق عليه، وبالفعل، فقد أشاروا عليه بتولية محكم الهواري ففعل وكانوا يشنون على الامام ويدعمون حكمه إذا سار سيرة حسنة، فحين كان يجري أبو اليقظان الحق على من رضي وسخط «حمد له الشراة ذلك»<sup>(2)</sup>. وهكذا ظهرت هذه الفئة وكأنها أعلى سلطة في البلاد - ولو نظرياً - تسند اليها مهمة تقديم احدهما ليتولى الامامة، فإن ابن الصغير يذكر أن ابا اليقظان هو ابن «مقدم الشراة» لكنها عملياً لم تكن قادرة على تنفيذ مهمتها، والا لما حدث الصراع على الامامة ربما لأنهم انفسهم خف التزامهم بمذهبهم ومبادئهم المتشددة، ويظهر هذا في خوف محكم الهواري من عدم قدرته على تنفيذ الحكم فيهم، وتنبهه على هذا الأمر مسبقاً فقال لهم: «ان الحق مر» ثم ربط مرارته برفاهيتهم فأضاف «وانتم مرفهون أبناء نعم، وغيري أحب اليكم مني وقد نصحكم»<sup>(3)</sup>.

وفيما أشرنا اليه من تدخل الشراة في تعيين القاضي محكم الهواري وما ذكره ابن الصغير من أن نفوسة كانت «تلي عقد تقديم القضاء» كما سبق - يدل على أن الشراة كانوا من نفوسة غالباً، وعلى كل، لا ندرى ماذا كان مصير هذه الفئة بسقوط الدولة الرستمية، فربما ظلت موجودة بعد ذلك مستترة<sup>(4)</sup>.

### 14 - الجنود:

بدأ ظهور الجيش في تاهرت باشتراك الامام عبد الرحمن في حصار طنبنة 154هـ/770م، وكان مهتماً به إذ حين تلقى الأموال من وفد البصرة جعل ثلثيه

(1) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 341.

(2) ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص 341.

(3) نفس المصدر. ص 334.

(4) ومن شروط الشراة: 1 - لا يجوز للشراة النقية الدينية مهما كانت الظروف 2 - ان لا يقل عدد الشراة عن 340 - ان يتخبروا اماماً عليهم 4 - الا يجبروا أحداً على الاتحاق بهم، وعن الشراة انظر اطفيش: شرح النيل ج 14 ص 355. الباروني: الأزهار. ج 2 ص 210. وبني معمر الاباضية في موكب التاريخ. الحلقة الأولى. ص 95. عمدة خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية ص 112-113.

في الأمور العسكرية من كراع وسلاح، في حين تخصص ثلثًا واحدًا لفقراء الناس.

وازداد اهتمام الرستميين به في عهد الامام عبد الوهاب، وربما لتعدد خصومه، «حتى اجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله»<sup>(1)</sup> وفي المعركة التي خاضها ضد بني الأوس «عد في عسكره الف فرس ابلق» وخرج «بعساكره من المدينة في جموع لا يعلم عددها الا الله».

ويظهر الجيش ثانية في تاهرت حين خرج أبو حاتم. «في جيش مع وجوه زناتة ليجوروا قوافل قد اقبلت من المشرق» وهذه العبارة تفيد في دافع الرستميين للابقاء على الجيش والاهتمام به فيما بعد، إذ لم تكن لديهم سياسة عدائية تجاه جيرانهم، وحين يتعلق الأمر بالفتن الداخلية في تاهرت فإن الجماعات والقبائل المتنازعة تقوم بدور الجيش، وعلى هذه الصورة تظهر الحروب عند ابن الصغير، إذ في حرب الامام عبد الوهاب مع بني الأوس — كما سبق — «اجتمع الى عبد الوهاب أم كثيرة وخلق عظيم» وكأنها حروب عشائرية وتتجلى هذه الصورة أكثر حين قام محمود بن الوليد للتأثر لابن عرفة «فضرب العليل فبادر الناس اليه فأمرهم بأخذ السلاح»<sup>(2)</sup>.

ومهما كان حجم الجيش الرستمي وطبيعته، فقد كان له قواد، إذ في حرب الامام عبد الوهاب السابقة، عبأ عسكره «ورتب قواده» وبعد ما استقبل وفد مزانة وسدراتة، دخل عليه «وجوه رجاله وقواده» ويبدو أن الرستميين واتباعهم شكلوا عصب هذا الجيش.

وبما تقدم يظهر أن الجيش الرستمي كان ينقسم الى قسمين: قسم دائم، وهم القواد وبعض الجنود، وقسم احتياطي، يمارسون اعمالهم الخاصة في وقت السلم، لكنهم جنود في وقت الحرب، وطبيعي أن يتقاضى القسم الأول عطاءه من بيت المال.

(1) ابن الصغير: المصدر السابق. ص 328.332.

(2) ابن الصغير: تاريخ الامة. ص 345.



وحين صنف القاضي النعمان الطبقات، خص الجنود بالطبقة الأولى، فذكر: أعلم أن الناس خمس طبقات لا يصلح بعضهما الا ببعض فمنهم الجنود<sup>(1)</sup>: ويرى أن أهميتهم هذه ترجع الى أنهم «تخصين الرعية باذن الله وزين الملك وعز الاسلام وسبب الامن والحفظ»<sup>(2)</sup>.

## 15 - أهل العلم:

ظهر عدد من العلماء والأدباء على اختلاف مشاربهم في بلاد المغرب الأوسط، فكان بالإضافة الى من تولوا المسؤوليات الكبرى عدد من العلماء لا نعرف وظائفهم، فرمما كان اشتغالهم بالعلم، الى جانب اعمالهم الحرة ومنهم في تاهرت: «رجل يقال له ابن الصغير لشأنه في الفقه» وعمود بن بكر الذي كان «يرد على الفرق في مقالاتهم ويؤلف الكتب في الرد على المخالفين» وعبد الله بن اللطفي وهو الذي تصدى للمعتزلة فدخل في مناظرتهم، وأبو عبيد الأعرج الذي كان مرجعاً في الفقه وعلم الكلام، وعبد العزيز بن الأوز، وكان له فقه بارع ورحلة نحو المشرق، وأن وصفه بسفه اللسان وخفة العقل من طرف الاباضية لا يحيط من شأنه، وكان منهم أبو مسعود وأبو دنون من فقهاء مذهب الكوفيين<sup>(3)</sup>.

وأضاف ابن الصغير عدداً من خطباء تاهرت كابن أبي ادريس، وأحمد التيه وابن العباس بن فرحون وعثمان بن الصفار وأحمد بن منصور، وكان من شعراء تاهرت أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي، ولد في تاهرت سنة 200 هـ الموافق 815 م، ثم رحل الى الشرق سنة 217 هـ/832 م، فنزل المدينة المنورة، وأخذ عن علمائها ومنها انتقل الى العراق فاجتمع بصريع الغواني ودعبل وعلي بن الجهم وسمع من ابن مسدد وعمرو بن مرزوق وبشر بن حجر، واتصل هناك بالخليفة المعتصم ومدحه فقال منه صلوات معتبرة، وحرصه على دعبل بقصيدة مطلعها:

(1) القاضي النعمان: كتاب دعائم الاسلام ج 1. ص 357.

(2) نفس المكان.

(3) عن مؤلاء انظر: ابن الصغير: مواضع متفرقة.

(البحر الطويل):

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الأرض العريضة دعبيل  
ويبدو أن وفاة الامام أبي حاتم قد عجلت في عودته من القيروان الى  
مسقط رأسه تاهرت، سنة 295هـ/908م، وان كان بعض المؤرخين يميلون الى  
القول، انه خرج من القيروان هارباً من الأمير الأغلبي، لكن هذا الأمير كان  
قد وافته منيته قبل ذلك(1).

ومن شعراء تاهرت أيضاً ابن الخراز أحمد بن فتح التاهرتي. وقد مدح  
أبا العيش عيسى بن ابراهيم بن القاسم في قصيدة تقتطف منها أبياتاً في مدح  
نساء البصرة: (من بحر الرجز):  
ما حاز كل الحسن الآقينة بصريّة في حمرة وياض  
الحمر في لحظاتها والورد في وجناتها هباء غير مفاض(2)  
وذكر البكري له: «من البحر البسيط».

أسلح على كل فاسي مررت به في العدوتين معا لا تبقين أحدا  
قوم غنوا اللؤم حتى قال قائلهم من لا يكون لهما لم يعش رغدا(3)  
ومن المحدثين أبو الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز، من مواليد  
تاهرت، وقد أتى الأندلس رفقة أبيه صغيراً وقال دخلت الأندلس سنة سبع عشرة

---

(1) حول بكر بن حماد انظر البكري: المغرب ص 67. أبو العرب: طبقات. ص 175—246. الحشني:  
قضاة قرطبة. ص 204. ابن الفرضي: تاريخ العلماء ج 1 ص 75. الضبي: بنية الملتصق. ص  
434—433. الحمدي: جذوة القصب. ص 330. المقرئ: نفع الطيب. ج 2. ص 255. ابن  
الآبار: الخلعة. ج 1. ص 173—174. الدباغ: معالم. ج 2. ص 282. الحموي: معجم. ج 1.  
ص 813. ابن عثري: البيان. ج 1. ص 336. البرادي: الجواهر ص 173. 206. الباروني:  
الأزهار. ج 2. ص 71—72. محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد. جودت  
عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية. ص 112—114—174—175—200—202. محمود علي  
مكي: التاهرتي بكر بن حماد. مجلة العربي. ج 53. ص 78. عبد العزيز نبوي: محاضرات في الشعر  
المغرني القديم. الجزائر 1983. ص 128—141.

(2) الباروني سليمان: الأزهار. ج 2. ص 77.  
(3) البكري: المغرب. ص 177. وعما وصلنا من أشعاره انظر: محمد رمضان شاوش: الدر الوقاد. مواضع  
منفرقة.

وثلاثمائة وأنا ابن ثمانية أعوام»(1)، فأخذ عنه العلم هناك موسى بن عيسى بن أبي جاج وأحمد بن محمد بن عيسى البلوي المعروف بابن الميثاني وأبو محمد بن عبد البر.

ومن العلماء إبراهيم بن عبد الرحمن التنسي الذي دخل الأندلس وجلس في جامع الزهراء يفتي سنة 307هـ/920م، ومنهم أيضاً أبو جعفر بكر بن أحمد الغساني وابنه زكريا المعروف بـ«ابن الأشج» وقد دخل الأندلس مع والده وأتبعه سنة 326هـ/937م، وسمع بتنس من أبي الخطيب(2).

ومنهم يهودا بن قريش التاهرتي من أهل القرن الرابع الهجري الذي كان يحسن اللغة العربية والعبرانية والبربرية والآرامية والفارسية، ومن هذا يظهر أنه كان مهتماً باللغات، وهو واضح أساس النحو التنظيري وله كتاب في ذلك باللغة العربية في مكتبة اكسفورد(3).

وعلى الجملة، فقد عاش في ناهرت عدد كبير منهم، فحين ضرب أبو اليقظان سرادقه «خرج اليه العلماء والقراء» وذكر الشماخي أن مهدي النفوسي «افهم تسعين عالماً من المخالفين في ناهرت»(4).

ولا شك أن مدن المغرب الأوسط الأخرى شهدت نفس التقدم العلمي وإن اغفل أصحاب التراجم ذكر علمائها، ومع هذا فقد عرفنا أبا عبد الله محمد بن أبي زيد وأبا جعفر الداودي من علماء المسيلة في القرن الرابع الهجري، وأبا القاسم سوار بن كيسان وسعيد بن واشكل التهرتي من علماء تنس وعبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو الوهراني المتوفى سنة 429هـ الموافق لـ 1037م، وغيرهم.

## 16 — فة كبار التجار:

ظهرت فة كبار التجار تاهرت بشكل واضح في عهد الامام أفلح، وكان

(1) ابن بشكوال: كتاب الصلة. ج 1. ص 86.

(2) جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية. ص 172.

(3) مبارك المولي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ج 2. ص 70.

(4) الشماخي: السور. ص 156.

ابتناء القصور دليلاً على وجودها. بل بلغ الثراء بهؤلاء التجار أن امتلك احدهم سوقاً خاصاً به وهو ابن وردة، ولا ندري، فلعل خلف الخادم مولى الأغلب — الذي ذكره ابن الصغير — كان من كبار التجار مادام يملك أموالاً طائلة، وعلى كل فإن ابن الصغير ذكر شخصين من وجوه التجار هما: أبو محمد الصيرفي وابن الواسطي، فكانا من أصحاب الأموال، وربما كانت القوافل التي خرج أبو حاتم بوجوه زناته لحمايتها وكانت قادمة من المشرق بأموال لا نحصى، لتجار كبار.

وعلى أية حال، فإن هذه الفئة احتلت مكانة مرموقة في المجتمع، الا ترى أن صاحب شرطة الامام افلح كان يهاب دخول سوق ابن وردة وإذا كان لمحمد بن عرفة الذي سافر الى ملك السودان علاقة بالعمل التجاري أفلا ترى كيف كان يسير الناس بين يديه ومن حوله احتفاء به<sup>(1)</sup>.

وقد فرضت طبيعة عمل هؤلاء التجار أن يكونوا على اتصال وثيق بالسلطة رغم ما قد يحدث بينهم من خلاف بسبب تضارب المصالح، الا أنهم وبدافع المصلحة يجتمعون معاً أمام الطبقة العامة من المجتمع، ولا ندري شيئاً عن ماضي أصحاب بيوت المال، وإن نرى أنهم لا بد أن يكونوا امتنوا التجارة فاكسبوا خيرة في الشؤون المالية اهلهم — مع غيرها من المؤهلات — لتولي منصب صاحب بيت المال، وبعبارة أخرى من المتوقع أن يكون بعض التجار قد احتلوا مناصب عالية في الدولة.

وكان كبار التجار يقومون بدور هام في عمل الخير بما يقدمونه من صدقات ومعونات للمعوزين والضيوف والطلبة، ولعلهم كانوا يتبرعون بمبالغ طائلة لجمعيات خيرية، ويساهمون في بناء المساجد وتحسينها، وقد ذكر ابن الصغير «مسجد أبي...»<sup>(2)</sup> وعليه فإن اطلاق اسم الرجل على هذا المسجد هو دليل على أن بانيه كان أحد الأثرياء، والذي هو غالباً من كبار التجار مثلما كان يحدث في القيروان وفاس.

(1) ذكر احسان عباس انه — محمد بن عرفة — كان تاجراً. انظر. احسان عباس: المجتمع الناهري. الاصله. جمادي الأولى. 1395/ماي 1977م. ص 30.

(2) اب الصغير: تاريخ الائمة. ص 345.

وكان هؤلاء التجار يجلسون مزهوين بثقافتهم الواسعة التي اكتسبوها من تجوالهم وأسفارهم، ويمكثاتهم التي تحوي نادر الكتب، وبالتحف والطرائف التي حصلوا عليها من تلك الأسفار.(1)

ولا يحسد هؤلاء على ما هم فيه، لأنه من الممكن أن ينزل البعض منهم إلى الحضيض بين عشية وضحاها، فيفقد جاهه ونفوذه، وذلك بأن يتعرض لمصادرة أمواله واستصفائها من طرف السلطة. وإذا كان هذا الأمر لم يحدث في العهد الرستمي، فهو محتمل الوقوع في العهد الفاطمي، فهؤلاء كثيرًا ما اتخذوا مثل هذا الاجراء بالنسبة لتجار من افريقية.

### 17 — كبار الملاك:

تكونت طبقة اقطاعية بسياسة احياء الموات التي بدأت في عهد الامام عبد الرحمن، وبدأت تنمو هذه الطبقة، وقد كشف ابن الصغير عنها فذكر عددا من كبار الملاك منهم محمد بن حماد، الذي كان له وعلى بعض أميال من المدينة منزل يقال له الثلث قد جمع الأشجار والأنهر والمزارع والنخل والقصور(2) بينما كانت اقامته في المدينة، في عهد الامام أبي حاتم.

وربما كان ابان وحمويه وعبد الواحد مثل سابقهم من هذه الطبقة، وكانوا من سكان المدينة ويملكون القصور خارجها، فذكر ابن الصغير بشأن إبان وحمويه انهما «خرجوا يوماً الى قصورهما متزهين»(3)، وان قوله «خرجاء» يدل على أن إقامتهما في المدينة.

ويبدو أن بعضًا من كبار الملاك كانوا من قبيلة مزاته. التي قال فيها الامام عبد الوهاب «ما قام هذا الدين الا بسيوف نفوسة وأموال مزاته»(4)، وربما كان محمد بن جبرني وابن زلغين ينتميان لهذه القبيلة، وهما اللذان قال فيهما الامام

(1) موريس لومبار: الاسلام في مجده الأول. ص 223.

(2) ابن الصغير: تاريخه الامم. ص 358.

(3) نفس المصدر. ص 336.

(4) سليمان الباروني: الأزهار الرماضية. ج 2. ص 173.

«لو لم أكن إلا أنا وابن جرتي وابن زلفين لأغنيا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية» ويحدد الشماخي وجه ثراء محمد بن جرتي فيذكر أنه «بالحرث» مما يدل على أنه من كبار الملاك للأرض. وكان هناك كبار ملاك الموالي كابن زلفين — كما تقدم — فيذكر الشماخي وجه ثراء ابن زلفين أنه «بالأنعام»<sup>(1)</sup> وقد كان لهما مكانة مرموقة في نظر الامام عبد الوهاب، وهي تعتبر صورة عن المكانة التي يتمتع بها كبار الملاك، فلقد كان محمد بن حماد من خاصة الامام أبي حاتم ومن أهل المدينة.

## 18 — الموالي:

ظهر الموالي في مختلف أنحاء المغرب الأوسط، وإذا كان اليعقوبي قد ذكر أن سكان مدينة بلزمة «قوم من بني تميم وموالي بني تميم» فما يمنع أن يوجدوا كذلك في تاهرت وغيرها من مدن المغرب الأوسط؟ لقد وجد الموالي في تاهرت، فأشار ابن الصغير إليهم في عهد الامام أبي بكر إبان الحرب التي دارت بين أنصار هذا الامام وأنصار محمد بن عرفة فقال العجم «قد أمكننا من العرب والجنود ومواليهم واتباعهم» وفي موضع آخر من كتابه أن العرب قبضوا «مولى من موالي الأغلب يقال له خلف الخادم» وذكر مولى آخر هو سليمان مولى القاضي محمد بن عبد الله في عهد الامام أبي اليقظان وكان للرستميين أنفسهم مواليهم، فذكر بخصوص أبي حاتم أنه «دخلت به عشيرته وأخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه»<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن الموالي وجدوا بكثرة، فقد كان الأمراء في أغلب الأحيان يعتمدون العرب والبربر معا لخوفهم منهم ومن منافستهم، ويعتمدون إلى حد كبير على الموالي، لأنه ليس هؤلاء مطلع سياسي، وهكذا اعتمد عليهم الرستميون فالفاطميون فالزيريون.

ومن عوامل وفرتهم كثرة العجم والعبيد السودان والصقالبة في البلاد، فكان المسلمون من هؤلاء يتولون قبيلة ما، لأن المجتمع لم يتحرر من العصبية

(1) نفسه: مختصر تاريخ الأباضية ص 34. الشماخي: السير. ص 205.

(2) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص 357.

كلية<sup>(1)</sup> فكان والد الشاعر حسن بن رشبِق القيرواني «مملوك رومي لرجل من أهل المهدية من الأزده»<sup>(2)</sup> ومن جهة أخرى فإن وجودهم لم يكن ممنوعاً من الوجهة الشرعية، فهم ليسوا عبيداً، بل أن الإسلام بدعوته إلى تحرير العبيد زاد في عدد الموالى، وكان هذا العدد في ازدياد في العهد الفاطمي، لكثرة الحروب التي خاضوها فنتج عنها العديد من الأسرى.

وبما أن هؤلاء لا يجوز أن يصبحوا عبيداً شرعاً، كانوا يدخلون في الولاء، وإن كان اعتماد الفاطميين على كثامة واعتماد الزيريين بعدهم على صنهاجة قد «حد من هذه الزيادة» وكان بعض الموالى ممن اشتراهم الفاطميون عبيداً صبياناً، فربوهم منذ البدء تربية إسلامية واعتنوا بهم وتعهّدوهم ففّرِسوا في نفوسهم حب الخليفة والوفاء له، وكانت العادة أن يعتنقوا عتقاً مسجلاً بوثيقة<sup>(3)</sup> مثل جوذر وسليمان الخادم وابنه مسرور، وميسور الفتى، وصافي ووصيف وشفيع وريان وقيصر ومظفر وأفلح وطارق وصابر ونسيم ونصير ونظيف وغيرهم.

ومهما يكن أمرهم، فقد تمتعوا بوضع محترم، فأُسندت إليهم المناصب السامية والحساسة في الدولة، فقد اسند الفاطمي إلى الأستاذ جوذر أمر قصره حين خرج في حملات عسكرية، ولما عزم المنصور الفاطمي على الخروج في طلب أبي يزيد محمد بن كيداد استخلف الأستاذ جوذر على دار الملك وسائر البلاد واعطاه مفاتيح خزائن بيت المال<sup>(4)</sup>، وحين كتب للمنصور النصر أمر «عبده جوهر الكاتب» بتنفيذ السجلات على البريد على جميع الآفاق بالفتح، وكان نسيم يشغل منصب عامل القيروان إلى أن عزله عبيد الله المهدي سنة 314هـ، كما شغل صابر هذا المنصب، وقاد حملة بحرية اقلعت من المهدية باتجاه صقلية ومنها شنت هجوماتها على سواحل بلاد الروم سنة 315هـ/929، وكان شفيع الصقلبي أميراً للجيش الفاطمي الذي حارب السقطنيل

(1) يذكر القاضي عياض: أن عيسى بن مسكين ت 295هـ/908م في القيروان كان «أصله من العجم وتولى قريباً من أهل الساحل. انظر: تراجم أغلبية ص 232.

(2) حسن بن رشبِق: نموذج الزمان. ص 439 الحاشية.

(3) ابن عفار: البيان ج 1. ص 181. المقرئ: اتعاظ. ج 1. ص 72.

(4) ابن عذاري: البيان ج 1 ص 197. 209. ابن حوقل: صورة ص 84.

بن أبي يزيد بن مخلد بن كيداد، وانتقل مع المعز الفاطمي الى مصر. وهناك أصبح حاملاً لمطلته (1). وحين احتل القائم الفاطمي مدينة تاهرت وولي عليها ميسوراً الفتى في سنة 313هـ/935م الذي خرج على رأس جيش عظيم الى المغرب فهزم ابن أبي العافية واحتل مدينة فاس (2). وأما جوهر الصقلي فغنى عن البيان، فقد اشتهر بحروبه في بلاد المغرب ويكفيه شهرة أنه قاد الجيش الفاطمي وفتح مصر. وكانت مرتبته عالية في الدولة حتى وصل مرتبة الوزارة (3).

على أن هذه الفئات العديدة التي ذكرناها والتي تستأثر بالمناصب والمراتب الاجتماعية، فتشكل قمة الهرم الاجتماعي، كانت قليلة العدد بالنسبة الى العامة من السكان التي كانت تمثل القاعدة العريضة للهرم.

وهكذا يبين مما تقدم، ان بلاد المغرب الأوسط كانت نسبياً غير متجانس التركيب اجتماعياً، فبنألف من شرائح اجتماعية متباينة بعضها ينتمي الى طبقة العامة، والبعض الآخر الى طبقة الخاصة، وربما لعب هذا التباين الطبقي دوراً في الفتن والحروب التي شهدتها البلاد. فقد يصعب تحديد العوامل التي أوجدت هذه الطبقة الاجتماعية وقد لا نستطيع وقف الأمر على العامل الاقتصادي، فإذا كان هذا العامل يندخل في الوضعية الاجتماعية للفرد، فإن هذه الوضعية نفسها تفرض على الفرد مستواه الاقتصادي. لأن الانتقال من شريحة الى شريحة في ذلك الوقت لم يكن بالأمر الممكن تقريباً.

(1) ابن عذارى: البيان ج 1. ص 181. المقرئ: انماط. ج 1. ص 72.

(2) ابن عذارى: البيان ج 1 ص 197. 209. ابن حوقل: صورة ص 84.

(3) ابن الأثير: الكامل. ج 6. ص 354. أبو الفداء: مختصر. ج 3. ص 127.

مرمول: السياسة الداخلية. ص 122. 128. لقيال موسى: دور كتابة. وعن جوهر انظر: علي ابراهيم

حسن: تاريخ جوهر الصقلي. مكتبة النهضة المصرية. ط 2. القاهرة 1963. ابن عذارى: البيان. ج

1. ص 221. وما يليها.





## الفصل السادس

### العادات والتقاليد

نظرا لاختلاف مجتمع المغرب الاوسط على سلم الحضارة، فمن الطبيعي ان تظهر لهم عادات وتقاليد تختلف تبعا لمستواهم وظروفهم وامزجتهم نذكر منها.

#### العصية:

تعتبر العصية اصلا من الاصول التي يقوم عليها المجتمع القبلي وقانوننا من قوانينهم المتعارف عليها، وهي تتولد من القرابة التي تستند الى وحدة الانساب، سواء بالدم أو بالحلف والولاء، بل ان المصاهرة تسهم بنورها في ظهور العصية ودعمها، فان ابن فدين اليفري مال الى مباينة عبد الوهاب لان ام عبد الوهاب يفرنية(1)، مع ان عبد الوهاب نفسه من اصل فارسي.

وتعتبر حياة العزلة التي تحياها القبيلة من دوافع العصية اذ انها تحافظ على اصالة الدم وتحد من اختلاط الانساب، وتنمي شعورا لدى افراد القبيلة بمسئوليتهم الجماعية في الدفاع عن قبيلتهم، فالعصية تحمل الافراد على التناصر والتعااضد(2).

وتكون العصية قوية، كلما ازدادت القبيلة توغلا في حياة الترحال والظعن ثم تضعف كلما اتجهت القبيلة نحو التمدن، لذا فهي ضعيفة نسبيا في المدينة لاعتماد سكانها في حماية انفسهم على السلطة الحاكمة، على ان هذا لايعني انها زالت في مدن المغرب الاوسط، بل انها تظهر من حين لآخر في مدينة تاهرت الرسمية، فان سياسة الائمة عجزت عن لاذبتها، لكنها عند قبائل المدينة اقل حدة من غيرها، الا ترى انقسام قبيلة لواتة على نفسها في حرب الامام ابي حاتم

(1) الشماخي: السور: ص: 145.

(2) عن العصية: انظر: احسان النضر: العصية القبلية. طبعة دار البقعة العربية ابن خلدون: المقدمة فصل ( في ان العصية انما تكون) الفوال: علم الاجناع البدوي صفحة 220.

مع عمه يعقوب بن افلح، فقد وقفت لوائه في بداية الامر الى جانب الامام  
ابي حاتم وخرجت معه من المدينة ولكن حين ادخل اهلها يعقوب اليهم، رجعت  
اليه جماعة من لوائه (1).

وتبدأ العصبية في الاسرة أو العائلة، فمن الطبيعي ان يتعصب الابن لأبيه  
ولعمه ولغيرهما من ابناء اسرته ثم هو يتعصب لعشيرته اذا تعلق الامر بها، فعين  
اجتمع رؤساء القبائل في تاهرت لانتخاب الامام عبد الرحمن قالوا: لعل المقدم  
ان يرفع اهل بيته وعشيرته على غيرهم ففسد النيات وبكر الاختلاف ويقل  
الاتلاف (2) وحين خطب الامام عبد الوهاب ابنة مقدم لوائه غضب ابن مقدم  
الايوس وغضبت عشيرته لغضبه (3) ويذكر الدرجيني نقلا عن ابي الربيع من  
رجال الطبقة السابعة من جهته، نخاصم رجلين من قبيلة مزانة بسبب قراض  
«حتى قامت عشيرة كل واحد متعصبة وتامروا على القتال وتواقف الفريقان وقد  
اشرفوا على ان يقتلوا» (4)، وكان في مجلس ضم ابن الحداد وابا عبد الله الشيعي  
رجل كمامي يعرف بشيخ المشايخ يفضض لغضبه اثنا عشر الف سيف (5).

ويتعصب الفرد لقبيلته فان نظرة الى الحروب التي شهدتها بلاد المغرب  
تدل على انها في الغالب حروب عصبية، فيحدث ان يلتف ابناء القبيلة حول  
أمير منهم كما فعلت مغيلة مع ابي قررة، والمغراويون مع بني خزر وبني يفرن مع  
يعلو اليفرنى السابق الذكر وغيرهم، فتقوم القبيلة للسيطرة على غيرها من القبائل  
المشاركة معها في جد واحد، فكثيرا ما وقعت الحروب بين مغراوة وبني يفرن  
مع انهم زناطيون، وحاربت مغراوة ابا يزيد بن كيداد مع انه من المقروض ان  
يقفا — محمد بن خزر وابنه — في صفه لانه زناطي مثلما (6) لكنهما لم يفعلوا  
تحقيقا لمصالح خاصة بولائهم للفاطميين.

كذلك فهو — الابن — يتعصب لقبيلته الام، فان زيري بن عطية  
المغراوي كتب الى جميع قبائل زناتة يستصرخهم، فأتته الوفود من بلاد الزاب  
وبلاد تلمسان

(1) ابن الصغير: تاريخ الائمة الرستميين. ص: 360.

(2) نفس المصدر: ص: 321.

(3) نفس المصدر: ص: 331.

(4) الدرجيني: طبقات ج. 2. ص: 345. جاء في النص حتى قامت كل واحد عشيرته متعصبة.

(5) القاضي عياض: تراجم. ص: 357.

(6) محمد بن عميرة: دور زناتة في الحركات المذهبية بالمغرب الاسلامي. ص: 224.

وملوية وسلجماسة وسائر بوادي زناتة(1)، وذلك في حربه مع واضح الفتى قائد جيوش قرطبة سنة 386هـ.

وقد عادت العصبية بنتائج وخيمة على بلاد المغرب، فاضافة الى الحروب التي كانت تنشب بين قبيلتين لأنفه الاسباب، فقد حالت دون استحكام الملك في البلاد اذ يرى ابن خلدون ان الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة والسبب في ذلك اختلاف الاراء والاهواء وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمنع دونها(2).

وقد وجدت عصبية من نوع آخر تقوم على الرابطة المذهبية، فكان الامام عبد الرحمن بن رستم حين يقوم بتوزيع الصدقات على الناس «يؤثر باكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه»، وكانت كتامة وهي شيعة يكرمون من مال الى مذهبهم، ويرون من وافق اعتقادهم(3).

## 2 - الشار:

كان الاعتداء على اي فرد من ابناء القبيلة يعتبر اعتداء عليها جميعها، بحكم العصبية القبلية، فكان على القبيلة ان تأخذ بثأر قتيلاها ويقوم بتنفيذ العملية اقرب الناس اليه، فان لم يوجد فيحتمل المسؤولية رئيس العائلة فالقخذ فالبطن فالقبيلة لان الدم، دم الجماعة كلها، والا ظلت قبيلة المقتول مثارا للسخرية والعار، فقد نادى النكار ابن ميمون الرستمي مستهزئين: «يا ابن المهلور دمه»(4).

وفي حالة عجز القبيلة عن الاخذ بثأرها كانت، ترجعه الى حين مقدرتها ربما الى اربعين عاما أو تقبل الدية، الا وان الشائع عندهم ان الدم لا يغسله الا الدم، أما قبيلة القتيل، فكان عليها ان تقف يدا واحدة لحماية ابنها وجمع الدية من جميع افرادها.

(1) ابن ابي زرع: روض القرطاس. ص: 66 لسان الدين ابن الخطيب: تاريخ المغرب العربي القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام. ص: 158.

(2) ابن خلدون: المقدمة. الفصل التاسع. ص: 164.

(3) البكري: المغرب: ص: 82.

(4) الشماخي: السور. ص: 153. ابو زكريا بن ابي بكر: كتاب سير الائمة واختبارهم تحقيق اسماعيل العربي. المكتبة الوطنية الجزائر 1979م - 1399هـ. ص: 64.

وكان الثأر شائعا في بلاد المغرب بحكم طبيعته القبلية ففي تاهرت، وحين احضرت جثة محمد بن عرفة الذي قتله الامام ابوبكر قام مناد ينادي بين يديه ألا ان القتل يأمركم بطلب ثأره ودمه، وحين قتل العجم رجلا من بني دمر من اهل تاهرت في عهد الامام ابي حاتم، قام ابوه الى رجل من عجم المدينة فقتله غيلة من غير ان يشعر به الناس (1)، وحدث في وهران سنة 298هـ / 911م ان زحفت اليها قبائل كثيرة من البربر يطلبون ثأرا بينهم وبين بني مسكن (مسكن) فأنى من كان فيها من الاندلسيين وكان عندهم جماعة منهم من بني مسكن فنصبوا عليهم الحرب فلما ضايقوا عليهم هربوا بني مسكن ليلا.

وقد كان طلب الثأر من بين العوامل العديدة التي تكمن وراء نشوب الحروب في المنطقة، فان بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي علي سبيل المثال قدم من افريقية قاصدا الى المغرب ليأخذ ثأر ابيه فقتل زناته وأستأصلهم وملك المغرب بأسره (2)، اما جوهر قائد المعز الفاطمي فقد اسر الى بعض المخلصين من اتباعه بقتل يعلى اليفرنى، وحتى يضيع دمه جعل قتله، على ايدي رجالات كتامة وصنهاجة وذهب دمه هدرا في القبائل (3).

وكان يراعى في الدية أو الثأر مكانة القتلى والقتيل، في قبيلته ومكانة هذه بين القبائل، وكذلك الظروف التي احاطت بارتكاب الجريمة والصلات الاجتماعية بينها، فان يعلى اليفرنى المذكور قد رفض الثأر لايه برجل واحد من قبيلة القتلى — بني بكار من يفرن وكانوا مياالين لمغراوة — ليحتفظ بنفسه بحق الثأر بما يتناسب وشخصية القتلى (4).

#### 4 — الغزو:

يعد الغزو نوعا من اللصوصية، يقوم به الفقراء لنهب الخيرات والاموال ممن يملكها، فاذا شعرت قبيلة بنقص مواردها، حشدت قواها واغارت على قبيلة مجاورة على غفلة منها فتسوق، ما تجده من انعام وتسبي النساء والاطفال، وتعود فخورة بالظفر الذي حققته والسلب الذي احرزت عليه.

(1) ابن الصغير: المصدر السابق: ص: 359.

(2) ابن ابى زرع: روض القرطاس. ص: 56.

(3) ابن خلدون: المعراج. 4. ص: 37.

(4) Golvin: Le Maghreb Central. P. 166.

ويرجع سببهم للنساء والأطفال لسبب مادي، فهم يتخذون عبيدا لانجاز بعض الأعمال التي تعود بالمنفعة على القبيلة، أو بما ستحصل عليه هذه القبيلة من افدائهم، ويبدو ان النظرة الى الغزو كانت تختلف عن النظرة الى السرقة، بل كان الغزو محل اخغار للقبائل به لانه تعبر عن قوتهم وشجاعتهم، وقدرتهم على اكتساب أرزاقهم بحمد السيف، فهو أشبه ما يكون بمهنة خاصة بالشجعان من الرجال(1).

وكانت القبيلة التي تتعرض للغزو، تقوم بغزو معاكس ان كانت ذات مقدرة لافتكاك اموالها ومواسيها وسباياها، والا كان عليها ان تطأطئ رأسها، وتسكت على الضيم الى حين تجد في نفسها المقدرة على رد الضيم عنها، فتغزو وتتمرد ان كانت تدفع مغارم للقبيلة الاخرى.

وكانت الاسلاب والفتنم توزع بالتساوي بين المحاربين، أما القادة فينالون ربع أو خمس الغنيمة وما يحصلون عليه من اموال وهم في طريقهم الى هدفهم، كما كان من حقهم ان يأخذوا ما يتبقى من القسمة والمسمى بالفضول(2).

وللممارسة الغزو دوافع مختلفة منها: الحاجة المادية، ونظرة البدو الى الغزو كمفخرة من مفاخرهم واشباع روحهم الحربية، وغريزة حب التملك فيذكر ابن خلدون أن «طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن أرزاقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في اخذ اموال غيرهم حد ينتهون اليه بل كلما امتدت اعيينهم الى مال أو متاع أو ماعون نهبه، وقد يكون من الدوافع طلب الثأر أو اسباب سياسية أو العصبية القبلية، بما فيها الاجارة والحماية والولاء، فيذكر السلاوي ان ثورات البربر اتخذت صفة المعاندة والمفاخرة والمنافسة(3)، ووصف ابن حوقل سكان جبل الاوراس بانهم كانوا مستطيلين على من جاورهم من البربر وغيرهم وذكر ابن الصغير انه لما وزع الامام عبد الرحمن بن رستم اموال وفد

(1) الفوال: علم الاجتماع. ص: 304.

(2) الفوال: المرجع السابق. ص: 308.

(3) السلاوي: الاستقصاء ج. 1. ص: 111.

البصرة على الفقراء في تاهرت حسنت احوالهم وخافهم جميع من اتصل به خبرهم وامنوا ممن كان يغزوهم ورأوا انهم قادرون على غيرهم ومن كانوا يخافون ان يغزوهم<sup>(1)</sup>، وأغارت هواراة يوما على نساء ادنة وذهبوا بهم فادركهم اهل ادنة فاستنقذوا النساء هناك والغنيمة وقتلوا جماعة من هواراة<sup>(2)</sup>.

بل وكان يحدث الغزو بين أفراد القبيلة الواحدة إذا اختلفت عصبيتهم، فعين أنقسم بنو سكان على أنفسهم بين مؤيد لأي عبد الله الشيعي ومعارض، سار هؤلاء في جمع عظيم الى المؤيدين، فلما رأهم بنو سكان — المؤيدون — ثارت فيهم الصيحة فركبوا خيلهم وأخرجوا رحلهم وعدتهم وتلقوهم<sup>(3)</sup>.

وكانت كلمة مفاخرة أو انتقاص كافية لحدوث الغزو، فذكر ابن خلدون ان قبيلة وجديين من قبائل زناتة كانت مجاورة لقبيلة لواتة في منداس ثم، حدث بينهما فتنة بسبب امرأة أنكحها بنو وجديين في لواتة فعيروها بالفقر فكشبت بذلك الى قومها ورئيسهم يومئذ عنان، فتذامروا واستمدوا من وراءهم من زناتة فامدوهم ببعلي بن محمد اليفرني<sup>(4)</sup>، وزحفت الى جانبهم مطماطة ثم غزو لواتة فكان بينهم وقائع وحروب.

وقد مارس زيري بن مناد نفسه الغزو في بداية امره اذ اجتمعت اليه طائفة من عشيرته فأغار بهم على من حوله من زناتة والبربر ورزق الظفر بهم مرة بعد مرة فعضلم جمعه وتطلعت نفسه الى الامارة كما سبق فكانه كان يمارس الغزو من اجل هدف سياسي.

بل ان الحروب التي شهدتها بلاد المغرب الاوسط يمكن ادراجها في اطار الغزو المنتظم، اذ كان المنتصر دائما يفوز بالاموال والمواشي والسبي، وعلى سبيل المثال، فقد ارسل عبد الله المهدي غساکره الى تاهرت سنة 299 هـ / 911 م فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية وانتهبوا الاموال وحرقوا المدينة بالنار<sup>(5)</sup>.

(1) ابن الصغیر: المصدر السابق، ص: 324.

(2) البكري: المغرب، ص: 144.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص: 97.

(4) ابن خلدون: العبر ج. 6، ص: 237.

(5) ابن عذاري: البيان ج. 1، ص: 165. حوادث سنة 299 هـ.

## 5 - الاستجارة:

لم يكن امام القبائل الضعيفة الا ان تخضع وتقبل دفع المغارم بما فيه من امتنان لكرامتها أو أن تتمرد على واقعها، ولكن نظرا لعدم توفر القدرة للمقاومة، فكانت تلجأ الى الاستجارة بغيرها من القبائل.

وفي اغلب الاحيان، فان القبائل المجيرة كانت توافق على طلب الاستجارة، لان هذا مما يدعم صفوفها في مواجهة اعدائها، ولأن رفض الاستجارة يسيء الى سمعتها بين القبائل، لذا كانت تجبر غيرها مع علمها بما قد يلحقها من وخيم العواقب.

فقد أشرنا الى ان بعض القبائل كانت تطلب ثأرا من بني مسكن، فاستجار هؤلاء باهل مدينة وهران، فأجاروهم، وحين طلبت القبائل تسليمهم رفض اهل المدينة، ويبدو انهم كانوا عاجزين عن حمايتهم، فجعلوهم يهربون من المدينة، فخرج عنهم بنو مسكن ليلا وأستجاروا بازداجة فأجاروهم<sup>(1)</sup>، كما لاحظنا قبل قليل كيف ان بني وجديين قد استمدوا من ورائهم من زناتة فأمدوهم في حربهم مع لواتة.

## 6 - التحالف:

وقد يكون لقبيلة ما اطماع سياسية، فتسعى لتحقيق هذا الهدف الى اخضاع بعض القبائل الضعيفة لنفوذها عنوة، وتحملها على السير معها في مهمتها مثلما فعلت تلكاتة بزعامة زيري كما سبق وقد تجتمع هذه القبائل حول انتاء مشترك، كأن تنتمي الى مذهب معين مثل ما فعلت قبائل منطقة تاهرت حين اجتمعت فانتخبت الامام عبد الرحمن بن ارسم ومثل ما فعلت قبائل كتامة في احتضانها التشيع، أو تنتمي الى جد واحد، كما فعلت قبائل زناتة في تحالفها مع مغراوة في مواجهة جيش منصور بن ابي عامر<sup>(2)</sup>، أو كما فعلت قبائل صنهاجية

(1) البكري: المغرب ص: 70.

(2) أرسل المنصور في ابي عامر من الاندلس بقيادة ابنه عبد الملك المظفر لمحاربة زيري بن عطية المرغواوي، فأعذ هذا الأخير بطلب الامدادات من جميع قبائل زناتة فأثته جموعها من بلاد الزاب وبلاد تلمسان وملوية وسجلماسة، وسائر بوادي زناتة فقبض بهم الى قتال عبد الملك انظر ابن ابي زرع: روض القرطاس ص: 66 ابن خلدون المعرج، 2 ص: 45 مؤلف مجهول مفاخر البربر ص: 29 ابن الخطيب اعمال الاعلام ج. 3 ص: 158 السلاوي الاستنفاء ج. 1 صفحة 93.



في مواجهة زنادة نفسها ثم الم ينزل الامام عبد الرحمن بن رستم عند قراره من القمروان عند قبيلة لمية لتقديم حلف بينه وبينها(1).

على كل، كان الحلف المنتصر ينتهي به الامر الى اقامة دولة تفرض الضرائب على القبائل المغلوبة، وتستأثر قبائله بالامتيازات والمناصب الهامة والاموال، وتمتع كل قبيلة بشخصيتها واستقلالها الذاتي، فلها شيخها واشرافها، وهؤلاء يشاركون الرئيس في ادارته مثلما كان حال قبائل تاهرت المتحالفة مع الرستميين على ان امر اقامة دولة لم يكن امرا عميا ودائما، لان التحالف قد يتم بين قبيلتين ضعيفتين أو أكثر بقصد رد اطماع الغزاة.

## 7 — النظام الحربي:

لم تكن الحرب تتم خبط عشواء، بل كان لها نظام دقيق معين يتبعونه، فذكر ابن عذاري ان حشد ابي عبد الله الشيعي للكتامين كان بغير ديوان انما كان يكتب لرؤساء القبائل فيحشدون من يليهم طاعة له ورغبة فيه(2)، ومثله كان الرستميون، فلم يكن هؤلاء في الواقع جيش بمعنى الكلمة انما كان يعتمد على الحشد، ولكن هل كان اسلوب الحشد هذا هو الاسلوب الوحيد ام كان هناك جيش منظم دائم ؟ واذا وجد فهل كان طبقا ام يقيم في معسكرات خاصة ؟ وما نظامها ؟ هذا ما يتعلق بالدول أما القبائل فكان نظامها واضحا، اذ اشرنا الى ان مسؤولية الدفاع عن القبيلة جماعية يتحمل عبئها الرجال القادرون، فكلهم جنود يوم المعركة.

ومهما كان امر الجيش، فقد كان يسير بترتيب محكم، مقسما الى اربعة اجزاء، بين الجزء والذي يليه مسيرة يوم، وينطلق في سيره مع الفجر حتى منتصف النهار حيث يخيم الى صباح الغد، وكان الطبل يذق ثلاث مرات اعلانا بالرحيل، وكان لكل قبيلة رايتها، وتسير في المؤخرة الخيام واللوازم محمولة على

(1) ابن خلدون: المصدر السابق ج. 6. ص: 247.

(2) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 138.

البغال والجمال وتراقبها الاغنام الحية يسوقها رعاة لتتخذ مؤونة<sup>(1)</sup> ولكن الجيش بصفة عامة لا يأخذ معه مؤونته بل كان عليه ان يعتمد في معيشته على البلد الذي يمر فيه، صديقاً كان أو عدواً<sup>(2)</sup>، ويقول ابو عبد الله الشيعي، من البحر السريع.

سل عن خميس إذ طلعت به يوم الخميس ضحى على الفج<sup>(3)</sup> ويفهم من هذا انهم كانوا يقسمون الجيش الى خمسة اقسام الا انه في حصاره للاريس جعل ميمنة ومسيرة وقلبا، بينا احاط نفسه بعدد من الفوارس، وصعد كدية يرقب سير المعركة، وكان النظام متبعاً في تاهرت الرستمية، في حرب الامام عبد الوهاب لهوارة، فحين تراءى العسكران عباً الامام جيشه ورتب قواده وقسمهم الى ميمنة ومسيرة وقلب، بينا كان هو يرقب المعركة من على ظهر راحلته<sup>(4)</sup>.

الا أن القاضي النعمان يصف لنا نظامه الحربي، فيذكر تحت عنوان ذكر صفة القتال في كتابه «دعائم الاسلام» انه اذا تم الزحف، تبعاً الكتابات ويفرق بين القبائل ويجعل كل منها رجلاً يحمل الراية ويقسم الجيش الى ميمنة ومسيرة وقلب ويجعل على هذه الاقسام مقدمين بينا يملك القائد في الجيش.

يتقدم الرجالة والرماة فيرشقون بالنبل وتوضع الخيل الروابط والمنتجة ردءاً للواء والمقدمة وفيما اذا عزم الجيش على الحملة على عدوهم تقدم صاحب المقدمة، فان تضعضع دعمته شرطة الخميس، وان تضعضع هؤلاء حملت المنتجة ورشقت الرماة، في حين تقف الطلائع والمسالح في الاطراف والغياض والأكام لحماية الجيش من المكامن أو الكمائن.

الا ان الامر يختلف في حالة الدفاع، اذ عليهم ان يثبتوا في اماكنهم ويشرعوا الرماح، ثم يبرز في وجه المهاجمين أصحاب الجواشن والدروع، ويبدو

(1) Golvin: Le Maghreb Central P. 177.

(2) Ibid: Op Cit. P. 176.

(3) ابن الأثير: الخلة ج. 1. ص: 95. كلمة خميس في صدر البيت يقصد بها الجيش لانقسامه الى خمسة اقسام.

(4) ابن الصغير: تاريخ الائمة ص: 332 وعن حصار الاريس انظر: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 202.

ان هؤلاء كانوا لا يحاربون دفعة واحدة، واذا حمل عليهم الاعداء جثوا على الركب وأستروا بالتروس صفا محكما لا يخلل فيه، فاذا شاهدوا العدو ولى الادبار حملوا عليه بالسيوف، واذا انهزم ركبوا الخيل يطلبونه(1).

وقد نبه ابن خلدون الى اعتماد البربر والعرب على اسلوب الكر والفر في القتال ولكن كان لابد على اهل الصف ان يكونوا معتادين على الثبات في الزحف، فأحتاج ملوك المغرب ان يتخذوا جندا من هذه الامة المتعوده الثبت في الزحف وهم الافرنج(2)، ويعتبر هذا احد النوافع في اتخاذ العبيد في جيوش دول المغرب.

كانت المعركة تدور يوما واحدا، لذلك كانت تسمى عند العرب والبربر بالايام، الا انه اذا حدث ان رفضت قبيلة الاقرار بالهزيمة، فكانت المعركة تتواصل يوما آخر(3)، وهكذا الى ان يقر احد المتخاصمين بالهزيمة أو يصطالحا.

وكان الفوز بالغنائم يجذب الرجال الى خوض غمار الحرب، اذ للمقاتلين نصيب من الغنيمة، ويمكن ان ينال المقاتل حصة اكثر اذا اظهر بلاء حسنا في المعركة ثم ان الحرب تعتبر فرصته ليظهر شجاعته ورجولته فيكون مدعاة للفخر ونسج القصص، والروايات للتندر بها في ليالي سمرهم، بينما تشارك قبائل اخرى في المعركة كمرتزقة مقابل مبالغ مالية يوزعها الامام أو الامير، تختلف بين الفوارس والمشاة، فان الامام ابا حاتم لما خرج من تاهرت اجتمعت لواته كلها اليه، فاعطى الاموال وحمل على الخيل فاجتمعت قبائل الصحراء اليه(4).

وكانت للحرب آدابها، فلم يتعرض المقاتلون الى العجزة والضعفاء من الشيوخ والنساء والاطفال، فكان يأنف المقاتل من إبراز شجاعته على امرأة

(1) القاضي النعمان: دعائم الاسلام. ج. 1. ص: 372. للتجبة: مشتقة فعل (تجب) اصطفى واختار.

(2) ابن خلدون: المقدمة. ص: 271.274.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 113.

(4) ابن الصغور: المصدر السابق. ص: 359.

أو شيخ، ربما لهذا السبب، حين أراد ابو عبد الله الشيعي الانصراف من عند صاحبه الشيخ الكتامي صرفوه مع امرأة تدله على الطريق لان الحرب كانت بينهم — جماعة الشيخ الكتامي — وبين بني عمهم<sup>(1)</sup>، كما ان الاباضية لم يكونوا يتبعون موليا ولا يجهزون على جريح ولا يغمون الاموال التي يخلفها العدو، ويظهر هذا جليا اثر انهماج ابن طولون امام اباضية جبل نفوسة بقيادة ابي منصور الياس النفوسي بتحالف مع الاغلبة، فلم يمس الاباضية الغنائم، فاستولى عليها جيش الاغلبة<sup>(2)</sup>.

## 8 — الفروسية:

يميز ابن خلدون بين مجتمع المدينة ومجتمع البادية في موضوع الشجاعة، فانه يلصق الجبن بالمجتمع الاول لان افراده أوكلوا أمر المدافعة عن اموالهم وانفسهم الى واليهم والحاكم الذي يسوسهم، واذا كان هذا حالهم فلا يملكون في فروسيهم مستوى اهل البادية، الذين يصفهم ابن خلدون بالشجاعة ذلك لانهم قائمون بالمدافعة عن انفسهم لا يكلونها الى سواهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع الاغرا في المجالس وعلى الرحال<sup>(3)</sup>.

كما ان يثتهم وطبيعة معيشتهم كافتائهم المواشي تجعلهم يقضون وقتا اطول على ظهور الخيل، فيفتنون في الفروسية بل تكون جبلة فيهم فيبزون غيرهم ممن لاعهد له بركوب الخيل كأهل المدينة.

وهكذا كان امرا طبيعيا ان تشتهر بوادي المغرب الاوسط بالفروسية فيصف ابن عذاري قبائل زناته بأن «أكثرهم فرسانا يركبون الخيل<sup>(4)</sup>»، وهي نفس الصفة التي أوردها الادريسي بشأن قبائل زناته المنتشرة بين تاهرت وتلمسان، فذكر أن أكثر زناته فرسان يركبون الخيل ولهم عادة لا تؤمن<sup>(5)</sup>.

(1) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 136.

(2) الشماخي: السور ص: 255.

(3) ابن خلدون: المقدمة فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة.

(4) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 200.

(5) الادريسي: نزعة. ص: 88.

وكان بنو برزال من مشاهير فرسان بلاد المغرب حتى انهم نالوا إعجاب الحكم المستنصر بالله الاموي، فأستقدمهم اليه، وقد وقف يوما ينظر الى فرسان البربر حين تحركوا للعب فأبدى إعجابه بهم لمن حوله قائلا: انظروا الى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم فكأنهم الذين عناهم الشاعر بقوله: (من البحر الكامل). فكأنما ولدت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها ما أعجب انقيادها لهم كأنها تفهم كلامهم<sup>(1)</sup>.

ويتم سكان المغرب بالفروسية، فيربون ابناءهم عليها منذ نشأتهم ويحبونها اليهم، حتى كان اطفالهم يلعبونها بالعصي فكانوا يصطفون على صفين ويركبون عصيهم كأنهم فرسان.

## 9 - الشرف:

يعتبر الشرف صفة ملازمة للمجتمعات القبلية فالحفاظة عليه تعبير عن الحرص على اعلاء سمعة العائلة والقبيلة، وعلى صفاء دمها، وان البعض يعتبره من انانية الرجل، فهو يعتبر المرأة متاعا خاصا به ليس لأحد ان يشاركه بها.

كان الاعتداء على شرف المرأة يلحق عارا بالقبيلة لاستطيع احتماله، فتهب لغسله، فذكر ابن عذارى ان منيبا الداعي الاسماعيلي بجبل الونشريس اظهر التشريق بالجبل سنة 309هـ / 921م فكان الرجل المتشوق يدخل الى حليمة جاره فيطأها وزوجها حاضر ينظر اليه، ثم يخرج فيصق في وجهه ويصفع قفاه ويقول له تصبر فاذا صبر عد كامل الايمان وسمي من الصابرة<sup>(2)</sup>، وبغض النظر عن مدى صحة هذه الرواية فان الناس ومع خضوعهم للسلطة الفاطمية الا انهم لم يحتملوا هذا الامر فقام عليهم الناس وقتلوا بعضهم<sup>(3)</sup>، وقيامهم هذا هو تعبير عن حرص القبائل على شرفها حتى لو تعلق الامر بالسلطة الحاكمة ورفضهم التشريق.

(1) ابن حيان: المغنيس من ابناء اهل الاندلس طبعة بيروت ص: 193 ابن خلدون: العبر ج. 6. ص: 11.

(2) ابن عذارى: البيان ج. 1. ص: 185.

(3) نفس المكان.

وفي تاهرت لجأت امرأة الى القاضي تشكو امرها حين اختطف زكريا ابن الامام ابي اليقظان ابتها بعدما أعوزتها حيلة الانتقام، ولو كان أمر الزنا مشاعا لما قام أولئك الناس على المتشرقين فقتلهم ولما لجأت هذه المرأة الى القاضي. ويروي صاحب «كتاب الاستبصار» قصة ابنة احد اصدقاء حماد بن بلقين مؤسس الدولة الحمادية كانت من سبايا باغاية، وكان الجنود قد نالوا شهوتهم، وحدث ان تقدم والدها لصديقه حماد طالبا فك اسرها، فدعاها اليه، لكنها نجحت في تمرير حيلة على حماد ادت الى قتلها بحد السيف، ذلك لانها كرهت العيش بعد الذي جرى عليها<sup>(1)</sup>، ألا يدل هذا على أن الموت اهن من عار الزنا.

ولو حدث ان أقدمت امرأة على ارتكاب الزنا، لضعف في تربيتها أو في شخصيتها فان الزوج لم يكن يستطيع ان يحتمل خيانة زوجته بل ولا الاهل، فروى البكري قصة امرأة خائنة زوجها، فأخبر اهلها بالامر وحين استبانوا الرية فيها قتلوها، وقصة امرأة تزوجت زوجا ثانيا ثم قامت باستقبال زوجها السابق وهي ترتدي قميصا ينم عن خبايا جسمها، فلما رأى زوجها ذلك لم يتمالك غيرة ان قام اليها وطعنها طعنة كانت فيها نفسها<sup>(2)</sup>.

ان هذه الامثلة على محافظة قبائل المغرب على شرفها تجعلنا ننظر بعين الشك الى ما ذكره ابن حوقل، من ان أكثر بربر المغرب من سلجماسة الى بونة يبدلون انفسهم لأضيافهم على سبيل الاكرام ولا يحتشمون من ذلك، اذ ما دام هو لنفسه قد زار المنطقة فلماذا يعتمد على السماع فيقول: اني سمعت ابا علي بن ابي سعيد يقول: انه ليبلغ بهم فرط المحبة في اكرام الضيف ان يؤمر الصبي الجليل الاب، والاصل الخطير في نفسه بمضاجعة ضيفه ليقضي منه نهمه وينال منه الحرام<sup>(3)</sup>، فان هذا يضعف روايته، ويبدو ان الامر لا يزيد عن حادثة وقعت لابي علي المذكور مما لا يخلو منه مجتمع، واذا كان موقف الناس على ما ذكرنا من محافظتهم على شرفهم، فكيف تقبله اخت امير مثل يعلى بن محمد اليفرنى، فذكر ابن خلدون انها جاءت بولد من غير أب سموه

(1) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار: ص: 170.

(2) البكري: المغرب. ص: 185 — 187.

(3) ابن حوقل: صورة ص: 91 — 93. الادريسي: نزهة ص: 99.

كلام<sup>(1)</sup>، وقد يكون صحيحا اثر هزيمة يعلى امام الفاطميين ومقتله، فمن المحتمل ان اخته كانت اسيرة.

## 10 - الكرم:

يرى بعض الباحثين ان ظاهرة الكرم نعم المجتمع الريفي على فقره وبساطته اكثر من المجتمع الحضري على غناه وتحضره<sup>(2)</sup>، وربما كان من بين أسباب وجود الكرم عند المجتمعات القبلية ضعف وسائل القبيلة في حفظ ما تجمع من طعام لفترات طويلة لاتيح للمسافر ان يكفيه من المؤونة طيلة رحلته ونظرا لحاجة المسافر عندئذ الماسة الى من يقره ونظرا لاهمية هذه الصفة، فقد احتلت مكانة بين الصفات حتى كانت من مفاخر الفرد والقبيلة.

على ان هناك دوافع اخرى للكرم، كأن يتخذ مطبة لتحقيق هدف سياسي أو اجتماعي، فقد كان محمد بن عرفة في تاهرت جوادا سمحا كما سلف فكان اذا سار مشى بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره ام من الامم، وكان الامام ابو حاتم يجمع الفتيان الى نفسه فيطعم ويكسو حتى جذب العامة اليه وقدموه على تاهرت.

ويظهر اتصاف سكان بلاد المغرب الاوسط بالكرم وحرصهم عليه من خلال عبارات ذكرها القاضي النعمان خاصة بقبائل كتامة، فذكر ان حجاج كتامة الذين صحبهم الشيعي ابو عبد الله اشترى شاة وهياؤها له طعاما، ثم اتوه به فقال: ما هذا؟ قالوا: ستننا في الضيف وانت ضيف فينا وحين هاجر باتباعه من الكتامين الى سماتة وأستضافهم السمائيون فذبح كل واحد شاة لضيفه واحتفل في بره واکرامه<sup>(3)</sup>.

ويذكر ابن الاثير وهو يتكلم عن زيري بن مناد ان اياه كان حسن الضيافة لمن يمر به بل انه بنى مسجدا كان يأوي اليه الغرباء، وكلما رأى مسافرا استضافه، وعند ذهابه زوده بأسباب العيش والملابس.

(1) ابن خلدون: المبرج. 6. ص: 211.

(2) الفوال: علم الاجتماع. ص: 251.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 69. انظر ص: 63. من نفس المصدر.

وكان ابو جعفر احمد بن خيران اباضي من الطبقة التاسعة يؤخر عشاءه فاذا صلى نادى في المسجد أهائنا ضيف؟ ألا لا يبيتن احد دون عشاء، ثم لا يفته ذلك حتى ينتظر انصراف الناس، فاذا انصرفوا طاف على زوايا المسجد بمكازه يفتش هل من طارق؟ هل من ابن سيل؟<sup>(1)</sup>.

والكرم صفة حميدة تعم بلاد المغرب الاسلامي قاطبة فابن حوقل يذكر ان اكثر بربر المغرب من سبجلماسة الى السوس واغمات وفاس الى نواحي تاهرت والى تنس والمسيلة وبسكرة وطبنة وبهاغاي الى اكربال وازفون ونواحي بونة الى مدينة قسنطينة الهواء وكثامة ومسيلة وسطيف يضيفون المارة ويطعمون الطعام<sup>(2)</sup>.

ويبدو ان آدابهم في اكرام الضيف ان يتناول المضيف الطعام مع الضيف حتى اذا ما انتهيا رفع ما تبقى من الطعام الى باقي افراد العائلة<sup>(3)</sup>، بل ربما كان الضيف ينفرد بالاكل في حين يقف صاحب الدار لخدمته، بدليل ما كان يفعله زيري بن مناد السابق الذكر في صغره حين كان يدخل واصدقاؤه الى داره حيث يطعمهم واثناء الغداء كان يقف وراءهم ولا يأكل شيئا<sup>(4)</sup>، فكان لسان حالهم يقول: من البحر الطويل.

واني لعبد الضيف مادام نازلا ومالي سواها شيمة تشبه العبداء لكن الامر يختلف عما تقدم بالنسبة لسكان المدينة، حتى ان ابن خلدون عقد فصلا في مقدمته جعله بعنوان: في ان اهل البلد اقرب الى الخير من اهل الحضر، ويعطي البكري صورة عن مجتمع المدينة، وهو ان تعرض الى مجتمع مدينة تنس، الا انه يمكن ان ينطبق على مجتمع المدينة بصفة عامة للتشابه الكبير في طبيعة تكوين مجتمعات المدن يقول البكري بشأن اهل تنس نقلا عن احد الشعراء: (من بحر الرمل).

ايها السائل عن ارض تنس      مقعد اللوم المصفى والدنس  
بلدة لا ينزل القطر بها      للندى في اهلها حرف درس  
فصحاء النطق في لايسدا      وهم في نعم بكم خرس<sup>(5)</sup>

(1) الدرجيني: طبقات. ج. 2. ص: 404.

(2) ابن حوقل: صورة ص: 91. الأدرسي: صفة ص: 99.

(3) الفاضلي عياض: تراجم. ص: 168.

(4) بورويبة: الدولة الحمادية، ص: 9. نقلا عن النويري.

(5) البكري: المغرب. ص: 62. 63. الحموي: معجم البلدان ج. 2 ص: 415 وجاء عجز البيت

الاول في كتاب الاستبصار بلد اللوم لعمرى والدنس.



يتصف المغاربة بالغضب فبصفهم ابن عبدون بانهم «إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا»<sup>(1)</sup> ويؤكد ابن الفقيه هذه الصفة فيذكر ان الحدة عشرة اجزاء تسعة منها في البربر وجزء في الناس<sup>(2)</sup>، ويبدو أن هذه الصفة ملازمة للبداءة تتولد من المعيشة في الارياف، لما يتبع هذا من سعة خيال وارهاف حسي، بالإضافة الى الشجاعة، ولما كانت نفس البدوي عامة ترفض الخضوع وتحب الحرية، فانها تكون متمردة واذا اجتمعت هذه الصفات خلقت منه رجلا غضوباً.

وما صفة النار التي سبقت الإشارة اليها الا وجه من وجوه الغضب، فحين اقدمت المرأة المذكورة على خيانة زوجها لم يتألك غيره ان قام اليها وطعنها فهو لم يعد يملك زمام نفسه، وحين اقدم الزوج على طعن زوجته كما سبق امام اهلها لم يضبط هؤلاء اعصابهم فاقدموها على قتله، مع انه لم يقم الا بما كانوا سيقومون به انفسهم.

ويرتبط بصفة الغضب هذه صفات اخرى كالخشونة والجلالة، وهذه من صفات البربر حتى انهم اذا رأوا شخصا يظهر الظرافة قالوا عنه تمشرق وانظر قول الامام افلح بشأن القاضي محكم الهواري من انه رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه.

## 12 - حسن الجوار:

اورد القاضي عياض قصة تدل على وجود رابطة الجوار بين الاسر في بلاد المغرب، وهي وان كانت تتعلق بالقيروان الا انها تنطبق على مجتمع بلاد المغرب عامة لتشابه تكوينها الحضاري، ذلك انه نزل ضيف على صديق له فقير، فلما جلسا لتناول العشاء سمع طرقا بالباب، فخرج الرجل، واذا به يعود بصحفة تريد عليها لحم خروف سمين، ثم سمع طرقا ثانية فخرج وعاد بطبق فيه صحفة زيت وتين فاخر فاستغرب الضيف من ذلك فسأل صديقه عن هذا الطعام، فأجابه: اتاني به جاري<sup>(3)</sup>.

(1) ابن عبدون: رسالة ص: 218. القاضي عياض ازهار الرياض ج. 3 ص: 89.

(2) ابن الفقيه: البلدان ص: 81.

(3) القاضي عياض: تراجم ص: 169.

وحين ارسل صاحب ميلة الى بني سكتان من كتامة يطلب منهم تسليمه ابا عبيد الله الشيعي قالوا: ما كنا بمن يسلمه ولا بخذله ولا يدع يد احد تمتد اليه وهو ضيفنا وبين اظهرنا(1).

وحسن الجوار صفة طبيعية في المجتمع الاسلامي، نظرا لشدة الحاج الرسول (ص) على احترام حقوق الجار وأحاديثه في ذلك كثيرة ومعروفة.

من جهة اخرى فان الجيران ينتمون الى عشيرة أو قبيلة واحدة، فهم مرتبطون ببعضهم برباط الدم اضافة الى رابطة الجوار، فتكافل بعضهم امر طبيعي.

### 13 - الأمانة:

حض الاسلام على الامانة، فقال تعالى: «ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها(2)»، وهي صفة ملازمة للمغاربة، لان البداوة غالبية عليهم، وبالتالي فهم لا يعرفون المداورة والتحايل، وقول الامام افلح بخصوص القاضي محكم الهواري، السالف الذكر دليل على هذا، فهم صرحاء مع انفسهم ومع الآخرين كذلك فان حرص البدوي على سمعته يفرض عليه ان يحافظ على الامانة تجنباً وهروباً من الاتصاف بالخيانة، وقد وصف القاضي النعمان المغاربة وقد عاشرهم بأنهم «يؤدون ماآتمنوا عليه مع فقر مدقع وحاجة شديدة»(3).

### 14 - القيافة:

هي من صفات اهل البادية، يكتسبونها بالممارسة ودقة الملاحظة حتى يبلغ بهم الامر، اذا رأوا آثار أقدام عرفوا صاحبها، وتتجلى هذه الصفة في حادثة مقتل محمد بن عرفة من قبل الامام ابي بكر كما سلف ذلك انه لما طلع الفجر وارتقى النهار ولم يعثروا عليه خرج الناس مفتفين أثره ومفتقدين خبره حتى اتوا الموضع الذي كان فيه مصرعه(4).

(1) القاضي النعمان: من: 77. 78. 96.

(2) نفس السورة: الآية 58.

(3) القاضي النعمان: كتاب الحمة: من: 44.

(4) ابن الصغير: سيرة الائمة: من: 344.

حض الاسلام على النظافة وطبيعي ان يكون المسلم نظيفاً مادام يتوضأ يومياً أكثر من مرة على الأقل، وينظف من حين الى آخر وقد لاقت هذه الصفة إقبالا من السكان، دلت عليه الحمامات المنتشرة في كل مدينة عظم قدرها أو صغر، وذكر محمد بن يوسف الوراق ان بتاهرت حمامات كثيرة يسمى منها اثني عشر حماماً<sup>(1)</sup> وكذلك في إفكان والغزة وسوق ابراهيم وجراوة الى العيش وارشكول وغيرها، هذا بالاضافة الى الحمامات الخاصة التي تقام في المنازل.

وقد كان من النظافة ان يقص الشعر وتقليم الاظفار وبتف شعر الابطون وتؤخذ الزينة، يستدل على هذا من خلال قيام رجل يدعي النبوة في تلمسان سنة 237هـ / 851م بوضع شرائع تنهى عن الاتيان بتلك الاعمال بدعوى انه لا تغير لخلق الله<sup>(2)</sup>.

وكان للمحتسبين دورهم في المحافظة على النظافة، فان الامام ابا اليقظان قد امر قومًا من نفوسة بمشون في الاسواق فإن رأوا قدرا في الطريق امروا من حول الموضوع ان يكتسه<sup>(3)</sup>.

## 16 - تقبيل اليد:

ذكر القاضي النعمان ان الشيعة كانوا إذا دعا احدهم الآخر دون ان يعرف اسمه قال: «يا أخانا» وإذا التقيا تصافحا وتعانقا وقبل كل واحد يد صاحبه لا يأنف ذلك شريفهم عن مشروفهم<sup>(4)</sup> ويبدو ان عادة تقبيل اليد لم تكن خاصة بالشيعة، اذ يخبرنا القاضي عياض ان حفصا بن عمار «خر بهلول بن راشد على يده يقبلها» في القيروان والأرجح ان هذه العادة عامة، وفي المجتمعات القبلية على وجه الخصوص، لان طاعة الرأس تعني الخضوع والطاعة كناية عن الاحترام.

(1) البكري: المغرب. ص: 68.

(2) ابن أبي زرع: روض القرطاس. ص: 60.

(3) ابن الصغير: المصدر السابق. ص: 350.

(4) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 126.

## 17 - الطالع والتنجيم:

يبدو ان سكان بلاد المغرب الاوسط كانوا يعتقدون بالطالع، فيدعوهم الى التشاؤم أو التفاؤل، من ذلك ما قاله الشاعر سعيد بن واشكل التبرتي السابق الذكر في ذم مدينة تنس: (من البحر الطويل).

هو الدهر والسياف والماء حاكم وطالعها المنحوس صمصامة الدهر واشتهر البيت الرستمي بالتنجيم فكان الامام عبد الوهاب عارفا بهذا العلم حتى قال: «معاذ الله ان تكون عندنا امة لاتعلم اين بات القمر(1)»، وكان الامام يعقوب بن افلح منجما، فنظر يوما الى جماعته بعد هزيمة امام الفاطميين فقال: «لايجتمع منكم ثلاثة الا طلبوا فقد ذهب ملككم».

وكان العلم بالتنجيم يرفع من مكانة صاحبه في نظر العامة اذ يستطيع ان يخبرهم بحوادث قبل وقوعها، فيعظم امره بينهم.

ويبدو ان الفاطميين قد اهتموا به، فان المعز الفاطمي «كان مغرما بالنجوم ويعمل باقوال المنجمين» وكان جوهر الصقلي قائده لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة جمع المنجمين وامرهم ان يختاروا طالعا لحفر الاساس وطالعا لرمي حجارته(2).

## 18 - خط الرمل:

باب من ابواب العرافة، اذ يستطيع العامل به ان يخبر بأشياء تحصل في المستقبل فيكون الامر كما قال أو شبيها، وهذا الامر ونحوه يجري على الجهلة من الناس، فقد افاد المراكشي ان ابن تومرت كان أوحد عصره في علم الرمل(3)، ولا شك انه لم يكن وحيد عصره في هذا المجال.

(1) الشماخي: السير. ص: 162.

(2) أبو الفداء: مختصر ج. 1 ص: 145. تفري بردي: النجوم الزاهرة ج. 4. ص: 41. حوادث سنة 358.

(3) المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب. ط. القاهرة. 1949 م ص: 180.

## 19 علم الكف:

اشتهرت زناتة على وجه الخصوص بهذا العلم، حتى ان الادريسي يصفهم بان «لهم معرفة وحذاق وكياسة، ويذا جيدة في علم الكتف، ولا يدري ان احدا من الالم اعلم من زناتة بعلم الكتف»<sup>(1)</sup>.

ويمكن ان تقدم تعريفا لهذا النوع من العرافة بما ينقله بوروية عن النويري بخصوص مناد بن منقوش الصنهاجي السابق الذكر فقد رأى هذا يوما غريبا في المسجد فضيفه واطعمه وعندما انتهى الضيف من الاكل اخذ يتأمل عظم كتف الكباش الذي كان مناد ذبحه<sup>(2)</sup>، ثم اخبره ان زوجته — زوجة مناد — الحامل ستلد له ابنا يملك المغرب وابناء بعده، فكان زيري هو المولود الجديد.

## 20 — القرعة:

تقوم القرعة على الحظ وهذا ما يجعل الانسان يرضى بالامر الواقع، ويضع حدا لتردده، وقد اشار البكري الى وجود القرعة في مدينة مليلة في المغرب الاقصى التي يسكنها بنو ورتيدي، فقد كانوا يقترحون على من يدخل عندهم من التجار فمن اصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يده<sup>(3)</sup>، ووجودها في مليلة يجعلها ليست غريبة عن مجتمع بلاد المغرب الاوسط.

## 21 — الخرافات:

تنتشر الخرافات في المجتمعات التي يسودها الجهل، فهي حين تقف امام ظاهرة عاجزة عن تفسيرها علميا، تلجأ لردها ونسبتها الى الغيبيات، ومن ذلك ماروي من ان الشيخ ابا يعقوب يوسف التفريسي — من سكان تلمسان — كان يقريء الانس والجن بمسجده والناس يسمعون صوت الجان، وحدث ان دخل عليه يوما حنش عظيم، ففر الحاضرون، ثم كتب الشيخ ورقة ووضعها في فم الحنش، فتمرغ

(1) الادريسي: صفة. ص: 88.

(2) بوروية رشيد: النبوة الحمادية. ص: 7 — 8.

(3) البكري: المغرب. ص: 88.

بين يديه، ثم قفل راجعا بالورقة، فسئل عن فعله فأجاب هذا رسول بعثته قبيلة من الجن من ارض العراق بهذا السؤال<sup>(1)</sup>.

ومنها ماروي عن ظهور نيران الجن في صحراء صنهاجة قرب فميج وبسمع عزفهم وغناءهم وهم يحتطفون الناس ويحملونهم معهم وربما بفلت الانس من بينهم ويرجع الى اهله.

ويروي البكري عن بني ورسيفان انهم اذا ارادوا مباشرة الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماربخ وهم عندهم الشياطين، ويقولون هذا ذبح الشماربخ، ويفتحون اوعية الطعام لها، فاذا غلوا للقتال، توقفوا حتى يروا الزوابع، فيحملوا على عدوهم ظنا منهم ان الشماربخ جاءت لنصرتهم، وكأن هذه الشماربخ قد سيطرت على حياتهم اليومية، حتى انهم اذا نزل عليهم ضيف، جعلوا من طعامه للشماربخ، ويزعمون انهم يأكلون ما يوضع لهم<sup>(2)</sup>.

ويضيف البكري من الخرافات ما يروى عن وجود عين ماء في مرسى سبية بين بجاية وجيجل تعرف بعين الاوقات، اذ ان ماءها يجري خمس مرات في اليوم واللييلة في اوقات الصلوات، وينقطع بين ذلك.

ويبدو ان اعتقادهم هذا بالخرافات قد ولد فيهم خرافة جديدة، فراحوا يعلقون التمام من عين الحسد، وقد اشتهر سكان مرسى الخرز بها، حتى لا يكاد يخلو عنق احد منهم من تميمة<sup>(3)</sup>.

ناهيك عما يلصق برجال الدين والصالحين من كرامات ويعزى اليهم من خوارق.

(1) ابن خلدون ابو زكريا: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تحقيق الفريد بل، الجزائر 1093 م ص: 35.

(2) البكري: المغرب. ص: 189.

(3) نفس المصدر: ص: 55. وانظر: القاضي عياض، تراجم ص: 200.

## الولاية والبراءة:

تعني الولاية «القرب والقيام للغير بالامر والنصر والاهتمام بالحفظ والاتصال»<sup>(1)</sup>، وهي ولاية الله لعباده بتوفيقه اياهم ونصرتهم.

ويرى بعض الاباضية ان الولاية فرض لقوله تعالى: ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض<sup>(2)</sup>.

وكما هي عند الاباضية كذلك عند الشيعة الاسماعيلية، فهؤلاء يعتبرونها من دعائم الاسلام بل هي افضل هذه الدعائم، وهم يرون انه اذا أطاع المؤمن الله تعالى وافر برسالة الرسول الكريم، وقام باركان الذين كلها ثم عصى الامام أو كذب به فهو آثم في معصيته وغير مقبولة منه طاعة الله وطاعة الرسول<sup>(3)</sup>، وكأن نظام الولاية قصد بوضعه حمل الناس على التزام تمسكهم وانقيادهم للامام، وقد كان الامام عبد الرحمن بن رستم يؤثر اهل الفاقة من مذهبه، كما كانت كثامة تكرم كل من هو على مذهبها كما سلف.

والى جانب الولاية هناك البراءة وهي فرض كذلك لقوله تعالى: «قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما نعبدون من دون الله»<sup>(4)</sup>، ويعتبرهما — الولاية والبراءة — الاباضية جزءاً من الايمان فيذكر ابو الربيع سليمان بن يخلف ق 5هـ «اعلم ان الولاية والبراءة من الايمان لايسع الناس جهلهما ولا تركهما وهما فريضتان على العباد»<sup>(5)</sup>.

ونكون البراءة اذا ثبت قطعاً ان فلاناً عصى احكام الله في العقيدة أو الشريعة، وبلغ امره الى مجلس الاباضية كمجلس العزابة<sup>(6)</sup>، فينخلع عن الجماعة ولم يعد له حقوق أو واجبات، ويذاع بين الناس انه لم يعد على طريقها.

(1) الحميري: نظام العزابة. ص: 99.

(2) سورة الانفال. الآية 72.

(3) مصطفى غالب: اعلام الاسماعيلية بيروت 1964م ص: 29 — 30.

(4) سورة المتحنة: الآية. 4.

(5) الحميري: المرجع السابق. ص: 104.

(6) عن العزابة انظر: ابو عمار عبد الكافي رسالة العزابة مخطوط عوض محمد خليفات: النظم الاجتماعية والتربية عند الاباضية في شمال افريقية ط 1 عمان 2982 ص: 31 — 61.

وكانت الولاية والبراءة معمولاً بهما عهد الأئمة الرسميين فذكروا في جوابات الإمام الرستمي عبد الوهاب أو إفلح، انه لا يبرأ من مسلم وان شهد الشهود على براءته حتى يكون حاضراً فيدافع عن نفسه، وكان محمود بن الوليد في تاهرت تذكر عنه البراءة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

بل ان الولاية والبراءة موجودة في مجتمع القبيلة فمادام الشخص مؤدياً واجباته تجاه قبيلته نال منها حقوقه من رعاية وحماية، وإذا اخل بواجباته تجاهها فقصر في الدفاع عنها أو أساء الى سمعتها مثلاً، برئت القبيلة منه وطردته، فهم على وجهه صعلوكا الى أن يرتبط بأخرى.

### الزواج:

لانتكاد عادة الزواج في بلاد المغرب الاسلامي، في القرون الاسلامية الاولى يختلف عما عليه الآن، فاذا وقع اختيار شاب على فتاة ورضيها زوجة له، ارسل وفداً خاصاً لخطبتها من ولي امرها ولنا في القيروان مثال: فقد ارسل احمد بن لبدة ن 261 هـ / 874 م ابا داود العطار الى سحنون بخطب ابنته خديجة (1).

ويبدو ان الامر هذا يختلف قليلاً بالنسبة لكبار رجال الدولة، فحين عزم الامام عبد الوهاب خطبة بنت لواتية ارسل الى والدها فأحضره فأجلسه وخطب اليه ابنته فزوجها اياها (2).

لكنها لم تكن عادة عامة، فكثيراً ما يتبادل الشاب والفتاة الغرام قبل الخطبة، بل ان الشاب كان يتبع الفتاة التي نالت إعجابه في الشارع، فقد كان لاسماعيل بن عبيد الانصاري — تاجر الله — في القيروان جارية وكان لها جار يتبعها اذا خرجت فشكت ذلك الى مولاها، فأرسل اليه وقال له: ما حملك على هذا التعرض الى جاريتي؟ فقال الرجل: سلها هل كلمتها؟ فسألها فقالت: صدق فقال: ما حملك على اتباعها؟ قال: المحبة لها (3).

(1) القاضي عياض: تراجم اغلبية. ص: 189.

(2) ابن الصغور: سورة الأئمة. 331.

(3) الدباغ: معالم الإيمان: ج. 1. ص: 193 — 194. وجاء في كتاب تراجم اغلبية: كان شاب جميل

حسن البشرة يمشي في الرصبة. انظر: ص: 298.



لم تكن هذه الحادثة خاصة بهذا الشاب بل هي وليدة بيئة المدينة التي يعيش فيها، بما فيها من اختلاط سكاني ونعيم وترف، حتى ان ابن خلدون يصف مجتمع المدينة بانهم ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في احوالهم وهذا يجعل من المحتمل انتشار تلك العادة في كافة مدن بلاد المغرب الاوسط.

وكان الشاب يراعي عند اختيار شريكة حياته ان تكون بمستواه الاجتماعي والاقتصادي فيطلبها على قدر ذات يده في مؤونتها وقناعتها حتى يبق في يده ما يستغني به<sup>(1)</sup>، واذا تم الاتفاق، حددوا يوما لاجراء الملاك — عقد القران — يحضره عدد من المدعوين، وقد افادنا المقدسي بحضوره املاكا، ومثله فعل ابن زرياب كاتب القاضي عيسى بن مسكين توفي 295هـ / 908م، وكانت هذه العملية تكلف الشاب مبلغا ماليا وربما كان ينفقه على اعداد وليمة وتقديم بعض الهدايا للخطيبة.

ويقوم اصحاب الوثائق بكتابة عقد النكاح ويسجل فيه شرط كل من الخطابين، ثم يشهد على هذا الشهود، وذكر المقدسي قائلا: امرني ابو الطيب حمدان ان اكتب شهادتي ويرجع هذا الى حض القرآن على كتابة العهود والمواثيق والى توفر الكتاب في المدن.

الا ان الامر يختلف في القرى والارياف والقبائل الطاعنة، فيبدو انهم كانوا يكتفون بقراءة الفاتحة بحضور الشهود، دون كتابة شيء ما، ويظهر هذا من قصة رواها البكري بشأن شيخ خرج رفقة امرأته الشابة الى قلعة بني حماد، فصحبة فتي، أوقع المرأة في غرامه فاتفقا على ان يدعي كل منهما زوجية الآخر ويسقط الشيخ<sup>(2)</sup>، وحين شكها الشيخ امره الى حماد — مؤسس الدولة الحمادية —، لم يجد وسيلة لاثبات زوجيته لها الا اللجوء الى كلب كان يرافقهما، وما كان حماد ليلجأ الى هذه الوسيلة لو كان هناك عقد نكاح بل ما كانت المرأة والشاب ليقدما على الامر.

(1) القاضي عياض: تراجم. ص: 96.

(2) البكري: المغرب. ص: 184.

ولم يحدد الاسلام صداق المرأة وان كان لا يمنع ان يكون خاتما من حديد، الا أن الناس كانوا يبالغون في الصداق، ولا نجد ما يكشف عن مبلغه في بلاد المغرب الاوسط في تلك الفترة، فمن الممكن ان يقدم بعض رجال الدين على زواج بناتهم من فقراء بمساعدات مالية منهم، وهناك من يدفع مئات الدينانير صداقا، اما كبار الشخصيات فيبالغون في دفع المهور، فذكر ابو اسحق الرقيق القيرواني صداق ام العلو اخت المعز بن باديس الزيري عند زواجها من عبد الله بن حماد انه حمل في عشرة أحمال على عشرة بغال على كل حمل جارية حسناء وجملته مائة الف دينار عينا(1)، وكان جهازها.

وكان العروسان يشتركان في التجهيز، فقد شكى رجل لابن طالب(2)، — قاضي القيروان — انه يتعذر عليه ان يجهز ابنته عند زواجها، فما كان من القاضي الا ان مال الى ابنته فاخذ ما كان عندها من حلي وملابس فقدمها للرجل ليجهر ابنته.

كذلك فان اسماعيل — تاجر الله — جهز جاريته ووهبها للشباب الذي كان يتبعها — السابق الذكر — واعطاه ثلاثين دينارا، من ناحية اخرى، فان الشاب الذي خانته زوجته فقتلها — كما سبق — قد تخلص من عشيرة امرأته وأسترجع جميع حقه وهو صداقها وما تكلف لها عند املاكها(3).

واذا كان الزواج سنة الله في خلقه، تدفع الانسان اليه غريزته الجنسية وحب البقاء، فقد كانت له دوافع اخرى واعتبارات ذاتية، كتوفر الجمال أو الغراء أو الجاه، والا فكيف تقبل الزوجة الشابة الزواج بشيخ طاعن في السن كما سلف الا أن يكون طمعا بماله أو جاهه، ثم هل تم زواجها به بمحض ارادتها واختيارها، ذلك امر مستبعد، الا ان يكون الامر مفروضا عليها، كما ان هناك

(1) بورويعة: الدولة الحمادية: ص: 38. وعن نوازل النكاح بصفة عامة انظر: الوئرشيس المعيار العرب. ج. 3.

(2) هو ابو العباس عبد الله بن احمد بن طالب عنه انظر: ابو العرب: ابو طيفقات علماء افريقية وتونس ص: 240. 241. المالكي: رياض النفوس ج. 1. ص: 376. الدباغ: معالم الايمان ج. 2. ص: 105.

(3) البكري: المصدر السابق. ص: 185.

زواجا سياسيا كزواج الامام عبد الوهاب من الفتاة اللواتية أو زواج اروي بنت الامام عبد الرحمن بن رستم بمردار بن البسج في سجلماسة.

وقد سمح الاسلام للرجل بالزواج من اربع نساء مع اشتراط العدل بينهما، هذا بالاضافة الى ما ملكت ايمانكم من الجوارى وقد انتشرت عادة تعدد الزوجات في بلاد المغرب الاوسط، فقد اقدم الامام عبد الوهاب نفسه على الزواج ثانية من اللواتية، وكان لمناد بن منقوش والد زيري عدة زوجات، ويظهر تعدد الزوجات كذلك في نصيحة المعز لدين الله الفاطمي لعدد من شيوخ كتامة: «بأن الزموا الواحدة التي تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثير منهن والرغبة فيهن فيتنفص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنها ابدانكم وقد تذهب قوتكم فحسب الرجل الواحد الواحدة(1)».

### مكانة المرأة:

احتلت المرأة مكانة محترمة في مجتمع بلاد المغرب الاوسط، سواء في البادية أم في المدينة فكانت المرأة داخل القبيلة تتمتع بحرية واسعة، ولها نفوذ معتبر، فكانت تشارك في جلسات بحث القضايا القبلية، كتنظيم الرحيل واختيار الزمان والمكان لنصب الخيام(2).

ولم تظل المرأة عالة على المجتمع وخادمة للرجل في منزله، بل كانت تشارك في الانتاج، فبالاضافة الى قيامها بالاعمال المنزلية، كانت تقوم باعمال يدوية كالغزل والنسيج وباعمال فلاحية فذكر الدرجيني ان امرأة نفوسية وجدت في الحرث مع مهدي النفوسي زوجها وهي تنقل التراب على رأسها لاصلاح الجسور(3).

وكانت المرأة تشهد مجالس العلم والادب، فقد بات الامام عبد الوهاب مع اخت له يتعلمان مسائل الفرائض فلم يطلع عليهما الفجر الا وهما قد تعلماهما جميعا، وكانت نساء كتامة يشهدن المجالس ويسمعن الحكمة عند ابي عبد الله الشيعي.

(1) ابن ابي الضياف: الخاف اهل الزمان ج. 1. ص: 160.

(2) Golvin: Le Maghreb Central P. 178.

(3) الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 65.

وكان للمرأة دور انساني اجتماعي، فذكر عن امرأة كنامية من اتباع ابي عبد الله الشيعي انها «كان لها مال فأنفقته في الجهاد وكانت تصنع بيدها الطعام للمجاهدين وضعماء المؤمنين حتى ان يديها كانتا تدميان من الطحن وعلاج الطعام لهم(1)»، ويضيف القاضي النعمان ان النساء «كن كذلك يخدمن ويعالجن» المرضى ويواسين الجرحى على نيات وبصائر لما كن يسمعن من الذكر والحكمة وقومن عليه من الادب والسياسة(2)».

ولم تقدم المصادر التي بين ايدينا صورة عن دورها السياسي، الا ان الامر لا يخلو من ظهور عدد ممن كان لهم شأن في هذا الميدان، فهذا الامام ابو اليقظان يحذر زوجته قائلا: احذري ياغزالة فقد اصبح اليوم ابنك باغبا وهذا التحذير يدل على انها تشارك في الحياة السياسية، ولا عجب في هذا مادامت دوسر ابنة الامام ابي حاتم قد خرجت الى ابي عبد الله الشيعي، تفاوضه في امر اعلانها الولاء له أو أمر تعيين اخيها واليا على تاهرت من قبله، وهذه الشخصية التي نخلت بها نسم عن انها كانت تلعب دورا سياسيا في تاهرت(3).

### الولائم:

اعتاد سكان بلا المغرب الاوسط ان يقوموا بالولائم في مناسبات مختلفة منها:

### الوفاة:

فكانت عائلة المتوفي تقوم باعداد وليمة يدعى لها الناس لتناول الطعام صدقة على روح المتوفي، وللترحم عليها، فقد توفي كنامي فجاء بنوعمه بعزرون اخاه فيه «فذبحت البقر وصنع طعاما لبني عمه ونعى لهم اخاه(4)».

### ب - مولود:

فكان الرجل الذي يولد له طفل يقيم وليمة «في يوم سابعة يذبح عنه شاة عن الذكر والانثى يعطي القابلة ربعها ويقطع بافها اعضاءا ويطلعهم للجيران(5)».

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 133.

(2) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 133.

(3) عنها انظر: ابو زكريا سيرة الائمة ص: 112. الدرجيني طبقات ج. 1. ص: 94 الباروني الازهار ج. 2. وعن دور المرأة عامة انظر: واضح الصمد: الصناعات والحرف عند العرب ص: 315 - 348. ويلاحظ دورها في الارضاع، التطبيب، التجميل، الكهانة الخياطة، خدمة البيت، التجارة، الطحن والحز، البغاء، والموسيقى، الرعي، جمع الكمامة.

(4) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 128.

(5) القاضي النعمان: كتاب الاقتصاد. ص: 107.

وكان والد الطفل يقوم باعداد وليمة ثانية بمناسبة ختان طفله وربما كانت هذه المناسبة كغيرها من المناسبات تعتمد على حالة الرجل المادية<sup>(1)</sup>.

الزواج: وكانت الولائم تقام بمناسبة زواج، اذ كان يدعى الى العرس الأقارب والاصدقاء فيتناولون طعاما في هذه المناسبة في تلك الليلة<sup>(2)</sup>.

## هـ - النذر (الوعدة):

فكان من عادة الناس أن ينذروا على أنفسهم اقامة وليمة اذا تحقق ما يتمنون، كشفاء مريض أو عودة غائب، ونحو ذلك، وكان الناذر يحدد مسبقا الجهة التي تقدم اليها الوليمة كأن تكون للفقراء خاصة أو وقفا لمسجد، أو صدقة على روح ولي صالح، من ذلك ما ذكر في كتاب «معالم الايمان» بشأن رجل كان يقيم الى جانب قبر ابن لبابة في قابس فكان «يصح له من وعدات الناس ما يكفيه هو وعياله برفاهية<sup>(3)</sup>»، فربما كانت تقدم بعض هذه الوعدات للرجل جمع رباط — المنتشرة في أنحاء البلاد وكانت عادة الناس في هذه الولائم ضرب البوق والكمر — طبل أو ضرب مزهر — دف — أو ضرب عود أو طنبور وفي بعض الأحيان تقدم المشروبات<sup>(4)</sup>.

## تشجيع العلم:

لم يتوقف الاهتمام بالعلم على الأمراء مثلما فعل الامام عيد الوهاب، ولا على كبار الأثرياء الذين كانوا ينفقون الأموال الطائلة في طلب العلم، ويتحملون

(1) أشار ابن رشيقي الى اعداد وليمة بمناسبة الختان. انظر: النموذج الرمان. ص: 368.

(2) حسن حسني عيد الوهاب: ورفات ج. 2. ص: 188.

(3) الدباغ: معالم الايمان. ج. 1 ص: 12 — 13.

(4) مثل يحيى بن عمر عن الرجل يدعى الى العرس فيسمع فيه ضرب بوق أو ضرب كمر أو ضرب مزهر أو ضرب عود أو ضرب طنبور ويعلم أن فيه شربا مسكرا ترى له أن يجب! انظر يحيى بن عمر: أحكام السوق. ص: 119

مشقة السفر فمحلون الى المشرق الاسلامي مثلما فعل الشاعر بكر بن حماد بل كان عامة الناس من اهل القبائل يشجعون الطلبة على تلقي العلم، فكانت على سبيل المثال زينة ولماية ومزانة وما حولها من القبائل يبدلون الجهد في معاونة الطلبة بالهدايا والتحف والعتاء واللف (1)، في العهد الزيري.

### الفكاهة:

اشرنا الى ان الظرافة وروح النكتة هي وليدة الفقر وشظف العيش، اكثر منها وليدة الثراء والترف، ذلك ان بعض الفقراء يتمردون على وضعهم المزري، فيهربون من واقعهم بالنكتة، ويظهر هؤلاء في العياريين والشطاريين والذين تجمعهم كؤوس الخمر، فتسيطر عليهم روح المرح وتنطلق نفوسهم بالنكتة، فيقول ابن حداد — عاصر ابا عبد الله الشيعي — (من البحر الطويل) :  
تراني وفي صدري هموم كثيرة ضحوكا لأخفي عن جليس وصاحب (2).

وقد أشار ابن عذاري الى وجود هؤلاء الظرفاء في تاهرت، فذكر انه قيل لبعض الظرفاء من أهلها، كم الشتاء عندكم من شهر في السنة، قال: ثلاثة عشر شهرا. ونظر رجل من اهل تاهرت توقد الشمس بالحجاز فقال: احرقني ماشئت فوالله انك بتاهرت لذيلة.

### استعمال البخور:

عرفت بلاد المغرب البخور، ويبدو ان استعماله كان شائعا للمساجد، فان القاضي عياض يوصي الناس بالمساجد فيقول جمروها بخروها في كل سبعة ايام وربما استعملت بعض فئات المجتمع البخور في منازلهم لطرد الارواح الشريرة.

### استعمال الحناء والكحل:

كان استعمال الكحل للعين عاما للنساء والرجال على السواء، فنقل ابن القطان انتشار استعماله في مدينة بجاية عندما مر بها ابن تومرت سنة 511 هـ —

(1) الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 193.

(2) القاضي عياض: تراجم. ص: 361. وعن الفكاهة بصفة عامة انظر: محمد بلقراد: الفكاهة والضحك في الادب العربي، رسالة دكتوراه الحلفة الثالثة، اشراف احسان النص بجامعة الجزائر 1973 ضحي محمد: الفكاهة في الادب العربي. الجزائر 1970.

512 هـ / 1107 / 1118 م، ويدل ان استعماله خاص بمناسبات الفرح، وذلك ان ابن تومرت نفسه حضر عيدا في بجاية فرأى فيه من اختلاط الرجال والنساء والصبيان المترنين المتكحلين<sup>(1)</sup>.

كما كانوا يستعملون الخناء في تخضيب الكفين والقدمين وفي تخضيب اللحية، وربما كانوا يستعملونه علاجاً لما قد يصيب الاطراف من تشقق أو يقصد الزينة، أو اقتداء برسول الله (ص).

وعلى العموم، يمكن اجمال صفات المغاربة بما كتبه عنهم ابن خلدون من تحلقهم بالفضائل الانسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جيلوا عليه من الخلق الكريم مرقاة الشرف والرفعة بين الامم ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية التزبل ورعي الازمة والوسائل والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد وحسن الملكة، والاعضاء عن العيوب والتجافي عن الانتقام ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير اهل العلم وحمل الكل<sup>(2)</sup> وكسب المعدوم وقرى الضيف والاعانة على النوائب وعلو الهمة وابابة الضيم ومشافة الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله في نصر دينه<sup>(3)</sup>.

وهم ككل مجتمع، لا يخلو من صفات سيئة، فذكر ابن حوقل ان في بعض نواحيهم التهور الشديد والجنون العتيد وبذل السيف وبداد الطيش<sup>(4)</sup>، ويضيف الحموي ان المغاربة اجفى خلق الله واكثرهم طيشا واسرعهم الى الفتنة واطوعهم لداعية الضلالة واصغاهم لثم الجهالة، ولم تخل جباههم من الفتن وسفك الدماء قط، وقد حسن لهم الشيطان الغوابات وزين لهم الضلالات حتى صارت الى الباطل مائلة، فكمن من ادعى فيهم النبوة فقبلوا، وكمن زاعم فيهم انه المهدي فاجابوه<sup>(5)</sup>.

(1) ابن القطان: نظام الجمان. ص: 41.  
(2) الكل: الضميف. الذي ولا ولد، كالتيق وغيره.  
(3) ابن خلدون: المعرج. 6. ص: 207.  
(4) ابن حوقل: صورة. ص: 95.  
(5) الحموي: معجم البلدان ج. 2 ص: 104.

ولا حرج في هذه الصفات، لأنها خاصة بمجتمع البادية، تكاد تكون عامة في كل مجتمع قبلي، فبعضها وليد فطرتهم صرحاء شجعان، لا يقيمون على ضيق فما أسهل أن يمتشقوا السيوف لأزالتهم، وما اتباعهم ادعاء النبوة أو المهدي إلا هروباً من واقع الفقر والانعطاط الذي يتخطون فيه.

وأما مجتمع المدينة فهو مثلما يصف المقدسي مجتمع تاهرت بأنه: «جيد الال» ويشبهها تاهرت بمدينة بلخ ذات الأخلاق الجميلة والشجاعة وشدة الخلق والعقل وجودة الرأي ونبيل الهمة وحسن المعاشرة والحرص على قضاء الحقوق.

آلا أن طبيعة تكوين مجتمع المدينة تعتم وجود ذات ترى أن رأس الايمان بالله مداراة الناس واظهار خلاف ما يظن وأن وجود حياة الترف في المدينة تؤدي الى ظهور فئة من الناس، تظل تكذب وتعمد لمسيرة حياة الترف فيكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه فتجدهم جروا على الكذب والمقامرة والغش والخلاية والسرقة والفجور في الايمان<sup>(1)</sup>.

### المأكولات والمشروبات:

ليس من السهل تحديد المأكولات التي كانوا يتناولونها في ذلك الوقت، وإن كانت في العادة من المنتجات الزراعية والحيوانية تخطط بكيفيات متعددة، وتحضر بأوجه مختلفة، فتنتج مأكولات متنوعة وهذا لا يمنع من ذكر بعض المأكولات رغم شح المصادر، إذ يبدو أنه لم يكن هناك اهتمام بالتأليف في هذا الموضوع، لأن أقدم كتاب مغربي وصل إلينا هو «كتاب الطبخ» لمؤلف مجهول يرجع تاريخه إلى العهد الموحد، كان أكل الثريد شائعاً، وهو الخبز المقتت في المرقة ويثرّد في الزيت أو بالزبد كذلك، أو بمرق الدجاج أو بلحم الخروف السمين أحياناً تتم عملية الرد بلحم الخراف والزيت أو يثرّد باللبن ويضاف إليه السمن أو الزبد<sup>(2)</sup>، ويؤكل الثريد في اناء يدعى «صحفة» أو «جفنة»

(1) ابن خلدون: مقدمة ص: 372 — 373. وجاء في الأصل نجدهم اجراء على الكذب.

(2) القاضي عياض: فراجم ص: 417. الدرجيني: طبقات ج. 2. ص: 507.



وأضاف القاضي عياض «القصة» ويبدو أن الطعام الذي قدمه المعتزلة الى أيوب بن العباس في تاهرت كان ثريدا، فذكر الدرجيني أن هؤلاء قدموا له جفنة طعام عليها شاة ووطب من لبن.

وأكلوا البسيس، وكانت الكاهنة عمدت الى دقيق شعير مفلق فأمرت به فلت بزيت والبربر تسمى ذلك ببيسة<sup>(1)</sup> وذلك عند مؤاخاتها بين يزيد بن خالد وابنيها وكانت هذه الأكلة واسعة الانتشار، إلا أن بوروية يذكر أنها نصنع بسميد الشعير المحمص والزيت والماء.

وعرفوا الدشيش وهو شوربة مصنوعة بالشعير المدشش، أى مطحون طحنا خشنا أو قل مجروشا وربما هو البرغل أو الفريك مطبوخ باللحم وأحيانا بالتمر، وأكلوا العصيدة وهي دقيق يلت بالسمن ويضاف اليه العسل، وأكلوا الهريسة، وهي لحم مطحون وقمح مقلي في الدهن، وأكلوا الجنانية وهي تتألف في الصيف والحريف من الرحلة والبربوز والقرع والبادنجان وعيون البساس وعيون الثعلب والقناء والخيار وأما في فصل الربيع، فمن الخس والبساس والقول الأخضر والاسباخ والسلق والجزر والكزبرة<sup>(2)</sup>.

وأكلوا لحم الدجاج بالزيت بل يالزيتون أيضا، والبسار وهو القول المطبوخ في اللبن والسمن، والسلق المطبوخ بالحمص والجزر أو القول، والحبز المسقى بشوربة البقول.

وكانت بعض العائلات تتناول الحبز والتمر، أو الحبز والزيت، بل كان بعض الفقراء والزهاد يكتفون بشيء من دقيق الشعير يلت بالزيت فيأكلونه، أو بخبزة وسمن وقليل من الملح<sup>(3)</sup>، ومنهم من كان يخرج الى البرية فيجمع من بقلها ثم يجعله في قدرة على النار، ويلقى عليها قبضة دقيق فيكون طعامه بل كان منهم من يغمس الحبز بالماء ثم بالملح فيتناوله.

(1) الديباغ: معالم الايمان. ج 1. ص: 93. بوروية: الدولة الحمادية ص: 162.

(2) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ. ص: 172. وجاء في النص الاستفاضة.

(3) ابن الصغير: سيرة الائمة ص: 332. وعن الأطمة بصفة عامة في بلاد المغرب الاسلامي انظر: ابن رزين النجيني: فضالة الخوان في طباطب الطعام والألوان. تحقيق محمد ابن شقرون. دار الغرب الاسلامي. بيروت. ط. 2. 1984م.

أما الاثرياء منهم، فكانوا يجلسون الى حروف مشوي في التنور، وقد وضع الى جانبه من الزيتون والخبز وبقل المائدة ما يصلح به امره، والغريب في الامر أن الاسماعيلية من سكان البلاد كانوا لا يسلخون الاغنام اذا (1)، شووها، كما اكلوا المركز أو التفائق وهي الضفادع والغزلان تحشى باللحم المرحي وتطبخ (2)، ثم اصبحت المعني (المصارين) المحشوة كما يلاحظ ان الاكلة الشعبية الآن وهي (الكسكسي) لم تذكر بين ما كولاتهم في ذلك الوقت، مع انهم كانوا يعرفون السميد ولا ندري فلعلهم عرفوها، دون ان يذكرها المؤرخون.

وقد ذكر الدباغ طعام عائلة يبدو انها فقيرة، فأشار الى قول رب العائلة بخصوص طعامهم من الجمعة الى الجمعة انه رطل لحم نطبخ عظامه في ليلة وشرائحه في ليلة ثم ناكل في الليلة الثالثة حريرة، وفي الليلة الرابعة سلقا وحمصا وفي الخامسة سلقا واسفناوية وفي الليلة السادسة سلقا وفولا وفي الليلة السابعة لحما (3)، وكانوا يضيفون التوابل الى طعامهم ليضفي عليه نكهة افضل.

اما قبائل الصحراء، فهم لا يعرفون حرثا أو زرعاً، ولا خبزاً فكان عيشهم من اللحم واللبن، ويتخذ عمر احدهم وما رأى خبزاً ولا أكله الا ان يمر بهم التجار من بلاد الاسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز (4)، فكان اعتمادهم على حيواناتهم، فيأكلون صفيق اللحم الجاف مطحوناً يصب عليه الشحم المذاب أو السمن وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء يبقى الرجل منهم الاشهر لا يشرب ماء (5)، ويبدو أن هذا طعام المتوغلين في الصحراء.

أما من كان قريبا من المنطقة التلية أو من الطرق التجارية فقد اضافوا الى طعامهم ما ابتاعوه من السابلة أو الارياض والمدن الصغيرة كالقمح والتمر، هذا بالاضافة الى ما يستخرجونه من بعض النباتات الطبيعية، وما يصطادونه من ارانب وغزلان وطيور وجراد وغيرها.

- (1) المقدمي: احسن التقاسيم. ص: 238.
- (2) عن المركز: مؤلف مجهول: كتاب الطبخ. ص: 21 وهو يذكره على صورة مركاس العماد الاصفهانى: خريدة القصر وجريدة المعصر. قسم 4، ج. 1. ص: 213.
- (3) الدباغ: معالم الايمان. ج. 2. ص: 311. وجاء في الأصل نجعل عظامه في ليلة كما جاءت الكلمة: سلقا وفولا وحمصا ولحما مرفوعة.
- (4) البكري: المغرب. ص: 162.
- (5) نفس المصدر: ص: 170.

كما عرف السكان انواعا مختلفة من الحلويات، فأكلوا اللحم الحلو وأكلوا الزلاية وهي تتألف من عجينة يلقى ثم يوضع عليه العسل واللوز وغيرهما، واللوزينج، والكعك وهو عجينة محلى ومحمر بالسمن، والمشهدة وهي تصنع من السميد والعسل وأكلوا الجوز نيقات والقطائف والكنافة التي تحفل بالزبد، هذا بالإضافة الى العسل وقصب السكر الذي كان يقطع قطعاً صغيرة تمضغ.

ويبدو انه لم تكن لديهم طريقة معينة في تناول الطعام من الجفنة فيمد الآكل يده الى حيث شاء بحثاً عن اللحم والزبد، ويظهر هذا في وصية القاضي النعمان للذين يتناولون الاكل صحبة الامام الفاطمي، فهو يوصي بان يتناول الرجل مما يليه من الطعام ولا يجبل يده الى كل ناحية في المائدة ولا في الصحفة ولا يتناول الأكل من ذروة الثريد<sup>(1)</sup>.

كما يظهر انهم كانوا يضعون طعامهم على المائدة مهما تعددت انواعه دفعة واحدة، اذ أن نظام التعاقب لم يكن معروفاً في بلاد المغرب الاسلامي حتى وصول زرياب ابي الحسن علي بن نافع فعلمهم نظام الاكل، وانه يجب الا تقدم الوان الطعام بلا نظام وانما يبدأ باطباق الشورية ويتبعها مقدمات من اللحم ثم الطيور التبلّة بالبهارات، وفي الخاتمة اطباق الحلويات<sup>(2)</sup>.

وكان سكان المغرب الاوسط يتناولون اشربة عديدة، كان يؤخذ بعضها من نباتات طبيعية نافعة وقد افرد صاحب «كتاب الطبيخ» باباً خاصاً بها، فذكر منها شراباً يصنع من قشر عروق النافع ومن قشر عروق الكرفس ومن قشر عروق السفنارية ومن قشر عروق الهندباء، من كل صنف رطل، وذكر شراباً آخر من الحلحال وكزبرة البير والضموران والطرفية وقلية والغاف والهندباء والننع والحبق والقرنفلي وحبق الترخ من كل منها ثلاث قبضات، ثم ذكر شراباً آخر من زريعة الكرفس وزريعة السفنارية وزريعة الورد والنافع وحب حلاوة ونانوخة، من كل منها أوقية كما ذكر شراباً من بزر الكشوت والصرة والقرفة

(1) القاضي النعمان: كتاب المهمة. من: 120.  
(2) بروفصال: حضارة العرب في الاندلس. من: 50.

ونوار القرنفل والزنجبيل والراوند الصيني والسنبيل الهندي والنبل الهندي والمصطكى وجوزة الطيب والعود القماري من كل منها نصف أوقية(1).

ومن الاشربة التي كانت معروفة عندهم ما ذكره رجل لضييفه قائلاً: عندنا شراب الورد وشراب الجلاب وما اشبهها ومطبوخ العنب ومطبوخ الزبيب ونبيذ العسل ونقيع الزبيب فأخترائها شئت(2) وكان عندهم شراب يدعى السويق، فقال حنظلة بن صفوان في حديثه عن حروبه مع عكاشة وعبد الواحد «خرجت لنا الصبيان والنساء بالماء والسويق(3)».

وكانوا يشربون النبيذ الذي كان يستخرج من الحنطة والشعير والذرة أو من بعض الفواكه كالعنب والتمر وغيرهما، بل ان بعضهم كان يشرب الخمر نفسه، ويبدو ان اختلافاً كان يقع بين الفقهاء في مسألة النبيذ بين من يراه حلالاً ومن يراه حراماً، فكان الطرف الاول يرى تحليله لان النبيذ لايسكر، لكنه اذا وصل حد الاسكار اصبح خمرًا وهنا يكون حراماً، في حين يرى الطرف الثاني ان ما اسكر كثيره فقليله حرام، وهذا الاختلاف كان يدفع بالفقهاء الى تأليف الكتب ولا ندرى فلعل الامام عبد الرحمن بن رستم قد تعرض لهذا الموضوع في كتابه الذي وضعه اجوبة لمسائل نفوسة الجبل، كما وضع القاضي سحنون «كتاب الاشربة» ضمن كتابه «المدونة الكبرى» ومما جاء فيه عن الامام مالك انه يرى ان عصير العنب يشرب ما لم يسكره فالعصير حلال عند مالك حتى يسكر والنبيذ حلال عند مالك حتى يسكر فاذا أسكر كان خمرًا(4).

(1) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ. ص: 235.

(2) حسن حسني عبد الوهاب: ورفات ج. 2. ص: 186، وعن مطبوخ العنب: يؤخذ عصير العنب فيطبخ على النار الى ان يذهب ثلثه فيرفع ويشرب، ولا سبيل الى شربه الا ان يخلط بمثل ماء واهل السوس الاقصى يرون به حلالاً ما لم يمتد به الى حد السكر، انظر: الاذريسي: صفة ص: 63.

(3) حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق ج. 2. ص: 284. وعن حروب حنظلة مع عكاشة انظر: محمد بن عميرة: دور زنتة: ص: 70 - 75. ثم انظر قائمة المصادر التي اعتمد عليها في دراستها السويق: نوع من المشروب يتخذ من دقيق القمح والشعير يسمى بذلك لانسيابه في الحلق. وجبة حلوة هي الهانسون.

(4) القاضي سحنون: المدونة الكبرى. ج. 6. ص: 261 - 363.

ويظهر ان الناس يتفننون في التبيذ عن طريق الخلط، فقد يضيفون العجين المرعى أو الدقيق أو السويق لتبيذ الحنطة أو الشعير أو يهندون التمر والبسر معا أو يشرب الزهر والتمر معا، أو الزبيب والتمر والرطب وقد نهى الرسول (ص) عن هذا الجمع.

كما شرب سكان المغرب الاوسط القهوة، وقد سئل عنها الامام أبو الحسن البكري — من منصوفة القرن الثالث الهجري فأجاب — : من البحر الطويل. أقول لأصحابي عن القهوة انتهوا ولا تجلس في مجلس هي فيه فليست بمكروه ولا محرم ولكن غدت شراب كل سفیه(1)

الملايس:

لم تناول المصادر التي بين أيدينا موضوع الملايس في بلاد المغرب الاسلامي بصفة عامة، الا ان عبارات عديدة متناثرة هنا وهناك قد تساعد في رسم صورة لهذه الملايس ومن الممكن اعتبار ملايس الخلفاء الفاطميين هي ملايس كانت في تناول طبقة أو فئة معينة من المجتمع، وليست حكرا على أولئك الخلفاء.

وقد تناول جولفن(2) Golvin هذا الموضوع بشيء من التفصيل معتمدا على مارواه المقريري والقلقشندي بالدرجة الاولى، وعلى كل، فقد أشار ابن عذاري الى انه حين دخل الامام عبيد الله المهدي رقادة كان عليه ثوب

(1) المجلدى: كتاب التيسر في احكام التسمير ص: 69 ثم انظر عن القهوة نفس المصدر ص: 68. ارسل منصور الطنيزي الى جنود زيادة الله الاغلي 290 هـ / 824 م بقرا وغنا واحمال قهوة. دليل على انها كانت معروفة انظر: حسن حسني عبد الوهاب: المرجع السابق ص: 284 وقد كان الأمير بن المعز لدين الله الفاطمي بمن يتعاطون الخمر، انظر قصيدة في هذا الموضوع في ديوانه تحقيق: محمد حسن الاعظمي. دار الثقافة. بيروت 1971. ص: 84. وما جاء فيها:

أنا مسا بين ندانا ي وراحي وسفاني  
فعل لأعصر الف الصحر ولا وقت الصلاة  
واذا نومني السكسر على تلك الهيات  
لم ينهني سوى ح من مثاني العاتيات

Golvin: Le Maghreb Central P. 169.

عز ادكن وعمامة دكناء وكان على ابي القاسم الفاطمي ابنه ثوب خلوقي وعمامة مثله، بينما كان على ابي عبد الله الشيعي ثوب توتي وظهارة كتان وعمامة ومنديل اسكندراني، ويده سبئية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه(1).

وحين طلب جوهر من ملابس الائمة الفاطميين من المعز لدين الله تبركا بهم، بعث اليه ميطنة مروية وقميصا تحتها، ومن ثياب المهدي ميطنة مصصنة وقميصا، ومن لباس القائم الفاطمي قميصين وسراويل وعمامة وتكة ارمنية بيضاء ومن لباس المنصور بالله جبة مروية وقميصا من تحتها(2).

وكان الخليفة الفاطمي يلبس الثياب البيضاء الموشحة في صلاة عيد الفطر، ويلبس في الاحتفال بصلاة عيد الاضحى ثيابا من الحرير الاحمر الموشح كما كان له ثياب خاصة يلبسها في قصره تتميز بان اكمامها كانت نصف اكمام ثيابه التي كان يلبسها في المواكب، وهو يلبس من الكساء قفطانا وجبة وقباء ويتشح بالعباءة ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهر غالية، ويلبس في ايام الجمع الثلاث الاخيرة من شهر رمضان توقيرا للصلاة الثياب البيضاء والمنديل والطيلسان(3).

وقد اتخذ الفاطميون البياض شعارا لهم، من ذلك انه حين دخل جوهر مصر منتصرا لبس السواد ولبس الخطباء البياض، وكان عليه نفسه — جوهر — ثوب ديباج مذهب ويبدو ان الفاطميين كانوا يميلون الى اظهار انفسهم بمظهر المتقشف في اجتماعهم بانصارهم من الكتامين، ذلك ان المعز استقبل وفدا من اشياخ كتامة في يوم ممطر بارد وعليه جبة(4).

وكان سكان البلاد يلبسون البرانس(5)، لاحظ ذلك المقدسي فذكر أن البربر يبرانس سود بل يوجد منها البرانس البيضاء وهي البسة صوقية تستعمل

(1) ابن عذاري: البيان. ج. 1. ص: 158. عن الخلوقي. R. Dory: Supplément T. 1 P. 399.

(2) الجوزري: سيرة جوهر. ص: 183. وعن البطنة. R. Dory: Op. Cit. T. 1 P. 96.

(3) عطية مصطفي مشرفة. نظم الحكم بمصر الفاطميين. ص: 71 — 73.

(4) ابن ابي الضياف: تحاف اهل الزمان. ج. ص: 159.

(5) القاضي التيمان: دعائم ج. 1. ص: 176. المقدسي: احسن التقاسيم. ص: 239. سيرة الحاجب جعفر. ص: 126.

شتاء للوقاية من المطر والبرد، وربما كان هذا اللباس وراء إطلاق ابن خلدون لقب برانس على الذين يلبسونها، ولقب البتر على الذين يلبسون المعاطف القصيرة، ويظهر أنه وقع جدل حول جواز لبس البرنس في الصلاة، فراح القاضي النعمان يرر جوازه بقوله للناس ان عليا بن الحسين كان يصلي بالبرنس، وان جعفر ابن محمد اعتبر البرنس كالرداء.

وذكر المقدسي ان اهل الرساتيق — الاقاليم — باكسية وبالفعل، فقد أشار ابن الصغير الى الاكسية قبله، فذكر ان الامام عبد الرحمن بن رستم امر بجميع ما بقي من مال الصدقة فأشترى اكسية صوفاً (١) فوزعها على الناس وهي البسة صوفية غير مفصلة، يلتحف بها كالحائك دون ان تغطي الرأس.

ويضيف المقدسي ان عامة السكان من البربر وهم الذين عبر عنهم بالسوقة كانوا يلبسون المناديل، والمنديل لباس صوفي يغطي الرأس ويندلى على الكتفين والظهر ويمكن ان يكون المنديل عمامة أو زناراً يتمنطقون به من نفس نوع القماش الذي يلبسونه.

ولبسوا الجبة، وهي في العادة من الصوف الا انها قد تكون احيانا من الحرير، وقد اشار ابن الصغير الى انتشار لبسها، فذكر ان الامام عبد الرحمن اشترى اضافة الى الاكسية السالفة الذكر جبايا صوفاً واشربنا الى ان المعز القاطمي كان عليه جبة، وهي لباس طويل تتدل الى الركبة وقد تزيد، ويبدو أنها لباس متواضع، إذ حين أخذ الشاعر ابن النحوي على نفسه بالتقشف سنة 394هـ / 1004م «لبس جبة صوف الى ركبته» وكان هذا شأن ابن تومرت، فذكر ابن القطان عنه، انه ما لبس «الاثياب الصوف من قميص ومن سراويل ومن جبة تواضعا» (٢).

ولبسوا السراويل، فذكر ابن الصغير ان الامام يعقوب بن افلح كان يلبس السروال فضفاضاً حتى كان حجره في جنبه، وقد كان السروال لباساً شائعاً في بلاد المغرب، كما لبسوا الاقمصة، فقال الخليفة المهدي لابي عبد الله الشيعي

(١) ابن الصغير: سيرة الأئمة، ص: 327.

(٢) ابن القطان: نظم الجمان ص: 132. وجاء في الاصل عن قميص وعن سراويل وعن جبة.

ارى قميصك منذ ثلاث ويبدو ان الاثرياء كانوا يعمدون الى اقمصة مستوردة،  
فقد ظهرت التسترية منها في القيروان على البهلول بن راشد.

ولبسوا القلنسوة، فقال مهدي النفوسي عند مناظرته المعتزلة في تاهرت  
في عهد الامام عبد الوهاب ان علامة ظفري بالمعتزلي ان انزع القلنسوة عن  
رأسه. بل ان الامام اقلح نفسه لبس الطرطور وهو قلنسوة طويلة دقيقة الاعلى  
وحين التقى المنصور القبض على ابن كيداد البس قميصا وقلنسوة بيضاء، وكان  
المعز لدين الله نفسه يلبس على رأسه قلنسوة حمراء، وجعل جوهر على رؤوس  
الاسرى الذين عادهم من المغرب، فلانس من لبد مستطيلة ويصف المقدسي  
سكان بلاد المغرب بصفة عامة انهم «اصحاب قلانس مصبغة»<sup>(1)</sup>.

ولبسوا العمام، فاورد الرفيق القيرواني ان باديس بن المنصور كان يلبس  
عمامة حمراء، كما كان الفاطميون وموظفو دولتهم يلبسونها، واستعملوا الشاشية  
لباسا على الرأس، فأشار إليها الدرجيني كما ذكر ابن القطان أن ابن تومرت حين  
مر ببجاية، وجد الصبيان يزي النساء ومنها شواشي القز<sup>(2)</sup> ويفهم منه انها لباس  
النساء مثلما هي من لباس الرجال وكان القاضي سحنون يلبس الشاشية الطويلة،  
مما يدل على انها مستعملة في بلاد المغرب عامة.

ويذكر المقدسي انهم المغاربة اقل ما يتطلسون وكثيرا ما يجعلون الرداء  
نطاقين ثم يطرحونه على ظهورهم مثل العباءة<sup>(3)</sup>.

ويبدو ان هذا اللباس لم يكن لائقا، مما دعا القاضي النعمان الى نهجهم  
عن لبسه، فنسب الى الرسول (ص) نهيه عن «الاشتال بالثوب الواحد يجمع  
بين طرفيه على شق واحد كاشتال البربر اليوم» وعبارته هذه تؤكد استعمال  
البربر لهذا اللباس، ولعل القوطة الفضفاضة التي لاحظها ناصر خسرو على الخليفة  
الفاطمي في القاهرة، كانت الرداء المغربي أو لباسا غيره، لانه يشبهها بتلك «التي  
تلبس في بلاد المغرب»<sup>(4)</sup>.

(1) المقدسي: احسن التقاسيم ص: 239. عن القلنسوة:

R. Dory: Supplément au Dictionnaire... T. 2, P. 401.

(2) ابن الفاضي: المصدر السابق ص: 41.

(3) المقدسي: احسن التقاسيم. ص: 239 وعن العباءة.

R. Dory: Supplément. T.2 P. 90.

(4) ناصر خسرو: رحلة ناصر خسرو ترجمة يحيى الخشاب بيروت 1970 م ص: 96.



ولبسوا الفرو، فان الامام عبد الرحمن كان يشتري ايضا بما بقي من مال الصدقة «الفراء» اضافة الى الاكسية والجباب، فيوزعها على الفقراء ويدل فعله هذا على ان لبس الفرو كان شائعا، وان كان لا يقوى على شرائه الفقراء.

ولا تشير المصادر المتوفرة بين ايدينا الى الغلالة في بلاد المغرب الاوسط، لكنها اشارت الى انها كانت معروفة في القيروان مما يجعل وجودها في هذه البلاد امرا مقبولا.

ولبست النساء المعجر<sup>(1)</sup>، وهو ثوب تشده المرأة على رأسها أو عمامة على الرأس من غير إدارة تحت الحنك — الذقن — واورد القاضي النعمان ذكر البرقع في اطار ذكر الملابس التي يحذر على المحرم لبسها، وكانت المرأة تلبس المخفة، ويبدو انها خاصة بنساء البادية، ولم يرد لها وصف.

ولبس الناس النعال، وهي عادة من الجلد ويبدو ان الاثرياء كانوا يلبسون النعال المستوردة فلبس البهلول بن راشد في القيروان نعلا طائفيا وكان ابو عبد الله الشيمي قد انتعل نعلا عربية غداة توجهه الى سجلماسة.

وعرف سكان المغرب الاقصى لباسا يدعى الكرزي، ذكره ابن القطان، وعرفت خزائن الفاطميين زانات الخز، وعرف اهل القيروان لباس الساج وهو طيلسان واسع مدور ويبدو انه لباس فاخر، ذكره القاضي عياض على البهلول بن راشد، والقاضي سحنون، ولعل بعض فئات المغرب الاوسط قد عرفت هذه الالبسة وذكر القاضي عياض ان ابن طالب — قاضي القيروان — خرج يوما في ثوب البيت<sup>(2)</sup> وهذا يدل على ان الناس — على الاقل بعضهم — كانوا يرتدون ملابس خاصة بالمنزل، وربما خاصة بالنوم.

اما سكان الصحراء فكانوا «يتلثمون بعمامتهم سنة فهم ولا يلبسون قمصا انما يتشحون بياهم»<sup>(3)</sup>، وأضاف البكري ان «جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه الا محاجر عينيه».

(1) الدباغ: معالم الايمان. ج. 2. ص: 216.

(2) القاضي عياض: تراجم ص: 211.

(3) البقولي: وصف ص: 17 البكري: المغرب. ص: 170.

وبخصوص ملابس اهل الذمة، فلم يتعرض احد لهذا الموضوع في المصادر التي اطلعت عليها، وربما كانوا لا يختلفون عن المسلمين في شيء، مما كان يدعو بعض القضاة الى اجبارهم على وضع علامات فارقة يميزون بها عن المسلمين من ذلك ان القاضي ابن طالب — السالف الذكر — جعل على اكتاف اليهود والنصارى رفاعا بيضا فيها صورة فرد أو خنزير، وكتب الى قضاته بان يتخذ اهل الذمة زنانير عريضة لثيابهم ليعرفوا بها<sup>(1)</sup>.

### الملاهي:

لجأ السكان الى وسائل ترفيهية مختلفة تساعد على قضاء فراغهم والترويح على أنفسهم بعد طول عيائهم، وليس من السهل حصر هذه الوسائل، فهي كثيرة ومتنوعة، كما أن المصادر قد اغفلت الكثير منها مما يتعلق بمنطقة المغرب الأوسط.

وعلى كل، فقد ذكر و — ل. ديورانت ان من اهم وسائل التسلية في ذلك العهد كانت الاعياد والولائم والصيد ومغازلة النساء والشعر والموسيقى والغناء وأضاف ان الطبقات الدنيا كانت تمارس قتال الديكة والرقص على الخبال والشعوذة والسحر ولعبة العرائس المتحركة القراقوز وأستدل من كتب القانون لابن سينا على ان المسلمين كان لديهم في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي كل ما هو معروف حاليا الالعب الرياضية كالملاكمة والمصارعة والعدو والرمي بالنبال وقذف الخراب ورفع الاثقال<sup>(2)</sup> وغيرها.

وأكد الفوال من جهته ان المجتمعات البلوية كانت لها فنونها الشعبية كالاساطير والامثال والقصص والغناء والرقص، وكانت لها فنونها الرياضية كالمهرجانات ومباراة شد الحبل والصيد والفروسية والرمي هذا بالإضافة الى وسائل ترفيهية اخرى كالترويح الجنسي ولعب الميسر ومقارعة كؤوس الخمر<sup>(3)</sup> وغيرها، وتشير بالخصوص الى بعض هذه الوسائل.

(1) يحيى بن عمر: احكام الموف. ص: 128. ويظهر ان هذا الاجراء قصد به تمييزهم حتى يعرفوا بانهم اهل ذمة. فان يحيى بن عمر سئل عن يهودي نشبه بالمسلمين وقد جاء هذا في شرط وضعه نصارى الشام على انفسهم في كتابهم الذي وجهه الى عمر بن الخطاب... ولا تشبه بهم في شيء لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق للشعر انظر نص رسالتهم كاملة: المجلدي: كتاب التسيير... ص: 79.

(2) و ل: ديورانت: قصة الحضارة. ج. 13. ص: 142.

(3) الفوال: علم الاجناع. ص: 283. وحول الخمر وما يتعلق به من كؤوس ونحوها انظر: الرقيق القرطبي. نطب السرور مواضع متفرقة.

فقد عرفت تاهرت المنتزهات والحدائق، وهي ظاهرة تتم عن سمو في الذوق ورقة في الشعور، ويبدو أن ظهورها في تاهرت رافق تطورها الاقتصادي وحصول عن الثراء فكانت المنتزهات صورة حياة الترف التي بدأت تدب في المدينة، وكان هذا في عهد الامام افلح، فذكر ابن الصغير ان ابان وحمويه السابق ذكرهما «خرجوا يوما الى قصورهما منتزهين»<sup>(1)</sup> مما يوحي ان لكل قصر حديقة تزيينه وتخطيط به، وكان للامام الرستمي ابي بكر منتزه خاص به، يعرف بـ «جنان الامير» كان يخرج اليه رفقة محمد بن عرفة وغيره من الشخصيات ذات العلاقة الوطيدة بالامام.

وقد اغفل الرحالة الاشارة الى هذه المنتزهات، الا ان وجودها في تاهرت يعني وجودها في غيرها من المدن، وهناك اشارة للادريسي وان كانت متاخرة الا انها تصلح دليلا على اهتمام سكان بلاد المغرب الاوسط بها فذكر نهرا لمدينة مليانة يسقي أكثر مزارعها «وحداثقها» وأضاف بخصوص تدلس أن لها ديار ومنتزهات<sup>(2)</sup>.

ولا توجد صورة عن الاسلوب والتخطيط الذي قامت عليه منتزهات المغرب الاوسط، الا انه بناء على التأثير الاندلسي البالغ في بعض مدنه، خاصة الساحلية منها، يمكن ان تكون المنتزهات على صورة لا تختلف في شيء عنها في الاندلس فكانت تخلو من التماثيل لامر ديني وكان يطغى عليها تزيين الجدران بالجص، بأشكال واللوان مختلفة ووجود بعض الأقواس الجميلة، واستعمال القرميد الأزلي، بألوان عديدة، وكان يستعمل لزخرفة العيون والاحواض والمقاعد والممرات والأدراج حتى كان يعول به على تجميل المنتزه أكثر من الاعتماد على اختلاف اللوان الازهار، التي كانت تزرع في قوارير، مما يسمح بنقلها من مكان الى مكان آخر، فيتغير شكل الحديقة ومنظرها حسب الرغبة<sup>(3)</sup>.

(1) ابن الصغير: تاريخ الأئمة ص: 336 — 343. وعن حياة اللهو: انظر أحمد أمين: ضحي الاسلام. ج. 1. ص: 101 — 131. عيد للعمع ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية صفحة 137 — 145.

حسن حسني عبد الوهاب: ورفات ج. 2. ص: 180 — 202.  
(2) الادريسي: نزهة المشتاق: ص: 85. وربما كانت هذه العبارة تقرم دليلا على وجود الديار في بلاد المغرب الاوسط قبل عهد الادريسي خاصة وانها معروفة في المشرق قبل ذلك عنها انظر: اسامة مرشد الكناي: كتاب المنازل والديار الفصل الثاني. ج. 1. ص: 105 — 193. المكتب الاسلامي للطباعة والنشر. ط. بيروت 1385هـ / 1965م.

(3) عن الحديقة في الاندلس انظر: ابو النصر عادل: تاريخ الزراعة القديمة. ص: 213 — 215.

وكانت بعض فئات سكان المغرب الأوسط تمارس الصيد، فكان مما طعن به نفاث بن نصر على الامام افلح بن عبد الوهاب خروجه للصيد فكأنه كان مولعا به. ويقدم ابن الخطيب في شخص الامير يحيى بن العزيز الحمادي صورة عن المولعين بالصيد فذكر انه كان يستدعي المضحكين وجوارح الصيد فيختبر هذا البازي ويتفقد هذا الكلب ويتنهض هذا المضحك بالنوع الذي سلكه فيلهبه ويضحكه(1)، ويؤكد هـ.ر. ادريس على ممارسة المسلمين صيد الطيور واستعمالهم كلب الصيد والحراب والسهام(2).

وكانوا يقضون أوقاتا في ممارسة الفروسية التي اشتهروا بها كما سبق وهم في هذا الشأن اشبه الناس بالعرب، الامر الذي يتضمن معه ان تكون المماريات قد جرت، ليس بين فرسان يتمون لنفس القبيلة فحسب، بل يتمون لقبائل مختلفة ومن الطبيعي ما دامت أكثر زناتة فرسانا يركبون الخيل ان يشغلوا انفسهم بركوبها والتفنن فيها، بل والتدريب عليه، فيشير ابو زكريا الى ان المعتزلة بتاهرت طلبوا من ايوب بن العباس ان يلعب فتياهم على فرسه ففعل. ثم ان فتيان الحلي المعتزلة ركبوا خيولهم واخذوا قضبانا يترامون بها(3) أما الصبيان فكانوا يتخذون من العصي خيولا يركبونها ويتلهون بها مثلما كان يفعل زيري كما سبق.

ويبدو انهم — السكان — اتخذوا من بعض الحيوانات المروضة وسائل لتسليةهم، وكانت القردة من بين هذه الحيوانات وان فيما ذكره ابن حماد بخصوص فعل المنصور الفاطمي بأبي يزيد غلغل بن كيداد، حين التقى عليه القبض لدليل على ذلك، فقد الصق على جانبيه عودين وجعل عليهما قردان قد علما فكانا يصفعانه ويعيثان بلحيته(4)، وهذه العبارة تدل على ان عملية الترويض ليست حديثة النشأة بل كانت معروفة في ذلك الوقت.

(1) ابن الخطيب: اعمال ج. 3. قطعة منه بعنوان ذكر قسم الملوك من صنهاجة من ذرية حماد بن بلكين بقلعة حماد وبجاية نشر رابع برنار مجلة الاصاله ج. 19. 1394هـ الموافق لـ 1974م الجزائر. ص: 95. وقد اشتهرت بلاد المغرب بالزواة السود. انظر: الحاجط البصير بالتجارة ص: 30.

(2) H.R. Idria: La Berbérie Orientale T. 2. P. 634.

(3) ابو زكريا: كتاب سيرة الائمة. ص: 72.

(4) ابن حماد: اخبار ملوك بني عبيد ص: 37. وذكر البكري ان مرسى موسى بالمغرب الاقصى اكثر بقع الارض قرودة وهي تحكي تقلد ما تروى من فعل من يمر من الناس فاذا رأت التواني يجذون في الفوارب اتخذت عيدانا وجعلت تحكي عملهم انظر: البكري المغرب.. ص: 105.

وان هذا الامر بالذات يسمح بترجيح معرفة بلاد المغرب الاوسط لمهرجانات الحيوانات (السيرك) في تلك الايام، بالاضافة الى عوامل اخرى مساعدة لوجود مثل هذه الظاهرة، اهمها اتصالها الوثيق ببلاد السودان التي تعتبر مصدرا لحيوانات غريبة الخلقة لا تتوفر في بلاد المغرب كالزرافة، وبالفعل فقد وصلت زرافة هدية من ملك السودان الى الامير المنصور الزيري، مما يوحي بوصول حيوانات اخرى كالنعامة والفيل والكركدن والثعبان الضخم وغيرها، وكان المغاربة قد وصلوا الى مرحلة من التطور اهلته لصنع اقفاص حديدية تزج بها الحيوانات المفترسة، وقد ظهرت ضمن هدية زيري بن عطية المغراوي الى المنصور بن ابي عامر سنة 382هـ / 989م والتي كان منها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية ودابة من دواب المسك ومهابة وحشية تشبه الفرس، وحيوانات غريبة واسدان عظيمان في قصصين من حديد<sup>(1)</sup>.

وكان لهذه الهدية علاقة بموضوع السيرك، والذي كان الاندلسيون على علم به، فقد جرى احتفال بقدم جعفر بن علي يحمل رأس زيري في مدينة الزهراء اشتمل على الاسود الفاخرة والتمور الجائشة والعقبان الكاسرة والثعابين المضطربة وكانت عدتها مائة صورة<sup>(2)</sup>، وهذا يرجح ان يكون السيرك معروفا في تاهرت وغيرها بحكم الاتصال الوثيق بين الاندلس والمغرب الاوسط.

وهناك فئات اتخذت من معاورة الخمر وسيلة للترفيه عن النفس وللتسلية، مع أن الآية صريحة في شأنه في اعتباره رجسا من عمل الشيطان والامر الرباني واضح في الدعوة الى اجتنابه وهذه الفئات لها نظرة خاصة في قضية تحريم الخمر كبعض الاحناف والمنحرفين عن المذهب الحنفي الحقيقي<sup>(3)</sup>، وغيرهم، أو انها متمردة على الواقع وكل القيود متخذة من المسكر وسيلة.

(1) السلاوي: الاستفصاح ج. 1. ص: 193. وعن وصول الزرافة انظر: ابن عذاري البيان ج. 1. ص: 246.

(2) ابن حيان: المختصر في اخبار بلد الاندلس تحقيق عبد الرحمن علي الحنجي: طبعة بيروت. 1965 ص: 49.

(3) كان الاحناف المستقيمون يرون تحريره. انظر: عبد العزيز المجذوب الصراع المذهبي صفحة 72.

وبالفعل، ففي ظل غياب السلطة الحازمة في تاهرت ابان الفتن الداخلية بين الامام ابي حاتم وعمه يعقوب «فسد اهلها في تلك الحروب واتخذوا المسكر اسواقا والغلمان اخذنا». وفي مرسى الخرز كان العاملون بصيد المرجان هناك «يكثرون الاكل والشرب والخلاعة ولهم بها مكاسب وافرة ويتبذون نبيذ العسل فيشربونه من يومه ويسكرهم الاسكار العظيم» كما سبق ذكره.

وانتقلت لعبة الشطرنج الى بلاد المغرب من المشرق، فإذا كان محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رسم لاعبا بالشطرنج<sup>(1)</sup> فهذا يدل على ان الاسرة الرستمية كانت على معرفة بهذه اللعبة، وعلى كل، فقد كانت لعبة الشطرنج خاصة بالنخبة، وكان يرافق لعبها فنون الهزل والنواحر المدهشة، لانه يترك اثرا في نفوس اللاعبين لا يقل عن اثر الارتجاز في نفوس المحاربين.

فلعبة الشطرنج كما يصفها المسعودي: (من البحر البسيط).

أرض مربعة حمراء من آدم، ما بين الفين موصوفين بالكرم  
تذاكرا الحرب فأحتالا لها شبيها من غير ان يسعيا فيها بسفك دم  
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تنم  
فأنظر الى الخيل قد جاشت بمعرفة في عسكريين بلا طبل ولا علم<sup>(2)</sup>

والسباحة رياضة معروفة فقد حض الرسول (ص) على ممارستها، ويمكن القول ان سكان المدن الساحلية قد وجدوا في السباحة وسيلة ترفيهية، ومن المرجح كذلك ان بعض السكان في المناطق الداخلية قد مارسها في مياه الاودية والبرك وهو أمر شائع حتى اليوم.

ويظهر انهم عرفوا من الالعاب خيال الظل أو مسرح العرائس، فينتقل عبد المنعم ماجد عن «الاحكام السلطانية» للماوردي ان اللعب بالعرائس مباح للبنات اذ ليس القصد بها المعاصي وانما إلف البنات لتربية الاولاد<sup>(3)</sup>.

(1) ابن الأبار: الخلة من: 273. ابن حيان: المصدر السابق. ط القاهرة من: 262. «الحاشية».  
(2) المسعودي: مروج الذهب ج. 4 من: 235. وعن الشطرنج انظر: نفس المصدر. من: 233. 235، دائرة المعارف الإسلامية: مادة (شطرنج) ج. 13. من: 294 — 296.  
(3) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية من: 144 — 145.

ان هذه الانواع المختلفة من وسائل التسلية واللهم تدل على ان الحياة في تلك الفترة لم تكن كلها جد وتزمت من جهة، وعلى أت منها ما يناسب الطبقة العليا في المجتمع ومنها ما يناسب طبقة العامة.

## الفصل السابع

### التطور العمراني

عاش سكان المغرب الاوسط في انماط مختلفة من المساكن تبعا للمستوى الحضاري ويمكن ان نقسمهم الى سكان البادية وسكان المدن.

#### 1 - سكنى الحيام:

تنتشر حياة الترحال بين القبائل المتأصلة في بدوايتها والتي لم يستطع البيزنطيون ولا المسلمون من بعدهم عمل شيء يساعدهم على حياة الاستقرار، كاحداث تغيير في مستواهم الاقتصادي والاجتماعي والفكري.

فمن الوجهة الاقتصادية، كانت هذه القبائل تعتمد في معيشتها على تربية مواشها كما سبق. حتى ان ابن حوقل يصف قبائل الصحراء في القرن الرابع الهجري «انها لاتعرف البر ولا الشعير الا ما يصلها من سجلماسة» وهذا يعني بساطة وانخفاض مستواها الاقتصادي وبعدها عن الترف والكمالي مما لايدعوها لحياة الاستقرار.

ثم ان اعتمادها على تربية المواشي تعني خضوعها تماما للظروف الطبيعية، فهي دائمة الحاجة الى مسارج ومشارب لمواشها مما يحتم عليها مواصلة الترحال بحثا عنها، وبعبارة اخرى فان مجتمع البدو الرحل يقف مكتوف الايدي امام تحديات الطبيعة، فهو اسير ظروفها، وهذا يعني ان مستواهم الفكري لم يصل بعد الى مرحلة التحدي، والضرورة لكل عملية تطور.

من جهة اخرى، فان اعتماد هذه القبائل على الغزو والسلب يجعلها تعيش حالة نفسية قلق، فهي تتوقع من حين لآخر غزوا تقوم به قبيلة اخرى اكبر منها، وهذا ما لا يساعدها على الاستقرار بل على العكس انه يحتم عليها ان تكون دائما على أهبة الرحيل، ورغم ما في حياة الترحال من الشقاء، الا أنهم كانوا قانعين بها لأن الترحال في نظرهم يعبر عن حبيهم للحرية ورفضهم الذل والخضوع والمغارم.



لهذه الدواعي ظلت الخيام تمثل بيوت عدد كبير من القبائل، فكانت بعض بطون كتامة بين قسنطينة وبجاية، — على سبيل المثال — «يمتطون الخيل» ويسكنون الخيام»<sup>(1)</sup>، كانت القبائل المنتشرة بين تاهرت وتلمسان، ووظواغن ينتجعون «من مكان الى مكان»<sup>(2)</sup> في عهد الادريسي (سنة 560هـ)، وكانت مديونة يتقبلون بظواغنهم في نواحي جبل بني راشد، وباختصار فان من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الاغلب لارتياح المسارح<sup>(3)</sup>.

وكانت الخيمة تدل على مركز صاحبها ومكانته الاقتصادية والاجتماعية في القبيلة، فكلما ارتفع عمادها ازدادت اتساعا وعبرت عن مكانة عالية لسكانها، بل ان نوع نسيجها وجودته تدل على المستوى الاقتصادي، وفي اغلب الاحيان يدل ارتفاع المكان الذي ضربت فيه على علو مكانة صاحبها، فقد جرت العادة في مجتمع البدو الرحل ان يضرب رئيس القبيلة خيمته في مكان مرتفع يشرف على خيام بقية افراد القبيلة.

وكانت الخيمة تضم تحت سقفها جميع افراد الاسرة، بما فيهم الابناء وزوجاتهم والاحفاد، واذا كنا ننظر لسكنى الخيام نظرة متواضعة، فربما لم يكن الامر كذلك بالنسبة لسكانها انفسهم، بل اننا اذا اعتبرنا قول ميسون الكلبي زوجة معاوية بن ابي سفيان معبرا عن المجتمع القبلي عامة، شعرنا انهم كانوا يفضلون سكنها على سكنى القصور، وكأنها ضمن نظرة ازدراء شاملة ينظرونها الى المستقرين ومما جاء في قصيدة لها (من البحر والوافر):

ليت تخفق الأرياح فيه أحب الي من قصر منيف

وعلى كل يبدو أن ريح التطور قد هبت على بعض هذه القبائل فانتقلت الى مرحلة بين الاستقرار والترحال.

### المساكن القارة:

ان انتقال القبيلة من حالة الظعن الى الاستقرار يتبعها حتما تطور في المفاهيم القبلية، إذ أن الاستقرار نفسه يعني بالضرورة استعداد هذه القبيلة

(1) ابن خلدون: المعرج. 6. ص: 303.

(2) الادريسي: المصدر السابق. ص: 88.

(3) ابن خلدون: المقدمة. ص: 121.

أو تلك لقبول الذل والخضوع ودفع المغارم للقبائل الأقوى، إلا إذا كانت لها قوة ذاتية أو مكتسبة بالولاء أو الحلف، فإن ابن خلدون يرى أن «معاش المستضعفين منهم بالفلاح والدواجن السائمة»<sup>(1)</sup>.

ولما كانت طبيعة العمل الزراعي تقتضي الاستقرار، ويتطلب هذا بدوره اتخاذ منازل قارة، والتي هي غالبا على نحو ما ذكر ابن خلدون من «الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر»<sup>(2)</sup>، في نفس الوقت، يشير الدرجمي في معرض حديثه عن مناظرة وقعت بين أيوب بن العباس الأباضي وبين المعتزلة في ناهرت، أن هؤلاء «انزلوه في خص ورحبوا به»<sup>(3)</sup>، ويشير البكري من جهته إلى عزم رجل من إحدى قرى وهران على بناء بيت له «فأقطع ألف كلخة» كما سلف، ويبدو أن الاختصاص كانت واسعة الانتشار فإن المنصور الفاطمي أحرق اختصاصا كثيرة لأصحاب أبي يزيد<sup>(4)</sup>، أما استعمال المنازل الحجرية ففني عن البيان.

ويبدو أن هذه المساكن تشكل سكنى أغلبية سكان المغرب عامة، فيذكر ابن خلدون أن من كان معاشه «في الزراعة والقيام بالفلاح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال وهم عامة البربر»<sup>(5)</sup>، وقد أشار الجغرافيون إلى كثير من قرى المغرب، فذكروا أن تلمسان قرى وعمائر متصلة وإن جبل تاورناية معمور فيه القرى الكثيرة وإن حول مدينة جراوة عدة قرى لقبائل من البربر وهناك قرى أخرى كبيرة مثل المعسكر وتانسالت وبايلوت، كما سلف.

## ب - المدن:

لم يكن ظهور مدينة في بلاد المغرب حدثا عفويا، بل لابد من توفر ظروف موضوعية ينشأ عنها ميلاد مدينة جديدة، ولم تكن عملية الميلاد هذه بالأمر

(1) ابن خلدون: العبر ج. 6. ص: 176.

(2) نفس المصدر: ج. 6. ص: 175.

(3) الدرجمي: طبقات ج. 1. ص: 63.

(4) ابن هاد: أخبار ملوك بني عبيد ص: 31 - 32.

(5) ابن خلدون: مقدمة: ص: 121.

السهل في بلاد لم تتخلص بعد من سيطرة النظام القبلي، فقد كانت مفاهيم النظام تعرقل ظهور المدن، فكان لابد من حدوث انحلال فيها الى حد ما، فمثلا كانت الحاجة تستدعي تحولا في شعور الفرد بالانتماء الى قبيلته الى شعور بالانتماء لمدينته، ومن شعور القبيلة بانها كل لا يتجزأ بشيوخها وابنائها الى شعور افرادها بانهم جزء من مجتمع المدينة ينصاعون لحاكم مشترك للمدينة، وربما ينتمي لقبيلة اخرى.

وقد كان التحول البطيء الذي حدث لبعض القبائل وانتقل بها من حياة الظعن الى حياة الاستقرار خطوة متقدمة لاحداث ذلك التغيير، فكان هذا الاستقرار أو اعتماد الفلاحة كمصدر انتاج يعني وجود فائض عند بعض افراد القبيلة اي وجود ثراء، وهذا يعني تحولا في معيشة هذه الفئة اجتماعيا واقتصاديا، وهذا ينعكس على المجتمع القبلي ويساعد على خلخلته.

ومع الوقت، وجدت هذه الفئة الثرية نفسها جنبا الى جنب وعلى علاقة بفئات ثرية اخرى، فبدأ ينمو بينها شعور بالتحالف ولو بشكل جنيني بل ربما شعرت الى حد ما بانها تشكل معا طبقة اجتماعية، وهكذا فان اجتماع رؤساء قبائل تاهرت واختيارهم الامام عبد الرحمن لم يكن حدثا اعتباطيا تم بمجرد نزول الامام عليهم، دون اعتبار لطبيعة المنطقة، بل انه تعبير عما وصلت اليه هذه الفئات من استعداد للانضواء تحت سلطة رئيس من خارج قبائلهميلتهم واذا كان الرؤساء قد أوجدوا حلا توفيقيا مؤقتا بتعيين الامام عبد الرحمن، فما ذلك الا كخطوة أخيرة في اقامة حكم المدينة.

من جهة اخرى، فان حصول تلك الفئات على الثراء، بغض النظر عن الوسيلة جعلها تتعدى الاكتفاء بالضروري من المعاش الى الحاجي والكمالي، فبدأ الترف يظهر على نمط معيشتهم سواء في مسكنهم أو ماكلهم أو اثاثهم، من هنا يتطور العمران البدوي الى العمران الحضري، وظهور مدينة تاهرت هو تجسيد لهذه الفكرة إذ لم يكن بالامكان قيامها بين قبائل فقيرة متأصلة في بدواتها كالابالة.

أما منشأ ذلك الثراء فمتعدد الجوانب، فبالنسبة للبدو الرحل، فقد ظهرت فئات عليا من الرؤساء وعائلاتهم تمتلك اعدادا هائلة من المواشي، ولما كانت

تمثل قيمة نقدية في مجتمع البدو، فقد أصبحت تربية المواشي بالنسبة للرؤساء تمثل عملا انتاجيا يزيد الدخل، ولنا في ابن زلفين السالف الذكر خير مثال.

واما بالنسبة للمستقرين الزراع، فان امتنانهم الزراعة تطلب وجود اعمال مهنية تقوم بانتاج ادوات زراعية لازمة، مما كان له تأثير ايجابي على الانتاج الزراعي، فقد سمح للانسان ان يتحدى الطبيعة، فيحرث ويحفر ويسوق الماء، وزيادة الانتاج هذه كانت تعني بروز فئة ثرية مثل محمد بن جرفي السابق الذكر تأخذ مسارها في حياة الترف والتفنن في المسكن والملبس والاثاث وقد نبه ابن خلدون الى هذه الملاحظة فذكر انه «اذا فتشنا اهل مصر من الامصار وجدنا أولية اكثرهم من اهل البدو الذين بناحية ذلك المصير وعدلوا الى الدعة والترف الذي في الحضرة<sup>(1)</sup>»، ويضيف في مكان آخر من مقدمته ان «البناء واحتطاط المنازل انما هو من منازل الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة<sup>(2)</sup>».

ويلعب الموقع الجغرافي دورا في الثراء كأن تكون المنطقة معبرا تجاريا، مما يعود بالخير على قبايلها وخاصة زعمائها بما يحصلون عليه من جعلالات مقابل ما يقدمونه من امن وحماية، كذلك يبيع لبعض الفئات ان تلعب دور الوسيط بين سكان المنطقة وقوافل التجار.

ولا بد لنجاح هذه العوامل من توفر شروط الامن والهدوء في المنطقة، اذ لا يمكن ان يكون هناك ممارسة اعمال اقتصادية فرخاء في ظل الحروب والخوف، ولا بد من مراعاة هذه النواحي عند بحث موضوع تأسيس المدن في تلك الفترة، اضافة الى معطيات اخرى تختلف من مدينة الى اخرى.

فمن الملاحظ ان بلاد المغرب الاوسط لم تشهد ظهور اية مدينة جديدة منذ الفتح الاسلامي حتى بناء مدينة تاهرت، وربما كان السبب الرئيسي يتمثل في تلك الحروب والثورات المتكررة التي شهدتها المنطقة وبالتالي فقدان عنصر الامن والاستقرار، وهكذا كانت تاهرت هي المدينة الاولى المحدثه في البلاد.

(1) ابن خلدون: المقدمة فصل في ان البدو واقدم من الحضرة وسابق عليه وان البادية اصل العمران ص: 122.

(2) نفس المصدر: فصل في ان الدول من المدن والامصار... وهو الفصل الاول من الباب الرابع ص: 342.

تعتبر منطقة تاهرت ارضا زراعية، اشتهرت بزراعة الحبوب، اي انها تسمح بإيجاد الحياة المستقرة، ويساعد على هذا وجود عدة انهار مثل نهر مينا، كما انها منطقة رعوية اشتهرت بتربية المواشي، وهكذا لم يكن غريبا ان تظهر فئة من الاثرياء كمحمد بن جرتي وابن زلغين السابق ذكرهما.

من جهة ثانية، فقد كانت معبرا بين شرق البلاد وغربها، فان مسير عقبة بن نافع في تلك المنطقة لم يكن خروجاً عن الطريق الواصل بين شرقي المغرب الاسلامي وغربه، بل دليل على مرور هذا الطريق العام فيها مما يترك اثرا على قبائل المنطقة اقتصاديا واجتماعيا.

كذلك عرفت المنطقة هدوءا على الاقل منذ قيام الدولة العباسية، وان اشتغال امراء افريقية بأمر تثبيت سلطة الخلافة في القيروان قد سمح لبلاد المغرب الاوسط ان تعيش في جو الهدوء، وان اشتراك عبد الرحمن بن رستم في حصار طينة لم يكن عملا حريا أكثر منه نزهة عسكرية قام بها مشاركة لابي قررة اليفرني، كما ان امراء افريقية لم تكن لديهم سياسة عدائية تجاه المغرب الاوسط (2).

أضف الى هذا، اشتراك القبائل في شعور عدائي تجاه السلطة الحاكمة في القيروان باعتبارها تمثل مجتمع المدينة بما فيه من ثراء وترف، على حين ان القبائل هذه تمثل مجتمع الريف بما فيه من قسوة وفقر، أي ان العداء بينهما يمثل صراع الريف ضد المدينة، وقد ايس صراعا هذا لباسا مذهبيا، فاعتنقت مذهب الاباضية، ووضعت مطالبها في مبادئ مذهبية.

(1) نشأت في القرن الثاني الهجري، ونظرا لانها اتخذت شكلها النهائي بعد ذلك ولانها تصلح نموذجا للمدينة الاسلامية فقد ادرجناها ضمن هذه الدراسة.

(2) انظر ما ذكره حجاج كاتمة لابي عبد الله الشيعي حول نفوذ الاغالبية في كتامة: إقاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 64. 65.

ادرك الامام عبد الرحمن ان المنطقة مهيأة لاحتضان مدينة مثل تاهرت، وحاول انقاذ مدينة تاهرت القديمة، فوجد معارضة من اهلها عبر عنها البكري بقوله: «انهم لما أرادوا بناء تاهرت كانوا يبنون النهار فاذا جن الليل واصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم فبنوا حيث تاهرت السفلى وهي الحديثة(1)» ومن مميزات الموقع الذي اختاره الامام:

ان هذه المنطقة بعيدة عن القيروان تفصل بينهما منطقة الزاب وجبال الاوراس، اي انها بمنأى عما يمكن ان يقوم به والى القيروان، لو فكر في ذلك ضد الابطاشية، وهي بعيدة عن الساحل، فكانت بمنأى عن ضربات الاسطول البيزنطي(2)، واعمال القرصنة التي كان يقوم بها من حين الى آخر.

كذلك فهي منطقة زراعية كما ذكرت، وذات مناخ ملائم للاقتصاد الزراعي، وهي وفيرة المياه فهي على نهر ناتش، وتعرض لمطول الامطار الغزيرة وان هذه الطبيعة الزراعية تحقق شرطا ضروريا لبناء المدن نبه اليه ابن خلدون، فذكر أن «مما يراعى ايضا المزارع فان الزروع هي الاقوات فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك اسهل في اتخاذه واقرب الى تحصيله(3)».

كذلك فان المنطقة غيضة اشبه، وهذا يعني توفر مادة الحطب التي هي مادة الوقود، حتى قيل «لاتبنى المدن الاعلى الماء والكلأ والمخضب(4)» وقيل «أحسن موضوعات المدن أن تجمع المدينة خمسة أشياء وهي النهر الجاري والمخرب والطيب والمخضب القريب والأسوار الحصينة والسلطان اذ به صلاح حالها(5)».

(1) البكري: المغرب. ص: 66.  
(2) ارشيدالد: القوى البحرية: ص: 162. وعن بناء تاهرت انظر: جودت عبد الكريم يوسف الملائك الخارجية للدولة الرستمية. ص: 29. 36. الحبيب الجناحي: المغرب الاسلامي. ص: 100. 106. نفس تاهرت عاصمة الدولة الرستمية. المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية فصل من عدد 40. 41. 42. 43. سنة 1975 م ص: 9 وما يليها. R. A. Tagdemti, Tibert, G. Marçais et deussus lamare: 1946 PP. 24. 57.

(3) ابن خلدون: المقدمة. فصل في ما يجب سراعته في المدن.

(4) ابو الحسن علي يوسف: الدوحة المشتبكة. ص: 68.

(5) ابن أبي زرع: روض القرطاس. ص: 16.

وأضاف الى أن الموقع يتوسط قبائل المنطقة حتى يبدو أنه كان سوقا لها، فهو يتوسط بين التل والصحراء، فكانت تلك القبائل حلقة وصل بين تجارة ما وراء الصحراء وما وراء البحر، وهي على الطريق بين الشرق والغرب كما سبق، ولكن هذا الموقع لم يكن من الدرجة الأولى، لذا فانه اذا كان يتيح ظهور مدينة في المنطقة فلم يكن من المتوقع أن تكون من كبريات المدن أعني أن أهمية الموقع محليا ودوليا تنحكم في ظهور المدينة وعظمتها وديمومتها.

وكان اختيار الموقع يختلف من مدينة الى اخرى، فقد تقع في سهل مثل تاجنة فيوفر لها المزارع والمسلح، أو على مرتفع كتاهرت القديمة وبرشك فيتيح لها مراقبة الأعداء قبل اقترابهم، أو بين أرباض كجراوة، أو بين جبال كأشير فيخفيها عن عيون الأعداء، وقد تقع عند اقدام جبل كمليانة وتلمسان فيسمح لسكانها بمطاردة العدو اذا غلبوه وإلى الالتجاء الى الجبل اذا هزمهم، وقد عبر القاضي النعمان عن هذا المعنى بذكره صياح الناس في احدى حروب أبي عبد الله الشيعي وتناديهم «الجبل، الجبل» يعنون أوراس، نجعله خلف ظهورنا فان كان علينا امر تحصننا به وان كان لنا اتبعنا العدو بطول الفحص<sup>(1)</sup>، ويرى البعض أن أصبح البلاد ما كان على الجبال والأماكن التي تواجه مهب الصبا<sup>(2)</sup>.

وتكاد تاهرت تجمع في موقعها بين هذه الامور، فهي من جهة تقع في سفح جبل قزول<sup>(3)</sup>، وبين تلال، فذكر ابن الصغير كذبة النكار، واعلى موضع في المدينة، وأشار ابن عذاري الى ارباضها<sup>(4)</sup>، وكانت امامها سهول السرسو وهضبة منداس، وكان في مكان يواجه مصب الصبا، حتى اطلق على احد ابوابها «باب الصبا».

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 166. 167.

(2) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان. ص: 153. وعن شروط بناء المدينة انظر: ابن خلدون: المصدر السابق. ص: 347.

(3) يذكره ابن خلدون «قزول» انظر: العرج. ج. 6. ص: 247. ويذكر صاحب كتاب الاستبصار «فرقل» انظر: ص: 178. من المصدر وقد اعتبر ابن رسته تاهرت على البحر من بلاد ادرس انظر: ابن رسته: الا علائق النفسية مكتبة المثنى بغداد ص: 129.

(4) انظر: ابن الصغير: المصدر السابق. ص: 341. 345. ابن عذاري البيان ج. 1. ص: 5.

على كل، قامت مدينة تاهرت وظهرت للوجود، ولكن ليس هناك تحديد قاطع لتاريخ بنائها، إذ يظهر اضطراب على ما أورده بعض المؤرخين والرحالة، فذكر البكري — نقلاً عن ابن الوراق — أن الإمام عبد الرحمن ترك القيروان فاجتمعت إليه الأباضية واتفقوا على تقديمه وبنیان مدينة تجمعهم فزولوا موضع تاهرت اليوم وابتدأوا من تلك الساعة<sup>(1)</sup>، فيفهم من هذا أن بناء المدينة كان حوالي سنة 144هـ / 761م.

ويذكر الرقيق القيرواني من جهته أن الإمام عبد الرحمن قد وصل إلى تاهرت منهزماً إثر فشل حصار صبة سنة 154هـ / 771م وهذا يعني أنها كانت قائمة في هذا التاريخ إلا إذا كان يقصد أنه وصل إلى حيث قامت فيما بعد، وإذا ربطنا بين اجتماع القبائل وانتخاب الإمام، الذي جعله أبو زكريا في سنة 160هـ أو 162م<sup>(2)</sup> / 776 — 778م فيكون هذا التاريخ نفسه هو خاص ببناء تاهرت كذلك.

وبالنظر إلى عدم اتفاق المؤرخين على تاريخ محدد، وإلى ظروف الإمام عبد الرحمن والمهاجرين بعده وإلى سير حركة تطور المجتمع القبلي، أمكن استبعاد أن يكون بناؤها في سنة 144هـ / 761م لأن عملية بناء المدن لاتم بين عشية وضحاها لكي يحدد تاريخ معين.

فقد نزل الإمام عبد الرحمن، وعلى قبيلة لماية لقديم حلف بينه وبينهم<sup>(3)</sup> وأقام المهاجرون مشتتين بين القبائل، وكانوا في طور الكتمان، وهذا الوضع لايساعد على الشروع في تأسيس عاصمة للدولة جديدة، والأقرب إلى الواقع، أن المنطقة شهدت بناء منازل لآثرياء تلك القبائل ومترفها، وهذا يتفق ومبدأ تطور المجتمع القبلي، وازدادت تلك المنازل بفضل أهمية الموقع التجاري على الخصوص، وحين نضجت الظروف النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لسكان

(1) البكري: المغرب. ص: 68.

(2) أبو زكريا: السير. ص: 7 ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 197. الباروني: مختصر ص: 37.

(3) ابن خلدون: المعبر. ج. 6. ص: 247.



المنطقة اجتمعوا الى عبد الرحمن فأختاروه اماما، مما أوجب عليه ان يشرع في بناء المؤسسات الحكومية وينقل بها من مجرد تجمع سكني الى عاصمة للدولة.

على كل، يذكر المؤرخون ان عبد الرحمن نزل بجماعته ارضا غيضة اشبة، كانت لقوم مستضعفين من مراة وصنهاجة، فاتفق معهم على ان يدفع لهم ما تدر عليهم ارضهم من الاسواق، مقابل ان ييحواله بناء المساكن، فاختار موضعا لا شعراء فيه فبنى مسجدا من اربع بلاطات وقطع خشبه من تلك الشعراء<sup>(1)</sup>.

ولكي يضفي الامام عبد الرحمن على نفسه وعلى مدينته هالة من البركة والتكريم، تشبه بعقبة بن نافع في تأسيسه القيروان، فامر مناديا ان ينادي بسباع المنطقة ووحوشها يدعوها للخروج، فشوهدت خارجة تحمل أولادها<sup>(2)</sup> ويبدو انه كان يدرك ما ستركه هذا من اثر في نفوس البربر، فقد ذكر حسين مؤنس ان بعض البربر اسلم حين رأى عقبة بن نافع يخرج الحيات من موضع القيروان<sup>(3)</sup>.

ما ان تم الاتفاق بين الامام وأصحاب الارض حتى قسم المنطقة الى خطط ثم شرع الناس في البناء، ويذكر ابن الصغير ان الشروع في العمارة والبناء تم بعد مجيء وفد البصرة الاول، ثم بدأت المدينة تتسع بمن وفد عليها من كل الاقطار، اجتذبتهم بأمتها وعدلها ورخائها وازدهار تجارتها، فما ان قدم وفد البصرة الثاني حتى وجلوا تاهرت قد تطور عمراتها، ذلك «انهم نظروا الى قصور قد بنيت»<sup>(4)</sup>.

وصلت تاهرت أوج ازدهارها في عهد الامام افلح، فأزداد اقبال الناس عليها لانه متى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال الساكن فوسع المصر<sup>(5)</sup>.

(1) البكري: المغرب. ص: 68.

(2) ابو زكريا: المصدر السابق: ص: 39. الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 41.

(3) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب مكتبة الآداب القاهرة 1947م ص: 273.

(4) ابن الصغير: المصدر السابق. ص: 325.

(5) ابن خلدون: المقدمة.

وبأطراد هذا الأقبال تزداد المدينة رخاء، أي ان هناك علاقة متكافئة أو تناسب طردي بين ازدهار البلد واتساع عمرانها، وبالفعل فقد انعكس رخاء البلد على تطور عمرانها «حتى ابنتى الناس القصور»، فكانت العجم قد ابنتت القصور ونفوسة قد ابنتت العدة والجنود القادمون من افريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم<sup>(1)</sup> أيام ابن الصغير في القرن الثالث الهجري.

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد، بل تواصل في عهد الامام أبي بكر، فكانت البلد زائدة في العمارة<sup>(2)</sup> ولكن لم يذكر أي من المؤرخين شيئا عن عدد مساكنها أو سكانها لاني بداية عهدها ولا في اوج تطورها، بل ولا مساحة المنطقة التي شغلها، فكان من الصعب تقدير عدد سكانها، الا ان المقدسي يصفها بـ «بلخ المغرب» التي يصفها ابن حوقل بربضها نحو فرسخ في مثله<sup>(3)</sup> واذا اعتبرنا نصف هذه المساحة غير مسكون لسبب أو لآخر كأن يكون مخصصا للطرق والساحات، واذا اعتبرنا مساحة المنزل 25 مترا في مثلها كانت مساكنها حوالي اثنين وعشرين الف منزل واذا اعتبرنا الاسرة بين 4 — 5 افراد، كان عدد سكان تاهرت حوالي المائة الف ساكن.

وقد سبقت الاشارة الى ان ظروف المنطقة الطبيعية واهمية موقعها تتحكم في تطور المدينة العمراني، وهكذا مهما بلغت من تطور فهي لم تخرج عن حد معلوم يتوقف على تلك الاهمية والظروف، نعم كانت مدينة عظمى وجيلية المقدار في عهد اليعقوبي، لكن العظمة مسألة نسبية، ثم الا ترى ضعف مكانتها في القرن الرابع الهجري مما لا يسمح بالمبالغة في تقدير اتساع المدينة.

ويأخذ التطور العمراني صورا متعددة فان الوافدين الجدد يضيفون الى المدينة منازل جديدة ووفاء رجل تعني احتفاظ احد الابناء بالمنزل في حين يضطر باقي الابناء الى بناء منازل جديدة خاصة بهم، أو ان تحسن وضع العائلة المالكي يعني هدم المنزل أو تركه واقامة منزل احدث منه.

(1) ابن الصغير: المصدر السابق: ص: 336 واذا اعتبرنا الفن المعماري في تاهرت شبيها بالفن المعماري بسدرته فانظر: Marguerite Von berchem: Sedrata Ici Alger N° 1953.

(2) نفس المصدر: ص: 341.

(3) ابن حوقل: صورة: ص: 373.

وهناك ما يدعو الى الاتجاه المكسي، فان بلوغ تاهرت درجة عالية من الرخاء والترف يعني ظهور هجرة عكسية لان المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في اسواقه وأسعاره<sup>(1)</sup> فلم تعد اجور العمال والصناع وصغار التجار تكفيهم، فيضطرب بعضهم الى مغادرتها، ثم ان ما يتبع الحضارة والترف من فساد في الاخلاق قد يدفع بعض المتعصين لديهم الى هجرة المدينة<sup>(2)</sup>.

من جهة اخرى، فان ازدياد عدد سكان المدينة يعني ابتداء مواجهتها لمشكلة وهي تراكم الاوساخ والفضلات البشرية والحيوانية وغيرها، ولم يكن المسلمون يراعون موضوع التخلص من هذه الفضلات عند تأسيس مدنها، فلم يشر الرحالة أو المؤرخون الى وجود هيئة أو جماعة مسئولة عن نظافة المدينة، أو قل عن اعمال البلدية في وقتنا الحاضر، ولم يكن يتعدى دور المحتسب حمل الناس على رفع الاوساخ من الشوارع وكنسها امام منازلهم، لكنها لم تكن تخرج من المدينة، بل تلقى في المزابل، وقد اشار ابن الصغير الى وجودها، حتى ان دار الامام ابي اليعقوب حين هدمت في احدى الفتن الداخلية وكانت مزبلة من المزابل<sup>(3)</sup>، مما يعمل على نشر الوباء والامراض، والمناظر والروائح الكريهة، ويضطرب بعض الناس الى الفرار عن المدينة الى البادية.

كما تعتبر الفتن التي شهدتها تاهرت في اواخر العهد الرستمي، والحروب التي خاضتها تاهرت في عهد الفاطميين عاملا حاسما في هجرتها اذ كيف يمكن ممارسة أوجه النشاط الاقتصادي مع عدم توفر الامن والهدوء.

كانت تاهرت مقسمة الى احياء، اختصت كل قبيلة أو جنس بحى منها، مثلما جرى العمل به في المدن الاسلامية عامة، فكان للقرويين مسجدهم<sup>(4)</sup> وكان للكوفيين وللبرصيين مثل القرويين، واقامت نفوسة في «العدوة»، وربما المقصود بها الظاهر المشرف على المدينة<sup>(5)</sup>، وكان لها درب تخترقها تعرف بـ

(1) ابن خلدون: المقدمة فصل في ان الحضارة غاية العمران.

(2) نفس المكان.

(3) ابن الصغير: المصدر السابق. ص: 349.

(4) نفس المصدر: ص: 324.

(5) نفس المصدر: 348.

«درب النفوسيين» أكثره للعجم وبعضه لنفوسة مما يدل على إقامة العجم في حي خاص بهم مجاور للنفوسيين، وكان للعرب حي مجاور مدينة الجند.

ويدلو ان الرستميين قد خرجوا عما جرت عليه العادة في بناء المدن الاسلامية، والتي كانت تبدأ ببناء المسجد الجامع، ثم تقام بجانبه دار الامارة والسوق، فقد بدأ الرستميون بالمسجد الجامع حقا، لكن ابن الصغير لا يشير الى وجود «دار امارة» في تاهرت طيلة العهد الرستمي بل ذكر ان الامام عبد الرحمن كان يصرف امور الناس في المسجد الجامع<sup>(1)</sup>، ألا ان الشماخي يكشف عن وجود دار الامارة، فيذكر ان المسلمين بايعوا عبد الوهاب بيعة عامة «فحملوه الى دار الامارة<sup>(2)</sup>»، ويدلو ان الامام عبد الرحمن قد اتخذ دارا للامارة بعدما قوي امره وعظم، ثم يشير ابن عذاري الى وجودها في العهد الفاطمي فيذكر دخول بني خزر وزناتة مدينة تاهرت، وانهم نزلوا «دار الامارة<sup>(3)</sup>»، مما يدل على انها ظلت قائمة.

وقد تعددت المساجد في تاهرت فيما بعد، فكان للاباضية مساجدهم وجامعهم، ويدلو ان حي الرهادنة اشتمل على اكثر من مسجد، فيذكر ابن الصغير اعلى مسجد بالرهادنة، وإذا كان الشيعة لا يصلون خلف الحروري<sup>(4)</sup> فهذا يعني انه كان لهم مسجدهم أو مساجدهم الخاصة، وقد لاحظ المقدسي وجود جامعين على ثلثي البلد، وكانت تلك المساجد تحمل اسماء مؤسسيها، فذكر ابن الصغير «مسجد أبي...»<sup>(5)</sup>.

ويميل بعض المؤرخين الى ذكر وجود كنيسة في تاهرت، معتمدين على عبارة أوردها ابن الصغير، لكنها ليست كافية للدلالة على وجود كنيسة، فان ابن الصغير نفسه يذكر أن «دار هذين الرجلين — احمد — ومحمد تعرف بالكنيسة»

(1) حين قدم وفد البصرة قال: نخرج لهم الامام عبد الرحمن: نخرج الى المسجد الجامع نصل بالناس ونعلمهم بما حثم به وتم ذلك انظر: ابن الصغير: المصدر السابق.

(2) الشماخي: السور. ص: 145.

(3) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 198.

(4) الفاضلي الثعالب: الدعائم ج. 1. ص: 151.

(5) لم يذكر الاسم ربما لمعجز الحق عن قراءته.

وجلي من اسميهما أنهما مسلمان، فلربما كان اطلاق لفظ كنيسة على دارهما بحكم الجوار أو التشابه المعماري، بل أن ابن الصغير يذكر أن أعلى موضع في المدينة يعرف بالكنيسة<sup>(1)</sup>، لهذا لا نريد أن ننفي وجود كنيسة في تاهرت بل هو امر محتمل ما دام النصارى فيها.

وكان عبد الرحمن قد اتخذ من المسجد مقرا للقضاء، فذكر ابن الصغير انه جلس في مسجده للارملة والضعيف لكن اتساع المدينة وتعقد الحياة الاجتماعية فرض تطور القضاء، فخصص له «دار القضاء» التي اشار ابن الصغير الى وجودها في عهد الامام أفلح.

وكان هذا شأن اموال الزكاة، فلم يكن امرها يتطلب دارا خاصة في عهد الامام الاول، لكنها أصبحت ضرورية فيما بعد، فظهرت في تاهرت في عهد الامام ابي البقطان، وقد اشار ابن الصغير الى وجودها باسم «دار الزكاة» هذا بالاضافة الى وجود «دار الضيافة» وباختصار، فإن الرستميين بنوا جميع المؤسسات الحكومية التي يتطلبها تسيير شؤون البلاد.

وقد فرضت ظروف تاهرت الامنية على الرستميين بناء قصبة<sup>(2)</sup>، كانت مشرفة على السوق تسمى المعصومة<sup>(3)</sup>، ولئن لم يشر اليهقوني ولا ابن الصغير الى وجود مثل هذه القصبة، الا ان تاهرت بدأت تشهد بناء الحصون والقلاع بابتداء احتدام الصراع الداخلي، فان ابن الصغير يشير الى بعض الفتن دوغما اشارة الى وجود حصن، ويبدو ان الهزائم التي مني بها العجم والنفوسيون والرستميون في عهد الامام ابي بكر، فرضت عليهم لأول مرة بناء حصن، فاجتمعوا بعدوة نفوس «فبنوا حصنهم فيه وشيدوه» وهنا تقدم التجار «فقالوا للعرب والجنود لو بنينا حصنا تأمنون فيه ليلكم وتحصنون فيه ان دهمكم شيء من عدوكم، وهذه اموالنا في ايديكم فشرعوا في بناء الحصن»<sup>(4)</sup> بل ان بعض الحصون لم تظهر

(1) ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص: 345.

(2) عنها انظر: بورويغ رشيد: الرستمي الاصلالة عدد 41 الجزائر ص: 182. G. Marçais: Tibert.

Togdemt. PP. 24. 57.

(3) البكري: المغرب. ص: 66.

(4) ابن الصغير: المصدر السابق. ص: 347.

الا في عهد الامام أبي حاتم، إذ حين علمت العامة ومشايخ البلد ان الحرب دهمتهم «اسرعوا بينان حصنهم»، فتكون هذه الفترة هي فترة ابتداء ظهور الحصون والقلاع في تاهرت ثم خذت تتسع انتشارا بسبب هذه الحروب، خاصة في العهد الفاطمي، الذي يعتبر عهد الحروب والفتن بالنسبة لتاهرت، واليه يمكن ان ترد جميع المنشآت التحصينية التي ظهرت في تاهرت كقصبه المعصومة<sup>(1)</sup> مدينة العباسية: (239هـ / 853م).

يعتبر كتاب «فوح البلدان» اقدم مصدر يشير الى هذه المدينة فقد ذكر البلاذري ان محمدا بن الاغلب بنى في سنة 239هـ / 853م مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية ايضا فانحربها افلح بن عبد الوهاب الاباضي<sup>(2)</sup> لا انه لم يحدد موقعها، ولم يتعرض للدوافع محمد بن الاغلب الكامنة وراء اقدامه على بناء العباسية قرية من تاهرت.

ولا ندري، فلعل البلاذري لم تتضح مسألة «العباسية» امامه، فقد ذكر في موضع آخر ان عمرا بن حفص بلغ اقصى بلاد البربر وابتنى هناك مدينة سماها العباسية وهدمت تلك المدينة التي ابتناها<sup>(3)</sup>، وكذلك يذكر القلقشندي ان ابراهيم بن الاغلب، ابتنى مدينة العباسية بالقرب من القيروان سنة 184هـ / 800م.

وبناء على ما ذكره البلاذري، وعلى ان اقصى ما بلغه عمرو بن حفص هو مدينة طينة، بات من المقبول ان نرجح ان بلاد المغرب الاوسط شهدت

(1) عنها انظر: لقبال موسى: من فضايا التاريخ الرستمي ص: 58 وقد ذكر ابو زكريا ان ابا عبد الله الشامي حين دخل تاهرت وجد بها صومعة مملوءة كتباً فاستخرجها كلها واقتنى منها كل ما يصلح للملك والحساب واضرم النار في بقاياها ويدو ان بعض المؤرخين اعتبروا هذه الصومعة هي المعصومة وهو خطأ.

(2) البلاذري: فوح البلدان ص: 236 وينقل عنه ابن خلدون لكنه جعل تاريخا 227هـ 841م انظر: العمر، ج. 4. ص: 429.

(3) البلاذري: فوح البلدان ص: 234 وعن عمر بن حفص وحصار طينة انظر: الرقني القيرواني تاريخ ص 143 ابن خلدون: العمر ج 6. ص 226. ابن عذاري: البيان، ج 1. ص 76. وعن طينة البغدادي: وصف ص: 11 ابن حوقل: صورة ص: 85 مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص: 172. لقبال موسى: طينة بين ماضٍ حافل المجاهد الثقافي ماي 1968م.

بناء مدينة تدعى «العباسية» سواء بالقرب من تاهرت أو في منطقة الزاب، وبما ان عمرا بن حفص كان قد مخرج الى طينة لتحصينها، اصبح من المرجح ان تكون العباسية هذه عبارة عن مجموعة من الحصون بناها هناك، ثم تلاشت بعد ذلك اثناء الحصار الذي فرضه الخوارج على طينة أو نتيجة سيادة السلم وحسن الجوار على العلاقات التي ربطت الاغلبية بمجراهم الرستميين (1).

لكن الامر يختلف بالنسبة للعباسية القريبة من تاهرت، والتي توحى طبيعة العلاقة بين الطرفين بأنها لم تقم لاغراض عسكرية، فلا الامام افلح ولا الامير محمد بن الاغلب يضمن نوايا عدوانية تجاه الآخر، والا قرب الى الواقع، ان شهرة مدينة تاهرت التجارية، وسيطرتها على الطرق التجارية الى بلاد السودان الغربي والاورسط، وبما تجنيه من مكاسب مادية، قد اثارت في نفس الامير الاغليبي روح الغيرة والحسد، فارتأى بناء مدينة تنافس تاهرت وتشاركها في اهمية موقعها ومكاسبها (2).

ومن المستبعد ان يكون الامام افلح قد اقدم على تهديدها وتخريبها، لانه كان عليه ان يستعد لرد فعل الامير الاغليبي، ولان فعله ذلك لو تم، لكان إعلانا للحرب، ولم يذكر المؤرخون أي رد فعل لهذا الأمر، وما كان الأمير الاغليبي ليلتزم الصمت وهو يرى الامام الرستمي يهدم مدينته، فالارجح اذن، ان هذه المدينة الناشئة لم تستطع الصمود الى جانب مدينة تاهرت ذات الشهرة الواسعة، ولم ينلها حظ من حظوظ تاهرت التجارية، فانهارت تلقائيا.

مسوق حمزة: (أوائل القرن الثالث الهجري — التاسع الميلادي).

تقوم هذه المدينة في سهل فسيح يعرف بسهل حمزة، الذي نسبت اليه المدينة، فذكر انها «نزلها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين» (3)، ويذكر الحقوقي من جهته الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن أبي طالب ويضيف

(1) عن هذه العلاقات: جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ص: 73 — 123.

(2) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب العربي الكبير ج. 2. ص: 368. ابن تلويت: دولة الرستميين ص: 119.

(3) البكري: المغرب ص: 64 — 65.

وان أول المدن التي في يده مدينة يقال لها هاز والى هاز ينسب البلد (1)، وكان للحسن هذا من البنين حمزة وعبد الله وإبراهيم وأحمد ومحمد والقاسم، ويمكن أن فرق أعماله على بنيه مثل ما فعل محمد بن سليمان في تلمسان، فكان نصيب حمزة السهل المذكور حيث أقام مدينته.

ونظرا لأن إدريس الثاني عقد على تلمسان محمد بن سليمان حوالى 202 هـ / 817 م بات من المحتمل أن يكون نزول الحسن مدينة هاز بعد هذا التاريخ المذكور بقليل، ومنه فإن بناء مدينة حمزة يكون في أوائل القرن الثالث الهجري على وجه التقريب.

ويورد أبو عبد الله التنسي في كتابه «نظم الدرر والعقيان» رواية مختلفة فيذكر أن حمزة الذي نسب إليه وطاء حمزة من أحوال بجهة، هو ابن علي هذا صاحب تنس (2) أي حمزة بن علي بن يحيى بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وتبعوه عبارة اليعقوبي أقرب إلى الواقع، فإنه أقرب عهدا من التنسي إلى تلك الفترة، كما أنه زار المنطقة بنفسه ويؤيده البكري الذي يعتمد كثيرا على ابن الوراق.

وعلى كل، فإن اليعقوبي يذكر طريق سطيف تاهرت دون أن يشير إلى مدينة (سوق حمزة) ربما لأنها لم تكن ذات شأن حتى ذلك الوقت، وربما لأن اليعقوبي اكتفى بذكر مدينة هاز التي ينسب إليها البلد والتي نزلها الحسن بن سليمان السابق ذكره متخذاً منها قاعدة ملكه.

وإذا كان الاصطخري وابن الفقيه لا يذكران مدينة سوق حمزة ربما لميلهما إلى الإيجاز، فإن ابن حوقل يذكرها على طريق سطيف أشهر باسم (حائط حمزة) حين زال عنها ظل مدينة هاز، إذ أن زيري بن مناد الصنهاجي «أجلب على مدينة هاز وخربها» (3)، وأجلى عنها أهلها ربما لأن سكانها بني يريتان من،

(1) اليعقوبي: وصف ص: 12.

(2) التنسي أبو عبد الله: نظم الدرر والعقيان لمن نشره طبعات في مجلة التاريخ النصف الأول من سنة 1981. الجزائر ص: 13 - 33.

(3) الملي: تاريخ الجزائر ج. 2. ص: 89.



زنانة، منذئذ بدأ نجم سوق حمزة يسطع، فظهرت لأول مرة عند ابن حوقل كما سبق الى ان تغلب القائد جوهر على مملكة بني الحسن وحمل بني حمزة منهم الى القيروان<sup>(1)</sup>، وهذه العبارة تدل على انه لم يتعرض للمدينة أو لسكانها ربما لانهم صنهاجة، واستمرت المدينة سوق حمزة مشهورة حتى لفتت نظر المقدسي فذكرها على طريق سطيف تاهرت.

كانت الظروف مهيأة لانبثاق مدينة سوق حمزة، فان موقعها في ارض صنهاجة رمز الاستقرار والحضارة والانسجام السكاني، ووقوعها في فحوص افيج<sup>(2)</sup>، رمز الخصب ووقوعها على طريق دولي يربط المشرق بالمغرب وعلى طرق داخلية، رمز التأثير الحضاري واتساع دائرة التبادل التجاري، هذه العوامل هيأت أصحاب المنطقة لان ينتقلوا الى حياة المدن، وكان ظهور حمزة يمثل القطب الذي تجتمع عليه تلك القبائل شأن غيره من المشاركة الذين أسسوا ملكا في بلاد المغرب.

ويبدو من خلال الاسم الذي اطلقه عليها بانها سوق حمزة انها كانت مدينة تجارية بالدرجة الاولى، وان هذه الصيغة غلبت عليها، ويؤكد موقعها في سهل على الغاية التجارية من بنائها واستبعاد اية غاية عسكرية، فرما كانت في شأنها محطة تجارية تجتمع فيها القبائل المجاورة لتقوم بعمليات تبادل تجاري مع القوافل المارة، ثم اخذت تلك المحطة تنمو وتتطور بما عاد عليها موقعها من رخاء، واما نسبتها الى حمزة فذلك لانه يكون اشرف على تنظيمها وتوسيعها مثلما فعل غيره في مدنهم.

هذا بالاضافة الى ان حمزة وخلفاءه ساسوا البلاد في طريق الامن والاستقرار كغيرهم من العلويين مما كان له انعكاس ايجابي على علاقة المدينة بالبادية، والى وجود ابار عذبة ونهر جار<sup>(3)</sup> مما وفر لهم الماء الدائم، وقد اثر

(1) اليكري: المغرب. ص: 64.

(2) نفس المصدر: ص: 65. المقدسي: احسن التقاسيم. ص: 228.

(3) اليكري: المغرب. ص: 142. وهي تقع جنوب مليلة شرق تكور وعن امراء حراوة وصراع الحسن بن ابي العيش وموسى بن ابي العافية انظر: اليكري المغرب ص: 77 - 78. ابن خلدون: العبر ج. 4. ص: 35. 306 ابن حزم: جمهرة انساب العرب ص: 48. ابن عذاري: البيان ج. 1 ص: 194 - 196.

وقوعها في السهل على بنائها، فوصفه المقدسي انه من الطوب، وربما لهذا اضطروا ان يحصنوا مدينتهم بحفر خندق حول سورها.

جرواة ابي العيش: (257هـ / 870م).

قامت مدينة جرواة في سهل من الارض<sup>(1)</sup> ووصفت بان حولها فحوصا للزرع والضرع<sup>(2)</sup> وهذا يعني ان سكان منطقتها عرفوا الاستقرار ماداموا يمارسون الزراعة، فكان من نتائج هذا ان تحسنت احوالهم المادية والمعاشية فظهرت منهم طبقة ثرية.

وكان موضعها مركزا لعدة قرى لقبائل من البربر من مططرة وبني يفرن وودانة ويغمر الجبل وبني راسين وبني باداسن وبني وريمش وغيرهم وبهذا يرجع ان يكون المكان سوقا لها.

ومما زاد في اهمية موقعها، وجوده على الطريق الرئيسي الخارج من تلمسان باتجاه فاس فالاندلس والذي كان معمورا بالمارة، الا انه لا تجوز المبالغة في هذه الاهمية لانها تقع في ظل مدينة تلمسان المشهورة ولا تبعد عنها بأكثر من مرحلتين، وهكذا فقد انتزعت تلمسان هذه الاهمية الى حد ما.

من ناحية اخرى، فقد كان المحتطب قريبا من الموقع، فكان في اسفل جبل ممالوا على اربعة اميال منها شعاري أشبة لاتسلك.

ويروي التنسي ان محمد بن سليمان قد فرق اعماله على بنيه، فكان ان اقام ابنه ادريس بجراوة<sup>(3)</sup> ويفهم من هذا، اما ان المدينة كانت قائمة في ذلك التاريخ واما انها كانت نواة لمدينة جرواة، واما انه نزل على تلك القبائل حيث ستقوم جرواة فيما بعد.

(1) نفس المكان.

(2) نفس المكان.

(3) التنسي: المصدر السابق، ص: 24.

فاذا كانت المدينة قائمة فهذا ينفي ما ذكره البكري وابن عذاري وغيرهما من ان ابا العيش عيسى هو الذي اسس المدينة 257هـ / 871م وهو ابن ادريس بن محمد بن سليمان، الا اذا كان المقصود بالتأسيس هو التمدين والتوسيع وادخال إصلاحات وتعديلات، اما اذا كان التأسيس يعني بداية خلق المدينة وظهورها الى الوجود، فهذا ينفي ما رواه التنسي، بخصوص نزول ادريس على مدينة جراوة، ويبدو أن الاحتمال الاول أكثر قربا الى الواقع.

فيكون ابو العيش عيسى بن ادريس قد اعطى المدينة طابعا معماريا اسلاميا، فأتبع نفس عادة المسلمين في بناء مدنهم، فلا بد انه بنى مرافقها الضرورية، فبنى مسجدها الجامع من خمس بلاطات على اعمدة حجارة(1) وأشار البكري الى وجود خمسة حمامات، ويبدو ان طبيعة ارضها السهلية قد اثرت على مادة البناء، فكانت البيوت البسيطة من الطوب، بدليل استعماله في بناء سورها نفسه، كذلك فان تلك الطبيعة قد حالت دون بناء حصن لعدم توفر المكان المرتفع، مما دفع بابنه الحسن الى الخروج الى جبل ممالوا فبنى حصنه هناك.

وقد استمرت جراوة ابي العيش تنمو، بفضل الاستقرار الذي شهدته طيلة عهد مؤسسها، اذ مكث اميرا عليها ابتداء من 254هـ / 291م الموافق لـ 870هـ / 903م حيث ولها ابنه الحسن الذي استمر في امن وهدوء الى 319هـ / 931م ثم بدأت تعيش جوا من الاضطراب، مما ادى الى تدهورها حتى ان ابن حوقل يذكرها وكأنها من المدن المندثرة، مكتفيا بقوله انها «كانت عامرة أهلة، ولا يضيف المقدسي أكثر من ذكر اسمها مما يدل على انها فقدت اهميتها. تنس: (262هـ / 875م).

قامت تنس في منطقة تعرف بالخصب، فكانت كما وصفها ابن حوقل «من الخصب في جميع الرفهة — هكذا — بامر مستفاض(2)». فيها الفواكه المختلفة

(1) البكري: المكان السابق.

(2) ابن حوقل: صورة من: 78 وعن المدن الاسلامية في شمال افريقية انظر: Le Tourneau: Les Villes musulmanes de L'Afrique du nord. ALGER. 1957.

وأشهر الحبوب، وكان انتاجها يفيض عن الحاجة المحلية، فكان مفروضاً على المنطقة ان تلبس دوراً تجارياً، وبالفعل، فقد كانت يحمل منها الطعام الى الاندلس وإلى بلاد افريقية وإلى بلاد المغرب لكثرة الزرع فكان والحالة هذه لابد ان يقوم في المنطقة مركز تجاري تجتمع فيه القبائل للتبادل التجاري اذ لم يقتصر الفائض على منطقة تنس بل ان المناطق المجاورة لها لا تحظى فيها في حصتها وزيادة انتاجها مثل مدينة تاجنة وبني جليل اسن والغزة والخضراء وبني واريغن، وان اشترك هذه المدن في الحصب ونوع الانتاج فرض عليها ان تشارك في تصدير الفائض منه الى مناطق البعد، مما زاد في أهمية موقع تنس كمرفأ للتصدير البحري، وقد صادف بروز أهمية تنس هذه ازدهار تاهرت التجاري، فكانت تنس من مرافئ تاهرت وهذا مما زاد في أهميتها.

وازدادت هذه الأهمية باعتبارها معبراً الى الاندلس، فكان على المسافرين القادم من افريقية بحراً ان يسير محاذياً الساحل الى تنس، أو يسير من افريقية الى تاهرت براً، ومنها الى تنس ثم يعبر البحر الى الاندلس، وأكد الاصطخري هذا الدور، فذكر انها دعوة الى الاندلس كما كانت تنس محطة لاستقبال التجار الاندلسيين، فكانوا يتعدون بمراكبهم اليها ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها الى ما سواها(1) وهكذا فان ابتداء امر تنس كان سوقاً بدأ ينمو ويجذب الناس اليه، ويبدو أن الأرباح التي حققتها القبائل المجاورة هي التي دفعت بها الى دعوة التجارة الاندلسيين الى قلعة تنس لكي يتخذوها سوقاً ويجعلوها سكنى(2) ووعدهم بالعمول والرفق وحسن المجاورة، وحسن علاقة البادية بالمدينة عامل هام في تطور المدينة، ولما كان التجار انفسهم بحاجة الى قاعدة آمنة ينزلونها ويمشون بها، فقد لبوا دعوة القبائل ونزلوا القلعة وخيموا بها وانتقل اليهم من جاورهم من اهل الاندلس وغيرهم من اهل البيرة واهل تدمر(3).

(1) نفس المكان.

(2) البكري: المغرب. ص: 61.

(3) تدمر مدينة على ساحل الاندلس تصلها المراكب المقلعة من تنس في يوم وليلة وعن تدمر: الحموي:

معجم ج. 2. ص: 371.

وإذا كان بعضهم قد غادرها، فإن البعض الآخر — الذين يعرفون بالبحريين — قد ظلوا هناك فأسسوا مدينة تنس الحديثة، فكان منهم الكركري، وأبو عائشة والصقر وصهيب وغيرهم سنة 262 هـ / 875 م<sup>(1)</sup>، وأخذوا يمارسون تجارة التصدير والاستيراد فلم يزلوا في تزايد ثروة وعدد. وينعكس هذا الرخاء على عمران تنس ولاشك ويدل على أنه كان الدافع إلى انتقال أهل سوق إبراهيم — وكانوا أربع مائة بيت — إلى تنس فوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم وتعاونوا على البناء<sup>(2)</sup>، وبما سهل عملية الانتقال إلى المدينتين تقعان في دائرة نفوذ إبراهيم بن محمد بن سليمان.

على أنه لا بد من الإشارة إلى أن تنس كانت موجودة قبل البحريين، فإن محمدا بن سليمان المذكور أعلاه حين فرق إبنائه على أعماله كانت تنس من نصيب ابنه إبراهيم، فأقام فيها ثم خلفه إبنائه كما كان يقوم في ذلك المكان مدينة قرطاجنة الفينيقية ويدل على ما فعله البحريون هو بناء حي خاص بهم وبالقبايل التي استدعتهم، بعد ما أحرزوا على ثراء مكنهم من الميل إلى سكنى المدن، والآ فأمين تنس التي نزلها العلويون ٩

وعلى كل، فلا يقودنا ما تقدم ذكره إلى المبالغة في تصوير ما وصلت إليه تنس، فقد اقتضت أهميتها التجارية على حركة التجارة بين الأندلس والمغرب الأوسط، وبين المناطق المجاورة للمدينة هذا مع وجود موانئ أخرى منافسة مثل وهران، وإلى وجود الطريق البري عبر المغرب الأقصى وهو أكثر ازدحاما بالمارة، إذ من المعلوم أن طريقا بحريا يحتاج إلى يوم وليلة لاجتيازه مثل طريق تنس الأندلس، لن يلجأ إلا المغامرون أو المحترفون.

كذلك فإن بعض الناس لم يكونوا يتحمسون لسكنائها لوجود الوباء فيها، واعتمادا على البكري، فقد كان هذا العامل من بين الأسباب التي دفعت بعض البحريين إلى الرحيل عنها، ونزلهم المرية وبجاية، وينظر البعض من الناس إلى

(1) البكري: المصدر السابق. ص: 371.

(2) نفس المصدر: ص: 62. الحموي: المصدر السابق. ج. 2. ص: 415.

تنس على انها مدينة النحاس والبخل والدنس، لاشهامة ولا كرامة، حتى ان المسافرين اليها يؤثر مغادرتها في المساء على قضاء ليلته فيها، وهذه الامور وان كانت تعبر على نظرة زائر، الا انها دعاية سيئة للمدينة على اية حال.

هذه العوامل وغيرها، جعلت من تنس مجرد «موضع يقال له تنس»<sup>(1)</sup> في عهد يعقوبي، فقد كانت حديثة النشأة في عهده، لكنها تطورت فكانت مدينة فوق الصغيرة، حين شاهدها ابن حوقل، الا ان الاصطخري يعتبرها مدينة كبيرة<sup>(2)</sup> وعلى كل، فان الكبير والصغر مسألة نسبية، فليس على البحر فيما قاربها على شكلها بنواحيها في الكبير بل هي اكبر المدن التي يتعدى اليها الاندلسيون بمرآكهم.

وكانت تنس تتوزع بين سهل وجبل، بينها وبين البحر ميلان، وهي مسورة حصينة، داخلها قلعة صعبة المرتقى ينفرد بسكناها العمال في عهد ابن حوقل لحصانتها، وبها مسجد جامع واسواق، يمر بقربها نهر تاتين ومنه شربهم، ونظرا لانه يغلب على عمل اهلها الطابع التجاري بما يدره من ثروات يمكن للمرء أن يتصور قصورها، وهي وان كان المؤرخون لا يشيرون الى شيء من ابنتها، الا ان المرجح انها تأثرت بالطابع المعماري الاندلسي.

سوق ابراهيم: (مطلع القرن الثالث الهجري — التاسع الميلادي).

يعتبر يعقوبي اقدم رحالة اسلامي يورد اسم المدينة، اذ بعدما ذكر مدينة الخضراء انتقل الى ذكر مدينة سوق ابراهيم ثم مدينة تاهرت، وأشار الى انها آخر مدن العلويين باتجاه تاهرت، وحاول ابن حوقل تحديد موقعها فذكر انها «على نهر شلف»<sup>(3)</sup>، وهي تلي مدينة شلف طبر الغزة (الغزة)، فيذكرها المقدسي عقب المدينة المذكورة — الغزة — ومثله فعل الادريسي الذي أضف ان المسافة بين المدينتين مرحلة وان موضعها على نهر شلف وقد حدد مبارك الميلي موقعها بشكل اذق فذكر ان سوق ابراهيم حيث مصب نهر اسلي في شلف.

(1) الاصطخري: المصدر السابق ص: 38. البكري: المصدر السابق. ص: 62.

(2) يعقوبي: صفة. 13.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض. ص: 89.

ويتفق المؤرخون على أن هذه المدينة نسبت إلى مؤسسها الذي يدعى إبراهيم لكنهم اختلفوا حول هذه الشخصية، فيذكر اليعقوبي أن في مدينة سوق إبراهيم رجل يقال له عيسى بن إبراهيم بن محمد بن سليمان وهذا يدل على أنها كانت قائمة في عهد عيسى بن إبراهيم، وعليه فإن مؤسسها وبانيها والده إبراهيم بن محمد بن سليمان الذي أقطعه أبوه محمد مدينة تنس، بعد ما عقد الامام ادريس الثاني له على نلمسان حوال سنة 202هـ / 817م.

الا ان ابن حزم في كتابه «جمهرة انساب العرب» وابن خلدون في كتابه «العبر» يذكران أن مؤسس المدينة سوق إبراهيم هو احمد بن عيسى بن إبراهيم بن محمد بن سليمان الا ان ابا عبد الله التنسي لا يشير إلى وجود ابن لعيسى بهذا الاسم<sup>(1)</sup>، أحمد، بينما يذكر له ابنا يدعى إبراهيم فيقول: «ومن ولد عيسى هذا كان إبراهيم الذي ينسب إليه سوق إبراهيم بشلف<sup>(2)</sup>» فإذا صح وجود ابنين لعيسى احمد وإبراهيم فمن المرجح انهما اشتركا معا في بناء المدينة، وهذا امر محتمل الوقوع ما دام والدهما نفسه شارك عمهما محمدا الحكم، ثم نسبها بعض المؤرخين إلى الأول بينما نسبها البعض الآخر إلى الثاني، الا ان تسمية المدينة منسوبة إلى إبراهيم ترجح ان يكون إبراهيم هو مؤسسها وبانيها، وسواء نسبت المدينة إلى إبراهيم بن محمد وهو الأرجح أو إلى إبراهيم بن عيسى، وبأخذ تعيين إبراهيم بن محمد على مدينة تنس في مطلع القرن الثالث الهجري بعين الاعتبار، فإن المدينة تعتبر إحدى المدن التي نشأت في القرن المذكور في بلاد المغرب الأوسط.

وكان شأن هذه المدينة شأن مدينة سوق حمزة، فإن ظهور كلمة «سوق» في اسمها تدل على أنها مدينة تجارية بالدرجة الأولى، وليست لها أية صبغة عسكرية، اكتسبت أهميتها من وقوعها على الطريق الرئيسي الرابط شرق البلاد بغربها، مع ما لهذا الطريق من مميزات هامة.

وهذه الأهمية بالنسبة لموقعها قد تدل على أن امرها ابتدأ محطة تجارية على الطريق من الخضراء إلى تنس ومن الخضراء إلى تاهسرت، ثم

(1) أبو عبد الله التنسي: المصدر السابق. ص: 26، وإن كان الحق، حاجيات ذكره في شجرة السلطانيين، نفس المصدر ص: 29.

(2) نفس المصدر.

أخذت تنمو وتردهر، بفضل ملحق قبائل المنطقة من ثراء وتقدم فمالت نفوسهم إلى سكنى المدينة، ولا يزيد مافعله إبراهيم عن تخطيطها، وإضفاء صبغة علوية عليها، على أن تطورها لم يصل حدا بعيدا، فهي إذا كانت «المدينة المشهورة»<sup>(1)</sup> في عهد يعقوبى فقد كانت مدينة صغيرة فيها حمام وسوق في عهد ابن حوقل، ربما لأنها قرية من مدينة تنس التي طغت شهرتها على ما جاورها، حتى اجتذبت إليها اربعمائة بيت من سكان سوق إبراهيم كما سلف.

وهران: (290هـ / 902م).

بنى مدينة وهران محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين الذين ينتجعون مرسى المدينة سنة 290هـ / 902م<sup>(2)</sup> إلا أن ظهورها لم يتم فجأة إذ أن هناك ظروفًا انبثقت عنها ميلاد مدينة جديدة، فإن قبيلة مغراوة ذات عهد بالتمدن، وعاشت قبائل المنطقة كنفزة وإزداجة عهدًا من الأمان والهدوء، وكانت منطقة وهران تنصف بالخصب<sup>(3)</sup> فحصل فائض في الإنتاج، مما فرض على المنطقة أن تدخل الميدان التجاري وتنتج ثراء بعض الأفراد الذين بدأوا يتزعون إلى الاستقرار والتمدن.

ويبدو أن أمرها لا يختلف عن تنس، فبدأت سوقًا مركزيًا للمنطقة، ازداد أهمية بتزول التجار الأندلسيين عليه فجعلوه قاعدة تجارية ينطلقون منها إلى الأندلس وإلى ما حولها، فذكر ابن حوقل أنها «فرضة الأندلس إليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال».

ونظرًا لقيام أهمية منطقة وهران على التجارة الفلاحية، فقد سارت في نموها سيرًا بطيئًا فتأخر ظهور وهران ونموها، حتى أن يعقوبى لا يشير إلى

(1) يعقوبى: صفة ص: 13.

(2) البكري: المصدر السابق ص: 78. فكانت مغراوة قد احتطت وهران قبل الإسلام انظر محمد بن

عبد القادر: نخبة الزائر ص: 18.



وجودها بتاتا، ومثله فعل ابن الفقيه، وهذا يعني انها حتى نهاية القرن الثالث الهجري، لم تنشق عن ظروف المنطقة مدينة تلفت نظر الرحالة وهذا يدل على ان التجار الاندلسيين لم يفعلوا أكثر من تنظيم تجارتهم في اماكن خاصة وحولها مساكنهم.

وربما يرجع بطء نموها الى احاطتها بمدن اكبر اهمية فكانت اقطابا تجذب السكان اليها مثل تلمسان المدينة العظمى وتاهرت وتنس وهكذا أقتصرت نشاط وهران على المنطقة الضيقة المحيطة بها، وهذا الوضع لايسمح بظهور مدينة عظيمة.

بل حتى بالنسبة للتجارة مع الاندلس، لم تستطع ان تفرض نفسها كبوابة اليها، ففي الشرق كانت تنس وفي الغرب كانت ناكور وطنجة بوابتين لتلمسان ونواحيها، ولم يشر لا اليعقوبي ولا ابن الفقيه الهمذاني ولا الاصطخري الى وجود طريق يربط تلمسان بوهران، بل لم يسيروا الى وقوع هذه الاخيرة على اية طريق تجاري، وكان هذا حالها على عهد ابن حوقل والمقدسي اي طيلة القرن الرابع الهجري.

ولقد لعبت الفتن الداخلية دورا هاما في إعاقة تطورها فما ان مضت سبع سنوات على تأسيسها حتى تعرضت الى زحف قبائل كثيرة للنار من بني مسغن من سكان المدينة، فحاصرت وهران، ثم خربتها واضرمتها نارا في ذي الحجة 297هـ / 910م(1)، ثم عاد اليها سكانها بأمر عامل الفاطميين على تاهرت سنة 298هـ / 911م وابتدأوا ببنائها في شعبان من هذه السنة فعادت احسن مما كانت(2) وعاد اليها محمد بن ابي عون.

ويضيف البكري انها لم تزل في عمارة وزيادة وحسن حال الى سنة 343هـ / 961م حيث دخلها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني بن صالح فملكها ونقل اهلها الى مدينته وخرب مدينة وهران ثانية وحرقها وبقيت كذلك

(1) البكري: المصدر السابق. ص: 70. محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر ص: 18.  
(2) نفس المكان: بنو مسغن أوردوها صاحب كتاب الاستبصار بنو مسكين ص: 134.

سنيين<sup>(1)</sup> ثم تراجع الناس عنها وبنيت مرة أخرى، وهكذا فلم يكتب لها ان تصبح مدينة عظيمة في القرن الرابع الهجري.

ولم تتوفر معلومات عن بنائها، وان كان من المرجح انه خضع للفن المعماري الاندلسي، كما لم تتوفر معلومات عن احبائها، ووصف منازلها وعدد سكانها الا ان ظهورها كمدينة جديدة يدل على دخول بلاد المغرب الأوسط عهدا جديدا من التمدن.

المسيلة: (315هـ / 917م).

اشرنا سابقا الى القبائل التي كانت تقطن المنطقة التي بنيت فيها المسيلة، فكانت قبيلة بني برزال<sup>(2)</sup> ولهم كانت ارض المسيلة وبنو كملان من هوارة وزنداج وسدراته ومزاة وعجيسة وهي قبائل اباضية في جملتها<sup>(3)</sup> فكانت من الطيبي ان تناهض الفاطميين وتقتض مضاجعهم.

كذلك فان هذه القبائل تقع خارج الدائرة الاغلبية فقد حافظت على استقلالها في مضاربها ولكنها وجدت نفسها فجأة تحت سيطرة الفاطميين فقاومت هذا الوضع الجديد، فكانت خطرا يطرق ابواب الفاطميين عن قرب، ولم تكن مما يستهان بها فقد كادت بتحالفها مع ابي يزيد مخلد بن كبداد فيما بعد ان تضع حدا ونهاية لدولة الفاطميين.

من جهة ثانية فان بلاد المغرب عامة، لم نصف للفاطميين فكانت جيوشهم تحارب بعيدة عن العاصمة ولم يكن من السهل امدادها بالموونة والنجادات، فكان هؤلاء بحاجة الى قاعدة متقدمة تتخذ رباطا للجيش الفاطمي.

(1) نفس المصدر: ص: 71.

(2) ابن خلدون: المعرج، 7. ص: 50 — 57 وعن بني برزال انظر: ابراهيم فخار: بنو برزال المسيلة في البرازيل مجلة التاريخ، 1980 ص: 70 — 84 نفسه: بنو البرزال. مجلة الثقافة عدد 20 ماي 1974 ص: 30 وما يليها.

(3) عن علاقة المذهب الاباضي بالشيعي العلوية: انظر عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي ص: 231 وفحص عجيسة قرب مدينة الغدير ومن حصونهم جبل كيانة وقد نصروا ابا يزيد مخلد بن كبداد ثم خضعوا للمسيبيين وبقيهم في عهد ابن خلدون (ق 8هـ) في ضواحي تادلس والجبال المطلة على المسيلة وعن عجيسة انظر: ابن خلدون: المعرج، 6. ص: 293.

ومن هنا أرتأى الفاطميون ضرورة إقامة حصن في تلك المنطقة — مسيلة — تكون قاعدة للجيش، ومصدر تموين، وسدا امام ماقد تتعرض له الخلافة من هجمات زناتية، ويبدو أن أبا القاسم الفاطمي قد أدرك حاجته الى مثل هذه القاعدة، وأهمية موقع مسيلة، فأمر ببنائها، وما يوضح الغرض العسكري من بنائها، أن أمر أبي القاسم الفاطمي ببنائها جاء في انصرافه من حملته التي قام بها الى بلاد المغرب سنة 315هـ / 917م وحين وصل وادي سهر قافلا واختط مدينة المسيلة، وسمها برعجه وهو راكب على فرسه<sup>(1)</sup> ثم انه أمر عليا بن حمدون «أن يبنها ويحصنها» وبالفعل فقد أحاطها بسورين، تحيط بهما ساقية من وادي سهر وقد عبر الشاعر ابن هاني الأندلسي عن هذه الوظيفة العسكرية للمسيلة في قصيدة قالها في بني حمدون جاء فيها (من البحر الكامل).

سد الامام بك الثغور وقيله هزم النبي بقومك الأحزاب<sup>(2)</sup>

من ناحية أخرى فان لمنطقة المسيلة كروما واجنة كثيرة، ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير، وتكثر عندهم المواشي من الدواب والأنعام والبقرة، أي أنها تتمتع بوفرة اقتصادية، لفتت أنظار الفاطميين إليها، فاعتبروها موردا هاما للمؤونة التي هم بحاجة إليها.

وتتجلى هذه الغاية في الأمر الذي وجهه أبو القاسم لابن حمدون والمتعلق في أن «يدخر فيها الأقوات وأنواع المأكولات وكل ما تنضم اليه الضرورة ففعل وزاده<sup>(3)</sup>» ويتبادر الى الذهن أنها سياسة اقتصادية يراد بها مواجهة الأزمات الاقتصادية في المنطقة فان ما ذكره ابن حماد من ان ابن حمدون كان يكتب

(1) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد ص: 12 ابن عذاري: البيان ج. 1 ص: 190 وعن خروج أبي القاسم في حملته الى بلاد المغرب ص: 315 انظر: ابن خلدون: العبر ج. 4 ص: 82 وحين مر بمكان بلد المسيلة وبها بنو كملان من هواراة وكان يتوقع منهم الفتن فنقلهم الى فج القروان ولما نقلهم أمر ببناء للمسيلة في بلدهم، ابن خلدون: نفس المكان ويذكر ابن عذاري خطأ ان عبيد الله الشيعي ابتداء بناء المسيلة 313هـ في وسط أرض بني برزال وبني كهلان على قرب من هواراة، البيان ج. 1 ص: 190.

(2) ابن هانيء الأندلسي: ديوان ابن هانيء قصيدة 6 بيت 40.

(3) ابن حماد: المصدر السابق ص: 13 وردت هذه الجملة هكذا في الكتاب وتبدو وكلمة تنضم في غير مكانها، ولم يتمكن عمق الكتاب من تصويبها في الجملة ويفضل أن تستبدل بكلمة «ندعو».

الى أبي القاسم «إذا ارتفعت الأسعار واغبت الأمطار يستأذنه في البيع ويعمله بما في ذلك من الزيادة والنفع فإياه بل يأمره بالاستكثار والادخار»<sup>(1)</sup> وقد أكد ابن خلدون الوظيفة التجميعية للمسيلة بذكره أنها كانت ميرة للمساكر عند محاصرة المنصور لابي يزيد بجبل كيانة<sup>(2)</sup>.

على كل، أسس ابو القاسم الفاطمي مدينة المسيلة 315هـ / 917م وقد اسند امر بنائها الى علي بن حمدون<sup>(3)</sup>، كانت ظروفها الاقتصادية قد ساعدته على ان يجعلها مدينة مزدهرة، وساعده على هذا، اقبال الأندلسيين عليه، ويقدم الشاعر ابن هانيء الأندلسي<sup>(4)</sup> صورة عما وصلت اليه المسيلة من رخاء وترف حتى صاروا يستخشنون نسيم العليل لفرط حساسيتهم وبصفها ببغداد المغرب فيقول (من البحر الطويل):

تبغدد منه الزاب حتى رأته يهب نسيم الروض فيه فيستجفي  
ارضا وطئت الدر رضراضا بها والمسك تربا والرياض جنابا  
ويشير الى قصورها:

ديوان ملك لو رأته فارس ذعرت وخر لسمكه ايوانها .

الا انه تجدر الإشارة هنا الى ان تأسيس المسيلة لم يكن نابعا من ظروف المنطقة نفسها، فان سكان هذه المنطقة لم يصلوا مرحلة من التحرر من القيود القبلية، حتى ان بني برزال، أنفسهم لم يبلغوا مرحلة سكنى القرى، كما ان الموقع نفسه ليس على تلك الأهمية فلم يكن مؤهلا لاحتضان مدينة، لهذا نرى أن المسيلة ظلت على درجة اقل من بعض المدن الأخرى كالقبروان وفاس.

(1) نفس المكان.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق ج. 4. ص: 175.

(3) علي بن حمدون بن سمالك بن مسعود الجذامي، اتصل بالمهدي وابنه القائم بالمشرك وصحبهما الى المغرب، ولما بلغوا طرابلس ارسله المهدي الى ابي عبيد الله الشيعي فادى الرسالة وانصرف الى سحلماسة وبقي في خدمة المهدي هناك وقد استندت اليه مسؤولية بناء مدينة المسيلة ثم أصبح عاملا عليها الى ان مات 334هـ في حروب ابي يزيد بن كيداء، فخلفه ابنه جعفر لكنه انخرط الى طاعة الأمويين، وانتهت حياته على يد المنصور بن ابي عامر.

(4) ابن هانيء الأندلسي: ديوان ابن هانيء قصيدة 36 بيت 54 فصلة 62 بيت 26 فصيد 57 بيت 4 وعن إمارة ابن حمدون: انظر مبارك البلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج. 2 ص: 128 — 132 محمد البعلوي: بلاط ابن حمدون بالمسيلة مجلة الاصاله 243 ص: 48 — 61.

ولم يذكر المؤرخون أو الرحالة شيئا عن جغرافيتها العمرانية فلم يصفوا  
أبنيتها أو أحياءها ولا عدد سكانها، الخ....، لكنها على أية حال مدينة جديدة  
تضاف الى قائمة المدن التي ظهرت في المنطقة.

أشير: (324 هـ 935 م<sup>(1)</sup>).

يكاد يجمع المؤرخون والرحالة على أن مؤسسها هو زيري بن مناد  
واستدلوا على هذا من أبيات لعبد الملك بن عيشون ذكرها البكري نقلا عن  
محمد بن يوسف الوراق جاء فيها: (من البحر السريع).

يأبى السائل عن غربنا وعن عمل الكفر أشير  
عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للافك والزور  
أسسها الملعون زيريا فلعة الله على زيري<sup>(2)</sup>

ويظهر ان تأسيسها لم يكن لغاية عسكرية فان الصنهاجين لم يكونوا  
قد أعلنوا تأييدهم للفاطميين حتى ذلك التاريخ، بل كان نتيجة حتمية لما بلغه  
بعض الصنهاجين من الثراء، نالوه خاصة بانتصاراتهم المتواصلة على زناتة فذكر  
ابن الأثير<sup>(3)</sup> أن اتباع زيري كثروا بعد انتصاره على زناتة فضاقت بهم أرضهم  
فقالوا له: لو اتخذت لنا بلدا غير هذا، فصار بهم الى موضع مدينة أشير، ألا  
أن ضيق الأراضى لا يكفي لإقامة مدينة جديدة، لولا أنهم كانوا من أهل الثراء،  
وان اطلاق اسم أشير التي هي «ياشير» بلغة البربر وتعنى المخالب كناية عن  
انقضاضها على كل من تسول له نفسه المساس بأمنها، لايقوم دليلا على غايتها  
العسكرية، بقدر ما يدل على اعتزاز زيري بنفسه وبقومه.

وكان كبير قبيلة تلكاته مناد بن منقوش بن صنهاج كثير المال والولد،  
حسن الضيافة لمن يمر به، وقد ملك جانبا من افريقية والمغرب الاوسط مقيما  
لدعوة العباس مراجعا الى امر الأغالبة<sup>(4)</sup> وفي هذا البيت نشأ زيري بن مناد.

(1) لزهد من التفاصيل: بروية رشيد: أشير عاصمة بني زيري. مجلة الأصالة ع. 2. ص: 133 119  
وهي تقع في ولاية الشيطري حاليا قرب قرية عين يوسف.

(2) البكري: المغرب ص: 60 وعن زيري: ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 306 الحموي معجم ج.  
1 ص: 264 ابن خلدون: المعبر ج. 6. ص: 317 ابن الأثير: الكامل ج. 8. ص: 47.

(3) ابن الأثير: المكان السابق.

(4) ابن خلدون: المعبر ج. 6. ص: 212.

وكان زيري هذا سيدا في قومه يسكن الجبل، فأثرت في شخصيته ومنحته القوة والشجاعة، ثم جمع حوله جيشا من ابناء عشيرته فأغار بهم على من حوله من زناتة والبربر ورزق الظفر بهم مرة بعد مرة، ثم تابع هجماته على زناتة، فعظم جمعه وطار صيته وطالبته نفسه بالامارة (1) فكان عليه ان يضع حجر الاساس لدولة صنهاجية ترأسها تلكاته، وكان عليه ان يشرع في بناء مدينة له، خاصة وان صنهاجة كانت بصفة عامة من البربر المتحضرين، ولما كان القرن الثالث بل وأوائل الرابع الهجريين عهد أمن وهندوء بالنسبة لصنهاجة على الأقل، مما أدى الى تطورها فمالت نفوسهم الى ترك حياة الجبال والنزول في المدن.

فخرج زيري بن مناد برناد مكانا مناسباً، وقد دل على بعد نظره حين وقع اختياره على موضع خال وليس به أحد مع كثرة عيونه وسعة فضائه وحسن منظره (2)، وبعبارة اخرى كان يتوفر لهذا المكان الامن والماء والخصب وهي «بين جبال شائعة محيطة بها» (3)، مما يوفر لها الحماية والمختطب، كذلك فهو على الطريق الرئيسي الرابط بين تريفية وبلاد المغرب مرورا بالمسيلة.

فشرع زيري في بناء المدينة 324هـ / 935م مستعينا ببنايين من المدن القريبة كالمسيلة وطبنة وغيرها (4) فتمت على احسن حال وقد اعانه الخليفة الفاطمي القائم في تشييدها فبعث له مهندسا ماهرا، وعمالا ومواد البناء وخاصة الحديد، وربما أنه اتبع النمط الاسلامي في بناء المدن ويذكر ابن الأثير أن بلكين بن زيري حاصر مدينة تلمسان وحين نزلوا على حكمه عفا عنهم الا أنه نقلهم الى مدينة أشير ومن المرجح أن هؤلاء كانوا من ذوى الحرف والمهن والذين سيعطون روحا جديدة للمدينة.

وقد أدرك زيري أن منطقة أشير معين يزخر بالخمر والرزق، فحمى «أهل تلك الناحية وزرع الناس فيها» (5) مما اجتذب اليها غيرهم من تلك النواحي «طلبا

(1) الحموي: معجم. ج. 1 ص: 264.

(2) نفس المكان.

(3) البكري: المغرب. ص: 60.

(4) الحموي: المكان السابق.

(5) نفس المكان. ثم انظر بوروية رشيد: أشير عاصمة بني زيري ص: 118.

للأمن والسلامة، وهذا بدوره أدى الى تطور أشير واتساعها حتى صارت مدينة مشهورة وكان أهل نواحيها من الرحالة يتعاملون بالمواشي، ويفيد بوروية رشيد نقلا عن النويري أن الشعوب الرحالة التي كانت ساكنة بنواحي أشير رضيت بخدمة الأرض.

ولم تمض سنوات قليلة حتى انتشرت فيها اجنة ومزارع سمحت لزيري بمديد العون للخليفة الفاطمي بمائة حمل من القمح وبما تسمى فارس ويبدو أن زيري قد استكثر من العبيد حتى ان مساعدته تلك اشتملت على مائة عبد وهذا ما يدل على اطراد اتساعها ولم تقم المدن الحديثة في المناطق الصنهاجية فحسب، بل ظهرت مدن اخرى في مناطق زناتة ومنها مدينة أفكان(1):

تقع مدينة أفكان في منطقة وصفت بأنها «عمران كلها» تقطنها قبائل زناتة كما سبق وهي قبائل رحالة بدرجات متفاوتة وعرف بعضها الاستقرار حتى قال عنها الادريسي أنهم «يتجمعون من مكان الى مكان غير أنهم متحضرون(2)» ويظهر انها ابتدأت سوقا لهذه القبائل، ثم تطورت امورها حتى اصبحت مدينة، فان البكري يذكر ان موضعها كان سوقا قديمة من اسواق زناتة(3).

وربما كان تطور هذه السوق باعتبارها ملتقى قبائل عديدة ووقوعها في منطقة خصبة وعلى وادي الصفاصف، وهو واد جار، كذلك وقوعها على الطريق الرئيسي بين تاهرت وتلمسان فالمغرب الأقصى، مما سمح لها — إفكان — ان تدخل باب حركة تجارية دولية كان لها تأثير حضاري على المنطقة اضافة الى تأثيرها الاقتصادي ولا يغيب عن البال أن بعض قبائلها قد عرفت القمدن فاذا كانت مدينة تلمسان نفسها من بناء قبيلة بني يفرن قبل الاسلام، فليس غريبا ان يشرع احد زعمائها يعلى بن محمد بن صالح اليفرن — وكان قد عظم صيته — في اتخاذ مدينة له ولقومه، فما كان منه الا ان قام بمدنين تلك السوق(4).

(1) عنها انظر: البكري المغرب ص: 79 ابن حوقل: صورة الارض ص: 88 الادريسي. نزهة ص: 82 — 83.

(2) الادريسي: نفس المصدر ص: 88.

(3) البكري: المكان السابق. بينما يذكر صاحب الاستبصار انها مدينة ازالة كبيرة فيها آثار للاول ص: 135.

(4) نفس المكان.

اضافة الى ذلك فان ظروف المنطقة نفسها ساعدت على هذا الظهور والنمو، فهي تقع في سفح جبل أوشيلاس ويتوفر الماء الدائم لوقعها على نهر سيره ومنبعه من عيون بشرقيها كما كان بغربها مجمع وادي سيره ووادي سي ووادي هنت، كذلك يتوفر لها المختطب، فقد كان جبل أوشيلاس المذكور «شعرا غامضة».

ولكن، يبدو ان هيمنة تاهرت التجارية في العهد الرسمي كانت حجرة عثرة امام ظهور مدينة افكان، اذ ما ان انهارت تاهرت حتى خلا الجو امام السوق القائم في موضع افكان لتأخذ مكانتها مما اتاح ليعلى ان يمدنها كما سلف سنة 338هـ / 954م ولم يكن يلقي معارضة فاطمية مادام يتبع بولائه لم حتى مقتله سنة 347هـ / 961م.

ولما اشتهرت نواة مدينة افكان في المنطقة، ارتحل اليها اهل المعسكر من اهل تاهرت وبلل وشلف<sup>(1)</sup> بني واطيل ووهران وقصر الفلوس وعمرت وتمدنت وعظمت<sup>(2)</sup> فبنوا المرافق الضرورية كالجوامع والحمامات ونظرا لسيطرة الطابع التجاري عليها فقد بنوا الخانات والفنادق وكانت القصور من الكثرة بحيث لفتت نظر ابن حوقل، الذي اقتصر على الاشارة الى أرحية وحمامات وقصور افكان.

واذا كانت ظروف قد ساعدت على ظهورها فان ظروفها اخرى قد حالت دون بلوغها حدا أعلى مما وصلت اليه، فإن استمرار الصراع بين قبائل زناتة والفاطميين ودخول مؤسسها يعلى حلبة الصراع حتى مقتله، قد اثر على المدينة فخربت فبعث اليها المنصور بن ابي عامر من بناها وعمرها<sup>(3)</sup> ثانية، ومهما كان امرها فقد كانت مدينة جديدة وثمررة تطور اقتصادي واجتماعي للمنطقة، ثم اصبحت بدورها نقطة اشعاع اثرت فيما حولها ماديا واجتماعيا.

(1) يذكرها ابن حوقل. شلف بينها جاءت عند البكري بصورة شاطيء، واطيل ص: 79. وبصورة شلف بني واطيل ص: 69.

(2) البكري: نفس المصدر ص: 79. وعن المعسكر انظر: ابن حوقل: المصدر السابق ص: 88 — 89 الادريسي: المصدر السابق ص: 84 وهي مسير مرحلة عن افكان.

(3) مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص: 135.



جزائر بني مزغنة<sup>(1)</sup>: (حوالي 336 هـ / 947 م).

ذكر يعقوبي ان المسافر يخرج من حصن ابن كرام الى بلد يقال له متيجة... وهو بلد واسع. فيه عدة مدن لكنه لم يذكر جزائر بني مزغنة ربما لميله الى الانجاز، وربما لانها اقل اهمية من متيجة، التي طغت شهرتها على المنطقة حتى نسب البلد اليها، ولم يكن اغفاله ذكرها لينفي وجودها، إذ هي على اية حال قديمة البنيان فيها آثار للأول وازاج محكمة تدل على انها كانت دار مملكة لسالف الام<sup>(2)</sup>.

ولم يتعرض المؤرخون الى هذه المدينة في القرون الاولى من الفتح الاسلامي، لكن يعقوبي أشار من جهته الى ان المنطقة — متيجة تغلب — عليها رجل من ولد الحسن بن علي بن ابي طالب، يقال لهم بنو محمد بن جعفر ولم يفصح التاريخ عن هذه الاسرة في هذه المنطقة، الا عبارة ذكرها ابن عذاري فقال: انه في 15 رمضان سنة 337 هـ / 949 م قد وصل الى الخليفة الناصر وهو في الزهراء قرب قرطبة منصور وابو العيش ابن ابي العافية ومعهما حمزة بن ابراهيم صاحب جزائر بني مزغني<sup>(3)</sup>، وهذا يدل على ان المدينة كانت يقيم فيها العلويون طيلة القرن الثالث الهجري والثالث الأول تقريبا من القرن الرابع.

ويمكن الربط بين اسناد الولاية الى زيري بن مناد سنة 335 هـ / 946 م، من طرف المنصور الفاطمي، وبين ظهور حمزة بن ابراهيم السابق الذكر في بلاط قرطبة سنة 337 هـ / 948 م، فيستنتج انها خضعت لزيري بين هذين التاريخين وبالتالي، فانه من المرجح ان يكون اختطاطها على يد بلكين قد وقع في هاتين السنتين، وكان بلكين قد حصل على امر اختطاطها من والده، فذكر ابن خلدون «ثم اختط ابنه بلكين بامرهم وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة<sup>(4)</sup>» دون ان يحدد التاريخ بالضبط.

(1) وردت عند المقدسي على صورة جزيرة بني زغاية وعند ابن حوقل وصاحب كتاب الاستبصار جزائر بني مزغاي وعند البكري وابن عذاري جزائر مزغني ابن خلدون جزائر بني مزغنة وعن المدينة انظر: عبد الرحمن الجيلالي تاريخ المدن الثلاث ط 2 الجزائر 1392 / 1972 م.

(2) البكري: المغرب. ص: 62.

(3) ابن عذاري: البيان ج. 2. ص: 241.

(4) ابن خلدون: المعبر ج. 6. ص: 154.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صنهاجة كانت صنفين فهناك بعض قبائلها يخضع لامارات علوية بمعنى أنها تعيش في نظام دولة، وإذا تذكرنا سياسة العلويين القائمة على المسالمة وحسن الجوار أدركنا أن قبائلهم الصنهاجية كانت في نعيم ورخاء، فقد لاحظ ابن حوقل أن فيها أسواقا كثيرة وأن أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة ولهم من العسل ما يجهز عنهم والتين، وقد حازت خير البر والبحر، وهذا الحال يستدعي تطورا في عمران المدينة.

وفي نفس الوقت، كانت بعض قبائل صنهاجة تعيش تحت إمرة أمراءها وشيوخها بمعنى أنها تعيش في ظل نظام قبلي، كان منهم مناد بن منقوش والد زيري، وإذا كان دخول زيري المدينة يمثل الصراع بين الصنفين، فإنه يعني أيضا احتضان المدينة لأعداد من اتباع زيري دخلوا بدخوله.

مما تقدم، يمكن أن نعطي الاختطاط معنى التجديد والتوسيع فيتمثل دور زيري في إجراء إصلاحات داخل الأسوار واختطاط مساحات خارجها وتوزيعها على الطوائف على المدينة وعلى من كانت له رغبة في البناء، مع مراعاته الخط الإسلامي في بناء المدن، وتقاليده البربر في البناء<sup>(1)</sup>، وطبع المدينة بطابع صنهاجي موال للعبيدين، والاستئثار بالامتيازات التي كانت للعلويين فيها.

كانت مدينة الجزائر قاعة في إطار قاعة العلويين<sup>(2)</sup> كل في إمارته، فكانت دائرة علاقتها ضيقة، فلم يشر اليعقوبي مثلا إلى أنها عدوة إلى الأندلس، لكن أمرها تغير بدخولها الحظيرة الزيرية، فقد أصبحت جزء من الدولة الصنهاجية تحت إمرة رجل طموح زيري وصل بنحوه إلى الجناح الغربي من بلاد المغرب الأوسط ضد زناته، ولا يمكن أن تكون بمعزل عن هذا الوضع، فتأثرت به فتأثرت من الغنائم التي طالما استولى عليها الزيريون، وتأثرت بسياسة زيري الاقتصادية وتشجيعه الزراعة، واتسعت دائرة علاقاتها فكانت في عهد المقدسي «يعبر منها إلى الأندلس»<sup>(3)</sup>.

(1) يراعي البربر أن تكون المدينة على رابية تشرف على منطقة واسعة تسمح باكتشاف العدو من بعيد، يتوفر فيها مياه الشرب والعيون الجارية، خاصة إذا كانت في الجهات العلوية، انظر حليمي عبد القادر: أثر التضاريس في تخطيط مدينة الجزائر ضمن كتاب: تاريخ المدن الثلاث السالف الذكر. ص: 83.

(2) عن الإمارات العلوية في بلاد المغرب الأوسط انظر: لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ تلمسان والمغرب الأوسط مجلة الأصالة ع. 26. ص: 91 - 98.

(3) المقدسي: احسن التقاسيم. ص: 228.

ولا نغفل توسطها قبائل بربرية صنهاجية علاقتها طيبة بالمدينة الصنهاجية، وهذا بدوره يؤدي الى تحقيق مصلحة اقتصادية متبادلة، ويزيد في ثرائها مما ينتج عنه حدوث تطور في حياة المجتمع، ويمكن ان نتخيل قصورها، ما دام ابن حوقل يذكر انها مدينة وفيها اسواق كثيرة كما سلف مادام الاصطخري مع ميله الى الابعاز يصفها بانها مدينة عامرة ومادامت على ما يصفها به المقدسي كما سلف بل يبدو انها انتزعت الاهمية عن مدينة متيجة، واصبحت بؤرة المنطقة، فان ابن حوقل يصف مدينة الجزائر في حين لم يورد حتى ذكر متيجة عكس ما فعله اليعقوبي.

ملبانة(1): (حوالي 337هـ / 949م).

تقع ملبانة في سفح جبل يسمى زكار، مشرفة على فحوص واسع فيه بنو واريغن ويبدو انها كانت مركزا تجاريا في بداية امرها، اذ حوها قبائل كثيرة من البربر، وكانت قبيلة ملبانة اهمها حتى نسبت المدينة اليها.

ولم تكن ملبانة محدثة، شأن غيرها من المدن الاسلامية، فان البكري يذكر انها مدينة رومية فيها آثار ويظهر انها كانت قليلة الشأن في القرن الثالث الهجري فاكفى اليعقوبي بذكرها تحت اسم مذكورة(2) مشيرا الى انها امارة علوية فيها ولد محمد بن سليمان بن عبد الله، وهي على الطريق الرابط بين متيجة والخضراء، فهي اذن ليست اكثر من محطة كغيرها من المحطات على الطريق باتجاه تنس، وهذا الوضع لايسمح لها ان تكون من كبريات المدن.

لكنها على اية حال، استفادت من موقعها على هذا الطريق ومن فحوصها الواسع، ومن حياة الاستفرار والمهدوء في ظل العلويين، فظهرت طبقة ثرية تاقت نفوسها لسكنى المدينة، ثم دخلت عهدا جديدا بظهور زيري السابق الذكر فبدأت تتفاعل مع حوادث وظروف البلاد شأن جزائر بني مزغني، وأصبحت

(1) نسبت الى بطن من بطون صنهاجة: انظر: ابن خلدون: المعرج، 6. ص: 313 وعنها انظر ابن حوقل: صورة الارض ص: 89 البكري: المغرب، ص: 61. الادريسي نزهة ص: 84. 85. الحموي: معجم ج. 7. ص: 55.  
(2) ذكر البلي أن لم تكن مذكورة هي ملبانة فقرية منها: انظر الميلي: تاريخ الجزائر ج. 2. ص: 93. وانظر: الجليلي: المدن الثلاثة ص: 300. الحاشية.

جزءا من دولة صنهاجة قتالت من اهتمام الزيريين، وشاركت في حروبهم فعاد عليها من جرائها اموال طائلة كغنائم ورواتب، وكانت علاقة المدينة بباديتها طيبة، فكلها تنسب الى صنهاجة.

ويبدو ان بعض العلويين على الاقل الذين اقاموا في مدن قديمة، قد اكتفوا بامرتهم عليها، دون ان يحدثوا تغييرا يذكر في بنية المدينة، والا كيف يفسر اختطاط زيري لهذه المدينة وكان يقيم فيها امير علوي؟ فالارجح في نظري ان يكون زيري وابنه بلكين وضعا حدا لامرة العلويين على هذه المدن، فطرأت ظروف جديدة على المدينة، كأن يدخلها ويقيم فيها اتباع لزيري و مؤيدوه، الى جانب سكانها، وهذا ما كان يدعو زيري ان يكلف ابنه بلكين بختطاطها مع جزائر بني مزغنة، بل ان البكري يذكر بخصوصها انها جدها زيري بن مناد وأسكنها ولده بلجين (1) فاذا صح هذا القول، فقد نزل اتباعه ومؤيدوه الى جانبه، ويفهم من تجديدها انه ادخل تعديلات واصلاحات معمارية دخلت اسوار المدينة ثم قسم الاراضي الواقعة خارج السور على القبائل الراغبة في البناء.

ومما ساعد بلكين على اختطاطها، توفر مواد البناء لوجود السهل والجبل، ووجود شعراء مما يوفر المختطب، ثم وقوعها على نهر يسقي أكثر مزارعها، وكان لها آبار عذبة منها شربهم، واستفادت المدينة من وجود عين خراطة عظيمة تنبعث من جبلها ما يسهل عملية تسير الماء الى المنازل ويضمن لهم توفر الماء اذا دهمهم عدو.

المدينة (3): (حوالي. 337 هـ / 949 م).

وكان شأن هذه المدينة شأن سابقتيها الجزائر ومليانة واذا كانت حسبما ذكرها البكري بلدا جليلا قديما فإن أهميتها برزت حين أمر زيري ابنه بلكين أن يبني مدينة المدينة، فإن ابن خلدون يذكر أن بلكين اختط على عهد والده

(1) البكري: المغرب. ص: 61.

(2) عنها انظر: مولاي بلحمسي: مدينة المديعة عبر العصور ضمن كتاب تاريخ المدن الثلاث ص: 320 وما يليها وقد ذكر تأسيس الجزائر ومليانة والمديعة قد وقع بين استلام زيري حكم نهبت من يد الفاطميين سنة 349 هـ / 960 م ووفاته سنة 360 هـ / 970 م.

زيري وبامره ومدينة الجزائر المنسوبة لبني مرغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة مدية<sup>(1)</sup>.

ويظهر ان المدينة كانت قبل ذلك طي النسيان، اذ لم يرد لها ذكر عند رحالة القرن الثالث الهجري كابن رسته وابن خرداذبة واليعقوبي ولا عند رحالة القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي كالاصطخرى وابن حوقل وابن الفقيه والمقدسي، وما دامت لم تلتفت نظر الرحالة هؤلاء فهذا يدل على انها لم تلعب دورا مهما في الميدان التجاري، ولم تكن حتى محطة تجارية بل ولا حتى في الميدان الزراعي.

ان ابن خلدون يذكر ان مدية هم بطن من بطون صنهاجة، فيكون ظهور مدينة مدية برز باعتبارها كذلك، وهذا يوحي ان زيري ادرك اهمية موقعها، لوجوده في أحضان قبيلة صنهاجة التي بدأت تبرز على مسرح الاحداث في بلاد المغرب الاوسط، فبدأت تخوض حروبا ضد زناتة، مما يجعلنا نميل الى اعتبار الغاية من اختطاط مدية شبيهة بالغاية من اختطاط المسيلة، واعني أنها كانت قاعدة عسكرية، اذ منها يمكن لزيري ومن جاء بعده، بسط السيطرة على القبائل الصنهاجية في تلك المنطقة، وتجييش الجيوش لمواجهة زناتة، وبهذا يمكن أن تفسر اهمال الرحالة هذه المدينة، وبغض النظر عن الغاية من اختطاطها، ألا أنها تعتبر مدينة من المدن التي ظهرت في القرن الرابع الهجري، مما كان له انعكاسات حضارية واقتصادية على المنطقة والقبائل المحيطة بها.

**قلعة بني حماد: (398هـ / 1004م - 1005).**

يدو أن هزيمة حماد بن بلكين امام زيري بن عطية المغراوي سنة 389هـ / 998م<sup>(2)</sup>، قد فتحت عينيه على ضعف اشير كقاعدة عسكرية امام زناتة، وعلى ضرورة تعزيزها بحصن آخر، ولم تكن المسيلة بحكم موقعها في بسيط من الارض مؤهلة لأن تكون قاعدة عسكرية لمواجهة مغراوة، فارتأى ان يبني حصنا

(1) ابن خلدون: المعرج. 6 من: 313.

(2) عنها انظر: ابن عذاري: البيان ج. 1. من: 358 بوروية رشيد: الدولة الحسانية من: 18 - 19 وعن حماد وولايته على اشير انظر: ابن خلدون: المعرج ج. 6. من: 321. 349.

يعتبر نواة مدينة قلعة بني حماد في سفح الجبل المشرف على سهول مسيلة واعني به جبل كيانه أو جبل عجيسة، وهو الجبل المعروف اليوم بجبل المعاضيد، ويصف الادريسي موقع القلعة فيذكر انها في سند جبل سامي العلو صعب الارتقاء وقد استدار سورها بجميع الجبل ويسمى تاقربست واعلى هذا الجبل متصل ببسيط من الأرض<sup>(1)</sup>.

ولم يكن حماد هو أول من تنبه الى اهمية هذا الموقع، فان المؤرخين يشيرون الى وجود انقاض أو حصن قديم، وقد عرفه الرومان من قبل، وتحصن به ابو يزيد مخلد بن كيداد، فذكر ابن حماد الصنهاجي ان أبا يزيد دخل «قلعة كيانه وهي تاقربوست المطلة على قلعة حماد» ثم اشار الى حصانتها فذكر أن المنصور الفاطمي وهو يطارد أبا يزيد صعد في وعريين صخور ومشى فيه راجلا في أماكن كثيرة<sup>(2)</sup>، كما يذكر الحموي ان بلكين بن زيري والد حماد بنى قلعة في ذلك الموقع سنة 370هـ / 980م، فربما ان حمادا بنى قلعته على انقاض قلعة ابيه أو بجوارها.

وقد لعبت شجاعة حماد وشخصيته دورا في تأسيس مدينة القلعة فقد نجح في القضاء على ثورة اعمام اب الامير الزيري باديس بن المنصور (حكم من 386هـ الى 401هـ) (996 — 1011م) على بطوفت عامل أشير، فأعاد السلم الى بلاد المغرب الاوسط، ثم نجح في الخاق الهزيمة بالمعز بن زيري بن عطية المغراوي سنة 395هـ / 1004م — 1005م، فعظم شأنه في عين الامير الزيري باديس فولاه على المغرب الاوسط وفي سنة 398هـ / 1007 — 1008م اذن له باديس بتأسيس قلعة بني حماد التي سميت ايضا قلعة حماد وقلعة

---

(1) الادريسي: صفة ص: 89 مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص: 167 والقلعة يحدها شرقا وادي فرج الذي يجري بين جبل الرحمة وجبل رزوق، وكان يسمى في عهد بني حماد بوادي جرارة وفي المغرب تحدها قمة الغوزين التي يفصلها عن جبل الرحمة مضيق، وفي الجنوب يقع المدخل الوحيد الى المدينة وهو طريق كثير التعاريف وادي فرج ووراء جبل يسائر فخرست تبسط سهول الحصنة على مدى البصر، اسماعيل العربي: الدولة الحمادية الجزائر 1980، ص: 52.

(2) ابن حماد ابو عبد الله محمد الصنهاجي: اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم تحقيق وتعليق جلول احمد البدوي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984م ص: 20.

أبي طويل<sup>(1)</sup> والارجح ان يكون حماد قد بني القلعة للضرورة العسكرية ثم اناه اذن الامير باديس بتمدين القلعة، فشرع في ذلك مدة عامين اي من 398هـ / 400 هـ الموافق (1007 — 1008) م، (1009 — 1010 م)، وشرع في حمل الناس على سكنها فيشير لسان الدين بن الخطيب الى ان حمادا نقل اليها الناس من سائر البلاد وعلى وجه الخصوص من اهل المسيلة واهل سوق حمزة واهل جرواة بالمغرب<sup>(2)</sup>، الا ان هؤلاء كانوا من اهل الحرف والصناعات من بنائين ونجارين وغيرهم.

وان اعتماد حماد على هؤلاء الصناع القادمين، ليوحى بأن القبائل التي شكلت جمهور سكان المدينة كانت قبائل بدوية، شاء لها حماد ان تتحضر وتسكن المدينة فهو بهذا احدث تطورا في مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فأصبحت المنطقة كثيرة الزرع وفيها جميع الخيرات، وهي كما وصفها الادريسي أكبر البلاد قطرا وأكثرها وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن وأعمها فواكه وخصبا وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سميحة<sup>(3)</sup>.

وما تجدر ملاحظته أن هذه العاصمة لم يكتب لها الحظ أن ترقى الى مستوى العواصم المعاصرة أو السابقة لها مثل المهدية وفاس والقيروان وتاهرت قبلها ويرجع هذا الى وقوعها متقدمة في اتجاه الصحراء والى قربها من المسيلة، فالمسافة بينهما ست وثلاثون كلم، ثم عدم وقوعها على طريق تجارى دولي هام، الى جانب أن حمادا كان يزور مدينة أشير من حين الى آخر، أى أنه كان يعطيها جزءا من اهتمامه.

على أية حال، فان مدينة قلعة بني حماد تضاف الى قائمة المدن التي شهدتها بلاد المغرب الاوسط، وكانت مدينة قال صاحب «كتاب الاستبصار» أن

- 
- (1) بودوية رشيد: المرجع السابق. ص: 20 المهدي ابو عدي: الحياة الفكرية في بجاية مجلة الاصاله عدد 19 خاص بهجاية صفر ربيع الأول 1394هـ مارس ابريل 1974 م: ص: 34.  
 (2) لسان الدين: بن الخطيب: تاريخ بني حماد قطعة كتاب اعمال الاعلام الجزء الثالث نشر وتقديم ربيع جوان. مجلة الاصاله عدد 19 م: 90. المكان السابق اسماعيل العربي: المرجع السابق.  
 (3) الادريسي: صفة م: 89. مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار م: 167.

فيها مباني عظيمة وقصورا منيعة متقنة البناء عالية السماء منها قصر يسمى بدار البحر، وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق يدخله ماء كثير ويضيف لسان الدين ابن الخطيب أنه كان فيها الفصاف المنيعة والمساجد الجامعة (1).

ويلاحظ بالنظر الى هذه المدن السالفة الذكر، أن من بينها مدنا كانت عواصم لدول عاشت في المغرب الاوسط مثل تاهرت وقلعة بني حماد، وكان من بينها من قام بتأسيسها خوارج مثل اباضية مدينة تاهرت، أو علويون مثل سوق حمزة وسوق ابراهيم أو اندلسيون مثل تنس ووهران أو القاطميون مثل مسيلة وأشير ومليانة والمدينة وجزائر بني مزغنة، كما يلاحظ ان بعض هذه المدن كانت زناقية مثل تاهرت وجراوة ابي العيش ووهران وسوق ابراهيم وافكان، وبعضها الآخر صنهاجية مثل أشير ومليانة والمدينة وجزائر بني مزغنة.

### بعض المنشآت العمرانية:

1 — الأسوار: كانت حاجة المدن الى بناء الاسوار ضرورية، يحتمون ورائها من هجمات القبائل المخطورة، ذلك أن حياة الاستقرار وانغماسهم في الترف أضعف فيهم الشجاعة وروح الدفاعة فاذا داهمهم عدو يريد النيل منهم، لجأوا الى غلق الابواب، واعتزلوا الأبراج يرشقون منها عدوهم، ولهذا كان لابد ان تحاط كل مدينة تبرز للوجود بسور وعلي سبيل المثال تاهرت وتلمسان.

### تاهرت:

وصف اليعقوبي تاهرت نقلا عن أبي معبد الرستمي (2) دون ان يشير الى احاطتها بسور، وبينما يذكر ابن حوقل سور القديمة، الا انه لا يشير الى مثل هذا بالنسبة لتاهرت الحديثة بل ان صيغة عبارته «والقديمة ذات سور» تدل على أن الحديثة ليست كذلك.

(1) مؤلف مجهول: المصدر السابق: ص: 168، لسان الدين بن الخطيب: تاريخ بني حماد ص: 90 وعن قلمة حماد انظر: قائمة المصادر والمراجع في بوروية رشيد: الدولة الحمادية ص: 354 — 361.

(2) هو عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب بن رسم انظر: اليعقوبي: البلدان ص: 358.



الا ان ابن الصغير يشير الى وجود باب للمدينة هو الباب المعروف بباب الصفا<sup>(1)</sup> ثم يشير الى ان ابا حاتم وصل الى باب المدينة وحين يتعرض الى قتال ابي حاتم وعمه يعقوب بن افلح يذكر ان هذا الاخير أمر بابواب المدينة فغلقت الا بابا واحدا وان وجود هذه الابواب لدليل على وجود السور في العهد الرستمي، وقد كان ضروريا لها مادامت هناك قبائل خارجها تقف لها بالمرصاد.

ويصف العزيزي سور تاهرت بأنه من الحجر<sup>(2)</sup>، واذا كان البكري يكتفي بالإشارة الى سورها فان صاحب «كتاب الاستبصار» وهو ينقل عن البكري يصف سورها بأنه من الحجر، وقد دلت الابحاث الاثرية على انها حقا كانت محاطة بسور من الحجر محصن بأبراج زوايا ذات قواعد على شكل مضلع وبدعام مربعة يبلغ طول ضلعها خمسة امتار، تبعد كل دعامة عن الاخرى 20 مترا<sup>(3)</sup>.

الا ان عبارة ابن حوقل السابقة الذكر والتي تفيد ان تاهرت لا سور لها لا يمكن تفسيرها الا ان يكون سور تاهرت قد تهدم من جراء الاضطرابات التي شهدتها المدينة لواخر الحكم الرستمي وأثناء الحكم الفاطمي، فأصبحت على ماوصفها، ثم اعيد بناء سورها ثانية بعودة الهدوء اليها فيما بعد.

كان لسور تاهرت ابواب، ذكر البكري انها أكثر من اربعة: باب الصبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن وأضاف وغيرها<sup>(4)</sup>، وبالنسبة لباب الصبا، إما ان أصل الكلمة «الصفا» فتاكلت الفاء وكانت نقطتها اسفلها فقرئت «الصبا» وهي تسمية محتملة تيمنا بباب الصفا في مكة واما انها أصلا «الصبا» وهي ايضا تسمية محتملة تعبيرا عن مواجهته لريح الصبا.

الا ان الغموض الذي يعتري هذا الباب جاء في عبارة ابن الصغير السابقة الذكر فلم يطلق عليه الاسم مباشرة فيقول باب الصفا دون ذكر «المعروف»

(1) ابن الصغير: المصدر السابق: ص: 323.

(2) الفلقشندي: صبح الأعشي ج. 5. ص: 111. نقلا عن العزيزي.

(3) بوروية رشيد: الفن الرستمي معتمدا على G. Marçais: Tibert. R.A. 1946: PP. 24. 57.

(4) البكري: المصدر السابق ص: 66.

والأرجح أنه يقصد الباب المعروف الآن بباب الصفا فكأن هذا الباب كان يحمل اسما آخر في بداية أمره، أو ان عبارته تعني ان وفد البصرة دخل من حيث قام باب الصفا فيما بعد، أي ان السور لم يكن قائما في عهد الامام الاول.

ب: تلمسان:

يصف اليعقوبي مدينة تلمسان «عليها سور حجارة وخلفه سور آخر حجارة»<sup>(1)</sup> فكانت بذلك محاطة بسورين من الحجر، الا ان ابن حوقل يصفها «بانها ذات سور من آجر حصين منيع»، فهل هدم في الاضطرابات الفاطمية ثم اقيم لها فيما بعد سور من الآجر على كل، ذكر لها البكري خمسة ابواب، ثلاثة منها في القبلة باب الحمام وباب وهب، وباب الخوخة، وفي الشرق بلب العقبة وفي الغرب باب الي قرعة<sup>(2)</sup>.

وكانت الاسوار تدور على جميع المدن كما سلف حتى مدينة ابن ماما التي يصفها ابن حوقل بانها مدينة صغيرة<sup>(3)</sup> من مدن اقليم تاهرت، كان يحيط بها سور طوب، وهكذا كانت وهران وتنس وأفكان وجراوة وغيرها.

وكانوا يهتمون بحصانة الاسوار وللوصول الى هذه الغاية، كانوا يعمدون الى عدة وسائل، كأن يبنوا سورا متينا حصينا أو يلجأوا الى بنائه في غاية الارتفاع والعرض كسور مدينة أفكان، وفي حالات اخرى كانوا يلجأون الى بناء سورين يلوّز احدهما بالآخر، وتقتضى الغاية ان تفصل بينهما مسافة لا يقوى رجل على قفزها مثلما كان الامر بالنسبة لمدينة تلمسان ومدينة المسيلة، وفي بعض الاحيان ولظروف ماء، ربما لضعف طبيعتها الجغرافية، ونكالب الاعداء عليها، وكانوا يلجأون الى حفر خندق حول السور يدور بالمدينة مثلما كانت عليه مدينة ابن ماما، أو كان يخفر الخندق بين سورين، فكانت المسيلة عليها سوران بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة<sup>(4)</sup>.

(1) اليعقوبي: صفة ص: 13.

(2) البكري: المغرب. ص: 76. وربما الى الي قرعة اليفرنى الذي حاصر طينة سنة 154هـ / 770م.

(3) عنها انظر: ابن حوقل صورة ص: 86. وربما كانت هي ممة التي ورد ذكرها عند المقدسي فذكر ان تاهرت اسم القصبة ايضا ومن مدنها ممة انظر: احسن التقاسيم ص: 215.

(4) مؤلف مجهول: كتاب الاستيصار. ص: 174.

ولاندري ان وجدت في بلاد المغرب الاوسط مدينة على حال مدينة  
يهودا، فقد كانت هذه يدور بجميعها خندق ولها نهر كبير ينصب اليها من جبل  
أوراس، فاذا كانت بينهم وبين احد حرب وخاف النزول اليهم اجروا ماء ذلك  
النهر في الخندق المحيط ببلدهم فامتنعوا(1).

وكانت هذه الاسوار تبني بالصخر كسور تاهرت أو اسلم، أو بالحجر  
كسور تلمسان، أو بالطوب كسور مدينة جراوة وغيرها، أو يبنى بالتراب كسور  
وهران وبرشك، وفي احيان اخرى يبنى السور من مادتين معا كأن يكون من  
طوب وتراب، فقد كان للمدينة ابن ماما سور تراب واكثره من طوب(2) وهذا  
السور الترابي يدعى «الستارة» لانه يستر المدينة عن الانظار.

وكانت عوامل تتدخل في تحديد نوع السور، منها اهمية المدينة وحالة اهلها  
المادية، فان عملية البناء تتطلب نفقات باهظة لا تقوى عليها الا مدينة تتوفر  
منطقتها على مقالع الحجارة.

وفي حالة المدن السهلية خاصة، حيث يصعب الحصول على الحجارة فانهم  
يلجأون الى صنع الطوب لتوفر التراب عوض الحجارة، فلا عجب ان يحيط  
بتاهرت سور من الصخر أو الحجر، بينما يحيط بمدينة وهران سور تراب كما سبق  
اذ يلاحظ جغرافيا وقوع تاهرت على أرباض في سفح جبل جزول بينما يمتد  
امام وهران سهل فسيح.

## 2 - الحصون والقلاع:

دعت الضرورة الدفاعية إلى ظهور عدد من الحصون كانت منتشرة في  
ارجاء المغرب الاوسط، واذا لم تكن القبائل الظالمة بحاجة الى مثل هذه الحصون  
فان المستقرين كان لزاما عليهم ان يقيموا لانفسهم حصونا يلجأون اليها في حالة  
تعرضهم لهجوم خارجي، اذا وقفوا موقفا دفاعيا.

(1) الأدرسي: حكمة. ص: 87 يصفه ابن حوقل بأنه «سور طوب».  
(2) ابن الضمير: تاريخ الأماة مواضع متفرقة انظر. ص: 347 - 348 - 359.

وبالفعل فقد كان هناك غزو قبلي، وفتح داخلية في المدينة الواحدة، وهجوم خارجي تعرضت له المنطقة كهجوم الفاطميين، بل ان المنطقة بأسرها كانت مسرحا لصراع قويتين تتمثلان في الفاطميين والامويين أو في الفاطميين والادراسة، فكانت المعطيات تستلزم اقامة الحصون.

وهكذا انتشرت الحصون والقلاع حول تاهرت، وقد أشار ابن الصغير الى عدد منها، فذكر حصن لواتة، وكان للرستميين حصنهم بناليت في طرف لواتة، يقع على نهر مينة فيه مواشيهم وعبيدهم، وحصن آخر لنفوسة، وكان للمعجم حصنهم بموضع تبايفيلت على مرحلتين من تاهرت وهناك حصن تالغمت، خارج المدينة، لم يذكر ابن الصغير اصحابه أو موقعه، ويبدو أن هذه الحصون هي بعض من كل، اذ من المستبعد ان تقيم زواغة أو مكناسة أو مطماطة دون أن تتخذ لنفسها حصونا وإن غفل عن ذكرها ابن الصغير.

كما تطلبت الضرورة الدفاعية ان تظهر بعض الحصون في داخل المدينة، ففي الفتن التي شهدتها عهد الامام ابي بكر، للمعجم ونفوسة والرستميين موضع واحد في العلوة المعروفة بعلوة نفوسة فبنوا حصنهم فيه وشيلوه<sup>(1)</sup>. وهنا لم يكن بد لخصومهم من العرب والجنود من بناء حصن لهم، فشرعوا في بناء الحصن، ولم يكن بين حصنهم وحصن علوهم الاقلد رمية رام بسهم حتى استدار حصنهم وركبوا له ابوابه وعكته أبرجته<sup>(2)</sup>.

ومن القلاع التي كانت منتشرة في انحاء البلاد نذكر منها قلعة ابن المرب وقلعة مغيلة دلول التي كانت في أعلى جبل منيف شديد الحصانة<sup>(3)</sup> وحصن في حميل، ذكر ابن عذاري أن حميدا بن يصل قام بمحاصرته سنة 320 هـ / 932م وقلعة هواة ويسمونها تاسقذالت وهي قلعة في جبل لها، خصب ليست بعيدة عن تامزگران وتحتها فحس سبرات.

(1) نفس المصدر: ص: 347.

(2) نفس المكان.

(3) البكري: المغرب. ص: 69.

ومنها حصن برقجانة المعروف بتيهرت القديمة واطاف ابن عذارى انها كان لها حصن معروف بأغزر<sup>(1)</sup> وكان ابو القاسم الفاطمي قد حاصرهم ونقب السور عليهم حتى سقط، ويبدو ان صاحبها كان يدعى ابن حمة حتى اطلق عليها ايضا قلعة ابن حمة، وفيها كان مولد الشاعر بكر بن حماد التيهري ووفاته. وذكر البكري عددا من الحصون مثل حصن ابن زيني، وحصن الفروس وحصن الوردانية وحصن هنين<sup>(2)</sup>، وكانت قلعة ابن الجاهل في جنوب نلمسان كما بنى الحسن بن ابي العيش السابق الذكر حصنا متيعا وبجبل بينه وبين جراوة اربعة اميال وحوله قرى لمدغرة وبني يفرن وغيرهم من القبائل. وكان لمدينة الشلف سور وحصن كما كان سوق كرام نفسه حصنا، وكانت قلعة ابي طويل من اهم القلاع، وهي التي اصبحت تعرف فيما بعد بقلعة بني حماد، وهي في جبل عظيم كما كانت أشير نفسها حصنا، وكانت لا يوصل الى شيء منها الا من موضع يحميه عشرة رجال وهو في شرقها ينفذ الى عين مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الاقدام<sup>(3)</sup>، وكان داخل مدينة تنس قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكانها العمال لخصائنها بل ان مدينة تنس القديمة كانت قلعة.

#### القصور<sup>(4)</sup>:

يعتبر بناء القصور ظاهرة حية تعبر عن المستوى الحضاري العالي الذي بلغته المنطقة، وهي نتيجة منطقية للثراء الحاصل في منطقة ماء، اذ ان الكسب المادي المستمر يدعو الناس إلى التنفث في المنازل، فتتجر منازل لتبني منازل افخم منها.

واذا اعتبرنا مدينة تاهرت مثالا لما شهدته بلاد المغرب الاوسط ولاحظنا تطور قبائل المنطقة واستقرارها كما سلف ثم ما شهدته من رخاء اقتصادي، ادر كنا لماذا لم تثر سوى سنوات قليلة، حتى «كانت قصور قد بنيت»<sup>(5)</sup> وبفضل اطراد

(1) ابن عذارى: البيان ج. 1. ص: 193. 153.

(2) البكري: المغرب ص: 79 - 80. بين حصن هنين هذا ومدينة ندرومة ثلاثة عشر ميلا انظر: نفس المصدر ص: 80.

(3) نفس المصدر ص: 60.

(4) كانت كلمة «قصر» تدل على الحصن ايضا، فذكر ابن عذارى نفلا عن ابن القطان في وصفه تاهرت ان في شرقها فصرا لبعض القبائل ويفصد بها في هذه الدراسة مساكن الاثرياء الفخمة.

(5) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص: 336.

تقدمها الاقتصادي الذي يتضح جليا في عهد الامام افلح «تنافس الناس في البنيان حتى ابنتى الناس القصور» (1) دون ان يقتصر الامر على القصور التي أقامها الامام افلح نفسه، وبني العجم قصورهم وابنتى ابان وحمويه القصرين المعروفين هما باملاق وابنتى عبد الواحد قصره، وكان ابن الصغير قد لاحظ ظاهرة اتساع انتشار القصور في ناهرت، فراح يذكرها ضمن الحوادث التي لفتت نظره، في عهد الامام افلح، «لما ان يبطل الحديث فيها فأضاف وغيره مما يطول ذكره.

واستمر بناء الد عهد من جاء بعده من الرستميين، فكان للأمام  
 لبي بكر قصره، ولأبي البسر سك قصره بيتسانوت، كما كان لأبي حاتم قصره  
 بنهر مينا، ولكبار الشخصيات قصورهم كمحمد بن حماد الذي كان له على  
 بعض اميال من المدينة منزل يقال له الثلث وقد جمع الاشجار والانهر والمزارع  
 والنخل والقصور.

ومما يلفت النظر أن هذه القصور المشار اليها تقع جميعا خارج مدينة ناهرت، وربما كانوا يتعمدون ذلك لأن بناءها بين البساتين وعلى الانهر يضفي عليها جمالا ورونقا أكثر. ولا عجب أن تكون لقبائل تاهرت قصور، فهي قد اكتسبت الأموال ونالها من الكبر مانال أهل المدينة منذ عهد الامام افلح.

وما قيل عن تاهرت يمكن أن يقال عن تلمسان، فان سياسة العلويين في تلمسان، التي انتجت الهدوء والاستقرار أتت أكلها، فأثمرت القصور التي لفتت نظر اليعقوبي على ميله الى الاختصار الشديد، فأشار الى وجود قصور ومنازل مشيدة (2) في المدينة.

واذا كانت مدينة افكان حديثة بالنسبة لعهد ابن حوقل، ألا أنها لفتت نظره بقصورها على الرغم من ميله للاختصار كغيره من الرحالة، ويلاحظ تنافس

(1) نفس المصدر: وان كانت كلمة منزل في هذه العبارة لا تعمل معنى القصر، الا انها تفيد انه كان يملك قصرا في هذا المنزل، والمنزل أقل أهمية من القرية ربما لا يتجاوز عدد دوره الثلاثين انظر: حسن حسني عبد الوهاب: ورفات في الحضارة ج. 1. ص: 86.  
 (2) اليعقوبي: وصف. ص: 12.

الناس في البناء حتى ابتنوا القصور في القرن الثالث الهجري، ألا أن ابن حوقل يصف تاهرت بأنها «تغيرت عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء» مما يدل على أن حركة بناء القصور قد تقلصت بابتداء الحكم الفاطمي.

ولكن من الطبيعي أن تقوم بعض القصور في المدن التي انتشعت مثل أشير وغيرها، فيشير بوروييه<sup>(1)</sup> إلى أن الحفريات التي أجريت بأشير 1954م 1956م أدت إلى اكتشاف قصر زيري بن مناد وكان بنيانه من الحجر.

### ج المساكن الخاصة:

تخضع مساكن بلاد المغرب الأوسط إلى عاملين، بحدان طرازها وأثاثها وهما يمثلان بالتراث المتوارث عبر الأجيال والمستوى الحضاري الذي بلغه المسلمون في القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر الميلاديين) وهي وإن اختلفت بدرجات متفاوتة من منطقة إلى أخرى، بسبب ظروف طبيعية كالمناخ أو الأرض، أو بسبب الأحوال المادية لأهلها، لكنها تظل بصفة عامة متشابهة في إطار المغرب الإسلامي لخضوعها لنفس التأثيرات.

هذا الأمر يسمح لنا أن نستلهم من هنا وهناك وصفا للمساكن فتكون صورة تقريبية لما كانت عليه مساكن بلاد المغرب الأوسط، ولا نقصد في هذا المجال بيوت الأعراب التي هي الخيام، إذ هي غنية عن البيان سواء في وصفها أو في الأثاث الذي تضمه، والذي هو في العادة لا يزيد على الضروري كالفرش وأدوات الطعام ونحوها إلا أن المقصود هنا بيوت المستقرين وكانت أبسط هذه المساكن هي الأكواخ والتي هي غالبا مبنية بالكلخ ونحوه.

وكانت بعض المنازل تبنى بالطوب، في حين كان بعضها يبنى بالحجر، ويبدو أن بعض المساكن المبنية بالحجر، كانت حجارتها منحوتة منتظمة، فذكر

(1) بوروييه رشيد: أشير ... ص: 119. وعن آثار أشير أنظر رودى RODET خرائب أشير المجلد الأثري RA 1908. ص: 86 - 104.

ابن خلدون ان المنصور الفاطمي وقف في وادي مينا — مينا — على اثر من آثار الاقدمين بالقصور على الجبال الثلاثة مبنية بالحجر المنحوت وهي ان كانت للاقدمين الا انها كانت ملهمة للمعماريين في المنطقة.

اما سقفوها فكانت من الخشب على الاطلاق، فذكر الدرجيني ان سقف بيت الامام يعقوب بن افلح كان من الخشب، بل ان ابن خلدون يذكر ان سقف مساكن تلمسان كانت من الخشب في عهد متأخر وهو عهد بني عبد الواد وينصح ابن الي زرع باستعمال خشب الارز لانه يعمر الف سنة دون ان يعفن أو يتسوس<sup>(1)</sup>.

وكانت المنازل متلاصقة، ليكون بالامكان احاطة المدينة بسور، وتشققها ازقة وشوارع تؤدي الى الساحة العامة والاسواق وابواب المدينة وكان المنزل يتكون من عدة حجرات<sup>(2)</sup>، اما بابه فهو من الخشب الا ان يكون صاحبه اميرا أو خليفة، فقد اتخذ الامام افلح بابا من حديد ويتألف احيانا من مصراعين ولا بد ان يكون واسعا يسمح بدخول الاحمال، وفي اسفل الحائط وربما تحت العتبة يوجد ثغر يسمح بتصريف المياه الى خارج الدار<sup>(3)</sup>.

وتشتمل الدار بالاضافة الى الحجرات الخاصة بالعائلة، على موضع للحيوانات — الاسطبل — وعلى ما اطلق عليه القاضي عياض المستراح — المراض — وعلى بئر يسيل إليه الماء شتاء من على سطح الدار بواسطة مزاريب<sup>(4)</sup>، وكذلك على مطامير لحزن الغلال أو على خواب.

وكانت الدار تتألف من طابق ارضي أو أكثر، ولم لا، مادامت تتألف في القاهرة من خمس أو ست طبقات حسبما وصفها ناصر خسرو وكان الناس يستعملون الدرج للصعود الى الطابق الاعلى، ويبدو ان سكانها كانوا يميلون الى عدم بناء الدرج والاعتداد على السلم في عهود الفتن<sup>(5)</sup>.

(1) البكري: المصدر السابق، ص: 71.

(2) ابن خلدون: العبر ج. 1، ص: 237.

(3) ابن الي زرع: روض القرطاس، ص: 22.

(4) القاضي عياض: تراجم، ص: 378. ويقال ايضا: مزاريب.

(5) المقدسي: احسن التقاسيم، ص: 225.



وكان هذا التفاوت في ارتفاع المنازل يثير مشاكل حساسة بين الجيران، اذ ان الساكن الاعلى يشرف من عليته على نساء وبنات من هو اخفض منه(1)، فمن الممكن ان المحتسب كان يتدخل من حين الى آخر لتحديد الابواب والتوافذ أو بناء سور آخر للعلية.

ومن أثاث المنزل: الأسرة وهي اما من الخشب والطوب، عليها فراش محشو بالصوف والريش، ومن الأثاث كذلك الحصر، فكان في بيت الامام عبد الرحمن حصير فوقه جلد، ويبدو ان بيوت الاغنياء كانت حافلة بالفاخر من الأثاث كالسجاد والارائك والاجواخ وغيرها(2)، بل ان جدرانها كانت تغطي باللبود.

وكان القنديل من ضرورات المنزل، يضيء باستعمال الزيت وقودا، وذكر صاحب «كتاب الاستبصار» ان اهل طبرقة يستخرجون دهن سمك البورى ويستعملونه في مصابيحهم فهل استعمله سكان المغرب الاوسط، ولهذا القنديل قيل يغمر في زيت القنديل بينما يشعل طرفه البارز.

وكان من الضروري ان يوجد في كل دار كانون(3) لانتقاء برد الشتاء، وادوات لرفع الماء ونقله وحفظه وادوات المطبخ وغيرها، ذكرها صاحب «كتاب الطبخ» المغارف والملاعق والعود الذي يقطع عليه اللحم، واللوح الذي يمد عليه الكعك(4)، وأضاف المهراس الذي كان يصنع من حجر أو عود.

وهكذا يتبين مما تقدم ان قطاعا كبيرا من السكان قد تطورت ظروفه الاقتصادية والاجتماعية، فأنقل من حياة البداوة الى سكنى المدن وحياة الحضارة، ومن هنا كان ظهور المدن السالفة الذكر.

(1) السلاوى: الاستقصاء. ج. 1. ص: 207.

(2) القاضي عياض: المصدر السابق. ص: 204.

(3) GOITEIN: THE MAIN INDUSTRIES... P. 172.

(4) القاضي عياض: المصدر السابق. ص: 287.

(5) مؤلف مجهول: كتاب الطبخ. ص: 84.

## فصل الثامن

### الموارد المالية

تهم الدولة الاسلامية بمواردها المالية التي ندر عليها أموالا، نودعها في بيت يعرف في المصادر بـ «بيت مال المسلمين» أو «بيت المال» وقد كان للرستمين «بيت مال» أشار اليه ابن الصغير في مواضع متفرقة من كتابه<sup>(1)</sup>، وكان للفاطميين «بيت مال» أشار اليه ابن عذارى<sup>(2)</sup> وغيره واستمرت الحاجة الى بيت المال في العهد الزيري.

وكان الاهتمام بامر جباية الاموال يختلف من دولة الى اخرى، بل يختلف في الدولة الواحدة من طور الى طور<sup>(3)</sup>، فالدولة في طورها الاول، طور التأسيس لا تكون بحاجة الى المال مثلما يكون الامر في طورها الاخير، طور الثرف والرفاهية لهذا فان ابا عبد الله الشيعي لم يكن له بيت مال معين، الى ان جاء المهدي فدون الدواوين وجبى الاموال، كما تختلف الحاجة الى المال باختلاف الدول و سياستها، فان حاجة الدولة الرستمية كدولة داخلية، ليست لها سياسة توسعية ولا تقوم بجهاد، بل قائمة بما هي عليه، تختلف عن دولة اخرى كدولة الفاطميين لها اهداف استراتيجية<sup>(4)</sup> بعيدة المدى تنوسع على حساب جيرانها، وتخوض المعارك في صقلية وبلاد المغرب، وتنبهاً للتوجه الى المشرق، وبحسب حاجة الدولة تتنوع مواردها فقد تكتفي بالموارد الشرعية، وقد تضطر الى ان تجبي الاموال من موارد اخرى، وكان من اهم الموارد المالية:

الزكاة: قال تعالى: «قد افلح من تزكى وقال:

واقموا الصلاة واتوا الزكاة واقرضوا الله قرضاً حسناً» فالزكاة فريضة ومورد شرعي<sup>(5)</sup>، ولذا اهتمت بها جميع الدول الاسلامية، فذكر الدرر جيني

(1) ابن الصغير: سورة أمر الكوفة. ص: 327. 329. 337. 349. 356. 362. البرادي: الجواهر. ص: 177 وحول الموارد المالية في الاسلام انظر: حسن ابراهيم حسن: النظم الاسلامية ص: 200. 239.

(2) ابن عذارى: البيان ج 1. ص: 159.

(3) ابن خلدون: المقدمة. ص: 279.

(4) عن هذه الاهداف انظر: لقيال موسى: وحدة الخلافة الاسلامية تحت راية الفاطميين هدف الاستراتيجية الاسماعيلية تجاه العباسيين. مجلة وحاضرة المغرب. ع: 12 ديسمبر 1974.

(5) انظر بعض الآيات الخاصة بالزكاة: سورة التوبة. آية 103. سورة المزل. آية 20. سورة الماعون. آية 24.

25. وانظر قول الرسول (ص): محمد الطاهر بن عاشور: اصول النظام الاجتماعي في الاسلام، وحول الزكاة انظر: الثميني: النيل ج 3. الجبالي: قواعد الاسلام. ج 2. سحنون: المدونة. ج 2. القاضي النعمان: كتاب دعائم ج 1.

ان ابننا لميمون بن عبد الوهاب «خرج ساعيا»<sup>(1)</sup> يطوف بالناس لجمع الزكاة المستحقة، وطوافه هذا يدل على تقاعس الناس أو بعضهم عن دفعها، في حينها، بسبب الاختلاف المذهبي، فقد كان خروجه الى جماعة النكارية وهم الذين خاضوا الحروب ضد الرستميين، فيبدو أنهم امتنعوا عن دفع الزكاة لهم.

وكانت تعترض الساعي بعض الصعوبات، منها ان بعض الناس كانوا يخفون اموالهم فيضطر السعاة الى تخليف الناس الايمان، ولكن القاضي النعمان نهي السعاة عن هذه الوسيلة فذكرهم بقول علي بن ابي طالب ان رسول الله (ص) نهي ان يخلف الناس على صدقاتهم، بل هم مأمونون، وكان رفض البعض دفع الزكاة يرجع الى الاختلاف المذهبي كما أشرت، اذ ما كان لمسلم ان يرفض دفعها وهي فريضة وركن من اركان الاسلام الخمسة، لكن كثيرًا من العلماء المالكين يرون أن ما يدفع الى بني عبيد على انه زكاة لا يجزي وهذا رأي الجبلياني والقباسي، واذا رأى بعضهم ان ما يؤدي الى بني عبيد يجزي، فانهم يقولون ذلك لظنهم أن لا يؤدي الناس شيئًا، ولأن يؤدي الناس بتأويل خير من ان يتركوا الزكاة عامدين، وربما كان امتناع الناس عن دفع الزكاة وغيرها من اهم اسباب الحروب التي شهدتها البلاد.

ومن المشاكل ايضا صعوبة حصر اعداد الماشية، فان اغنام القرية تعود الى دور اصحابها ليلا، فاذا كان النهار غدا بها رعاتها فجمعوها من بيوت اهلها فانطلقوا بها الى المراعي في ابان خروج السعاة<sup>(2)</sup>، ويرى القاضي النعمان حلا لهذه المشكلة «تؤخذ صدقات اهل البادية على مياههم ولا يساقون عن مواضعهم التي هم فيها الى غيرها» ويذكر هوبكنز HOPKINS نقلا عن الشماخي ان بعض الناس كانوا يخفون أفضل مواشيتهم عن السعاة ليقع اختيارهم على ما دون ذلك، بينما يذكر اطفيش بخصوص ييب بن زلغين انه اذا جاء العامل وقت الزكاة قال لرعاته:

(1) الدرجيني: طيفات ج 1. ص 156. وعن الزكاة في العهد الزيري انظر: H.R. Idris: La berbérie Orientale..... t 2, pp. 64. 614.

(2) مسنون: المدونة. ج 1. ص 377.

«اختاروا خيار النوق فيفعلون فيأمر العامل باخذها(1)» فربما اذا وقعت بعض التحايلات فلعدم اقتناعهم بدفعها للمخالفين، مما دعا العلماء الى وضع فتاوى للمحيلة دون وفوع مثل هذه التحايلات في فرض من الفرائض، فقال ابو يعقوب الوريجلاني الاباضي «ليس علينا ان نمتنع من احكامهم — المخالفين — اذا اجروها علينا في جميع ما لم نقطع عذره فيه وهم لانستطيع ان نمنع لهم — يأخذوا من اموالنا ما وجب علينا من الزكاة والعشر والفقرة(2)» وقال القاضي النعمان بحث المخالفين على الدفع: «ان كان عندهم ائمة فما ينبغي لهم ان يمنعوهم زكوتهم، وعليهم ان يدفعوها اليهم كما فرض الله عزوجل، وليس عليهم ما قلدهم من وضعها في غير مواضعها لان الفرض عليهم قد سقط عنهم». وأضاف القاضي النعمان: «المسلمون مجمعون على ان من منع الزكاة جاحدا لها انه مشرك يجاهد مع امام الحق ويقتل وتسمى ذريته ويكون سبيله سبيل المشرك(3)»

ويظهر ان بعض الناس يمتنع عن دفعها لملاحظتهم عدم اتفاقها في ابوابها الشرعية واستشارة السلطان بها، مما جعل القاضي النعمان ينبه الناس الى ان هذا ليس من شأنهم، وان عليهم ان يؤدوا واجبهم ثم يتحمل السلطان وحده تبعه عمله، كما يذكر النعمان «ان أكثر الناس خاصة مصرون على منع أئمتهم زكاة اموالهم، وبعضهم يدفع زكاته الى من لم يأذن الله عزوجل بدفعها اليه» بل هو يذكر ان أكثر الناس يؤثر بزكاته اقاربه، وأكثرهم لا يخرج شيئا على الجملة(4) وهكذا يتبين ان الفاطميين جمعوا الزكاة ولكنهم واجهوا مشاكل وصعوبات. وكان الرستميون قبلهم قد اهتموا بالزكاة، فخصصوا لها داراً عرفت باسم «دار الزكاة»، واذا كان هناك اقبال من الاباضية على دفعها لهم تحتى «كان الاباضية بسجلماسة يعمنون اليه — الامام ابي اليقظان — بزكاتهم يصرفها حيث شاء» الا ان هناك من كان يرفض دفعها لهم كما سبق وهؤلاء من المخالفين لهم كالنكارية والنفاثية وغيرهم فقد أقدم النكارية

(1) اطفيش: تفقيه الفامر. ص: 77.

(2) ابو يعقوب الوريجلاني: الدليل ج 2. ص: 76.

(3) القاضي النعمان: كتاب الدعائم. ج. 1 ص: 248 و 261.

(4) نفس المصدر. ص: 262.

على قتل مبينون السالف الذكر وهو تعبير عن رفضهم تنفيذ قوانين الدولة، أما النفائية فقد انكروا «على الامام استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ومطالب بيت مال المسلمين من الرعايا»، بل ان تقائنا زعيم النفائية اتى ان «من اعطى لعامل أفلح فكمن اعطاها لنويار ملك السودان» (1).

وكان هناك خلاف مذهبي حول الاموال التي تجب فيها الزكاة، وسيكون الأمر سهلاً لو كان نظرياً بحتاً، أو لو كان انجتماع منجانسا مذهبياً لكن المسألة كانت قيد التطبيق العملي، وكانت الرعية مختلفة المذاهب، ومنه فيينا يرى الاباضية ان الزكاة واجبة في ستة اشياء من المزروعات وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب والذرة والسلت، ويرى المالكية ان الزكاة في العنب والتمر والزيتون والحب والقطن، فان الاسماعيلية يرون ان الزكاة «تجب في كل ما أنبتت الارض» (2).

كما وقع خلاف آخر، حول كيفية اتفاق اموال الزكاة المحببة فيذكر ابن الصغير ان الامام عبد الرحمن بن رستم كان اذا حضرت اموال الصدقة صرف الطعام الى الفقراء وبيعت الشاة والبعر، فاذا صارت اموالاً دفع الى العمال العاملين عليها ثم نظر في باقي المال فاذا عرف مبلغه امر باحصاء من في البلد وفيما حول البلد من الطعام ثم امر جميع ما بقي من مال الصدقة فاشترى منه أكسية صوفية وجابا صوفيا وفراء وزينا ثم دفع في كل اهل بيت بقدر ذلك، ويضيف ابن الصغير انه كان «يؤثر أكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه» (3)، ويبدو ان الاباضية انفسهم لم يتفقوا دائماً حول زكاة اتباع المذاهب الأخرى فيينا يرى بعضهم كابن عبد العزيز وشعيب «ان الزكاة كلها لأهل الاسلام مسلمين كانوا او من قومنا تؤخذ منهم وتوضع فيهم». فإن ابن خلقون يذكر عن كتاب «الاجوبة» للامام اقلح بن عبد الوهاب «ان الزكاة لا توضع الا في أهل الولاية من المسلمين» (4)، فهل كانت الزكاة تجبى من غير الاباضية ولا توضع فيهم ؟ ثم هل كان هؤلاء يدفعونها للائمة الرستميين ؟ ان ابن الصغير يذكر ان الاباضية

(1) يحيى بن معمر: الاباضية بين الفرق. ص: 267.

(2) انظر: قول الاباضية في الجيظالي: قواعد الاسلام. ص: 19 وقول المالكية في سحنون: المتنونة. ج.

1. ص: 294 والاسماعيلية القاضي الحسان: المصدر السابق. ص: 263.

(3) ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص: 64.

(4) ابن خلقون: أجوبة ابن خلقون. ص: 64.

وحدهم كانوا يبعثون بزكاة اموالهم من سجلماسة الى الامام ابي اليفظان، فاذا حدث ان دفع المخالفون الزكاة للراستمين فربما لم تكن عن طيب خاطر، فقد كان النفاية وهم اباضية يقولون لا نعطي الزكاة للقرابة اي قرابة المزكي (1)، وربما كانت الاحداث التي شهدتها تاهرت تدور غالبا حول موضوع الجباية.

اما الفاطميون فيقولون «لا يعطى من الزكاة الا اهل الولاية من المؤمنين» ويضيف القاضي النعمان حول الزكاة «لا تعط قوما ان دعوتهم الى امرك لم يجيبوك ولو كان الذبح» بقصد القتل وربما لهذا السبب كان الناس يجسسون اموالهم عن الشيعة يفضلون اقاربهم والسائلين.

وهناك ملاحظة اخرى جديرة بالاهتمام وهي ان الاباضية يرون «ان لا تخرج الزكاة من بلد الى آخر وأهل بلدها احق بها ولو كانوا فاسقا ان كانوا لا يجعلونها في معصية» وهو نفس موقف المالكية، فقال سحنون نقلا عن الامام مالك: «تقسم الزكاة في اهل البلد التي تؤخذ فيها فان فضل نقلت الى اقرب البلدان اليهم» وهكذا فحتى لو دفع سكان بلاد المغرب الاوسط الزكاة، فكان يجب أن تنفق في نفس المكان، لكن الفاطميين كانوا يستأثرون بها كما سلف فترسل اليهم، وهو عامل مثير للفتن بين الفاطميين وسكان البلاد.

وحين نقول الزكاة فاننا نعني بها الصدقات كذلك فقال تعالى «خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها» (2) وذكر ابن عذاري ان ابا عبد الله الشيعي «قبض مال الصدقة من الابل والغنم» ويؤكد ابن حوقل على ان الفاطميين جبوها، فيذكر بخصوص مدينة تونس ان «لسلطاتها بها وجوها من الاموال كثيرة... والصدقات» (3)، ولكن يبدو انهم — الفاطميين — لم يكونوا يجبونها من الكتاميين، فقد عزم المعز الفاطمي على جمعها منهم فبعث خفيضا الصقلي الى شيوخ كتامة «يا اخواننا قد رأينا ان نفذ رجالا الى بلدان كتامة يقيمون بينهم وياخذون صدقاتهم ومراعيهم» (4) ولكنهم — الكتاميون — رفضوا دفعها، وكان القاضي النعمان يحث

(1) يحيى بن معمر: الاباضية بين الفرق. ص: 277.

(2) سورة التوبة. الآية 103.

(3) ابن حوقل. صورة. ص: 78. 94.

(4) ابن ابي الضياف: تحاف اهل الزمان. ص: 166. المقرئ: اتعاظ الخنفا ج. 1 ص: 97.

الناس على دفعها فذكر عن علي بن ابي طالب انه قال: «يدفع الصدقة الداء والدبيلة — داء في الجوف — والفرق والحرف والهدم والجنون حتى عد سبعين نوعا من البلاء» (1) كما اعتبرها الخليفة المنصور الفاطمي وسيلة للتقرب الى الله، فذكر بخصوصها في خطبة اعلان موت ابيه: «عباد الله... فتقربوا الى الله في يومكم باداء فطرتكم التي هي زكاة صومكم وسنة نبيكم... كل امرئ منكم عن نفسه وكل واحد من اهله ذكورهم واناثهم وصغارهم صاعا من بر أو صاعا من زبيب أو صاعا من شعير من طعامكم واهلكم لامن غير» (2).

وعلى اية حال، فان المصادر لا تذكر شيئا عن مبالغ الزكاة والصدقات التي جمعت في بلاد المغرب الاوسط، ولو لعام واحد، أو لمنطقة واحدة، كما لم تذكر مبلغ كل باب من ابواب انفاقها، ولم تصل اليها سجلات دار الزكاة التي ذكرها ابن الصغير في تاهرت، والا لسدت فراغا واسعا في مجال الزكاة.

### الجزية:

قال تعالى: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (3)، وقد فرضت الجزية عليهم مقابل حمايتهم، فقد جاء في كتاب خالد بن الوليد الى اهل الحيرة «اني عاهدنكم على الجزية والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية، والا فلا حتى نمنعكم» (4) ويعتبرها آدم متر أنها اشبه بضريبة للدفاع الوطني فكان لا يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح، بل وكانت تسقط عنه اذا اعان المسلمين في حروبهم ضد المشركين، وهي لم يقصد بها استغلال أو استهانة، فقد فرضت عليهم مقابل فرض الزكاة على المسلمين.

(1) الفاضل النعمان: دعائم. ج. 1. ص: 242.

(2) الجوفدي سيرة الاستاذ جوفدي، ص: 56. الفاضل النعمان: دعائم. ج. 1 ص: 267.

(3) سورة التوبة. الآية 28.

(4) الرئيس ضياء الدين: الخراج، ص: 165، انظر آدم متر: الحضارة الاسلامية ج 1 ص: 78 عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين دار الفكر العربي ص: 171.

وكانت تجبى من احرار اهل الذمة الرجال البالغين ولا يدفعها الاطفال ولا النساء ولا العبيد ولا ذوو العاهات كالعميان والمقعدين والزمنى وغيرهم، ولا المتهربون ولا المجانين، بل ويضيف القاضي النعمان وهو يمثل العهد الفاطمي انها لا يدفعها الفقراء الذين لا يجدون شيئا ولا يستطيعون العمل، مثلهم في هذا الشيوخ العاجزون عن العمل.

وكانت الجزية تسقط عن من اسلم منهم، فذكر القاضي النعمان «من اسلم وضعت عنه الجزية» ومن المستبعد ان يكون هذا الامر وراء اقبالهم على الاسلام ذلك ان قيمة الجزية لم تكن شديدة الوطأ ويؤكد ارنولد توماس هذا فيذكر انها «كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهلهم»<sup>(1)</sup>. لان الشريعة الاسلامية كانت تحض دائما على الرفق في اهل الذمة حتى ان رسول الله (ص) قال: «الا من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته أو اخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فانا حجيجه يوم القيامة»<sup>(2)</sup>.

وقد كان الفاطميون يراعون عند جبايتهم الجزية احوال الناس وظروفهم من يسر وعسر، فيذكر القاضي النعمان انها كانت تجبى من الدهاقين وامثالهم من اهل السعة في المال عن كل رجل منهم ثمانية واربعين درهما في كل عام ومن الطبقة الوسطى اربعة وعشرين درهما ومن الطبقة السفلى اثني عشر درهما<sup>(3)</sup> وزيادة في التسهيل فقد رخص الفاطميون في اخذ الجزية من اهل الذمة عروضاً بقيمتها. بل وفي اخذها من ثمن بعض السلع المحرمة كالخمر والخنزير، ولعل الفاطميين جبوها في بلاد المغرب الاسلامي مثلما جبوها في مصر، فاذا كان الامر كذلك فقد جبوها في مصر اربعة دنانير من الطبقة العليا ودينارين من الطبقة الوسطى ودينارا واحدا من الطبقة السفلى، يضاف الى هذه المبالغ درهان وربع درهم للعاملين عليها، كما يذكر هـ.ر. ادريس انها — الجزية —

(1) ارنولد توماس: الدعوة الى الاسلام. ص: 57 وعن الجزية انظر ايضا محمد بن يوسف طقيش: شرح كتاب النيل، دار الفتح بيروت ط. 2 / 1392، 1972م ج. 17 ص: 568.  
(2) الرئيس ضياء الدين: المرجع السابق ص: 173: 174. عبد الكريم الخطيب: السياسة المالية في الاسلام دار الفكر العربي بدون تاريخ ص: 65 رواه ابو داود وفي رواية اخرى «فانا خصيمه يوم القيامة».  
(3) آدم متز: الحضارة الاسلامية ج. 1. ص: 78.



كانت في عهد بلكين بن زيمى محددة باربعة دنانير أو أربعين درهما، لكن آدم متر يشير الى ان أغلبية دافعي الجزية كانوا يدفعون الحد الأدنى حتى ان بنيامين BENJAMIN يقول «ان اليهود في كل بلاد الاسلام يدفعون دينارا واحدا»<sup>(1)</sup>.

اما بخصوص أوان دفع الجزية، فيذكر ابن ابى الفضل ان سبيل «الجوالي ان يفتح في أول يوم من المحرم في كل سنة» بينما يذكر ضياء الدين الرئيس ان أوان دفع الجزية كان «في آخر العام لا في أوله تماما كأموال الركاة» ويقف «متر موقفاً وسطاً فيذكر الجزية تؤخذ مقسطة على ستة اجزاء أو خمسة وذلك لان عمال المسلمين كانوا يتقاضون منها مرتباتهم في كل شهر وكذلك كان الحال في الاندلس في القرن الثالث الهجري»<sup>(2)</sup>، ويرجع ان النظام الذي كان معمولاً به في بلاد المغرب هو ما ذكره الرئيس، ويؤكد ابن عذارى ما ذهب اليه حين تعرض لابي عبد الله الشيعي، فحين فتح بلزمة وطبنة سنة 293 هـ / 905 م، سأل احد الجباة من اين هذا المال الذي بيدك ؟ قال: «جيتته من اليهود والنصارى جزية عن حول مضى لهم» مما يدل على انها كانت تجبي في نهاية العام، وهذا يتفق وشرط جباية الجزية من الذمي والمتمثل في اقامته حولا كاملا في ديار الاسلام.

وقد جبي الرستميون الجزية، فذكر ابن الصغير ان الامام عبد الرحمن بن رستم كان «ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية»<sup>(3)</sup>، ويدل هذا على وجود اهل الذمة في تاهرت مما يرجع استمرار جمعها بعدهم، كما جباها الفاطميون فقد قال ابو عبد الله الشيعي للجاني السالف الذكر «هذا مال طيب» ثم امر احد الدعاة بان يفرقه في اصحابه، وهذا الموقف يكشف عن نظرة الفاطميين الى مال الجزية، من جهة ثانية فقد أشار ابن حوقل في ذكره مدينة تنس انه كان لسلطانها بها وجوه من الاموال كثيرة... والجوالي ثم يذكر الجوالي ثانية

(1) آدم متر: الحضارة الاسلامية ج. 1 ص: 78.

(2) آدم متر: نفس المرجع ج. 1 ص: 80. 616. 2 p. H.R. Idris: La Berbérie....

(3) ابن الصغير: سيرة الأئمة. ص: 327. وعن الجزية انظر: هو بكتز: النظم الاسلامية في المغرب. ص: 67. 70.

حين يشير الى وجوه دخل المغرب «عن خراج وعشر وصدقات وجوال ومراصد»<sup>(1)</sup> الا ان ما يلفت النظر ان ابن حوقل فضل استعمال «الجوالي» على كلمة «الجزية» وان كان هو بكنز HOPKINS ويعتبرها كلمتين مترادفتين.

وان كان ابن الصغير وابن حوقل قد كشفنا بذكرها الجزية أو الجوالي عن وجود اهل الذمة في بلاد المغرب الاوسط، بشكل جعل جزيتهم ملفنة للنظر وذات اعتبار، الا انهما لم يذكرنا مبلغ الجزية هذه ولا عدد اهل الذمة، وعلى كل فقد كانت موردا شرعيا يضاف الى موارد الدولة في بلاد المغرب الاوسط كمورد الخراج.

### الخراج:

ومهما كان الامر، فان الخراج<sup>(2)</sup> كان موردا من موارد بيت المال الرسمي وقد ابتدا الامام عبد الرحمن بن رستم جبايته، فهل مسح الامام الارض وميز ارض العنوة ثم وضع الخراج ؟ وهل وضع الخراج على اراضي المسلمين المخالفين ؟ أم هل جباه من اهل الذمة الذين كانوا في تاهرت وحدهم بدليل أن ابن الصغير ربط الخراج بالجزية ؟ فمن المرجح انه لم يكن يقصد بكلمة «كلمة الخراج» لتدل على «العشر» لانه استعمل كلمة «الاعشار» في مكان آخر من كتابه مما يدل على انه كان يدرك تمام الادراك الفرق بين اللفظتين وان كانت «الخراج» تأتي مرادفة «العشر» احيانا، فذكر يعقوبي بخصوص اهل جبل نفوسة وهم اباضية انهم «لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا الى رئيس لهم بتاهرت وهو رئيس الاباضية يقال له عبد الوهاب بن عبد الرحمن»<sup>(3)</sup>، لكن هذا اي «الخراج» تحتفظ بمعناها اذا كان جبل نفوسة من اراضي العنوة، ولكن هذا الامر يثير تساؤلا، هل استمر تمييز ارض الصلح من ارض العنوة الى القرون المتأخرة، عصر قيام دويلات اسلامية ؟.

(1) ابن حوقل: صورة من: 94.

(2) حول موضوع الخراج بصفة عامة انظر، ابو يوسف: كتاب الخراج. قدامة ابو جعفر: كتاب الخراج وصناعة الكتابة، يحيى بن ادم القرشي: كتاب انخراج دانيال ديهيت: الجزية والخراج، ترجمة فوزي فهم جاد الله الرئيس ضياء الدين: الخراج والنظم المالية. الماوردي: الاحكام السلطانية من: 146.

(3) يعقوبي: البلدان. ص: 346.

لم يذكر ابن الصغير كلمة «الخراج» بعد الامام عبد الرحمن، لكن هذا لا ينفي استمرار الرستميين جباية هذا المورد، كما ان المصادر الاباضية وغيرها قد اهتمت الموضوع، فلم تشر الى تفاصيل حوله، كطريقة وضعه، فان الخراج على ثلاثة اصناف على المساحة والمقاسمة والقوانين، التي هي مقاطعات معروفة لاتزيد ولا تنقص زرع أو لم يزرع<sup>(1)</sup>، ومن المستبعد ان يكون الرستميون لجأوا الى المساحة والقوانين — نظام الالتزام — لانهما ليسا من العدل في حق الرعية، والمرجح انهم اتخذوا نظام المقاسمة، اي ان لهم حصص معلومة من الانتاج، فان سعاة الامام كانوا ممن «لا يظلمون ولا يظلمون».

كما لم تشر المصادر الى كيفية جباية هذا المورد، ويظهر ان الرستميين وغيرهم واجهوا مشاكل في جبايتها بسبب اختلاف السنة الهجرية عن السنة الجبائية الشمسية اذ ينتج عن هذا الاختلاف ان تنتهي السنة الهجرية ولم يبدأ جني المحصول بعد، لان تلك النهاية تدور على مدار السنة الشمسية فتصادف الفصول الاربعة وربما لجأوا في مواجهة هذه المشكلة الى ان كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية تعادل ثلاثا وثلاثين سنة قمرية، فنقلوا خراج السنة المتقدمة الى السنة المتأخرة، اعني انهم جبوا خراج الثانية والثلاثين في السنة الثالثة والثلاثين<sup>(2)</sup>، كما ان المؤرخين لم يشيروا الى موعد جباية الخراج، فهل كانت تتم شهريا ام سنويا ؟ اذ يذكر ابن الصغير ان اهل الصدقة كانوا يقبضون «اعشارهم في هلال كل... من اهل الشاة والبعر»<sup>(3)</sup> ويبدو ان المحقق لم يستطيع تحقيق الكلمة المحذوفة بعد «كل» الا ان استعمال كلمة «هلال» تدل على ان الكلمة المحذوفة هي «شهر» ومنه يمكن القول ان الجباية كانت تقع شهريا، وربما كان من الصعب تطبيق هذا القول على الخراج، اذ يبدو ان جبايته كانت سنوية، بعدما ينتهي الناس من جمع محصولهم مع بعض الاستثناءات وقد يفهم هذا من أن الامام عبد الرحمن كان ينظر في مال الجزية والخراج فيقتطع منه «ما يكفيهم في سنتهم»<sup>(4)</sup> فكان هذا المال كان يجتمع مرة واحدة في السنة.

(1) الاصطخري: المسالك. ص: 157 ابن حوقل: صورة. ص: 263.

(2) آدم منز: الحضارة الاسلامية ج. 1 ص: 191 انظر ايضا عن الخراج. هو بكتز: النظم الاسلامية ص: 74. 87. مرمول: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية. ص: 238. 239.

(3) ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص: 327.

(4) نفس المكان.

ولم يشير المؤرخون الى مبلغ الخراج الذي جباه الرستميون وغيرهم، ويبدو انه متذبذب بين سنة واخرى، بل وبين امام وامام ومن حيث الخصب والفحط وربما لهذا الامر كان القاضي النعمان ينصح الخليفة الفاطمي فيما يصلح احوال اهل الخراج وفي مساعدتهم على عمارة ارضهم والتغلب على مشاكلهم، وفي تخفيف الجباية عنهم فيقول: «تعاهد اهل الخراج وانظر كل ما يصلحهم فان في صلاحهم صلاح من سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا هم لانهم الثمال دون غيرهم والناس عيال عليهم فليكن نظرك في عمارة ارضهم وصلاح معاشهم<sup>(1)</sup>».

وجبى الفاطميون الخراج، فذكره ابن حوقل ضمن موارد الفاطميين حين تعرض الى ذكر وجوه جباية الاموال في تنس كما سبق، «وكان ديوان الخراج قد احرق لما هرب زيادة الله آخر امير أغلبي، فأمر به ابو عبد الشيعي فأحرق<sup>(2)</sup>، وهذا يدل على ان موقف الشيعي هذا من خراج بلزمة وطبقة لم يكن ثابتا بل يقصد به الدعاية ونشر السمعة الطيبة وجذب الناس اليه لان الخراج مورد شرعي وفق جميع المذاهب».

وان وجود ديوان له يعني تسيير الامور بدقة وان الدقة ومحاسبة الناس تجعلهم يهتمون بارضهم ويحسن انتاجها، وكان الفاطميون لايسامحون في صغيرة ولا كبيرة وهذا لحمل الناس على العمل والانتاج، ففي سنة 305 هـ / 917 م «اخذ اهل الضياع باعمال افريقية بمغرم سمي التضييع وزعموا انه من بقايا التفسير<sup>(2)</sup>» كما سلف لكن التنظيم والدقة لاتعني ظلم الناس، وان كان هؤلاء يرون كل خروج عن المألوف لديهم ظلما، فان الخليفة المنصور الفاطمي لم يتردد في اسقاط الخراج عن الرعية حتى صلحت احوالهم في اعقاب الاحداث الخطيرة التي عاشتها بلاد المغرب اثناء انتفاضة ابي يزيد وما ادت اليه من تدهور اقتصادي، واذا ظهرت بعض المظالم بسبب الجباة، فرجما كان وراءها العمال

(1) القاضي النعمان: كتاب الدعائم. ج. 1 ص: 362.

(2) ابن عذاري: البيان ج. 1 ص: 181. البقاي: اموال تركها الخلافة في ايدي الفلاحين والتفسير هو الخراج.

انفسهم، فقد كان هؤلاء «لا يريدون من ينظر فيما تقلدوا امره من الاعمال بالنواحي ويجعلون ما امروا به من ذلك سببا لتأخر المال»<sup>(1)</sup>، وحين ولى الخليفة المنصور الفاطمي ميسور الفتى على تهرت اضطرب عليه اهل البلد لانه سار فيهم بسيرة غير مرضية<sup>(2)</sup> سنة 333 هـ / 945 م. واحنسب ابو يزيد مخلد بن كيداد على جباة الاموال، فيبدو أن العمال بيت الداء في السياسة المالية الفاطمية، فكان الخليفة القائم على سبيل المثال متعففا عن المال الحرام والفاطميون ليسوا بحاجة الى اثارة السكان عليهم وهم يعدون انفسهم لتحقيق مطامعهم في المشرق الاسلامي.

ومن الجدير بالملاحظة ان بلاد كتامة كانت تمتنع عن الدفع، فحين اقترح عليهم الخليفة المعز الفاطمي ان ينفذ إليهم رجالا لجمع الاموال والزكوات رفضوا اقتراحه، وظلوا على رفضهم حتى شحن المنصور بن بلكين بن زيري سنة 379 هـ «بلاد كتامة بالعاكر وبث عماله فيها ولم يدخلها عامل قبل ذلك فجبوا وضيقوا على أهلها»<sup>(3)</sup>، ويدخل هذا التصرف في اطار الاهتمام الزيري بالجباية استمرارا للسياسة المالية الفاطمية، ومن المستبعد ان المقصود بالعبارة «ضيقوا على أهلها» السالفة الذكر انهم حملهم فوق طاقتهم لان المنصور بن بلكين كان معروفا بانه «حسن السيرة محبا للعدل والرعية أوسعهم عدلا واسقط البقايا عن اهل افريقية وكان مالا جليلا»<sup>(4)</sup>، فان الامر اذن لا يخرج عن ان الكتامين رأوا في الجباية منهم ظلما بعدما ألفوا عدم الدفع.

ولم يشر المؤرخون ولا الرحالة الى مبلغ الاموال المحببة خراجا من بلاد المغرب الاوسط، وحين اراد ابن حوقل الاشارة الى خراج مسيلة اكتفى بوصفه «خراجا غزيرا» ويرجع ان الفاطميين قد جبوا اموالا طائلة من الخراج ذلك ان عبيد الله المهدي امتحن مالكا بن عيسى القفصي سنة 305 هـ / 915 م «بصحبه وتعديل الارض لتوظيف الخراج الذي يسميه المقسط» اي ان المهدي

(1) الجوازي: سيرة الاستاذ جوفز. ص: 69.

(2) ابن عفازي: البيان ج 1. ص: 198.

(3) ابن الاثير: الكامل ج. 9 ص: 67.

(4) نفس المصدر ج. 9 ص: 127 حوادث سنة 386 هـ.

يكون قد امره بمسح ارض المغرب الخاضعة للنفوذ الفاطمي، ليتمكن من تنظيم الخراج حسبته تنظيميا ادق مما كان عليه، وهو ما قام به عبد المؤمن الموحي فيما بعد اي سنة 554 هـ / 1159 م، فقد مسح هذا ارض المغرب بالفراخ والاميال طولا وعرضا «فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والانهار والسباخ والطرقات، وما بقي قسط عليه الخراج والزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق»<sup>(1)</sup>، وبناء على هذا فان كلمة «امتحنه» الواردة في العبارة السابقة هي من الامتحان لامن المحنة الا اذا قصد بها أنه وضع على عاتقه مسؤولية الخطة وقد تكون «الباء» في العبارة بصحته وتعديل ... سببية، وعليه فان انه ... يكون قد نكبه بسبب صحته وتعديل الارض، اي ان مالكا هذا قام في موضوع تنظيم الخراج وتعديل الارض بما أوجب على المهدي ان ينكبه.

ويبدو ان الفاطميين كانوا حريصين كل الحرص على ضبط مبلغ الخراج ومعرفة حساباته بالتحديد، ومن اجل هذا الغرض، قام ابو معمر عمران بن أحمد بن عبد الله بن ابي محرز القاضي بتوظيف التقسيط على ضياع افريقية بعد أن وزع جميعها ونظر الى «أوفر مال ارتفع من العشور في سنة أو اقله ثم جمع المالين ووظف الشطر على كل ضيعة» سنة 303 هـ<sup>(2)</sup>.

الا ان عملية توظيف التقسيط على الضياع بحاجة الى اعادة نظر لانه تعديل الارض نفسه، بحاجة الى اعادة نظر من سنة الى اخرى لمعرفة الاراضي الجديدة التي تم استصلاحها وادخالها في التعديل، فيذكر المقرئزي انه اذا مضى من الزمن ثلاثون سنة حول الولاية السنة وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ونقص فيما يحتاج الى التقيص منها<sup>(3)</sup>.

(1) ابن ابي زرع: روض الفطاس. ص: 126 هو بكتف: النظم الاسلاميه ص: 81.

(2) ابن عدري: البيان ج 1 ص: 173.

(3) المقرئزي: الخطط ج 1. ص: 147.

العشور ضريبة ورسوم تؤخذ على الأراضي التي يزرعها المسلمون وعلى أموال وعروض تجارة أهل الحروب، وأهل الذمة المأوين بها على ثغور البلاد الإسلامية والأراضي تلك هي أراض أسلم أهلها عليها، وهي في أيديهم، وأراضي أحيائها المسلمون وأخرى أخذت عنوة ثم قسمت على المحاربين وأراض جلا عنها العدو فأستولى عليها المسلمون، وأراض تعرف بالصفايا وهي التي كانت ملكا للأسرة الحاكمة من الأعداء كما سلف.

وقد جى الرستميون العشور — الأعشار — فذكر ابن الصغير أن «أهل الصدقة على صداقتهم يخرجون في أوالي الطعام فيقبضون أعشارهم» — كما سلف — ويفهم من «أوالي الطعام»، أنهم كانوا يجيئونها على المحاصيل الزراعية وإن اختلف العلماء في المحاصيل التي يفرض عليها العشور<sup>(1)</sup>، وعبارة ابن الصغير لا تدل على نوع الأراضي التي جى الرستميون عشورها، وإن كان الأرجح أنها أراض أسلم أهلها عليها، وأراض أحيائها المسلمون، فقد كانت منطقة تاهرت عندما شرعوا في بنائها «غبضة أشبة».

أما بخصوص العشور المجبية من تجار أهل الذمة فيذكر أبو يعقوب الورجلاني الأباضي «لأنعشر أموالهم الألعام وأحدان ادعوا أنهم أعطوا العشور لبعض أهل تلك البلاد التي جاؤا منها أو لأهل الخلاف ولهم على ذلك براوت فانا نخط عنهم تلك الجزى، أو الخراج ونعشرهم لعامنا الذي جازوا فيه علينا<sup>(2)</sup>» وبما أن تاهرت تقع في منطقة داخلية فهذا يقلل العشور المجبية من أهل الذمة في الثغور.

واستمر الرستميون يجبون العشور على المحاصلات الزراعية فإن ابن الصغير يذكر أن الشراة لم تكن تطعن الإمام أفلح «في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا في أعشاره<sup>(3)</sup>»، ولم يشر المؤرخون إلى مبلغ هذه الضريبة

(1) المظفر محمود: أحياء الأرض الموات. المطبعة العالية القاهرة. 1392 هـ / 1972 م ص: 189.

(2) أبو يعقوب الورجلاني: الدليل ج 3. ص: 52.

(3) ابن الصغير: سورة الأكمة ج 1. ص: 333.

ولا الى طريقة جبايتها والارجح ان الرستميين اتبعوا طريقة المقاسمة كالخراج، لان فرض مبلغ محدد على مساحة معينة دون اعتبار لانتاجها تظهر ثقيلة على الفلاحين.

وجبي الفاطميون العشور كذلك، فحين سأل عبد الله الشيعي احد جباة بلزمة وطبنة — السالف ذكرهم — عن المال الذي معه، قال له: «من العشور، فقال ابو عبد الله: اذهبوا بهذا المال فليرد على كل رجل ما اخذ منه، واعلموا الناس انهم امناء على ما يخرج الله من ارضهم وسنة العشور معروفة في اخذه وتفرقة»<sup>(1)</sup> فهو لم يرفض مبدأ العشور، كما ان ابن حوفل يذكر العشور ضمن موارد الفاطميين، وأضاف ان للسلطان الفاطمي في تنس «وجوها من الاموال الكثيرة... والاعشار» ثم أشار الى جباية العشور من التجار فذكر ان تعشير تجار الاندلس كان يتم في طبقة، وعلى العموم، فان ما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والاندلس فيعشر على سواحل البحر<sup>(2)</sup>.

وكان شأن العشور كغيره من الموارد المالية، فلم يذكر المؤرخون والرحالة تفاصيل عن الموضوع، فلم يشيروا الى مبلغ جبايته من بلاد المغرب الاوسط، ولا الى عشور كل ناحية من البلاد، كما يلاحظ ان كتابة لم تكن تدفع عشورا في العهد الفاطمي بل ولا قبله في العهد الاغليبي، إنما كانوا يجمعون الاعشار فيوزعونها في بلادهم، لكن التجار منهم كانوا يدفعون عشورا اذا دخلوا المدن، اذا كان عمالها يعشرونهم الى ان قاموا عليهم مع ابي عبد الله الشيعي.

### الفيء والغنيمة:

يعتبر الفيء كل مال وصل الى المسلمين من المشركين من غير قتال ولا ايجاف خيل ولا ركاب، وجاء فيه قوله تعالى ﴿وما افاء الله على رسوله من اهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم﴾<sup>(3)</sup>.

(1) ابن عذاري: البيان ج 1. ص: 141.

(2) ابن حوفل: صورة. ص: 78. 94.

(3) سورة الحشر. آية 7.



وأما الغنيمة فهي كل ما اصابه المسلمون من عساكر الكفار عن طريق الحرب، وجاء فيه قوله تعالى: ﴿واعلموا انما غنمنا من شيء فان الله خمسته وللرسول ولنبي القري واليتامى المساكين وابن السبيل(1)﴾.

ولم تشكل الغنيمة موردا للدولة الرسمية لانها عاشت في امن وهدوء، وارتبطت بعلاقات حسن جوار. لكنها شهدت فتناً داخلية كانت تنشب من حين الى آخر، فربما احرز الرستميون على بعض الغنائم خاصة وان موقف الرستميين من الغنائم غير واضح، فهل كانوا يتعففون عن جمعها ؟ ام كانوا يجمعونها ؟ فان ابا يعقوب الوردجلائي يقول بخصوص المخالفين: «اننا اذا حاربناهم وهزمناهم فان اموالهم مردودة عليهم الا ما كان لبيت المال فاننا نجيزه على وجهه...» ولا نستعمل معهم في ذلك طريق الزهاد مثلما فعل ابو منصور في ولد احمد بن طولون(2).

ولكن الامر يختلف في العهد الفاطمي بسبب انه عهد حروب مستمرة، بل وكذلك العهد الزيري، فقد دخل ابو عبد الله الشيعي تاهرت بالامان، فقتل بعض الرستمية وهرب البعض الآخر فيكون قد حصل على فيء وغنائم، كما دخلت عساكر المهدي تهرت سنة 299 هـ / 911م «فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية واتهبوا الاموال»، ومثل هذا يكون قد حدث عقب كل انتصار احرزه الفاطميون في بلاد المغرب الاوسط(3)، ومثل هذا وقع في عهد الزيريين، ففي سنة 379 هـ / 986م، دخلت عساكر المنصور بن بلكين تاهرت «فنهبوا وقتلوا» بل وهناك غنائم كانت تجلبها جيوش موالية للامويين وتحارب الفاطميين والزيريين من بعدهم وعلى سبيل المثال فقد ولت جيوش حماد بن يوسف «صاحب القلعة» يطوفت الادبار امام زيري بن عطية وقد «اسلموا محلاتهم ومضاربهم وكل ما فيها من الاموال والسلاح وغير ذلك فأحتوى زيري بن عطية على جميع ما ذكرنا(4)».

(1) سورة الانفال. الآية: 40.

(2) ابو يعقوب الوردجلائي: الدليل ج 30 ص: 54. وقال الامام أبو الخطاب في موضوع الغنيمة: اذا فعلنا كما فعلوا المخالفون فحق على الله ان يرفضنا ويدخلنا معهم جهنم، اي اذا جمعوا الغنيمة انظر: الدرجيني طبقات ج. 1 ص: وعن موضوع ابى منصور مع العباس بن احمد بن طولون انظر: محمود اسماعيل: الخوارج في المغرب الاسلامي. دار العودة بيروت. 1976 ص: 144.

(3) عن انتصاراتهم هذه انظر: ابن عذاري: البيان ج. 1 مواضع متفرقة ابن خلدون: العبر ج. 4 مواضع متفرقة محمد بن عميرة: دور زناتة ص: 173 وما يلها لقبال موسى: دور كتامة مواضع متفرقة.

(4) ابن عذاري: المصدر السابق ج. 1 ص: 250.

والجديد في الامر ان الفاطميين يعطون «الغنيمة» تفسيرا خاصا، فهم يقولون: «ليست الغنيمة ما اخذ من ايدي المشركين خاصة بل ذلك كل كسب كسبه المرء فهو غنيمة» وأضاف القاضي النعمان ان الله أوجب «لنا الخمس في اموال عباده المؤمنين وجعله لنا حقا عليهم فمن منعنا حقنا ونصيبنا في ماله لم يكن له عند الله حق ولا نصيب»<sup>(1)</sup>، وقد كانوا الفاطميون — يعتبرون المسلمين المخالفين لهم من أهل البغي ويحمل قتالهم بل ويعتبرون قتالهم هذا جهادا، فذكر ابن عذاري انه حين خرج ابو القاسم الفاطمي الى المغرب قال والده المهدي: «اللهم انك تعلم اني ما اردت باخراجه الى المغرب الارضاك ونصرة دينك واذلال اعدائك» كما سلف.

واذا كانت الشريعة قد حددت أوجه قسمة الفتي والغنائم، فان الفاطميين يرون ان «ما لم يقاتل عليه فهو لله ورسوله كما قال الله عزوجل وهو من بعد الرسول للامام في كل عصر وزمان» ويرون ان «الخمس لنا اهل البيت في اليتيم منا والمسكين وابن السبيل وليس فينا مسكين ولا ابن السبيل اليوم بنعمة الله فالخمس لنا موثر ونحن شركاء الناس فيما حضرناه في الاربعة الاخماس»<sup>(2)</sup>.

ويظهر ان توسعهم في مفهوم الغنيمة حتى شمل كل ما كسبه المرء، انهم كانوا يهدفون الى جباية اقصى ما يمكن من اموال الاغنياء، ولا ارى ان عيونهم كانت تنزو الى ما بيد الفقير، ذلك ان الفاطميين اسماعيلية حاولوا ان يقيموا بين الناس نوعا من المساواة الفعلية، ففرضوا من الضرائب ما يساعد على تقليل التفاوت في الثروات، ومن كان فقيرا فيهم اسعفوه، فجذبوا اليهم أغلب من عضهم الفقر بانيابه<sup>(3)</sup>.

وعلى كل فان هذه الغنيمة، كانت ترسل كغيرها من الموارد الى خارج بلاد المغرب الاوسط شرقا وغربا، وكان في القيروان حسب قول ابن حوقل «ديوان جميع المغرب واليهما تجبي الاموال».

(1) القاضي النعمان: كتاب المنة ص: 69.

(2) نفسه: كتاب دعائم الاسلام ج 1 ص: 386 وعن موقف الاباضية من الغنيمة الوريثاني: الدليل ج. 3 ص: 54.

(3) عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ص: 49 — 40.

عبارة عن ضرائب غير شرعية<sup>(1)</sup> تجبى على المصنوعات المحلية والواردات الاجنبية وعلى كل ما يباع ويشترى، فوضعت على الحيوانات والاسواق، وقد أشار المقدسي الى ذلك بخصوص القيروان فذكر ان «الضرائب موضوعة على اصحاب الدكاكين<sup>(2)</sup>» ولم تكن الضرائب في المغرب الاوسط تختلف على تلك المعروفة في افريقية في القرن الرابع الهجري، لخضوع البلدين الى نفس القوانين.

ويرى ه.ر. ادريس ان المكوس كانت تفرض بشكل جماعي، يقوم المغرمون بتوزيعها على انفسهم، ويبدو أن هذه العملية كانت تواجهها صعوبات، فهل كان التوزيع على الرأس أم على درجة الغنى ؟ وربما هرب البعض عند التوزيع ثم عاد بعد الانتهاء منه<sup>(3)</sup>.

وكانت قيمة المكس تختلف من حين لآخر فترواح بين 8 % - 20 % وقد حددها الفقهاء بنسبة 10 % على التجار المسلمين و 5 % على تجار اهل الذمة و 2,5 % على التجار المسلمين، لكن المؤرخين لا يشاركون الى المبالغ التي كانت مكوسا من بلاد المغرب الاوسط.

ونظرا لان المكوس ضرائب غير شرعية كما سلف فان الرستميين والامراء العلويين لم يجبوها، أو على الأقل ان المؤرخين لم يشاروا الى انهم جبوها، لكن الفاطميين فعلوا ذلك فأقاموا مراصد في مواضع مختلفة من البلاد، تتولى جباية المكوس، فذكر ابن حوقل بخصوص تنس ان للسلطان الفاطمي بها «مراصد على المتاجر الداخلة والخارجة والصادرة والواردة<sup>(4)</sup>» وبذلك تكون مراصد اخرى في جميع الموانئ البحرية والبرية.

(1) عن المكس: انظر سحنون : المعونة ج 2 ص: 279 كتب عمر بن العزيز الى عامل المدينة ان يضع المكس فانه ليس بالمكس ولكنه البعس «وانظر عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم. ص: 184 وما يليها هر بكنز: نظم الحكم ص: 94 - 96.  
(2) المقدسي: احسن التقاسيم. ص: 225.  
(3) لمزيد من التفاصيل انظر: H.R. Idria: La Berberie... t. 2 P.614.  
(4) ابن حوقل: صورة ص: 89 وأنظر ص: 94.

وكان متولى المكوس باب المدينة مفرا له مما يسمح له بالاشراف على كل صغيرة وكبيرة داخلية أو خارجة، وكان التاجر دافع المكس بحمل رخصة بالسماح له بالمرور، وهي اشعار يدفعه ما عليه من المكوس، ويوضع اسمه في سجلات خاصة بهذا الشأن، فان الاستاذ جوذر يكتب الى المعز الفاطمي «امر طريق السفر وغيره من المناصب هناك، وان كثيرا من رجال الدولة ليست في ايديهم سجلات ولا اطلاق بالجواز(1)».

وكان الفاطميون يضعون ضرائب تدعى «القبالة» وهي تختلف عن نظام التقبيل، فهي تعني الضرائب التي كانت يؤديها اهل الحرف أو بائعو السلع الرئيسية بينا التقبيل نظام الجباية — كما سيأتي —، ولئن كان ابو عبد الله الشيعي قد اعلن في اجناعه بحياة بلزمة وطينة كما سبق ان «لاقبالة ولا خراج على المسلمين في اموالهم» الا ان الخليفة المنصور الفاطمي كتب الى مداد الغنى بخصوص زناتة «حين اعلن الخير بن محمد بن خزر ولاءه «ان لا يكلفهم قبالة ولا مغرما(2)» وهذا يعني انه كان يكلفهم قبل ذلك، فهل كان الفاطميون اذن يفرضونها على المخالفين لهم والخارجين عن طاعتهم فحسب ؟.

وعلى اية حال، فليس هناك معلومات كافية حول هذا الموضوع ولا تفاصيل، فان المؤرخين لا يشاركون الى مبالغه، ولا الى المبالغ الخجية من كل ولاية أو كل مرصد ومع هذا فقد كانت موردا هاما(3).

(1) الجوزري: سيرة الاستاذ جوذر. ص: 110.

(2) ابن حماد: اخبار ملوك بني عبيد ص: 30.

(3) بعث المعز الفاطمي الصقلي الى شيوخ كتامة يخبرهم بانه يريد ان يعث رجاله ليقبوا بينهم فيأخذ صدقاتهم ومراعيهم فاذا احتاج اليها استعان بها فقال شيوخ كتامة لخفيف قل لمولانا: «والله لأفعلننا هذا ابدا كيف تؤدي كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة وقد اعزها الله قديما بالاسلام وحدتنا معكم بالامان وسبونا بطاعتكم في الشرق والمغرب فعاد خفيف فأخبر المعز بذلك، فاستدعى شيوخ كتامة فقالوا له: هذا جراب جماعتنا، فظاهر لهم بانه يريد اختصارهم كيف يكون حالهم بعده انظر القر يزي: الخطوط ج. ص: 352، نفسه: اتعاط الخفاء ج. 1 ص: 98 لقبال موسى: المعز لدين وجيل جديد لكتامة، من خلال وثيقة فاطمية معاصرة الاصلية ع. 29 عرم صفر 1396 هـ/ جانفي فيفري 1976 م ص: 40.

يعرفها ابن حوقل بان «تربتها للسلطان وقد ابتنى فيها التجار الاسواق وغيرها فالبناء لهم ويؤدون اجر الارض<sup>(1)</sup>» اي انها تشمل جميع المنشآت التي يقيمها الناس على ارض حكومية من اسواق وخانات وفنادق وطواحين.

وقد اشار ابن الصغير الى ان الرستميين شرعوا في «اتخاذ الارحاء والمستغلات»<sup>(2)</sup> لكنه لم يقدم اية اضافات أخرى حولها مثل عددها، جبايتها، ملكياتها وغير ذلك، فاكفى بإشارة أخرى الى انها كثرت في عهد الامام افلح بن عبد الوهاب.

وهي بطبيعة الحال موجودة في كل مدينة وفي عهد الفاطميين والزيرويين كذلك، وتظهر عند رحالة القرن الرابع الهجري، الذين أشاروا الى خانات وفنادق بعض المدن لكنهم علي اية حال لم يقدموا توضيحات بشأنها فلم يذكروا جبايتها كذلك ولا كيفية تاجيرها للناس.

#### المصادر:

لم تشر المصادر بين ايدينا الى قيام الرستميين والامراء العلويين بمصادرة اموال بعض الناس، لكنها أشارت الى قيام الفاطميين بالمصادر في افريقية، وهذا يعني انها المصادرة كانت موردا ماليا لهم، مما يرجح انهم مارسوها في بلاد المغرب الاوسط خاصة مع اضطراب امر البلاد عليهم.

فيخصوص افريقية، ذكر الخشنى ان ابا العباس بن السدري كان «من ضربه الشيعي وعذبه واخذ نعمته»<sup>(3)</sup>، وذكر ابن عذري ان المهدي الفاطمي كان يظهر «التعلل على اموال الناس في كل جهة»<sup>(4)</sup> وهذه العبارة توحي بانه تعلل على اموال الناس في بلاد المغرب الاوسط، وبما انه المهدي خصص «ديوانا لاموال الهاربين مع زيادة الله آخر امير اغلبي واستصفى اموالهم»<sup>(5)</sup>.

- (1) ابن حوقل: صورة. ص: 265 السامرائي: المؤسسات. ص: 229.
- (2) ابن الصغير: سورة الاثمة. ص: 324.
- (3) الخشنى: قضاء قرطبة. ص: 283.
- (4) ابن عذري: البيان ج 1. ص: 181.
- (5) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 257.

فهذا يوحى بدوره انه فعل نفس الامر مع الهاريين من سكان المغرب الاوسط، وما أكثرهم، فقد هرب الزناتيون الى المغرب الاقصى حتى كاد المغرب الاوسط ان يكون خلوا منهم على حسب تعبير بعض المؤرخين، هذا بالإضافة الى مصالة بن حبوس حين انتصر على امام فاس 309 هـ / 921 م يحيى بن ادريس «عذبه بانواع العذاب حتى استصفى امواله وذخائره» وربما كانت هذه السياسة وراء منح الملكية وغيرهم تأييدهم لابي يزيد غلدة بن كبداد، فهو على الاقل «معه حفظ الاموال»، لكن المصادر لاتشير الى تفاصيل حول هذا الموضوع، كغيره من الموارد المالية، فلم تذكر مبالغه، ومهما كانت هذه المبالغ فانها كانت تأخذ طريقها الى بيت المال الفاطمي.

### أموال الامتحان:

يقول القاضي النعمان: «جعل عز وجل للأئمة صلوات الله عليهم عند استنقاذهم أوليائهم في أموالهم وفيما أحبوه ومارأوا أن يمتحنوهم به ما رأوه من ذلك» ثم يضيف أن «من امتحنه أولياء الله منكم أيها المؤمنون فليصبر للمحنة وأيسر ذلك المال وليس فيه نوقيت على الأئمة عليهم السلام ولا فيما يمتحنون به أوليائهم عند ارتضائهم احوالهم وابلاغهم درجة الفضيلة عندهم»<sup>(1)</sup>.

وبالفعل فقد امتحن الفاطميون بعض الناس، فذكر القاضي عياض بخصوص مالك بن عيسى بن نصر القفصي ت 305 هـ / 917 م انه «امتحان آخر عمره بمغارم السلطان الحادثة على اهل الضياع»، وكانت ستين دينارا وحين مات القاضي المروزي ت 303 هـ / 915 م «طوب اهل القيروان بماله فأمتحن بذلك جماعة من وجوه اهل القيروان وفضلائهم وتجارهم» ولا يعني هذا ان المثلان الا لأنهما يكشفان عن مورد فاطمي وزيري، يكون من الأرجح انهم طبقوه على بلاد المغرب الاوسط، ومن الجائز ان يكون دعاة التشريق في البلاد امثال منيب بن سليمان المكناسي داعي التشريق في جبال الونشريس قد امتحنوا الناس في أموالهم ماداموا امتحنوهم في اعراضهم الى ان قام عليهم الناس فقتلوا بعضهم»<sup>(2)</sup>.

(1) الحبيب الجنتاني: السياسة المالية ص: 50 وعبارة «فليصبر للمحنة» الأرجح انها فليصبر للامتحان لكي تنجح مع ما سبق.

(2) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 185 حوادث سنة 309 هـ.

## أموال التطوع

يذكر القاضي النعمان موردا آخر من موارد الدولة الفاطمية وهو «التطوع» فيقول: «المؤمنون بعد ذلك مندوبون الى التطوع بالاتفاق من أموالهم في سبيل الله ورفع أعمالهم منها الى أوليائهم أو من أقاموه لقيض ذلك منهم وذلك مفوض فيه إليهم وليس عليهم فيه توقيت ولا فرض معلوم وإنما هو تطوع» (1) ثم يلج على أهمية هذا التطوع مركزا على أن المال أمانة بأيدي الناس. فمن المرجح والحالة هذه أن يكون بعض شيعة المغرب الأوسط، قد دفعوا مبالغ إلى الفاطميين على سبيل التطوع.

ويمكن أن يدخل في باب التطوع أموال تدفع على شكل هدايا، فحين دخل الأمير المنصور الزييري مدينة رقادة قادما إليها من أشير سنة 374 هـ / 1081 م «أتاه العمال بالهدية» وذكر الرقيق القيرواني أن عامل إفريقية يوسف بن أبي محمد كان يخرج في كل سنة على كور إفريقية ومعه أبو الحسن البوني «يجبي الأموال ويقبض الهدايا» وذكر ابن عذاري بخصوص باديس بن المنصور الزييري أنه «أهدى إليه جماعة من الناس على قدر أحوالهم» سنة 382 هـ / 988 م.

وقد ذكر ابن حوقل أن لسلطان المغرب في مرسى الخرز ناظر يلي صلاحها ومعاونها وما يلزم ما يخرج من هذا المعدن (2) — المرجان —، ومن المستبعد أن يقصد «بصلاحها» الصلاة بل أن الأقرب إلى الواقع أنها جمع صلة، فلم يسبق أن كانت الصلاة وظيفة مستقلة تسند لموظف، لأنها من مهام «إمام المسجد، فيكون الأرجح أن مهمة هذا الناظر هي جباية الصلوات والاعانات التي يقدمها الناس هناك بالإضافة الى الضرائب المفروضة على المرجان، ومن المرجح أن يكون مثل هذا الناظر في مناطق مختلفة من بلاد المغرب الأوسط.

أموال الهجرة والفقرة: يشير القاضي النعمان الى أن أبا عبد الله الشيعي «افترض لله على كل امرئ دخل في امره دينارا اسماء دينار الهجرة ودرهما زعم انه درهم الفطرة وجعل حقا واجبا في أموال الامة (3)» ولا تشير

(1) الحبيب الجنتعاني: المكان السابق.

(2) ابن حوقل: صورة ص: 76.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص: 17. ليس لهذا الدرهم علاقة بصدقة الفطر.

المصادر التي بين أيدينا الى أية معلومات اضافية حولها في بلاد المغرب.

### الأحباس:

وهي الأموال الموقوفة على جهات برّ لا تنقطع كاللور والفنادق والاراضي وغيرها، وقد شكلت موردا للرستمين وغيرهم ممن تحكم بلاد المغرب الأوسط، فهي أموال شرعية وان اغفال المؤرخين لهذا المورد لا ينفي وجوده فقد اهتم الفاطميون به، فكان القاضي محمد بن عمر المروذي يأخذ «أموال الأحباس والحصون» (1).

وهناك احباس أخرى يمكن ان نطلق عليها اموالا محجوزة، فان القاضي النعمان يرى ان ما كان من اموال اهل البغي المخالفين في ايدي اهل العدل «الفاطمين» فينبغي ان يحبسوه عنهم ما داموا على بنحيم، فاذا فاؤا أعطوهم آياه ولا يكون غنيمة ولكنه يحبس (2).

### المغارم:

لاتشكل المغارم موردا من موارد بيت المال عند الرستميين، ولا بيوت الأموال في الامارات العلوية، لكنها كانت موردا هاما عند الفاطميين ثم الزيريين من بعدهم، ويبدو ان قبائل المغرب الأوسط قد تحملت الكثير من هذه الضريبة، وذلك راجع الى حروبهم العديدة اذ من المرجح أن الفاطميين كانوا يغرمون القبائل التي حاربوها جميع التكاليف التي أنفقوها في اعداد وتسير حملاتهم، ونظرا لأن مؤونة الجيش تقع على عاتق المناطق التي يمر بها، سواء في حالة السلم أو الحرب، فان الفاطميين قد فرضوا مغارم على مثل هذه المناطق.

فقد جبي الفاطميون اموالا عظيمة من اهل طرابلس سنة 300 هـ على سبيل المثال من الذين اثاروا الخلاف، وغرم ابو القاسم الفاطمي اهل البلد جميع ما اخرجوه على عسكره، فمن المرجح انهم فعلوا نفس الامر مع اهالي تاهرت وغيرهم من القائمين ضدهم.

(1) الدباغ: معلم الايمان. ج. 2. ص: 292 عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم. ص: 183.  
(2) القاضي النعمان: كتاب دعائم الاسلام ج. 1. ص: 397. وعن الأحباس انظر: H.R. Idris: La Berbérie Orientale... T2 P. 606 . 608 وعن نوازل الأحباس بصفة عامة في بلاد المغرب الاسلامي انظر: الونشريسي: للعبار المغرب. ج. 8.



ويظهر حرص الفاطميين واعتمادهم بزيادة المغارم في ان عبيد الله المهدي امر ان يكون طريق الحاج على المهدية لاداء ما وظف عليهم من المغارم في الشطور وألا يتعدى هذا الطريق احدا<sup>(1)</sup>، وهو في هذا الأمر لايمسثني احدا، اعني انه يشمل حجاج المغرب الأوسط.

### موارد أخرى:

قد عرف عن الفاطميين انهم جبوا ضريبة في مصر تدعى التجوى فمن المرجح انهم جبوها قبل ذلك في المغرب الاسلامي، وكانت قيمتها 33 3/2 دينارا، فرضت على الرجل والمرأة لصندوق الاخوة، فتخرج لدافعها رقعة كتب عليها الخليفة «بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك فيدخر ذلك ويتفخر به<sup>(2)</sup>».

وكانوا يفرضون ضرائب على المراعي، ويبدو انها كانت موردا هاما حتى ان ابن حوقل عددها بين موارد الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، ولكن كانت المصادر لا تشير إلى مبالغ هذه الضريبة الا أن المرجح أن بلاد المغرب الاوسط دفعت مبالغ معتبرة لكثرة مراعيها.

وفرضوا ضرائب على التراب، فذكر القاضي غياض ان تميما بن لي العرب ت 359 هـ / 969م «كان اذا اراد ان يطير سقوفه حفر اصل داره من اجل قبالة السلطان (الخليفة) على التراب» ومثل هذه الضريبة قد تكون سرت على بلاد المغرب الاوسط.

كما ادخل الفاطميون بيوت اموالهم أموالا أخرى عن طريق الموارث والحشيرة وهي الاموال التي مات اصحابها ولم يتركوا وارثا، فحين مات ابو حفص القلاس سنة 313 هـ / 912 م ولم يتخلف هذا المتوفي وارثا فورثه عبيد الله (المهدي)<sup>(3)</sup>.

(1) ابن عذاري: البيان ج. 1 ص: 186. وعن المغارم في العهد الزيري: H.R. Idris: La Berbérie Orientale... T2 P. 616, 619.

(2) عطية: نظم الحكم ص: 65. ناصر خسرو: سفرنامه ص: 25. ربما كانت المغارم بين اسبيل قيام الثورات على الفاطميين في بلاد المغرب الاوسط، ذلك لان زناتة بقلب عليها طابع بدوي وبذكر ابن خلدون ان في المغارم والضرائب ضيما ومقلة لا تحملها النفوس الاية ومن هنا يبين غلط من يزعم ان زناتة بالمغرب كانوا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط قاحش» ابن خلدون: المقدمة ص: 142.

(3) ابن عذاري: البيان ج. 1 ص: 190 وانظر: عطية: المرجع السابق. ص: 181 وما يليها.

وجبى الفاطميون اموالا من دور الضرب، كأجرة لضرب النقود، حتى بلغ دخل دار الضرب بافريقية اربعمائة ألف دينار والاجرة هذه نسبة معينة تشمل فرق قيمة الدينار عن وزنه ذهباً.

وكان بعض الموظفين يأخذون الرشوة ليجمعوا اموالا يتقدمون بها الى الخليفة لتكون لهم عنده حظوة، فذكر ابن عذاري ان القاضي محمد بن عمران النفطي، كان قد جمع «اموالاً من الرشى والاحباس ورفعها الى عبید الله فكانت له وسيلة اليه»<sup>(1)</sup>.

وقد دخل بيت المال الرستمي اموال عن طريق الوصايا فقد كان ابو مرداس مهاصر السدراقي اذا اراد زيارة تاهرت «اخذ الوصايا من اهل الدعوة من اهل الجبل» جبل المسلمين نفوسة فيرفعها الى تاهرت لتفع بيت مال المسامين ولتفع ارباب الوصايا<sup>(2)</sup>.

ويشير ابن حوقل الى ان الفاطميين جبوا بعض موارد اخرى من صقلية، فربما جبوها من باقي مناطق نفوذهم في بلاد المغرب الاوسط وربما جباها الزيرون بعدهم وكان منها: مال اللطف، ومال البحر وربما يقصد بهذه ضرائب الملاحات وقبالة الصيد، كما كانت ترد بيت المال اللقط التي لم يعثر على اصحابها، ويمكن ان نضيف اليها الضرائب المفروضة على مياه الري والذبائح، وبعض انواع الصناعات، كما كانوا يجبون اموالا تدعى «الهلل» وهي اموال تؤخذ على البضائع الموجودة في الاسواق بحسب الشهور الهلالية<sup>(3)</sup>.

وهكذا فلئن اقتصر الرستميون والامراء العلويون على جباية الاموال من مواردها الشرعية فان الفاطميين جبوها من موارد شرعية، وموارد تعتبر شرعية من وجهة نظر مذهبية فاطمية لكنها ليست كذلك في نظر اهل المذاهب المخالفة.

(1) ابن عذاري: نفس المصدر ج. 1. ص: 188.

(2) الشماخي: السور. ص: 177.

(3) مرمول: السياسة الداخلية. ص: 244.

وبناء على ما ذكره ابن حوقل «دخل المغرب من جميع وجوه امواله وسائر كوره ونواحيه واصقاعه عن خراج وعشر وصدقات ومراع وجوال ومراصد وما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والاندلس فيعشر على سواحل البحر ولا يلزم الخارج من القيروان الى مصر ويلزم ما يرد منها من الورق والمقوم بقيمة العين المجتبي من هذه الوجوه فيكون من سبعمائة الف دينار الى ثمانمائة الف دينار<sup>(1)</sup>».

وهذا المبلغ بعيد عن الواقع، لاتؤيده المبالغ والاموال الطائلة التي حملها الفاطميون معهم الى مصر، والتي استطاعوا جبايتها بسياستهم المالية، فيرى لسان الدين بن الخطيب ان «جملة ما أستظهر به المعز الفاطمي على وجهته الى المشرق بعد ازاحة علل الجيوش وانصائها الى السفر البعيد الف حمل من الذهب» ويذكر علي ابراهيم حسن ان الارزاق والعطايا التي انفقها الفاطميون على هذا الجيش بلغت اربعة وعشرين الف الف دينار<sup>(2)</sup>.

### نظام الجباية:

كان يتولى الاشراف على جباية الاموال وانفاقها موظف يعرف في العهد الرستمي بـ «صاحب بيت المال» وكانت هذه الاموال تودع في مكان يطلق عليه «بيت المال» أو «بيت مال المسلمين» كما سبق ذكره، ويبدو أن اختصاص صاحب بيت المال كان يشمل جميع الموارد المالية، لانه يفهم من ابن الصغير ان وظائف الدولة في ايدي ثلاثة موظفين هم «صاحب الشرطة، والقاضي، وصاحب بيت المال».

وكان يساعد صاحب بيت المال عدد من الموظفين، فذكر ابن الصغير دار الزكاة وصاحبها وأهلها<sup>(3)</sup>، وهذا يعني انها تخضع لاشراف موظف يعمل من تحت يده السعاة أو العاملون عليها، ومن هذا يمكن استنتاج انه كان هناك موظف يشرف على جباية الخراج يساعد موظفون يشرفون على كل ما يتعلق

(1) ابن حوقل: صورة. ص: 94.

(2) لسان الدين بن الخطيب: تاريخ المغرب. وهو الجزء الثالث ص: 55 ابن خلدون: المقدمة ص: 433 طبعة بيروت علي ابراهيم حسن: تاريخ جوهري. ص: 36.

(3) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص: 351.

بمهمته، ومن المرجح انه كان للخراج ديوان خاص وان لم يشر المؤرخون اليه، فان الامام عبد الرحمن بن رستم كان يفصل اموال الجزية والخراج عن اموال الزكاة، كما يمكن التكهن بان جباية الخراج كانت تسند للمشرف على الخراج لان ابن الصغير يوحى بأن اموال الجزية والخراج كانت تجمع معا وبشكل مستقل عن غيرها من الموارد.

وكان يساعد صاحب بيت المال في الولايات موظفون يعرفون بالعمال، وكلمة عامل كثيرا ما تعني وكيلا للسلطات المالية<sup>(1)</sup> مع وجود واجبات اخرى، فقد سبقت الاشارة الى قول يعقوبي بان سكان جبل نفوسة لا يؤدون خراجا الى سلطان ولا يعطون طاعة الا إلى رئيس — امام — لهم بتاهرت، وكان الموظف الذي يعينه الامام الرستمي على جبل نفوسة يدعي «العامل»، ويذكر ابن خردادبة ان قبيلة مزاتة في منطقة سرت «لا يقبلون الا اوامر تاهرت» وكان العامل يعين من طرف الامام نفسه<sup>(2)</sup>، ومن العمال سلام بن عمر اللواتي عاملا للامام عبد الوهاب على سرت، ووكيل بن دراج النفوسي على قفصة ومحمد بن اسحق الخزري على نفزاوة وسلمة بن فطيمة على قابس، وأضاف الشماخي عمالا من قبل الامام افلح كأبي يونس وسيم على قنطرة وميال بن يوسف على نفزاوة<sup>(3)</sup>، ويبدو انه كان للرستمين نفوذ اقتصادي على هذه المناطق، فذكر الوسياني ان الامام عبد الوهاب اقطع ارضا للخارجين عليه في جبل نفوسة من منطقة الساحل وكتب اليهم «اغرسوا فيه بامرنا واحرثوا فيه باذننا» الا ان المؤرخين لا يشيرون الى العمال في مناطق المغرب الاوسط لحساب الرستمين.

ويذكر ابن الصغير ان نفوسة في تاهرت كانت تشرف على تعيين صاحب بيت المال، لكنها لم تكن تفعل ذلك بالنسبة للعمال.

(1) هو بكثر: النظم الاسلامية ص: 108.

(2) انظر تعيين العامل افلح بن العباس على جبل نفوسة من طرف الامام ابي البقطان ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص: 354 . 355.

(3) الشماخي: السير. ص: 195 . 203. يوسف اطيش: الرد على المغني.

وكان للفاطميين بيت مال وعليه موظف يدعى «صاحب بيت صاحب بيت مال اهل المغرب» ويشير ابن حوقل الى وجود «ديوان المغرب» أو «ديوان المغرب» وعليه موظف يدعى صاحب ديوان المغرب هو بكنز HOPKINS<sup>(1)</sup> ان هذا الموظف هو الذي يتولى جباية الاموال وانفاقه عند الفاطميين، فهو الذي يذكره ابن خلدون بـ «كاتب الخراج» وهو على رأس «ديوان الخراج».

وقد ذكر المؤرخون هؤلاء الموظفين دون ان يضعوا فواصل بينهم تميزهم عن بعضهم البعض، فذكر ابن عذاري ان المهدي الفاطمي ولى على بيت المال ابا جعفر الجزرى سنة 297 هـ / 910 م، وفي نفس الوقت ولى على ديوان الخراج ابا القاسم بن القديم، ثم ولى عليه سنة 303 هـ / 916 م، ابا معمر عمران بن احمد بن عبد الله بن ابي محرز القاضي.

ويشير ابن عذاري الى «اصحاب الخراج» ضمن حوادث سنة 379 هـ / 989 م، مما يدل على وجود اكثر من صاحب خراج في وقت واحد ويدلوا ان كلا منهم كان يشرف على جباية الخراج في ناحية من النواحي، وربما كانوا يعملون تحت اشراف ديوان مركزي هو «ديوان الخراج» ومما يدل على اختصاص هؤلاء بهذا المورد أن ابن الاثير يذكر بخصوص المعز الفاطمي انه «جعل على جباية اموال افرقية زيادة الله بن القديم وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني وحسين بن خلف المرصدي» وحين توفي هذا الاخير سنة 380 هـ / 990 م، امر المنصور الزيمري ان يتولى محمد بن عبد القاهر بن خلف وسلامة بن عيسى الخراج فجلسا معا في ديوان خراج المنصورية<sup>(2)</sup>، وكانت هذه الولاية الثنائية دليلا على اهتمام الدولة بمورد الخراج.

وعلى كل، يلاحظ ان ابن الاثير قد فصل الخراج عن جباية الاموال الاخرى في عبارته السابقة، ومن جهة ثانية فان جوذر قد نولى النظر في بيت

(1) هو بكنز المرجع السابق. ص: 104 وعن كتاب الخراج المذكور انظر. ابن خلدون العبر ج. 6. ص: 254. وكان هو عبد الله بن ادريس من مملوكة.

(2) انظر: ابن الاثير. الكامل ج. 8. ص: 261. ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 254.

المال والخزائن البر والكنساء» في عهد الخليفة القائم، وهو قد فصل في هذه العبارة بين «بيت المال» والخزائن فكأنهما ليسا شيئا واحدا، ومن هذا يمكن الترجيح أن بيت المال اختص بالأموال النقدية في العهد الفاطمي أو الزيري وأن الخزائن اختصت بالأموال العينية، وهذه النظرة تفسر عبارة ابن الأثير، كما تفسر وجود «بيت المال» وإلى جانبه «ديوان الخراج» إلا أن عبارة للدرجيني تثير غموضا أمام هذه النظرة فهو يذكر أن الخليفة المعز «أمر خازنه بأن يملأكم إلى نوح مالا ودنانير ودراهم قال أبو نوح: «فدخلت مع الخزان إلى بيت المال»<sup>(1)</sup> لكن النظرة تبقى سليمة أن كانت كلمة «الخزان» عند الدرجيني معاصرة له..

ومن المرجح أن تعيين الخليفة صاحب بيت المال، فصاحبا لديوان الخراج لايعني بالضرورة الفصل بينهما بقدر ما يعني اهتمامه بأمر الخراج، وتولية شخصيا مهمة تعيين صاحب الخراج دون صاحب بيت المال، لدليل على ذلك، كما يمكن الفصل بين «بيت المال»، و «بيت مال اهل المغرب» فرمما كان الأول محليا، كأن يكون خاصا بالقيروان أو تاهرت، أو عاما تصب فيه بيوت المال الفرعية، في حين كان «بيت مال اهل المغرب» خاصا بما وراء حدود افريقية، وربما خاصا بجميع الدواوين الفاطمية في المغرب الاسلامي.

ويبدو أن دواوين الخراج وبيوت الاموال وبيت مال اهل المغرب، كانت جميعا تخضع لأشراف «ديوان جميع المغرب» أو «ديوان المغرب» فذكر ابن حوقل أن خليلا كان صاحب ديوان المغرب، وخليل هذا هو أبو العباس خليل بن اسحق الذي كان المهدي يصرفه في الأموال وجبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال<sup>(2)</sup>، وواضح من العبارة أن مهمته كانت تشمل كافة الموارد المالية.

وكانت المناصب المالية هامة وحساسة، فهي بحاجة إلى شخصية قوية الايمان والارادة، لانضعف امام الاموال المقدسة، فتحدث بعض الاختلاسات مثلما يظهر في العهد الرستمي فقد ذكر ابن الصغير قول مقدمي مزانة وسدرانة

(1) الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 135.

(2) ابن عتاري: المصدر السابق. ج. 1. ص: 215 حوادث سنة 325 هـ.

الى رؤساء قبائلهم وطعنهم في استقامة وأمانة صاحب بيت المال في عهد الامام عبد الوهاب فقالوا «صاحب بيت مالنا خائن وامامنا لا يغيرون من ذلك شيئا» (1).

اما في العهد الفاطمي، فقد وردت امثلة تتعلق بولاية افريقية (2)، ولكن لم يرد مثلها بخصوص بلاد المغرب الاوسط، وان كان هذا لا ينفي وقوعها، خاصة وأن البلاد تتأرجح بين النفوذ الفاطمي والنفوذ الأموي، فقد انتخب حميد بن يوصل عامل المغرب «وانحرف عن طاعة الشيعة ودعا للأُموية» (3)، فمن المرجح أنه استولى على الأموال التي كانت بيده.

وبخصوص اسلوب الجباية، فقد سبقت الاشارة الى أن أهل الصدقة والسعاة كانوا يخرجون ليجبوا الأموال المستحقة في العهد الرسمي، إلا أن الفاطميين يبدو أنهم اتبعوا في الجباية «نظام القبالة» أو «اللتزام» وتفيد اشارة للجوذري ان المزايدة تقع على تقبيل النواحي، ومن رست عليه المزايدة ارسل عاملا الى تلك الناحية، وظل متقبلا اربع سنوات، بسبب اختلاف السنوات عن بعضها من حيث القحط والخصب، وهناك يتولى زراعتها واصلاح جسورها، وسائر وجوه اعمالها بنفسه واهله ومن ينتدبه لذلك ويحمل ما عليه من الخراج في ابانه على اقساط، ويخصم له من مبالغ قبائله وضمائنه لتلك الاراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وغير ذلك، وفق حسابات محددة في ديوان الخراج.

ويبدو ان جعفر بن علي قد وجد نفسه عرضة للخسارة، فأشار الجوذري الى كتاب ورد منه — من جعفر — «يصف دخل البلد وانه ينصرف وتافه ويسر بالاضافة الى ما اعطى فيه من الزيادة» فجاء رد المعز على كتابه «لقد بذل لنا فيه جماعة من الاولياء والعبيد سبعين الف دينار في السنة واقل واكثر

(1) ابن الصغير: تاريخ الأئمة. ص: 329.

(2) كان ابراهيم الغزاري عاملا للفاطميين على خراج الساحل فهرب بالمال الى مصر، وكتب المنصور الى جوذر بخصوص خياب ابن الطوي الاشترى ورجاء بن أخي حبة أن «طالبهم بما سرفوه من أموالنا واقطعوه» كما ان الخليفة المهدي عزل نسима الفتى عن عمالة القيروان وحجسه عند جوذر «وقبض على أمواله».

(3) عنه انظر: ابن خلدون: العبر. ج. 4. ص: 93 ورد عنده على صورة حميد ابن يوصل، ابن عذارى: البيان. ج. 1. ص: 204.

فرفضنا اقوالهم ولم نغير نعمتا عنده ظنا منا به بانه يفي ببلون ذلك» ثم يضيف المعز أنه وقد علم الآن «ان مقدار دخل البلد — المسيلة — على ما كره جعفر في كتابه ثم سألتنا عنه وحاسبناه عليه فلا جعل الله لنا رزقا غيره»<sup>(1)</sup>.

ويوحى هذا النص بان المتقبل لم يكن يرهق كاهل الناس بجمع اقصى ما يمكن جمعه لتحقيق اقصى ما يمكن ربحه، والا لما احتاج جعفر الى رفع كتاب الى المعز الفاطمي يسأله التخفيف. ويظهر ان المتقبل عند الفاطميين هو أشبه بالمقاول أو الضامن، الذي يحصل على ربحه من فرق الجباية والضمان فاذا لم يحسن حسابهما معا تعرض للخسارة مثلما كاد يحدث لجعفر، وان ابن حوقل نفسه يوحى بهذا المعنى، فأشار الى ان ارباح أصحاب الاعمال هي المال الذي يستأثرون به والذي «يزيد على القوانين في ايديهم»<sup>(2)</sup>.

وقد استجاب المعز لطلب جعفر فجاء في رده «تركت ذلك لك فاي دين يصح لي اذا انا اعنت ورضيت بهذه الحالة» يقصد خسارة جعفر، وهذا يدل على ان الجباية «القبالة» معددة الوجوه لا يملك العامل المتقبل حرية تجاوزها حتى ولو ادى الامر الى تعرضه للخسارة ويتجلى هذا فيما ذكره ابن حوقل، فبعدما اشار نقلا عن ابى الحسن بن ابى علي صاحب بيت مال اهل المغرب الى ان دخل المغرب من جميع وجوه امواله كان سبعمائة الف الى ثمانمائة الف دينار، يضيف قوله «ولو بسطت يده فيه لبلغ ضعفه»<sup>(3)</sup>.

ويظهر ان الخليفة الفاطمي كان يتابع ويمراقب العامل المتقبل، ويتدخل في امره، مما كان يثير غضبه (العامل) فقد كتب جوذر الى المتصور الفاطمي، ان العمال بالنواحي لا يريدون من ينظر فيما تقلدوا امره من الاعمال بالنواحي ويجعلون ما امروا به من ذلك سببا لتأخر المال «توحى هذه العبارة فيما توحى، ان مبلغ الضمان لم يكن يدفع مقدما على عكس نظام الالتزام المعروف في الدول الاخرى.

(1) نفس المصدر: ص: 129 — 130.

(2) ابن حوقل: صورة. ص: 93.

(3) نفس المكان.



جاء بعدهم، ولكن يمكن حصر هذه النفقات في رواتب الموظفين ونفقت الجيش والأشغال العامة.

فقد كان للدولة موظفون يقومون بإدارة شؤونها، فهناك قضاة وأعوانهم، ويبدو انه كان للرستميين ديوان خاص بالقضاء، فان محكم المواري — قاضي تاهرت — نزل «في الدار المعروفة بدار القضاء فأشتروا له خادما أصغر وأجروا عليه من بيت المال قوته»<sup>(١)</sup>، وكان له أعوان، وهناك أصحاب الدواوين المختلفة<sup>(٢)</sup>، وأعوانهم وما يتعلق بدواوينهم، وهؤلاء جميعا يتقاضون رواتب على أعمالهم، ولم يشر المؤرخون الى مبالغ هذه الرواتب ولا الى عدد الموظفين، لكن ابن عذاري أشار الى أن مبتولى الصلاة في جامع رقادة وهو محمد بن حفص الفهم «كان يرتزق في كل شهر عشرة مثاقيل»<sup>(٣)</sup>.

وكانت الظروف احيانا تفرض على الرستميين حشد المقاتلين، فقد عد الامام عبد الوهاب في عسكره الف فرس ابلق، وكان الامام ابو حاتم قد اخبره ابوه في جيش، هو من الحشدة والمتطوعة وهؤلاء كانوا يكلفون «بيت المال» اموالا، فحين دخل الامام ابو حاتم حربا ضد العوام «اعطى الاموال وحمل على الخيل».

ولكن الامر يختلف بالنسبة للفاطميين والزييريين، فقد كان الجيش الفاطمي محاربا يخوض حروبا في البر والبحر، وكان المغرب الاوسط ميدان هذه الحروب في اغلب الاحيان، بل وكانت تاهرت قاعدة للجيش الفاطمي التي تنطلق منها الى الجناح الغربي من البلاد، وهكذا كان على عامل تاهرت وغيره من العمال ان يسدوا نفقات هذه الجيوش، فيدفعون رواتبهم ويؤمنون لهم المؤن والعتاد الحربي، وهذا الى جانب نفقات المتطوعين ومن يتم حشدهم من القبائل، وفوق هذا كان عليهم ان يحتملوا الاموال التي تنفق في كفالة اسر الجنود الذين قتلوا في المعارك، فان القاضي النعمان يذكر «ان اصيب احد من فرسانك — الخليفة —

(١) ابن الصغير: تاريخ الائمة. ص: 333.

(٢) من بين هذه الدواوين: ديوان المظالم، ديوان الكشف، ديوان العطاء، ديوان الضياع، ديوان البريد وغيرها.

(٣) ابن عذاري: البيان. ج. 1. ص: 189.

وأهل النكاية المعروفة في اعدائك فاخلفه في اهله باحسن ما يخلف به الوصي الموثوق به في اللطف بهم وحسن الولاية لهم حتى لا يرى عليهم اثر فقدته(1).

وربما كان يخفف من عبء نفقات الجيش الغنائم التي كان يحرزها في انتصاراتهم، وربما لجأ الفاطميون الى اقطاع بعض افراده ارضا زراعية يقومون باستئارها كرواتب لهم، فان عبيد الله المهدي قد نصب «ديوانا للضياع»، لكنهم كانوا يدفعون كذلك رواتب نقدية في وقت معين — فإنه المهدي — نصب كذلك «ديوات للعطاء» وجعل عليه عبدون بن حباصة.

ويمكن ان نلحق بهؤلاء جميعا نفقات عيون الخليفة وجواسيسه، فكان أبو عبد الله الشيعي يرسل الى افريقية قوما يأتونه بالاخبار لايقطع ذلك عنه فقيل «كان لا يمر يوم الا وعنده منها خبر(2)»، ويبدو ان هؤلاء كانوا تحت اشراف صاحب الحرس.

اما الاشغال العامة، مثل اصلاح الطرق والجسور ومد القنوات واصلاحها وبناء بعض المرافق مثل المساجد والحمامات، بل وبناء المدن ايضا، يبدو أن نفقاتها كانت تافهة، فلم يكن امام الدولة ما تقوم به من مشاريع عامة تثقل كاهل «بيت المال» خاصة وان هذه الاشغال كان يقوم بها السكان في مناطقهم في اغلب الاحيان.

ويمكن إضافة المليات والصلوات الى ما سبق، اذ عرف عن الفاطميين انهم كانوا يغدقون الاموال هنا وهناك لكسب الناس الى جانبهم ويستغلون في هذا المناسبات المختلفة، حتى ان المعز الفاطمي قال مخاطبا ابا نوح الاباضي «اين صاحبك بغلي ؟ قلت: (ابو نوح) لا ادري فقال: لو كان صاحبك في غانة لجاءت به دراهمنا(3). وكان المهدي قد قسم الاموال في رجال كتامة وفي حرب ابي

(1) القاضي النعمان: كتاب دعائم الاسلام ج. 1. ص: 259. وكان عدد الجيش الذي رافق المعز الى مصر مائة الف كئاسي واربعين الف بربري وستين الف زنجي، انظر عطية: نظم الحكم بمصر ص: 143 ويبدو انه يقصد بالبربر هنا غير الكتاميين من البربر.

(2) نفسه: افتتاح الدعوة ص: 140 نفسه كتاب الدعائم ج. 1. ص: 361. وذكر نفسه بخصوص مسير الشيعي ابي عبد الله الى قاهرت «اتصل به عنها سوء حال» هذا لاشك بواسطة جواسيسه: انظر نفسه: افتتاح ص: 236 — 237.

(3) الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 135.

واذا كان الجوذري قد افصح عن اتباع الفاطميين هذا النظام فان ابن حوقل يذكر «جميع المغرب في ايام ال عبيد الله يعمل بالامانة من غير ضمان حتى تقبلت برقة وليس بجميع المغرب ضمان غيرها(1)»، وان استعمال ابن حوقل كلمة «الامانة» يقصد بها ما ذكرناه سافا، وينفي بها نظام الالتزام المعروف قديما، عن الفاطميين.

وعلى كل، كانت هناك مرحلة اخرى تتبع نظام القبالة وهي عملية مسح الارض ثم توزيع التقيسط — الخراج — والذي يعني في مجمله توزيع الضريبة على كل ارض وابلاغ المالك أو الساكن بالمبلغ المطلوب منه أو بالنسبة المطلوبة فان ابا معمر عمران — السالف الذكر — حين ولي الخراج «تولى توزيع التقيسط على ضياع افريقية بعد ان وزع جميعها(2)».

ولم يكن نظام الضمان أو القبالة يسري على الاراضي الزراعية فحسب، بل كان يقع تضمين الحمامات والقياسر والمساكن والفنادق وغير ذلك من المستغلات.

ومن المرجح ان الفاطميين لم يضيقوا الخناق على دافعي الضرائب خلافا لما يذكره البعض الذين ربما اعطوا هذا الحكم لخلاف مذهبي، أو من خلال الاموال التي حملها المعز الفاطمي عند رحيله، أو من خلال وصيته ولكن بعدم رفع الجباية عن البادية، مع ان شاهد عيان وهو ابو الحسن بن ابي علي، السالف الذكر — قد حدد دخل بلاد المغرب، وهذا المبلغ لا يدل على تعسف وظلم، لكن الفاطميين كانوا يقولون ما عجز بعض الناس عن دفعه من ضرائبهم الى السنوات المقبلة، وهذه المبالغ هي التي عرفت باسم «البقايا» أو «البواقي» وربما كانوا في هذا المنهاج يحثون الناس على عدم التقاعس والتكاسل في اعمالهم الفلاحية، فأظهروا نوعا من الضبط الجبائي، فذكر ابن عذاري انه في سنة 305 هـ / 917 م، «اخذ اهل الضياع باعمال افريقية وتاهرت — كورة من افريقية — بمغرم سمي التضييع وزعموا انه من بقايا التقيسط(3)»، لكن الفاطميين

(1) نفس المكان.

(2) ابن عذاري: البيان. ج. 1. ص: 173.

(3) ابن عذاري: البيان. ج. 1. ص: 181.

أو الزيريين كانوا يتنازلون عن هذه البقايا في مناسبة ما، فذكر ابن عذاري ان المنصور الزيري ترك «البقايا للرعية»<sup>(1)</sup>، وقد أكد المقرئ علي ان الفاطميين كانوا يتشددون في طلب البقايا حيناً والتسامح فيها حيناً آخر.

ويبدو ان كثيراً من اهل البادية كانوا يمتنعون عن دفع ما عليهم من ضرائب ربما لغلبة الطابع القبلي، فلم يكونوا يألفون دفع مثل هذه الضرائب، ولا ندري ما موقف الرستميين من هؤلاء، لكن موقف الزيريين — وربما هو استمرار لموقف الفاطميين — كان يتمثل في استعمال العنف، واجبارهم، فقد كان عامل افريقية يوسف بن أبي محمد «مخرج في كل سنة فيدور على كور افريقية ويجبي الأموال ويأخذ الهدايا من كل بلد ويرجع»<sup>(2)</sup>، ويشير ابن عذاري نقلاً عن أبي اسحق الرقيق القيرواني — ان خروجه كان على رأس جيش، وقد ظهر في سنة 385 هـ / 995م عاملاً على متيجة.

ولم يذكر المؤرخون أجناس القائمين على جباية الأموال في العهد الرستمي والأمراء العلويين، وان كان الأرجح انهم اعتمدوا على البربر وخاصة انهم عصب الدولة، وان أهل مكة أدرى بشعابها كما يقال، الا أن الفاطميين يختلفون عنهم، فقد استعملوا عرباً فولى عبيد الله المهدي الخراج بافريقية أباً معمر عمران بن أحمد بن عبد الله بن أبي محرز القاضي — من قبيلة كنانة العربية — واستعملوا بربراً، فكان عبد الله بن ادريس المطمطي كاتباً للخراج، كما استعملوا الأجانب فقد صرف القائم الفاطمي النظر في بيت المال وخزائن البر والكساء الى جوذر.

### نظام النفقات:

يستفاد من كتاب جعفر بن علي — السالف الذكر — الى المعز الفاطمي أن العامل كان يتولى جباية الأموال في عمالته، لكن المؤرخين لا يقدمون توضيحاً وتفصيلاً حول أوجه الانفاق، لا فيما يتعلق بالعهد الرستمي ولا في عهد من

(1) نفس المصدر. ج 1. ص 246.

(2) نفس المصدر. ج 1، ص 245.

يزيد مخلف بن كيداد، جاءت للمنصور الفاطمي القبائل من كل جهة «استأهم بالطعام والكسي ووسع على كل من جاء بعده» وكانت زيري بن مناد وماكسن بن سعد «ويبعث اليهما أموالاً جمة وثياباً جمة ومن الذهب والعين واللجين ومن التحف والثرف ما استأهل به النفوس<sup>(1)</sup>»، وكانوا يدفعون صلوات بمناسبة رمضان حتى قيل ان صاحب بيت المال دفع اليه بتحصيل ما اخرجته من الصلوات في شهر رمضان فبلغ ذلك مائة الف دينار<sup>(2)</sup>.

ودفعوا بمناسبة الاعياد، فان المنصور الفاطمي قد انتهض في عيد الفطر من اهل القيروان الف شيخ والف حدث فلما وصلوا خيرهم في التعييد معه أو الانصراف، فعيد البعض وانصرف البعض. ودفعوا للشعراء، فقد انشد الشاعر سعدون الوريثي الخليفة المهدي فأمر له «بصلة جزيلة وبأن يجري عليه لكل عام» الى غير ذلك، ونظروا لان العمال في مناطقهم هم ممثلون للمخلاة فمن المرجح انهم ساروا على نفس الدرب، ولنفس الغرض، وعلى كل فان أوجه الانفاق تظل غامضة، فلم تقدم المصادر ما يساعد على ازالة هذا الغموض، وكان الفرق بين الجبايات والنفقات تلك الاموال الضخمة التي حملها الفاطميون معهم الى مصر، كما سبق ذكرها.

(1) ابن حماد: اختيار ملوك بني عبيد. ص: 27.

(2) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص: 257.

## الفصل التاسع

### الازمات والعوارض الاقتصادية والاجتماعية

#### مستوى المعيشة:

كانت الازمات التي مرت بها البلاد محدودة التأثير، فالكوارث الطبيعية تخص سنوات معينة قليلة اذا ما قورنت بقرنين من الزمان، والحروب والفتن الداخلية تتعلق بفترات ومناطق وقبائل محدودة، فيرى الملاحظ ان القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي يكاد يخلو منها اذا استثنينا بعض الفتن المحلية التي شهدتها تاهرت كما سبق، ويرى ان الحروب التي شهدتها القرن الرابع الهجري تكاد تنحصر في منطقة تاهرت وبعض مناطق غرب البلاد كبني يفرن ومغراوة الاقلية، وهي قليلة العدد بالنسبة للفترة الزمنية الطويلة، وذات طابع محلي في اغلب الاحيان، ولا توجد واحدة منها اخذت طابعاً شمولياً عم البلاد، وبهذا فاذا كان لها تأثير على الحياة الاقتصادية في البلاد، فهو تأثير محدود، لم يؤثر على المجمل العام لاحوال سكان البلاد المغرب الاوسط.

ففي القرن الثالث الهجري، وبناء على ما ذكره اليعقوبي، كانت مدن صنهاجة شرق البلاد «اصحاب عمارة وزرع وضرع»<sup>(1)</sup> وكان نتيجة في الشمال بلد زرع وعمارة وكانت مدينة الخضراء التي اكتسبت اسمها من اخضرار منطقتها بسبب بساطتها وهي وما حولها ذات مزارع وكانت تاهرت المدينة العظمى الجليلة المقدار العظيمة الامر في المنطقة، وكانت تلمسان في غرب البلاد لانقل مكانة عن تاهرت، مدينة عظمى مشهورة بها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة، اي ان بلاد المغرب الاوسط عاشت في رخاء بصفة عامة في هذا القرن.

وان ملاحظة ما ذكره ابن حوقل والمقدسي بشأن حالة البلاد الاقتصادية في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي يرى الرخاء يكاد يكون سائداً جميع مناطق البلاد.

(1) اليعقوبي: ص: 120.

ونظرا لان مجتمع المغرب الاوسط زراعي، فقد طبع رخاؤه بطابع فلاحي، وبذلك فهو رخاء محدود ونسبي، ومن بين العوامل التي اثرت في ظهور الرخاء جودة المنطقة وملاءمتها للزراعة من جهة، واشتغال الجزء الاعظم من السكان بها، ثم اكتظاظ البلاد بالسكان بسبب توقف الحروب في المنطقة ابتداء، من منتصف القرن الثاني الهجري، ويضيف ارشيبالد الى ما تقدم، ان بلاد المغرب قد اثرت من الطريق التجارية البرية وغمرها ذهب السودان تماما مثلما أثرت بحرا من الاعمال التجارية ومن قيامها بدور الوسيط في تجارة البحر الايظ المتوسط<sup>(1)</sup>.

وعلى العموم، لقد كانت بلاد المغرب الاوسط على حد قول ابن ابي زرع في «رخاء مفرط» سنة 307 هـ / 919 م، ويضيف ابن حوقل بخصوص اسعارهم بانها على تنائي مدنها وديارهم فعلى غاية الرخص في الاطعمة والاغذية والاشربة واللحمان والادهان<sup>(2)</sup>، وهذا القول يجعل من وصفه ناهرت وكتامة بالفقر يعبر عن موقفه السياسي من بني بلكين بن زيرو أكثر مما يعبر عن واقع المستوى المعيشي، ويستشف موقف ابن حوقل من بلكين من عبارته عنه «استباح الجميع»، وان كان هذا لاينفي تعرضهما — ناهرت وكتامة — لفترات من الفقر، وعلى كل، فمهما كان امر الرخاء فقد صاحبه انقسام السكان الى: فقراء واغنياء بدرجات متفاوتة.

### الفقراء:

يندرج في اطار الفقراء طبقة العامة، ومنها العبيد الذين لا يملكون حتى حرية انفسهم، ويبدو ان بعض اسيادهم كانوا يخلون عليهم بمؤونتهم، فقد عاتب ابو نوح سعيد بن زلفين اهل ورجلان بورقلة ذات عودته اليها بان الواحد منهم «يطلق عبيده فلا يعولهم ولا يموئهم ولا يكفهم طلب معاشهم فينطلقون الى اموال الناس على غير رضى اصحاب الاموال»<sup>(3)</sup>، وان لم يكن هذا الحكم مطلفا.

(1) ارشيبالد: الفوى البحرية والتجارية في البحر الايظ المتوسط، ترمب، احمد محمد عيسى مطبعة مصر القاهرة، ص: 255.

(2) ابن حوقل: المصدر السابق. ص: 95.

(3) الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 154.

وتشمل الاجراء وهم العاملون لغيرهم مقابل اجرة أو حصة معينة، قد اثر على مستواهم المعيشي، وفرة اليد العاملة، ويمكن ان يضاف الى هؤلاء النازحون من الريف الى المدينة، الذين لايجدون عملا فيها، فيمتنون للصوصية أو يكونون عالة على المجتمع، واذا أستثنينا كبار الملاك من سكان الارياف، فان هؤلاء وهم اجراء أو صفار الملاك، كانوا في وضع لايجسدون عليه، فذكر ابن خلدون في «المقدمة» ان فوائد العقار والضياح غير كافية للملكها في حاجات معاشها اذ هي لاتفي بعوائد الترف وأسبابه وانما هي في الغالب لسد الخلّة وضرورة المعاش<sup>(1)</sup>.

ولا يختلف سكان الصحراء الصنهاجيون عن سابقهم، فهم لايعرفون الطعام ولا رأوا الخنطة ولا الشعر ولا شيئا من الحبوب والغالب عليهم الشقاء والاشباح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم<sup>(2)</sup>.

ولا يعتبر الصناع احسن حالا من غيرهم، فهم في صراع مع الفقر ليس اكبر، فقد خاطب شيخ من سكان تاهرت ابن حفصون الناصر في الاندلس اثناء اقامته عند خياط في المدينة قائلا له: «يامنحوس تحارب الفقر بالابرة» وقد ذكر ادريس H.R. Idris بخصوص مستوى معيشة الخياط وهو يمثل فئة الصناع انه كان يتفق درهمين في اثنين وثلاثين يوما اي خروبة في كل يوم للاكل، فكانت الخروبة تمكنه من اكل الخبز المسقي بشوربة البقول<sup>(3)</sup>.

وقد وجد الفقراء في تاهرت منذ عهد الامام عبد الرحمن، فهو ما ان تم تنصيبه اماما حتى «جلس للارملة والضعيف» وكان اذا اجتمع اليه مال الصدقة «أمر بإحصاء الفقراء والمساكين<sup>(4)</sup>» ليوزع عليهم، كما انه من الطبيعي أن تكون هناك فئات لم تستطع ان تسامر كبار التجار وأصحاب القصور وهي التي تبلورت فيما بعد فظهرت في عهد الامام أبي حاتم مجتمعة باسم «العوام»، أو العامة فلا عجب ان يظهر رجل من عجم اهل المدينة «سيء الحال».

(1) ابن خلدون: المقدمة. ص: 367.

(2) ابن حوقل: صورة. ص: 84 مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار. ص: 179.

(3) بوروية رشيد: الدولة الحشادية. ص: 347.

(4) ابن الصغير: سيرة الائمة. ص: 327.



ووجد الفقراء في غير تاهرت من مناطق بلاد المغرب الاسلامي، وهم من وضعهم القاضي النعمان في الطبقة السفلى من التدرج الطبقي، ووصفهم بأنهم أهل الحاجة والمسكنة وتشمل العجزة من شيوخ ومرضى وذوي عاهات، ويمكن ان تلمس الفقراء في نواحي تلمسان كإمارة علوية في حادثة اجتماعية، ذلك انه في سنة 237 هـ / 851 م، قام رجل مؤذن بناحية تلمسان يدعي النبوة وتأول القرآن على غير وجهه وتأويله، فاتبه خلق كثير من الغوغاء<sup>(1)</sup>، ومهما كانت الدوافع وراء هذا المتنبي، فان الخلق الكثير الذي اتبعه، ووصفهم بأنهم من الغوغاء يدل على ان دعوته تحمل اهدافا مادية اجتماعية. فرأى هؤلاء فيه مهديهم المنتظر بل ورسولهم المنقذ، فاعتقدوا ان انقيادهم له سيحقق لهم تلك الاهداف مثلما رفع انقياد العرب لرسولهم محمد ﷺ من مكائتهم، واذا كان هؤلاء ظهروا وراء مدع للنبوة فهناك فقراء في باقي الامارات العلوية لم تجد الوسيلة التي تعبر بها عن قهرها وتعلمها الاجتماعي.

كان هؤلاء الفقراء يلبسون الخشن من الثياب ويمكن ان نتخيلها مرقعة، ثم هم لا يجدون ما يقون به انفسهم من عادات الطبيعة، وكانوا يأكلون البسيط من الطعام كخبز وعليه شيء من الملح أو شوربة البقول ونحو ذلك، وهؤلاء يتمسكون بفضلات طعامهم فلا يطرحون منها شيئا، فيأكلون ما بات منها، وكان الشاعر عناهم وعبر عن حالهم في قوله:

سليخة وحصيرة	لبست مثل كثير
وفيه شكرا لربي	خبز وماء غدير
وفوق جسمي ثوب	من الهواء ستر <sup>(2)</sup>

الا ان ما يخفف الوطأ على هؤلاء الفقراء، كثرة الصدقات التي يدفعها المسلمون تقاسا لرضى الله، سواء الامراء منهم أو غيرهم، فكان هؤلاء ينتهزون المناسبات العديدة للقيام بدفع مثل هذه الصدقات الى مستحقيها، ويمكن ان يكون فعل الامام عبد الرحمن بن رستم مثالا لما كان يقوم به الصالحون، فكان يشتري الاكسية والجببات الصوفية والفراء والزيت والطعام فيوزعها على اهل الفاقة<sup>(3)</sup>.

(1) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص: 59.

(2) ابن الأبار: التكملة. ج 2. ص: 687.

(3) ابن الصغير: سيرة الأئمة. ص: 327.

وكان الامام ابو بكر سمحا جوادا ومثله في الجود محمد بن عرفة فكان كما وصفه ابن الصغير «جوادا سمحا» ومن بديهيات الامر ان يقوم الامراء العلويون بتوزيع مثل تلك الصدقات وهم المنتسبون الى الرسول ﷺ وعلى بن ابي طالب ورافعو علم الدين في امارتهم.

ولا يقل الفاطميون عن سابقهم في تسارعهم لتقديم الصدقات فان المنصور الفاطمي قد امر باخراج «الصدقة على الفقراء»<sup>(1)</sup>، بمناسبة انتصاره على الثائر ابي يزيد، وهي واحدة من عادة متبعة عند امراء ذلك العصر.

هذا الى جانب الصدقات التي نص عليها الشرع، ككفارة اليمين والتي يمكن ان تكون باطعام عشرة مساكين كبارا ما يشبعهم أو كسوة كل منهم بثوبين<sup>(2)</sup>، أو ككفارة من لم يحرم، وهي (فدية من صيام أو صدقة) أو نسك — شاة — وقيمة هذه الصدقة ثلاثة اصواع توزع على ستة مساكين بالتساوي، وكذلك صدقة الفطر التي كان يحرص الامراء عليها، فهذا المنصور الفاطمي يدعو الناس الى التقرب الى الله «باداء فطرتهم التي هي زكاة صومكم وسنة نبيكم» وقيمتها صاع من بر أو من زبيب أو من شعير من طعامكم<sup>(3)</sup>.

ولا ننفل من اهمية صدقات العلماء الزهاد ومساعداتهم وهباتهم الخيرية للفقراء، ثم ان اجتماع ذوي العصبية الواحدة في حي واحد، امر يدعو الى التخفيف عن الفقير، اذ تسهل مساعدته من قبل ابناء عصبته ولو عن سبيل المساعدة البسيطة اليومية التي يتلقاها الفقراء من جيرانهم الأحسن حالا، هذا بالإضافة ما تتركه سنوات الخصب من اثر على حياة الفقير، فان وفرة الانتاج تؤدي الى زيادة في صدقاتهم وإكرامهم، وإلى رخص الأسعار.

(1) الجوزي: سورة جود ص: 51.

(2) الفاضل النعمان: الاقتصار. ص: 94.

(3) الجوزي: المصدر السابق. ص: 56.

يندرج في اطار هؤلاء فئة قليلة العدد اذا ما قورنت بعدد الفقراء وهي تشمل، الفئة الحاكمة، حققت هذه الفئة بحكم موقعها في قمة الهرم الاجتماعي وبحكم كونها صاحبة الامتيازات ثروات طائلة، ففي تاهرت ابتداء في عهد الامام افلح الذي كان تاجرا، ظهر ثراؤه في انه «ابتنى القصور واتخذ بابا من حديد وبنى الجفان واطعم فيها ايام الجفاف»<sup>(1)</sup> ومثله كان الامام ابو بكر الذي ظهر ثراؤه في جوده ومبله الى الشهوات وامتلاكه الجنات والعبيد، واذا كان الامام ابو البقطان لم يخلف أكثر من سبعة عشر دينارا تركه، الا ان ذلك لم يكن عن فقر بل عن زهدنايع من سمو خلقي تشبها بالخلفاء الراشدين.

ولا يختلف الامراء العلويون عن الرستميين في ثرائهم فهم امراء أولو جاه بقرابتهم من الرسول <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> وعلي بن ابي طالب تقع اماراتهم في شمال البلاد، اعني في مناطق زراعية، وعلى طريق تجاري هام، يبدو أنهم اشتغلوا بالتجارة حتى ظهرت مدن كانت اسواقا خاصة لهم، مثل مدينة سوق حمزة، ومدينة سوق ابراهيم، وما قيام المتبىء السابق الذكر في نواحي تلمسان الا حسدا لامرائها ومحاكاة لهم.

ويمكن ان نضيف الى هذه الفئة الحاكمة شيوخ القبائل وامراءها مثل، يعلى اليفرني الذي استطاع بثرائه ان يمدن السوق فنظهر مدينة افكان، ويمكن ان يكون مثله امراء مغراوة ومثلهم مناد بن منقوش كبير تلكاة الذي قيل عنه انه «ملك جانبيا من افريقية والمغرب الاوسط مقيما لدعوة بني العباس وراجعا الى امر الاغالبية» ووصفه ابن الاثير بانه «كثير المال والولد»<sup>(2)</sup>.

ويتصل بهذه الفئة موظفو الدولة، فهم بحكم قربهم من السلطان قادرون على كسب امتيازات لصالحهم، «بل أن هذا القرب يحيطهم بهالة من الجاه امام العامة، وهم يصنفون ضمن الطبقة العليا في المجتمع حسب تصنيف القاضي النعمان، وهذا الجاه يعود عليهم بالكسب المادي»<sup>(3)</sup>.

(1) ابن الصغير: سورة الاكمة. ص: 336. كنا جاءت في الاصل ولعلها «ايام الجفاف».

(2) ابن الاثير: الكامل. ج. 7. ص: 47.

(3) ابن خلدون: المقدمة. ص: 390.

فظهر الشراة على سبيل المثال بثوب الرفاهية، وخاطبهم بهذا محكم الهواري السابق ذكره بقوله: «انتم مرفهون ابناء نعم» ثم ان مواردهم — الموظفون — المالية ثابتة لا تتأثر بالاحوال الطبيعية، ماداموا يتقاضون رواتب.

ومن المرجح ان رجال الدين كانوا اثرياء، في اغلب الاحيان، اذهم في نظر العامة يمثلون التقوى والعدل والامانة، يزهونهم عن الغش والتدليس فتعود عليهم هذه النظرة بالكسب، ولنا مثال في القيروان على هذه الفكرة في شخص ابن طالب، الذي ولي القضاء ومعه «ثمانون الف دينار(1)».

ويعتبر كبار التجار من اثرياء الناس خاصة اذا كانوا ممن يمارسون تجارة خارجية، ويتجلى تأثير التجارة في وصف المنصور الفاطمي لمستوى معيشة افراد عائلته اثناء ممارسته التجارة فقال بأنهم «ماكانوا يرضون مني بما يكفي ويزيد حتى يأخذوا مني اسرافا وجزافا(2)».

وأشار ابن الصغير الى بعض اغنياء التجار، فكان منهم ابن وردة السابق الذكر الذي كان يمتلك سوقا خاصا به في تاهرت، وابو محمد الصيرفي وابن الواسطي، وغيرهما من وجوه التجار، وهم ذوو اموال حتى ان هؤلاء تبرعوا للعرب والجنود ببناء حصن في حربهم مع الرستميين وحلفائهم العجم ونفوسة، كما أشار ابن الصغير الى الثراء دون ان يذكر سبله، ويبدو ان فيضا من الثراء قدعم تاهرت في عهد الامام أفلح حتى ان القبائل المنتشرة حول مدينة تاهرت «اكتسبت الاموال واتخذت العبيد والخيول».

ولا سبيل الى مثل هذا الثراء الا ان يكونوا مارسوا التجارة الكبيرة وأنهم من أصحاب الملكيات العقارية الواسعة كابين زلغين وابن جرتي السابق ذكرهما.

ومن مظاهر الثراء في بلاد المغرب الاوسط، انتشار القصور في كل مدينة من مدنه كما سلف والتفنن في المأكول والملبس فتحفل موائدهم بالطعام الفاخر

(1) القاضي عياض: تراجم، ص: 215.

(2) الجوذري: سيرة جوذر، ص: 62.

من خراف مشوية وحلويات متنوعة، ويلبسون الفاخر من الثياب من الديباج الموشي، والحلي والجواهر، وإن كانت المصادر لاتقدم صورة واضحة عن هذا التفنن واقتصار الشماخي على الإشارة الى ان الامام أفلح كان يعاب عليه ما فيه من خفض العيش، دون وصف، كما تفرش منازلهم بسجاجيد ثينة وتحفل بلاواني المتنوعة وتجهز خيولهم بالاسرجة المحلاة المذهبة.

### الهجرة:

شهدت بلاد المغرب الاوسط هجرتين، هجرة داخلية واخرى خارجية، الهجرة الداخلية: وهي مرتبطة الى حد كبير بالمرحلة الاجتماعية التي تعيشها بعض القبائل والقائمة على الظعن والترحال ويتوقف هذا الامر على كمية الموارد المعيشية والمتوفرة في حياضها، وعلى مدى الامن الاجتماعي والطبيعي السائد، فاذا ما احست قبيلة بنضوب الماء واضمحلال الكلأ، أو اذا ما داهمها غزو قبي أو كارثة طبيعية كالقحط، وجدت نفسها مضطرة الى الرحيل والهجرة الى مناطق اخرى، فان قبائل مزاته وغيرهم كانوا يتجمعون من اوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في اشهر الربيع الى مدينة تاهرت واحوازها لما حولها من الكلأ<sup>(1)</sup>، وغيره، وكانت مزاته وضريسة في فحوص باغاية « يظعنون في زمن الشتاء الى الرمال حيث لا مطرا ولا ثلجا خوفا على نتاج ابلهم<sup>(2)</sup>»، ويمكن ان نميز اربعة انماط من الترحال.

الارتحال العادي: وهو ان تنقل القبيلة من مكان الى آخر طلبا للكلأ والماء.  
— الارتحال الطارئ: وهو هروب حتمي من ظروف طارئة.  
— الارتحال الموسمي: وهو ارتحال الشتاء فرارا من قسوة الطبيعة الى مناطق اكثر ملائمة، للاستقرار ثم العودة الى تلك المناطق صيفا مثلما كانت عليه مزاته وضريسة.

— الارتحال الدوري: حيث تكون القبيلة على علم مسبق بالمنطقة التي سترحل اليها شتاء أو صيفا، أو في اي وقت سواء كان الانحياز شرقا غربا، أم شمالا جنوبا، فان مزاته وسدراته ظلتا تتجمعان الى نواحي تاهرت طليعة العهد الرستمي، وربما قبل وبعد ذلك.

(1) ابن الصغير: سورة. جاءت كلمة الكلأ على صورة الشلا وربما كانت من الخفق بسبب تأكل الكف.  
(2) زهو حطوب: تطور بني الاسرة العربية. ص: 27.

وهناك هجرة داخلية تتمثل في الانتقال من الريف الى المدينة، فان هذه الاخيرة تجتذب اليها بعض الفقراء ليكونوا عائلة عليها أو عمالا فيها، وتجذب الاثرياء من الريفين تستويهم حياة الترف والرفاهية وتوفر الكماليات فيها<sup>(1)</sup> ويمثل هؤلاء نسبة كبيرة من سكان المدن التي نشأت صغيرة ثم نمت وتطورت في القرنين الثالث والرابع للهجرة.

ومما ساعد على الانتقال ان باب المدينة كان مفتوحا نهارا للجميع دون خضوع الداخلين للمراقبة، فقد دخل عمرو بن حفصون على سبيل المثال ومكث اربعين يوما دون ان يشعر به الرستميون، وقد يرجع انتقال الناس الى المدينة لقضاء حوائجهم، وتصريف سلمهم، أو للاستيطان فيها، خاصة اذا كانت المدينة ذات موقع هام، كأن تكون سوقا للمنطقة، وذات صبغة تجارية فيذكر الادريسي ان سوق المدينة الخضراء يجتمع اليها اهل تلك الناحية<sup>(2)</sup> وحين بني البحريون مدينة تنس، انتقل اليهم من جازيرهم من اهل الاندلس كما سلف، بل ان سكان سوق ابراهيم قد انتقلوا الى تنس وكانوا اربعمائة بيت مثلما تقدم، وكانت اليها هجرات فردية فكان يسكنها سعيد بن واشكل التيهري<sup>(3)</sup>، وكان ابو سهل الفارسي مترجم الامام افلح فالامام ابى حاتم يوسف مقيما في مرسى الخرز أو مرسى الدجاج<sup>(4)</sup>، مما يوحي ان هجرته الى هناك من تاهرت ذات طابع تجاري.

وكانت مدينة افكان قد ارتحل اليها اهل المعسكر من تاهرت وبلل وشاطيء بني واطيل ووهران وقصر الفلوس، وما قيل عنها يمكن ان ينطبق على بعض المدن الاخرى.

كما قد يكون للهجرة دافع آخر يتمثل في طلب العلم فكانت تاهرت عاصمة للمذهب الاباضي على وجه الخصوص، فطبيعي ان ينتقل اليها من هنا ومن هناك طلاب علم اباضيون، كالشيخ ابى يوسف يعقوب بن يوسف

(1) الادريسي: نزعة المشاف. ص: 84.

(2) الادريسي: نزعة المشاف. ص: 84.

(3) البكري: المغرب. ص: 62.

(4) الشماخي: السمر. ص: 289.

بن سهل السدراني المعروف بالطرفي الذي «كانت قراءته على الائمة تهاوت»<sup>(1)</sup>، وكان طلاب المذاهب الاخرى ينتقلون الى علماء مذهبهم في نواحي البلاد.

وقد تكون العصبية وراء بعض الهجرات الداخلية من ذلك انه حين استصرخ زيوي بن عطية سنة 387هـ / 998م قبائل زناتة اتته الوفود من بلاد الزاب وبلاد تلمسان وملوية كما مر آنفا.

ولا يخلو الامر من هجرة البعض الى المدينة هروبا من واقع ملؤه الخوف والقلق، كأن يكون طريدا من طرف قبيلته فيلجأ الى المدينة حيث تنقطع روابطه بقبيلته وعائلته ويصبح انتاؤه للمدينة ويعتمد في امته على السلطة الحاكمة، بل ان هذا الامر قد يدفع بمجموعات أو عشائر لان ترحل الى المدينة، من ذلك انه حين بنى زيوي أشير «قصدها اهل تلك الواحي طلبا للامن والسلامة»<sup>(2)</sup>.

واذا كانت هذه بعض الدوافع الكامنة وراء الهجرة الداخلية فهناك هجرة قسرية تم بظهور قوة خارجية تقوم بتهجير بعض الناس من مواطنهم من ذلك هجرة بني مسالة هواره من تاهرت الى قلعة هواره في عهد الامام عبد الوهلب، واغارة زناتة على قبيلة سدرانة بامر من المنصور الفاطمي كان من نتائجها انهم سبوا حريمهم، كذلك اقدم يعلى اليفرني على مهاجمة وهران سنة 343هـ / 998م كما مر ثم نقل اهلها الى مدينته المعروفة «افكان»، ويكاد هذا ان يكون نفس ما حدث في مدينة هاز بحيث اجلى اهلها زيوي بن مناد الصنهاجي الى بورة<sup>(3)</sup> وهم من بني يرنائن.

ويمكن ان نلاحظ نشاط الهجرة الداخلية نحو المدينة في هذه الفترة من خلال نشوء مدن جديدة كما سلف.

(1) نفس المصدر: ص: 228. الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 339.

(2) الحموي: معجم البلدان. ج. 1. ص: 264.

(3) البكري: المغرب. ص: 74. بورة هي سوف حمزة والبورة حاليا.

عرفت بلاد المغرب الأوسط هجرة الى المحيط الخارجي، كالاندلس والمغرب الأقصى وبلاد السودان وافريقية والمشرق الاسلامي، ويفيد ابن خلدون «ان جموع البربر التي دخلت الى الاندلس مع الفتح وبعده بقليل كانت من قبائل مطفرة ومديونة وهوارة<sup>(1)</sup>، ويبدو ان عبارة «بعده بقليل» تخص عهد أمويي» الاندلس، فيذكر ابن سعيد نقلا عن الحجاري ان عبد الرحمن الداخل قام «باصطناع البربر» فكان ان ظهرت هجرة جماعية، حتى ظهرت قري في الاندلس تحمل اسماء لقبائل من المغرب الأوسط مثل مكناسة وهوارة ونفزة وأضاف اليها الاصطخري مديونة<sup>(2)</sup>، هذا بالإضافة الى مغيلة وولهاصة ويفرن وغيرها.

واذا كانت هذه الهجرة اختيارية بمحض ارادتهم، فقد كانت هناك هجرة جماعية اخرى مفروضة عليهم كأن يكونوا — المهاجرون — منزهين فارين أمام عدوهم او خائفين من بطشه، ويظهر هذا النوع من الهجرة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي على الخصوص، من ذلك ان بني برزال بعدما نجحوا في قتل زيري بن مناد الصنهاجي «نبت بهم دارهم بالعدوة رهبة لابنه بلقين بن زيري طالب ثأره<sup>(3)</sup>»، فوجد استدعاء الحكم الأموي لهم آذانا صاغية واستجابة عند بني برزال «فأتحازوا الى الاندلس».

وهاجرت بعض القبائل بسبب وقوع انفصام وانشقاق في القبيلة الواحدة، مثلما وقع لبني يفرن اثر وفاة زعيمها يدو بن يعلى اليفرني، فأجمع بعضهم على تعيين ابنه محمد بن يدو، فما كان من ابن عمه الا ان ثار عليه حسدا وقتله، فأحفظ بالامارة لنفسه، في حين فر البعض الى الاندلس.

(1) ابن خلدون: العبر: ج. 6. ص: 286. وانظر ص: 220، 256.  
(2) انظر: ابن سعيد المغرب. ص: 60. المقدسي: احسن التقاسيم. ص: 247. الاصطخري: المسالك والممالك. ص: 44.  
(3) ابن حيان: المقتبس. طبعة بيروت ص: 192. وانظر. عن هجرة بني برزال الى الاندلس مؤلف مجهول: مفاخر البربر. ص: 44. نقلا عن أبي مروان عبد الملك بن موسى الوراق.



وكان وراء الهجرة كذلك دافع مادي، فان الذين التحقوا بابن ابي عامر، كان الرجل منهم حسب قول ابن عذارى «لباس الخلق على الاعجف فيندل له بلباس الخنز الطرازي وغيره ويركب الجواد العتيق ويسكن قصرا لم يتصور له» في منام له<sup>(1)</sup>.

وكان حب الجهاد دافعا للهجرة، فان أولئك القادمين على ابن ابي عامر، «كانوا من متطوعة العدو المهاجرين للحسبة فيهم جماعة كبيرة من امرائهم وزعمائهم وعصابة كثيرة من فقهاءهم يغنون مشاهد هذه الغزوة» وحين ثار على باديس بن المنصور اعمام ابيه، ثم نجح في قمع ثورتهم، كتب زاوي منهم الى المنصور بن ابي عامر يستأذنه في العبور بفومه الى الاندلس للجهاد في سبيل الله فاذن فعبورا اليه سنة 391هـ / 1000م.

الا ان الاعداد الهائلة التي هاجرت الى الاندلس كانت بدافع الفرار امام جيوش افرقية في القرن الرابع الهجري، وعلى سبيل المثال، فان بني يفرن وخلق الكثير منهم بالاندلس<sup>(2)</sup> في اعقاب انتصار جوهر الصقلي على يعلى اليفرني، وهو ما قامت به ازداجة اثر الوفيعة التي الحفها بها يعلى بن ابي محمد اليفرني السابق الذكر سنة 334هـ / 345م.

ويرى الدمشقي انه اذا اجتمع الجور والفقر والضعف فيجب ان يادر الانسان بالانتقال عن مملكته فهو احمد واحزم في المبدأ والعاقبة<sup>(3)</sup>.

ولست ارى ان استقبال الاندلس للزنتيين الفارين كان بسبب ولاء زنانة للامويين فحسب، لانها — الاندلس — استقبلت زاوي السابق الذكر وهو صنهاجي، ان الامر يتعلق بشعور المهاجرين اليها بالأمان وقد اصبحوا في منأى من ضربات

(1) ابن عذارى: البيان ج. 2. ص: 279.

(2) ابن خلدون: العبر. ج. 4. وعن القادمين على ابن ابي عامر انظر: ابن عذارى البيان ج. 2. حساني: الصراع بين الفاطميين والامويين رسالة جماعية اشرف لقبال موسى، الجزائر 1978 — 1979 ص: 158.

(3) الدمشقي: الاشارة الى محاسن التجارة بتحقيق البشري الشوريحي مطبعة الدد الاسكندرية. 1397، 1977م ص: 73.

القوة التي قهرتهم، كالفاطميين، في نفس الوقت، كان باب الرزق مفتوحا لهم في الأندلس، فكان الأمير الأموي كعبد الملك المظفر ينادي في المهاجرين على من «اراد الأتبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحرق فرغب في ذلك خلق عظيم واستقروا به»<sup>(1)</sup>.

وكانت الأندلس نفسها مهياة وعلى استعداد لاستقبالهم، فهي دار الجهاد من جهة، فكان الأمويون بحاجة إلى الرجال، وقد وجدوا في بلاد المغرب مصدرا لهم، كما أنها كثيرا ما شهدت فتنا داخلية، كان يصعب القضاء عليها أحيانا، ومن جهة أخرى، فقد كان يخاف بعض الأمويين من الاعتماد على جنس واحد، من ذلك ما ذكره الأمير عبد الله بن زيري في مذكراته من توقع المنصور بن أبي عامر من اجتناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته إذا كانوا صنفا واحدا وتألبهم على معصيته فارتأى أن الحكمة في أن تكون «اجناده فئات مختلفة وأشتاتا متفرقة أن هم أحد الطوائف بخروج على الطاعة غلبها بسائر الفئات الأخرى مع احتياجه إلى ترقية عسكره والزيادة فيه بمن يستطيع»<sup>(2)</sup>.

ويبدو أن عملية الهجرة إلى الأندلس، كانت بين مد وجزر، تعتمد على وقوع حروب طاحنة في بلاد المغرب تفرض على بعض القبائل الهجرة زرافات ووحدانا، لتخفف حركتها في ظل سيادة الهدوء بعد ذلك وتعتمد على سياسة الخليفة الأموي نفسه، فمنهم من كان يحث المهاجرين على العبور إلى الأندلس، ويطلب المزيد، كهشام المؤيد، في حين كان البعض يزهد في استقبالهم ولا يشجعهم على العبور كالناصر، وذكر ابن حيان بخصوص موقفه من هجرة المغاربة إلى الأندلس أنه كان «معتليا على من جنح من أمرائها منطويا على الحذر من بوادرهم معتقدا قلاهم والازورار عنهم مقتصرًا على من أظهر مكابته منه وموالاته على بعد واحتراس من كبادهم، مطييا لهم بالاهداء والرفد غير مستدع لهم إلى العبور عليه، ولا مستكثرًا منهم بالامداد لهم»<sup>(3)</sup>.

(1) ابن عثاري: المصدر السابق ج. 2 ص: 278. عبد الملك المظفر: ولي الحجابة للخليفة هشام ابن الحكم سنة 392هـ / عنه انظر: بغية الملئس ص: 106.  
(2) عبد الله بن زيري: مذكرات الأمير عبد الله بن زيري.  
(3) ابن حيان: الملئس ص: 189.

وكانت هناك هجرة فردية الى الاندلس للعلم، أو للتجارة أو نحو ذلك، ويبدو أن المهاجرين من تاهرت كان عددهم وافرا حتى اطلق على احد ابواب المدينة «باب الاندلس» وكان من بين هؤلاء المهاجرين دحيون وعبد الغني وبهرام أبناء الامام عبد الوهاب، فذكر ابن سعيد أنه «قدم بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تيهرت» على الامير عبد الرحمن بن الحكم، كما كشفت المصادر عن وجود عدد من الشخصيات الرستمية كانت مقيمة في الاندلس، منهم سعيد بن محمد بن عبد الرحمن ابن رستم، وابناه محمد والقاسم، وعبد الرحمن بن رستم الذي يرى ليفي بروفنسال LIVI-provençal أنه الأخ أو الابن الأكبر لمحمد بن سعيد<sup>(1)</sup>.

وكان من التاهرتيين المهاجرين قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي، دخل الاندلس مقيما سنة 317هـ / 929م وابنه ابو الفضل احمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز، ولد هذا في سنة 309هـ / 921م، ورحل رفقة والده الى قرطبة فأقام فيها الى أن وافته المنية سنة 395هـ / 1004م — 1005م<sup>(2)</sup>، وان اصطحاب القاسم ابنه احمد وعمره 8 سنوات ثم إقامة هذا في قرطبة حتى وافته المنية، دليل على أن هجرتهم كانت فرارا مما آلت اليه تاهرت في العهد الفاطمي.

وكان منهم زكريا بن بكر بن احمد الفسائي التاهرتي ويلقب بابن الاشج «من اهل تاهرت يكتنى ابا يحيى دخل الاندلس مع ابيه واخيه سنة 326هـ / 937م<sup>(3)</sup>» ويذكر صاحب كتاب «بقية الملتمس» من جهته ان زكريا بن بكر بن الاشج التاهرتي توفي بقرطبة سنة 524هـ وواضح اتفاقهما بشأن هجرته وان اختلفا بشأن تاريخ هذه الهجرة، وربما عاد هذا الاختلاف الى خطأ مطبعي.

(1) عن هجرة هؤلاء الرستميين انظر: ابن سعيد: المغرب. ج. 1. ص: 448 ان الابه: الحلة. ج. 2. ص: 372.  
(2) ابن بشكول: الصلاة. ج. 1. ص: 86. الضبي: بقية الملتمس. ص: 188. 436. الحميدى: جنوة المفتيس ص: 132.  
(3) الباروني سليمان: الازهار الرياضية. ج. 2. ص: 75. الضبي: المصدر السابق. ص: 279.

وأشار ابن رشيقي في كتابه «المؤدج الزمان» في ذكره الشاعر أبي حبيب عبد الرحمن بن أحمد أن هذا «ولد بالمحمدية وتأدب بالاندلس دخلها صغيراً مع أبيه الذي كان قد ترك التجارة لشيء اطلع عليه من شريك له «وخرج فقيراً إلى الاندلس غازياً فذكر هناك ولم يخف حاله وسكن الثغر مرابطاً حتى قبض قبل الأربعمائة» (1).

ومنهم عبد الله بن حمود بن هلوب بن داود بن سليمان، وهو وإن كان طنيجياً إلا أن «أصله من تاهرت» (2) من علماء القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي إذ أنه أخذ بقرطبة عن أبي عمدة الأصيلي المتوفي سنة 399 هـ / 1008.

ومنهم أبو حفص عمر بن مالك المعروف بالتاهرتي، كان حياً في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، فربما كان دخوله أو دخول أبيه الاندلس في القرن الرابع الهجري، ومنهم أحمد بن فتح اعتبره ابن الفرضي مليلياً، بينما اعتبره البكري وسليمان الباروني تاهرتياً، قدم الاندلس سنة 325 هـ / 936 م، فآرا من عساكر الشيعة، هذا بالإضافة إلى الحسن بن علي بن طريف التاهرتي الذي تخرج على أئمة الاندلس في القرن الرابع الهجري (3).

ولم يقتصر أمر الهجرة إلى الاندلس على أهل تاهرت، بل هاجر إليها من مختلف أنحاء البلاد، فكان منهم (4)، أحمد بن أبي عون من أهل وهران وقاضياً، قدم قرطبة على عبد الرحمن الناصر في وجوه أهل بلده سنة 341 هـ / 952 م، وعبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو الهمراني، وهو وإن قدم الاندلس سنة 429 هـ / 1037 م إلا أنه ربما هاجر إليها قبل ذلك، أنه يمثل حلقة من سلسلة من المهاجرين الهمرانيين إلى الاندلس.

(1) ابن رشيقي الفرواني: المؤدج الزمان. ص: 141.

(2) ابن بشكوال: المصدر السابق ج. 1. ص: 299.

(3) البكري: المغرب. ص: 177. ابن القاضي: تاريخ العلماء ج. 1. ص: 75. الباروني سليمان: الأزهار ج. 2. ص: 77.

(4) عنهم انظر. ابن الأبار: التكملة ج. 1. ص: 127. ابن بشكوال: الصلة. ص: 75. 298.

وهاجر من تنس الى الاندلس<sup>(1)</sup> ابراهيم بن عبد الرحمن التنسي، دخل  
الاندلس ثم اصبح مفتيا لجامع الزهراء وتوفي سنة 387هـ / 997م، وهاجر  
من المسيلة احمد بن خلف المسيلي، دخل الاندلس فأستوطنها وتوفي بقرطبة سنة  
393هـ / 1003م وأبو حسين بن سلمون الميلي، دخلها — قرطبة — ايضا  
وتوفي فيها سنة 431هـ / 1039م.

الى جانب هؤلاء ظهرت في الاندلس جماعة من العلماء ينتمون لبعض  
قبائل المغرب الاوسط<sup>(2)</sup>، دون ان ينضح ما اذا كانوا مهاجرين ام مستوطنين  
مثل خلف بن يوسف بن نصر المغيلي المتوفي سنة 396هـ / 1005م وعبد  
الله بن سلام الصنهاجي المتوفي سنة 402هـ / 1011م وابن ابي العظام عبد  
الله بن خلوف بن موسى الزواغي.

ثم ظهرت جماعة اخرى من المهاجرين منتمية الى قبائلها دون ان تعرف  
المدن التي ينتمون اليها، مثل سراس بن حمود الصنهاجي الذي هاجر الى  
الاندلس فسكن طليطلة وتوفي فيها سنة 391هـ / 1000م، واحمد بن عبد  
الله بن موسى الكتامي، واكفى ابن بشكوال بالاشارة الى انهم من الغرباء  
القادمين الى الاندلس.

وكانت هناك هجرة عكسية من الاندلس إلى المغرب الاوسط، عرفتها  
تاهرت منذ تأسيسها فظهر مسعود وعمران بن مروان الاندلسيان ضمن  
مرشحي الامامة بعد وفاة الامام عبد الرحمن بن رستم، وأشار ابن القوطية الى  
وجود خباط بتاهرت «كان اصله من رية»، وأستقبلت تاهرت كذلك عبد الله  
بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالبلنسي، في اعقاب نزاعه مع اخيه امير  
قرطبة، فكان نزوله ارض تاهرت في عهد الامام عبد الوهاب<sup>(3)</sup>.

(1) عن ابراهيم انظر: الضبي: بقية المتنس ص: 204 — 205 وجعل ياقوت الحموي سنة 307هـ  
تاريخا لوفاته لكن الزهراء لم تكن قد بنيت بعد انظر الحموي: معجم ج. 2. ص: 416.  
(2) ابن بشكوال: المصدر السابق. ص: 161. 250. 274.  
(3) عن مسعود وعمران انظر: الدرر جني: طبقات ج. 1. ص: 46. الشماخي: السير ص: 145. وعن  
عبد الله انظر: L. PROVENÇAL: HISTOIRE ... T. 1 P. 108. وعن ابن حفصون: ابن القوطية: تاريخ  
افتتاح الاندلس ص: 109.

بالإضافة الى عمرو بن حفصون الثائر على امير قرطبة محمد بن عبد الرحمن سنة 267هـ / 880م فذكر ابن القوطية انه «جاوز البحر الى تهرت<sup>(1)</sup>» وهكذا كانت تاهرت على وجه الخصوص ملجأً الفارين من الاندلس.

بل ان بعض المنفيين كانوا يفضلون النزول ببلاد المغرب الاوسط، فحين أمر بنو ذكوان بالخروج عن الاندلس حملوا الى المرية ومن هناك خرجوا الى وهران، كما يمكن ان يكون بعض اصحاب وقعة الربض قد نزلوا ببلاد المغرب الاوسط مثلما نزلوا مدينة فاس وسجلماسة، فان ابن الآبار يشير الى ان بعضهم لجأ الى «سواحل بلاد البربر».

وحتى الافراد الذين كانوا غير مرغوب فيهم في الاندلس لموقف، مذهبي أو تهمة تجسسية، ونحو ذلك، كانوا يرحلون الى المغرب الاوسط، فان محمد بن احمد بن ابراهيم بن ابي بردة الشافعي البغدادي، «كان ينسب الى الاعتزال ورفع ذلك الى السلطان فأمر باخراجه من البلد وذلك سنة 373هـ / 988م فصار بتهرت عند بنت له<sup>(2)</sup>»، وغيره كثيرون سبقه منهم: الشاعر ابو القاسم محمد بن هانيء الاندلسي الذي «خرج على غير اختياره من الاندلس فنزل على امراء المسيلة من بني حمدون، بل ان حمدون هذا نفسه غادر البيرة الى بجاية فنزل بها بقرية تعرف بقسطلنانة فأستقر بها ونسله<sup>(3)</sup>».

ولعبت التجارة دورا بارزا في هجرة الاندلسيين الى المغرب الاوسط فمنذ عهد الامام الرستمي الاول «استعملت السيل الى بلد السودان والى جميع البلدان من مشرق ومغرب» وتشتمل كلمة «مغرب» على الاندلس ايضا وان استعمال السيل يعني الحركة في الاتجاهين ذهابا وايابا كما أشرنا سابقا عند ذكر بناء مدينة تنس، ان الاندلسيين كانوا يقصلونها بمخارجهم ويضطرون ان يشتوا فيها وكذلك في وهران.

(1) ابن القوطية: نفس المصدر: ص: 87.

(2) ابن القرضي: تاريخ العلماء والرواف. ج. 2. ص: 116.

(3) ابن حبان: المقتبس ص: 33 - 34. طبعة بيروت.

ويبدو ان بعض الاندلسيين هاجر الى بلاد المغرب طلبا للعلم فذكر الحشني ان ابا العباس أحمد بن عيسى بن محمد المقرئ حدث احمد بن فرج بن متيل — من اهل الاندلس — في مدينة تنس، وأشار ابن الفرضي من جهته ان سعيدا بن حسان بن علاء القرطبي سمع بتنس من ابي عمر وعثمان بن محمد بن السمرقندي والي حفص بن الحداد.

وهذا تكون قد وقعت هجرة عكسية بين بلاد المغرب الاوسط وبلاد الاندلس، وكانت فردية مرغوبة في القرن الثالث الهجري، ثم أصبحت جماعية مفروضة بوجه عام في القرن الرابع الهجري، ولم تكن للعلاقات القائمة بين الاندلس وبين تاهرت والامارات العلوية والفاطمين دخل وتأثير في هذه الهجرة.

وكانت هناك هجرة بين المغرب الاوسط والمغرب الاقصى، وهي هجرة طبيعية بحكم التجاور وعدم وجود حواجز طبيعية، وبحكم وحدة بلاد المغرب الاسلامي البشرية، اذ ان كل قبيلة تشعر ان بلاد المغرب بأسرها موطنها لها، فكان ان ظهرت فروع لقبيلة واحدة في مناطق متعددة، فاذا كانت قبائل زواغة ولماية ولواتة ونفزة ومكناسة من قبائل تاهرت، فقد ظهرت فروعها مبايعة للامام إدريس الاول(1)، مما يدل على ذلك الانقسام وحرية التنقل ويمكن ان يصدق هذا القول على القبائل الطاعنة التي لم تعرف الاستقرار بعد، وخاصة في غرب بلاد المغرب الاوسط.

وان حياة الهدوء والامن التي سادت في القرن الثالث الهجري، قد حالت دون وقوع هجرات جماعية باتجاه المغرب الاقصى، لكنها اتسعت وقويت في القرن الذي يليه، وكأنها كانت عملية تفريغ، بسبب الحملات العسكرية الفاطمية فالزيرية، التي كانت ترسل لاختداد فتن داخلية أو مقاومة النفوذ الفاطمي(2).

(1) الكتاني: الازهار العاطرة الانفاس: ص: 55 اسماعيل العربي: دولة الادارسة ص: 64.  
(2) عن الصراع الفاطمي الاموي: انظر حساني مختار: الصراع بين الفاطميين والامويين. العبادي أحمد مختار: سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس. صحيفة للمعهد المصري للدراسات الاسلامية ج. 5. مدريد 1957. فيلال عبد العزيز: علاقة الدولة الاموية بدول المغرب الاسلامي. الجزائر.

في بلاد المغرب، فكان من نتائجها ان فرض على القبائل المناوئة للحكم الفاطمي أو الزييري ان تهاجر باتجاه الغرب، وبالفعل فحين انتصر جوهر على يعلى اليفرنى كما سبق وحرب مدينة افكان «تفرق شمل بني يفرن وتقلص نفوذهم وبدأت جموع زناتة المغرب الاوسط ترحل تدريجيا الى المغرب الاقصى<sup>(1)</sup>» فرارا من غضب الفاطميين وانتقامهم ولما تغلب بلكين بن زييري الصنهاجي على بلاد المغرب الاوسط سنة 369هـ / 979م «لحق مغراوة فيمن بقي من بني خنزر بالمغرب الاقصى<sup>(2)</sup>» بل ان السللاوي يفيد انه حين اجفلت ملوك زناتة من بني خنزر المغراويين وبني محمد بن صالح اليفرنيين امام بلكين بن زييري «انحازوا جميعا الى سبتة<sup>(3)</sup>».

ويمكن ان ينطبق هذا القول على الحروب العديدة التي شهدتها بلاد المغرب الاوسط بين افريقية من جهة وبين المغرب الاقصى والاندلس من جهة ثانية في اطار الصراع على السيادة على بلاد المغرب، التي لم تتوقف طيلة القرن الرابع الهجري.

هذا بالاضافة الى السبايا والاسرى التي كانت ضمن غنائم الجيش المنتصر، من ذلك ما ذكره ابن خلدون بخصوص المعركة التي دارت بين زييري بن عطية ويبدو بن يعلى اليفرنى كما سلف والتي انتهت بانتصار زييري على يدو فكان ان «سبى حرمه<sup>(4)</sup>» وغيرهم سنة 383هـ / 993م.

وان الامثلة القليلة التي ذكرها المؤرخون قد تفيد في ان تكون دليلا على ان المغرب الاقصى كان يشكل عمقا لبلاد المغرب الاوسط امام القوة الفاطمية فالزيرية، فكانت الهجرة إليه في تناول جميع فئات الفارين من البلاد فقيرها وغنيها، وضعيفها وقويها، على العكس من الهجرة الى الاندلس.

(1) حسن محمود: قيام دولة المرابطين من: 79.

(2) القلفشندي: صبح الاعشى. ج. 3. ص: 185.

(3) السلامي: الاستقصا ج. 1. ص: 190.

(4) ابن خلدون: العبر ج. 3. ص: 43.



التي لم يكن يقوى عليها إلا كل من له روح المغامرة لركوب البحر، وربما كانت ترى بعض الفئات المهاجرة في بلاد المغرب الأقصى الخطوة الأولى نحو توفير الأمن.

وعلى كل فقد هاجر الشاعر بكر بن حماد التاهرتي<sup>(1)</sup> إلى البصرة — بصرة — المغرب — فنزل على أميرها أحمد بن القاسم فمدحه متكسبا بشعره، ومثله فعل أحمد بن فتح<sup>(2)</sup> كما سلف ويبدو أن هذا لم يتمكن من الاستقرار في البصرة فانتقل منها إلى مدينة مليلة، فكان قاضيا فيها، فطالت إقامته حتى نسب إليها وعرف بأحمد بن فتح المليلي، لكنه وفي خضم الحروب التي شهدتها بلاد المغرب الأقصى «خشى من عساكر الشيعة فأجاره الناصر» سنة 325هـ / 936م وظل في قرطبة إلى أن توفي سنة 332هـ / 943م.

ومن الراحلين من تاهرت إلى المغرب الأقصى عبد الله بن حمود بن هلوب بن داود بن سليمان، «وهو طنجي فقيه» أصله من تهرت عاش في القرن الرابع الهجري، ومنهم محمد بن عيسى بن حسين بن أبي السعد بن سيد الدار بن يوسف التميمي من مواليد مدينة فاس سنة 428هـ / 1036م، وكان جده حسين قد خرج إليها من تاهرت<sup>(3)</sup> وقد أصبح محمد هذا قاضيا، فلعله أخذ الفقه أبا عن جد، وربما كان جده أذن قاضيا، فيكون من المحتمل أن هجرته وهجرة سابقة بسبب تعرض الفقهاء المخالفين للشيعة لحنة كملك الحنة التي تعرض لها علماء القيروان.

ومن العلماء الفارين من غير تاهرت عبد الله بن حمو<sup>(4)</sup> أصله من المسيلة وكان قاضيا في مدينة سبتة ثم رحل إلى الأندلس، ثم توفي سنة 473هـ / فرما كان المهاجر من المسيلة والده أو جده، والذي ربما كان بدوره قاضيا.

(1) ابن عذاري: البيان. ج. 1. ص: 236.

(2) البكري: المغرب. ص: 110. 117. ابن عذاري: المصدر السابق ج. 1. ص: 203. الحموي: معجم البلدان ج. 2. ص: 208. الباروني: الأزهار ج. 2. ص: 77 ابن الفرضي: تاريخ العلماء والمرأة ج. 1. ص: 75.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك ج. 3. ص: 584 ابن الآبار: التكملة ج. 2. ص: 914.

(4) ابن بشكوال: الصلة ج. 1. ص: 298.

هؤلاء بعض العلماء الذين نالوا شهرة علمية لفتت نظر أصحاب التراجم،  
ناهيك عن أولئك الراحلين من العلماء وغيرهم الذين لم يلتفت اليهم المؤرخون  
أو اصحاب التراجم لأمر ما. وناهيك عن القبائل الطاعنة من سكان بلاد المغرب  
الايوسط المجاورة لبلاد المغرب الاقصى.

اما عن الهجرة باتجاه سجلماسة، فيبدو انها كانت ضعيفة، لانه من  
قوافل تاهرت التجارية الصادرة الى سجلماسة أو مرورا بها باتجاه بلاد السودان،  
ولم تشر المصادر الى الهجرة العادية اليها، فاذا استثنينا الغاية التجارية فليس هناك  
ما يدعو سكان المغرب الاوسط للرحيل اليها، اللهم الا اذا تعلق الامر ببعض  
القبائل المجاورة لها.

ولقد اشار ابن الصغير الى وجود الاباضية في سجلماسة، كما أشار الى  
وجود الصفرية في تاهرت، لكن ليس هناك ما يدل على ان هؤلاء أو أولئك  
كانوا من المهاجرين.

ويظهر ان هناك بعض الافراد، هاجروا الى سجلماسة تحت تأثير دوافع  
اجتماعية، فذكر ابن خلدون ان اليسع «اصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب  
تاهرت في ابنه مدرار في ابنته اروي» كما سبق.

ويكاد الوضع لا يختلف بالنسبة للسودان الغربي عن سابقه، فليس هناك  
داع عسكري أو ثقافي أو اجتماعي يحث على سكان بلاد المغرب الاوسط الهجرة  
الى بلاد السودان، بل ان اهمية هذه البلاد تنحصر في تجارتها مما يدعو الى القول  
ان المهاجرين اليها كانوا في مهمات تجارية وحتى إن قامت بعض الهجرات  
لاغراض سياسية فهي في خدمة تلك المهمات.

من ذلك عبارة ابن الصغير الخاصة باستعمال «السبل الى بلاد السودان  
بالتجارة وضروب الامتعة» وبالفعل فان الامام افلح كان قد اراد السفر الى  
جوجو(1)، وهو وان لم يكتب له ان يسافر الا ان القافلة التي كان سيرافقها

---

(1) وردت على صور كوكو KAWKAW انظر: الادريسي: ص: 11. وهي مدينة السودان الغربي  
نربطها طريق تاهرت تمر عبر ورقلة ثم تادمكة.

قد سافرت، كما وفد من سكان تاهرت محمد بن عرفة على ملك السودان سفيرا من قبل الامام افلح ولا يوجد في المصادر ما يدل على انها كانت السفارة الاولى أو الاخيرة أو ما يدل على انها كانت ردا لسفارة سودانية، أو فاتحة عهد جديد لتبادل السفارات.

ومن الصعب ان نعتبر هؤلاء التجار مهاجرين، وان كان لا يخلو الامر من وجودهم، اذ في ظل تلك العلاقة الطبيعية ربما أقامت مجموعات في بلاد السودان، ولم يكن امر الإقامة هناك جديدا مستهجنا، فان ابا يزيد مخلد بن كيداد نفسه كان «مولده ببلد السودان»<sup>(1)</sup>، وذكر لويكي LEWICKI بدوره رجلا من بني ويسين يقال له تملا من رجال القرن الرابع الهجري كان يقيم في تادمكة ويبحث منها الاموال الى بلده في القصور، وهما وان لم يكونا من سكان المغرب الاوسط الا انهما يقومان دليلا على امكانية اقامة بعض افراد تجار المغرب الاوسط في بلاد السودان.

ولاندري، فلعل ظروف البلاد في القرن الرابع الهجري قد فرضت على بعض القبائل ان تشد رحالها الى بلاد السودان هربا، وطلبا للامن، فقد ظهرت في اودغست قبائل من برقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة<sup>(2)</sup> على عهد البكري.

ولم تكن بلاد المغرب الاوسط منعزلة عن افريقية أو العكس، فقد عرفت تاهرت القرويين قبل حلول القرن الثالث الهجري كما سبق وربما يرجع القرويون في مدينة بني جليد امن الذين أشار البكري الى وجودهم الى هذه الفترة بسبب حياة القوضى التي سادت افريقية في عهد الولاة.

اما في العهد الاغربي، وقد عم الامن والمهدوء فلم يكن هناك ما يدعو الى قيام هجرات جماعية من افريقية بل وحتى في عهد الفاطميين ومن يليهم، لم تكن هناك ضرورة لمثل هذه الهجرات، وقد وقعت بلاد المغرب الاوسط نفسها تحت نفوذهم اذا استثنينا بعض الحاميات التي كانوا يرسلونها

(1) ابن ابي دينار: المؤنس في اخبار افريقية وتونس. ص: 57 المقرئ: اتعاط الخنفاء ص: 109.

(2) البكري: المغرب. ص: 158.

لحفظ الامن في البلاد، وان كانت في الغالب كتابية أو صنهاجية بدورها الى بلاد المغرب الاوسط.

فمن الأرجح والحالة هذه ان الهجرة اقتصرت على المهجرات الشخصية الفردية التي كانت بهدف تجاري أو ثقافي أو نحو ذلك فعد رحل من القيروان الى تاهرت ابو عبد الله فضل وسعيد الحدادي وابو الغدير المواربي، وابو الفتاح وغيرهم (1)، وهم من علماء الاباضية في القيروان.

ولم يتوقف الامر على هجرة الاباضية، بل هاجر الى تاهرت غيرهم مثل ابي بكر بن اللباد (2)، وكان قد دخل على الشاعر بكر بن حماد التاهرتي في أواخر أيامه في تاهرت، ويذكر ابو العرب ان ابا بكر هذا من سكان القيروان.

كذلك فان الذي صلى على جنازة الشاعر بكر بن حماد هو الفقيه موسى بن البادسي (3)، وتدل نسبته الى انه من سكان بادس في افريقية.

هذا بالإضافة الى المهاجرين من جبل نفوسة مثل محمد بن يانس ومهدي النفوسي وابو الحسن الابدلاني وايوب بن العباس الذين وفدوا لنجدة للإمام عبد الوهاب في حربه مع الواصلية، ثم ارسل ابو يونس وسيم بن سعيد عامل الامام افلح على قططرة «ابنه سعدا الى تيهرت ليتعلم العلم ومعه نقاش بن نصر فتعلما عند الامام» وأشار الشماخي الى خروج جماعة من جبل نفوسة الى تيهرت ونزلهم على الامام عبد الوهاب دون ان يذكر اسماءهم وأضاف ان «مهديا النفوسي وابن خالته فرحا تخاصما عند الامام بتيهرت» ومشيرا بذلك الى وجودهما في عاصمة الدولة الرستمية، ويبدو أن ابا مرداس مهاصر السدراتي كان كثير الزيارة لتيهرت، وكان منهم ابو يوسف يعقوب بن سيلونس الطرقي السدراتي الذي «كانت قراءته على الائمة في تاهرت» (4).

(1) الشماخي: السور. ص: 261.

(2) الديباغ: معالم الأيمان ج. 2. ص: 282. ابو العرب: طبقات ص: 117.

(3) الحموي: معجم ج. 1. ص: 459 مادة بادس مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار ص: 175. ابو العرب: المصدر السابق ص: 246. وذكره ابن عذاري الفارسي «انظر البيان ج. 1. ص: 211.

الا ان الأرجح ما جاء عند ابي العرب لانه معاصر للبادسي.

(4) الشماخي: السور. ص: 288.

وعلى أية حال، فإن عدد المهاجرين من جبل نفوسة الى تاهرت الرسمية كان عاليا ما دام الجبل يدخل ضمن اطار الدولة الرسمية، اما بعد ذلك ق 4هـ فلم يعد هناك ما يدعوهم الى مواصلة الهجرة، اذ كانت تاهرت قد فقدت مكانتها كعاصمة الاباضية، فلا تشير المصادر الى هجرة اباضية من افريقية أو الجبل الى المغرب الاوسط، ويبدو ان الهجرة اقتصر على دعاة التشريق في بلاد المغرب الاوسط، من ذلك منيب بن سليمان المكتاسي الداعي للتشريق في جبل ونشريس، وقيل ان عبيد الله المهدي وجهه وغيره الى الاطراف وامرهم باظهار التشريق<sup>(1)</sup>.

وكانت هناك هجرة فردية من المغرب الاوسط باتجاه افريقية، قام بها العلماء أو التجار، فكان منهم الشاعر بكر بن حماد التاهرتي السابق الذكر الذي اتخذ من القيروان موطناً له، فهو حين رحل الى المشرق سنة 217هـ / 832م مر بالقيروان فأخذ العلم عن سحنون وعون بن يوسف، وفي طريق عودته اقام في القيروان فظهر فيها مجالسا لسحنون ومادحا الامير الاغلي ابراهيم الثاني سنة 261هـ / 874م، 289هـ / 902م متكسبا بشعره، فوصله منه مال كثير، وفي حين يذكر الدباغ ان بكرا بن حماد «رحل الى القيروان فأقام بها الى ان سافر الى تاهرت سنة 295هـ<sup>(2)</sup>» فان البكري يذكر ان الشاعر المذكور «سكن تاهرت وبها توفي» وهذا كله يفيد على الأقل في ان الشاعر كان منتقلا بين العاصمتين.

وكان من المهاجرين ابو القاسم الوهراني السابق الذكر كان من علماء القرن الرابع الهجري اذ سمع من تميم بن محمد التميمي بن ابي العرب صاحب طبقات علماء افريقية وتونس المتوفي سنة 359هـ / 969م بالقيروان، وعمران بن سليمان بن محمد بن عمران التميمي المسيلي فقد «نشأ بالمسيلة وتأهب بالمنصورية» وابو علي الحسن بن محمد بن احمد بن الريب التميمي القيرواني الذي

(1) ابن عفران: البيان. ج. 1. ص: 185 حوادث سنة 309.

(2) ابن الأبار: الحلة السواء. ج. 2. ص: 282. ج. 2. ص: 174 وعن صلته بسحنون وعون انظر: ابو العرب: طبقات ص: 164. الدباغ: معالم الأيمان ج. 2. ص: 281 وانظر محمود مكي: التاهرتي بكر بن حماد مجلة العربي ع. 53 افريل 1963 ص: 78.

يذكر ابن رشيقي بشأنه في كتابه «الأمودج» «ان اصله من تاهرت(1)» وعبد الواحد بن فتوح الزواق الكتامي. وابو محمد عبد الله بن يوسف بن طلحة بن عمرو بن الوهراني، الذي له رواية واسعة عن شيوخ افريقية كأبي محمد بن أبي زيد ونظرائه وله علم بالحساب والطب.

وفيما يتعلق بالمهجرة الجماعية، فيبدو ان القرن الثالث الهجري لم يشهد مثل هذه الهجرة، اذا استثنينا هجرة بعض النكارية الى جبل نفوسة في عهد الامام عبد الوهاب، الا أن الأمر يختلف بالنسبة للعهد الفاطمي ثم الزييري فان سقوط مدينة تاهرت في يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ / 909م يعتبر بداية فعلية لهذه الهجرات الجماعية، وقد فر عنها بعض سكانها خاصة الاباضية منهم، ومن تساعده احواله المادية على الهجرة، واذا كان بعض هؤلاء المهاجرين قد نزلوا واحات الصحراء في وادي ريغ وبني ورجلان فان البعض الآخر يكون قد توجه الى جبل نفوسة.

كما ظهرت جماعات تاهرتية في القيروان بعد ذلك، فكان بعضهم منافسين وشركاء لعائلة ابن أوكل(2)، وأشار غواتين Goitein من جهته الى ظهور التاهرتيين في القيروان في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي اصدقاء لعائلة سعد التستري، والارجح أن هؤلاء يرجعون في اصولهم الى أولئك المهاجرين ولا ندرى، فلعل بعض هؤلاء المهاجرين قد احتل مناصبا حكوميا، فذكر القاضي عياض: ان ابا بكر بن اللباد المتوفي سنة 333هـ / 944م بالقيروان كان قد امتحن على يد تاهرتي طالبه بوديعة، وحين انكر ابو بكر دعا التاهرتي اعوانه فأخذوه وبطحوه على وجهه وجلس على اكثافه وضربوه(3)، ثم هل كان اعوانه تاهرتيين ؟.

(1) انظر: ابن رشيقي: الأمودج الزمان في شعراء القيروان ص: 111، 226، 311. ثم انظر: المقرئ: نفع الطب، ج. 3، ص: 156. وعن أبي القاسم الوهراني انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج. 3، ص: 532.

(2) هاجرت هذه العائلة من بلاد فارس الى افريقية منتصف القرن العاشر الميلادي ثم هاجرت مع الفاطميين الى مصر.

(3) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج. 3، ص: 310.

اما وقد قامت الدولة الفاطمية على اكتاف الكتامين، وكانت الدولة الزيرية بعدها صنهاجية، فقد هاجرت اعداد هائلة من القبيلتين كتامة وصنهاجة بصفتهم جنودا ومستولين في الدولة حتى بلغ ما حشده المعز الفاطمي عند رحيله الى مصر «من جند كتامة وعبيد زويلة وطبقة الفتيان نحو مائة الف» (1).

وقد اتسعت حركة الهجرة الجماعية بسبب الحروب العديدة التي شهدتها البلاد في العهد الفاطمي ثم الزيري، كما سبق فكان هؤلاء، وفي اعقاب كل حملة يحرزون فيها انتصارا يقومون بعمليات سبي واسعة، وان لم يشر المؤرخون الى عدد السبايا والاسرى.

فحين خرج ابو عبد الله الشيعي الى ارض المغرب سنة 297هـ / 910م قتل «وسبي» (2)، وفي العام التالي حارب صدينة وزناتة «وسبي الذرية» وفي عام 299هـ / 912م اخرج عبيد الله المهدي العساكر الى تيفرت «فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية» وفي سنة 312هـ / 924م حارب مصالة بن حبوس قرب تاهرت فقتل «وسبي» ولما مر ابو القاسم الفاطمي بمواطن بني كملان، في مكان مدينة المسيلة نقلهم الى فج القيروان لانه كان يتوقع منهم فتنة، ثم بنى بعد ذلك المدينة المسيلة، وحين وصل حصن برقعانة سنة 316هـ / 928م قاتله اهله، حتى قتلوا واسر منهم من استأمر وهكذا كان شأنهم.

ويلاحظ اهتمام الفاطميين بسبي النساء والذرية ويمكن ان يكون لهذا علاقة باعدادهم الجيوش التي سيسند اليها امر فتح مصر اذ سينكبنهم هؤلاء الاسرى من تجهيز ما يمكن ان يشبه بالجيش الانكشاري.

وبخلاصة القول، فان بلاد المغرب الاوسط قد شهدت هجرة، منها واليهما، قام بها افراد لدوافع مختلفة سلمية اغلب الاحيان كأن تكون علمية أو تجارية، وقامت بها جماعات بشكل اضطراري في الغالب كأن يكون فرارا أو وقوعا في الاسر، واذا كان النوع الاول قد سيطر على ظاهرة الهجرة في القرن الثالث

(1) ابو الهاسن: التجوم الزاهرة ج. 4. ص: 73. لفيال موسى: دور كتامة ص: 474.

(2) عن بعض عمليات الاسر انظر: ابنعذاري: البيان ج. 1. ص: 160. 166. 189. 193.

المجري، فان النوع الثاني قد برز في القرن الرابع المجري، وكان هؤلاء خاصة من المهاجرين من بلاد المغرب الاوسط.

### الازمات:

تعرضت بلاد المغرب الاوسط الى عمن وشدائد خلال القرنين الثالث والرابع المجريين، بعضها من جراء الفتن والحروب والبعض الآخر من جراء الكوارث الطبيعية كالفقحط والابوة، وقد جمعها ابن حوقل في اشارته الى اهل تاهرت وقمرهم بسبب «تواتر الفتن عليهم ودوام الفقحط وكثرة القتل والموت». **الفتن والحروب:**

فان الحروب التي خاضها الامام عبد الوهاب ضد ابن فتدين السالف الذكر، قتل فيها من جماعة هذا الاخير «اثنا عشرة الف قتيل» وكان من نتائج حروب نفس الامام مع قبيلة هواره ان «سال الوادي ذلك اليوم دما وقتل في ذلك اليوم خلق كثير»، ولم تتوقف الفتن في عهد الامام ابي بكر «فلم تزل حروب كذلك وعلى ذلك سبع سنين حتى خلت وذهبت الاموال» تاهبك عن الحروب التي دارت رحاها بين الامام ابي حاتم وعمه يعقوب بن افلع، مما ادى الى ان «قطعت السبل وفرغ من اهدى الناس الحرث والنسل».

ومع ابتداء امر ابي عبد الله الشيعي ابتدأت الحروب في بلاد كتامة بين مؤيديه ومعارضيه له، ثم في نواحي الزاب في حروبه ضد الاغالبه<sup>(1)</sup> وعند دخوله مدينة تاهرت سنة 296هـ / 909م، قتل فيها جماعة من الرستميين وغيرهم، وفي سنة 298هـ / 911م، تحول عبيد الله المهدي في بلاد البربر، «فحارب صديقه وزناته» وقتل الرجال واخذ الاموال وسبى الذرية واحرق بعض المدن بالناثر<sup>(2)</sup>، وفي سنة 299هـ / 912م اخرج عبيد الله المهدي الى المغرب

(1) عن هذه الحروب انظر القاضي العماد: افتتاح الدعوة. مواضع متفرقة ابن عذاري البيان ج. 1. ص: 131 وما يليها في مواضع متفرقة.

(2) ابن عذاري: البيان. ج. 1. ص: 162.



جماعة من قواده لمحاربة زناتة في عساكر عظيمة، فكانت وقعة «قتل فيها من زناتة عدد لا يحصى» ثم دخلت عساكره تاهرت «فقتلوا الرجال وسبوا النساء والذرية وانتهبوا الاموال وحرقوا المدينة بالنار وبلغ عدد القتلى بها ثمانية آلاف رجل»<sup>(1)</sup>.

وفي سنة 312هـ / 924م خرج مصالة بن جبوس من تيهرت الى زناتة فأدّاخ بلدهم وقتل وسبي واخرج خيلا الى بعض نواحي ابن خنزر المغراوي فدارت بين الفريقين حرب عظيمة، وفي سنة 314هـ / 926م دارت وقائع كثيرة بين عبد الله والي تاهرت من قبل اخيه محمد بن خنزر ومعه قبيلة للماية وما جاورها من القبائل وبين جيوش عبيد الله المهدي وفي سنة 315هـ / 927م فتح ابو القاسم الفاطمي بلد مزاتة ومطماطة وهوارة وسائر الاباضية والصفرية ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الاوسط الى ما وراءها<sup>(2)</sup>.

وفي سنة 316هـ / 928م حاصر ابو القاسم الفاطمي حصن برقجانة — تاهرت القديمة — ونقب السور على اهله حتى سقط «وهلك ممن كان تحته وفوقه عدد كثير فلما نظروا الى الغلبة احرقوا الامتعة وعرقبوا الدواب والمواشي وقتلوا الشيعة حتى قتلوا واسروا منهم من استأسر واتهب ما في الحصن»<sup>(3)</sup> وفي سنة 336هـ / 947م توجه الفاطمي يرافقه زيري بن مناد وجموع صنهاجة الى تاهرت، فحاربوا قبيلة لواتة فهرب اللواتيون الى الجبال وفي سنة 347هـ / 958م خرج جوهر الصقلي الى المغرب فقبض على يعلى بن محمد الهفري صاحب افكان فناشته سيوف كتامة واسر ابنه يدو.

ولم يكن سكان المغرب الاوسط اهدأ بالا في العهد الزيري، ففي سنة 379هـ / 989م زحف المنصور الزيري الى تيهرت فدخل عسكره المدينة «فنهوا وقتلوا»<sup>(4)</sup> وهناك حروب خاضها عامل افريقية يوسف بن ابي محمد حين خرج

(1) نفس المصدر: ج. 1. ص: 166.

(2) ابن خلدون: المعبر ج. 4. ص: 82.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق ج. 1. ص: 193.

يجبي الاموال ويأخذ الهدايا فكان اهل الحاضرة معه في امن وعافية واهل البادية في عذاب وغرامة<sup>(1)</sup> وفي سنة 383هـ / 993م تعرض بنو يفرن بقيادة يدو بن يعلى لهجوم مغراوى بقيادة زيرى بن عطية انتهى بانتصار هذا الاخير فسيى حرمه، واستلحلم من قومه زهاء ثلاثة آلاف قارس<sup>(2)</sup> هذا، الى جانب حروب حماد بن بلكين ضد زيرى بن عطية ثم ضد ابنه المعز بن زيرى من بعده.

وعلى اية حال، فان هذه الفتن والحروب وغيرها قد عادت بعواقب وخيمة على البلاد من نواحي اقتصادية واجتماعية وغيرها، بغض النظر عن دوافعها، والتي هي في مجملها تمثل صراع البدو والحضر، وصراع البدو ضد الخضوع للسلطة المتمثلة في دفع الضرائب، فاذا امعنا النظر في هذه الفتن نجد انها موجهة في اغلبها ضد قبائل زناتة، مثل قبائل تاهرت ونواحيها وظواعن مغراوة وغيرها، والارجح ان رفضهم الخضوع هذا يعنى رفضهم دفع ما يفرض عليهم من جبايات وضرائب، اذ علينا ان نتذكر أن كتمانة كانت ترفض دفعها كما تقدم، وربما ان تحالف صنهاجة مع الفاطميين قد اعفاها من دفعها أو على الاقل خفف عنها، لهذا كان على زناتة ان تتحمل القسط الاعظم منها، ونظرا لانها قبائل بدوية في الغالب، فقد كانت تأبى دفع الضرائب لانها ترى فيها الذل والخنوع وهذا ما تأنفه.

واذا كانت عملية الجباية في المدن سهلة، بحكم سهولة تحديدها على التاجر أو الصانع، فانها عكس ذلك في الارياف، من جهة ثانية، فاذا كانت التجارة والصناعة في حقيقتهم لاتعدان انتاجا فان الزراعة هي الباب الوحيد للانتاج الحقيقي، ومن هنا وقع تركيز الفاطميين على الارياف واهل البادية.

#### القمح:

يذكر ابن ابي زرع انه كانت ببلاد المدوة — المغرب والاندلس — قحوط كثيرة عظيمة فنضبت المياه، ولم يزل القمح يتوالى من سنة 253هـ / 867م

(1) نفس المصدر: ج. 1. ص: 245.  
(2) ابن خلدون: المعر. ج. 4. ص: 43.

— 265 هـ / 878 م بل ان ابن عذاري يذكر ان القحط كان ايضا في سنة 266 هـ / 879 م<sup>(1)</sup> ثم حلت مجاعة اخرى سنة 285 هـ / 898 م حتى اكل الناس بعضهم بعضا، وفي سنة 303 هـ / 916 م كانت في البلاد «مجاعة عظيمة شبت بمجاعة عام ستين ومائتين، بلغت فيها الحاجة مبلغا لاعهد لهم مثله»، وتكررت مثل هذه المجاعة الناجمة عن القحط سنة 307 هـ / 919 م، ثم لحقت بالبلاد شدة عظيمة سنة 395 هـ / 1004 م كانت من الفظاعة حتى «انكشف فيها الستور وهلك الفقير وعمدت الاقوات وجلا اهل البادية عن أوطانهم وخلت أكثر المنازل» وكان الناس يوقدون ابواب بيوتهم وخشب سفوفهم، بل ان ابن عذاري ينقل عن ابي اسحق الرقيق ان اهل البادية اكلوا بعضهم بعضا<sup>(2)</sup>.

**الابوة:**

ويذكر ابن ابي زرع انه قد رافق سنوات القحط من 253 هـ / 265 هـ وباء عظيم فمات فيها خلق كثير<sup>(3)</sup>، «كما اعقب سنة 285 هـ / 898 م وباء» «ومرض وموت كثير هلك فيها من الناس ما لا يحصى فكان يدفن في القبر الواحد اعداد من الموتى لكثرتهم حتى انهم كانوا يدفنون دون غسل ولا صلاة»، وفي سنة 303 هـ / 916 م وقع الموت في الناس حتى عجزوا عن دفع موانعهم، فأشار ابن عذاري الى وقوع وباء كثير في هذا العام مات بسببه عدد كثير من الناس، ومثل هذا تكرر في سنة 307 هـ / 919 م، فكان فيها طاعون شديد، ولا شك انه ذهب ضحيته عدد كبير من الموتى، ثم شهدت البلاد في سنة 317 هـ / 929 م على الاقل الاجزاء الشرقية منها «وباء عظيما» وانتشر الوباء مرة اخرى 344 هـ / 955 م وكان دون ريب لا يقل وطأة عما تقدم من الابوة، وكانت مثل هذه منتشرة بمدينة تنس حتى اشتهرت عند الرحالة والمؤرخين بانها «وبية» ولم يتعرض ابن عذاري الى كوارث حتى سنة 395 هـ / 1005 م، حيث يشير الى اصابة افريقية بشدة عظيمة صحبها وباء طاعون هلك فيه أكثر الناس،

(1) ابن عذاري: البيان، ج. 1، ص: 117. السلاوي: الاستقصاء ج. 1، ص: 164. ابن ابي زرع: روض الفرج، ص: 65.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق ج. 1، ص: 257.

(3) ابن ابي زرع: المصدر السابق ص: 60. السلاوي: المصدر السابق ج. 1، ص: 164.

فلا ترى أحدا إلا في علاج أو عيادة مريض أو تجهيز ميت أو تشييع جنازة، وكانت المائة من هذه الجنائز تدفن في اخدود واحد ولم يخطيء الموت احدا من طبقات الناس، فمات من جراء الشدة والوباء «من طبقات الناس اهل العلم والتجارة والنساء والصبيان مالا يحصى عددهم الا خالقهم تعالى»<sup>(1)</sup>.

### الحرائق:

وقعت في بلاد المغرب الاوسط حرائق كانت خسائرها فادحة، وخاصة في القرن الرابع الهجري لما شهده من حروب، من ذلك ان عبيد الله المهدي تجول في بلاد البربر سنة 298هـ / 911م فحارب صدينة وزناتة وأحرق بعض المدن بالنار وحين دخلت جنوده تاهرت سنة 299هـ / 912م «حرقوا المدينة بالنار»<sup>(2)</sup> كما ان المنصور الفاطمي توجه الى تاهرت بعدما انتصر على ابي يزيد غلغل بن كيداد «واحرقها بالنار واحرق منبر جامعها»<sup>(3)</sup>، وكان قبل ذلك قد احرق اخصاصا لأبي يزيد المذكور اعلاه، ويذكر ابن عذاري «احرق ابن ابي العافية بسيف جراوة» ابن ابي العيش.

### الفيضانات:

اذا كانت السماء تبخل في بعض السنين بمائها فيكون القحط، فانها كانت تجود في سنين اخرى، فتهطل الامطار الغزيرة التي تسبب الفيضانات وما ينجر عنها من تهديم للجسور والقناطر واغراق بعض المساكن وتهديمها، واتلاف المزارع وتكون عواقبها أوخم على سكان المنازل البسيطة كأصحاب الحيام وما أكثرهم وأصحاب المنازل الطينية، ومن هذه الامطار تلك التي هطلت على ابي القاسم الفاطمي وفرضت عليه الاقامة شهرا متواصلا في سوق ابراهيم سنة 315هـ / 997م، هذا الى جانب العواصف العاتية.

(1) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 256. 257.

(2) نفس المصدر: ج. 1. ص: 201.

(3) ابن حماد: اخبار ملوك بني عبيد. ص: 45.

## الزلازل:

كانت الزلازل تحدث من حين الى آخر، ففي سنة 267هـ / 880م تعرضت البلاد الى «زلزلة عظيمة ما سمع الناس مثلها ولا قبلها» فهدمت منها القصور وانغطت منها الصخور والجبال فهرب الناس الى البرية من شدة اضطراب الارض وتساقط السقوف والحيطان والدور دون ان تخلف موى.

## الفلاء:

كانت هذه الازمات والجوائح تترك اثرا على الانتاج الفلاحي، عصب الحياة الاقتصادية، فيعم الفلاء وترتفع الاسعار فقد رافق القحط الذي وقع سنة 253هـ / 265هـ «غلاء السمر وانعدام الاقوات» وبسبب القحط سنة 303هـ ارتفعت الاسعار حتى وصل مد القمح ثلاثة دنانير<sup>(1)</sup>، وعقب القحط سنة 317هـ / 929م، حدث «غلاء السمر فبلغ قمير القمح بالكيل القرطبي مثقال ذهب» وعلى اثر القحط سنة 395هـ / 1004م ارتفعت الاسعار ايضا حتى كانت الرمانة بدرهمين للمريض في ذلك الوقت والفروج بثلاثين درهما<sup>(2)</sup> وكانت الحرب تؤثر في الاسعار ايضا من ذلك انها ارتفعت اثناء حصار المنصور الفاطمي لابي يزيد مخلد بن كيداد حيث «بلغت — الجرة ربما الخبزة — ثلاثة دراهم وشربة ماء كذلك»<sup>(3)</sup>.

## الانخفاضات المذهبية وأثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية فيها:

كان سكان بلاد المغرب الاوسط، نسيج غير متجانس، فهناك الاغنياء ويقابلهم الفقراء، وهناك طبقة عليا يقابلها طبقة سفلى، وهناك حضر ويقابلهم بدو، فنشأ عن هذا التضاد تدمير وتخلل اجتماعي اقتصادي، فالطبقة العليا تحاول

(1) ابن الي زرع: روض القرطاس. ص: 61. السلاوي: الاستقصاء ج. 1. ص: 174. ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 173.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق ج. 1. ص: 257.

(3) ابن حماد: اخبار ملوك بني عبيد. ص: 39. ان كلمة الجرة غير منسجمة مع النص كيف يكون ثمن الجرة ماء مساويا ثمن شربة فالارجح انها الخبزة.

تحافظ على موقعها على حساب الطبقة السفلى، وهذه الطبقة الأخيرة تحاول ان ترفع من مكانتها الاجتماعية، والاغنياء يحاولون بدورهم ان يحافظوا على ثرائهم على حساب الفقراء وهؤلاء يحاولون رفع مستواهم، وهذا بقدر ما يستطيعون انتزاعه من الاغنياء، ثم هناك من يعيش في رفاهية وتفتن في معيشته وهم الحضر وآخرون يعيشون على الكفاف ينظرون اليهم شزرا وهم البدو ومن هذا وذاك كان لابد ان ينشأ عن ذلك التذمر والتحمل، الذي كان يتخذ اشكالا متعددة، ويصطبغ بصبغات مختلفة، كاعلان الثورة وشن الحروب والقيام بغزوات للسلب والنهب، وهذا طابع عنف، أو يكون الانتهاء الى المعارضة المذهبية فتأخذ طابعا دينيا.

وكانت الحركات الاجتماعية في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، موجهة أساسا ضد الخلافة ومثلها في بلاد المغرب الاسلامي واتخذت طابع الانفصال والاستقلال، فاعتنقوا منطقة تاهرت المذهب الاباضي واحتضانها عبد الرحمن بن رستم واقامتها الدولة الرستمية، تدخل في هذا الاطار، ومثلها كان قيام الامارات العلوية، في المغرب الاوسط ودولة بني مدرار في سجلماسة ودولة الادراسة في المغرب الاقصى.

فيخصوص اهل منطقة تاهرت، تظهر الدوافع الاقتصادية والاجتماعية وراء حركاتهم في حاجتهم الى امام وحسب قولهم «نرجع اليه في احكامنا وينصف مظلومنا من ظالمنا ويقيم لنا صلواتنا ونؤدي اليه زكأتنا ويقسم فينا(1)» وتؤكد نظرتهم الاجتماعية والاقتصادية في تعطشهم الى العدل، واشترطه على من يولونه امورهم، حتى قال احدهم بشأن اختيار عبد الرحمن بن رستم، «فان عدل فذاك الذي اردتم وان سار فيكم بغير عدل عزتموه(2)».

وبالفعل، فقد سار فيهم الامام عبد الرحمن سيرة حسنة، فجلس في مسجده «للأرملة والضعيف ولا يخاف في الله لومة لائم» ثم أخذ يجبي الأموال من مواردها الشرعية فيضعها حسبما يقتضيه الشرع، واعتمد مبدأ الشورى

(1) ابن الصغير: تاريخ الامة ص: 321.

(2) نفس المكان. وعن عبد الرحمن بن رستم انظر: ابو زكريا: سيرة الائمة واعبارهم ص: 53. 56. الشماخي: السيرة. ورقة 144. 145. الدررجمي: طبقات ج. 1. ص: 44. 46. الزركلي: الاعلام مادة عبد الرحمن بن رستم ابن غلدون العبر: ج. 6. ص: 246. 225. محمد ناويت: دولة الرستميين صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد. 1957. ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 197. البكري: المغرب ص: 66. 68.

فكان يستشير وجوه الناس في كل مسألة تعرض أمامه، واعتمد على رجال أكفاء ساعدوه على انتاج سياسة العدل، فكان قضائه مختارين وأصحاب شرطته والطاقون به قائمون بما يجب وأهل الصدقة على صدقاتهم لا يظلمون ولا يظلمون<sup>(1)</sup>.

وبفضل هذه السياسة، قوى الضعيف وانتعش الفقير، وخافهم جميع من اتصل به خبرهم وأمنوا ممن كان يرجوهم من عدوهم. وهكذا نال الامام عبد الرحمن رضى الجميع، فكانت الكلمة واحدة والدعوة مجتمعة ولا خارج يخرج عليه ولا طاعن يطعن عليه<sup>(2)</sup>، ألا أن من جاء بعده قد حاد عن طريقه، فبدأت تظهر حركات اجتماعية.

انتفاضة النكارية<sup>(3)</sup>: تنسب هذه الحركة الى الجماعة التي انكرت امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، بزعامه يزيد بن قندين من قبيلة يفرن، من اعظم بطون زناتة وكان انتهاؤها للمذهب الاباضي عنوان تدمرها الاجتماعي والاقتصادي، ولئن اتاحت فترة حكم الامام عبد الرحمن لهذه القبيلة ان تحصل على بعض المكاسب التي تخفف من حدة ذلك التذمر الا انها كانت فترة قصيرة من جهة، اخذت منعرجا في عهد الامام عبد الوهاب.

ذلك ان هذا الامام اظهر خروجاً عن مبادئ المذهب الاباضي، فنزع ثوب المثالية وأظهر نكاليه على السلطة دون اعتبار للوسيلة، فجعل الحكم وراثياً<sup>(4)</sup>، ولتحقيق مآربه اعتمد على جماعة مثل نفوسة والمعجم دون اخرى مثل يفرن ولماية وغيرها حتى أن ابن قندين وجماعته اتهموه قائلين: «انه يحلي بعض الناس علينا وولاهم الامور دوننا ونحن اولى بالامور من ولآء»<sup>(5)</sup>.

(1) ابن الصغير: المصدر السابق. ص: 327.

(2) نفس المكان.

(3) اطلق على هذه الجماعة ايضا: النجوة، الشعبية، الملمدة، النكاث، انظر: أبو زكريا: سورة. ص: 60. وعن انقسامات الاباضية انظر: T. Lewcki: Les Subdivisions de L'Ibadiyya. S.I. 9. 1958.

(4) عن الامام عبد الوهاب انظر: أبو زكريا: نفس المصدر: ص: 54 ابن الصغير: سير الأئمة ص: 327. 333. جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرسنية ص: 45 — 46.

(5) أبو زكريا: المكان السابق. محمود اسماعيل: الخوارج في المغرب الاسلامي ص: 117. الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 51.

هذه المحابة تعني بالنسبة لقبيلة يفرن حرمانها من المناصب الادارية والامتيازات التي ستنتفع بها جماعات اخرى، كان يراعي عبد الوهاب ان يكون هؤلاء ممن ليست لهم رغبة في الولاية.

كان سلوك الامام عبد الوهاب هذا، نخبيا لآمال اليفرنين إذ كان يعني ابعاد كل من كان يلى منصبا هاما منهم، وهم الذين باتوا يرجون فيه ان يؤثرهم في الامور بحكم علاقة النسب، هذه العلاقة التي جعلتهم يوافقون على مبايعته، ويؤكد ابو زكريا على النقطة التي كانوا يركزون اهتمامهم عليها، فذكر انهم «طمعوا فيه ان يؤثرهم على غيرهم»<sup>(1)</sup> وما الايثار في نظرهم الا تحقيق مكاسب اقتصادية واجتماعية.

واذا كان ما سبق ذكره يصدق على يفرن المدينة فان يفرن البادية، عارضت الامام عبد الوهاب باعتبارها تمثل البدو بينما هو يمثل مجتمع المدينة، وعند ابن خلدون، فان جميع حوادث المجتمع هي ثمرة تضاد البدو والحضر، وهي ناتجة عن الهوة الاقتصادية والاجتماعية التي تفصل بينهما.

فكان ان تحالف اليفرنين، فأخذوا يسرحون ويمرحون بين منازلهم في المدينة ومنازلهم في البادية، ثم انضمت قبائل اخرى معارضة نلامام مثل قبيلة مزاة وقبيلة سدراتة وكانت هاتان القبيلتان كيفرن تنقسمان الى بدويين وحضرين، فكان البدويون منهم «يتجمعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في اشهر الربيع الى مدينة تاهرت واحوازها وكانوا اذا اتجمعوا دخل وجوهم ورؤ ساؤهم المدينة فيكرمون ثم يفرجون الى شياهم ويعبرهم فيقيمون بها الى طعنهم»<sup>(2)</sup>، فهم في اختلافهم مع الامام كاختلاف بني يفرن معه.

اما الحضريون من هذه القبائل، فرمما كان شأنهم شأن حضر يفرن، حيث خيب الامام آمالهم، الا ان دوافع اختلافهم معه الاجتماعية والاقتصادية تتضح في شكواهم التالية لآخوانهم البدويين، فذكر ابن الصغير انه «لما خلا كل قبيلة

(1) ابو زكريا: نفس المكان.

(2) ابن الصغير: المصدر السابق. ص: 328.



من سكان المدينة بمن انتجع اليهم من رؤسائهم فقالوا لهم: ان الامور قد تغيرت والاحوال قد تبدلت قاضينا جائر وصاحب بيت مالنا خائن وصاحب شرطتنا فاسق وامامنا لا يغير من ذلك شيئا(1) وكانت شكواهم هذه من القاضي وصاحب بيت المال وصاحب الشرطة، الذين لهم علاقة بوضعهم الاجتماعي مسألة جوهرية، حتى حلفوا الا يدخلوا المدينة أو يعزل ما سألوه عزله ويحاكموا عبد الوهاب ومن معه(2).

وهكذا فما قيل عن الاسباب والدوافع التي أوجدت الشقاق بين يزيد بن فندين والامام عبد الوهاب سياسية أو مذهبية، فلا يمكن اغفال الدوافع الاقتصادية والاجتماعية، وقد حاول النكار معالجة الموضوع بالاسلوب السلمي فأمتنعوا عن مبايعته في بداية الامر، ثم بدأوا يطعنون في اهلية عبد الوهاب وكفاءته بالامامة، فأناروا موضوع اشراك جماعة معلومة مع الامام في اتخاذ القرارات، وعدم جواز تولية الامام وفي جماعة المسلمين من هو اعلم منه ثم وافقوا الامام على تحكيم الربيع بن حبيب(3)، بل اتهم عادوا وبايعوا عبد الوهاب وأقروا له بالامامة، ربما أملين ان ينالوا مكافأة على موقفهم الجديد، ويظهر هذا في قولهم: ونحن اولى بالامور ممن ولّاه على الناس انه انما كانت ولايته على ايدينا(4).

فشلت السياسة في التوفيق بين الطرفين، وقد لعب اصحاب الامتيازات دورا في عرقلة الحل، ومنهم وجوه رجال الامام وقواده واهل بطائنه، وكما يقال تقوم الحرب عندما تفشل السياسة ولهذا كان على السيف ان يقول كلمته(5)، لكنها لم تكن الفاصلة، اذ وان انتصر الامام وقتل ابن فندين، فانه لم يقض على اسباب الانتفاضة بل ازداد الامر تدهورا لان الحزازات والضغائن بقيت في قلوب عشائر من قتل.

(1) نفس المصدر: من: 328 — 339. وأضاف انهم طلبوا منهم الدخول على الامام ليطالبوا عزل المذكورين اعلاه.

(2) ابن الصغور: تاريخ الائمة من: 330. محمد بن عميرة: دور زنادة من: 120.

(3) عنه انظر: الشماخي: السير من: 102 — 103. اللرجيني: طبقات ج. 2. من: 213. 242. 278. 271.

(4) ابو زكريا: كتاب سير الائمة من: 56.

(5) عن سير المعركة انظر: نفس المصدر. من: 63.

ويعود النكار ثانية الى الظهور منتفضين بقيادة ابي يزيد محمد بن كيداد، وكانت انتفاضتهم هذه نتيجة حتمية للتذمر الاجتماعي والاقتصادي الذي خلقته السياسة المالية الفاطمية في بلاد المغرب، فقد رأى الناس ان الفاطميين اثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة التي كانوا بحاجة ماسة اليها.

فكان امام الفاطميين مسيرة طويلة وشاقة لتحقيق هدفهم الاساسي المتمثل في الخلافة الاسلامية، وان الاموال اللازمة لتغطية هذه الحملات، كان على الفاطميين جمعها من غير الكتاميين، لان هؤلاء كانوا يرفضون دفع مثل هذه المغارم والضرائب، وينضح هذا في قول المعز الفاطمي لهم: «بالأخواننا قد رأينا ان نفذ رجالا من قبلنا الى بلدان كتامة بقبمون بينهم ويأخذون صدقاتهم ومراعهم ويحفظونها علينا في بلادهم، فاذا احببنا اليها انفقنا خلفها فأستعنا بها على ما نحن في سبيله<sup>(1)</sup>» وهذه العبارة تدل عن عدم وجود جياة للفاطميين في بلاد كتامة كما سبق.

ولا ندري فلعل صنهاجة قد حذت حذوها باعلان زيري بن مناد تأييده للفاطميين، وهكذا يمكن القول ان الاموال اللازمة لتحقيق الاستراتيجية الفاطمية<sup>(2)</sup>، قد فرضت على قبائل البتر بصفة خاصة، مثلما سبق ذكره فولدت التذمر عند الناس، وكانت انتفاضة ابي يزيد هي التعبير العملي عن هذا التذمر، وتعمد جنوده الى أوائل ايام الدولة الفاطمية حيث انطلقت ايادي كتامة بالنهب والسلب ولم يراع الفاطميون تدهور الحالة الاقتصادية احيانا فجمعوا العشور

(1) وكان ردهم اواله لافعلنا هذا كيف تؤدي كتامة الجزية ويصير عليها في الديوان ضريبة انظر المقرري: اعطاء الخفاء ج. 1 ص: 98 لقبال موسى: المعز لدين الله وجبل جديد من كتامة مجلة الامالة ع. 30. 29. 30. ص: 39. 40.  
(2) تتضح هذه الاستراتيجية فيما قاله الشاعر سعنون الوريحي في مدح الخليفة عبيد الله المهدي: (من البحر الكامل).

هذا الامر الفاطمي ومن به  
والشرق ليس لشاه وعراقه  
انتظر: القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص: 255. كذلك حرص المعز على استبقاء ما حازه من ملك المغرب بافريقية وما اليها الى حواز تلمسان الى صقلية ليكون له رديا ولكه بالشرق عدلا، انتظر: ابن الخطيب: المغرب. ص: 61. اضف الى الهدف البعيد هدفا قريبا يتمثل في انتزاع قبائل بلاد المغرب ونسيير الحملات الى المشرق.

على اساس نصف مجموع اعلى عشور واقله، ثم فرضوا ضريبة «التضييع» سنة 305هـ / 917م، وزاد الحالة سوءا الجور الشامل من الشيعة والتعليل على اموال الناس في كل جهة<sup>(1)</sup> اي فرض ضرائب جديدة تحت اسماء وذرائع جديدة.

فكان من البواكير السيئة لهذه السياسة قيام جبل اوراس نقطة انطلاق حركة ابي يزيد بقتل ابي معلوم فحلون الكتامي من قواد عبيد الله المهدي «وكان قد اخرجوه الى هذا الجبل فكلف اهله فوق وسعهم<sup>(2)</sup>»، ومن المرجح انهم سألوه التخفيف قبل ان يقدموا على قتله.

وبخصوص سنة 313هـ / 925م ذكر ابن عذارى ان المهدي ابتداء ببناء مدينة المسيلة في وسط ارض بني برزال وبني كهلان — كملان — على قرب من هواره<sup>(3)</sup>، واذا كان البكري قد ذكر ان عبد الرحمن بن رستم قد اتفق مع اصحاب الارض التي اقام عليها مدينة تاهرت على دفع ثمن ارضهم من خراج الاسواق، فان ابن عذارى لم يشر الى مثل هذا الاتفاق بين المهدي وأصحاب الارض، والارجح انه اغتصبها اغتصابا، ذلك ان ابن خلدون يذكر مرور في القاسم القاطمي «بمكان بلد المسيلة وبها بنو كملان من هواره وكان يتوقع منهم الفتنة فقلعهم الى فج القيروان ولما نقلهم امر ببناء المسيلة في بلدهم<sup>(4)</sup>»، ويتضح من هذه العبارة ان بني كملان كانوا يضمرون التذمر قبل تهجيرهم، وان تهجيرهم هذا سابق لبناء المدينة.

ويظهر ان امر ابي القاسم شمل بني برزال الى جانب بني كملان فان ابن عذارى يشير الى بناء مدينة المسيلة في وسط ارض بني برزال وبني كهلان (كملان).

---

(1) ابن عذارى: البيان ج. 1. ص: 181. وحول مصادر ثورة ابي يزيد انظر: احسان عباس: مصادر ثورة ابي يزيد. مجلة الاصلالة ع. 60. ص: 65 — 82.  
(2) نفس المصدر: ج. 1. ص: 187. حوادث سنة 301هـ.  
(3) ابن عذارى: البيان ج. 1. ص: 190.  
(4) ابن خلدون: المعبر. ج. 4. ص: 82.

وفي سنة 316هـ / 928م والسنة التي تليها كان هناك غلاء في الاسعار، دليل على قلة الانتاج وبالتالي على ضعف الحالة الاقتصادية حتى بلغ قفيز قمح بالكيل القرطبي مثقال ذهب<sup>(1)</sup>، وقد ربط ابن عذاري بين هذه الحالات ابتداء امر ابي يزيد.

ومن مظاهر ظلم السياسة الفاطمية المالية تقسيم الصدقات، فاذا كانت الآية القرآنية واضحة في هذا الموضوع فان القاضي النعمان يذكر ان الصدقات «لا يعطاها غير اهل الولاية» وهذا يعني حرمان مستحقها مالم يعتنق المذهب الشيعي، كذلك فقد اعتبر الفاطميون اموال القبائل المهزومة امامهم وهي بترية بمثابة اموال المشركين، اعني غنائم تخمس فذكر القاضي النعمان «ما جلب به اهل البغي من مال وسلاح وكراع ومتاع وحيوان وامة وقليل وكثير فهو فيء بخمس ويقسم كما تقسم غنائم المشركين» مثلما تقدم.

ولو توقف الامر عند هذا الحد، ربما لحف الوطأ، لكن الفاطميين يعطون كلمة «الغنيمة» مفهوما خاصا بهم كما سلف، وهذا يعني مقاسمة الفرد على ما كسبه في يومه بعرق جبينه، اضافة الى الاموال المفروضة عليه شرعية وغير شرعية، من مصادرة اموال، ومكوس، وجوال، واتباعهم أسلوب التقبيل أو الالتزام الى غير ذلك مما سبق ذكره.

وربما كانت هذه السياسة وراء ميل بعض القبائل الى الفتنة كما سبق ووراء استعدادها للخروج على السلطان بانتظار الشخصية الكفيلة بهذه المسئولية، ووراء اعتقاد ابي يزيد الخروج على السلطان واحتسابه على الناس في كثير من افعالهم وعلى جباة الاموال<sup>(2)</sup>، اذ ان موضوع الاحتساب وجباة الاموال مما له علاقة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية، فيكون هؤلاء قد اشتطوا في عملية جمع الاموال من مصادرها الشرعية وغير الشرعية، دون مراعاة لاحوال الناس المالية، ويكون بعض الناس كالتجار مثلا قد حاولوا استغلال هذه الازمة الاقتصادية بالاحتكار والتلاعب بالاسعار والغش، كل ذلك على مرأى ومسمع السلطان الفاطمي.

(1) ابن عذاري: المصدر السابق ج. 1. ص: 194.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق ج. 1 ص: 193 الجنحاني: العلاقات السياسية والاقتصادية بين افرقة المغرب الاوسط، جريدة الشعب 1979/2/10 الجزائر.

وكان أبو يزيد هو الشخصية المنتظرة فهو زناتي من بني يفرن، وكان على حال الخصاصة والفقر فكان أهل القيطون يصلونه بفضل أموالهم<sup>(1)</sup> وأكد ابن حماد فقرة فذكر أنه كان «في أول أمره يلبس خشين الصوف» وقد لاقى ما لاقاه من ظلم العمال، فحين اعتقل وإلى توزر أبا يزيد، ثم طالبه سرعان زناتة وأبو عمار الأعمى باطلاق سراحه وتعلل عليهم في الخراج.

وبما يدل على غلبة الطابع الاقتصادي الاجتماعي على حركة أبي يزيد، أن أتباعه كانوا من الفقراء ويظهر هذا في معرض ذكر ابن حماد مطاردة المنصور الفاطمي لأبي يزيد وجماعته، فقد أحرق المنصور «أخصاصا كثيرة لأصحاب أبي يزيد»<sup>(2)</sup>.

وتتحلى النزعة الاقتصادية عند هؤلاء الاتباع في تشبههم بالكتامين في عمليات السلب والنهب فهم حين دخلوا باغاية استباحوا قصورها، وحين دخلوا الأريس نهبوها وأحرقوها، وهو ما فعلوه حين دخلوا باجة فتذكر المصادر أنهم نهبوها وأحرقوها، وحين دخلوا القيروان أخذوا «يفتلون وينهبون» وحتى بعدما أعطى أبو يزيد الأمان «بقي طائفة من البربر اتباع أبي يزيد ينهبون حتى لم يبق في إفريقية موضع معمور ولا سقف مرفوع»، ويضيف ابن حماد أنهم «كانوا يشقون بطونهم» الفارين من المهدي أحيانا فتشا عن المال وتوهم أنهم ابتلعوه ويشقون بطون الخوالم<sup>(3)</sup>، كما كان أبو يزيد يبعث السرايا إلى كل ناحية فيغنمون ويعودون، ولم تكتم مزاة على سبيل المثال هدفها من الخروج مع أبي يزيد، فخاطبه أحدهم «إنما خرجنا معك نحن نشاركك في أكل هذه المية يريد بالمية الأموال التي كانوا ينهبونها»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن خلدون: المعرج. 4 ص: 27.  
 (2) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد. ص: 31 - 32.  
 (3) نفس المصدر: ص: 20 ابن الأثير: الكامل ج. 8. ص: 428. 425. 426. البكري: المغرب. ص: 57. المقرئ: تماظ ج. 1. ص: 76.  
 (4) الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 100.

كذلك فإن هؤلاء الاتباع، قد تفرقوا بعد حصار قسنطينة سنة 333هـ / 945م «في الغارات والنهب» وأضاف ابن الأثير بخصوص بعضهم أنهم كانوا يأتون إليه — إلى أبي يزيد — ينيهون ويقتلون ويرجعون إلى منازلهم فلما لم يبق ما ينهب توقفوا عن المجيء<sup>(1)</sup>.

وبذلك قد تكون هذه الحركة بطبيعتها سياسية مذهبية وتمثل عنصرية البتر ضد الفاطميين وبربر كنامة وصنهاجة، ألا أنه يمكن القول إن الدافع الاقتصادي الاجتماعي كان هو المحرك الفعلي لهذه الجموع، وهل ادل على ذلك من أن إصلاح أحوالهم كان يتوقف على إسقاط الخراج، فذكر صاحب كتاب «معالم الأيمان» أن المنصور الفاطمي «أسقط الخراج عن الرعية حتى صلحت أحوالهم»<sup>(2)</sup>، وهذا الدافع هو الذي ألف بين قبائل متنوعة ومذاهب مختلفة، فجمعهم على صعيد الثورة، لتحقيق مصلحة مشتركة أهمها رد الظلم الواقع عليهم، فذكر إحسان عباس نقلا عن كتاب «تثبيت دلائل النبوة» أن أبا يزيد «قد اتبعه الناس لأنه أزال الظلم والمكوس عنهم»<sup>(3)</sup>.

وبصفة عامة فقد «كان البربر يأتون إلى أبي يزيد من كل ناحية ينيهون ويقتلون ويرجعون إلى منازلهم»<sup>(4)</sup>، وأضاف ابن الأثير أنه اجتمع إلى أبي يزيد خلق عظيم من إفريقية والبربر ونفوسة والزاب وأقاصي المغرب<sup>(5)</sup> ويجمع لقبال موسى الاتباع بقوله «بخصوص الحركة هذه أنها كانت ميدانا مفضلا لرجال المذاهب المتصارعة ولرجال الحكم والسياسة ولفروع البرانس ولسائر الطموحين فكل فريق من هؤلاء وجد ضالته» حتى إن علماء السنة المالكين

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، ج. 8، ص: 429. القرطبي: المصدر السابق، ج. 1، ص: 79.

(2) الديباغ: معالم الأيمان، ج. 1، ص: 26.

(3) إحسان عباس: مصادر أبي يزيد، ص: 71 ثم انظر قلفرد: مادلونغ: ثورة أبي يزيد الخارجي جريدة الشعب الأحد والاثنين 11/8/1979. وعن ثورة أبي يزيد انظر: عماد الدين ادريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، تحقيق: محمد الهلالي، دار الغرب الاسلامي، 1985، ص: 264. وما يليها.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج. 8، ص: 429.

(5) نفس المصدر: ج. 8، ص: 428.

المالكين المتعصبين انضموا الى ابي يزيد<sup>(1)</sup> وهم يعلمون انه نكاري لانهم قالوا «هذا وان كان من الشراة فليس ينكر الربوبية ولا يكذب الرسل ولا يلعن الانبياء ومعه حفظ الاموال» ومن قولهم هذا يلاحظ انهم لم يهملوا الجانب المادي.

ولم تكن هذه القبائل على مذهب واحد، فكان منها النكارية مثل بني برزال ومزانة، ومنها الوهية مثل هوارة، مع ما بينها من تناقض وخلاف، حتى ان احد عزابة النكار يذكر ابا يزيد بالثار لابن قندين السالف الذكر فأنذره ابو يزيد الى ما بعد انتهاء القتال.

كما ان مذهب ابي يزيد نفسه لم يكن واضحا كل الوضوح، فهناك من اعتبره نكاريًا مثل ابن حماد وابن الاثير وغيرهما، بينما اعتبره القاضي عياض صغريًا، فيذكر بخصوصه انه «كان يظن رأي الصفرية» واعتبره جودر انه وجماعته ازارقة فذكر: «انهزم الفسقة الازارقة» يقصد ابا يزيد واتباعه امام المنصور الفاطمي وهذا ما يضعف دور الدافع المذهبي في هذه الحركة، الا بقدر ما يخدم الدافع الاقتصادي والاجتماعي، ويرى لقبال موسى أن تؤخذ هذه الاعتبارات على معناها وهو التشدد والتعصب ويسي المسلمين وقتل أطفالهم واستحلال حرمانهم واسترقاق حرائرهم شأن الازارقة، هذه الفرقة التي اندثرت آثارها قبل حركة أبي يزيد.

ولم يكتب لهذه الحركة النجاح اذ تمكن الفاطميون من اخمادها بعدما تركت آثارا اقتصادية واجتماعية على الطرفين المتصارمين.

### انقضاة الواصلية:

لم يذكر ابن الصغير حروب الواصلية بتأهرت، في حين أشار إليها المؤرخون الاباضيون<sup>(2)</sup>، وهؤلاء وان تغنوا بانتصارات الامام عبد الوهاب آلا أنهم اغفلوا ذكر الأسباب الحقيقية الكامنة وراء حروبهم، فيذكر أبو زكريا

(1) حول هذا التحالف انظر: لقبال موسى: «الحلف بين لعل السنة والنكارية في ق. 4 هجرية - 10م  
الاصالة 60. 61. ص: 55. 64.

أن هؤلاء الواصلية «حين احسوا ببعض الفرقة في الاباضية وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة... فتكاتفت كلمة الواصلية واجتمعوا من كل نقب وجازوا من كل أوب فأنحازوا عن تاهرت وأظهروا مخالفة الامام<sup>(1)</sup>، وتجنب ابو زكريا ذكر دوافع موقفهم هذا من الاباضية.

ثم يشير الى وفود مناظرات بين الواصلية والاباضية، وهي ما يمكن اعتبارها محادثات سياسية دون ان يشير الى فحواها، ربما لأن في ذكرها احراجا للامام، فذكر بخصوص معتزلي أنه «جرت بينه وبين الامام مناظرات كثيرة وكان شديد المعارضة حديد المعارضة» ويبدو أنه كان يفهم الامام حتى قال هذا الى مهدي النفوسي<sup>(2)</sup>، «أنه جرى بيني وبين هذا المعتزلي المنتحل للمناظرة وجوه أريد أن أعرضها عليك».

وظل مؤرخو الاباضية يتجنبون ذكر طبيعة هذه المناظرات، فذكر الدرجيني ان معتزليا واباضيا 'دخلوا في مناظرات لم يفقهها احد غير الامام، ثم دخلوا في وجوه لم يفقهها أحد ولا الامام<sup>(3)</sup>، ومن المرجح انها ليست في امور شرعية والا فكيف لا يفقهها الامام عبد الوهاب وهو امام المذهب، وهو الذي لم يستفد من قر اربعين جملا كتبها وصلته من المشرق الاسلامي الا مسألتين.

ولا يغيب على الاذهان ان المعتزلة لانجيز القتال الا اذا اتضح البغي<sup>(4)</sup>، فحربهم الامام اذن كانت بعد ما نبين لهم بغية، الذي كان جوهر المناظرات على الارجح وكان لسان حالهم يقول للامام، «ادعنا بعد ذلك تسخ نفوسنا بعونك، يبابك الف مظلمة اردد منها شيئا نعلم انك صادق<sup>(5)</sup>».

(1) نفس المكان: وحول الواصلية أو المعتزلة انظر: ابو القاسم البلخي: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة الدار التونسية للنشر 1393هـ / 1974م، هويدى يحيى: تاريخ الفلسفة الاسلامية مكتبة النهضة المصرية 1966.

(2) اباضى من جبل نفوسة، وفد على الامام عبد الوهاب لتجديده مع الواصلية، عنه انظر: نفس المكان الشماخي: السمر ص: 170 - 172. الدرجيني طبقات ج. 2. ص: 313 - 314.

(3) الدرجيني: المصدر السابق ج. 1. ص: 61. 62. ابو زكريا: المصدر السابق ص: 71.

(4) احمد امين: فجر الاسلام. ص: 291.

(5) هذا ما قاله عمرو بن عبيد من زعماء الواصلية لأبي جعفر المنصور انظر نفس المرجع ص: 301.



وتمثل بغى الامام في استيلائه على الامامة وجعلها وراثية وخروجه بذلك عن مبدأ اباضى يتفق ومذهب الواصلية ذلك ان هؤلاء يرون بانها حق لكل مسلم ويعترضون على حصرها في قریش<sup>(1)</sup> وهم في تاهرت يعترضون على حصرها في البيت الرسمى.

كما يرون — المعتزلة — الخروج على السلطان الجائر، ويمثل بغيه — الامام — كذلك في محاباته نفوسة والعجم كما سبق دونهم، وهكذا فان سر مخالفتهم الامام، يتعلق بحرمانهم من المناصب والامتيازات، وان البسوا الموضوع لباسا مذهبيا، الا انه يعالج موضوعا سياسيا له علاقة بمطامعهم.

ويظهر ان المعتزلة اخرجوا في موضوع الامامة، خاصة وانهم يتفقون والاباضية كما سلف وهذا سر تحالفهم مع النكار<sup>(2)</sup>، وسر اغفال مؤرخي الاباضية الافصاح عن جوهر المناظرات، وتحاشيم ذكرها والا لما كانوا يترددون لو كانت في صالح الامام.

ومن المستبعد ان يكون موضوع المناظرات خارجا عن هذا الاطار لان الواصلية اعراب بدو زناتيون لبسوا في مستوى استيعاب مبادئ المعتزلة وفلسفتهم العميقة، والارجح انهم اعتنقوا المبادئ التي نمس حياتهم اليومية مباشرة، مما يسهل فهمه، ومنها مبادئ الامامة والعدل ونحوها.

من جهة ثانية فان مجمع الواصلية في عهد الرستميين كان قريبا من تاهرت، وكان عددهم نحو ثلاثين الفا في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها<sup>(3)</sup> وهم في هذا يمثلون البداوة، في حين يمثل الامام واتباعه مجتمع المدينة كما سلف فكانت مخالفتهم الامام تدخل في اطار الصراع القائم في كل عهد بين البدو والحضر.

(1) عن اراء المعتزلة انظر: فخر الدين الرازى: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين من: 38. 39. 63.

(2) ابن ناوت: دولة الرستميين: ص: 114. الحبيب الجنتاني: تاهرت من: 44.

(3) البكري: المغرب. ص: 67 الحموي: معجم البلدان مادة «تاهرت» ج. 2. ص: 815.

وربما ان الامام اراد ان يسط سيطرته على الواصلية، ماداموا يقيمون في اطار الدولة الرسمية ويتجلى بسط السيطرة في استقبال جباة الامام، فربما ان الامام حاول ان يرسل جباة الهم، فرفضوا دفع المغارم، ذلك لانهم بدو غير مستقرين، وهؤلاء في العادة يرفضون دفع المغارم<sup>(1)</sup> طواعية، عكس المستقرين الذين هم على استعداد لدفع مثل هذه المغارم، فيكون من المحتمل ان وقع الخلاف بين الطرفين — الامام والواصلية — حول هذا الموضوع.

وبما تقدم، فسواء كان احتجاجهم على موقف عبد الوهاب من الامة أو بصفتهم بدوا زناتيين، فإن حركتهم تحمل طابعا اجتماعيا اقتصاديا بغض النظر عن الصورة التي ظهرت عليها أو الطابع الذي اتخذته قد عبرت عن تدمرهم الاقتصادي والاجتماعي باشكال مختلفة.

ويبدو أن تلك المناظرات لم تثمر، فأحتكم الطرفان الى السيف، فما كان من الامام إلا ان خرج اليهم بعساكر كثيرة فقاتلهم مرة بعد مرة حتى اعياء الامر وأظهر عجزه، فاستنجد بنفوسة الجبل، فذكر ابو زكريا ان الامام حين رأى ان حربه جد ارسل الى جبل نفوسة يستمدهم ان يعيشوا اليه جيشا نجيبا<sup>(2)</sup>.

وقد نجح الامام في نهاية المطاف في احراز انتصار على الواصلية، فان ابا زكريا يذكر انه فلما امن اهل العسكر — الاباضية — في قتل الواصلية واثخن وضعت الحرب أوزارها ولم يكذب يقلت من المعتزلة الا اليسير، ثم انقاد هؤلاء الى الرستميين، فظهر ميمون بن عبد الوهاب بعد ذلك على رأس الاباضية وامامهم وامام الصنفرية والواصلية<sup>(3)</sup> وهم وان لم تقم لهم قائمة بعد ذلك، الا انهم ربما اتساحوا في انتفاضة اخرى هي انتفاضة العامة.

(1) عن رفض زناتة دفع المغارم: انظر. ابن خلدون: المقدمة. ص: 142 وذكر ابو زكريا ان الواصلية قوم من البربر اكثرهم من قبائل زناتة، المصدر السابق ص: 67. ويفهم من هذا انهم متحالون مع غير زناتيين ربما صنهاجة.

(2) ابو زكريا: وبشر الى ان المعتزلة يرون الخروج على السلطان الحائر.

(3) البكري: المغرب ص: 67. ابن خلدون: العر ج. 6. ص: 248.

يشير بعض المؤرخين الى حروب خاضها الامام عبد الوهاب ضد هواره ويردونها الى خطبة مقدم هواره ابنة احد رؤساء البربر، ويستشف مما ذكره ابن الصغير ان الخلاف قائم قبل قيام الخطبة، بل ان هذه الخطبة نفسها كانت لمواجهة تحالف ضد الامام فأشار ابن الصغير الى قول رجل للامام عبد الوهاب: «انه اذا تم زواج الهواري من تلك البنت وقعت المصاهرة واذا وقعت المصاهرة صارت نسبة واذا انظمت — هكذا في الاصل — قبيلة الى قبيلة ناولك من في البلد» (1)، فيقترح على الامام للحيلولة دون وقوع هذه المصاهرة، وبالتالي هذا التحالف ان «اخطب الى هذا الرجل ابنته اما على نفسك أو على ابنك أو على من سوف يؤثرك عليه» (2).

ويستبعد ان يكون هذا السبب المباشر لهذه الحرب، بل انه كان السبب الذي اشعل الفتيل، أو العود الذي قصم ظهر العير — كما يقال — اذ ما كان هذا الموضوع ليأخذ هذا النهج وهذه الحدة، لولا ما كان يعتمل في النفوس من ضغائن واحقاد، ولاقتصر الامر على هواره، الا ان ابن الصغير يذكر انه «تألف اليهم الهواريين من نخا نحوهم وهوى هواهم» (3).

ولا يستبعد ان يكون نزاع هواره مع الامام عبد الوهاب لا يختلف عن نزاع يفرن معه، ذلك ان هواره تنتمي الى المذهب الاباضي، وقد لعبت دورا بارزا في مسيرته، حتى عدها الجنحائي دعاة أساسية في قيام الدولة الرستمية، وهذا يعني احساسها بهضم حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية، فانتمت الى هذا المذهب رغبة في استعادة تلك الحقوق الا ان استئثار الامام واتباعه من نفوسة والعجم غالبا كما سبق، خيب آمال هواره وحال دون تحقيق رغبتها شأن يفرن. فاذا كان الاستئثار هو سبب نزاع هواره المدينة مع الامام، فقد كانت هناك بعض قبائل هواره تسكن في بوادي تهرت قبلي المدينة فكان نزاعها مع

(1) ابن الصغير: تاريخ الائمة. من: 331.

(2) نفس المكان.

(3) نفس المكان. ربما كانوا من المعارضة الاخرى مثل الشكايرة والواصلية.

الامام يدخل في اطار النزاع بين البدو والحضر، فتحالفوا وتمصبوا لهواة المدينة — بني مسالة أو الاوس — وهكذا ارتحل هؤلاء نحو المغرب حتى نزل، رئيسهم بوادي هواره وبينه وبين المدينة نحو عشرة أميال أو أكثر فعبروا النهر من اعلاه الى موضع إذك قبائل جمعهم اسم هواره (1).

ولا نغفل ان الله جعل للفقراء حقوقا في اموال الاغنياء فاذا لم يؤدوها طواعية فقد حل للفقراء انتزاع حقوقهم بالطريقة التي يرونها، ويظهر ان هذا الامر هو سر الغارة التي قامت بها هواره على رجل من ابناء المدينة تبدو عليه مظاهر الثراء وربما كان من اتباع الامام، — فاستولوا — الهواريون على خاتمه دليلا على نظرهم المادية وتأكيدا لهذه النظرة فقد قال فيهم قوم المدينة انهم «استحلوا الاموال» (2).

فخاض الامام عبد الوهاب معهم حربا ضروسا حتى «قتل في ذلك اليوم خلق كثير وامم من الامم وكان القتل في هواره افضح واشنع» (3)، ويظهر من هذه العبارة «امم من الامم» تحالف هواره مع قبائل غيرها مهضومة حقوقها، وان انتصار الامام في هذه الحرب لا ينهي الازمة لانه لم يعالج أسبابها من جذورها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد بدأت سياسة الرستمين الاقتصادية تؤتي اكلها، فظهرت الثروة وحياة الرفاهية في مدينة تاهرت بدل عليها ما ذكره ابن الصغير بخصوص الامام اقلح، فقد ابنتى القصور واتخذ بابا من حديد وبنى الجفان وأطعم فيها وعمرت معه الدنيا وكثرت الاموال والمستغلات (4) كما سلف.

ويبدو ان هذا الوضع غمر الامام ومن دار في فلكه من أصحاب السلطة والامتيازات، فيذكر ابن الصغير ان الناس تنافسوا في البناء فبنوا القصور والضياع خارج المدينة، كما يشير الى وفرة الاموال في ايدي القبائل دون ان يذكرها، علما انه لا يفهم من هذا الشمولية والتعميم، فهو ربما اطلق

(1) ابن الصغير: المصدر السابق ص: 330 عمدة بن عميرة: دور زناتة ص: 120.

(2) نفس المصدر ص: 332.

(3) انظر عنها: ابو زكريا: كتاب سر الائمة ص: 67.

(4) ابن الصغير: تاريخ الائمة ص: 336.

الكل على الجزء اعني رؤساء هذه القبائل وكبار ملاكها، اذ هو يذكر في مكان آخر ان القبائل لما اكسبت الاموال واتخذت العبيد والخيول قد نالها من الكبير ما نال اهل المدينة(1) فاتخاذ العبيد والخيول لايقوى عليه عامة الافراد.

ويواصل ابن الصغير اشارته الى ثراء انصار الرستمين فيذكر ان العجم قد ابنتت القصور ثم يذكر ان نفوسة قد ابنتت العدو، وكانت تمتع بمكانة اجتماعية، ويبدو ان نفوذهم كان واسعا وكلمتهم فاصلة بشأن تعيين الامام(2).

على ان ما تقدم لايعني بالضرورة فقر المعارضة، بل نال هؤلاء الثراء وعاشوا حياة الرفاهية، فذكر ابن الصغير ثراء الجند القادمين من افريقية حتى بنوا المدينة العامرة، وثراء بعض القبائل وثراء بعض العرب، وبالجملة فقد «كلت الاموال حتى اطفئت اهل الخواجر والبوادي(3)».

هذا الثراء الفاحش يقابله في الجهة الاخرى، فقر مدقع في أوساط العامة، واذا كان ابن الصغير لم يشر اليه فقد دل عليه من خلال قيام نفوسة بانكار النكر في الاسواق، والاحتساب على الفساق كما سلف وظهر الفقراء في ولاية ابي حاتم سراقا وقطاع الطرق، كما ظهوروا حول محمد بن عرفة المذكور سالفا، يتلقطون صدقاته وهباته، فقد كان جوادا سمحا، وربما كانت هذه الصفة وراء ما أشار اليه ابن الصغير بخصوصه، من انه كان اذا «ركب من داره يريد ابا بكر الامام مشى بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره امم من الامم» مما كان يثير حفيظة الرستمين وغيرهم، وربما هؤلاء هم الذين عناهم ابن الصغير حين أورد دخول جثة ابن عرفة المدينة فأبتدر اليه العامة يطالبون بثأرهم، وكانت هذه العبارة تدل على وجود هذه الطبقة في عهد الامام ابي بكر، بينما كان أول ظهور مؤثر لها في أواخر عهد الامام ابي اليعقوبان

(1) نفس المصدر: ص: 337.

(2) هذا ما دعا عبد العزيز بن الأوز ان ينادي بأعلى صوته معلنا احتجاجه: «اللهم سألکم معاش نفوسہ اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو اقلی وارضى» انظر: نفس المصدر ص: 340.

(3) نفس المصدر: ص: 336.

اذ ذكر ابن الصغير انه لما مات ابو اليقظان قامت العوام واهل الحرف ومن لف لفهم فقدموا ابنه ابا حاتم بلا مشورة احد من الناس لامن القبائل ولا من غيرهم (1)، ويضيف انه «اجتمعت العوام والفرسان — ربما الفتيان — دون القبائل فتادوا لاطاعة لاحد الا لابي حاتم ثم ارسلوا الى القبائل فبايعته» ولكنه يكشف سر هذا الموقف من ابي حاتم وهو رستمي.

يظهر ان تحالف العامة مع ابي حاتم لانه كان قريبا منهم فذكر ابن الصغير بخصوصه انه كان يجمع الفتيان الى نفسه فيطعم ويكسو (2) ثم انه على ما يبدو لم يكن على وفاق مع الرستميين ويظهر هذا في تدمره «نازعني ابي كذا وحل على اخي بكذا» من جهة ثانية فقد كان المرشح للامامة اخاه يقظان باعتباراه الابن الاكبر وحتى لو خرجت الامامة عنه فهناك عدد من الاخوة منافسون لابي حاتم، فكانت الامامة بعيدة المثال، فوجد طريقه اليها بتحالفه مع العامة.

وقد رحب العامة بهذا التحالف من جهتهم، مادام ابو حاتم رستميا واباضيا موافقا لهم، مما يسكت القبائل والاباضية، ويظهر هذا في قول وجوه اهل المدينة، «ان الاباضية قد كلبت علينا وهم لا يكفون من حربنا ما لم يكن عندنا رائسي — رئيس — من الرستميين ينحل مذهب الاباضية» وربما لعوامل اخرى، كان يكون الرستمي الوحيد بينهم لا ينحاز لاحد مثلما كان الشأن بالنسبة للامام عبد الرحمن.

ان حمل العامة ابا حاتم وفرضه اماما، يعني اعلانهم مرحلة الكفاح المسلح من اجل احقاق حقوقهم، بعدما اصبحوا شريحة واسعة لا يستهان بها، رأت في نفسها القدرة على التغيير، وما يلفت النظر انها قامت بصفتها «العامة أو العوام» دون اي اعتبار آخر مذهبي أو قبلي أو عرقي ويتجلى الامر اكثر في اعلانها عن اهداف حركتها «انما قمنا لمحاربة هؤلاء القوم لنامر بالمعروف ونهي عن المنكر (3)»، وهذه العبارة تدل على غايتهم الاجتماعية والاقتصادية.

(1) ابن الصغير: نفس المصدر. ص: 356 — 357.

(2) نفس المصدر: ص: 358.

(3) ابن الصغير: تاريخ الاكنة. ص: 359. ويبدو ان نفوسه لم تحسن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بدليل ان ابا مرقاس من الطبقة الحامسة جاء دار الامام افلح فجعل يضرب فيها بالحجارة ويقول: بلة — لعنة — الله اليوم على من سكن هذه البلد — تاهرت — لتفصير اهلها في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر انظر الدرجيني: طبقات ج. 2. ص: 493.

ولكن كان على العامة الا تخضع باي حاتم، فهو ثري وريب اسرة حاكمة ثرية اقصد انه لا ينتمي الى طبقتهم وان تحالف معهم، ولهذا ما ان نال الامامة حتى قلب ظهر الجبن كما يقال وتكر لهم، فأُتُحَاز الى اسرته وحلفائها ضد العامة التي رفعت.

استنكرت العامة موقفه هذا، فقامت عليه، وكانت من القوة بحيث جعلته يدرك ان تاهرت ليست بدار قرار «فخرج قومه منزهين الى حصنهم فماليت في طرف لواتة البادية وخرج معهم العجم الى حصنهم وخرجت نفوسة كذلك، ثم تبعها ابو حاتم مع وجوه اهل البلد، في حين اقامت العامة ومشايخ البلد في المدينة في جمع عظيم<sup>(1)</sup>».

ويبدو ان الظروف لم تكن تسمح للعامة بتحقيق انتصار، وحسم الموقف، ذلك انهم محاصرون وان الرستميين ومن معهم مؤازرون بمن انضم اليهم من القبائل مثل لواتة، وان الثراء الرستمي بدأ يلعب دوره، فان ابا حاتم «اعطى الاموال وحمل على الخيل فأجتمعت قبائل الصحراء اليه<sup>(2)</sup>»، لهذا بدأت الدائرة تدور على اهل المدينة من العامة ومن معها، فأرتأى هؤلاء التحالف ثانية مع شخصية رستمية، كانت هذه المرة تمثل في يعقوب بن افلح، وقد عللوا ذلك بانه — يعقوب — مصارم لابن اخيه ابي حاتم منذ زمان وان ابا حاتم منذ ولي «ترحل يعقوب وتزل بزواغة فلم يدخل للرستمية جمعا ولا اعلان ابن اخيه<sup>(3)</sup>».

وهكذا تجددت الحرب بين العامة وحلفائها تحت قيادة يعقوب بن افلح من جهة وبين ابي حاتم وحلفائه من الرستميين وغيرهم من جهة ثانية، دون ان يحقق طرف الانتصار الحاسم على الطرف الآخر، فلم تتوقف الحرب الا عندما اعاد التاريخ نفسه فوقع التحكيم «فعدوا ان يرفعوا ايدي ابي حاتم ويد يعقوب عن النظر اربعة أشهر ويمشي الناس الى الناس ويدخل بعضهم على بعض وتأمين الساحات فتم العقد على ذلك<sup>(4)</sup>»، وبمعنى آخر تم عقد الصلح بين الطرفين، وحققت العامة بعض المكاسب.

(1) عن خروج الرستميين وحلفائهم من تاهرت انظر: نفس المصدر ص: 358. 359.

(2) نفس المصدر: ص: 359.

(3) نفس المصدر ص: 360.

(4) ابن الصغور: تاريخ الائمة ص: 361.

وعلى كل حال، انتهى الامر بتولية ابي حاتم الامامة ثانية ودخوله تاهرت، ويبدو انه حاول في امامته الثانية انتهاز سياسة توفيقية، فحين دخل المدينة جمع مشائخ البلد اباضيته و غير اباضيته للتشاور فعينوا على القضاء محمد بن عبد الله بن ابي الشيخ، بينما لم يقع الاجماع على صاحب الشرطة مما اضطره الى تعيين رجلين هما زكار وابراهيم بن مسكين.

وانتهت الدولة الرسمية ولم تحقق العامة اهدافها، لكنها اعلنت عن وجودها وغبرت عن مطامعها، واذا اهل المؤرخون ذكرها بعد ذلك كقوة متميزة فهذا لا يعني انها اختفت أو تلاشت بل الأرجح انها لجأت في كفاحها الى صور مختلفة، وربما كان منها استقبالها وترحيبها بالعبيدين فذكر ابو زكريا ان ابا عبد الله الشيعي حين وصل تاهرت «خرج اليه وجوه اهلها من الخالفين والشيعية والواصلية ومن بها من الصفرية وتلقوه وشكوا اليه الامارة ووعدوه العون من انفسهم على جميع الرستميين وامروهم باستئصال شافتهم وتوهين شوكتهم» (1)، معلقين آمالهم بهذا على الفاطميين

ثم قامت انتفاضة اخرى في الجناح الشرقي من بلاد المغرب الاوسط وبالتحديد في بلاد كتامة الذين كانوا يخضعون لرجال منهم، هم شيوخ قبائلهم، وهم يجمعون ما وجب عليهم من اموال من تلقاء انفسهم فيوزعونها على مستحقها وهم كثيرهم من القبائل، فأضاف وفد الحجاج السالف الذكر الى الشيعي ابي عبد الله «نحن نحارب بعضنا بعضا ثم نصطليح بعد القتل ويصالح القوم منا قوما ومحاربون آخرين كذا دأبنا» (2)، ويتبع هذه الحروب عادة عمليات سلب ونهب، وتقع القبائل الضعيفة تحت وطأة القبائل القوية.

ولم تفعل الحضارة فيهم فعلها، فظلوا قوما اشداء يهرب جانبهم، ويبدو انه لم يحاول احد قط الزحف اليهم، فحين سألهم الشيعي: فان دهمكم غيركم انجتمعون ؟ قالوا: مارام ذلك منا احد قط، وهم قوم محاربون، فحين سألهم

(1) ابو زكريا: سورة الامة ص: 112 الدرجيني: طبقات ج. 1. ص: 94.  
(2) الفاضلي التعمان: افتاح الدعوة، ص: 65 — 66.



«الشيعي» عن الخيل والسلاح، قالوا: ذلك أكثر كسبناوبه نفتخر، لحاجتنا اليه لما بيننا من حروب، وقد اثرت فيهم طبيعة بلادهم الجبلية.

كما ان انحراف الطرق الرئيسية — طريق الجادة — التي تخترق بلاد المغرب الاسلامي، قد جعلهم قوما منعزلين عن العلاقات العامة والتاثير الحضاري، فظلت نفوسهم خاضعة لتاثير البيئة الجبلية، محافظين على الطبيعة البدوية وربما كان هذا وراء وصف ابراهيم بن احمد بن الاغلب لهم بانهم «أوباش»، ووصف زيادة الله الثالث لهم «برابر أغتام وجهال طغام» ثم وصف المعز الفاطمي لهم كمغاربة بانهم «المهملج الرعاع»<sup>(1)</sup>.

واذا كان هذا هو وضعهم الاجتماعي، فان وضعهم الاقتصادي لا يحسدون عليه فأراضيهم جبلية كما سلف، ولم يشر الرحالة الى مشاركتهم في التجارة الدولية، بل ولا حتى في اطار المغرب الاسلامي بدليل عدم اشارتهم الى ممرات أو طرق تجارية تخترق بلادهم، فكانت الفلاحة عماد ثروتهم وحياتهم، وهذه مهما عظمت، لا توفر الاموال الطائلة ولا يدل وضعهم العمراني على وضع اقتصادي حسن، فلم يشر الرحالة الى وجود مدينة غير ما ذكرنا في اعماق بلادهم، فكانت سطيف مثلا في عهد الاصطخرى مدينة كبيرة لها كورة تشتمل على قرى وعمارة متصلة<sup>(2)</sup>، وهذه القرى لاتزيد عن اكواخ واطحاص.

في نفس الوقت كان كتاميون آخرون يسكنون المدن التي سلف ذكرها على مقربة منهم، وهؤلاء ولا شك احسن حالا من كتامة الجبال، فكانت قسنطينة تداني ميلة ونقاوس في حالها «لها سياه كثيرة واجنة عظيمة وبها جميع الفواكه كاللوز والجرز — الكرز — أو حب الملوك والكروم وزرعهم كثير»<sup>(3)</sup> وكانت مدينة سطيف كثيرة الخير تقارب ميلة والمسيلة، وكانت ميلة في عهد اليعقوبي «مدينة عظيمة جبلية عامرة وهذا البلد كله عامر كثير الاشجار والثمار».

(1) الجوزي: الاستاذ جودر. ص: 107. القاضي التعمان: المصدر السابق ص: 79 — 171.

(2) الاصطخرى: المسالك والممالك ص: 39.

(3) ابن حوقل: صورة الارض ص: 91. وعن هذه المدن انظر ابن حوقل: المصدر السابق ص: 91.

93. اليعقوبي: وصف ص: 11. البكري: المغرب ص: 63. 64.

وكان على هذه المدن امراء لديهم العدد والقوة في ايديهم الاموال الكثيرة<sup>(1)</sup>، ساعدتهم خصوبة اراضيها ووقوعها على الطريق — الرئيسي طريق الحجادة السابق الذكر — على احراز هذا الثراء، وبهذا يمكن ان نتخيل القصور في هذه المدن الى جانب البناء الحضري، ونتخيل الرفاهية والنعيم التي يعيشونها على الاقل بالنسبة لقبائل كتامة الضاربة في الجبال المجاورة.

ولا نغفل الاشارة الى وضعهم الحضاري، باعتبارهم سكان مدن، وقوعهم على طريق المارة، مما يسمح لهم ان يتفاعلوا مع غيرهم من المجتمعات، وهذه الحياة تؤثر في اسلوب حياتهم وفي نفسياتهم، فيميلون الى الراحة والدعة، ويتخلقون بالظرافة واللين، وتضعف فيهم روح الحمية والمدافعة.

ويرتبط بهذه المدن، طوائف من القبائل ممن قارب المدائن وعاشر اهلها واستألم امراؤها<sup>(2)</sup>، فهؤلاء بحكم هذا الارتباط وهذه الصلة، افضل حالا من سواهم من القبائل، لما يكسبونه من اموال المدينة ويتأثرهم بالحياة الحضارية فيها.

هذه نظرة ضيقة محدودة في بلاد كتامة، لكن اذا وقفنا على قمم جبالها، واجلنا ابصارنا في الافق تظهر دول غرقت في حياة الترف والنعيم فكثرت في ايدي الناس الاموال، والقوا حياة القصور والتفنن في الكمالي.

فهنالك القيروان التي يصفها الاصطخري بانها «اجل مدينة بارض المغرب خلا قرطبة»<sup>(3)</sup>، وكان على رأسها زيادة الله الثالث الذي كان مدعنا على الخلاعة والمجانة والفساد، وقشي عنه شرب الخمر فأظهر الغناء والمعازف وجمع اليه اهل اللهو والمختشين والمضحكين، في قصور رقادة. وفي الجهة الاخرى كانت تاهرت بترائها وانغماس اهلها في حياة الترف والقصور، وهي التي وصفها اليعقوبي بانها المدينة العظمى جليلة المقدار عظيمة الامر<sup>(4)</sup>، وهناك الامارات العلوية التي حقق لها العلويون ازدهارا، حتى وصف اليعقوبي مدينة تلمسان بانها «المدينة العظمى المشهورة بالمغرب»<sup>(5)</sup>.

(1) القاضي النعمان: المصدر السابق. ص: 94. 64. 65.

(2) القاضي النعمان: افتتاح. ص: 122.

(3) الاصطخري: المسالك ص: 39. اليعقوبي: صفة ص: 8.

(4) اليعقوبي: صفة ص: 13.

(5) نفس المصدر: ص: 14.

كان هناك اذن اختلال توازن اقتصادي حضاري في بلاد المغرب، تمثل كتابة الكفة المتخلفة الفقيرة، ولم تخضع لنظام دولة كغيرها، يقودها الى حياة التمدن والأزدهار، ولم يلج في افقهم احتمال قيام نظام من انظمة الحكم القائمة، بمحو الظلم ونشر العدل والمساواة، مع انها تحمل مذاهب وعقائد تدعو الى ذلك، لذلك كانت مهياة لأن تنهض الى هؤلاء المترفين في المدن المجاورة أولاً ثم الى المدن الأبعد ثانياً، فتشاطرهم ترفهم وترفع من مستواها الاقتصادي، لكن الشعور بالحرمان والنظر بعين الحسد والغيرة لا يكفي، اذ لابد من عصبية تجمعهم ومن شخصية تقودهم الى تحقيق النصر.

لكن الكتاميين كانوا جبليين، فهم اهل انفة وكبرياء، وهم وان كان يجمعهم اسم كتابة الا انهم يفترون قبائل وافخاذاً وبطوناً وبيوتات، مما يجعل امر المنافسة على الرئاسة بينهم قائماً، شأن قبائل تاهرت في بداية عهدها بالرستميين، ويجعل امر الانقياد لبعضهم البعض مسألة صعبة، وكانوا يفتنون الى الشخصية التي تقود دفة الثورة.

في هذه الظروف، حل بين ظهرانيهم ابو عبد الله الشيعي سنة 280هـ / 893 م<sup>(1)</sup>، يحمل دعوة تقوم على الدين وما يوجبه الحق، فبدأ يعمق فيهم الايمان فيحضرهم على المحبة والتعاون واطعام الطعام وصلات الأرحام، ويحضرهم على العدل والمساواة والامانة ونحو ذلك، وكان يلزم نفسه بما يلزمهم ويشرف بنفسه على معاقبة المنحرفين، وقد كان نفسه محتسباً يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ومبدأ تركيزه على الدين امر ضروري، فان كتابة ليست عصبية، إذ جمعتهما المصلحة على صعيد واحد، لكنها يمكن ان تكون كذلك بدعوة ذلك طابع ديني دعمها بإشاعة مسألة انتساب المهدي الى فاطمة بنت الرسول (ص).

كما ان الدين يمكن ان يكون مظهراً من مظاهر الصراع السياسي اي يتخذ ستاراً يخفي وراءه اهدافاً سياسية بصورة مذهبية، خاصة وان المجتمعات المتخلفة

(1) القاضي النعمان المصدر السابق: ص: 71. جعل ابن خلدون وصوله سنة 288هـ انظر: المرجع 4. ص: 32.

لاتعنيها كثيرا المبادئ بقدر المكاسب المحسوسة فماذا يعني كثامة في جبالها، إن تولى الامامة زيد أو عمرو كما يقال، كما ان الصراع السياسي ليس مقصودا لذاته بل لانه الوسيلة الى الصعود الى السلطة والمنصب، لما تدره من مكاسب ومغامر مادية(1)

كذلك اخذ الشيعي يث فيهم افكارا ومبادئ تتفق ومستواهم الاجتماعي ومطامعهم الاقتصادية، فركز على فكرة المهدي المنتظر، الذي سيظهر يوما فيملا الارض عدلا وخيرا، وعلى المهدي القريب، فقد وعدهم باللقمة الطرية التي في افواه أولئك المترفين، وذكر ابن عذارى ان الشيعي كان قد وعد قبل ذلك قواد كثامة ورجالها بان يؤكلهم القيروان ويسلط ايديهم فيها ويقطعهم جميع اموال أهلها(2).

فأقبل عليه الكتاميون من بني سكتان وغشمان ومسالته واجانة وغيرهم، فأزدادوا اقبالا حين راوا اتباعه مقبلين على الصلاة والصيام واعمال الخير وتجنب المعاصي وتورعهم عما كانوا يعرفون عليه من الفساد، فسار الناس اليه، ولم يكن انتسابه الى المشرق الاسلامي ليقف هذا الاقبال، فهم يرون على جميع رؤوس دول المغرب الاسلامي امراء من اصل مشرقي(3) ساسوها الى الامن والرخاء.

وقد اتسع انتشار حركته في أوساط الكتامين، فمنهم من رأى أنه يدعو الى الدين الحق فتبعه يطلب ثواب الله ومنهم من اراد الدين والدنيا، وآخر يبغي الفخر والشرف والرئاسة، وغيرهم اراد الكسب والفائدة، ومنهم حسدا ومنافسة أو خوفا وتقية أو مداراة(4) وواضح ان وراء كل اهدافهم هذه منفعة اقتصادية واجتماعية.

(1) احسان النص: العصبية 265 - 266.

(2) ابن عذارى: البيان ج. 1 ص: 150.

(3) كان الاغالبية في القيروان والرسنميون في تاهرت والعلويون في اماراتهم في المغرب الاوسط، والادارسة في المغرب الأقصى، والامويون في الأندلس.

(4) القاضي النعمان: افتتاح ص: 122.

ولا ادل على ذلك مما ذكره ابن عذاري، فحين انتصر الشيعي على ابراهيم الحبشي قائد زيادة الله سنة 292هـ / 904م «اشتغلت عنهم كثامة بالغنمة والاموال والسلاح والسروج واللجم وضروب الامتعة(1)» ودليل آخر يتمثل في قيامهم بالنهب والسلب إثر كل انتصار فقي وقعة القيروان سنة 299هـ / 912م، كانوا — كثامة — يسألون عبيد الله ان يطلق ايديهم على نهب القيروان، وكان يسوفهم في ذلك ويعلق اطماعهم به وهم يتحاملون على اهل القيروان وأرادوا نهب الحوانيت، فصاح أهل الاسواق: التفير(2) هذا بالاضافة الى انتهابهم القيروان وتاهرت وسجلماسة وغيرها من المدن التي دخلوها والجيش التي هزموها.

بل ان الكتامين حز في انفسهم الأمان الذي قدمه الشيعي لأهل القيروان، فذكر ابن عذاري انهم لما «سمعوا بأمنته للقوم ساءهم ذلك وكلموه فيه» وكان ابا المقارع كان ينطق بلسانهم حين خيره الشيعي بالمقام معه أو الانصراف فأجابه: «وكيف أختار المسير الى قوم قد ادبرت عنهم الدنيا وأدعك وهي مقبلة عليك(3)».

ويبدو ان أوائل المنتسبين الى حركة الشيعي كانوا من الطبقة الدنيا في المجتمع، مما دعا الامير ابراهيم بن احمد الأغلب السابغ الذكر أن يصفهم بالأوباش ودعا زيادة الله الثالث الى جمعهم بمنزلة «الحمر النافرة والأنعام السائمة» ويذكر لقبال موسى قول أبي زاكي في عروبة بن يوسف بأنه «ابن راعي البقر(4)».

على ان ما تقدم لايعني ان كافة كثامة بمختلف طبقاتها قد انضوت تحت لوائه، اذ بعدما يشير القاضي النعمان الى بسط الشيعي نفوذه على عامة كثامة والى ظهور دعوته في كل ناحية، يشير الى ان هناك من أصر على معارضته، ممن رأى في الشيعي خطرا على مكانته الاقتصادية والاجتماعية وهم رؤساء القبائل

(1) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 138. القاضي النعمان المصدر السابق ص: 159.

(2) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 166.

(3) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ص: 153.

(4) لقبال موسى: دور كثامة ص: 437.

وولاية البلدان (1) ومن انضم اليهم، وقد أوضح النعمان سبب معارضتهم حيث اشاع الى انهم خافوا ان تقوم حجته الشيعي فيستحكم امره، وتزول رئاستهم من ايديهم بسببه (2) هذا بالإضافة الى اسباب اخرى مثل الخدر من كل دعوة جديدة خاصة وان الشيعي لم يفصح عن سر دعوته، والى انهم الانقياد الى من كان اقل منهم مرتبة اجتماعية ثم علا شأنه لسبقه الى الحركة وغير ذلك، وهذه المعارضة تلقاها كل حركة ثورية ناشئة.

ولا يعني هنا الانتصارات العسكرية التي حققتها الحركة بقدر ما يعنيها المكاسب التي حققها الكتاميون، فقد تحققت آمالهم وأصبح عندهم ما كان الشيعي يعدهم من النصر (3)، وهكذا انقطع الفساد والخيانة وفشى الورع والدين والايمان وانتشر العدل والامن، وتحسنت احوالهم الاقتصادية بفضل الغنائم والعطايا فلبسوا اثواب الحرير وتقلدوا السيوف المحلاة وركبوا بسروج الفضة واللحم المذبة وكثر عندهم السلاح، فشرفت انفسهم (4) كما بداوا بالتزين والتجميل فلبسوا خير ثياب وحلوا سروجهم ولجمهم واطهروا زيا حسنا فخرجوا من الحالة التي كانوا عليها، واتسعت اموالهم وكثرت نعمهم لما أصابوا من الاعمال وملكوا من البلدان واجريت عليهم الصلات والعطايا (5).

كما ان كثامة دخلت التاريخ من بابه الواسع، واخذت تساهم في الحوادث التاريخية الجليلة الشأن وبعد ما كانت مجرد قبائل هائمة في جبالها، أصبحت الآن تتحكم في تاريخ مناطق شاسعة وامتدت شرقا وغربا (6).

(1) القاضي النعمان: ص: 93. 122. كان هؤلاء الولاة هم (موسى بن عياش صاحب ميلة وعلي بن عسلوج صاحب سطيف وحي بن نعيم صاحب بلزمة هؤلاء امراء هذه المقاتن نفس المصدر: ص: 94، بينما يذكر العقفوني أن في ميلة رجلا من بني سليم هو موسى بن العباس من قبل ابن الأغلب، وفي سطيف قوم من بني أسد بن خزيمه وفي بلزمة من بني نعيم ومواليهم. انظر: صفة: ص: 11. هؤلاء ليسوا كتاميين، وهكذا فان المعارضة انحصرت في رؤساء القبائل ومنهم: فتع من يحيى المسالتي ومهدي بن أبي كساوة الحيصي وفرح بن جبران الاجاني وابو نعيم فحل بن نوح رئيس لطاية وزيادة التوسي.

(2) نفس المصدر: ص: 96. 97.

(3) ابن عذاري: البيان ج. 1. ص: 138.

(4) نفس المكان.

(5) القاضي النعمان: المصدر السابق: ص: 256.

(6) انظر لمزيد من التفاصيل: لقبال موسى: دور كثامة مواضع متفرقة.

وبدأ الكتاميون مع هذه الحركة يحتلون أعلى المناصب وهي هدف الجماعات التي تشد أزر كل حامل دعوة، يطلب ملكا في أرض غير موطنه، فهم يأملون منه اصطفاءهم مراتب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية نغر، ولا يطمعون في مشاركته في شيء من سلطاته تسليما لعصبيته<sup>(1)</sup>، فكان من قادتهم أبو يوسف مكنون بن ضبارة الاجاني ولاء أبو عبد الله الشيعي على ميلة، ثم على تيفاش، وأبو عبيد الله يحيى بن سليمان ولاء الشيعي على طبنة، وأبو زاكى خليفة الشيعي على رقادة عند خروجه الى سجلماسة ومنهم صولات القاسم السكتاني وعروبة بن يوسف الملوسي وأبو حميد دواس بن صولات اللهيصي، وأبو مالك بن يخراسن بن أبي شحمة اللهيصي وغيرهم.

وهكذا فمهما قيل في الحركة العبيدية في بلاد المغرب، وفي طبيعتها وأهدافها مذهبية كانت أو سياسية، فانها تحمل في ثناياها طابعا اقتصاديا اجتماعيا، فهي ثورة قامت بها جهة — كتامة — متخلفة اجتماعيا واقتصاديا ضد جهات تحيط بها متحضرة مترفة، ولم تكن هذه الحركة الأخيرة في بلاد المغرب، فقد قامت حركات أخرى مماثلة منها حركة أبي يزيد مخلد بن كيداد السالف الذكر.

---

(1) ابن خلدون: المقدمة 156.

## الحاجة

يتضح مما تقدم، ان هناك عدة عوامل جعلت بلاد المغرب الأوسط تشتهر بالزراعة، مثل الموقع والتربة والتطور الاجتماعي وتوفر الأمن وغيرها، وقد لفت نظر الرحالة رغم ميلهم الى الانحياز بمزارعها وبساتينها، فأشاروا واشادوا بها، حتى كانت تصدر من انتاجها الى البلاد المجاورة، وكانت تشتهر بزراعة نباتات حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي اطار اهتمامهم بالزراعة فقد عملوا على زراعة بعض النباتات المدارية فنجح بعضها مثل القطن دون البعض الآخر، وكانت المزارع تنتشر حول القرى والمدن، بل وفي مناطق التجمعات القبلية، فان الأغلب من قبائل الشمال كانت بدوية لكنها متحضرة.

الا أن الزراعة في القرن الثالث الهجري كانت غالبا لسد الحاجة المحلية، مع دخولها الميدان التجاري بشكل محدود، ذلك أن الأمراء في بلاد المغرب الأوسط من رستميين وعلويين وغيرهم، لم تكن لديهم أهداف بعيدة، تستلزم حشد الأموال والطاقات، بل قنع كل منهم بما عنده، ومن هنا، كان الانتاج الفلاحي غالبا محدودا بحاجة الاستهلاك.

لكن الوضع يختلف في القرن الرابع الهجري، فقد كان الفاطميون يجتهدون في تحقيق اهدافهم البعيدة، بل انهم كانوا يعتبرون وجودهم في هذه البلاد مرحلة انتقالية، وان عليهم استغلال امكاناتها وطاقاتها المادية والبشرية، وكانوا يدركون ان طموحهم يتطلب جمع مبالغ مالية ضخمة، وليس هناك من سبيل امامهم سوى الانتاج الزراعي، ومن هنا، فقد اعطوا هذا المجال اهتماما خاصا، فاتبعوا سياسة زراعية تفرض على الفلاحين بذل مزيد من الجهد أكثر مما اعتادوا عليه، ومثلهم فعل الزيريون، فقد أشرنا الى ان زيري قد وفر الامن للقبائل وزرع الناس.

وعلى اية حال، عرقت بلاد المغرب الاوسط الانظمة الزراعية التي كانت متبعة في مختلف انحاء الدولة الاسلامية، واستعملوا نفس الادوات، وهي عادة بدوية، وفي اطار اهتمامهم بالزراعة فقد عملوا على استغلال جميع موارد المياه، فأستعملوا وسائل مختلفة وانظمة متعددة للري والزراعة المروية.



وقد قامت علاقة جدلية بين الانتاج الفلاحي وتربية المواشي، وكانت الظروف مواتية لنجاح واتساع تربيتها، منها الازدهار الزراعي وطبيعة اليلاد بمراعيتها، وطبيعة المجتمع، وهو في الاعم قبل، والقبائل تهتم بتربية المواشي بل هي تعتبرها اموالا عوض النقود.

وقد ترك هذا الازدهار آثارا ايجابية على الصناعة بالمغرب الاوسط، اذ ان الصناعة في ذلك الوقت هي عملية تحويلية للمنتوجات الزراعية والمحيوانية، من هنا نشأت صناعات عديدة، منها ما يقوم على تجفيف الفواكه أو معالجة الحبوب أو تصنيع الاخشاب، أو استغلال النباتات الصناعية في الحصول على النسيج الى غير ذلك من المصنوعات.

ومن جهة ثانية، فان الازدهار الفلاحي أوجد طبقة ثرية، بنت القصور، وراحت تطلب الاثاث والتحف المناسبة لحياة القصور، وهذا بدوره انعكس على ازدهار الصناعة وميل الصناع الى التفتن في صناعاتهم.

ويبدو ان الصناع قد نما بينهم شعور يربطهم ويوحدهم حتى أصبحوا يمثلون جماعة بارزة في المجتمع، فأشار اليهم ابن الصغير بـ «اهل الحرف»، وان هذه الظاهرة تعتبر بذرة للتنظيم النقابي وان لم يظهر في ذلك الوقت الى الوجود بشكل واضح، لقد كانوا يمارسون العمل النقابي دون ان يحملوا الاسم.

وتطورت الصناعة في بلاد المغرب الاوسط، حتى ان الصانع قد انتاهه القبلي، وحمل الانتاء الى الصنعة، فيقال له: الصنّار، أو الصيرفي، أو البزاز الى غير ذلك.

وان هذا الازدهار الصناعي، قد تولد عنه ازدهار ونشاط تجاري سواء في الميدان الداخلي أو الخارجي، والواقع ان هناك علاقة جدلية بين الصناعة والتجارة، فان ازدهار التجارة اي تصريف السلع يعني طلب سلعة جديدة وهكذا، كان على الصانع ان يستمر في صناعته ما دامت نافعة.

وعلى كل، فقد تبين لنا في الفصل الثالث والرابع ان بلاد المغرب الاوسط قد ازدهرت تجارتها الداخلية والخارجية بسبب وجود عدة عوامل، وقد عملت الدولة نفسها على هذا الازدهار، من خلال توفير الأمن، ووجود الختسب

وغير ذلك مما ذكرناه، ومما يبرز هذا الازدهار ان رجلا واحدا مثل ابن وردة كان يمتلك سوقا خاصة به.

ويمكن ان نتخيل السوق في ذلك الوقت، وقد عجت بالناس، ويجول بها الدلالون والسماسرة وهم ينادون على السلع، وهنا وهناك محتسب يراقب اسعار بعض السلع، ويمنع الاحتكار ويراقب الموازين والمكاييل ونحوها، ونتخيل السوق وقد امتدت الحوانيت على جانبي شارع مسقوف أو ساحة، ونتخيل الاسواق منها داخل المدينة قرية من المسجد ودار الامارة، ومنها خارج المدينة، خاصة تلك التي تنطلق منها روائح كريهة واصوات مزعجة.

وقد ازدهرت التجارة الداخلية في القرن الثالث الهجري مثلما ازدهرت في القرن الرابع الهجري، اذ يجب ان لا نبالي في الانعكاسات السلبية للسياسة الفاطمية أو الزيرية، فان احتراق سوق في حرب ما، لا يعني انهيار الحركة التجارية قرنا من الزمن، وان السلبات التي ذكرها المؤرخون السنيون حول السياسة الفاطمية لايعني بالضرورة انها تعبر عن الواقع، لان الفاطميين قد اهتموا بحياة المدينة الصناعية والتجارية من اجل ازدياد دخلهم الجبائي من الحوانيت والمراسد المنتشرة ويتجلى هذا الاهتمام في وصية المعز لبلكين بن زيري حين عزم على الرحيل الى مصر ان يستوصي بالحضر خيرا، وكان الاهتمام الزيري في الحياة الاقتصادية عامة هو الذي مكن المنصور بن بلكين ان يرسل هدية الى العزيز بالله بالقاهرة وقيل ان قيمة ما كان فيها من الامتعة والدواب والطرف الف الف دينار عينا سنة 374هـ.

وقد ادى ازدهار التجارة الداخلية الى اتساع نطاق الحركة التجارية، فشملت مختلف الجهات، وسارت القوافل الى الاندلس وبلاد السودان والشرق والمراكب الى بلاد الروم، اعني ان التجارة الخارجية بدورها شهدت تطورا ونشاطا، ويمكن اعتبار بداية العهد الرستمي هو بداية بعث التجارة الخارجية فان ابن الصغير يذكر «واستعملت السبل الى ...» لكنها ازدادت حيوية في القرن الثالث الهجري، ويبدو ان بعض المؤرخين قد حاولوا انتقاص دور بلاد المغرب الاوسط في ميدان التجارة الخارجية، ومركزين على اعتبارها مجرد جسر يربط افريقية ببلاد المغرب الاقصى والاندلس، لكن هذا الامر يتضاءل متى تذكرنا

ان تاهرت كانت من كبريات مدن بلاد المغرب الاسلامي، حتى ان المقدسي شبهها بدمشق، ولا أرى انها كانت تقل شأوا عن مدينة فاس خلال القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، كما وجدت مدن كبيرة تعتبر مراكز تجارية هامة في بلاد المغرب الأوسط مثل تلمسان.

الا أن المرجح هو اتساع دائرة التجارة وازدياد حيويتها في القرن الرابع الهجري، فقد اهتم بها الفاطميون والزيرونيون، ولم تحل الحروب التي شهدتها المنطقة دون سير القوافل التجارية، ويرى بعض المؤرخين ان هذه الحروب كانت من أجل السيطرة على الطرق التجارية، خاصة المؤدية الى بلاد السودان، لكن سيطرة الفاطميين عليها لم يمكن يمنع سير القوافل القادمة من مختلف الجهات الى بلاد السودان، فحتى قوافل المشرق كانت تعبر بلاد المغرب الى بلاد السودان، ولا أرى ان الضرائب الجبية في المراكز التجارية التي هي معاير الى بلاد السودان مثل سجلماسة وورقلة، كانت سببا كافيا من أجل قيام تلك الحروب، التي أرجح انها كانت لأسباب جبائية من أجل توطيد حكم الفاطميين في بلاد المغرب الاسلامي، وتركيز نفوذهم فيه، كقاعدة خلفية أساسية لهم عند رحيلهم الى مصر، والى ابقائه خط رجعة إذا فشلوا في المشرق، وكان اهتمام الفاطميين بالتجارة الخارجية خدمة لمصالحهم وأهدافهم البعيدة.

وفد ساعد على ازدياد نشاط التجارة، وجود نظم متطورة في التعامل التجاري، مثل الصيارفة ونظام البنوك والسفتجة والشركات، والقراض والكراء والوكالة وهي نظم تسهل التعامل التجاري، بالإضافة الى بناء الفنادق والحانات والقيصاريات «القياصر».

وهكذا سارت القوافل التجارية في جميع الجهات كما ذكرت، وكان موقع بلاد المغرب الأوسط عاملا هاما في اشتراكها في التجارة الدولية، كما أن تجارها استفادوا من السياسة التجارية الفاطمية، فقد شارك تجارها الى بلاد السودان مثلا في جلب العبيد الى الجيش الفاطمي، وجلب الذهب الى خزائهم.

وينتهي بنا القول في الميدان الاقتصادي الى ان بلاد المغرب الأوسط قد شهدت رخاء اقتصاديا ترك تأثيرا في الحياة الاجتماعية فأحدث بلورة في الطبقت

الاجتماعية وفي نوعية الحياة الاجتماعية أيضا وبالتالي أحداث انقلابا في الحركة العمرانية، بل وفي المفاهيم السائدة.

على اننا نذكر ان السكان كانوا بصطيفون بصيغة اسلامية بصفة عامة، وان المذهب السني كان له الانتشار الأوسع، وكأنه الغالب على البلاد فان الامارات العلوية ابتداء من سوق حمزة الى حدود المغرب الأوسط الغربية كانت سنية وكانت مناطق زناتة وصنهاجة سنية إذا استثنيا بعض الجيوب الخارجية. ولا نرجح ان كتامة قد اعتقدت المذهب الشيعي بأكملها.

وكان هؤلاء السكان يختلفون في انماط معيشتهم، فقد كانوا بدوا وحضرا ويبدو أن القبائل كانت تتركز غالبا حول التجمعات الحضرية مثلما كان الشأن بالنسبة لتاهرت، فقد كانت تحيط بها مجموعة من القبائل الزناتية، وربما كانت هذه الصورة تمثل العلاقة بين البدو والحضر، ولا نستطيع ان نلصق كلمة «البدو» بقبيلة محددة من قبائل المغرب الأوسط الثلاث المشهورة، واعني بها زناتة وصنهاجة وكتامة. فكل منها يظهر البدو والحضر فيها، الا أن هناك تفاوتا بينها في درجة البداوة والتحضر، فالمعروف أن أكثر قبائل زناتة بدوية، وعلى العكس منها فان أكثر قبائل صنهاجة متحضرة.

وان وجود المدن والقرى العديدة في بلاد المغرب الأوسط، ومنها مدن جليلة عظيمة باعتراف البعقوني لدليل على تحضر قطاع كبير من السكان، وحتى المدن التي فقدت شهرتها وبدت قليلة الأهمية تعني أن مجتمعا متحضرا، وكانت هذه المدن تنتشر من شرق البلاد الى غربها، وان مدينة مثل تاهرت القديمة التي غطت عليها تاهرت الحديثة، قد لفتت نظر ابن حوقل فأشاد بعظمتها.

ويجب ان نلاحظ ان المجتمع البدوي يمتاز بانغلاقه ومحافظة على القديم، ولهذا تظهر بين أفرادها الصفات البنوية سيمها وحسنها، فيسودها النظام القبلي المعروف، وقد حاول بعض المؤرخين ان يرجعوا حروب المنطقة الى صراع ناجم عن عداوة بين القبائل الثلاثة المشهورة، خاصة بين زناتة وصنهاجة، ولا أرجح مثل هذا القول، ما دامت هذه القبائل متداخلة أحيانا ولا تتقع بينها حروب،

والأرجح أنها تعود الى سيطرة النزعة القبلية التي تجعل طرفاً يأبى الخضوع للطرف صاحب السيادة، ففي ظل سيادة صنهاجة على سبيل المثال، وما ينجم عنه من قضايا جبائية ونحوها، تأبى زنادة الخنوع والرضوخ، وهكذا.

وعلى أية حال، فإذا كان المجتمع القبلي يكاد يكون متجانس التركيب، فلا تكاد الفوارق الاجتماعية تظهر بوضوح واتساع، فإن المجتمع الحضري على العكس منه، فالفوارق الاجتماعية واضحة للعيان والبعد الاجتماعي واسع، فبين قمة الهرم وقاعدته، مسافة واسعة ففي القمة اصحاب الامتيازات وأصحاب الثراء والقصور، وفي القاعدة الفقراء والمحرومون، ويمكن ان نرجع الى هذا التفاوت الطبقي الصراعات الداخلية في بلاد المغرب الاوسط.

وهناك عادات وتقاليد لدى سكان بلاد المغرب الاوسط، بعضها صفات حسنة مثل الشرف والكرم والفروسية وحسن الحوار والامانة والصدق الى غير ذلك، وبعضها الآخر صفات سيئة مثل العصبية والثأر والغزو والغضب وغيرها الا ان هذه الصفات تكون على درجة اخف في المجتمع الحضري، فقد احدث التحضر فيها خللاً، فضعف تعصب الفرد بل مجرد انتائاته لقيبلته كما اسلفت، وقد يلجأ الى المداراة والغش في معاملته، ويظهر هذا في افعال بعض التجار والصناع.

وقد كان للبربر على وجه الخصوص لباس معروف وزى خاص يعرفون به، الا ان الحضارة قد اثرت فيه، فظهرت ملابس وازياء مختلفة وعرفوا احدث ما وصلت اليه الحضارة العباسية من ملابس، كانت تعود قوافلهم محملة بها.

ويظهر انهم عرفوا المأكولات الشائعة في ذلك الوقت، سواء في المجتمع البدوي أو الحضري، ماداموا يعتمدون على نفس الخضار والحبوب والفواكه في طعامهم، بل وكذلك يعرفون نفس الاشربة والتي هي العصير والنيذ والقهوة، والخمر لدى بعض الناس، الا ان التفاوت الطبقي يبرز في المأكولات فطعام الغني يختلف عن طعام الفقير في كل مصر وعصر، وشرابه مختلف بل ان الاوعية نفسها توضح الفوارق الطبقيّة.

وعلى كل، فإذا كان الفراغ من اوعص المشاكل الاجتماعية واطورها، حتى انه الدافع الخفي وراء معظم المشاجرات والفتن، فقد عرفوا بعض انواع وسائل

الترفيه والتسلية، للترويج على انفسهم والقضاء على اوقات فراغهم مثل القروسية والقصص الشعبية، والالعاب الرياضية والمنتزهات والمسارح والمهرجانات وغيرها.

من جهة اخرى، فقد كان السكان يختلفون في مساكنهم، فالقبائل تسكن في خيام من الوبر أو الشعر وبعضها اتخذ الاختصاص مساكن له، الا ان الرخاء الاقتصادي الذي عم البلاد في القرنين الثالث والرابع للهجرة قد نقل كثيرا من السكان الى حياة المدن، وكان من نتيجته كما ذكرت ظهور مدن عديدة الى حيز الوجود في بلاد المغرب الاوسط، وهذه الظاهرة، بقدر ما كانت نتيجة، فهي ايضا تعتبر عاملا مهما في الازدهار الاقتصادي، اذ كان على الفلاحة والفلاحين ان يسدوا حاجات سكان هذه المدن من المواد الغذائية، وبعبارة اخرى زيادة الانتاج، وكذلك فان ظهور مدينة جديدة يعني وجود فئة صناع جديدة وفئة تجار جديدة ايضا، ويعني ايضا اتساع القطاع الحضري على حساب القطاع البدوي، وما يتبع ذلك وينجر عنه من تغيرات اجتماعية، وقد ذكرنا خمس عشرة مدينة تم انشاؤها، وهذا يعني ان قطاعا كبيرا من السكان قد تحضر.

وبطبيعة الحال، فان هذه المدن قد شهدت منشآت عمرانية كذلك التي تشهدها كل مدينة في ذلك العصر، من حصون وقلاع، ومن قصور ومساكن خاصة، ومن اسوار تحوط بها، وقد كان بناء المدينة يكلف خزينة الدولة اموالا باهظة، لكنها كانت هذه النفقات من الموارد المختلفة التي تدر عليها الاموال.

وقد اشرنا الى ان القرن الثالث الهجري امتاز ببساطة الضرائب المجبية، فأقتصرت على الموارد المتعارف عليها انها شرعية باتفاق جميع المذاهب، اعتمادا على ما جاء في كتاب الله مثل الزكاة والجزية والخراج والعشور، ويبدو انه بسبب الرخاء في ذلك الوقت، كانت اموال هذه الموارد كافية لسد نفقات الدولة، والتي كانت متواضعة نظرا لعدم وجود طموح واطماع بعيدة، لا للمستثمرين ولا للامراء العلويين، وقد اعتاد الناس على دفع هذه الموارد.

الا ان الفاطميين عرفوا كيف يوجدون ويفرضون ضرائب متنوعة عديدة بأسماء مختلفة، وان كانوا يعطونها صبغة مذهبية، ساعدت على جمع الاموال الطائلة التي مكنهم من بناء دولتهم في بلاد المغرب وتحقيق طموحهم واهدافهم

في مصر بعد ذلك، وقد مال بعض المؤرخين الى الاستناد على ما ورد في كتب المؤرخين السنين والتي تعبر عن موقف أصحابها من التشيع، ويظهر فيها التجني على السياسة المالية الفاطمية، الا ان المؤرخ اذا تجرد من احكام مسبقة، وانحضع تلك العبارات الواردة في مصادرهم للتحليل والمنطق سيتبين منها ان سياسة الفاطميين قامت على قاعدة الاهتمام بالحياة الاقتصادية عامة، ولن يتأتى لهم هذا الا باتباع سياسة الحزم والضبط وبهذه السياسة تمكنوا من جمع الاموال اللازمة وبها ايضا ظهرت المدن السالفة الذكر، اي الرخاء الاقتصادي.

الا ان انتقال الناس من وضعية في عهد الرسنيين ومعاصريهم، قائمة على البساطة والقناعة في الانتاج، الى وضعية فيها ارغام على العمل، وفيها ضرائب جديدة لم يعهدها الناس من قبل، اظهرت الفاطميين بمظهر الظالمين مع ان ما قاموا به هو حسن استغلال للطاقات البشرية والمادية في البلاد، عاد بالنفع على الطرفين.

وقد تعرضت بلاد المغرب الاوسط خلال القرن 3 - 4 هـ الى مجموعة من الازمات والعوارض تتمثل في الفتن والحروب، وفي انتشار القحط في بعض السنين، والى حرائق وفيضانات وزلازل من حين الى آخر كان من نتائجها ان شهدت البلاد هجرة داخلية من منطقة الى اخرى وهجرة خارجية باتجاه البلاد المجاورة، فان قبائل زناتة قد فرت باتجاه المغرب الاقصى في الغالب، حتى كانت مواطنها ان تكون خالية منها على حد قول ابن خلدون.

وعلى اية حال، فقد رافق هذه الحياة الاقتصادية وجود فوارق اقتصادية بين الناس ورافق الحياة الاجتماعية فوارق اجتماعية، وهكذا ظهر في المجتمع طبقان متمايزتان اقتصاديا واجتماعيا فكان الصراع ينشب من حين لآخر بين هاتين الطبقتين، وقد كانت دوافع هذا الصراع كامنة وراء الاختلافات المذهبية، بمعنى انها دوافع اقتصادية اجتماعية، تتخذ المذهب ستارا لها، وهكذا قامت انتفاضات اتخذت بعضها النكارية ستارا مثل انتفاضة يزيد بن فندين والي يزيد بن محمد بن كيداد، واتخذت بعضها مذهب الواسلية ستارا، في حين قامت العامة بانتفاضات مماثلة ظهرت في اواخر ايام الدولة الرسمية، كما ان اخذ كتامة بالتشيع ومساندتها له يدخل في اطار انتفاضات العامة.

## ثبت المصادر والمراجع

- 1 - ابن الأبار  
أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القاضي: ت سنة 658 هـ / 1260 م.  
الحلة السيرة.
- تحقيق وتعليق حسين مؤنس ط 1 القاهرة. 1963.  
التكملة لكتاب الصلة. صححه ونشره عزت العطار الحسيني  
1375 هـ / 1956 م. مكتبة الخانجي. القاهرة مكتبة المشي بغداد.
- 2 - ابراهيم مجاز:  
الدولة الرسمية. مطبعة لاغومبك. الجزائر. ط. 1 1985.
- 3 - ابن الأثير  
عزالدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري: ت 630 هـ /  
1232 م.  
الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي ط 2. 1387 هـ / 2967 م.  
بيروت.
- 4 - احسان النص:  
العصية القبلية: مطبعة دار اليقظة العربية.
- 5 - أحمد أمين:  
ضحى الاسلام. ط 7. مكتبة النهضة المصرية. 1343 هـ / 1935 م.  
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1964 م.  
الصلصلة والفتوة. دار المعارف سلسلة اقرأ رقم 111. القاهرة.  
فجر الاسلام. ط 10. دار الكتاب العربي. 1969.
- 6 - ابن الأخوا:  
معالم القرية في أحكام الحسية. تحقيق ونشر روبن ليفي. كمبردج  
1938 م.
- 7 - اخوان الصفاء:  
رسائل اخوان الصفاء. دار بيروت للطباعة والنشر دار صادر للطباعة  
ج. 1. بيروت. 1376 هـ / 1957 م.



8 - ادريس عماد الدين:

تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب. القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار. تحقيق: محمد اليعلاوى. دار الغرب الاسلامي بيروت ط1 سنة 1985م.

9 - الادريسي:

ابو عبد الله بن محمد بن عبد الله ت 560هـ / 1166م. صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق مطبعة بريل ليدن 1968م.

10 - آدم متز:

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده. طبع لجنة التأليف والترجمة ط3 القاهرة 1377هـ.

11 - ارشيبالد:

القرى البحرية والتجارية في البحر الابيض المتوسط. تعريب أحمد محمد عيسى مطبعة مصر القاهرة بدون تاريخ.

12 - اسماعيل العربي:

دولة بني حماد، ملوك القلعة وبجاية. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر. 1980.

دولة الادارسة: ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر 1983.

13 - الاصطخري:

أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي ت بعد 340هـ / 951م. المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني دار القلم القاهرة 1381هـ / 1961م.

14 - ابن أبي أصيبعة:

ابو العباس احمد بن القاسم السعدي ت 688هـ / 1270م. عيون الانباء في طبقات الاطباء. تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة. 1965م.

15 - اطفيش بن يوسف:

الرد على العقبي: المطبعة المديرية الحجرية. تونس. 1321 هـ.

- شامل الاصل والفرع: طبعه وصححه ابراهيم اطفيش الجزائرى المطبعة  
السلفية القاهرة 1348هـ / 1929م.
- شرح عقيدة التوحيد. طبعة حجرية الجزائر 1326هـ
- تفقيه القامر. بترتيب لقط موسى بن عامر ( د.م ) ( د.ن ) 1901م.
- 16 — الباروني ابو الربيع سليمان  
بن الشيخ عبد الله النفوسي: ت 1350هـ / 1940م  
الازهار الرياضية في ائمة وملوك الاباضية ج. 2. مطبعة الازهار  
البارونية.
- مختصر تاريخ الاباضية: مطبعة الارادة. نشر مكتبة الاستقامة. تونس  
1357هـ / 1938م.
- 17 — باشا محمد مختار:  
التوقيعات الالهامية. ط1 المطبعة الاميرية ببولاق مصر 1311هـ /  
1893م.
- 18 — البرادي ابو القاسم بن ابراهيم:  
ق. 8هـ / 14م.  
الجواهر المنتقا: مطبعة محمد يوسف الباروني. القاهرة 1302هـ.
- 19 — البراوي راشد:  
حالة مصر الاقتصادية في عصر الفاطميين: القاهرة. 1948م.
- 20 — ابن بشكوال ابو القاسم  
خلف بن عبد الملك بن مسعود القرطبي: ت 578هـ / 1183م.  
كتاب الصلة: الدار المصرية للتأليف والنشر 1966م.
- 21 — ابن بصال  
عبد الله محمد بن ابراهيم الطليلي: ق 5هـ / 11م.  
كتاب الفلاحة: معهد مولاي الحسن تطلوان 1955م.
- 22 — ابن بطوطة  
ابو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي: ت 779هـ / 1377م.  
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار.  
المعروفة برحلة ابن بطوطة. دار صادر للطباعة والنشر دار  
بيروت للطباعة والنشر بيروت 1379هـ / 1960م.

23 - البكري:

ابو عبيد عبد الله بن العزيز: ن 487 هـ / 1094 م.  
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. مطبعة الحكومة. الجزائر  
1957 م نشر مكتبة المثنى. بغداد.

24 - البلاذري:

احمد بن يحيى بن جابر البغدادي. ن 279 هـ / 892 م.  
فتوح البلدان: تحقيق رضوان ط 1. المطبعة المصرية. الازهر  
1932 م.

البلخي:

ابو القاسم وآخرون.  
فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: تحقيق فؤاد سيد. الدار التونسية  
للنشر: 1393 هـ / 1974 م.

26 - بنيامين التطيلي:

( ن 6 هـ ):

رحلة بنيامين التطيلي: ترجمها عن الأصل العبري عزرا حداد  
المطبعة الشرقية. بغداد 1945 م.

27 - بوروية رشيد:

الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها: ديوان المطبوعات الجامعية  
الجزائر. 1977 م.

28 - بوروية رشيد وآخرون:

الجزائر في التاريخ. المعهد الاسلامي. المؤسسة الوطنية للكتاب.  
الجزائر. 1984.

29 - البيروني ابو الريحان

محمد بن احمد: ن بين 420 هـ / 430 هـ.  
كتاب الجماهر في معرفة الجواهر. ط 1. مطبعة جمعية دائرة  
المعارف. العثمانية حيدر آباد. 1355 هـ.

30 - ابن اليطار:

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. القاهرة. المطبعة العامرة 1261 هـ.

- 31 - ابن تغرى بردى  
جمال الدين أبو المحاسن:  
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: القاهرة.
- 32 - التتسي أبو عبد الله:  
ت 899 هـ / 1494 م  
نظم الدرر والعقيان. نص نشره: حاجيات عبد الحميد. مجلة  
التاريخ. الفصل الأول. سنة 1981 م الجزائر.
- 33 - تميم بن المعز لدين الله الفاطمي:  
ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي: تحقيق محمد حسن  
الأعظمي دار الثقافة بيروت. 1971 م.
- 34 - توماس ارنولد:  
الدعوة الإسلامية: تعريب حسن ابراهيم حسن وآخرون القاهرة  
مكتبة النهضة. 1970 م.
- 35 - التميمي عبد العزيز:  
النيل وشفاء العليل. الجزائر. 1967 م ط. 2. اشراف بكلي.
- 36 - الجاحظ أبو عثمان  
عمرو بن بحر الكنانى الليثي: ت 255 هـ / 868 م.  
التبصير بالتجارة. تحقيق حسن حسني عبد الوهاب. بيروت. دار  
الكتاب الجديد. 1966 م.
- 37 - الجعبري أفرحات:  
نظام العزابة عند الاباضية الوهية في جربة. المطبعة العصرية  
تونس. 1975.
- 38 - جودت عبد الكريم يوسف:  
العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. المؤسسة الوطنية للكتاب  
الجزائر. 1984 م.

39 - الجوذري:

ابو علي منصور العزيري: أواخرق 4هـ / 10م  
سيرة الاستاذ جوذر. تحقيق محمد كامل حسن ومحمد عبد الهادي  
شعيرة. مطبعة الاعتماد. مصر. 1954م.

40 - الجيطالي

اسماعيل بن موسى: ت 750هـ.  
شرح قواعد الاسلام. ج. 2. تحقيق بكلي عبد الرحمن بن عمر  
الجزائر. المطبعة العربية. 1976م.

41 - الحبيب الجنيحاني:

المغرب الاسلامي. الحياة الاقتصادية والاجتماعية (ق. 3 - 4هـ  
/ 9 - 10) الدار التونسية للنشر الشركة الوطنية للنشر  
والتوزيع. الجزائر. 1398هـ / 1978م.

42 - حركات ابراهيم:

المغرب عبر التاريخ. ط1. مطبعة دار السلمي. الدار البيضاء.  
1965م.

43 - ابن حزم

ابو محمد علي بن سعيد الاندلسي: ت 465هـ / 1064م  
جهرة انساب العرب نشر وتحقيق وتعليق ليفي بروفنصال. دار  
المعارف. مصر القاهرة. 1368هـ / 1948م.

44 - حساني مختار:

الصراع بين الفاطميين والأمويين على السيادة في المغرب  
الاسلامي. رسالة جامعية. اشراف الدكتور لقبال موسى. جامعة  
الجزائر 1978م - 1979م.

45 - حسن ابراهيم حسن:

النظم الاسلامية: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.  
1939م.

46 - حسن أحمد محمود:  
الإسلام والثقافة العربية في افريقية. دار النهضة العربية. القاهرة  
1963م

47 - حسن بن رشيق القيرواني:  
أنموذج الزمان في شعراء القيروان. تونس 1406هـ / 1986م.

48 - حسن حسني عبد الوهاب:  
ورقات عن الحضارة العربية بافريقية. مكتبة المنار. تونس  
1965.

49 - ابن حماد  
أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي: ق 6هـ / 12م.  
أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تحقيق وتعليق جلّول أحمد  
البدوي. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1984.

50 - ابن حديد  
(ت 527هـ):  
ديوان ابن حديد. تحقيق احسان عباس. بيروت. دار صادر  
1960م.

51 - الحموي ياقوت  
بن عبد الله شهاب الدين الرومي: (ت 627هـ / 1229م).  
معجم البلدان. بيروت. 1967م.

52 - الحميدى أبو عبد الله  
محمد بن أبي نصر فنوح بن عبد الله الأزرى: (ت 488هـ /  
1095م).

جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس. مطابع سجل العرب  
القاهرة. الدار المصرية للتأليف والترجمة. 1966.

53 - ابن حوقل  
أبو القاسم النصيبى: ت بعد 367هـ / 977م.  
كتاب صورة الارض. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت.  
بدون تاريخ.

## 54 - ابن حيان

ابو مروان حيان بن خلف بن حسين الاندلسي: ت 469 هـ / 1076 م.

المقتبس من انباء اهل الاندلس. تحقيق محمود علي مكي. نشر لجنة احباء التراث الاسلامي. القاهرة. 1390 هـ / 1971 م.

## 55 - ابن خردادبة

ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله: ت حوالي 272 هـ / 885 م. المسالك والممالك. مكتبة المثنى. بغداد. 1889 م.

## 56 - الحشني

ابو عبد الله محمد بن حارث القروي: ت 361 هـ / 971 م. قصاة قرطبة وعلماء افريقية. نشر جولييان ريرا. مدريد. 1914 م.

## 57 - ابن الخطيب

لسان الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني: ت 776 هـ / 1374 م.

أعمال الاعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام. القسم الثالث. تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط. تحقيق احمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني. نشر دار الكتاب الدار البيضاء. 1964 م.

## 58 - ابن خلدون

عبد الرحمن بن محمد: ت 808 هـ / 1406 م.

المقدمة: القاهرة المكتبة التجارية بدون تاريخ. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر. دار الكتاب اللبناني للطباعة بيروت. 1959 م.

## 59 - ابن خلدون

ابو زكريا يحيى بن ابي بكر: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد - مطبعة بير فونتانا الشرقية الجزائر 1321 هـ / 1903 م.

- 60 — خولة شاکر الدجیلی:  
بيت المال. نشأته وتطوره من القرن الاول الى القرن الرابع  
الهجري نشر جامعة بغداد.
- 61 — ابن الخیر الاندلسي:  
الفلاحة الاندلسية. المطبعة الجديدة. فاس 1938م.
- 62 — دانیل دینیت:  
الجزية والخراج. ترجمة فوزي فهم جاب الله. بيروت  
1960م.  
معالم الايمان في معرفة اهل القبروان. تحقيق ابراهيم شيوخ  
مكتبة الخانجي مصر 1968م.
- 63 — الدباغ:  
أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسدي:  
669هـ/1297م.
- 64 — ديوز علي:  
تاريخ المغرب الكبير. ط. 1. القاهرة مطبعة عيسى الحاج  
1964م.  
نهضة الجزائر دمشق. 1965م ج. 1.
- 65 — الدرجيني  
أبو العباس أحمد بن سعيد: ت حوالی 670هـ / 1272م.  
طبقات المشايخ بالمغرب. تحقيق ابراهيم طلال مطبعة البعث  
قسنطينة 1394هـ / 1974م.
- 66 — ابن ابي دينار  
ابو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: ألف كتابه  
1110هـ / 1698م.  
المؤنس في أخبار افريقية وتونس. تحقيق وتعليق محمد شمام.  
مطبعة 20 مارس نشر المكتبة العتيقة. تونس 1967م.



67 - الرازي فخر الدين:  
اعتقادات فرق المسلمين والمشركون. مراجعة علي سامي النشار  
نشر مكتبة النهضة المصرية القاهرة. 1356هـ/1938م.

68 - رزق الله انطاكي:  
السفينة. جامعة دمشق. 1385هـ / 1965م.

69 - ابن رزين التجيبي:  
فضالة الخوان في طبياات الطعام والألوان. تحقيق: محمد بن  
شقرون. دار الغرب الاسلامي ط. 2. 1984م. بيروت.

70 - ابن رسته  
أبو علي أحمد بن عمر: ت بعد 290هـ / 903م.  
الاعلاق النفيسة: مطبعة بريل ليدن 1891م نشر مكتبة المثني  
بغداد.

71 - الرقيق القيرواني  
أبو اسحق ابراهيم بن القاسم: ت بعد 417هـ / 1026م.  
تاريخ افريقية والمغرب. تحقيق: المنجي الكعبي. نشر رقيق  
السقطي. تونس. 1963م.

72 - الزبيدي أبو بكر  
محمد بن الحسن: ت 379هـ / 989م.  
طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد ابو الفصل ابراهيم. ط.  
1. 1373هـ / 1954م.

73 - ابن ابي زرع  
أبو زرع ابو الحسن علي بن عبد الله الفاسي: ت ق. 8هـ /  
14م.

الانيس المطروب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ  
مدينة فاس. تصحيح وطبع كارل بوجن بورنبرغ. طبع في مدينة  
أو بسالة. دار الطباعة المدرسية. 1963م.

74 - الزركشي  
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تونس. 1966م.

- 75 — الزركلي عمير الدين:  
الاعلام: ط. 3. بيروت. 1969م.
- 76 — أبو زكريا  
يحيى بن أبي بكر الوريثاني: ت 471هـ / 1073م  
كتاب سير الأئمة واختيارهم. تحقيق وتعليق اسماعيل العربي.  
المكتبة الوطنية. الجزائر. 1399هـ / 1979م.
- 77 — زيدان عبد الباقي:  
العمل والعمال والمهن في الإسلام. القاهرة 1398هـ / 1978م.  
نشر مكتبة وهبة. مطبعة السعادة.
- 78 — السامرائي حسام قوام:  
المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية. مكتبة دار الفتح. دمشق.  
1391هـ / 1971م.
- 79 — سحنون بن سعيد:  
المدونة الكبرى: القاهرة مؤسسة الحلبي وشركائه للنشر والتوزيع.
- 80 — سعفان حسن شحاتة:  
دراسات في علم الاجتماع الاقتصادي. معهد البحوث  
والدراسات العربية المطبعة العالمية القاهرة. 1971م.
- 81 — سعيد الافغاني:  
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام. دار الفكر بيروت.  
1394هـ / 1974م.
- 82 — ابن سعيد  
المغربي عبد الملك: ت 672هـ / 1274م  
المغرب في حلى المغرب. تحقيق ونشر شوقي ضيف. دار المعارف  
القاهرة. 1953م.
- 83 — السقطي  
أبو عبد الله الأندلسي.  
رسالة أندلسية في الحسبة. نشر ليفي برونفيسال ونولان المجلة الآسيوية  
1934م. عدد 224. ص: 133 — 252.
- 84 — السلاوي  
أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: ت 1315هـ / 1397م.

الاستقصا لاجبار دول المغرب الاقصى. 1305هـ .

85 - سليمان التاجر:

ت 237هـ / 851م.

اخبار الصين والهند: تحقيق وتعليق. جون سوفاجي باريس

1948م.

86 - مسجريد هونكة:

فضل العرب على أوربا. ترجمة وتحقيق وتعليق. فؤاد حسنين علي

دار النهضة العربية مطبعة الرسالة 1384هـ / 1964م.

87 - سيد سابق:

فقه السنة. ط. 2. دار الفكر مصر 1977م.

88 - السيدة اسماعيل كاشف:

مصر في عصر الولاة. مكتبة النهضة المصرية. سلسلة الالف

كتاب القاهرة رقم 241.

89 - ابن سيده:

ت 458هـ.

المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر بيروت. بدون

تاريخ.

90 - ابن الشباط

أحمد بن علي التوزري.

صلة السمط وسمه المرط. قطعة في وصف الاندلس وصقلية. نشر

أحمد مختار العبادي صحفية معهد الدراسات الاسلامية مدريد

1967م.

91 - الشماخي:

أبو العباس أحمد بن سعيد: ت 928هـ / 1521م.

كتاب السير طبع في القاهرة. 1301هـ.

مقدمة التوحيد وشروحها صححها وعلق عليها ابراهيم اطفيش

القاهرة. 1353هـ.

- 92 - شنيبي محمد البشير:  
التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب اثناء الاحتلال  
الروماني. المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. 1984م.
- 93 - الشيرازي:  
نهاية الرتبة في طلب الحسبة. تحقيق ونشر الباز العربي. القاهرة  
1946م.
- 94 - الشيخلي  
صباح ابراهيم سعيد.  
الاصناف في العصر العباسي. نشأتها وتطورها. بحث في  
التنظيمات الحرفية في المجتمع العربي الاسلامي. بغداد. وزارة  
الاعلام. 1976م.
- 95 - الشوريحي البشري:  
التسعين في الاسلام. دار المعارف بمصر. 1393هـ / 1973م.
- 96 - صابر محمد ذياب:  
سياسة الدولة الاسلامية في حوض البحر الابيض المتوسط من  
أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي نشر عالم  
الكتب. ط. 1. القاهرة 1973م.
- 97 - صالح بن قربة:  
المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي الى سقوط دولة بني  
حماد. بحث لنيل درجة دكتوراه الدور الثالث اشراف الدكتور  
رشيد بورويبة جامعة الجزائر 1982 / 1983م.
- 98 - ابن الصغير.  
كان حيا أو اخرق 3هـ / 9م.  
تاريخ الائمة الرستميين. نشر موتلنسكي اعمال المؤتمر الرابع  
عشر للمستشرقين المنعقد في الجزائر 1905م باريس 1908م  
نشرة اخرى: دفاتر تونسية عدد 91 - 92. سبتمبر 1975.  
ص: 315 - 368.

99 - الضبي

احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة: ت 599هـ / 1203م.  
 بغية المتحس في تاريخ رجال اهل الاندلس. طبع بمدينة مجريط  
 (مدريد). بمطبعة روخس 1884م.

100 - ضياء الدين الرئيس:

الخراج والنظم المالية: ط. 2. مكتبة الانجلو المصرية 1961.

101 - ابن ابي الضياف احمد.

اتحاد اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان تحقيق  
 ونشر لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والاخبار. تونس  
 1963م.

102 - الطبري

ابو جعفر محمد بن جرير. ت 310هـ / 922م  
 تاريخ الامم والملوك. مطبعة الاستقامة. القاهرة 1358هـ /  
 1939م.

103 - الطرسوسي

مرضى بن علي.  
 تبصرة الالباب في كيفية النجاة في الحروب. نشر كلود كاهن  
 في 1947 - 1948. B.E.O.XII.

104 - ابن عبد الحكم

ابو القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله: ت 257هـ / 871م.  
 فتوح مصر والمغرب. تحقيق عبد المنعم عامر. نشر لجنة البيان  
 العربي. القاهرة.

105 - ابن عبد الرؤوف

ثلاث رسائل اندلسية في الحسبة. تحقيق ليفي بروفنال. القاهرة  
 1955م.

106 - العبدري

ابو عبد الله محمد بن محمد بن علي: ت 688هـ / 1289م.

رحلة العبدري المسماة بالرحلة المغربية. تقديم وتحقيق وتعليق  
محمد الفاسي الرباط. 1968م.

107 — عبد العزيز الدوري:

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري بغداد  
1948م.

108 — عبد العزيز سالم:

تاريخ المغرب العربي الكبير. الدار القومية للطباعة والنشر  
1966م القاهرة.

تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس. دار المعارف ط. 1. لبنان.

109 — عبد العزيز المجدوب:

الصراع المذهبي في افريقية الى قيام الدولة النيزية. الدار  
التونسية للنشر. تونس. 1975.

110 — عبد العزيز نبوي:

محاضرات في الشعر المغربي القديم. ديوان المطبوعات الجامعية  
الجزائر. 1983.

111 — عبد الكريم الخطيب:

السياسة المالية في الاسلام. دار الفكر العربي بدون تاريخ.

112 — عبد الله علي غلام.

الدولة الموحدية. دار المعارف. مصر.

113 — عبد المنعم ماجد.

تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى. القاهرة نشر  
مكتبة الانجلو المصرية. 1963.

114 — ابن عبدون:

رسالة في القضاء والحسبة. المجلة الاسبوية. جوان 1934م نشر  
ليفني بروفنصال.

115 — العدوي ابراهيم احمد.

بلاد الجزائر، تكوينها الاسلامي والعربي. ط. 1. المطبعة الفنية  
الحديثة 1970م.

116 — ابن عذاري

ابو عبد الله محمد المراكشي: (ق 7هـ / 13م).  
البيان المغرب في أخبار المغرب. مطبعة المناهل بيروت 1947م  
1950م.

117 — ابو العرب

محمد بن احمد بن تميم القيرواني: ت 333هـ / 944م  
طبقات علماء افريقية وتونس. تحقيق علي الشابي. ونعيم حسن  
الباقي الدار التونسية للنشر. 1968م.

118 — عطية مصطفى مشرفة.

نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ط. 2. دار الفكر العربي  
بدون تاريخ.

119 — علي ابراهيم حسن:

تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي مكتبة النهضة  
المصرية. ط. 2. القاهرة. 1963م

120 — علي بن يوسف الحكيم ابو الحسن:

الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة. حسين مؤنس مطبعة  
معهد الدراسات الاسلامية. مدريد. 1379هـ / 1960م.

121 — ابن العوام أبو زكريا.

(ق. 6هـ / 12م).

كتاب الفلاحة الأندلسية. الترجمة الفرنسية

122 — عماد الدين ادريس:

تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب. القسم الخاص من كتاب عيون  
الأخبار تحقيق: محمد اليعلاوي. دار الغرب الاسلامي بيروت ط.  
1. 1985م.

123 — عماد الدين الأصفهاني:

خريدة القصر وجريدة العصر. قسم شعراء افريقية. تونس  
1966.

124 — عوض محمد خليفات:

النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في  
مرحلة الكتان. طباعة شركة المطابع التوضيحية عمان. 1982م

125 — ابن غالب محمد

بن أيوب الأندلسي: ( ق 6هـ / 12م).  
فرحة الأنفس. قطعة نشر لطفي عبد البديع مجلة معهد  
المخطوطات العربية. ج. 1. ج. 2. 1375هـ / 1955م.

126 — الغرناطي أبو حامد

محمد بن أبي الربيع الأندلسي: ت 565هـ / 1969م  
تحفة الأبواب. نشر فرانك. المجلة الاسيوية. 1925. باريس.

127 — لحي محمد معوض أبو عيسى.

الفكاهة في الأدب العربي الى نهاية القرن الثالث الهجري  
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1970.

أبو الفداء

عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر: ت 732هـ / 1331م

تقويم البلدان. اعتنى تصحيحه وطبعه. رينود ودسلان  
بتصحيحه. باريس. دار الطباعة السلطانية 1940م.  
المختصر في أخبار البشر. بيروت. دار الكتاب اللبناني. بدون  
تاريخ.

129 — ابن الفرضي

أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الاسدي: ت 1403هـ /  
1013م.

تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس. تحقيق عزت العطار  
الحسيني. 1373هـ / 1954م. نشر مكتبة المثني. بغداد.

130 — فروخ عمر:

العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط.  
ط. 1. منشورات المكتب التجاري. بيروت. 1378هـ /  
1959م.



131 — أبو الفضل الدمشقي:

( ق 6 هـ / 12 م ).

الإشارة الى محاسن التجارة. تحقيق: البشري الشوريجي. ط. 1.  
مطبعة الغد. الاسكندرية. نشر. مكتبة الكليات الأزهرية  
1397 هـ / 1977 م.

132 — ابن فضل الله العمري:

وصف افريقية والاندلس. نشر حسن حسني عبد الوهاب.  
تونس بدون تاريخ.

133 — ابن الفقيه

أبو بكر أحمد بن محمد الهذلي: ت بعد 290 هـ / 902 م.  
مختصر كتاب البلدان. مطبعة بريل. لندن. 1302 هـ /  
1885 م.

134 — القوال مصطفى صلاح:

علم الاجتماع البدوي. دار النهضة العربية. القاهرة ط. 1.  
1974 م.

135 — فيلاي عبد العزيز:

علاقة الدولة الأموية بدول المغرب الاسلامي. رسالة ماجستير.  
جامعة عين شمس القاهرة.

136 — القاضي عياض

موسى بن عمرو اليحصبي السبني: ت 544 هـ / 1149 م.  
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب مالك.  
تحقيق احمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة. بيروت 1387 هـ  
1967 م.

تراجم اقلية. نشر. محمد طالبي. الجامعة التونسية. تونس  
1968 م.

137 — القاضي النعمان

ابو حنيفة بن ابي عبد الله بن حيون. ت 363 هـ / 973 م.  
رسالة افتتاح الدعوة. تحقيق وداد القاضي. مطبعة دار الكتب.

ط. 1. بيروت 1970م. نشر دار الثقافة بيروت.  
 كتاب المهمة في اداب اتباع الائمة. نشر وتحقيق محمد كامل  
 حسين. دار الفكر العربي. سلسلة المخطوطات الفاطمية. (3).  
 كتاب الاقتصار. تحقيق محمد وحيد ميرزا. المعهد الفرنسي  
 للدراسات العربية بدمشق. دمشق. 1379هـ / 1957م.  
 دعائم الاسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام. تحقيق  
 آصف بن علي أصغر فيفي. ط. 3. دار المعارف القاهرة  
 1389هـ / 1969م.

#### 138 — قدامة بن جعفر

ابو الفرج: ت بعد 320هـ / 932م.  
 كتاب الخراج وصناعة الكتابة. بريل. 1889م نشر مكتبة المثنى.

#### 139 — القزويني

زكريا بن محمد بن محمود: ت 682هـ / 1283م.  
 آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر بيروت.

#### 140 — ابن القطان:

نظم الجمان. تحقيق. محمود علي مكّي تطوان المطبعة المهدية. بدون  
 تاريخ.

#### 141 — القلقشندي

أحمد بن علي بن أحمد الفزاري: ت 821هـ / 1418م.  
 صبح الاعشى في كتابة الانشاء. المؤسسة المصرية العامة للتأليف  
 والترجمة والطباعة والنشر. القاهرة بدون تاريخ.

#### 142 — قنون عبد الله:

النويع المغربي. تطوان المطبعة المهدية. بدون تاريخ.

#### 143 — ابن القوطية

ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الاندلسي: ت 367هـ  
 927م.

تاريخ افتتاح الاندلس. تحقيق عبد الله أنيس الطباع دار النشر  
 للجامعيين. 1377هـ / 1958م.

#### 144 - الكناي

أسامة بن مرشد: ت 584هـ / ط. 1. بيروت 1385هـ / 1965م.

كتاب المنازل والديار. المكتب الاسلامي للطباعة والنشر ط. 1. بيروت 1385هـ/1965م

#### 145 - لقبال موسى:

الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي. نشأتها وتطورها. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ط. 1. 1971م.  
دور كتاب في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها الى منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. 1979م.

#### 146 - المالقي

أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي:  
تاريخ قضاة الاندلس. كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا. المكتب التجاري. للطباعة والنشر والتوزيع بيروت بدون تاريخ.

#### 147 - المالكي

أبو بكر عبد الله: ت 453هـ / 1061م  
رياض النفوس في طبقات علماء افريقية وزهادهم تحقيق ونشر حسين مؤنس تونس 1951م.

#### 148 - الماوردي

أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصري البغدادى.  
كتاب الاحكام السلطانية القاهرة 1376هـ / 1962م ط. 2.

#### 149 - المبرد

( أبو العباس محمد بن يزيد ).  
الكامل في اللغة والادب باب الخوارج. ط. 2. منشورات دار الحكمة دمشق. 1972م

- 150 — المجلدي أحمد سعيد:  
كتاب التيسير في احكام التسعير. تقديم وتحقيق موسى لقبال  
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.
- 151 — محمد بلقراڤ:  
الفكاهة والضحك في الادب العربي. رسالة دكتوراه الدرجة  
الثالثة اشراف احسان النص جامعة الجزائر 1973.
- 152 — محمد بن رمضان شاوش:  
الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد. المطبعة العلوية مستغانم  
1385هـ / 1966م.
- 153 — محمد بن عميرة:  
دور زناتة في الحركات المذهبية بالمغرب الاسلامي. رسالة  
جامعية اشراف الدكتور لقبال موسى جامعة الجزائر. 1977م /  
1978م.
- 154 — محمد الحجوي:  
النظام في الاسلام. محاضرة ضمن كتاب (خطب ومحاضرات)  
— المطبعة الأهلية الرباط. 1326هـ.
- 155 — محمد سلطان ابو علي:  
محاضرات في اقتصاديات النقود والبنوك. دار الجامعات المصرية  
1972م.
- 156 — محمد الطاهر بن عاشور:  
أصول النظام الاجتماعي في الاسلامي. تونس. المطبعة الرسمية  
1964م.
- 157 — محمد الشريف الرحومي:  
نظام الشرطة في الاسلام. الدار العربية للكتاب 1983م.
- 158 — محمد عبد القادر:  
تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر. ط. 2. شرح  
وتعليق ممدوح حقي. بيروت دار اليقظة 1964م.

- 159 - محمد محمد عبد الجواد:  
ملكية الأراضي في الاسلام. المطبعة العالمية. 1971م.
- 160 - محمود المظفر:  
احياء الموات، المطبعة العالمية. القاهرة. 1392هـ / 1972م.
- 161 - محمود اسماعيل:  
الخوارج في المغرب: الدار البيضاء. 1976م.
- 162 - المراكشي  
محيي الدين أبو محمد عبد الواحد: ( ق 7 هـ ).  
المعجب في تلخيص أخبار المغرب. مطبعة القاهرة. 1949م.
- 163 - مرمول محمد الصالح:  
السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي  
ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1983.
- 164 - المزاتي  
( أبو يعقوب يوسف خلفون ): ق 6 هـ / 12م.  
أجوبة ابن خلفون. تحقيق وتعليق. عمر وخليفة النامي. دار  
الفتح بيروت ط. 1. 1394هـ / 1974.
- 165 - المسعودي  
( أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ): ت 346هـ / 957م.  
مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الاندلس بيروت ط. 1.  
1385هـ / 1965م.
- 166 - المقدسي  
( أبو عبد الله محمد بن أحمد ): ت 378هـ / 988م.  
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم. ط. 2. مطبعة بريل ليدن.  
1906م.
- 167 - المقري  
( شهاب الدين أبو العباس التلمساني ): ت 1041هـ / 1681م.  
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب.. تحقيق محي الدين عبد  
الحميد، نشر دار الكتاب العربي بيروت 1337هـ / 1949م.

- (توفي الدين ابو العباس باحمد بن علي): ت 845 هـ 1442 م.  
الخطط المقرزية. مطبعة الساحل الجنوبي. بيروت.
- اتعاظ الحنفاء باخبار الاثمة الفاطميين الخلفاء. تحقيق ونشر جمال الدين الشيال دار الفكر العربي. القاهرة 1367 هـ / 1948 م.
- 169 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:  
تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر  
بغداد. 1404 هـ / 1984 م.
- 170 - المهدي ابو عبد الله:  
تاريخ المدن الثلاث. الجزائر. المدينة. مليانة. ط. 2. الجزائر  
1392 هـ / 1972 م.
- 171 - موريس لومبار:  
الاسلام في مجده الاول. ترجمة وتعليق اسماعيل العربي. الشركة  
الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979 م.
- 172 - مؤلف مجهول:  
( في 6 هـ / 12 م ).  
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. نشر وتعليق. سعد  
زغلول عبد الحميد. كلية الآداب. مطبعة جامعة الاسكندرية.  
1958.
- 173 - مؤلف مجهول:  
كتاب الطيخ في المغرب والاندلس في عصر الموحدين. صحيفة  
معهد الدراسات الاسلامية ج. 9 - 10. نشر امبروزيو ويني  
ميراندا 1961 - 1962 م.
- 174 - مؤلف مجهول:  
( في 8 هـ / 14 م ).  
مفاخر البربر. تحقيق ليفي برونفسال. الرباط 1934 م.
- 175 - مؤنس حسين:  
فتح العرب للمغرب. القاهرة مكتبة الآداب 1947 م.

- 176 - الميلي مبارك:  
تاريخ الجزائر في القديم والحديث. مطبعة بدران وشركائه  
بيروت. 1963م نشر مكتبة النهضة الجزائرية.
- 177 - الناصر الاطروش:  
كتاب الحسبة. نشر سارجنت. 11953 - 1952 - R.S.O. 28
- 178 - ناصر خسرو:  
( ق 5هـ / 11م ).  
رحلة ناصر خسرو الى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية  
في القرن الخامس الهجري. ( 437هـ / 444 ) ترجمة يحيى  
الحشاش. دار الكتاب الجديد. بيروت 1970م.
- 179 - ابو النصر عادل:  
تاريخ الزراعة القديمة. ط 1. 1960م.
- 180 - القشبندي ناصر السيد محمود:  
الدينار الاسلامي في المتحف العراقي. الجزء الأول.  
الدينار الاموي والعباسي. مطبعة الرابطة بغداد. 1372هـ /  
1953م.
- 181 - نقولا زيادة:  
الحسبة والمختسب في الاسلام. بيروت 1963م.
- 182 - هوبكنز ج. ف. ب:  
النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى. ترجمة أمين  
توفيق الطيبي الدار العربية للكتاب ليبيا. تونس. 1980م.
- 183 - هريدى يحيى:  
تاريخ الفلسفة الاسلامية في القارة الافريقية. مكتبة النهضة  
المصرية. 1966م.
- 184 - واضح الصمد:  
الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي. ط 1.  
بيروت 1402هـ / 1981م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر  
والتوزيع.

- 185 — الورجلاني:  
(أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراقي) ت 570هـ / 117م.  
الدليل والبرهان. طبعة حجرية. المطبعة البارونية القاهرة  
1306هـ .
- 186 — الوسياني  
أبو الربيع سليمان عبد السلام: (ق 6هـ / 12م).  
سير مشايخ المغرب. تحقيق وتعليق. اسماعيل العربي ديوان  
المطبوعات الجامعية 1985م الجزائر.
- 187 — ول ديورانت:  
قصة الحضارة. ترجمة السيد بدران. الادارة الثقافية ول العربية.  
ط. 3. 1973م.
- 188 — الونشريسي  
أحمد يحيى: (ت 914هـ).  
المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية  
والأندلس والمغرب اشراف الدكتور محمد حجي. دار الغرب.  
الاسلامي بيروت 1401هـ / 1981م.
- 189 — يحيى بن آدم القرشي:  
كتاب الخراج. تحقيق أبو الأشبال محمد لاهور 1395هـ.
- 190 — يحيى بن عمر  
(ق 3هـ / 9م).  
أحكام السوق. صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدربد  
1956م نشر محمود مكي.
- 191 — يحيى معمر:  
الاباضية بين الفرق الاسلامية. القاهرة 1976م.  
الاباضية في موكب التاريخ. القاهرة 1966م.
- 192 — اليعقوبي  
(أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) ت 284هـ / 897م.



- البلدان: نشر م. ج. جوية. ط. 2. بريل. ليدن. 1892م.  
وصف افريقية الشمالية. مأخوذ من كتاب البلدان اعتناء ونشر.  
هنرى بريس. الجزائر 1380هـ.
- 193 — اليعلاوى محمد:  
الادب بافريقية في العهد الفاطمي. دار الغرب الاسلامي. بيروت  
ط. 1. 1986م.
- 194 — أبو اليقظان  
ابراهيم بن الحاج عيسى الميزاني. ت 1393هـ / 1973م.  
ديوان ابي اليقظان. ط. 1. المطبعة العربية. الجزائر 1350م.
- 195 — النجاني محمد بن محمد:  
سيرة الحاجب جعفر. تحقيق ونشر ايفانوف. مجلة كلية الاداب  
القاهرة ج. 4. ج. 1. مارس 1936.
- 196 — أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم:  
كتاب الخراج. القاهرة 1302هـ

## الأبحاث

- 1 — ابن تاويت محمد:  
دولة الرستميين. صحيفة معهد الدراسات الاسلامية. مدريد  
1957م.
- 2 — احسان عباس:  
الاجتمع التاهرتي في عهد الرستميين. الاصاله. جمادى الأول  
1395هـ / ماي 1975م.  
مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد. الاصاله محرم 1397هـ /  
جانفي 1977م.
- 3 — أحمد عبد المنعم البهي:  
العرب والزراعة. مجلة العربي. الكويت يونيو 1970م.
- 4 — اطفيش ابو اسحق.  
مادة العزابة دائرة المعارف الاسلامية الجزء الثالث.

- 5 — باشا ولدت السويسي نجاة:  
التجارة في المغرب الاسلامي. تونس 1976م.
- 6 — ج — ايغر:  
مادة ( أودغشت ) دائرة المعارف الاسلامية الجزء الثالث.
- 7 — بلحميسي مولاي:  
مدينة المديّة عبر العصور ضمن كتاب تاريخ المدن الثلاث. الجزائر  
1392هـ / 1972م.
- 8 — بوروية رشيد:  
الفن الرسمي بتاهرت وسدراته. الاصالّة. ع. 41. محرم  
1397هـ / جانفي 1977م. الجزائر.  
أشير عاصمة بني زيوي. مجلة الاصالّة ع 12.
- 9 — بيكر:  
دلال. دائرة المعارف الاسلامية. ج. 9. ص: 257.
- 10 — الحبيب الجنيحاني:  
تاهرت عاصمة الدولة الرستمية. المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية.  
عدد. 40. 43. تونس 1975.  
السياسة المالية للدولة الفاطمية. مجلة الاصالّة نوفمبر 1977م.  
العلاقات السياسية والاقتصادية بين افريقية والمغرب الاوسط.  
جريدة الشعب الجزائر 10 — 2 — 1979م.
- 11 — حليمي عبد القادر:  
اثر التصاريص في تخطيط مدينة الجزائر ضمن كتاب تاريخ المدن  
الثلاث. الجزائر. 1392هـ / 1972م.
- 12 — حبيب الزيات:  
الصيارفة في الاسلام. مجلة الشرق. تشرين الاول كانون الاول  
1937هـ بيروت ص: 491 — 496.
- 13 — شاليتي:  
الحسبة بافريقية والاندلس. دفاتر تونسية C.T. عدد 69 — 70م.  
ص: 87 — 105.

- 14 — العبادي أحمد مختار:  
سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس. صحيفة المعهد المصري  
مدريد 1957م
- 15 — عبد العزيز الدوري:  
نشوء الاصناف والحرف في الاسلام. مجلة كلية الاداب بغداد  
1939م.  
نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية. مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد  
20. 1970م.
- 16 — فخار ابراهيم:  
بنو برزال المسيلة في البرازيل. مجلة التاريخ الجزائر. 1981.  
بنو برزال. مجلة الثقافة. عدد 20. ماي 1974.  
الجماعات الاباضية في شمال افريقية. مجلة الثقافة عدد 3. سبتمبر  
1971م.
- 17 — فيل فرد مالونغ:  
ثورة ابي يزيد الحارجي. جريدة الشعب الجزائر 18 — 19 — 2  
— 1979م.
- 18 — لقبال موسى:  
طبة بين ماض حافل وعريق وحاضر متواضع غريب. المجاهد الثقافي.  
ماي 1968.  
من قضايا التاريخ الرستمي. الاصاله عدد 41. محرم 1397هـ /  
جانفي 1977م.  
زنانة والاشراف الحسينيون في مجال تلمسان والمغرب الارسط  
مجلة الاصاله ع. 26.  
المعز لدين الله وجيل جديد من كتامة من خلال وثيقة فاطمية  
معاصرة. مجلة الاصاله عدد 29 — 30. محرم صفر 1396هـ  
جانفي — فيفري 1976م.  
وحدة الخلافة الاسلامية. مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 12  
ديسمبر 1974م.

الحلف بين اهل السنة والنكارية في القرن الرابع الهجري العاشر  
الميلادي. الاصلة عدد 60 — 61.

- 19 — لونغ وورث دامز:  
مادة دهقان دائرة المعارف الاسلامية ج. 9.
- 20 — ج. مارسيه:  
تاهرت: دائرة المعارف الاسلامية ج. 10. ص: 92 — 95.
- 21 — محمد شوقي الفنجرى:  
الاسلام ومشكلة الفقر. مجلة العربي الكويت عدد 69.
- 22 — محمد اليعلاوي:  
بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانيء الاندلسي.  
مجلة الاصلة عدد 24 ربيع الأول ربيع الثاني 1395 هـ / مارس  
— افريل 1975.
- 23 — محمود مكى:  
التاهرتي بكر بن حماد. مجلة العربي عدد 53. افريل 1963م  
الكويت.
- 24 — المهدي ابو عبدلي:  
نحات من دور الدولة الرستمية في ميادين الحضارة والفكر  
لبعض القدماء والتأخرين. الاصلة ع. 41. محرم 1397 هـ /  
جانفي 1977.
- الحياة الفكرية في بجاية. مجلة الاصلة ع. 19. خاص ببجاية  
صفر ربيع الاول 1394 هـ / مارس افريل 1974م.
- 25 — مؤنس حسين:  
فزان ودورها في انتشار الاسلام في افريقيا مجلة كلية الأدب  
ليبيا. 1969م.
- 26 — هشام البساط:  
التقد العربي في التراث. المصارف العربية ج. 3. ع. 30.  
جزيران (يونيو) 1980م ص: 23 — 46.
- 27 — دائرة المعارف الاسلامية:  
مادة شطرنج ج. 13.

مادة بسكرة.

مادة سكة ج. 12.

مادة السوق ج. 12.

مادة ذراع، دائق، ديتار، درهم ج. 9.

## قائمة المراجع باللغات اللاتينية

- Iben - ALAWAM: Le livre de l'agriculture, traduit de l'arabe par J.J. Clément Mailet Paris 1964 In - 8° 2Vol.
- BASSAC: 'Sidjilmassa' B.S.G.A.A.N. 1930.
- L. De Beylie: La Klaa des beni hammad. Un capitale berbère de L'Afrique du nord au XI<sup>e</sup> Siècle Paris 1959.
- Brunschvig:
  - Mesure Tunisiennes A.I.E.O. 1937.
  - Mesure de capacité R.A. 1935.
- R. Bourouiba: Tahert à L'époque Rostemide Algérie Actualité N° 495 1975.
- G.W. Bovill.
  - Caravans Of the old sahara. London 1935.
- Cheikh bekri: Le Kharidjisme berbérie. extrait des annales de L'institut d'études orientales T. XV. 1997 Alger.
- G.S Colin: Monnaies de la période Idrisite trouvés à volubilis.
  - Hespérés 1936 T. XXII Fase 1.
- E. Demougeot:
  - Le chameau et L'Afrique du nord Normaine A.E.S.C. Mars avril 1930.
- Denise Robert, serge Robert et Jean Devisse:
  - Tegdaoust 1. Recherches sur Aoudeghost T.1. Paris 1970.
- R. Dozy:
  - Supplément au dictionnaires arabes T. 1. 11. 2<sup>me</sup> éd. leide Paris 1927.
- Farrigia Canadia:
  - Monnaie Fatimites R.T. 1936 3<sup>me</sup> et 4<sup>me</sup> trim.
- E.F. Gautier:
  - L'or du Soudan dans L'Histoire A.H.E.S. 1935.
- M. Gil:
  - THE RHadhanite merchants and the land of Radhan J.E.S. H.O. VOL XVII 13.
- S.D. Goitein:
  - THE main Industries Of the Méditerrananean Area as reflected in the records Of the cairo Geniza J.E.S.H.O. 1961 V. IX August.
- GOLVIN:
  - Le Maghreb central à L'époque de Zirides Paris 1957.
- Hassan Ibrahim Hassan:
  - The relations between the fatimide and the umayyads in Spain 4<sup>me</sup>cece Bulletin Of arts caire university VOL X. part II Décembre 1948.
- Imammudin:

- Some aspects Of the socio - économic and cultural History of Muslim Spain 711 - 1492 AD. Leiden Brill 1965.
- Bayt almal and Bank in the Medieval world I.C. 1961.
- H.R. Idris:
  - La berberie orientale sous les Zirides. Adrien Maisonneuve Paris 1962.
- Les courtiers en vêtements en Afriqiya au IX. Xs J.E.S. H.O 2. 1962 PP. 160. 194.
- Commerce maritime et kirad en berberie Orientale J.E.S.H.C. 3- 1961 PP. 225.
- Lavoix:
  - Catalogue des monnaies musulmanes de la B. Nationale de Paris 1831.
- N. Levtzion:
  - Ibn Hawqal, the cheque and awdaghost J.A.H. 1968.
- Levi - provençal
  - Histoire d'Espagne musulmane Ed. G.p: Maisonneuve Paris 1930.
- T. Lewicki:
  - Arabic external sources for the history of Africa the south of sahara : krako 1969.
  - Notice sur le chronique Ibadite d'ad. Dargini R.C. 1936 T.X. 1.
  - Mélanges berbers Ibadites R.E.I, 1936.
  - Un chronique ibadite, As. Siyar d'Abul Abbas As Samahi R.E.I. 1934.
  - Etude Ibadites Nord Africaines 1. Wars Zawa 1955.
  - La Répartition géographique des groupements Ibadites dans L'Afrique du nord au Moyen Age R.O. t. 21. 1957.
  - Les Subdivision de L'Ibadiyya S.I. 9. 1958.
- L'Afrique du nord du VIII au VIème Siècle F.O. vol III 1961. 62. P.1. 134.
- Les premiers commerçants arabes en chine R.O. vol XI 1935 P. 173. 186.
- Un documents ibadites inédit sur l'émigration des nafusa du Gabal F.O T.1.2 1959.
- Les Ibadites in tunisie au Moyen Age, conferenze publicata a cure Accademia di Scienze lettere Rome 1959.
- Quelques extraits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires Ibadites Nord Africaines au pays du sudan F.O. 1960. 61.
- L'état nord africain de tahert et ses relations avec le soudan occidental è la fin du VIII<sup>me</sup> et au IX<sup>me</sup> siècle C.E.A. N°8 1962.
- The Ibadites in Arabia and africa J.W.H. Unesco 1971 XIII. I.
- Traits d'histoire du commerce transsaharien marchands et missionnaires Ibādites en soudan occidental et au cours des VIIIème - XIIème Siècles Etnographia polska vol VIII 1964.
- M. Lombard:
  - L'or Musulman du VII - XIème S. A.E.S.C. Avril - Juin 1942 N°2.
- R. Lopez and I.W. Raymond:
  - Medieval trade in the Méditerrananean World New - york 1955 printed in G. Britain Glasgow:

- Les poteries et faïences de la kalaa des beni - hammad, Constantine 1978.
- Notes sur un poids de verre du VIII<sup>ème</sup> S. A.I.E.O. 1937.
- La Berberie au IX<sup>ème</sup> Siècle d'après Alyagubi R.A. N° 386 - 387 1<sup>er</sup>R et 2<sup>ème</sup> trim. 1941.
- G. Marçais et Dessus - Lamare:
  - Tihert Tagdemt R.A. 1946.
- Margeurite von Brechem, Sedrata Ici Alger N° 18 NOV. 1953.
- Mas - Latrie:
  - Traité de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen Age plon Paris 1968.
- R. Mauny:
  - Notes sur Aoudaghost B.I.F.A.N. 1942 T. N° 1. 2.
  - Notes d'archéologie au sujet de GOP B.I.F.A.N. 1951.
- Muhamed Abdul - Jabbar:
  - Agriculture and Irrigation labourers I.C. N°1 VOL. XI. VII. 1970.
- T. Muhammed: Les courtiers en vêtements en Ifriquiya au IX - X<sup>ème</sup> Siècle. J.E.S.H.O. 2. 1962. PP 160. 194.
- A. Negre:
  - Le fin de l'état rostamide R.H.C.M. Juillet 1967 N° 6. 7.
- M. Posnanski:
- GHana and the origins of west Africa trade A.Q. 1971. VOL XI N°2.



## فهرس المحتوى

المقدمة:	3 — 4
التمهيد:	5 — 8
الفصل الاول:	9 — 76

الزراعة.

الزراعة في الاسلام.

— نظام الارض: ارض العنوة، اراضي الصلح، اراضي اسلم عليها اهلها  
طوعا

— انواع الاراضي:

1 — الاراضي السلطانية	2 — اراضي الخراج
3 — اراضي العشر	4 — اراضي الاقطاع
5 — اراضي الملك	6 — اراضي الوقف
7 — ارض الموات.	8 — الارض المشاعة

— النظام الزراعي	— طرق الزراعة — ازدهار الزراعة
— سياسة الدولة الزراعية	— الحاصلات الزراعية المحاصيل الدخيلة
— النباتات الصناعية	— الري — وسائل الري
— تربية الحيوان	— نظام الرعي — نظام المقاييس

الفصل الثاني:	125 — 192
---------------	-----------

الصناعة

— تصنيف المهن والصنائع — تقسيم العمل — اجناس الحرفيين

— ازدهار الصناعة  
— الصناعات والمهن الرئيسية:

— العراقيل — التنظيم المهني

- صناعة النسيج: أ — الصوف ب
- الكتان ج — الحرير. الصباغة.
- الحياكة والخياطة.
- الصناعة المعدنية: أ — الصناعات
- الحديدية. ب — الصناعات الذهبية. ج
- الصناعات الفضية. د — الصناعات
- النحاسية. هـ — الصناعات الرصاصية.
- الصيرفة.
- الصناعات والمهن الغذائية. الأرحية.
- الخباز — الغرابيل.
- الطباخ — تجفيف الفواكه.
- العطور — عصر الزيتون — صناعة
- الخمر — صناعة الحصر — الصناعة
- الطبية — تصنيع المنتوجات الحيوانية —
- الجزار — الدباغ — الصناعات الخشبية
- الصناعات الفخارية — البناء —
- الصيد — النخاسة — الحمامي.

## الفصل الثالث..... 77 — 124

التجارة الداخلية:

- التجارة — التجارة في الإسلام — شروط
- البيع — نمو التجارة — عراقيل امام
- التجارة الداخلية — الربح — الاسواق —
- التجارة — السلع — الاحتكار — التسعير
- الاسعار — السمسار — الدلال —
- المشرف على السوق — نظام النقود —
- نظام الاوزان — نظام المكايل — نظام
- الحسبة

## الفصل الرابع ..... 193 — 246

التجارة الخارجية:

— العوامل التي ساعدت على ازدهار التجارة الخارجية.

— عراقيل امام التجارة الخارجية — طرق

المواصلات — نظام سير القوافل —

وسائل المواصلات — الصادرات

والواردات — النظم النقدية في التجارة

الدولية — الصيارفة — البنوك —

السفنتجة — الشركات — القراض —

الكراء — الوكالة — مؤسسات في خدمة

التجارة: الفنادق

## الفصل الخامس ..... 247 — 292

المجتمع حسب اقطار المعيشة:

— اهل البادية — اهل الحواجر —

خصائص المجتمع القبلي — الطبقة في

المجتمع البدوي — خصائص المجتمع

الحضري — تقسيم المجتمع الحضري: طبقة

العامة — الفلاحون — مربو الماشية —

المزارعون — اصحاب الملكيات الصغيرة

— اهل الحرف — صغار التجار —

الفتيان — العيارون والشطار والزناطرة

والاحداث — العزابة — المرباطون —

العبيد — طبقة الخاصة وفئة الرؤساء —

فئة المشايخ — فئة المقدمون — الحجاب

— البطانة — الحاشية — الحشم —

الحرس — الشرطة — القضاة — صاحب

بيت المال — اصحاب الدواوين الاخرى

— فئة الشرافة — الجنود — رجال اهل  
العلم — فئة كبار التجار — كبار الملاك  
الموالي.

### الفصل السادس ..... 293 — 338

العادات والتقاليد:  
العصبية — الثأر — الغزو — الاستجارة  
— النحالف — النظام الحربي — الفروسية  
— الشرف — الكرم — الغضب —  
— حسن الجوار — الامانة — القيافة —  
النظافة — تقبيل اليد — الطائع والنجيم  
— خط الرمل — عام الكتف — القرعة  
— الخرافات — الولاية والبراءة — الزواج  
— مكانة المرأة — الولائم — تشجيع العلم  
— الفكاهة — استعمال الكحل والحناء —  
المأكولات والمشروبات — الملابس —  
الملاهي

### الفصل السابع ..... 339 — 388

التطور العمراني:  
سكان البادية — أ — سكني الخيام — ب  
المساكن القارة — المدن — بناء تاهرت  
— مدينة العباسية — سوق حمزة —  
جراوة ابي العيش — تنس — سوق ابراهيم  
— وهران — المسيلة — أشير — أفكان  
— جزائر بني مزغنة — مليانة — المدينة  
— قلعة بني حماد  
الاسوار — الحصون والقلاع — القصور  
— المساكن الخاصة.

بعض المنشآت العمرانية:

## الفصل الثامن ..... 389 — 424

الموارد المالية:

الموارد: الزكاة — الجزية — الخراج  
— العشور — الغنime — المكوس —  
المستغلات — المصادر — أموال  
الامتحان — أموال التطوع — أموال  
الهجرة والفطرة — الاحياس —  
المغارم — موارد أخرى

نظام الجباية

نظام النفقات.

## الفصل التاسع ..... 425 — 482

الازمات والعوارض

الاقتصادية والاجتماعية

مستوى المعيشة — الفقراء — الاغنياء —  
الهجرة — الازمات — الفتن والحروب —  
القحط — الاوبئة — الحرائق —  
الفيضانات — الزلازل — الغلاء —  
الانتفاضات المذهبية وأثر العوامل  
الاقتصادية والاجتماعية فيها:  
انتفاضة النكارية — انتفاضة الواسلية —  
انتفاضة العامة.

## الخاتمة ..... 483 — 490

ثبت المصادر والمراجع ..... 491 — 523

فهرس المحتوى ..... 524 — 529

الجزء طبعه على مطابع

مطابع المطبوعات الجامعية

المساحة المركزية - بن عكنون

الجزائر



ديوان المطبوعات الجامعية  
رقم النشر: 4,07,3102

السعر: 145,00 دج